الصهيونية

وخيوط العنكبوت

د. عبد الوهاب المسيري



آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الصهيونية وخيوط العنكبوت

الصهيونية وخيوط العنكبوت/ عبد الوهاب المسيري
.- دمشـــق دار الفكــــر، ٢٠٠٦ .-٥٧٤ ص؛
٢٥سم.
١- ٣٢٠,٥٦م س ي ص ٢- ٩٠٩,٠٤٩٢٤
م س ي ص ٣- العنوان ٤- المسيري

الدكتور عبد الوهاب المسيري

الصهيونية وخيوط العنكبوت



آفاق معرفة متجددة



الرقم الاصطلاحي: ١٩٥١,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-566-x
الرقم الموضوعي: ٣٢٠
الموضوع: العلوم السياسية
العنوان: الصهيونية وخيوط العنكبوت
التأليف: د. عبد الوهاب المسيري
التنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق
عدد الصفحات: ٥٧٦ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
Http://www.fikr.com
e-mail: info@fikr.com

الإعادة الأولى
١٤٢٨هـ=٢٠٠٧م
ط١ ٢٠٠٦م

المحتوى

مقدمة

يضم هذا الكتاب مقالات عدة تتناول طائفة متنوعة من الأحداث والظواهر المتعلقة باليهودية والصهيونية، وبمسار الصراع العربي الصهيوني. ولأنني لا أؤمن بجدوى ما أسميه الموضوعية المادية المتلقية، التي تتلقى تفاصيل الواقع ثم تسجلها دون تصنيف أو ترتيب بهدف مراكمة المعلومات، فقد حاولت قدر استطاعتي أن أضع الحدث داخل نمط متكرر متجاوز للحدث نفسه وأكثر عمومية منه، بالإضافة إلى وضعه في سياقه التاريخي والثقافي حتى يمكن فهمه في أبعاده المركبة. ويمكنني القول إن هذه الدراسة محاولةٌ لاستخدام الأنموذجات التي طورتها فى **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: أنموذج تفسيري جديد** لتفسير الأحداث والوقائع التى تتناولها المقالات التي يتناولها الكتاب.

وتتسم هذه المقالات بأنها مستقلة بعضها عن بعض، ومع هذا فقد حاولت أن أصنفها بقدر المستطاع في إطار الموضوعات الأساسية الكامنة فيها. فعلى سبيل المثال تتناول الفصول الأولى الموضوعات التي تدور حول بعض جوانب الاستعمار الصهيوني، فيحمل الفصل الأول عنوان «الديموغرافية اليهودية»، أما الفصل الثاني فعنوانه «الهجرة والنزوح»، والثالث عنوانه «جذور الاستعمار الاستيطاني الصهيوني». وتنتقل الدراسة فى الفصل الرابع «صراع المصطلحات والمفاهيم» إلى قضية المصطلح الصهيوني وكيف أنه يعبر عن مفاهيم صهيونية وضرورة الحذر منه، وأطرح في هذا الفصل خطاباً تحليلياً مركباً، أظن أنه قادر على تفسير كثير من جوانب الظاهرة الصهيونية دون اختزالها. والموضوع الذي يتناوله الفصل الخامس («الإعلام الصهيوني») ليس بعيداً تماماً عن موضوع

المصطلح الصهيوني والخطاب التحليلي، إذ أحاول في هذا الفصل أن أحلل بعض الصور المجازية المتواترة في الخطاب الصهيوني، كما أحاول أن أبين بعض الاتجاهات الجديدة في الإعلام الصهيوني. وننتقل فى الفصول التالية (السادس: «خرافة القومية اليهودية»، والسابع: «خرافة الهوية اليهودية»، والثامن: «خرافة الشخصية اليهودية»، والتاسع: «ثقافات الجماعات اليهودية») إلى مفهوم الوحدة اليهودية، وهي المفهوم المحوري فى الأيديولوجية الصهيونية. وتحاول هذه الفصول أن تبين من خلال الأمثلة المحددة والشواهد المتعددة أنه لا يوجد أي تجانس بين أعضاء الجماعات اليهودية، وأن الحديث عن الوحدة اليهودية هو خرافة ابتدعها الصهاينة والمعادون لليهود واليهودية على حد سواء لإسباغ الشرعية على المشروع الصهيوني.

ثم تنتقل الدراسة فى الفصل العاشر («الإدراك الصهيوني للواقع») والحادي عشر («رحلة في العقل الإسرائيلي») إلى عالم الإدراك، فأحاول أن أبين كيف يدرك الإسرائيليون واقعهم وواقع الفلسطينيين، فهذا الإدراك، وليس الواقع المادي المباشر، هو الذى يحدد كثيراً من جوانب إدراكهم واستجابتهم لما يقع لهم من أحداث.

ويتناول الفصلان الثاني عشر («العداء لليهود واليهودية») والثالث عشر («الصهيونية والنازية») موضوع «معاداة السامية »، وهو مصطلح لا معنى له باللغة العربية، ولذا أترجمه «بالعداء لليهود واليهودية». وقد طرحت تفسيرات تتسم بشيء من الجدة للظواهر التي يتناولها الفصلان.

وأبين في الفصل الرابع عشر («خرافة البروتوكولات») مدى تهافت البروتوكولات والفكر التآمري بشكل عام، وأحاول أن أبين أسباب شيوعها. ويضم الفصل الخامس عشر («ولكنه ضحك كالبكاء») بعضَ المقالات ذات الطابع الفكاهي والتي تتناول بعض التناقضات التي تسم حياة المستوطنين الصهاينة.

ويتناول الفصل السادس عشر والأخير («نهاية إسرائيل») موضوعاً يحجم الإعلام العربي الرسمي عن تناوله، بينما لا يتردد الإعلام الصهيوني في ذلك. فهاجس نهاية إسرائيل يطارد الإسرائيليين دائماً. وقد حاولت بقدر المستطاع أن تكون مصادري في هذا الفصل صهيونية/إسرائيلية.

والدراسات التي يضمها الكتاب هي في الأصل مقالات ودراسات نشرت في عدد من الجرائد والمجلات ومعظمها في جريدة الاتحاد الإماراتية عبر العامين الماضيين. وسيلاحظ القارئ بعض التكرار، ولكن هذا ينبع من الأساس التصنيفي الذي اتبعته، أي من وضع المقالات داخل نمط متكرر لأنها تنبع من رؤية فكرية واحدة ولأنها ثمرة المنهج التفسيري نفسه. ومع هذا حاولت أن أقلل من حدة هذا التكرارعن طريق الإيجاز أحياناً، وأحياناً أخرى عن طريق التعبير عن الفكرة نفسها بأسلوب مختلف.

وقد قام أصدقائي والدكتور محمد هشام (جامعة حلوان) والأستاذة منى محمود البقلي بقراءة مخطوطة هذا الكتاب وإدخال الكثير من التعديلات عليها. كما قامت الأستاذة أماني عبد الخالق بإعدادها للنشر. فلهم مني جزيل الشكر وعند الله الجزاء. والله من وراء القصد.

عبد الوهاب محمد المسيري

دمنهور - القاهرة

يوليه ٢٠٠٦

الفصل الأول

الديموجرافية اليهودية

● الديموجرافية اليهودية حتى العصر الحديث

يجدر بنا عند تناول المسألة اليهودية وظهور الصهيونية في العالم الغربي أن ندع جانباً نظرية المؤامرة والشر اليهودي الأزلي، ونبحث عن الأسباب السياسية والاجتماعية التي أدت إلى تفشي الظاهرتين المتلازمتين: العداء لليهود والصهيونية في نهاية القرن التاسعَ عشر في الغرب. ومن الأسباب السياسية والاجتماعية التي لم ينتبه لها كثير من الباحثين البعد الديموجرافي لهاتين الظاهرتين، ولكثير من الجوانب الأخرى لتواريخ الجماعات اليهودية.

تقول التقديرات التخمينية إن تعداد العبرانيين في عام ١٠٠٠ ق.م بلغ نحو ١,٨٠٠,٠٠٠. ولكن هناك من يذهب إلى أن هذا العدد مُبالغ فيه، ففلسطين بلد صغير، مواردها فقيرة، ومستوى تطور سكانها التكنولوجي آنذاك كان منخفضاً، فكيف كان من الممكن أن تمد مثل هذا العدد بأسباب الحياة (مع العلم بأن عدد سكان مصر آنذاك بكل إمكاناتها كان ستة ملايين) ولعل فقر فلسطين آنذاك ووقوعها بين الإمبراطوريات العظمى في الشرق الأدنى القديم جعلها نقطة عبور لكثير من جيوشها ونقطة ارتكاز لها. وقد أدى هذا إلى هجرة أعداد كبيرة من العبرانيين، ليعملوا جنوداً مرتزقةً في البلاد المجاورة، أو تجاراً في حوض البحر المتوسط، أي أن هذا هو بداية ما يسميه الصهاينة «الشتات» أو «الدياسبورا».

مهما كان الأمر، فقد تناقصت أعداد العبرانيين حتى بلغ نحو مليون ومئة ألف نسمة حوالي عام ٧٢٠ ق. م، ثم انخفض هذا العدد مع التهجير الآشوري والبابلي (٧٢١ ق.م و٥١٧ ق.م على التوالي) فلم يتجاوز عدد العبرانيين ١٥٠ ألفاً. وهذا الرقم الأخير يُلقي بظلال كثيفة من الشك على الأرقام المليونية السابقة، لأن الآشوريين والبابليين كانوا يقومون بتهجير أعضاء النخب الحاكمة للأقوام التي يهزمونها وحسب، مما يعني أنهم كانوا يتركون أغلبيتهم في مواطنهم. وقد انصهر معظم المهجرين العبرانيين في البلاد التي هُجِّروا إليها (ومن هنا كان الحديث عن «الأسباط العشرة المفقودة» والتي يجب أن تصبح في واقع الأمر «الأسباط العشرة المنصهرة») كما ازداد اندماج من تبقى من العبرانيين في فلسطين والشعوب المحيطة بها.

ولكن الصورة اختلفت تمامًا مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد، إذ كان عدد اليهود آنذاك - حسب بعض التقديرات التخمينية - يبلغ حوالي ٨ ملايين، بينما تذهب بعض التقديرات التخمينية الأخرى إلى أن عددهم لم يكن يتجاوز خمسة ملايين. ويمكن أن نشير إلى طفرتين سكانيتين في تاريخ أعضاء الجماعات اليهودية وهذه أولاها، وهي تعود إلى عدة أسباب؛ من بينها قيام الدولة الحشمونية بتهويد بعض القبائل والشعوب المجاورة التي وقعت تحت سيطرتها، كما أن الفريسيين قاموا بحركة تبشيرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد طوروا مفهوماً لليهودية جعل منها ديانة عالمية منفتحة.

ويبدو أن ازدياد العدد يرجع إلى عدة أسباب من بينها قيام الدولة الحشمونية بتهويد بعض السكان غير اليهود داخل حدودها، مثل الإيطوريين وبعض الشعوب المجاورة مثل الأدوميين الذين حكمت أرضهم. وقد قام الفريسيون بحركة تبشير ضخمة لاقت نجاحاً غير عادي بسبب أن الوثنية الرومانية بدأت تدخل مرحلة الأزمة التي أدَّت في نهاية الأمر إلى سقوطها وإلى تَبنِّي الرومان للمسيحية ديناً رسمياً. و قد انتشرت اليهودية بين أعداد كبيرة من الرومان، من بينهم بعض أعضاء النخبة الحاكمة، في الفجوة الزمنية التي تفصل بين بداية الضعف والاضمحلال وبين السقوط النهائي وتَبنِّي المسيحية من حيث هي دين وعقيدة تفسر الكون لأتباعها وتمنحهم الإجابات للأسئلة الكونية الكبرى التي تجابههم .

ويبدو أن ما يُسمَّى «السلام الروماني» (باللاتينية: باكس رومانا pax romana)، الذي ساد المناطق التي كان يعيش فيها أعضاء الجماعة اليهودية، قد وفر من الأمن والطمأنينة ما شجع اليهود على التزايد. وربما كانت بداية اشتغال اليهود بالأعمال التجارية تعني ارتفاع مستوى المعيشة والابتعاد عن المهام القتالية، وهو ما كان يعني تناقص نسبة الوفيات.

وأخيراً، يُقال إنه بعد سقوط قرطاجنة، انضمت الدياسبورا الفينيقية والقرطاجية إلى أعضاء الجماعات العبرانية اليهودية بعدِّهم جميعاً ساميين ينتمون إلى التشكيل الحضاري نفسه وبعدِّهم مضطلعينَ بالوظيفة نفسها.

وقد بدأت الصورة تأخذ شكلاً مغايراً مع بدايات العصور الوسطى في الغرب والعصر الإسلامي في الشرق، حيث اختفت أعداد كبيرة من اليهود من خلال عمليات الاندماج والانصهار. فمع ظهور المسيحية، تَنصَّرت أعداد ضخمة من اليهود، كما حدث في الإسكندرية على سبيل المثال. ومع انتشار الإسلام، تبنت أعداد كبيرة منهم الدين الجديد، وتحولت الجماعات اليهودية إلى جماعات صغيرة متناثرة. وكان من الصعب تخمين عدد اليهود في العالم آنذاك إذ إن الإحصاءات كانت متناقضة للغاية، ففي العالم الإسلامي كانت الإحصاءات غير موثوق بها، وفي أوربة لم توجد سجلات إحصائية. ومع هذا، ترى معظمُ المراجع أن عدد اليهود في العالم كان يتراوح بين مليون ومليونين، وأن أغلبهم (٨٥ - ٩٠٪) قد تركز في العالم الإسلامي مع نهاية القرن الثاني عشر. ولكننا نفضل الأخذ بالرقم مليون، خصوصاً في ضوء الأعداد اللاحقة، حيث أن عدد يهود أوربة لم يكن يزيد على نحو ١٠٠ - ٣٥٠ ألفاً (من مجموع سكان أوربة البالغ ٥٣ مليوناً) ووصل العدد إلى ٤٥٠ ألفاً في عام ١٣٠٠ (٣٠٠ ألف فقط عند روبين) من مجموع ٥٣ مليوناً كان معظمهم مُركَّزاً في إسبانية. وقد بلغ تعداد يهود العالم في القرن الخامس عشر حسب أحد التخمينات الإحصائية نحو مليون وخمسمائة ألف.

الديموجرافية اليهودية في العصر الحديث كانت أغلبية يهود العالم من السفارد المستقرين في حوض البحر الأبيض المتوسط: روما - الإسكندرية - إسبانية - المغرب (التابعة للدولة العثمانية)- سالونيكة - إيطالية - فرنسة، ومن يهود العالم الإسلامي، ولم يكن الأشكناز من يهود أوربة سوى أقلية صغيرة. ثم تغيَّرت الصورة

متدرجةً ابتداءً من نهاية القرن الخامس عشر حتى أصبح الأشكناز هم الأغلبية العظمى.

ولتفسير ذلك الوضع، يجب الوقوف عند ظاهرة تزايد عدد أعضاء الجماعة اليهودية في بولندة وتَحوُّلها إلى أكبر الجيوب اليهودية في العالم. وتقول الإحصاءات إن عدد يهود بولندة (في عام ١٥٠٠) كان يبلغ نحو ١٠ - ١٥ ألفاً، ولكنه زاد فجأة إلى ١٥٠ ألفاً بين عامي ١٥٠٠ و١٦٤٨. وتقول الموسوعة اليهودية إنهم أصبحوا بذلك أكبر تَجمُّع يهودي في العالم إذ كان قد تم طرد يهود إسبانية.

واستمرت الزيادة حتى بلغ عدد اليهود في العالم في أواخر القرن السابعَ عشر نحو مليونين، حسب رأي آرثر روبين، نصفهم سفارد ويهود من العالم الإسلامي والنصف الآخر إشكناز (في أوربة) إذ إنَّ عدد يهود أوربة كان أساساً في بولندة ويبلغ ٥٠٠ ألف حسب هذه التقديرات. ولكن، مع العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر (عام ١٧٧٠)، بلغ عدد يهود العالم مليونين و٢٥٠ ألفاً، غالبيتهم العظمى (١,٧٥ مليون) في أوربة، منهم ١,٢ مليون في بولندة وحدها، أي أن يهود أوربة أصبحوا يهود بولندة. وفي عام ١٨٠٠، بلغ عدد يهود العالم وفقاً لتقديرات روبين، مليونين ونصف مليون، منهم مليون وخمسمائة ألف في أوربة ومليون في الشرق.

وقد بيَّن آرثر كوستلر في كتابه عن يهود الخَزَر أنه لا يمكن تفسير هذا الانقلاب السكاني إلا بما يسميه «الشتات الخَزَري»، أي انتقال يهود الخَزَر، بعد سقوط مملكتهم، إلى شرق أوربة وخصوصاً بولندة. ولا يختلف المؤرخون الآن في أن أعداداً من يهود الخَزَر استقرت في بولندة، ولكنهم يختلفون حول حجم هذا العدد. ونحن، على أية حال، نميل إلى الأخذ برأي كوستلر لأنه، على الأقل، يفسر ظاهرة محيِّرة لا يمكن تفسيرها من خلال أية فرضية أخرى.

وقد صاحب زيادة يهود أوربة انخفاض تعداد يهود العالم الإسلامي الذين بلغ عددهم ٦٠٠ ألف في عام ١٨٠٠. ويذهب روبين إلى أن عددهم لم ينخفض وإنما ظل على ما كان عليه. ولذا، فهو يرى أن عددهم ظل يدور حول مليون.

ولكن، بعد انعقاد مؤتمر فيينة في عام ١٨١٥، بدأت مرحلة جديدة تماماً إذ حدث انفجار سكاني بين اليهود. فإذا كان عدد اليهود في عام ١٨٠٠ هو مليونان وخمسمائة ألف، منهم مليون يهودي في الشرق ومليون ونصف في الغرب، وفي

عام ١٨٨٠ كان يبلغ عدد اليهود في العالم ٧،٧٥٠،٠٠٠ يوجد ٦،٥٥٨،٠٠٠ (أي ٥، ٨٨٪) يعيشون في أوربة و٦٢٠ ألفاً فقط (أي ٨٪ يعيشون في آسية وإفريقية، و٢٥٠ ،٠٠٠ يعيشون في أمريكة الشمالية والجنوبية وأسترالية. فقد بلغ هذا العدد عشية الحرب العالمية الثانية نحو ١٦,٧٢٤,٠٠٠. ومعنى ذلك أنهم زادوا ستة أضعاف في أقل من ١٥٠ عاماً. كما يعني أن الظاهرة اليهودية أصبحت ظاهرة غربية.

لكن الزيادة في أوربة لا يمكن تفسيرها إلا على أساس زيادة نسبة المواليد وقلة نسبة الوفيات. ومع هذا، يُلاحَظ أن نسبة زيادة أعضاء الجماعات اليهودية كانت أعلى من النسبة العامة في أوربة، ولعل هذا يعود إلى أن أعضاء هذه الجماعات كانوا يعيشون تحت الظروف نفسها التي أدَّت إلى زيادة سكان أوربة، وتحت ظروف أخرى خاصة بهم ساهمت في رفع النسبة عن النسبة العامة في أوربة. فيُلاحَظ أن تَحسُّن الأحوال الصحية، نتيجة الثورة الصناعية في أوربة، قد ترك أثره الإيجابي في أعضاء الجماعات اليهودية، ولكن يبدو أن المستوى الصحي داخل الأحياء اليهودية كان أعلى من المستوى الصحي العام بسبب الرقابة على اللحوم والأطعمة نظراً لتطبيق قوانين الطعام.

وفي شرق أوربة، حيث تَركَّز معظم اليهود، كان دخل أعضاء الجماعة اليهودية أكثر ارتفاعاً وكان أسلوب حياتهم أكثر راحة ووفرة من دخل وأسلوب حياة معظم الجماهير الفلاحية، كما كان أعضاء الجماعة يتمتعون بمستوى ثقافي أعلى. وقد انعكس هذا، بطبيعة الحال، على نوعية الطعام الذي يستهلكونه وأدَّى إلى اختفاء أو تناقص الأمراض المرتبطة بالفقر وسوء التغذية. وكانت الأسرة اليهودية تتمتع بدرجة عالية للغاية من التماسك الناجم عن التمسك بالقيم الدينية والتقليدية، بقدر يفوق كثيراً تَماسُك الأسر غير اليهودية. ويظهر هذا في إحصاءات الأطفال غير الشرعيين، حيث كانت نسبتهم إلى اليهود في كثير من الأحيان أقل بدرجة ملحوظة من نسبتهم إلى غير اليهود. والعنصران السابقان يسهمان معاً في خفض نسبة الوفيات بين الأطفال كما يشجعان على الإنجاب.

ومن أهم العناصر الأخرى التي ساعدت على هذا الانفجار زواج اليهود في سن مبكرة للغاية. فقد كان من الشائع أن يتزوج الشبان من سن ١٥ إلى ١٨ بفتيات

من سن ١٤إلى ١٦. وكانت الحكومات المركزية القومية المطلقة في روسية والنمسة تلجأ أحياناً إلى تحديد سن الزواج وعدد المسموح لهم بالزواج (نتيجة شيوع آراء مالتوس ولغير ذلك من الأسباب). وحينما كانت الشائعات تنطلق حول أحد القوانين وشيكة الصدور، كان اليهود يسرعون بتزويج كل صغار السن قبل صدوره. وفي إحدى الإحصاءات البولندية (في القرن الثامن عشر)، ورد ذكر لزوجة عمرها ثماني سنوات. وفي عام ١٧١٢، منعت السلطات في أمستردام زواج طفلين يهوديين تحت سن الثانية عشرة. ومن العناصر الأساسية التي ساهمت في تزايد عدد اليهود أن الفترة من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٩١٤ لم تشهد الأماكن التي يوجد فيها أغلبية يهود العالم أية حروب، بل إن معارك نابليون وقعت بعيداً عن مراكز التجمع اليهودي. وعلاوة على كل هذا، لم تكن هناك دول كثيرة تقوم بتجنيد اليهود، ففي روسية القيصرية، لم يبدأ تجنيدهم إلا عام ١٨٢٧، ولم يُجنَّدوا في بولندة حتى عام ١٨٤٥، ولا في الدولة العثمانية حتى عام ١٩٠٨. وأما المذابح التي تطنطن بها المراجع الصهيونية، فلم يقع ضحيتها سوى بضع مئات طيلة هذه الفترة. وقد استمر تزايد أعضاء الجماعات اليهودية حتى بداية القرن العشرين.

وقد تزايد عددهم منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين حوالي خمسة أضعاف، كما هو مبين في الجدول الآتي:

	١٨٠٠	١٨٤٠	١٨٨٠	١٩٠٠	١٩١٤	١٩٣٨	١٩٤٨
أوربة (تشمل روسية)	١,٥٠٠	٣,٩٥٠	٦,٨٥٨	٨,٩٠٠	٩,١٠٠	٩,٥٠٠	٣,٧٠٠
آسية	–	٣٠٠	٣٧٠	٥١٠	٥٠٠	١,٠٠٠	١,٣٠٠
إفريقية، الشرق الأوسط	١,٠٠٠	١٩٨	٢٥٠	٣٧٥	٤٠٠	٦٠٠	٧٠٠
أمريكة الشمالية والجنوبية	–	٥٠	٢٥٠	١,٢٠٠	٣,٥٠٠	٥,٥٠٠	٥,٨٠٠
أسترالية	–	٢	١٠	١٥	–	–	–
المجموع	٢,٥٠٠	٤,٥٠٠	٧,٧٣٨	١١,٠٠٠	١٣,٥٠٠	١٦,٦٠٠	١١,٥٠٠

• الديموجرافية اليهودية وظهور الصهيونية

وقد تزامنت الطفرة السكانية بين يهود شرق أوربة (بولندة) مع تعثُّر التحديث في روسية وبولندة، مما أدى إلى تفاقم المسألة اليهودية، خاصة وأن الدولة الروسية القيصرية بدأت عملية التحديث بخطوات سريعة لم تسمح لأعضاء الجماعات اليهودية المرتبطين بالاقتصاد القديم والحرف التقليدية ووظائف لم يعد المجتمع في حاجة لها مثل التجارة والربا، لم تسمح لهم بمواكبة التطور، وبالتالي أصبحوا فائضاً بشرياً وجماعة وظيفية بلا وظيفة. ومما فاقم المشكلة أنه بعد أن ضمت روسيةُ بولندةَ ضمت الجيب اليهودي فيها الذي كان يتحدث اليديشية، ولم تكن البيروقراطية الروسية تعرف هذه اللغة، كما أنها كانت بيروقراطية جامدة فاسدة، أفسدت كل المحاولات المخلصة لحل المسألة اليهودية. وبذلك تحولت الإمبراطورية الروسية إلى بلد طارد لليهود ولغيرهم من الأقليات التي لم يتمكن الاقتصاد الجديد من استيعابهم فأصبحوا أعضاء في جماعات وظيفية لا وظيفة لها. فبدؤوا يتدفقون كالسيل العرمرم على بلدان وسط وغرب أوربة، بما في ذلك إنجلترة التي كان يوجد بها نحو ٢٥ ألف يهودي عام ١٨٥٣، وصل عددهم إلى ٢٤٢ ألفاً عام ١٩١٠، أي بزيادة نحو عشرة أضعاف خلال ستين عاماً في مجتمع متجانس مثل المجتمع الإنجليزي. ورغم صدور تشريعات تَحُد من هجرتهم، فإن عدد يهود إنجلترة وصل عام ١٩١٤، أي عشية وعد بلفور، إلى ما بين ٢٥٠ ألفاً وإلى ٣٠٠ ألف نصفهم من يهود اليديشية، أي أن عدد يهود إنجلترة من يهود اليديشية زاد خمسة عشر ضعفاً خلال ما يقارب أربعين عاماً. وخلق هذا جواً من القلق في إنجلترة، وسادت شائعات تقول إن عدد المهاجرين بلغ ٧٥٠ ألفاً.

ولم يكن عند يهود اليديشية الكفاءات العلمية أو المهنية أو الحرفية التي تحتاجها المجتمعات التي هاجروا إليها، وكانت أعداد كبيرة منهم تجاراً صغاراً متخلفين يحملون معهم إحساساً جيتوياً عميقاً بعدم الأمن والطمأنينة. وأدّى تواجدهم بهذه الأعداد الضخمة إلى ازدياد البطالة وازدحام المدن والجريمة. وفي بداية الأمر انخرط يهود اليديشية في الأعمال اليدوية شبه الماهرة، وخصوصاً في مجال صناعة الملابس الجاهزة. وكان الطلب على الملابس الجاهزة الرخيصة قد بدأ يزداد نسبياً في إنجلترة وغيرها من الدول الصناعية الغربية مع تنامي الطبقات

المتوسطة في هذه البلاد. وكان ميراث يهود اليديشية، على تقديرهم جماعة وظيفية وسيطة، يؤهلهم لدخول هذه المجالات الجديدة والهامشية والتي كانت مازالت تتَّسم بقدر من المخاطرة وتحتاج إلى خبرات تجارية. فعملوا في «ورش العرْق»، وهي مصانع لم تكن ظروف العمل فيها إنسانية، وكان العمال يعملون فيها ساعات طويلة. وأحضروا معهم أطفالهم الذين كانوا يشكِّلون عبئاً ضخماً على المؤسسات الصحية والتعليمية. وكانت ثقافتهم يديشية أساساً ويتحدثون هذه اللغة في الشوارع، كما كانت لهم مطابعهم وجرائدهم ومعابدهم وحاخاماتهم. ولم تكن لهم هوية سياسية أو وضع قانوني محدَّد. كل هذا يناقض وضع يهود إنجلترة السفارد، أو حتى الأشكناز الذين تم صبغهم بالصبغة الإنجليزية والذين كانوا جزءاً من الأرستقراطية المالية وكانت أعدادهم صغيرة وكانوا مندمجين في مجتمعهم الإنجليزي يتحدثون بلغته، ويتمتعون بحقوقهم السياسية والمدنية والدينية الكاملة. وأدَّى هذا الوضع إلى توتر العلاقات بين الفريقين، إذ كان اليهود الإنجليز يعدّون اليهود المتحدثين باليديشية عنصراً غريباً متخلفاً وعنصرياً يهدد مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية. ويضاف إلى هذا أنهم أحضروا معهم المسألة اليهودية من شرق أوربة. وكان يهود اليديشية بدورهم يرَون اليهود الإنجليز باردين ومندمجين في مجتمعهم، منعزلين تماماً عن الحركات السائدة بين أعضاء الجماعات اليهودية في شرق أوربة (الصهيونية والحسيدية والتنويرية) بين يهود الشرق. ولذا، ظل الفريقان كلٌّ منهما بمعزل عن الآخر، كما أنهم لم يتزاوجوا فيما بينهم.

وقد أدى تدفق يهود اليديشية إلى أوربة الغربية والولايات المتحدة بحثاً عن مورد للرزق إلى شعور الجماهير بأن المهاجرين اليهود يهددون الأمن الاجتماعي، ومما زاد الجو توتراً، بالنسبة إلى الجماعة اليهودية، ظهورُ إحساس بين العناصر الاشتراكية الراديكالية بأن اليهود يشكلون جزءاً مهماً من السياسة الإمبريالية الإنجليزية، ومن هنا كان أعداء الإمبريالية أعداء لليهود. وكان عدد اليهود بين المستوطنين الإنجليز في جنوب إفريقية كبيراً، وبعضهم كان على علاقة قوية بملنر ورودس. وقد تحدث جـ.أ. هوبسون (الزعيم الاشتراكي وأهم المثقفين الإنجليز المعارضين للإمبريالية) عن مجموعة صغيرة من الممولين الدوليين « ألمان في أصلهم ويهود في عنصرهم » حققوا نفوذاً قوياً في جوهانسبرج. وقد وصفهم بأنهم الحثالة الحقيقية لأوربة، يسيطرون على حقول الذهب ويحتكرون صناعة الديناميت

وتجارة الكحول السرية. كما يتحكمون مع سيسل رودس في الصحافة، ويتلاعبون بسوق الرقيق، ويديرون الأعمال التجارية الأساسية في كل من جوهانسبرج وبريتورية. ويُلاحَظ أن أعداداً كبيرة أيضاً من يهود إنجلترة، وخصوصاً يهود اليديشية، انخرطوا في صفوف الحركات اليسارية والعمالية والعدمية. وأدَّى هذا إلى ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بأقصى اليمين والرجعية، وبأقصى اليسار والثورية، في وقت واحد. لكل هذا أصبحت قضية الفائض البشري اليهودي قضية أساسية تواجهها المجتمعات الغربية.

في هذا الجو، شُكلت لجنة خاصة لمناقشة هجرة يهود شرق أوربة. وقدمت حكومة بلفور، الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء آنذاك، مشروع قانون عام ١٩٠٢ يُسمَّى «قانون الغرباء» Aliens Act الذي ووفق عليه عام ١٩٠٥. ودافع رئيس الوزراء عن المشروع فأشار إلى أنه لا يمكن تَجاهُل مسألة العرْق بأية حال في أمور الهجرة، كما أشار إلى المشاكل التي حاقت بإنجلترة نتيجة الهجرة اليهودية مؤكداً ضرورة الحد منها. وقد حاولت الدول الغربية تحويل مسار الهجرة إلى أماكن غير أوربة، فكان هناك مشروع الاستيطان في الأرجنتين ومشاريع أخرى مماثلة، لكن استقر الأمر على فلسطين بسبب أهميتها الاستراتيجية وذلك بأن يتم تحويل الجماعات اليهودية التي أصبحت بلا وظيفة إلى جماعة وظيفية عسكرية تحمي المصالح الغربية في المنطقة. ومما له دلالته أن الوزارة البريطانية التي أصدرت قانون الغرباء كان يترأسها لورد بلفور، وأن التصريح بتحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود المعروف باسم وعد بلفور يحمل اسمه. فبريطانية العظمى كانت ترفض دخول الفائض اليهودي إليها، وترحب تماماً بتحويله إلى فلسطين ليقيم دولة تخدم المصالح الغربية، أي أن الحل البريطاني للمسألة اليهودية، هو الحل الغربي الاستعماري لكل المسائل، والذي كان يعني تصديرها إلى الشرق! وبذلك يتم دمج اليهود في الحضارة الغربية من خلال التشكيل الإمبريالي الغربي بعد أن أخفقوا في الاندماج فيها من خلال التشكيل الحضاري الغربي.

وفي هذا الإطار، طُرحت الفكرة الصهيونية، فعارضها اليهود الإنجليز وأيدها يهود اليديشية. وزار هرتزل إنجلترة أولَ مرة عام ١٨٩٥ وألقى خطبة في حيّ إيست إند عن موضوع الهجرة، وكانت هذه أول مواجهة حقيقية بينه وبين يهود اليديشية.

ثم عُقد المؤتمر الصهيوني الرابع (١٩٠٠) في لندن حيث إن يهود إنجلترة الأصليين كانوا من كبار معارضي المشروع الصهيوني، لذلك توجه هرتزل أساساً إلى يهود اليديشية، كما وضع نصب عينيه الوصول إلى السلطات الحاكمة مباشرة لعرض المشروع الصهيوني رقعةً تلتقي فيها المصالح العنصرية والاستعمارية بالرؤية الصهيونية. وفي عام ١٩٠٢، نجح أحد أصدقاء هرتزل في دعوته للمثول أمام اللجنة الملكية، حيث قدَّم حلاً صهيونياً مفاده تحويل الهجرة من إنجلترة إلى أية بقعة أخرى خارج أوربة. وانطلاقاً من هذا، عُرض مشروع شرق إفريقية، ثم صدر وعد بلفور الذي جاء انتصاراً للمنظمة الصهيونية على يهود إنجلترة.

فقامت إنجلترة على سبيل المثال عام ١٩٠٥ باستصدار ما يسمي قانون الغرباء Aliens act الذي يمنع دخول المهاجرين (وكان المقصود هو المهاجرون اليهود من شرق أوربة).

- **لماذا الديموجرافية اليهودية**

بينا علاقة الديموجرافية اليهودية بظهور الصهيونية، فلماذا نهتم بها في الوقت الحاضر؟

يجب علينا إدراك أن الجيب الاستيطاني اليهودي له أهمية استراتيجية بالنسبة إلى الغرب، الذي يقوم على حمايته وضمان أمنه واستمراره طالما أنه يقوم بوظيفته العسكرية. ولكي يقوم بهذه الوظيفة فانه يحتاج لمادة بشرية لتقوم بملأ المستوطنات والحرب ضد السكان الأصليين من الفلسطينيين والبطش بهم لإخضاعهم. ومن ثمَّ نجد أن البعد السكاني (الديموجرافي) مهم للغاية، لأنه لو توقف تدفق أعضاء الجماعات اليهودية من الخارج، فإن مقدرة الجيب الاستيطاني على أن يقوم بوظيفته ستضعف.

وقد جاء في جريدة هآرتس (٣ ديسمبر ٢٠٠٢) أن سالاي ميريدور، رئيس الوكالة اليهودية وعضو الليكود صرح بأنه بدأ يغير آراءه بخصوص فكرة إسرائيل الكبرى لأن ثمة تهديداً ديموجرافياً داخل إسرائيل؛ فتزايد عدد غير اليهود يهدد مقدرة إسرائيل على التحكم في الأراضي التي احتلتها بعد ٦٧، وهذا الأمر «يؤثر دون شك في سياستنا بخصوص الحدود» على حد قوله، أي أن شعار إسرائيل

العظمى أو الكبرى أو كامل أرض إسرائيل التاريخية أو إسرائيل التي تمتد من النيل إلى الفرات، كل هذه الشعارات والأوهام سيلقى بها في سلة المهملات. وهكذا تسقط واحدة من أهم سمات الجيب الاستيطاني الصهيوني، أي اتجاهه التوسعي الدائم، وشراهته لالتهام مزيد من الأراضي الفلسطينية.

وقد طالب ميريدور المؤسسة الحاخامية أن تكون أكثر مرونة في طقوس التهويد لأن معظم المهاجرين الذين يأتون إلى إسرائيل تضم عائلاتهم أعضاء غير يهود. ويبدو أن المؤسسة الحاخامية أدركت مدى عمق الأزمة الديموجرافية، فعلى الرغم من أن اليهودية الأرثوذكسية أو الحاخامية لم تكن تشجع التهويد في الماضي، إلا أنها في مواجهة الأزمة الديموجرافية، طورت شعائر التهويد حتى يمكن تهويد من يريد بشكل سريع. وفي هذا الإطار قام بعض الحاخامات الأرثوذكس بالسفر إلى بيرو حيث قاموا بتهويد ٦٠ عائلة من عائلات السكان الأصليين (الهنود الحمر) بشكل سريع ومرن وقاموا بنقلهم إلى مستوطنة في الضفة الغربية.

وصف يوري أفنيري الجيب الاستيطاني الصهيوني بأنه ليس دولة ديموقراطية وإنما دولة ديموغرافية. وهذا يعود إلى الهوس الصهيوني الخاص بتكاثر أعداد العرب وتناقص أعداد اليهود داخل الدولة الصهيونية، وخوف الصهاينة من زوال ما يسمونه الطابع اليهودي للدولة الصهيونية. ولهذا فان تناقص عدد اليهود في الخارج وعدم هجرتهم واستيطانهم في الدولة الصهيونية يزيد من قلق الصهاينة.

لكل ما سبق فان تناقص عدد يهود العالم (الذين يشار إليهم في الخطاب الصهيوني بأنهم يهود الدياسبورا أو يهود المنفى) يثير هلع المستوطنين الصهاينة.

• عالم آخذ في الاندثار

نشرت جريدة يدعوت أحرونوت (في عددها الصادر في ٢٠ إبريل ٢٠٠٠) مقالاً بقلم سيفر بلوتسكر بعنوان «عالم آخذ في الاندثار»، وكلمة «عالم» هنا تشير إلى «عالم اليهود». وإذا كان أعضاء الجماعات اليهودية قد واجهوا في نهاية القرن التاسع عشر مشكلة تزايد أعدادهم فإن الآية قد انعكست تماماً في القرن العشرين حتى وصلت حد الأزمة في الوقت الحاضر.

وقد أشرنا فيما سبق إلى حدوث طفرتين سكانيتين بين الجماعات اليهودية، الثانية بدأت بعد مؤتمر فيينة عام ١٨١٥ مما أدى إلى تحول اليهود من جماعات دينية إثنية صغيرة إلى جماعات يبلغ بعضها عدة ملايين، وكانت الجماعات اليهودية في شرق أوربة تُعد من أهم الجماعات من الناحية العددية. ولكن رغم استمرار أعدادهم في التزايد إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى إلا أن العوامل التي أدت إلى هذا التزايد اختفت تماماً، كما ظهرت عناصر لم يكن من شأنها تشجيع اليهود على الإنجاب بل أدت إلى تناقص أعدادهم. ومن أهم هذه الأسباب تصاعد معدلات العلمنة، مما يعني تزايد معدلات التوجه نحو اللذة، والعزوف عن الإنجاب. وهذه الفترة هي ما يُعرف باسم فترة «الهجرة اليهودية الكبرى» (من شرق أوربة إلى الولايات المتحدة). والعناصر المهاجرة - بسبب عدم استقرارها - تتخذ موقفاً حذراً من الإنجاب. كما أن غالبية يهود العالم بدأت تستقر في المدن الكبرى والعواصم، ومن المعروف أن سكان المدن لا يتكاثرون بمعدل تكاثر سكان القرى نفسه. كما أن المناطق التي تركز فيها أعضاء الجماعات اليهودية كانت مسرحاً للثورات والحروب (على عكس الفترة من ١٨١٥ - ١٩١٤) ويلاحظ أنه مع تزايد معدلات العلمنة بين أعضاء الجماعات اليهودية زادت معدلات الزواج المختلط والانصهار والتنصر. لكل هذا تناقص عدد اليهود وتزايد الوفيات. وقد أشار يورية إنجلمان في كتابه **ظهور اليهود في العالم الغربي (١٩٤٤)** إلى ما سماه العملية ذات الأبعاد الثلاثة (تناقص المواليد وتزايد الوفيات وتزايد معدلات الاندماج) التي ستؤدي إلى تفسخ السكان اليهود بالكامل؛ وحذّر من أن نسبة المواليد لا تعوض نسبة الوفيات وأن معدلات المواليد بين اليهود في شرق أوربة (قبل الهجوم النازي عليهم وعلى غيرهم من الأقليات) وصلت نقطة الخطر. وفي دراسة بعنوان **اختفاء اليهود الألمان** نشرت عام ١٩٠٨، حذّر صاحبها (ثايلهابز) مما سماه الضعف السكاني الذي قد يؤدي إلى اختفاء يهود ألمانية تماماً.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، وقد ساهم في تناقص عدد اليهود ظروف الحرب مثل المجاعة وسوء الأحوال الصحية وسوء التغذية والغارات على المدن وسقوط القتلى من أعضاء الجماعات اليهودية أثناء المعارك العسكرية وأعمال السخرة وعزل اليهود في مناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف (جيتوات حديثة)، وهو ما كان يعني مزيداً من الجوع والمرض (يُقال إن

نحو ثُلث سكان جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازي قضوا نحبهم بهذه الطريقة، وإن كان من المتوقع لهم جميعاً أن يُبادوا تماماً خلال عدة أعوام). إلى جانب أن عدم الإحساس بالأمن أثناء الحرب يُعد من أهم العوامل التي تجعل الناس يعزفون عن الإنجاب. كما يُلاحظ تزايد معدلات الاندماج والزواج المختلط والتنصر بين أعضاء الجماعات اليهودية. وقد حصل كثير من اليهود على شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية حتى يتسنى لهم دخول أمريكة اللاتينية وآثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر. وينطبق الشيء نفسه على مئات الآلاف من اليهود الذين هاجروا إلى روسية السوفييتية هرباً من النازيين.

وهنا يمكن أن نثير قضية الملايين الستة ضحايا الإبادة النازية لليهود. فحسب بعض الإحصاءات الغربية (أقول بعض وليس كل، فهناك إحصاءات أخرى) انخفض عدد اليهود من ١٦,٥٠٠,٠٠٠ عام ١٩٣٩ (أي عشية الحرب العالمية الثانية إلى ١٠,٨٥٠,٠٠٠، ويستنتج من ذلك أن عدد ضحايا الإبادة النازية هو ستة ملايين. ورغم أن الإبادة النازية ليهود أوربة وغيرهم من الأقليات هي تعبير عن نمط إبادي غربي عام (إبادة السكان الأصليين في أمريكة الشمالية - إبادة السكان الأصليين في أسترالية ونيوزيلندة - إبادة الملايين في إفريقية - الحرب الإبادية ضد ألمانية واليابان في الحرب العالمية الثانية ... إلخ). ورغم أن تأسيس الدولة الصهيونية لا علاقة له بالهولوكوست، رغم كل هذا إلا أنها توظّف (أي الإبادة) وبشكل سوقي يسيءُ إلى ضحايا الإبادة أنفسهم لخدمة المصالح الصهيونية.

وربما يكون ستة ملايين قد اختفوا حقّاً، ولكن السؤال المهم هنا هو: هل اختفاؤهم كان نتيجة الإبادة المتعمدة أم أنه كان نتيجة مركب من الأسباب؟ والسؤال يمكن أن يكون أكاديمياً محضاً، لأن الموت هو الموت سواء أكان سريعاً بأفران الغاز أم بطيئاً من خلال أعمال السخرة، ولكن ما يحوّل السؤال من سؤال أكاديمي إلى سؤال له أهمية سياسية مباشرة هو ما أشرنا إليه من توظيف بذيء للهولوكوست لتحقيق مكاسب للدولة الصهيونية، ولإسدال ستار سميك من الدخان على المذابح الأخرى في العالم، سواء مذابح الدولة الصهيونية أو مذابح الروس في الشيشان، ومن قبل ذلك المذابح الغربية المختلفة في المستعمرات !

وقد استمرت العناصر التي تؤدي إلى تناقص أعداد اليهود بعد الحرب العالمية الثانية، بل تصاعدت حدتها. فبلغ الزواج المختلط مؤخراً ما يقرب من ٥٠٪ في الولايات المتحدة وإلى ٨٠٪ في بلد مثل فنلندة. وبعد أن كان الزواج المختلط من قبل مقصوراً على الذكور اليهود، يلاحظ تزايد النسبة بين الإناث في الآونة الأخيرة. وأصبح الزواج المتأخر، وهو نمط عام في الدول التي يُقال لها متقدمة، ظاهرة واضحة بين اليهود. ويمكن أن نضيف إلى هذا كله تزايد عدد الشواذ جنسياً بنسبة تصل في بعض المدن في الغرب إلى ٣٠٪ وهي آخذة في التزايد (وتوجد بينهم نسبة عالية من اليهود). ويلاحظ انسحاب كثير من النساء اليهوديات من عملية الإنجاب بتأثير حركة التمركز حول الأنثى feminism التي تجعل من أي نشاط أنثوي خاص (مثل الإنجاب) أمراً سلبياً أو معوقاً لنشاط المرأة في الحياة العامة. كما أن ظاهرة الشذوذ الجنسي لم تعد ظاهرة مقصورة على الذكور اليهود وحسب وإنما تفشت أيضاً بين النساء اليهوديات. وقد ازداد اليهود في المدن، كما ازداد تفسخ الأسرة اليهودية وتزايدت نسبة الطلاق وهو ما يزيد من الإحجام عن الإنجاب.

وقد أدى كل هذا إلى تناقص نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية، حتى أصبحت واحدة من أقل النسب في العالم. وأي جماعة إنسانية، حتى تعيد إنتاج نفسها بيولوجياً، لابد أن تنجب الأنثى التي تنتمي إليها طفلاً في المتوسط. لكن المرأة اليهودية في الولايات المتحدة قد تكون أقل الإناث خصوبة في العالم، فالإناث في المرحلة العمرية ٣٥ - ٤٤ ينجبن ١,٥٧ طفلاً، أما المرحلة العمرية ٢٥ - ٣٥ (والمفروض أنها أكثر المراحل خصوبة) فالإناث ينجبن فيها ٠,٨٧ أي أقل من طفل واحد، مما يدل على أن منحنى التناقص آخذ في الازدياد.

وقد بلغ عدد اليهود ١٣,٨٣٧,٥٠٠ عام ١٩٦٧، وبلغ ١٢,٩٨٨,٦٠٠ عام ١٩٨٢، أي إن عدد اليهود نقص بنحو المليون في هذه الفترة دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعي. ويبلغ عدد اليهود حالياً ١٣,٠٩٣,٠٠٠ ، أي إن عددهم ظل ثابتاً قرابة ربع قرن. ويتوقع معهد اليهودية المعاصرة التابع للجامعة العبرية بالقدس أن يصل عددهم إلى ١٣,٤٢٨,٠٠٠ عام ٢٠١٠. ولكن هناك توقعات أكثر تشاؤماً من منظور صهيوني. فيذهب صموئيل لايبرمان ومورتون واينفيلد إلى أن عدد يهود الولايات المتحدة سيصل إلى ٣,٩ مليون عام ٢٠٧٠ أما إلياهو برجمان (بمركز

هارفارد للدراسات السكانية) فهو أكثر تشاؤماً إذ يرى أنه حينما تحتفل الولايات المتحدة بعيدها المئوي الثالث (٢٠٧٦) لن يتجاوز عدد اليهود ٩٤٤,٠٠٠ (أي أقل من مليون). ومع ملاحظة أن كلمة «يهودي» يتلاعب بها الديموجرافيون اليهود حتى يزيدوا من أعداد اليهود في العالم. وفيما يلي إحصاء بعدد اليهود في العالم (عام ٢٠٠٠) وبعد عشرة أعوام (٢٠١٠).

أماكن التواجد	العدد الحالي	العدد المتوقع في عام ٢٠١٠
إسرائيل	٤,٧٩٠,٠٠٠	٥,٦٤٤,٠٠٠
أمريكة الشمالية	٦,٠٦٢,٠٠٠	٥,٩٣٩,٠٠٠
أمريكة الوسطى والجنوبية	٤٢٨,٠٠٠ (تضم الأرجنتين وحدها ٢٠٣ ألف)	٣٩٨,٠٠٠
أوربة	١,١٣٨,٠٠٠ (تضم فرنسة وحدها ٥٢٢ ألف)	١,٠٦٦,٠٠٠
الاتحاد السوفييتي السابق	٥٤٠,٠٠٠	١٨٠,٠٠٠
آسية وشمال إفريقية	٢٨,٠٠٠	٢٦,٠٠٠
جنوب إفريقية + منطقة المحيط الهندي	١٩٥,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠
الإجمالي	١٣,٠٩٣,٠٠٠	١٣,٤٢٨,٠٠٠

المصدر: معهد «اليهودية المعاصرة» المسمى باسم «أ. هيرمان» والتابع للجامعة العبرية بالقدس.

ويُلاحظ أن عدد اليهود في العالم سيظل ثابتاً تقريباً وسيصبح هناك جماعتان يهوديتان أساسيتان: إسرائيل والولايات المتحدة وكندة (إلا إذا صدقت نبوءة إلياهو برجمان، وفي هذه الحالة لن توجد سوى الجماعة اليهودية في إسرائيل). أمّا بقية العالم فسيضم جماعات يهودية صغيرة مشتتة ليس لها أي ثقل إحصائي.

• أضواء على الوضع الديموجرافي ليهود العالم

وأخيراً ظهر تقرير العالِم الإسرائيلي سير جيو ديلا برجولاه عن الوضع الديموجرافي (السكاني) ليهود العالم. وديلا برجولاه واحد من أهم المتخصصين في هذا الموضوع. وسأحاول أن أعرض لبعض الحقائق التي ترد في تقريره مع محاولة تفسيرها، فالأرقام لا تنطق بالحقيقة، إذ لابد من استنطاقها، من خلال ربطها بعضها ببعضٍ، وبأنماط أشمل وأعم.

يلاحظ ديلا برجولاه أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم زاد عددهم بمعدل ١٠٠ ألف نسمة في الفترة من ١٩٩٨ حتى الوقت الحاضر، وأن عددهم أصبح الآن ١٣,٢ مليون بعد أن كان ١٣,١. ولكننا نعرف أن عدد اليهود عام ١٩٦٧ كان ١٣,٨٣٧,٥٠٠ ، أي إن عدد أعضاء الجماعات اليهودية لم يتزايد في واقع الأمر وإنما تناقص حوالي نصف مليون في خمس وثلاثين سنة ماضية، وهذا رغم تحسين أوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كل أنحاء العالم.

وفيما يلي توزيع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم:

القارة	عدد اليهود	النسبة المئوية
الأمريكتان	٦,٤٨٤,٨٠٠	٪٤٩,٢
آسية	٤,٩٣٢,٩٠٠	٪٣٧,٤
أوربة	١,٥٨٣,٠٠٠	٪١٢
أسترالية	١٠١,٩٠٠	٪٠,٨
إفريقية	٨٩,٠٠٠	٪٠,٧

التجمعات السكانية اليهودية الكبرى

التجمُّع	عدد اليهود
الولايات المتحدة	٥,٧٠٠,٠٠٠
إسرائيل	٤,٨٨٢,٠٠٠
فرنسة	٥٢١,٠٠٠
دول الكومنولث	٤٦٨,٠٠٠

والأرقام - كما قلنا - لا تقول شيئاً، فهي صماء، مجرد «حقائق»، وليست الحقيقة، فالحقيقة أمر يجرده المرء من الحقائق المتناثرة الصماء. ولنحاول أن نفعل ذلك مع هذه الأرقام. إن الأرقام الواردة في الجدول السابق تبين أن غالبية ما يسمَّى بـ «الشعب اليهودي» الذي يدَّعي الصهاينة أنه في حالة شوق دائم للعودة إلى أرض الميعاد (٥٨٪ أي ٦,٧ مليون يهودي) لا يزال يعيش في «المنفى» بكامل إرادته ولا يوجد سوى ٤٢٪ منه أي ٤,٩ مليون في إسرائيل، مما يعني أن «المنفى» ليس بمنفى، وأن الشعب ليس بشعب، وأن «الشتات» ليس بشتات، وأن كل ما هنالك هو أقليات يهودية وجد أعضاؤها أن حياتهم في أرجاء العالم تتيح لهم فرصاً حقيقية للحياة الإنسانية الكريمة وأن الشعار الصهيوني «شعب بلا أرض» لا أساس له من الصحة، لأن أعضاء الجماعات اليهودية المنتشرة (لا المنفية) في أنحاء العالم لا تبحث عن أرض أو وطن، وإنما تندمج في المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها.

وبالفعل توجد دراسة أصدرها مركز «الهوية اليهودية» بجامعة بار إيلان بإسرائيل تشير إلى أن معاداة اليهودية قد انخفضت معدلاتها في معظم دول العالم، كما أن وضع اليهود بها أصبح أفضل من أي وقت مضى. فاليهود مستقرون في مجتمعاتهم ويحصلون على المناصب التي يريدونها، وكل هذه الأمور تزيد معدلات اندماجهم خلال جيلين أو ثلاثة أجيال. ومن الطريف أن دكتور يعقوب إلياف مدير مركز الهوية اليهودية قد «حذَّر» من ذلك الوضع (كما جاء في هاتسوفيه ٢٠٠٠/٩/٤)، ولذا تصر جامعة بار إيلان على ضرورة عقد مؤتمر دولي حول موضوع الاندماج وتعتزم عقد هذا المؤتمر بصفة سنوية وتخصص اعتمادات للأبحاث التي تُجرى لمكافحة ظاهرة الاندماج. إن الاندماج يشكل خطورة حقيقية على الصهيونية، لأنها، كما قال آي، إف. ستون، المفكر الأمريكي اليهودي، تعيش على الكوارث التي تحيق باليهود، وبدون كوارث لا يمكن أن تقوم لها قائمة، إذ يستقر اليهود حينذاك في مجتمعاتهم، يعيشون فيها شأنهم شأن أي أقليات دينية أو إثنية أخرى.

ومن مظاهر الاستقرار والاندماج تصاعد معدلات الزواج المختلط بين أعضاء الجماعات اليهودية وأبناء مجتمع الأغلبية. وقد وصلت هذه الزيجات المختلطة إلى ما يزيد عن ٥٠٪ في كثير من المناطق. ويشير ديلا برجولاه إلى أن ٢٥٪ فقط من

أبناء هذه الزيجات هم الذين يصنفون أنفسهم يهوداً، ويمكن أن نضيف أنه حتى هؤلاء تكون هويتهم اليهودية ضعيفة وتكاد تكون اسمية، وكل هذا يؤدي إلى الانصهار والاختفاء الذي بلغ ذروته في ألمانية وأوكرانية (٧٥٪).

ويسمي الصهاينة الزواج المختلط «الهولوكوست الصامت»، أي الإبادة الصامتة لليهود، وهي تسمية أيديولوجية كريهة ومضللة. فاليهود الذين يستقرون في بلادهم ويتزاوجون من أعضاء الديانات الأخرى لا يُبادون، وما يتهاوى ويسقط هو الادعاءات الصهيونية الكاذبة. ويرى يعقوب إلياف أنه إن لم يتم الكفاح ضد ظاهرتي الاندماج والزواج المختلط فسوف يتقلص عدد أبناء «الشعب اليهودي» (المقيمين خارج إسرائيل) عام ٢٠٢٥ إلى ١,٥ - ٢,٥ مليون يهودي فقط، وهذه قد تكون مبالغة، ولكنها مبالغة دالة.

ومن الأمور المهمة التي يذكرها التقرير أن عدد اليهود في الاتحاد السوفييتي السابق خلال عام ٢٠٠٠ قد بلغ أقل من نصف مليون نسمة (٤٦٨ ألف يهودي، عدد كبير منهم من المسنين وغير القادرين أو الراغبين في الهجرة). وأن عدد اليهود في فرنسة حالياً هو ٥٢١ ألف، أي أن عدد يهود فرنسة يفوق عدد اليهود في الاتحاد السوفييتي السابق. كما تشير الإحصاءات إلى أن عدد يهود غرب أوربة أصبح أكثر من عدد يهود شرق أوربة لأول مرة في التاريخ الحديث، وهذه مسألة ذات أهمية قصوى. فنحن نذهب إلى أنه توجد صهيونيتان لا صهيونية واحدة: الأولى هي الصهيونية الاستيطانية، وهي أن يترك اليهودي بلده ويذهب إلى فلسطين ليصبح مستوطناً صهيونياً فيها. أما الثانية فهي الصهيونية التوطينية، وهي أن يكتفي اليهودي الذي يسمي نفسه صهيونياً بأن يعطي الدعم المالي والسياسي للمنظمة الصهيونية لتوطين يهود آخرين (وقد تم تلخيص موقف الصهيونية التوطينية في تعريف طريف يقول إن الصهيوني التوطيني هو يهودي يدفع المال ليهودي ثانٍ لإرسال يهودي ثالث إلى أرض الميعاد!). وصهيونية العالم الغربي صهيونية توطينية، فشرق أوربة كان دائماً هو مصدر المادة البشرية الاستيطانية، ومع جفاف ينابيعها، فإن أزمة الاستيطان ستتفاقم في الدولة الصهيونية.

وأخيراً يشير ديلا برجولاه إلى أنه إذا استمرت الاتجاهات الحالية (من تناقص عدد المواليد وتزايد معدلات الاندماج والزواج المختلط) والتي يصاحبها ظاهرة أن

الجماعات اليهودية في العالم لا تتزايد بسبب العزوف عن الزواج والإنجاب (تنجب الأنثى اليهودية في الولايات المتحدة في المرحلة العمرية من ٢٠ - ٣٠، وهي أكثر مراحل العمر خصوبة، أقل من طفل، وحتى تعيد الجماعة الإنسانية إنتاج نفسها يجب أن تنجب الأنثى طفلين ونصفاً تقريباً). إذا حدث ذلك فإن ديلا برجولاه يتوقع أن عدد اليهود في إسرائيل سيكون مماثلاً لعددهم في بقية أنحاء العالم، في غضون أقل من ٣٠ عاماً. ثم يشير إلى أن نصف الأطفال اليهود (ممن تصل أعمارهم إلى ١٥ سنة) يعيشون حالياً في إسرائيل، وأنه في عام ٢٠٢٠ ستصل نسبتهم إلى ثُلثي الأطفال ممن هم في هذه المرحلة العمرية، وهذا الوضع الديموجرافي سيُغيِّر الصورة تماماً.

- **تعداد اليهود وإشكالياته في الوقت الحاضر**

يوجد الآن موقع على الإنترنت يظهر فيه تعداد أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، وآخر الإحصاءات (٣١/ ١/ ٢٠٠٢) هي كما يلي:

إسرائيل	٥,٣٠٠,٠٠٠	الأرجنتين	٢٥٠,٠٠٠
الولايات المتحدة	٥,٨٠٠,٠٠٠	جنوب إفريقية	١٥٠,٠٠٠
فرنسة	٦٠٠,٠٠٠	البرازيل	١٣٠,٠٠٠
روسية	٥٥٠,٠٠٠	أسترالية	١٠٠,٠٠٠
أوكرانية	٥٠٠,٠٠٠	المجر	٨٠,٠٠٠
كندة	٣٦٠,٠٠٠	ألمانية	٦٠,٠٠٠
بريطانية	٣٠٠,٠٠٠	روسية البيضاء	٦٠,٠٠٠

ويوجد ٤٠ ألف يهودي في كل من المكسيك وبلجيكة، و ٣٥ ألفاً في كل من أوزبكستان وإيطالية وأورجواي وفنزويلا، و ٣٠ ألفاً في كل من هولندة وأذربيجان، و ٢٥ ألفاً في كل من إيران وتركية، وما بين ١٥: ٢٠ ألفاً في كل من سويسرة وتشيلي والسويد وكازخستان ورومانية وإسبانية ولاتفية وجورجية. أما بقية أنحاء العالم فالجماعات اليهودية فيها صغيرة بشكل يمكن إهماله إحصائياً، ففي بلغارية لا يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف، ونحو ألفين في اليابان و١٢٠ في السلفادور.

ويمكن ملاحظة أن الغالبية الساحقة ليهود العالم موجودة في العالم الغربي، وإن وجدوا خارج العالم الغربي، فهم يوجدون في جيوب استيطانية مثل إسرائيل (تابعة للتشكيل الاستعماري الغربي) أو في بلاد لها ماضٍ استيطاني (جنوب إفريقية - أسترالية)، أي أن اليهودية، شأنها شأن الصهيونية، ظاهرة غربية وليست عالمية كما يدَّعي البعض.

كما يلاحظ أن يهود شرق أوربة (يهود اليديشية) كانوا في نهاية القرن التاسع عشر يشكلون أكبر جماعة يهودية في العالم، إذ حدثت بينهم طفرة ديموجرافية فزاد عددهم خمسة أو ستة أضعاف في أقل من قرن وقد تزامن هذا مع تعثر التحديث في الإمبراطورية الروسية. الأمر الذي أدى إلى هجرة أعداد كبيرة منهم إلى وسط أوربة وغربها وإلى الولايات المتحدة، مما هدَّد الأمن الاجتماعي في هذه البلدان (حسب تصور أعضاء الأغلبية). وقد سعت الحركة الصهيونية لتخليص العالم الغربي من هذا الفائض البشري ولتوظيفه داخل التشكيل الاستعماري الغربي بعد أن فشل في أن يندمج في التشكيل الحضاري الغربي.

وقد ظلت هذه الكتلة البشرية هي المصدر الأساسي للمستوطنين الصهاينة، فيهود العالم الغربي لا يهاجرون، ويكتفي الصهيوني منهم بدعم المستوطن الصهيوني مالياً وسياسياً (ومن هنا تمييزنا بين الصهيونية الاستيطانية والصهيونية التوطينية). هذه الكتلة البشرية الضخمة بدأت في التآكل لعدة أسباب من بينها تزايد معدلات الاندماج، والزواج المختلط، والعلمنة. ثم أدى سقوط الاتحاد السوفييتي وانقسامه إلى دول الكومنولث ثم الهجرة إلى إسرائيل إلى انقسام هذه الكتلة البشرية الضخمة إلى عدة تجمعات بشرية صغيرة، ومن المعروف في علم اجتماع الأقليات أن معدلات الاندماج والذوبان بين أعضاء الجماعات اليهودية الصغيرة أعلى بكثير من نظيرتها في الجماعات الكبيرة.

كما يلاحظ أن عدد اليهود في منتصف التسعينيّات كان لا يتجاوز ١٣ مليوناً، وحسب الإحصاء الجديد يبلغ عددهم ١٤,٥٠٠,٠٠٠.

ما سر هذه الزيادة؟ مع أنه جاء في أحد الدراسات الخاصة بالديموجرافية اليهودية أن أعضاء الجماعات اليهودية الذين يعيشون خارج إسرائيل سينخفض عددهم إلى النصف خلال عشر سنين لعدة أسباب من أهمها الزواج المختلط،

الذي بلغ ٥٠٪ ويصل إلى ٨٠٪ في بعض المدن الأمريكية. وعادةً ما ينشأ أبناء مثل هذه الزيجات (٨٠٪ من كل الحالات) على أنهم غير يهود.

ومن الأسباب الأخرى التي تؤدي إلى تناقص اليهود في إحجامهم عن الزواج والإنجاب، وكما يقول التقرير: تُعدُّ الجماعات اليهودية في العالم الغربي أكثر حداثة من بقية أعضاء المجتمع، ولذا نجد أن نسبة الزواج بينهم من أقل النسب، وأنهم لا ينجبون، وإن أنجبوا فإنهم ينجبون طفلاً واحداً على الأكثر، ويلاحظ تزايد معدلات الطلاق وعدد غير المتزوجين بين أعضاء الجماعات اليهودية. ولا شك في أن عدد الشذاذ جنسياً بين أعضاء الجماعات اليهودية آخذ في التزايد، شأنهم في هذا شأن كل المجتمعات الغربية، الأمر الذي يؤدي إلى تناقص أعدادهم.

وجاء في إحصاء عام ١٩٩٨ أن عدد يهود الولايات المتحدة ٥,٦٠٠,٠٠٠، فهل زاد عددهم ٢٠٠ ألف في غضون أربعة أعوام؟. وجاء في الإحصاء نفسه أن يهود روسية بلغ عددهم ٤٠٠ ألف، فهل زاد عددهم ١٥٠ ألفاً، أي أكثر من الثُلث في غضون عدة أعوام، رغم هجرة عشرات الآلاف منهم؟ كما جاء أيضاً في الإحصاء نفسه أن عدد يهود أوكرانية ٢٨٠ ألف، فهل قفز عددهم إلى ٥٠٠ ألف، أي زاد حوالي النصف في هذه الفترة القصيرة؟ ولماذا زاد عد يهود الأرجنتين ٣٠ ألفاً في الفترة نفسها، مع أنها تعدُّ - من المنظور الصهيوني - من بلاد الضيق، أي بلاد طاردة لليهود؟

ويمكن تفسير الزيادة في بعض البلاد مثل روسية وأوكرانية بأن بعض غير اليهود يقومون بتسجيل أنفسهم على أنهم يهود حتى تتاح لهم فرصة الهجرة إلى إسرائيل للحصول على المكاسب المادية التي تحققها لهم مثل هذه الهجرة، وهم يعرفون مسبقاً أن الجيب الاستيطاني الصهيوني سيغض الطرف عن حقيقة كونهم ليسوا يهوداً بل مدَّعين لليهودية، نظراً لتعطشه للمادة الاستيطانية. كما أنه يمكن افتراض وجود حركة نزوح عن إسرائيل وعودة للوطن الأصلي.

ويبيِّن التقرير أن حوالي ٥٠٠ ألف مستوطن قد تركوا إسرائيل منذ إنشائها (٣٥٠ ألف في الولايات المتحدة، ٤٠ ألفاً في كندة، ٣٠ ألفاً في إنجلترة، ١٠ آلاف في جنوب إفريقية، ٨ آلاف في ألمانية، ٥ آلاف في أسترالية). ويلاحظ أن النازحين عن إسرائيل في الآونة الأخيرة يندمجون في مجتمعاتهم الجديدة ولا يبقون

على علاقاتهم مع المستوطن الصهيوني، بل إنهم ينكرون أنهم يهود، ولكن أرقام النازحين في تصورنا أقل من الحقيقة، فإسرائيل تسجل أي مواطن يعود لزيارتها حتى ولو أسبوعاً واحداً على أنه مقيم في إسرائيل وليس في الخارج، مما ينقص من عدد النازحين عن إسرائيل. ولكن هذا يعني أن عدداً كبيراً من النازحين يحصونَ مرتين: مرة بعدِّهم مواطنين في إسرائيل، ومرة أخرى بعدِّهم أعضاء في جماعات يهودية خارج إسرائيل. وهذا الإحصاء المزدوج يزيد من عدد اليهود في الخارج دون أن يكون لذلك أي أساس في الواقع.

وهم في إسرائيل يقرؤون كل هذه الإحصاءات بعناية شديدة بسبب تفاقم مشكلتهم الديموجرافية، أي تزايد العرب في فلسطين المحتلة قبل وبعد ١٩٤٨ حتى إنهم قد يصبحون أغلبية في غضون ١٩ عاماً كما بيَّن أرنون سوفير الخبير الديموجرافي في مركز بيجين السادات للأبحاث الاستراتيجية في الجدول التالي:

الميزان الديموجرافي بين العرب وإسرائيل
عدد السكان بالمليون

العام	اليهود	العرب	الإجمالي
١٩٩٧	٤,٧٠	٤,١٠	٩,٠٠
٢٠١٠	٦,٠٠	٦,٦٥	١٣,٠٠

- **اليهودي الصفر**

يواجه القائمون على موضوع الديموجرافية اليهودية مشكلة أساسية تدور أساساً حول تعريف اليهودي، إذ تتضارب الآراء وتتداخل، ويتسع النطاق وينكمش بخصوص هذا التعريف حسب رؤية القائم على التعداد، وبالتالي تختلف الأرقام من باحث إلى آخر. وفي غياب مؤسسة مركزية (دينية أو مدنية) تحدد المعيارية التي يمكن من خلالها تعريف اليهودي فإن هذا يفتح الباب على مصراعيه لعدد من التعريفات المتضاربة والمتصارعة:

١- فعلى سبيل المثال هل اليهودي هو اليهودي المتدين الذي يتبع تعاليم العقيدة اليهودية، أم هو أي شخص يرى أنه يهودي رغم أنه لا ينفذ أياً من هذه التعاليم؟

٢- ذكر موقع جودايزم أون لاين (٢ ديسمبر ٢٠٠٣) أن عدد يهود أمريكة ٥,٥ مليون ولكنه أضاف أن ١,١ مليون منهم ولدوا يهوداً ولكنهم لا ينتمون لأي ديانة (بما في ذلك اليهودية)، فبأي معنى من المعاني يمكن أن يُسمّى هؤلاء يهوداً؟

٣- يواجه القائمون على الديموجرافية اليهودية مشكلة جديدة تماماً، وهي مشكلة مدعي اليهودية. وقد ظهرت هذه المشكلة في المكسيك حيث يتزايد عدد مدعي اليهودية يوماً بعد يوم ليستفيدوا من المساعدات التي تقدمها الجمعيات الخيرية اليهودية لليهود الفقراء في المكسيك. وهي مشكلة تواجهها كذلك الدولة الصهيونية مع المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفييتي السابق. فغالبيتهم الساحقة فقدت علاقتها بتراثها الديني والإثني ومع هذا يهاجرون إلى الدولة الصهيونية بعدِّهم يهوداً. وكما قال أحد الحاخامات: «إن يهودية بعض هؤلاء المهاجرين تتلخص في أن لهم جَداً يهودياً مدفوناً في موسكو». بل وهناك بعض المواطنين الروس الذين لا ينتمون لليهودية من قريب أو بعيد، ومع هذا يدعون أنهم يهود. وكل هؤلاء يهاجرون إلى الدولة الصهيونية طمعاً في المغانم والمزايا المادية التي تقدمها لهم الدولة الصهيونية، ولذا فنحن نسميهم «المهاجرين المرتزقة».

ويمكن هنا أن نضيف بعض التعريفات الأخرى لليهودي التي وردت في الأدبيات الخاصة بالموضوع:

٤- اليهودي هو من يشعر في قرارة نفسه بأنه كذلك، فاليهودي يصبح يهودياً أصيلاً حينما يصبح واعياً بحالته يهودياً ويشعر بالتضامن مع سائر اليهود، وهو تعريف ذاتي افترضه جان بول سارتر، ولكنه انتقل من هذا التعريف الذاتي إلى تعريف موضوعي فقال إن اليهودي هو من يراه الآخرون كذلك.

٥- اليهودي الملحد هو اليهودي الذي لا يؤمن بالعقيدة اليهودية ولكنه يتمسك بهويته الإثنية.

٦- يهودي بشكل ما «Jewish somehow»، وهي عبارة لا معنى لها على الإطلاق.

٧- Other في كل الإحصاءات اليهودية توجد هذه الكلمة والتي يمكن ترجمتها بعبارة «غير ذلك»، وهو تعريف سلبي لا مضمون له.

٨- يهودي وحسب (يهودي والسلام)«Just Jewish» وهي عبارة أخرى لا معنى لها.

٩- من يمارس في حياته لحظات يهودية Jewish moments وهي عبارة ثالثة لا معنى لها.

ثم جاء جاري توبين رئيس معهد الأبحاث الخاصة باليهود والمجتمع في سان فرانسيسكو وأعلن أن عدد اليهود في الولايات المتحدة أكثر بكثير مما يتصور ديلابرجولا. وزاد الطين بَلَّةً حين أضاف التصنيفات التالية:

١٠- اليهودي هو من مارس بعض الشعائر اليهودية في مرحلة ما من حياته.

١١- من نشأ يهودياً ويظن أنه يهودي (وكلمة «يظن» هذه ذاتية للغاية).

١٢- من له علاقة اجتماعية أو نفسية ما باليهودية (مرة أخرى عبارة غامضة لا معنى لها).

وقد جاء في احدي الإحصائيات أن ٤٢٪ من يهود أمريكة المتدينين من الإصلاحيين و ٣٨٪ من المحافظين و١٪ من التجديديين أي ٨١٪. أما الأرثوذكس وهم ورثة اليهودية الحاخامية المعيارية فهم لا يتجاوزون ٧٪. ولما كان أكثر من ٥٠٪ من يهود الولايات المتحدة علمانيين أو ملحدين أو غير مكترثين بالعقيدة اليهودية، وإذا ما أضفنا أن اليهودية الإصلاحية والمحافظة والتجديدية قد ابتعدت بشكل جوهري عن العقيدة اليهودية وعن أي معيارية (فهم يسمحون بالشذوذ الجنسي وبعضهم لا يؤمن لا بالبعث ولا باليوم الآخر)، فإننا نجد أن الفريق اليهودي الوحيد الذي له معيارية ما هم اليهود الأرثوذكس، وهؤلاء لا يتجاوز عددهم ٧٪ من مجموع المتدينين، أي حوالي ٣,٥٪ من مجموع يهود أمريكة.

ولإضفاء صبغة علمية على هذا الخليط غير المتجانس من التعريفات والذي لا يمكن أن يستخرج الإنسان منه أي معيار أو مقياس، قام ديلابرجولا (في موقع خاص بالديموجرافية اليهودية على الانترنت، في ١٣ يناير ٢٠٠٣) بتصنيف الهوية اليهودية إلى أربعة أنواع:

١- النمط المعياري التقليدي (٢ مليون): وهم اليهود الذين يؤمنون بمركب من العقائد والمعايير والقيم اليهودية، ويمارسون الطقوس والشعائر اليهودية.

٢- النمط الإثني الجماعي (٦ مليون): وهم اليهود الذين يتسمون بهوية إثنية، بما في ذلك من لهم علاقة باليهودية من خلال الانتماء إلى جماعة دينية، ويمارسون إحساسا بالجماعة، ولكنهم لا يمارسون الإحساس اليهودي التقليدي بالفرادة والعزلة. (وهنا يبدأ الخطاب التصنيفي في الرجرجة، فما هو الإحساس بالجماعة وعدم ممارسة الإحساس بالفرادة والعزلة؟). ويقول ديلابرجولا إنَّ نصف هذه المجموعة توجد في أمريكة الشمالية والجنوبية وبريطانية، والنصف الآخر يوجد في الدولة الصهيونية حيث يمزجون الهوية القومية الإسرائيلية ببعض العناصر التقليدية اليهودية.

٣- النمط المحتفظ ببقايا حضارية Cultural residue type (٤ مليون): وهم اليهود الذين لهم علاقة ما باليهودية، وقد استمرت هذه العلاقة على الرغم من أنهم ليس لهم أي صلة بالجماعة اليهودية أو بالعقيدة اليهودية؛ ومعظم هؤلاء يوجد في شرق وغرب أوربة والولايات المتحدة (هنا يصل فقدان المعيارية إلى أحد أشكاله المتبلورة).

٤- اليهودي/ غير اليهودي dual Jewish\non-Jewish أو يهودي الصفر zero Jewish: وهم أفراد من أصل يهودي رؤيتهم ومرجعيتهم النهائية «غير يهودية»، على حد قول ديلابرجولا، وعلى الرغم من ذلك يتم ضمهم في «الإطار التعريفي الذي يستخدم لإحصاء عدد اليهود» «definitional framework adopted to quantify the Jewish population». وهذه عبارة لا معنى لها، فالإطار التعريفي مهمته أن يضم بعضاً ممن ينطبق عليهم التعريف ويستبعد بعضاً آخر ممن لا ينطبق عليهم التعريف، ولكن هذا الإطار التعريفي المستخدم يضم أفراداً لا يمكن عدُّهم يهوداً بأي شكل من الأشكال، فإذا كانت رؤية الشخص ومرجعيته النهائية غير يهودية، وإذا كان يطلق عليه اصطلاح zero Jewish فكيف يمكن عدُّه يهودياً؟

وقد علق أحد المثقفين الفرنسيين على إشكالية تعريف اليهودي بقوله: «إنني مثل جميع اليهود الفرنسيين، يهودي من الناحية الخيالية ولكنني فرنسي من الناحية

الفعلية». أما الممثل الكوميدي وودي آلن فقد لخص الموقف كله بقوله: «أنا يهودي، مع ملاحظات تفسيرية». وكلاهما محق في قوله بخصوص غياب أي مقياس أو معيار لتعريف اليهودي.

• هل يصبح اليهود أقلية في «الدولة اليهودية»؟

جاءت نتائج التقرير الفلسطيني الذي صدر حول التعداد السكاني للفلسطينيين خلال العام ٢٠٠٣ لتزيد من المخاوف المتأصلة في الكيان الصهيوني بشأن «المشكلة السكانية»، التي أصبح من المألوف أن يشير إليها كثير من الكتاب والمحللين الإسرائيليين بأنها «قنبلة موقوتة» تهدد مستقبل هذا الكيان وما يُسمى «الطبيعةَ اليهوديةَ لدولة إسرائيل»، ومن ثم فهي أحد العناصر الحاسمة التي تحدد مسار الصراع العربي الصهيوني.

فقد أظهر التقرير أن عدد الفلسطينيين خلال العام المنصرم بلغ ٧,٩ مليون نسمة، يعيش منهم ٣,٧ مليون نسمة في أراضي فلسطين التي اغتُصبت عام ١٩٦٧، حيث يعيش في الضفة الغربية ٢,٣ مليون نسمة (أي حوالي ٦٣,٣ بالمئة) وحوالي ١,٤ مليون نسمة في قطاع غزة (أي حوالي ٣٦,٧ بالمئة)، بالإضافة إلى نحو مليون داخل الأراضي التي اغتُصبت عام ١٩٤٨ وأُقيمت عليها دولة إسرائيل، وهؤلاء هم من يُطلق عليهم اسم «فلسطينيو ١٩٤٨». أما الباقون، ويبلغ عددهم حوالي ٣,٢ مليون نسمة، فيعيشون في المنافي المختلفة في شتى أنحاء العالم (مجلة الوسط، ٢١ يونيو/ حزيران ٢٠٠٤).

ويعقد التقرير مقارنةً بين عدد السكان الفلسطينيين وعدد المستوطنين اليهود، ويورد عدداً من التوقعات بخصوص ما يمكن أن يؤول إليه الوضع السكاني خلال السنوات القادمة، وذلك استناداً إلى معدلات الزيادة الطبيعية ومعدلات الإنجاب لدى الطرفين. فقد أشار التقرير إلى أن عدد الفلسطينيين على أراضي فلسطين التاريخية يبلغ ٤,٧ مليون نسمة، بينما يبلغ عدد اليهود ٥,١ مليون نسمة، ومن المتوقع أن يصل عدد الفلسطينيين بحلول منتصف العام ٢٠٠٥ إلى حوالي ٥,١ مليون نسمة، أما عدد اليهود فمن المتوقع ألا يزيد عن ٥,٣ مليون نسمة، وهو ما يعني تضاؤل الفارق بين الطرفين إلى حد كبير.

إلا إن الصورة تزداد قتامةً بالنسبة إلى الكيان الصهيوني مع حلول العام ٢٠١٠، إذ تشير التقديرات إلى أن عدد الفلسطينيين سيصل إلى ٦,٢ مليون نسمة في مقابل ٥,٧ مليون يهودي. وبحلول منتصف العام ٢٠٢٠، سوف تصبح نسبة السكان اليهود حوالي ٤٤ بالمئة فقط من مجموع السكان، إذ يُقدر ألا يزيد عددهم عن ٦,٤ مليون نسمة مقابل ٨,٢ مليون فلسطيني.

ومن الطبيعي أن تشكل هذه الأرقام مصدراً للقلق العميق بالنسبة إلى السياسيين والمعلقين والباحثين في الكيان الصهيوني، حتى يَرَوْا أن ثمة واقعاً جديداً يتشكل تدريجياً، وأن من شأنه أن يقوّض كثيراً من الأسس التي يستند إليها المشروع الصهيوني برمته.

وتُعد مقولة «الطابع اليهودي لدولة إسرائيل» في مقدمة المقولات الصهيونية التي يشكك هذا الواقع الجديد في صلاحيتها وجدواها. فقد تأسس المشروع الصهيوني على إقامة دولة لليهود، ومنح «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، وظلت الحركة الصهيونية، والقوى الاستعمارية الراعية لها، تنكر فترة طويلة مجرد وجود الشعب الفلسطيني، ناهيك عن الاعتراف بحقوقه التاريخية، كما ترفض أي شكل من أشكال النقد أو التفنيد للهوية المزعومة لهذه الدولة. ولا شك أن تحول المستوطنين اليهود إلى أقلية في تلك الدولة التي تدعي أنها «دولة يهودية» يطرح تساؤلات جدية؛ لا عن مسلك هذه الدولة فحسب بل عن شرعية وجودها أصلاً. ومن ناحية أخرى، فإن التزايد العددي للفلسطينيين يجعل من الصعب الاستمرار في إهمال حقوقهم القومية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، سواء تعلق الأمر بالفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة أم «بفلسطينيي عام ١٩٤٨».

ولعل هذا الهاجس المتعلق بالمشكلة السكانية يفسر جانباً من إصرار شارون على المضي قدماً في تنفيذ خطة الفصل التي طرحها، بعدِّها وسيلة لضمان خريطة سكانية ذات أكثرية يهودية (صحيفة **الحياة**، ٢١ يونيو/ حزيران ٢٠٠٤)، كما يوضح مغزى كثير من الخطط التي يطرحها سياسيون وباحثون في الكيان الصهيوني لترحيل أعداد من الفلسطينيين إلى خارج فلسطين، وكذلك يفسّر تصريح بعضهم بأنه كان من الخطأ السماح ببقاء عرب على الأراضي التي أُقيمت عليها دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، رغم أن عددهم آنذاك لم يكن يتجاوز ١٥٠ ألف نسمة .

إلا إن هذه التقديرات المتعلقة بالسكان على أرض فلسطين التاريخية وما تثيره من مخاوف في أوساط الكيان الصهيوني لا تعني بأية حال من الأحوال أن هذا الكيان سوف ينهار من تلقاء نفسه، أو أن المستقبل القريب سوف يحمل في طياته حلاً جذرياً للصراع العربي الصهيوني دون أن يتحمل الفلسطينيون، ومعهم الشعوب العربية كلها، أية أعباء أو مسؤوليات. فالزيادة العددية للفلسطينيين في حد ذاتها لا يمكن أن تؤدي إلى إحداث تحولات جوهرية في مسار الصراع، حتى وإن أصبح المستوطنون اليهود مجرد أقلية ضئيلة. وتثبت تجارب الجيوب الاستيطانية الاستعمارية المماثلة للكيان الصهيوني أن السكان الأصليين قد يكونون أكثر عدداً بالمقارنة مع الغزاة الوافدين، ولكن هذا العنصر لا يكفي بمفرده لدحر الغزو أو القضاء على الوجود الاستعماري وتحقيق الاستقلال. فلم يكن المستوطنون الفرنسيون في الجزائر، على سبيل المثال، يمثلون أغلبية عددية في أية مرحلة من المراحل، ومع ذلك استمر الاستعمار الفرنسي للجزائر لقرون عدة، وكان على الشعب الجزائري أن يخوض نضالاً طويلاً، يمزج بين المقاومة المسلحة والمساعي السياسية، من أجل نيل حريته. ولا يختلف الأمر في النظام العنصري في جنوب إفريقية، حيث أحكمت الأقلية البيضاء سيطرتها على مقاليد الحكم ومقدرات البلاد وثرواتها، إلى أن تمكن السكان الأصليون عبر نضالهم الدامي من القضاء على نظام الفصل العنصري وبناء نظام جديد يكفل لهم العدالة والمساواة.

وخلاصة القول إنَّ ثمة حاجة لتوافر شروط أخرى ضرورية حتى تتحول «المسألة السكانية» إلى عنصر فعال في مسار الصراع العربي الصهيوني. فاستمرار المقاومة الفلسطينية وقدرتها على الصمود وعلى إبداع أشكال جديدة هو أحد الشروط اللازمة للدفاع عن الحقوق الفلسطينية المشروعة والبرهنة على فداحة الثمن الذي يتعين على المستوطنين الصهاينة أن يتكبدوه إذا استمروا في إنكار هذه الحقوق أو إهدارها. كما أن التزايد العددي للفلسطينيين في نطاق ما يُسمى «الخط الأخضر»، وهي المناطق التي أُقيمت عليها دولة إسرائيل، لن يمثل في حد ذاته تهديداً للنظام السياسي الإسرائيلي القائم على التمييز العنصري ما لم يتحول هؤلاء الفلسطينيون إلى قوة منظمة وواعية على المستويين السياسي والاجتماعي. وهناك،

بالإضافة إلى هذا وذاك، الدور الذي يتعين على الشعوب العربية جميعاً أن تنهض به من أجل دعم الشعب الفلسطيني ونضاله المشروع والتصدي لمحاولات تصفية القضية الفلسطينية وخلق وقائع جديدة على الأرض، سواء أتّخَذَتْ هذه المحاولات شكل إجراءات عنيفة، مثل عمليات الاغتيال وتدمير القرى والمدن الفلسطينية ومصادرة الأراضي وبناء جدار الفصل العنصري، أم اتَّخَذَتْ شكل مشاريع للتسوية تكفل استمرار الهيمنة الإسرائيلية وتتجاهل أبسط الحقوق الفلسطينية.

الفصل الثاني

الهجرة والنزوح

• الهجرة الاستيطانية

لتفسير ظاهرة وجود غالبية أعضاء الجماعات اليهودية داخل التشكيل الحضاري والاستيطاني الغربي يمكننا استخدام مفهوم الجماعة الوظيفية (أو جماعة المتعاقدين الهامشيين الغرباء)، وهم جماعة من البشر تستجلبهم المجتمعات التقليدية من خارج المجتمع (وأحيانا تجندهم من داخله). لتوكل إليهم وظائف لا يمكن لأعضاء المجتمع ذاته القيام بها، إما لأنها وظائف مشينة (جمع النفايات) وإما لأنها متميزة وتتطلب خبرة معينة غير متوافرة عند أعضاء المجتمع المضيف (الطب - الترجمة)، وإما لأنها تتطلب معرفة بأدوات خاصة، أو امتلاك رأس مال، أو المقدرة على ارتياد مناطق نشاط جديدة (صناعات جديدة - تجارة).

ويتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بأنهم مجرد أداة في يد الحاكم، وعلاقتهم به ليست علاقة حب أو كره وإنما علاقة تعاقد، وهو يقوم بعزلهم حتى يظلوا منبوذين من المجتمع ومهددين من جماهيره ليبقوا أداة طيعة في يده. وأعضاء الجماعة الوظيفية لا يدينون بالولاء لأحد (فهم يخافون أعداءهم ويدخلون في علاقة تعاقدية مع أصدقائهم أو أولياء نعمتهم)، لكنهم يحتفظون بعلاقة ولاء قوية لجماعتهم الوظيفية أو لوطنهم الأصلي، ويتسمون بالحركية الفائقة بسبب عدم ارتباطهم بأحد. ومن أهم الجماعات الوظيفية: الجماعات الوظيفية المالية (المرابون والتجار)، والجماعات الوظيفية القتالية (المماليك والساموراي)، والجماعات الوظيفية

الاستيطانية (الصينيون في ماليزية والهنود والبيض في جنوب إفريقية). ويمكن للجماعة الوظيفية الواحدة أن تضطلع بوظيفتين أو ثلاث وظائف في وقت واحد: مالية واستيطانية وقتالية (اليهود في الدول الهيلينية في مصر، حيث كانوا يوطنون جماعةً استيطانية تقوم بجباية الأموال وحماية الثغور لمصلحة السلطة الهيلينية الحاكمة).

ولا يمكن أن نفهم حركة الجماعات اليهودية في العصر الحديث، وسر تركزهم في بقع معينة دون غيرها وفي تشكيل حضاري دون غيره، إلا من خلال مفهوم الجماعة الوظيفية هذا. إذ يبدو أنه منذ بداية التاريخ، اضطلع عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية (وخصوصاً في العالم الغربي) بدور الجماعة الوظيفية، فكانوا جماعة استيطانية قتالية أو استيطانية مالية. ولعل هذا يعود إلى ضعف الدولة العبرانية وتخلفها التكنولوجي وإلى ضعف موارد فلسطين بصورة عامة، وصغر حجمها، الأمر الذي جعلها قاصرة عن استيعاب المصادر البشرية. ولذا، كان لابد من تصديرها والتخلص منها لزيادة موارد الدولة (على تقدير أن المادة البشرية سلعة تصدَّر)، وللقضاء على مصادر القلق الاجتماعي. وقد كانت أول دياسبورة عبرانية هي الحامية العبرانية في جزيرة إلفنتاين قرب أسوان (في أوائل القرن السادس ق. م.)، حين قام ملوك الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية بتوطين بعض الجنود العبرانيين في هذه الجزيرة لحماية حدود مصر الجنوبية. وكان الهدف من التهجير الآشوري - البابلي، في وجه من وجوهه، الاستفادة من الجماعات الموالية لها في أرجاء الإمبراطورية، وكان من بينها بعض الجماعات العبرانية. وقد حولت حامية إلفنتاين ولاءها إلى السلطة الفارسية بعد غزوها مصر. وقد تعمق هذا النمط تماما مع الدول الهيلينية (السلوقية في سورية والبطليمية في مصر)، ثم وصل إلى ذروته في القرن السادس عشر في بولندة/ أوكرانية، حيث كان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون جماعة استيطانية وتجارية وقتالية في إطار الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانية، فكان الوكلاء اليهود يستأجرون عوائد ضياع النبلاء البولنديين (الشلاختا) في أوكرانية ويديرونها لحساب هؤلاء النبلاء. وقد شيد النبلاء لهم ولأسرهم مدناً صغيرة تسمى «الشتتل»، يعيشون فيها تحت حماية القوة العسكرية البولندية ليتفرغوا لعملية استغلال الأقنان الأوكرانيين واعتصار فائض القيمة منهم. وكان على رجال الجماعة اليهودية الاستيطانية أن يتدربوا على حمل

السلاح، بل كانوا أيضاً يتعبدون في معابد تأخذ شكل القلاع المسلحة، وفي صراع الدولة البولندية الغازية مع الفلاحين الأوكرانيين، كان اليهود هم علامة الهيمنة البولندية. ولذا، كان أحد المطالب الرئيسية للحركة الشعبية الأوكرانية عدم السماح لليهود بالاستيطان في أوكرانية (تماماً مثلما كانت حركة المقاومة الفلسطينية تطلب وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين)، بينما كانت الدولة البولندية النازية تصر على ضرورة الاعتراف بحق اليهود في الاستيطان (مثل إصرار العالم الغربي على فتح أبواب فلسطين المحتلة للهجرة اليهودية) ويجب أن نتذكر أن يهود بولندة/ أوكرانية كانوا يشكلون أكبر جماعة يهودية في العالم في القرن السابع عشر، وأنهم أخذوا يزدادون عدداً، إلى أن أصبح معظم يهود العالم من نسلهم. وهذا يعني أن الاستيطان جزء مهم للغاية من التجربة التاريخية للجماعات اليهودية في الغرب، وأنهم دخلوا العصر الحديث وعندهم قابلية عالية للاشتراك في العمليات الاستيطانية.

في هذا الإطار، يمكننا أن نفهم نمط هجرة أعضاء الجماعات اليهودية، فهي حركة تنقل تتم دائماً داخل إطار حركة الإمبراطوريات الكبرى التي تيسر لهم هذا التنقل، وتتيح لهم فرص الحراك، وتوظفهم جماعةً وظيفية استيطانية أو مالية. وإذا كان التهجير البابلي قد تم قسراً، فإن حركة الهجرة العبرانية (اليهودية)، التي تعاظمت بالتدريج حتى وصلت إلى ذروتها مع نهاية الألف الأولى قبل الميلاد (حين أصبح عدد اليهود خارج فلسطين أكثر من ضعف عددهم داخلها)، كانت هجرة تلقائية بحثاً عن الفرص الاقتصادية، وتمت في إطار الإمبراطوريات الهيلينية والرومانية. وهجرة يهود شرق أوربة التي توجهت بأعداد هائلة إلى الولايات المتحدة وكندة، وغيرها من الدول الاستيطانية، حتى انتقلت الكتلة البشرية اليهودية من أوربة (روسية/ بولندة) إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) هي الأخرى هجرة تمت داخل إطار إمبراطوري، إذ إنها تمت داخل التشكيل الاستعماري الغربي وتجربته الاستيطانية في أنحاء العالم.

وقد اشترك أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من الأنشطة المرتبطة بالاستيطان الغربي، مثل أنشطة شركتي الهند الشرقية والغربية الهولندية، وغيرهما من الشركات، وتجارة العبيد. كما اشتركت أعداد من أعضاء الجماعات اليهودية

في عملية الاستيطان ذاتها. وفي بداية الأمر كان أعضاء الجماعة جزءاً من النشاط الاستيطاني الهولندي، فاستوطنوا ابتداء من منتصف القرن السابع عشر جزر الهند الغربية (مثل ترينيداد وسورينام والمارتينيك وجمايكا وجزر الباهاما). لكن سورينام كانت أهم التجارب الاستيطانية الأولى. وقد بدأ وصول اليهود إليها من هولندة سنة ١٦٣٩، ثم من إنجلترة سنة ١٦٥٢، فكفلت لهم جميع الحريات والمزايا. ومنح اليهود الجنسية الإنجليزية. وبعد أن ضم الهولنديون سورينام مرة أخرى سنة ١٦٦٧، حاول بعض اليهود الرحيل مع الرعايا البريطانيين، لكن الهولنديين أرغموهم على البقاء فيها بوصفهم جماعة استيطانية نافعة. وقد تركز اليهود فيما يسمى يودين سافانا، أي سافانا اليهود، وأسسوا مستوطنة يهودية في برزدينتس أيلاند سنة ١٦٧٠. وكانت المستوطنة تلك تتمتع بما يشبه الاستقلال الكامل (ومن ثم فهي أول دولة يهودية استيطانية). وكان اقتصاد المستعمرة يعتمد على العبيد الذين كانوا يشقون الطرق ويزيلون الغابات والأعشاب، فأقاموا مدينة جديدة محاطة بالطرق. وقد بلغ عدد سكان المستوطنة ١٠ آلاف نسمة سنة ١٧١٩، وكانت أغلبيتهم من العبيد. وكان العبيد المستجلبون من إفريقية يهربون ويلجؤون إلى الغابات ويختلطون بسكان الجزيرة الأصليين، فيضطر سكان المستوطنة إلى استجلاب مزيد من العبيد من إفريقية وكانوا يهربون بدورهم وينضمون إلى السكان الأصليين. ثم بدأت جماعات العبيد الأفارقة والسكان الأصليين تشن هجمات على المستوطنة في فترة ١٦٩٢- ١٧٧٤. وكوّن المستوطنون البيض مليشيات عسكرية وشددوا الحملات ضد الثوار (تماماً كما تفعل الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين)، لكن الإرهاق الناتج من الحرب وانتشار الأمراض أديا إلى انتصار السود والسكان الأصليين على الدويلة اليهودية الاستيطانية.

وقد استوطن اليهود أيضاً في معظم بلاد أمريكة اللاتينية، وخصوصاً في الأرجنتين التي وطّن المليونير هيرش فيها آلاف اليهود، والتي كانت تعد أهم تجربة استيطانية زراعية، باستثناء تجربة الدولة الصهيونية في العصر الحديث.

ويلاحظ أن هذه الأنشطة الاستيطانية كانت تدور إما في إطار الاستعمار الهولندي أو في إطار الاستعمار الإسباني - البرتغالي، والمادة البشرية الأساسية هنا هي يهود السفارد (المارانو). لكن مصدر المادة الاستيطانية الحقيقية كان يهود اليديشية (الأشكناز) من شرق أوربة، الذين كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة من

يهود العالم مع نهاية القرن التاسع عشر. وكان النشاط الاستيطاني الأكبر ليهود اليديشية داخل التشكيل الاستيطاني الأنجلو ساكسوني، فاتجه ملايين اليهود إلى جنوب إفريقية وكندة ونيوزيلندة وأسترالية وهونج كونج، لكن أغلبيتهم (٨٥٪) اتجهت إلى الولايات المتحدة - أهم التجارب الاستيطانية - ثم إلى إسرائيل التي تلي الولايات المتحدة في الأهمية.

إن الإطار التفسيري السابق يجعلنا نرى مدى ارتباط الجماعات اليهودية في العالم (العالم الغربي بالذات) بالتشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي، ونضع يدنا على الحقائق الأساسية التالية في واقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم:

١- الدياسبورا اليهودية (أي انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في أرجاء العالم). ليس انتشاراً عشوائياً وإنما هو انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعماري الغربي، وخصوصاً في جانبه الاستيطاني. فهجرة أعضاء الجماعات اليهودية لا تحددها حركيات ما يسمى «التاريخ اليهودي» أو ما يسمى «الطبيعة اليهودية»، وإنما تحددها حركيات الاستعمار الغربي، ولاسيما الاستعمار الأنجلو ساكسوني.

٢- لا تشكل إسرائيل استثناء لهذه القاعدة، فهي جزء من نمط ومن حركية غربية هي الإمبريالية الغربية التي جعلت العالم مسرحاً لنشاطها، سواء في أسترالية أو أمريكة اللاتينية أو جنوب إفريقية أو فلسطين. فالمشروع الصهيوني هو جزء لا يتجزأ من التشكيل الاستعماري الاستيطاني في الغرب، وما كان يمكنه أن يتحقق من دون إمكانات الإمبريالية الغربية ومن دون طموحاتها أو آلياتها. واستيطان اليهود في فلسطين هو نقل لفائض بشري غربي إلى بقعة في آسية أو إفريقية، حيث يتم تحويل هذا الفائض وهذه الجماعة الوظيفية التي فقدت وظيفتها إلى دولة وظيفية استيطانية تقوم على خدمة مصالح الغرب لقاء أن يقوم هو على حمايتها. فإسرائيل من هذا المنظور هي إعادة إنتاج لنمط قديم. ووعد بلفور، ثم دعم حكومة الانتداب للمستوطن الصهيوني، ثم دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، وتوقيع الاتفاق الاستراتيجي معها. كل هذا يبين أن الدولة الصهيونية امتداد لارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بالاستعمار الاستيطاني الأنجلو ساكسوني.

٣- بل يمكن القول إن يهود الشرق والعالم الإسلامي قد تم تحويلهم إلى مادة استيطانية تابعة للتشكيل الاستيطاني الغربي من خلال مدارس الأليانس، والدعاية الصهيونية، وهجرة أعداد ضخمة من اليهود الأشكناز إلى العالم العربي، إذ إن هذه العمليات كلها أفقدتهم مختلف هوياتهم المحلية وأحلت محلها هوية يهودية عالمية اسماً، لكنها استيطانية فعلاً، جوهرها فك الصلة بين اليهودي ووطنه ومن ثم استيعابه في المنظومة الاستيطانية. وفعلاً، حينما أُعلن إنشاء إسرائيل، هاجرت الأغلبية الساحقة من يهود البلاد العربية إلى إسرائيل.

ويمكن القول بشيء من التبسيط غير المخل إن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تدور في الوقت الحالي حول مركزين أساسيين هما شرق أوربة (روسية/ بولندة) لأنها قوة طاردة ومصدر للمادة البشرية، والولايات المتحدة قوةً جاذبة أساسية، وبتقديرها التجربة الاستيطانية الكبرى. وهناك إلى جانب هذا وذاك مراكز طرد وجذب ثانوية: فأما مصادر الطرد الثانوية فهي باقي بلاد شرق أوربة وأمريكة اللاتينية وجنوب إفريقية وبقايا يهود الشرق والعالم الإسلامي. وأما مناطق الجذب الثانوية فهناك كندة وأسترالية ونيوزيلندة وبعض بلاد أوربة، وغيرها.

وتمثل إسرائيل الآن نقطة مبهمة، فهي مصدر طرد، إذ يبلغ عدد النازحين منها بين ٧٠٠ ألف ومليون، كما أنها مصدر جذب ليهود البلاد العربية والشرق، حيث إنها تحقق حراكاً اجتماعياً لهم. وهي تمثل أيضاً محطة انتقالٍ لهؤلاء اليهود الذين لا يمكنهم الوصول مباشرة إلى الولايات المتحدة أو لأولئك الذين لا توجد عندهم الكفاءات المطلوبة للعمل فيها. وإذا استبعدنا سكان المستوطن الصهيوني، نجد أن أعضاء الجماعات اليهودية يتركزون حالياً وعلى نحو أساسي، في الولايات المتحدة وبضعة بلاد أخرى ناطقة بالإنجليزية (كندة وإنجلترة وأسترالية ونيوزيلندة وجنوب إفريقية). ولذا، يمكننا القول إن اللغة التي يتحدث أعضاء الجماعات اليهودية بها هي الإنجليزية، لا العبرية أو اليديشية. ويلاحظ أن الجماعات اليهودية في أوربة الشرقية والاتحاد السوفييتي السابق وأوربة آخذة في الذوبان، وإنَّ عدد أعضائها في أمريكة اللاتينية آخذ في التناقص السريع ومن خلال الحركيات التي تؤدي إلى «موت الشعب اليهودي».

الدياسبورا الدائمة والانعزالية اليهودية

يدعي الصهاينة أن اليهود شعب طرد من وطنه وشتت في أرجاء الأرض بعد أن هدم تيتوس الهيكل. وبالفعل نجد أن عدد يهود العالم خارج فلسطين بعد هدم الهيكل أقل بكثير من عددهم داخلها، فنؤمن بشتات اليهود وأنهم نفوا قسراً من ديارهم، وأنهم يودون العودة. وأنهم هائمون على وجوههم في كل بقاع الأرض بسبب غياب الوطن القومي.

ولكن مرة أخرى، لو دققنا النظر، وتناولنا الأرقام بطريقة مختلفة فإن الصورة تختلف تماماً. فمن المعروف أن عدد اليهود قد وصل إلى ما بين خمسة وثمانية ملايين يهودي في القرن الأول قبل الميلاد. ويُجمع المؤرخون كافة على أن عدد اليهود في فلسطين كان لا يشكل سوى ثلث عدد يهود العالم، وذلك قبل أن يهدم تيتوس الهيكل؛ أي إن الفكرة القائلة بأن اليهود مرتبطون ارتباطاً أزلياً بصهيون (فلسطين) وأنهم لا يتركونها إلا قسراً هي فكرة تتنافى مع واقع التاريخ. فالدياسبورا، أو الشتات اليهودي، مسألة طوعية، وليست مرتبطة بعملية إكراه خارجية. وحالة الدياسبورا حالة دائمة بغض النظر عما كان يحدث في فلسطين. بل إنه حينما يتجه بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين للاستقرار فيها، فإن ذلك ينبع من حركيات لا علاقة لها بصهيون. وعلى كل، ها هي الدولة الصهيونية قد فتحت بواباتها داعية يهود العالم إلى المجيء إليها، فهي تعاني أزمة سكانية، غير أن يهود العالم لا يأتون إلا قسراً أو من خلال الرشوة السخية (كما حدث مع اليهود السوفييت)، إذ إن الأغلبية الساحقة تفضل البقاء في الولايات المتحدة أو التوجه إليها (بابل الحديثة) التي يشار إليها باليديشية بأنها «جولدن مدينا»، أي البلد الذهبي - أرض الميعاد وهي الاستهلاكية التي تفوق في جاذبيتها أرض الميعاد الصهيونية.

ويدعي الصهاينة أن اليهود يعيشون في حالة عزلة دائمة ثم يشيرون إلى بعض الحقائق الصلبة للتدليل على ذلك. ولكن قراءة الواقع والأرقام بطريقة مختلفة يبين كذب ما يقولون. فيهود بابل، على سبيل المثال، اندمجوا في محيطهم الحضاري وانصهر يهود آشور في محيطهم. ويمكن أن نشير إلى تأغرق يهود الإسكندرية ونسيانهم لغتهم في الدولة البطلمية، ولذا كان لابد من ترجمة العهد القديم إلى

اليونانية. وإذا كان عدد اليهود قد وصل بالفعل في القرن الأول الميلادي إلى ما بين ٨,٥ مليون، كان من المفروض أن يصل عددهم إلى خمسين أو ربما مئة مليون في القرن السادس الميلادي مع بدايات العصور الوسطى في الغرب والعصر الإسلامي في الشرق. لكن يلاحظ أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية في ذلك التاريخ كان يتراوح بين مليون واحد ومليونين (تركز أغلبهم في العالم الإسلامي). وقد ظل عددهم دون تغيير ملحوظ حتى القرن الخامس عشر الميلادي. ولنا أن نلاحظ انخفاض عدد اليهود إلى الخمس، على الرغم من عدم حدوث هجمات أو عمليات إبادة ضخمة ضدهم أو انتشار أوبئة. ولذا لا يمكن تفسير هذا الانخفاض إلا بأن عملية الاندماج والانصهار والذوبان كانت مستمرة على قدم وساق، أي إن فكرة الانعزالية اليهودية ومقدرة اليهود على مقاومة الاندماج هما مجرد أسطورة تتنافى مع الحقائق التاريخية؛ فأعضاء الجماعات اليهودية - شأنهم شأن جميع الأقليات والجماعات الأخرى- خاضعون لحركيات إنسانية عامة يؤدي بعضها إلى العزل والعزلة، ويؤدي بعضها الآخر إلى الاندماج والانصهار.

- **الشوق الأزلي إلى صهيون**

المصطلح الصهيوني مصطلح أيديولوجي متحيز معبأ بالمفاهيم الصهيونية. فالمصطلحات مثل «الشعب اليهودي» و«المنفى» و«الشتات» لا علاقة لها بواقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، فهم في غاية السعادة في منفاهم مما يعني أنه ليس بمنفى! المصطلحات الصهيونية الخاصّةُ بهجرة اليهود إلى فلسطين تحمل الأعباء الأيديولوجية نفسها وبشكل أكثر حدة، فهم يطلقون على الهجرة إلى فلسطين كلمة «عالياه» وهي كلمة عبرية مشتقة من فعل «يعلو»، ولذا فالكلمة تعني «الصعود إلى السماء» و«الصعود لقراءة التوراة في المعبد أثناء الصلاة» و«الصعود إلى أرض إسرائيل بغرض الاستيطان الديني». وفي العهد القديم نجد أن الذهاب إلى فلسطين يعبَّر عنه بعبارة «الصعود إلى الأرض» (أما الذهاب إلى مصر فيُعبَّر عنه بـ «النزول إليها»). وقد كانت للعالياه أغراض عديدة ولها إيحاءات عاطفية ودينية، فمثلاً كانت تتم بغرض الشفاء من الأمراض وللتخلص من الفقر، كما كان الكهول يهاجرون لاعتقادهم أن الدفن في أرض الميعاد يجلب ثواباً كبيراً. وكان البعض «يعلو» إلى إرتس يسرائيل بغرض دراسة التوراة.

وقد استخدمت الحركة الصهيونية هذا المصطلح الديني وجردته من بُعده الإيماني المجازي وأطلقته على حركة الهجرة الصهيونية من شرق أوربة إلى فلسطين في العصر الحديث، وفي هذا تعمية أيديولوجية. فالعالياه مصطلح ديني يصف أفعالاً فردية وأوامر يُفترض فيها أنها ربانية ذات قداسة معينة من وجهة نظر من يقوم بها، ولا يمكن إطلاقه على ظاهرة اقتصادية اجتماعية سياسية يقوم بها فريق من الصهاينة لا يؤمن معظمهم بالعقيدة اليهودية. ومما له دلالته أن كلمة «هجيراه» العبرية كلمة محايدة تؤدي المعنى نفسه، ولكن الحركة الصهيونية تؤثر استخدام المصطلحات التقييمية على المصطلحات الوصفية حتى يمكنها فَرْض غمامات أيديولوجية. وتهدف هذه المصطلحات الرومانسية ذات الهالات الدينية إلى توليد انطباع أن اليهود في حالة شوق دائم وولع أزلي للعودة إلى صهيون الحبيبة!

وبدلاً من قبول الادعاءات الصهيونية عن أنفسهم كما يفعل كثير من المحللين الغربيين والعرب فلننظر إلى الواقع ذاته، إلى إحصاءات الهجرة. إذا نظرنا إلى عدد اليهود الذين استوطنوا في فلسطين في الفترة بين عامي ١٨٨٢، ١٩٣٢ نجد أنه لا يتجاوز ١٧٤ ألفاً (منهم ٣٠ ألفاً، أي ١٦٪ من اليهود الذين استوطنوا في فلسطين لأسباب دينية قبل بداية الاستيطان الصهيوني). هذا يعني أنه خلال ٥٠ عاماً كان يهاجر إلى فلسطين ٢٥٠٠ يهودي كل عام من مجموع يهود العالم الذي بلغ آنذاك ١٦ مليوناً. وفي الفترة من ١٨٨٢ - ١٩١٤ غادر روسية أربعة ملايين يهودي لم يتوجه منهم إلّا ٩٠ ألفاً إلى فلسطين. فأين هذا التشوق الأزلي الدائم للعودة لأرض الميعاد؟

تغيَّرت النسبةُ قليلاً في الفترة من ١٩٣٢ - ١٩٤٤ إذ هاجر ٢٦٥ ألف يهودي، وهو أعلى رقم بلغته أفواج المهاجرين أثناء الانتداب. وهذا لا يعود إلى الشوق الأزلي إياه، وإنما إلى وصول هتلر إلى السلطة؛ ولذا قال أحدهم إنه إذا كان هرتزل هو ماركس الحركة الصهيونية، أي منظِّرها، فإن هتلر هو لينين الصهيونية، أي من وضعها موضع التنفيذ.

والنمط نفسه يستمر بعد إعلان الدولة، فالهجرة لم تتم، إلا في القليل النادر، لأسباب أيديولوجية. فيهود البلاد العربية لم يهاجروا حباً في صهيون وإنما بحثاً عن

حراك اجتماعي، ولذا نجد أن الأثرياء بينهم وذوي الخبرات الخاصة هاجروا إلى أوربة. كما هاجر كل يهود الجزائر إلى فرنسة لأنهم كانوا يحملون الجنسية الفرنسية!

وقد تساقطت كل الادعاءات الصهيونية تماماً مع هجرة اليهود السوفييت الذين جاؤوا إلى إسرائيل بحثاً عن حراك اجتماعي، ولذا فهم لا يريدون أن يسمعوا «شيئاً عن صهيون» على حد قول يوري جوردون رئيس قسم الاستيعاب في الوكالة اليهودية. وقد لخص أحد المهاجرين المرتزقة الموقف بقوله: «لم يكن أمامي خيار إلّا أن أذهب إلى إسرائيل بعد أن قضينا سبعة شهور في رومة». ولكنه أعلن عن تصميمه على عدم البقاء. وقد بدأت الصحف الصادرة بالروسية في إسرائيل بتخصيص مساحة كبيرة يحتلها أرييه ديري، وزير الداخلية، الذي وصف المهاجرين المرتزقة وصفاً دقيقاً حين قال: إنهم بعد وصولهم ستجدهم جالسين على حقائب السفر. وقال أوبليون: «بعض ممن لا يمكنهم الذهاب إلى الولايات المتحدة سيأتون إلى إسرائيل بهدف استخدامها محطةً على الطريق، وسيقومون باستغلالنا أيضاً، وسيأخذون أية خبرات قد نقدمها لهم، وقد ينتهي بنا الأمر إلى أن يتجمع عندنا عدد كبير من الناس الذين يشعرون بالبؤس والذين ينتظرون أول فرصة لينزحوا عن إسرائيل»، فهم يعرفون تماماً «أن إسرائيل بلد صعب وأن الولايات المتحدة بلد سهل بالمقارنة». والسهولة قيمة أساسية بالنسبة لهؤلاء الباحثين عن «الراحة والترف» (كما وصفهم يوري جوردون).

وقد وصف بعض المهاجرين الأسباب التي دعتهم إلى ترك الاتحاد السوفييتي، فقال أحدهم: إن الحياة هناك أصبحت مملة. فالهجرة إلى إسرائيل هي مجرد بحث عن الإثارة. وقال أحد أساتذة علم الجبر إنه ترك الاتحاد السوفييتي لأنه أدرك أن الوقت قد حان لأن يفعل ذلك، وأشار مهاجر ثالث إلى أنه ترك الاتحاد السوفييتي لأنه يريد أن يعيش حياة أفضل. وحتى يؤكد مدى عمق التزامه بهذه الفلسفة، ذكر أنه جاء لا ليشتري سيارة ولكن ليكون لديه سيارة بمحرك أكبر. ومن المستحيل أن نعرف كم مهاجراً (سوفيتياً) يشبه إيفان الذي ترك إسرائيل بعد أن عمل سنة في الكيبوتس، لأنه يكره التعصب الديني والطقس الحار، وكأنه كان يتوقع أن تكون أرض الميعاد في القطب الشمالي أو على مسافة قريبة من روسية، أو أن الحركة الصهيونية قد وعدته بأرض ميعاد مكيفة الهواء.

وكثير من هؤلاء الصهاينة أو المرتزقة ليس لهم علاقة كبيرة باليهودية. وقد جاء في صحيفة هآرتس (١/١/٢٠٠١) أن حوالي ٢٢٥ ألفاً من المهاجرين الروس الجدد (أي حوالي ٢٥٪) الذين سجلوا يهوداً ليسوا يهوداً بالفعل. كما ذكرت الصحيفة نفسها في عددها الصادر في ٢٢ يونية ٢٠٠٠ أن عدداً كبيراً منهم لم يكن يعرف في الماضي أنهم يهود ، أي أنهم اكتشفوا أنهم يهود فجأة (وبخاصة بعد أن عرفوا عن التسهيلات أو الرشاوى المالية التي تُقدَّم لهم). وتقوم المؤسسة الأشكنازية الغربية الحاكمة في إسرائيل بتيسير الأمور لهم. ولذا تعقد لهم امتحانات صورية في اليهودية يسهل عليهم اجتيازها حتى يمكن عدُّهم يهوداً، وهذا يعود لأسباب لا علاقة لها بالصهيونية، وإنما بتعديل الميزان الديموجرافي (السكاني) لصالح الأشكناز في مقابل السفارد، واليهود العلمانيين في مقابل الأرثوذكس، واليهود جملةً في مقابل العرب. وتذهب المؤسسة الحاخامية إلى أن نصف هؤلاء المهاجرين السوفيت ليسوا يهوداً (وبخاصة إذا عرفنا أن نسبة الزواج المختلط بينهم عالية جداً).

ويبلغ عدد الإسرائيليين من منشأ روسي (من الصهاينة المرتزقة) حوالي مليون (أي حوالي خُمس سكان إسرائيل) يشكلون كتلة «قومية» مستقلة، لها تميزها وحضورها الخاص، فهم كيان مستقل داخل الكيان الإسرائيلي، فلهم محطة إذاعة وتليفزيون خاصة بهم، وصحافة باللغة الروسية وأندية ومدارس. فهم - كما قال أحدهم - «يفكرون بالروسية ويتواصلون فيما بينهم». وتنبع قوة الثقافة الروسية المحلية (المنقطعة الصلة بالثقافة الإسرائيلية والمرتبطة بثقافة الوطن القديم) من حجمها الكبير ومن المؤهلات البشرية التي في حيازتها. ولذا فهي تحافظ بشراسة على استقلالها، بل إن أحدهم أشار إلى تكوين حزب إسرائيل بعالياه على أنه بداية حرب الاستقلال الخاصة بالروس. ولذا لا يُصنِّف إلَّا ١٦٪ منهم نفسه على أنه «إسرائيلي» مقابل ٢٦٪ عدَّ نفسه «من رابطة الدول المستقلة» و٣٢٪ عدَّ نفسه «يهودياً» (أي أقل من النصف) واكتفى ١٢٪ بأن سمّى نفسه تسمية محايدة «مهاجر جديد».

ولم يتم قبول هذه الكتلة الروسية من قبل المجتمع الإسرائيلي، ولذا يشعر ٥٩٪ من المهاجرين السوفييت أن المجتمع الإسرائيلي يستوعب الهجرة إما بلا مبالاة أو بعدائية. وفي المقابل حين سُئل الإسرائيليون عن وصفهم للمهاجرين السوفييت قال

حوالي ٣٦٪ إنهم إما بروفسير أو كناس وسمسار أو عاهرة (واتهام المهاجرين السوفييت باحتراف البغاء والجريمة المنظمة، اتهامات لها أساس في الواقع).

- **الهجرة الاستيطانية عام ٢٠٠١**

يتوقع المراقبون تناقص عدد المهاجرين إلى الكيان الصهيوني، مما يفاقم الأزمة السكانية الاستيطانية، فالصهيونية هي الاستيطان، والاستيطان يتطلب مادة استيطانية، أي مزيداً من المستوطنين الذين يملأون المستوطنات ويحلونَ محل السكان الأصليين ويمسكون بالقنابل والمسدسات لقمعهم وتسخيرهم. ولذا فالأزمة الاستيطانية تضرب في صميم المشروع الصهيوني، خاصة وأن تزايد عدد العرب في فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٤٨ وبعدها يهدد الكيان الصهيوني ويقوض طبيعته اليهودية الإحلالية. ولذا صرح مريدور (هآرتس ٣/ ٥/ ٢٠٠١)، رئيس الوكالة اليهودية إنه كي يحافظ الصهاينة على أغلبية يهودية بما لا يقل عن حوالي ٨٠٪ (كما هو الحال الآن) فإنه ينبغي على الدولة الصهيونية أن تجلب كل سنة من السنوات القادمة ما لا يقل عن حوالي ٤٠ ألف مهاجر. وأول هدف كما هو معتاد عبر تاريخ الصهيونية هو الجماعات اليهودية التي تواجه مشكلات مختلفة، أو الجماعات اليهودية في دول الضيق كما يسميها الصهاينة. وقد أصدرت اللجنة اليهودية الأمريكية جدولاً يبيِّنُ أعدادَ اليهود في الدول المرشحة للهجرة.

فرنسة	٥٢١,٠٠٠	جنوب إفريقية	٨٠,٠٠٠
الأرجنتين	٢٠٠,٠٠٠	دول الكومنولث	٤٦٨,٠٠٠

ولكن ما الذي يدعو يهود هذه البلاد للهجرة، خاصة فرنسة التي تضم الآن أكبر جماعة يهودية خارج إسرائيل والولايات المتحدة؟ تدَّعي الوكالة اليهودية أنه بعد اندلاع الانتفاضة تزايد معدل العداء لليهود، ومن ثم تحولت فرنسة إلى إحدى الدول الطاردة لليهود. ومما لا شك فيه أن رؤية الطائرات والدبابات الإسرائيلية وهي تهاجم المدن الفلسطينية والأطفال الفلسطينيين تثير حفيظة كثير من الفرنسيين، ولمّا كانت إسرائيل تصنف نفسها على أنها دولة يهودية ودولة اليهود، فإن علاقة بعض الفرنسيين بجيرانهم من أعضاء الجماعة اليهودية صارت تتسم بالتوتر، ولكن درجة التوتر تظل مع هذا معقولة.

وبالفعل أوضح أحد أهم المتحدثين باسم الجماعة اليهودية في فرنسة أن وقوع بعض الأحداث لا يعني أن فرنسة أصبحت دولة معادية لليهود، خاصةً وأن هذه الأحداث كانت محلية، وتمت إدانتها من قبل الجميع كما أن عدد الفرنسيين الذين يتأثرون بصور التليفزيون الفرنسي قليل، فالمسافة الزمنية المتاحة لمثل هذه الصور محدودة، خاصةً وأن فرنسة - شأنها في هذا شأن كل دول العالم الغربي - تؤيد النظام الصهيوني، ولا تشعر بالانزعاج تجاه ما يمارسه من إرهاب وقمع وقتل وتشريد؛ وتراه دفاعاً مشروعاً عن النفس!

ويدَّعي المتحدث باسم الوكالة اليهودية أن مجرد ازدياد حجم الجالية الإسلامية في فرنسة من شأنه أن يتسبب في عدم استقرار أعضاء الجماعة اليهودية، ولا ندري كيف ربط رئيس الوكالة اليهودية بين الظاهرتين وأوجد بينهما علاقة سببية.

لكل هذا يصنِّف المتحدثون باسم الوكالة اليهودية فرنسة أنها إحدى بلاد الضيق، ولكن أعضاء الجماعة اليهودية في فرنسة والمتحدثين باسمهم يرفضون هذا التصنيف، فهم يشعرون أن فرنسة هي بلدهم وليست منفى أو شتات. ويشهد على ذلك معدلات الاندماج العالية. كل هذا يعني أن معدلات الهجرة من بلد مثل فرنسة ستظل ضئيلة للغاية، فلا يمكن عدُّها إلَّا كمّاً مهملاً من الناحية الإحصائية.

أما بخصوص الأرجنتين (وأمريكة الجنوبية بصفة عامة) فيرى المتحدثون باسم الوكالة اليهودية أنها تواجه منذ سنواتٍ وضعاً اقتصادياً صعباً بسبب التدهور الاقتصادي. ولكن هل التردي الاقتصادي في الأرجنتين كبير إلى هذه الدرجة؟ وعلى أية حال بدأ هذا التردي منذ مدة طويلة ومع هذا لم يهاجر يهود الأرجنتين إلى إسرائيل وإنما هاجروا إلى الولايات المتحدة، حيث توجد فرص اقتصادية أكبر من تلك التي قد تتاح لهم في إسرائيل، إلى جانب أنها أكثر قرباً إلى الأرجنتين. ويلاحظ أن المؤسسات اليهودية الأمريكية تساعد يهود أمريكة اللاتينية المهاجرين إلى الولايات المتحدة على الاستقرار والاندماج في مجتمعهم الجديد، وفي محاولة التغلب على إحجام أعضاء الجماعات اليهودية في الأرجنتين عن الهجرة إلى إسرائيل، قامت الوكالة اليهودية برفع حجم ميزانيتها حوالي ١٠ ملايين دولار، كما توسعت في شبكة المدارس اليهودية التي تقوم بتحويلها. ولكن من المعروف أن الشباب اليهودي في الأرجنتين منصرف تماماً عن المؤسسات اليهودية وأن

المدارس اليهودية تغلق أبوابها، وقد أثبتت حضارة أمريكة اللاتينية مقدرتها العالية على هضم اليهود واستيعابهم وصهرهم، وهي في هذا لا تختلف كثيراً عن الحضارة الفرنسية.

أما الجماعة الثالثة فهي الجماعة اليهودية في جنوب إفريقية، والتي ظهرت مشكلتها مع تولي الأفارقة السود الحكم في عام ١٩٩٣، الأمر الذي أدى إلى ظهور نخب سياسية واقتصادية وثقافية جديدة حلت محل النخب البيضاء (والتي كانت تضم أعضاء الجماعة اليهودية). وقد أدى الانخفاض الحاد في الاستثمارات الأجنبية إلى الانكماش الاقتصادي، ومرة أخرى يطرح السؤال نفسه: هل الفرص الاقتصادية في إسرائيل أكبر؟ والإجابة طبعاً بالنفي، ولذا هاجر أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية إلى أسترالية ونيوزيلندة.

ولذا شرعت الوكالة في تنفيذ خطة سمتها خطة «الشباب يسبق الوالدين في الهجرة». فيذهب مندوبو الوكالة اليهودية إلى أسترالية ونيوزيلندة حيث يوجد أعضاء الجماعة اليهودية الذين هاجروا من جنوب إفريقية، ويقترحونَ عليهم تلقي تعليمهم الثانوي في إسرائيل على أمل أن يلحق بهم الوالدان. ولكن ما الذي يجعل مندوبي الوكالة اليهودية يتصورون أنهم بإمكانهم إقناع أعضاء الجماعة اليهودية الذين هاجروا من جنوب إفريقية إلى أسترالية ونيوزيلندة وطنهم الجديد؟ لم تكن فرصة الاستيطان في إسرائيل متاحة أمامهم في المقام الأول، ولكنهم آثروا الاستقرار في أسترالية على الاستيطان في إسرائيل؟

ثم تأتي أخيراً دول الكومنولث، ويلاحظ كما أسلفنا تناقص عدد المهاجرين من هذه الدول، فقد لا يزيد عددهم سنوياً في السنوات المقبلة عن ٢٠ - ٣٠ ألفاً، وهذا يعود إلى أن موجات الهجرة السابقة قد حملت معها كل القادرين والراغبين في الهجرة، ومن ثم جف الخزان البشري الرئيسي الذي كان يمد الكيان الصهيوني بالمادة الاستيطانية البشرية. كما أن المشاكل التي واجهها المهاجرون الروس في إسرائيل قد وصلت إلى مسامع من تبقى من يهود الكومنولث. هؤلاء على أية حال إما هم من كبار السن غير القادرين على الهجرة أو ممّن يتمتعون بوضع اجتماعي واقتصادي مستقر. ولذا يقترح مندوب الوكالة اليهودية أن تضمن الوكالة لمن تبقى من يهود الكومنولث وظائف في إسرائيل ثم يدعون بعد ذلك للهجرة.

وما يفوت المتحدثين باسم الوكالة اليهودية أن أي حركة هجرة من بلد إلى آخر تستند إلى عنصرين: عنصر طرد من البلد الأصلي وعنصر جذب إلى البلد الذي تتم الهجرة إليه. وكما بينا؛ عنصر الطرد في بلد مثل فرنسة غير متوافر، وإن توافر في بلد مثل جنوب إفريقية فإن إسرائيل ليست ذات جاذبية كبيرة، خاصةً بعد أزمتها الاقتصادية الناجمة عن الانتفاضة والتي جاءت في أعقاب الانكماش الشديد الذي أصيبت به شركات الهاي تك في الولايات المتحدة، والذي كان له مردود سلبي على قطاع الهاي تك في إسرائيل، والذي كان يعد أكثر القطاعات الاقتصادية نجاحاً فيها. كما أن استمرار الانتفاضة أمر لا يُدخل السعادة كثيراً في قلوب المهاجرين الاستيطانيين ولا يحقق لهم الأمن، فهم لا ينتقلون من بلد إلى آخر إلا لتحقيق مزيد من الرفاهية والمتعة لأنفسهم، والدولة الصهيونية في زمن الانتفاضة المجيدة لا تفي بالشروط.

ويلاحظ أن المتحدثين باسم الوكالة اليهودية يستخدمون - في معظم الأحيان - منطقاً اقتصادياً واضحاً، ولا يتحدثون قط عن العودة إلى أرض الأجداد «أو» خلاص الشعب اليهودي «أو عن أي من الشعارات القديمة»، فجوهر منطقهم هو أن فرص الحراك الاجتماعي والاستقرار والأمن أعلى في إسرائيل منها في بلد مثل الأرجنتين أو حتى فرنسة.

- **طريق الهروب من إسرائيل**

نشرت جريدة هآرتس مقالاً طويلاً (٢٤ أغسطس ٢٠٠١) بعنوان «طريق الهروب» ترسم فيه صورة تفصيلية للمناخ العام الجديد في المستوطن الصهيوني الذي أصبحت فيه ظاهرة النُزوح (أي الهجرة من الكيان الصهيوني) مقبولة اجتماعياً ففي استطلاع للرأي أبدت أقلية فقط من بين الإسرائيليين (٣٧٪) موقفاً سلبياً تجاه الإسرائيليين (النازحين) وأبدى ٦٥٪ موقفاً إيجابياً، وأعرب ٤٣٪ عن لا مبالاتهم، أي أن النزوح من إسرائيل لم يعد مسألة تُرفض وإنما أصبح قضية تُناقش، لها إيجابياتها وسلبياتها.

تبدأ المقالة بالإشارة إلى خبر طريف وهو تأسيس رابطة تعاونية بوسع المستوطن الإسرائيلي أن يدفع ٤٥٠٠ دولار للانضمام إليها، ومن ثَمَّ يمتلك قطعة من الأرض في بلدة تسمى فانواتو Vanuatu، وتضم هذه الرابطة حتى الآن حوالي

٢٠٠٠ أسرة إسرائيلية ينوون النزوح عن إسرائيل والاستيطان في هذه البلد. ويقول آفي آيدلمان، سكرتير عام الرابطة، «الرابطة تنوي إقامة منطقة حرة ومركزاً للصناعات التكنولوجية المتقدمة كما سيتم التركيز على السياحة» لأنه «سوف تأتي أعداد كبيرة من السياح الإسرائيليين، وسيأتي أصدقاؤكم ليروا كيف نجحنا، وأما الذين يكرهونكم فسوف يأتون ليروا كيف فشلنا». «وأراهن على أن قيمة الأرض سترتفع، وسنساعد على إقامة قنصليات لدولة فانواتو لجلب مزيد من السياح والاستثمارات».

ويشير المقال إلى أن فانواتو هي مجموعة من الجزر في المحيط الهادي نالت استقلالها عن الحكم البريطاني - الفرنسي المشترك عام ١٩٨٠، وهي بلد لم يسمع أحد عنها، ولكنها تمثل بالنسبة إلى المشتركين في الجمعية «الأرض الآمنة». ويقول سكرتير عام الرابطة إن «فانواتو ليست إسرائيل، وليس فيها فقر ولا جريمة، والنظافة فيها مذهلة... إنها جزيرة ترتفع عن سطح البحر الميت وليس بها ثعابين ولا عقارب، وليس بها شعبان يحارب بعضهما بعضاً». فكأن فانواتو تحقق للمستوطنين ما فشلوا في تحقيقه في إسرائيل، هي أرض بلا شعب تقريباً، فردوس أرضي حقيقي.

وهذا الخبر الطريف يعد مدخلاً جيداً لفهم العقل الإسرائيلي، وخاصة مع استمرار الانتفاضة، فكما يقول المقال: إنه بسبب تردي الوضع الأمني والانكماش الاقتصادي بدأ الإسرائيليون يبحثون عن مصادر للأمان فيما وراء البحار: جوازات سفر، تأشيرات عمل - عقارات، لهذا السبب وجد الصحفي بن تسيون تسيترين نفسه مطلوباً أكثر من أي وقت آخر لأنه كتب كتاباً بعنوان «كل الطرق للحصول على جواز سفر آخر». وقد لاحظ تسيترين أن الكتاب الذي صدر منذ ١٥ عام كان يحقق مبيعات كبيرة إلى أن تم توقيع اتفاقية أوسلو «فالناس لم تعد تفكر في الرحيل، ولم يعد الكتاب يُباع، ولكن منذ اندلاع الانتفاضة الثانية وأنا أتلقى عشرات المكالمات الهاتفية».

ولكن ما الذي يدفع المستوطنين الإسرائيليين إلى التفكير في الهروب؟ يقول المقال: إن الباحثين عن جواز سفر جديد يمارسون إحساساً بالفزع والخوف والهستريا والإحساس بالعجز والقلق، ويرون أنه لا أمل في التوصل إلى اتفاقية

سلام. إنهم يخافون من اندلاع حرب شاملة ومن صواريخ الكاتيوشا فوق رؤوسهم، ولا يريدون العيش في ملاجئ ولا يريدون تعريض أطفالهم للخطر ويخافون على مصير أولادهم.

ويلاحظ المقال أن عدداً لا بأس به من الإسرائيليين قد بدأ يتكالب على شراء العقارات في الخارج. وتقدر نسبة الزيادة بحوالي ٣٠٪ مقابل العام الماضي. والأماكن المفضلة لهم هي تورنتو في كندة (فأسعار العقارات هناك أقل بنسبة ٤٠٪ من عام ١٩١٩، وهذه المدينة تعتبر مركز النشاط التجاري الضخم) - وحي مانهاتن بنيويورك (رغم ارتفاع الأسعار فيه) - وولاية فلوريدا. أما في أوربة، فالمجر وتشيكيا مطلوبتان (في ضوء انضمامهما الوشيك إلى الاتحاد الأوربي) وكذلك إسبانية (منطقة كوستا ديل سول) وفرنسة. فوجود شقة يمتلكونها في الخارج يمنحهم الأمن النفسي، واعتقادهم هو أنه في حالة وجود عقار يملكونه بالخارج فهذا معناه وجود ملاذ يهربون إليه في حالة حدوث حرب ما.

وتُعَدُّ الولايات المتحدة الهدفَ المفضل لدى الإسرائيليين الذين يرون الرحيل عن إسرائيل. ويشير استطلاع للرأي أجراه ملحق هآرتس إلى أن ٤٣٪ من الإسرائيليين الذين فكروا في الرحيل عن إسرائيل خلال الأشهر الماضية فضلوا الولايات المتحدة و ١٨٪ يريدون الهجرة إلى أسترالية و ١٤٪ يريدون التوجه إلى أوربة و ٥٪ إلى كندة و ٢٪ إلى بريطانية: «أهم شيء بالنسبة للإسرائيلي في الدول الأجنبية هو أسلوب الحياة. فالإسرائيلي لا يسافر إلى لاجوس من أجل أن يحصل على ١٠٠٠ دولار زيادة في الشهر. إن الساحل الغربي للولايات المتحدة هو الهدف المطلوب رقم واحد بالنسبة إليهم. ويرجع هذا أساساً إلى وجود جالية يهودية إسرائيلية كبيرة هناك، ويتوجه الإسرائيليون إلى الولايات المتحدة وكندة وبريطانية. وبرزت هولندة دولةً للهجرة خلال العام الماضي. وكذلك أسترالية التي توجد بها جالية يهودية نشطة تحب الإسرائيليين ومعدل غلاء المعيشة بها معقول».

ويشير المقال إلى مقدرة الإسرائيليين الفائقة على التكيف مع بيئتهم الجديدة. إنهم يتعلمون اللغات بسرعة، لأن الإسرائيليين مهاجرون بطبيعتهم (فالحديث عن النزعة الجيتوية عند اليهود ورغبتهم في أن يعزلوا أنفسهم ليس له أساس من الصحة).

وحالة المستوطن الإسرائيلي عاموس ساهر، الذي يعمل مرشداً سياحياً، والبالغ من العمر ٣٥ عاماً تستحق الدراسة، فقد قرر الرحيل هو وزوجته وابنه الصغير بعد أن يجد مشترياً لشقته. يقول ساهر: «لم يكن الأمر هيناً لقد استغرقتني أعوام من الانفجارات وأعمال القتل، من الأحزان والآمال، من المجادلات والقلق، لكنني في النهاية انهرت، سئمنا أن نجدهم في كل مرة نفتح المذياع يتحدثون عن انفجارات، عن دماء، عن موت، عن جنائز. هذا هو الواقع صراحةً. ولست فخوراً بذلك، ولا أعدُّ هذا شعاراً لي ولكن من المستحيل أن تقولوا لنا عليكم أن تبقوا هنا طالما أنه من المستحيل أن تضمنوا لنا حياتنا. إسرائيل تمثل بالنسبة لنا إمكانية واحدة من بين العديد من الإمكانيات في العالم. أريد أن أمنح أسرتي أقصى قدر ممكن من السعادة». ويضيف ساهر: «الجميع الآن يعتقد أنه لا مجال نتقدم نحوه. ليس هناك ما نتقدم نحوه. المشكلة هي أننا عبر الـ ٥٣ سنة الماضية لم ننجح في ضمان أمننا. هذا هو سبب الرحيل. نحن نشعر بعدم وجود مخرج». «الحل هو الرحيل وليس تغيير السلطة. من الصعب عليَّ أن أقول هذا. ولكننا نعيش في إسرائيل كما لو كنا مسحورين. نحن نخرج إلى الشوارع ومن الممكن أن يحدث أي شيء وأن ينسفنا معه ويحولنا إلى أشلاء. أنا لا أرى أملاً في حدوث تغيير كبير. وإحساسي يقول - ليس فقط الإحساس ولكنه التحليل العقلاني - إنه لا سبيل لضمان حياة الناس هنا. أعلم أن هناك أماكن لا تحدث بها مثل هذه الأمور. لا توجد أماكن محصنة من الموت ولا توجد أماكن ليس بها مجانين. ولكن توجد أماكن يمكنك أن تصحو في الصباح وتفتح عينيك وتحتسي فنجان القهوة وتخرج وتقول صباح الخير للناس، وأهم شيء هو أن تصل إلى موقع عملك في الموعد المحدد. أنا ببساطة أشعر بالقلق على طفلي الرضيع..! ويبدو أن من سيحاولون إقناعي أن أبقى يفضلون أن أموت هنا على أن أعيش في مكان آخر. أما أنا شخصياً فأفضل الحياة ولا أخجل من ذلك».

وقد نشر ساهر موقفه هذا على شبكة الإنترنت (موقع يدعوت أحرونوت ٤ يونيه ٢٠٠١). وتعكس التعليقات على موقفه الحالة المعنوية لدى الجماهير. فقد هاجمه الأغلبية، ولكن كانت هناك أقلية واجهت نفسها، فالمستوطن يوني من مستوطنة رحوفوت قال: «أخيراً.. لقد قال أحدنا وفعل ما ترغب الأغلبية في قوله وفعله، ولكنها تخاف من أن تقوله وتفعله».

وقد سُئل ساهر إذا ما كان سيفتقد أصدقاءه والطبيعة الجميلة واللغة، فكان رده هو رد مستوطن حقيقي، مهاجر دائم لا جذور له، فقال: «يمكنني أن أحب الطبيعة في مكان آخر.. إن كل ما أكلناه هنا منذ لحظة ولادتنا.. ليس أعمق جذوراً مما هو موجود في أماكن أخرى. إنني لا أفهم كيف يمكن أن أحب إسرائيل بينما يطلقون النار عليّ في كل مكان». إن ساهر لا يبحث إلا عن متعته وخلاصه الفردي، ولذا فوطنه هو مصلحته، وهو لا يختلف في ذلك عن كثير من المستوطنين الصهاينة، خاصةً المهاجرين الجدد من الاتحاد السوفييتي (سابقاً) الذين وصفهم أحدهم بأنهم يجلسون على حقائبهم، أي أنهم يستوطنون في إسرائيل بشكل مؤقت حتى يجدوا فرصاً أحسن للحراك الاقتصادي والاجتماعي، ولذا سميناهم «المستوطنين المرتزقة». ولذا حينما سأله مندوب هآرتس إذا ما كان يضايقه الشعور بالرضا الذي سيشعر به أعداء إسرائيل بعد سماع كلامه هذا، أجاب بأنه ليس «مسؤولاً عن الروح المعنوية في إسرائيل ... لست في حاجة لتصور ما يفكر فيه حسن نصر الله عندما يقرأ عن عاموس ساهر، مرشد الرحلات.. حسن نصر الله ليس في حاجة لعاموس.. (ببساطة شديدة)، عاموس لا يريد أن يقف بسيارته فيتعرض للنسف». ويضيف: «لقد شاهدت أناساً يعيشون بهذه الطريقة. إنني أبحث عن مكان صغير وهادئ حتى الملل. مكان يترك فيه الناس أبواب منازلهم مفتوحة وهم خارجها. وأعرف أن هذا موجود».

إن ما يشعر به المرشد السياحي والمستوطن الصهيوني عاموس ساهر ولا شك هو شعور معظم المستوطنين الصهاينة، بعضهم يملك الجرأة أن يفصح عن شعوره ورغبته الدفينة، وبعض آخر لا يجسر على مواجهة ذاته. ولكن هل سيستمر الوضع على ما هو عليه؟

- **البحث عن يهود في الهند والسند!!**

في إطار بحث الدولة الصهيونية المستميت عن يهود أو شبه يهود أو من يدعون اليهودية في أي مكان من العالم من أجل حل المشكلة الاستيطانية المتفاقمة فيها، تُبذل جهود كبيرة في الوقت الراهن لتهجير جماعة من يهود الهند، يُطلق عليها اسم «يهود مانييور»، تمهيداً لتوطينها في المستوطنات المنتشرة على الأرض الفلسطينية. ويزعم أفراد هذه الجماعة أن أصولهم تعود إلى أحد الأسباط أو القبائل العبرانية

القديمة، وهو سبط منشه، وأنهم استوطنوا في بادئ الأمر في مدينة كايفنج في الصين، ثم رحلوا عنها منذ ثماني مئة عام هرباً من الغزو المغولي، واستوطنوا الكهوف في الهند الصينية وانتهى بهم المطاف إلى منطقة مانيبور، على حدود الهند مع ميانمار (بورما) في القرن الثالث عشر. وتشير الموسوعات اليهودية إلى أن أفراد هذه الجماعة نسوا تراثهم اليهودي، أو انصرفوا عنه، وأنهم لا يمارسون معظم الشعائر الدينية اليهودية، مثل الختان، ولا يعرفون التلمود، ولا علاقة لهم بالتوراة، شأنهم في ذلك شأن «يهود كايفنج». ولكن من المفارقات أنهم اكتشفوا التوراة مجدداً من خلال البعثات التبشيرية المسيحية، فبدؤوا يمارسون الشعائر المسيحية واليهودية جنباً إلى جنب مع بعض العبادات الوثنية السائدة في المنطقة. ولهذا السبب، تذهب الجماعات اليهودية الأخرى في الهند إلى القول إنَّ «يهود مانيبور» ليسوا يهوداً على الإطلاق. وتذكر الموسوعات اليهودية أن عدد هذه الجماعة لا يزيد عن بضع مئات، بل وذكر أحد المصادر أن عددهم لا يتجاوز مئة.

هذه هي الحقائق التي درجت الموسوعات على ذكرها قبل أن تبدأ الدولة الصهيونية مساعيها لتهجير أفراد تلك الجماعة. أما في الوقت الراهن، فإن الصحف الإسرائيلية تحاول تقديم صورة مغايرة تماماً لتاريخ هذه الجماعة ووضعها الحالي متجاهلة عن عمد ما في هذه المحاولة من تزييف للواقع. ولِمَ لا والمشروع الصهيوني برمته هو في جوهره محاولة لتزييف حقائق التاريخ والجغرافية واختلاق واقع استيطاني إحلالي جديد. فعلى سبيل المثال، كتب رامي حازوت وحاييم شيفي مقالاً بعنوان «البحث عن السبط المفقود» (صحيفة **يديعوت أحرونوت**، ١١ أغسطس/آب ٢٠٠٤)، زعما فيها أن عدد «يهود مانيبور» هو ستة آلاف، دون أن يوضحا المصادر التي استندا إليها للوصول إلى هذه النتيجة، ودون أن يوضحا بطبيعة الحال كيف قفز العدد بهذه السرعة خلال سنوات معدودة. وربما كان التفسير الوحيد للتزايد الغامض، هذا إن كان قد حدث فعلاً تزايد، هو أن عدداً كبيراً من سكان مانيبور قد ادعوا أنهم يهود أملاً في الحصول على بعض المغانم الاقتصادية والاجتماعية. وقد توجه وفد إسرائيلي، يضم عدداً من الحاخامات، إلى الهند للتعرف على أحوال «يهود مانيبور» وحثهم على الهجرة إلى الدولة الصهيونية، وعاد أحدهم ليؤكد أن لدى هذه الجماعة ما بين عشرين إلى ثلاثين معبداً صغيراً، وهو عدد كبير لا يتناسب مع عدد الجماعة حتى لو صح أنه ستة آلاف، وأن

أفرادها يتوجهون إليها لأداء الصلاة في أيام السبت وفي الأعياد، وأنهم يحرصون بشدة على تناول الطعام الحلال (الكاشير) وممارسة شعائر الختان. ويبدو أن الوفد تعمد أن يقدم صورة وردية عن الانتماء اليهودي لأفراد الجماعة حتى يتسنى تبرير المساعي الرامية إلى تهجيرهم والمبالغ الطائلة التي تُنفق لهذا الغرض. وقد كشفت كوليت أفيطال، رئيسة لجنة الهجرة والاستيعاب في الكنيست، عن وجه آخر لتلك المساعي عندما قالت إن الهدف من جلب أمثال هؤلاء ليس إنقاذهم بل توطينهم في التجمعات السكنية خلف الخط الأخضر، أي في المستوطنات الاستعمارية الإحلالية التي تبتلع مساحات شاسعة من الأراضي الفلسطينية.

ومن جهة أخرى، تثير المؤسسة الدينية كثيراً من الشكوك حول حقيقة الأصول اليهودية لأفراد «يهود مانيبور»، إذ يقول بعضٌ داخل الحاخامية الرئيسية إنه لا توجد أية مصادر، من قبيل كتب الأنساب، تثبت تاريخ أبناء هذا السبط. والملاحظ أن ادعاءات الوفد الإسرائيلي عن الطابع اليهودي لحياة أبناء هذه الجماعة تستند بالأساس إلى ما يقصه شيوخها من حكايات عن أنهم شاهدوا أجدادهم وهم يمارسون الشعائر اليهودية ويعيشون في إطار نمط يهودي، وهي حكايات لا تكفي للتدليل على هوية هذه الجماعة وتمسكها باليهودية. فلو كانت هذه الهوية لا تزال قوية ومتماسكة حقاً، فما الداعي إلى البحث عن كتب الأنساب؟ ولماذا اللجوء إلى اجترار ذكريات الكهول؟

والواقع أنه لا يمكن فهم الدوافع الحقيقية وراء هذا السعي المحموم لجلب أمثال تلك الجماعات إلا على ضوء الأزمة السكانية المحتدمة التي تعانيها الدولة الصهيونية. فآلة القتل الإسرائيلية لا تكف عن الدوران، وهو الأمر الذي يتطلب مادة استيطانية جديدة على الدوام، كما أن أعداد اليهود الذين يفدون تتناقص بشكل كبير بالمقارنة مع من ينزحون إلى الخارج، فضلاً عن التزايد المستمر في أعداد السكان الفلسطينيين مما يهدد بوجود أغلبية عربية في غضون سنوات قلائل. ولهذا كله، لا تجد الدولة الصهيونية سبيلاً إلا «فبركة» الانتماء اليهودي لمثل هذه الجماعات الثانوية في بيرو أو غينية أو الهند أو غيرها. وفي المقابل، لا يجد أبناء هذه الجماعات، الذين يعانون عادةً من التهميش والضائقة الاقتصادية، ما يمنعهم من ادعاء اليهودية والهجرة إلى الدولة الصهيونية، خاصة وأن كل من «يُعاد

تأهيله»، أو تهويده، يتقاضى نحو عشرين ألف دولار، بالإضافة إلى مزايا رعاية الأطفال التي يحصل عليها المستوطن (صحيفة الرأي، ٢٢ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٣).

وقد تؤدي هجرة هذه الجماعات الهامشية إلى تخفيفٍ من حدة المشكلة الاستيطانية، إلا إنها تخلق في الوقت نفسه مزيداً من المشاكل والأزمات، وفي مقدمتها تعميق التوتر بين المستوطنين من أصل شرقي والمستوطنين من أصل غربي، وهو توتر قديم قدم الدولة الصهيونية نفسها. فاليهود الغربيون هم الذين أسسوا الدولة، وهم الذين حاولوا تسويغ وجودها بأنها ستكون واحة للديموقراطية الغربية وقاعدة عسكرية متقدمة للحضارة الغربية وحاجزاً للغرب في مواجهة ما أسموه «الهمجية الشرقية». ولكن هاهي جحافل الشرقيين تأتي مرة أخرى تحت رايات الحاخامات الأرثوذكس، الذين لا يرون حرجاً في التغاضي عن كثير من المعايير الصارمة لما يُسمى «الهوية اليهودية»، حتى وصل عدد الشرقيين إلى أكثر من نصف سكان التجمع الصهيوني، وهو الأمر الذي ينتقص من مكانة اليهود الغربيين ومن المزايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي طالما تمتعوا بها.

وأمام وضع كهذا، فليس من المتوقع أن تؤدي هجرة «يهود مانيبور» وغيرهم إلّا إلى تفاقم الصراع بين الغربيين والشرقيين وبين المتدينين والعلمانيين، فضلاً على أنها لا تقدم حلاً للمشكلة الأزلية في الدولة الصهيونية، ألا وهي تزايد الفلسطينيين كماً وكيفاً وإصراراً على المقاومة.

- **تهجير الجماعات اليهودية الهامشية**

جاء في الأنباء أن بضعة آلاف من يهود الهند سيهاجرون إلى إسرائيل. وعادةً ما يُفسر مثل هذا الخبر على أنه انتصار آخر للحركة الصهيونية، ولكن نظرة مدققة على الأمر تبين أن هذه الهجرة سيكون لها مردود سلبي بالنسبة للدولة الصهيونية. فهي، بدايةً، تعبِّر عن تفاقم الأزمة الاستيطانية السكانية في الكيان الصهيوني، فيهودُ الولايات المتحدة والعالم الغربي يبدون سعداء ومستقرين تماماً في «المنفى» ولا يرضون عنه بديلاً، كما نضب المعين البشري اليهودي في شرق أورية، وهي المصدر الأساسي للهجرة الصهيونية الاستيطانية، ولم تفلح دعوة شارون التحريضية ليهود فرنسة على الهجرة إلى إسرائيل في جذب أكثر من مئتي شخص، بل وعاد بعضهم مرة أخرى إلى فرنسة. وقد تناقص عدد المهاجرين اليهود إلى الدولة

الصهيونية حتى أصبحت أفواج المهاجرين أشبه بالأفواج السياحية، بينما تزايد النزوح بصورة ملحوظة، حيث أشارت تقديرات غير رسمية إلى أن واحداً من كل اثنين قدما إلى إسرائيل خلال عام ٢٠٠٢ قد عاد إلى بلاده أو هاجر إلى دولة أخرى (صحيفة **الشرق الأوسط**، ١٤ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٣).

وتتزايد حاجة الدولة الصهيونية إلى مستوطنين مع التوسع في بناء المستوطنات ومع تصاعد المقاومة الفلسطينية، ولذلك بدأت الدولة الصهيونية البحث في أي مكان عن يهود أو شبه يهود أو حتى عن من يدعون اليهودية، بل ويبدو أنها لا تمانع في هجرة غير اليهود ماداموا من غير العرب، وماداموا قادرين على الاستيطان والقتال. فقد ذكر أحد المواقع الإسرائيلية على الإنترنت أن ٥١ بالمئة ممن تم تجنيدهم من المهاجرين الجدد ليسوا يهوداً (موقع www.israelnn.com، ٢٧ مايو/ أيار ٢٠٠٣). وهذه الرغبة المحمومة في جذب أي أعداد من المستوطنين هي السبب وراء السماح لأفراد جماعة «الفلاشاه موراه»، وهم غير «الفلاشاه»، بالهجرة إلى الدولة الصهيونية رغم أنهم تنصروا منذ قرنين من الزمان، ورغم أن اليهودية التي كانوا يؤمنون بها من قبل تختلف تماماً عن اليهودية الحاخامية أو التلمودية، كما كانت الرغبة نفسها هي التي حدت ببعض الحاخامات الأرثوذكس إلى السفر إلى بيرو وتهويد ستين أسرة من قبيلة «الإنكا» (الهنود الحمر) ثم توطينهم بعد ذلك في الضفة الغربية، بالرغم من أن اليهودية الأرثوذكسية لا تشجع الأغيار على اعتناق اليهودية، فضلاً عن أن مراسم التهويد صعبة ومعقدة إلى أبعد الحدود. وانطلاقاً من إدراك الأزمة السكانية الاستيطانية، أصدر الحاخام الأشكنازي الأكبر إسرائيل لاو فتوى تجيز التغاضي عن كثير من مراسم التهويد التقليدية، والاستعاضة بها طقوساً سهلةً وسريعةً يمكن أن يُطلق عليها اسم «تهويد التيك أواي Take Away»!!

وقد امتد البحث عن يهود أو شبه يهود إلى أوغندة، حيث عُثر هناك على جماعة تُسمى «أوغنديو أبايوديا» Abayudaya Ugandans، وهي جماعة هامشية لا يُعرف على وجه الدقة مدى علاقتها باليهودية. وقد تنبأ أحد الكتاب الإسرائيليين بأن على إسرائيل أن تتوقع موجةً كبيرة من المهاجرين من العالم الثالث قد «يغيرون وجه اليهودية» (مجلة **جيروسالم ريبورت**، ٩ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٤). وهذه العبارة

مبهمة، ولكنها تعني في واقع الأمر أن اليهودية التي يؤمن بها أمثال هؤلاء المهاجرين الجدد، هذا إن كانوا يؤمنون باليهودية أصلاً، لا علاقة لها باليهودية المعروفة في أوساط يهود العالم. فعلى سبيل المثال، توجد جماعة في غرب إفريقية تُسمى «مافامبو» تنحصر علاقة أعضائها باليهودية في أنهم يقيمون شعائر السبت. كما توجد بالقرب من ساحل مدغشقر جماعة تُسمى «زافي إبراهيم» أي «نسل إبراهيم» وتزعم المصادر الصهيونية أنها يهودية بالرغم من أن تقاليدها وعقائدها لا تختلف كثيراً عن باقي السكان.

ومن الجماعات الهامشية الأخرى التي تسعى الدولة الصهيونية إلى تهجيرها يهود الجبال أو يهود داغستان، الذين يُطلق عليهم أيضاً اسم «يهود التات» نسبةً إلى قبيلة «التات» الإسلامية التي تعيش هذه الجماعة وسطها. وهذه الجماعة ذات أصول إيرانية، ويتحدث أفرادها لغةً تُسمى «جوهوري»، وهي إحدى اللهجات الفارسية ودخلت عليها كلمات تركية وعبرية، حسبما يذكر أحد المصادر، وإن كان مصدر آخر يؤكد أنها لهجة يديشية قوقازية ذات أصول إيرانية. وقد بدأت هجرة أعضاء هذه الجماعة إلى داغستان في منتصف القرن السابع الميلادي، مع الفتح الإسلامي للمنطقة، واستمرت حتى الغزو المغولي في القرن الثالث عشر. وانقطعت الصلة بين يهود الجبال وبقية يهود العالم فاندمجوا في الحضارة القوقازية الإسلامية في هذه المنطقة واكتسبوا كثيراً من عادات مجتمعهم وقيمه القبلية، مثل تمجيد الشجاعة والدفاع عن الشرف والثأر. وتشبه معابد هذه الجماعة المساجد في معمارها الخارجي، كما يُستخدم المعبد اليهودي مدرسةً دينيةً شأنه شأن المساجد في تلك المنطقة، حيث يجلس الأطفال على الأرض ويحفظون التوراة على يد حاخام. ويحتفل أعضاء هذه الجماعة بالأعياد اليهودية على طريقتهم، كما دخلت على عقائدهم بعض العناصر المجوسية، فهم يقسمون بالنار ويعتقدون أن إشعال النار بجوار المرضى كفيل بشفائهم ويؤمنون بعدد كبير من الشياطين والأرواح. وبالرغم من هذا، فقد أوفدت الوكالة اليهودية بعض مندوبيها إلى داغستان سعياً إلى تهجير هذه الجماعة، وبالفعل هاجر نحو ١٢ ألف شخص منهم إلى الدولة الصهيونية حتى عام ١٩٨٥، إلا ان زعماء الجماعة يعارضون هذا المسعى الصهيوني ويرون أن الهجرة ستؤدي إلى القضاء على ثقافتهم المميزة (مجلة جيروساليم ريبورت، ١٣ يوليو/ تموز ١٩٩٥)، وقال هيزجيل أفشالوموف، وهو

أهم دارس لثقافة هذه الجماعة، «نحن من بني التات ونؤمن بالعقيدة الموسوية... وسنمكث هنا في داغستان ولن نجري وراء النقود»، أي إنه يؤكد انتماءه إلى مجتمعه، مما يعكس واحدةً من أبرز نقاط التوتر بين الدولة الصهيونية والجماعات اليهودية في العالم، كما يكشف الوجه الحقيقي لما يُمكن تسميته «صهيونية المرتزقة»، أي صهيونية هؤلاء الذين يستوطنون في «أرض الميعاد» لا بحثاً عن الخلاص الروحي ولا لتحقيق النموذج الأعلى الصهيوني، المتمثل في اغتصاب الأرض من سكانها وجمع يهود العالم في دولة تُسمي نفسها «دولة يهودية»، وإنما بدافع السعي إلى تحسين دخلهم ومستوى معيشتهم.

إلا أنَّ دعوة أفشالوموف إلى البقاء في داغستان ورفض الإغراءات الصهيونية قد لا تلقى آذاناً صاغية بسبب الاضطرابات السياسية في تلك المنطقة، كما أن الأجيال الجديدة من أبناء الجماعة، شأنها شأن كثير من أبناء الأجيال الجديدة في معظم أنحاء العالم، تقع فريسةً للإعلام الغربي الذي يقوض من هويتها وذاكرتها التاريخية وإحساسها بالانتماء. ومن ثم، فالأرجح أن يتجه باقي «يهود التات» إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة إن سنحت لهم الفرصة، أو الهجرة إلى الدولة الصهيونية إن سُدت كل السبل الأخرى أمامهم، وفي كلتا الحالتين فسوف تظل الأزمة السكانية الاستيطانية في هذه الدولة قائمةً ومتفاقمة.

- **الأسطوانة الصهيونية الرتيبة**

من المعروف أن ثمة مشاكل صاحبت الصهيونية منذ نشأتها ولازمتها عبر تاريخها ولا تزال تطرح نفسها على الوجدان الإسرائيلي والصهيوني، بل بدأت تزداد حدتها. وتناول هذه المشاكل في المؤتمرات الصهيونية واقتراح بعض الحلول أصبح مثل الأسطوانة المشروخة المملة التي تكرر نفسها. وقد جاء في مقال ناتان غوتمان «الهوية اليهودية في أزمة» (هآرتس ٢٢ يونيه ٢٠٠٥) أن عدداً من القيادات اليهودية المهتمة بالبعد الاجتماعي عقدت اجتماعاً بالقرب من واشنطن وكان من بينهم المحامي آلان درشو فيتس، وستيوارت أيزنشتات، نائب وزير المالية الأمريكي سابقاً، وناتان شارافسكي، الوزير الإسرائيلي السابق، والحاخام شموئيل سيرات، الحاخام الأكبر لفرنسة سابقاً، ومايكل ستارينهارت، وهو من أكبر المتبرعين اليهود في الولايات المتحدة، ودينيس روس، مبعوث الرئيس كلينتون

للشرق الأوسط والبروفسور الإسرائيلي يخرقيل درور وآخرون. وقد وصفت المجموعة نفسها بأنها مجموعة التنبؤ للشعب اليهودي، ولكنها لا تحاول التكهن بالمستقبل وحسب، وإنما تحاول التأثير عليه حتى يكون الشعب اليهودي في حالة أفضل في المستقبل. وقد توصل المجتمعون إلى متتاليتين اجتماعيتين بخصوص مستقبل اليهود. المتتالية الأولى متفائلة وتذهب إلى أن اليهود سيزدهرون وسيزداد عددهم. ولا أدري ما سبب هذا التفاؤل، فاستناداً إلى ما حدث في القرن الماضي والذي تناقص فيه عدد اليهود بشكل مستمر من خلال الامتناع عن الزواج والإنجاب والزواج المختلط والانصهار في المجتمعات الغربية، فلا يمكن الحديث عن متتالية متفائلة. أما المتتالية المتشائمة فقد ورد فيها ما يأتي:

في سنة ٢٠٢٥ سيقع الشعب اليهودي في ضائقة تهدِّد وجوده، عدد اليهود في العالم يتقلص إلى عشرة ملايين، ستة ملايين منهم يعيشون في إسرائيل. وتزداد نسبة الزواج المختلط ومعظم أبناء العائلات المختلطة لا يهتمون بإقامة علاقة مع اليهودية. وفي إسرائيل يفضّل المجتمع «التطبيع» (أي التخلي عن الأيديولوجية الصهيونية والانتماء للشعب اليهودي) على الوجود اليهودي، ويتدهور الوضع الأمني، والتكتل الاجتماعي يتفكك. وفي الشتات تتراجع قوة الطوائف اليهودية والتعليم اليهودي، والعلاقة بين الشتات (أي يهود العالم) وإسرائيل، ويتقلص الرأسمال اليهودي الاقتصادي. كما تتعاظم مظاهر اللاسامية ويتزايد عداء العالم الإسلامي تجاه اليهود. وهذا هو السيناريو الذي عُدَّ «كابوساً واقعياً».

وقد رأى معظم المشاركين أن الخطر الأكبر الذي يتهدد الشعب اليهودي في العقود القريبة هو ضعف الهوية اليهودية. فالهوية اليهودية تتنافس في سوق كبير من الأفكار والأيديولوجيات المفتوحة أمام كل إنسان. والصعوبة التي تواجه ربط أبناء الشعب اليهودي، وخصوصاً الشبان بينهم، بالهوية اليهودية، تقود مع مرور الوقت إلى ابتعاد هؤلاء عن حياة الجماعة اليهودية، وابتعادهم عن دولة إسرائيل وتؤدي إلى الزواج المختلط، الذي يقود في جيله الثاني إلى تقليص أعداد اليهود. وعلى سبيل المثال فإن الجماعة اليهودية الأمريكية خسرت في العقد الأخير ما بين ٣٠٠-٥٠٠ ألف عضو، وهذا معطى يقلق كل من لهم شأن بالموضوع.

ويقول راينهارتس إنه «بذلت في السنوات الأخيرة جهود هائلة لتكريس الهوية اليهودية، والبحث عن يهود والاهتمام بأن يبقوا في الطائفة، ولكن النجاحات كانت جزئية».

وبالمناسبة، فإن أزمة الهوية اليهودية قائمة ليس فقط في صفوف يهود الشتات. فالوثيقة التي أعدّها المعهد تشير إلى أن هناك خشية حتى في داخل إسرائيل من ضعف جوهري في الهوية اليهودية، إن ازدادت الأصوات الداعية إلى تحويلها إلى دولة «طبيعية» يتمّ فيها تقليص الاهتمام بالهوية اليهودية لمصلحة الهوية الإسرائيلية.

وما هو الحل إذن؟

وافق معظم المشاركين في اجتماع عصف الأدمغة هذا على أن الحل يكمن في فتح أبواب الشعب اليهودي وتقديم يد العون لأولئك الذين يعيشون اليوم في الهوامش. ويقول أيزنشتات إنه «ينبغي تقليص سقف الدخول للمشاركة في الحياة التنظيمية والدينية اليهودية. وينبغي لنا أن نعمل مع أولئك المرتبطين بشكل ضعيف مع اليهودية، أولئك الذين لم يكونوا بشكل تقليدي جزءاً من الطائفة». وما لم يذكره المجتمعون أن فتح هذه الأبواب يعني إدخال تعديلات جوهرية على العقيدة اليهودية، وتوسيعها مما يؤدي في نهاية الأمر إلى اختفاء ما يسمى الهوية اليهودية. (ولكن هل توجد بالفعل هوية يهودية، أم أن هناك هويات يهودية مختلفة بعدد الجماعات اليهودية المنتشرة في العالم؟)

ويقول المقال إنّ الكلمة المركزية التي سُمعت بشكل متكرر في الاجتماع هي «المبادرة»، «وضرورة العمل فوراً وبشكل حازم وعبر تجنيد كل القوى»، من أجل إيقاف عملية تناقص الشعب اليهودي. ولكن يهود الولايات المتحدة، كما قال أحد المجتمعين، في حالة تراخ، فهم راضون عن أنفسهم بسبب الوهم بأن لهم كثيراً من القوة السياسية والاقتصادية، ولا يدركون أنه لم يتبق لهم إلّا «نافذة من عدة سنوات» قبل أن يتغير الواقع السياسي الأمريكي والقوة السياسية للجماعة اليهودية، فمن المتوقع أن الوضع يتغير بسبب صعود قوة الأقلية الإسبانية الكبيرة والطائفة الإسلامية الأمريكية.

وقد أشرت من قبل إلى أن قضية الهوية وغيرها من القضايا وحلولها المقترحة قد طرحت في الماضي عدة مرات ولكن دون جدوى، ففي المؤتمر الصهيوني الثالث (الذي عقد في بازل ١٨٩٩) نوقشت قضية النشاط الثقافي اليهودي. وظهر ما يسمى الصهيونية الثقافية أو الروحية والتي تدعو إلى تنمية الوعي اليهودي (أي الهوية اليهودية) حتى لا يختفي الشعب اليهودي. وانشغلت المنظمة الصهيونية بعد ذلك بعمليات الاستيطان وإعلان الدولة. وعاد موضوع الهوية (والهجرة الاستيطانية إلى فلسطين) إلى الصدارة مرة أخرى بعد عام ١٩٤٨ خاصة وأنه في أوائل الستينيات صدر كتاب عالم الاجتماع الفرنسي جورج فريدمان المعنون موت الشعب اليهودي. والبيان الختامي للمؤتمر السادس والعشرين (القدس ديسمبر ٦٤ - يناير ٦٥) أشار إلى خطر اندماج يهود العالم فكرياً وثقافياً واجتماعياً في المجتمعات التي يقيمون فيها، كما طرحت قضية الهجرة الاستيطانية. ثم أصدر المؤتمر السابع والعشرون (١٩٦٨) ما يسمى بيان القدس والذي تعد الموافقة عليه شرطاً أساسياً للتمتع بعضوية المنظمة الصهيونية، وقد جاء فيه ضرورة الحفاظ على هوية الشعب اليهودي من خلال تعزيز التربية اليهودية والعبرية والقيم الثقافية والروحية اليهودية! وضرورة تجميع الشعب اليهودي في «وطنه التاريخي» (أي فلسطين المحتلة) عن طريق الهجرة من مختلف البلدان إلخ إلخ.

واستمرت الأسطوانة الصهيونية الرتيبة، فتم صك مصطلحَيْن هما «الصهيونية الفورية» و«الصهيونية الجسمانية» أو «التجسيدية»، وهما يعنيان أن على اليهودي الصادق مع نفسه أن يهاجر «فوراً» إلى أرض الميعاد وبذلك فهو ينتقل «جسدياً» من المنفى إلى إسرائيل، وهو بذلك «يجسد» المثل الصهيونية! وغني عن القول إنه لا النداءات المختلفة التي أصدرتها المؤتمرات الصهيونية ولا المصطلحات الرهيبة التي صكتها وجدت آذاناً صاغية من يهود العالم. ومن هنا نجد معدلات الاندماج آخذة في التزايد، وأن أكثر من نصف المهاجرين من روسية ليسوا يهوداً، وأنه نزح عن إسرائيل مليون إسرائيلي، وأنها تضم الآن نصف مليون مواطن وعامل غير يهود، ومن هنا عقد مؤتمر في واشنطن يناقش المشاكل نفسها ويطرح الحلول نفسها وتدور الأسطوانة الصهيونية الرتيبة دون تعب أو كلل أو ملل.

الفصل الثالث

جذور الاستعمار الاستيطاني الصهيوني

● وضع اليهود جماعةً وظيفية

ثمة مركب من الأسباب الحضارية والاقتصادية والتاريخية أدى إلى ظهور الصهيونية (بين غير اليهود واليهود). ونحن نذهب إلى أن سياق الحركة والفكر الصهيونيين يظل سياقاً غربياً تماماً، إذ إن حركيات الصهيونية مرتبطة تماماً بالتاريخ العام للغرب، وخصوصاً أن الغالبية الساحقة من يهود العالم موجودة في الغرب. فتاريخ الصهيونية جزء لا يتجزأ من تاريخ الحضارة الغربية وما صاحبه من ظواهر مرضية أو صحية (مثل معاداة اليهود وتصاعُد معدلات العلمنة والثورة الصناعية)، وليس ذا علاقة كبيرة بالتوراة أو التلمود أو «حب صهيون» أو حركيات ما يسمى «التاريخ اليهودي» ويمكننا أن نورد الأسباب التالية لظهور الصهيونية:

١- فشل المسيحية الغربية في التوصل إلى رؤية واضحة لوضع الأقليات على وجه العموم، ورؤيتها لليهود على وجه الخصوص ؛ بعدِّهم قتلةَ المسيح ثم الشعبَ الشاهد على عظمة الكنيسة (في الرؤية الكاثوليكية) وأداةَ الخلاص (في الرؤية البروتستانتية)؛ إذ لا يمكن أن يتم الخلاص دون عودة اليهود إلى فلسطين وتنصيرهم.

٢- وضع اليهود جماعةً وظيفية داخل المجتمع الغربي (كأقنان بلاط - يهود بلاط - يهود أرندا - صغار تجار ومرابين). و«الجماعات الوظيفية» هي مجموعة بشرية صغيرة يقوم المجتمع بإسناد وظائف شتى إليها يرى أعضاء هذا المجتمع أنهم لا يمكنهم الاضطلاع بها لأسباب مختلفة.

قد تكون هذه الوظائف مشينة في نظر المجتمع ولا تحظى بالاحترام في سُلَّم القيم السائد (التنجيم - البغاء - الربا)، وقد تكون متميزة ومهمة (الطب، وخصوصاً أطباء النخبة الحاكمة - القتال) وقد يتطلب الاضطلاع بها قدراً عالياً من الحياد والتعاقدية لأن المجتمع يريد الحفاظ على قداسته وتراحمه ومثالياته (التجارة والربا). وقد يلجأ المجتمع إلى استخدام العنصر البشري الوظيفي لملء فجوة أو ثغرة تنشأ بين رغبات المجتمع وحاجاته من ناحية ومقدرته على إشباع هذه الرغبات والوفاء بها من ناحية أخرى (الحاجة لمستوطنين جدد لتوظيفهم في المناطق النائية - خبرات غير متوفرة - الحاجة إلى رأس مال) كما أن المجتمع يقوم بإسناد الوظائف ذات الحساسية الخاصة وذات الطابع الأمني (حرس الملك - طبيبه - السفراء والجواسيس) إلى أعضاء الجماعات الوظيفية. ويمكن أن تكون الوظيفة التي تسند إلى أعضاء الجماعة الوظيفية مشينة ومتميزة وحساسة في آن معاً (مثل الخصيان والوظائف الأمنية على وجه العموم). كما أن المهاجرين يتحولون عادة إلى جماعات وظيفية (في المراحل الأولى من استقرارهم في وطنهم الجديد) لأن الوظائف الأساسية عادة ما تكون قد شغلت من قبل أعضاء المجتمع المضيف، ويحاول الاستعمار دائما أن يحول أعضاء الأقليات إلى جماعات وظيفية تضطلع بوظائف يسندها إليها وتتمتع بمزايا تقدمها لها حتى تدين له بالولاء.

ويتوارث أعضاء الجماعة الوظيفية الخبرات في مجال تخصصهم الوظيفي عبر الأجيال ويحتكرونها بل ويتوحدون معها؛ وفي نهاية الأمر يكتسبون هويتهم ورؤيتهم لأنفسهم منها، وهي عملية يساعد عليها مجتمع الأغلبية لأنه يُعرِّف عضو الجماعة الوظيفية من خلال وظيفته وحسب (لا من خلال إنسانيته الكاملة) وبذلك يصبح عضو الجماعة الوظيفية إنساناً ذا بعد واحد، يمكن اختزال إنسانيته إلى هذا البُعد أو المبدأ الواحد وهو وظيفته.

وبعد أن يتم استيراد أو تجنيد العنصر الوظيفي يحدث ما يلي:

أ) العلاقة التعاقدية النفعية: يدخل أعضاء المجتمع المضيف، مع أعضاء الجماعة الوظيفية، في علاقة تعاقدية نفعية محايدة رشيدة واضحة لا تركيب فيها ولا إبهام، ويقوم كل طرف في العلاقة بحوسلة الطرف الآخر والنظر إليه على أنه وسيلة لا غاية، وأنه مادة نافعة يتم التعامل معها بمقدار نفعها.

ب) العزلة والغربة والعجز: يحتفظ أعضاء المجتمع المضيف وأعضاء الجماعة الوظيفية بمسافة بينهما، فيقوم المجتمع المضيف بعزل أعضاء الجماعة الوظيفية (عن طريق الزي أو المسكن أو اللغة أو العقيدة أو الانتماء الإثني، وكان يعد الإخصاء أحد أشكال هذا العزل) ويمارسون هم إحساساً عميقاً بالغربة.

ج) الانفصال عن المكان والزمان والإحساس بالهوية الوهمية: ينتج عن هذا الوضع انفصال أعضاء الجماعات الوظيفية عن الزمان والمكان اللَّذَيْنِ يعيشون فيهما، ومن ثم غالباً ما يرتبط أعضاء الجماعة الوظيفية عاطفياً بوطن أصلي (صهيون - الصين - القبيلة - العائلة) يصبح موضع ولائهم وحبهم وعاطفتهم المشبوبة ويتصورون أنهم جزء من تاريخه وتراثه، فيتعمق شعورهم بالغربة نحو المجتمع المضيف، ويعيشون فيه دون أن يكونوا منه، ويتطور لديهم إحساس عميق بهويتهم المستقلة (مركب الشعب المختار المنفي أو الشعب العضوي المنبوذ).

د) ازدواجية المعايير والنسبية الأخلاقية: يُطوِّر طرفا العلاقة (أعضاء الجماعة الوظيفية والمجتمع المضيف) رؤية أخلاقية ثنائية، فما يسري على الواحد من قيم أخلاقية مطلقة لا يسري على الآخر، على تقديرٍ أن الجماعة الوظيفية شعب مختار، ويحاول كل طرف تعظيم منفعته ولذته مستخدماً الآخر.

هـ) الحركية: لكل هذا، يتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بالحركية البالغة، وهذا أمر مرتبط بكونهم عنصراً نافعاً وآلة يمكن نقلها من مكان إلى آخر.

و) التمركز حول الذات والتمركز حول الموضوع: ينجم عن هذا الوضع تأرجح شديد بين تمركز حول الذات (الوظيفة بتقديرها الذات والهوية) وتمركز حول الموضوع (الوظيفة بتقديرها خدمة تؤدّى للمجتمع)، فعضو الجماعة الوظيفية قد يكون عضواً في شعب مختار ولكنه أيضاً أداة في يد المجتمع (التمركز حول الذات والتمركز حول الموضوع)، وتظهر عقدة الاختيار، الذي يواكبه شعور عميق بالحتمية.

ووضع اليهود جماعةً وظيفيةً كان مستقراً إلى حد ما إلى أن ظهرت البرجوازيات المحلية والدولة القومية العلمانية (المطلقة والمركزية) فاهتز وضعهم وكان عليهم البحث عن وظيفة جديدة، ومن هنا ابتُدِعَ الحل الاستعماري الغربي للمسالة اليهودية وهو إعادة إنتاج الجماعة الوظيفية على هيئة «دولة وظيفية».

والدولة الوظيفية هي الدولة التي تؤسَّس أو يعاد صياغة توجهها أو توجه نخبتها الحاكمة لتضطلع بوظيفة معينة ويصبحَ جوهرها هو هذه الوظيفة، و«الدولة الصهيونية الوظيفية»، أي إسرائيل، هي دولة تتسم بكل سمات الجماعة الوظيفية، فهي تدخل في علاقات تعاقدية نفعية مع الغرب (خدمة المصالح الغربية نظير أن يقوم الغرب بحمايتها)، وهي دولة جيتو/ قلعة منعزلة عن محيطها الحضاري ذات رؤية حلولية كمونية، فهي تتصور أنها منفصلة عن الزمان والمكان، ولديها إحساس عميق بتفوقها، ورسالتها المقدسة، تتبنى أخلاقيات مزدوجة في علاقتها مع الذات ومع الآخر. إن الحل الغربي للمسألة اليهودية هو ذاته الحل الصهيوني.

• الرؤية الألفية الاسترجاعية

من الأسباب التي أدت إلى ظهور الصهيونية انتشار الرؤية الألفية الاسترجاعية والتفسيرات الحرفية للعهد القديم التي تعبر عن تزايد معدلات العلمنة، «والألفية » ترجمة لكلمة «ميلينيريانزم Millenarianism» الإنجليزية المأخوذة من الكلمة اللاتينية «ميلينياروس» ومعناها «تحتوي على ألف».

والعقيدة الألفية تعود جذورها إلى اليهودية، ولكنها أصبحت فكرة مركزية في المسيحية البروتستانية؛ إذ يؤمن كثير من المسيحيين البروتستانت بأنه حينما يعود المسيح المخلِّص (أو الماشيح حسب الرؤية اليهودية) (الذي يشار إليه فيها بـ «الملك الألفي») سيحكم العالم (بتقديره الملكَ المقدس) هو والقديسون ألفَ عام يشار إليها أحياناً باسم «أيام الماشيح» أو «أيام المسيح» وهي فترة يسود فيها السلام والعدل في عالم التاريخ والطبيعة وفي مجتمع الإنسان والحيوان.

وعقيدة الملك المقدس هذه لم يأت لها أي ذكر في العهد القديم، ويبدو أنها مجرد صدى في الوجدان العبراني لمؤسسة الملكية المقدسة العبرانية. وما حدث هو أن مؤسسة الملكية المقدسة اختفت مع انهيار الدويلات العبرانية ولم تتم

استعادتها حتى بعد عودة اليهود بأمر قورش الفارسي. فأسقط الوجدان العبراني فكرة الملك المقدس على المستقبل وأصبحت جزءاً من الأفكار الأخروية (وتتحدث جماعة قمران عن الزوج المشيحاني): الماشيح بن هارون الكهنوتي والماشيح بن داود الملكي، ثم ظهر فيما بعد الماشيح بن يوسف والماشيح بن داوود.

وقد ظهرت العقيدة الألفية في كتابات معلمي المشناه (تنائيم) وفي الكتب الخارجية أو الخفية (أبوكريفا) بل إن كتب الرؤى (أبو كاليبس)، ومعظم الأفكار الأخروية، والكتب المنسوبة (سيود إبيجرفا)، والأحلام الأخروية، وسائر الأساطير الخاصة باخر الأيام ونهاية الزمان، تدور جميعاً حول هذه العقيدة. وتظهر العقيدة الألفية في العهد الجديد في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي الذي يشبه سفر دانيال في كثير من الوجوه والذي يدور حول عودة المسيح الثانية وحُكْمه العالمَ ألفَ عام.

ويرتبط بالعقيدة الألفية عقيدة المسيح الدجال مع بدايات المسيحية، وزادت أهميتها مع الإصلاح الديني، وهي عقيدة صهيونية بصورة ملموسة إذ إنها تضع اليهود في مركز الدراما الكونية الخاصة بخلاص العالم، وهي أيضاً عقيدة معادية لليهود؛ إذ إنَّ مركزيتهم نابعة من كونهم تجسيداً للشر في التاريخ، ومن ثم فإن تَنصُّرهم (ونهاية التاريخ) شرط أساسي للخلاص.

وتذهب هذه العقيدة إلى أن المسيح الدجال شخصية كافرة قاسية طاغية، وهو ابن الشيطان (بل لعله هو نفسه الشيطان المتجسد). ومن علاماته أنه توجد في أقدامه مخالب بدلاً من أصابع. أما أبوه فيُصوَّر على هيئة طائر له أربع أقدام ورأس ثور بقرون مدببة وشعر أسود كثيف.

والمسيح الدجال ابن امرأة يهودية، وسيأتي من قبيلة دان (فاستناداً إلى نبوءة يعقوب، فإن دان سيكون ثعباناً في الطريق، واستناداً إلى كلمات إرميا فإن جيوش دان ستلتهم الأرض. كما أن الإصحاح السابع في رؤيا يوحنا لم يذكر قبيلة دان عندما ذكر القبائل العبرانية). ويتواتر الآن في الأوساط المسيحية الحرفية أن المسيح الدجال سيكون يهودياً من سورية. ويُقال إن المسيح الدجال سيظهر في الشرق الأوسط في نهاية الأيام وهو العدو اللدود للمسيح وسيسبق ظهورَه ظهورُ

عدد من الدجالين، وإنَّه سيدَّعي أنه المسيح ويصدقه كثيرون، خصوصاً وأنه قادر على الإتيان ببعض المعجزات (ولذا، فهو يسمى «قرد الإله» أي الذي سيقلد الإله كما تقلد القردة البشر) وسيطيعه الرعد وتحرس الشياطين له بعض كنوز الأرض (التي سيستخدمها في إغواء البشر).

وسيقوم الدجال ببناء الهيكل وسيهدم روما (مقر البابا) وسيحيي الموتى وسيحكم الأرض مع الشيطان لمدة يقال إنها تصل إلى خمسين عاماً، وإن كان الرأي الأغلب أن فترة حكمه لا تتجاوز ثلاثة أعوام ونصفاً وسيساعده اليهود في كل أفعاله، وعندما يصل البؤس إلى منتهاه، سيتدخل الإله فتنفخ الملائكة في البوق معلنة حلول يوم القيامة وسينزل المسيح (عودة المسيح الثانية) لينقذ البقية الباقية الصالحة. وستدور معركة كونية هي معركة هرمجدون ويَلقى ثلثا اليهود حتفهم أثناءها، وسيعود إلياهو وإنوخ وسيأمر الدجال بقتلهم، ولكنهم قبل أن يلاقوا حتفهم سينصرون اليهود الذين سيقبلون المسيح بعدِّهم أفراداً (لا شعباً). وسيخرج من فم المسيح سيف ذو حدين سيصرع به المسيح الدجال ويحكم العالمَ بالعدل ألفَ عام (أو إلى مالا نهاية) فينتشر السلام والإنجيل في العالم، وكثيراً ما كان الدجال يُقرَن بالماشيح الذي ينتظره اليهود. ويذهب الحرفيون إلى أن إنشاء دولة إسرائيل علامة على أن موعد عودة المسيح قد دنت ومن ثم لحظة هداية اليهود، كما يقرن الوجدان البروتستانتي الدجال ببابا روما وبأية شخصية تصبح تجسيداً للآخر (دعاة الاستنارة - قيصر ألمانية - لينين - هتلر - جمال عبد الناصر).

وترتبط كلا العقيدتين بـ«العقيدة الاسترجاعية» وهي الفكرة الدينية التي تذهب إلى أنه كيما يتحقق العصر الألفي، وكيما تبدأ الألف السعيدة التي يحكم فيها المسيح (الملك الألفي)، لابد أن يتم استرجاع اليهود إلى فلسطين تمهيدا لمجيء المسيح، ومن هنا، فإن العقيدة الاسترجاعية هي مركز وعصب العقيدة الألفية، ويرى الاسترجاعيون أن عودة اليهود إلى فلسطين هي بشرى الألف عام السعيدة، وأن الفردوس الأرضي الألفي لن يتحقق إلا بهذه العودة، كما يرون أن اليهود هم شعب الله المختار القديم أو الأول (على تقدير المسيحيين هم شعبُ الله المختارُ الجديد أو الثاني).ولذا، فإن أرض فلسطين هي أرضهم التي وعدهم الإله بها، ووعود الرب لا تُخْلَفُ حتى وإن خرج الشعب القديم عن الطريق ورفض المسيح

(وصلبه). ولذا، فإن كل من يتوقف في وجه هذه العودة يُعَدُّ من أعداء الإله ويقف ضد الخلاص المسيحي، فأعداء اليهود هم أعداء الإله.

ومن الواضح أن العقيدة الاسترجاعية، شأنها شأن العقيدة الألفية، هي عقيدة صهيونية تفترض استمراراً كاملاً ووحدةً عضوية بين اليهود في الماضي والحاضر والمستقبل، ومن ثم فهي تنكر التاريخ تماماً.

● هامشية اليهود ونفعهم

لعل أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الصهيونية مناقشة قضية إعتاق اليهود في إطار فكرة المنفعة، ومدى نفع اليهود للمجتمعات الغربية، فاليهود في التصور الصهيوني هم جماعة هامشية.

و«هامشية اليهود» مصطلح يستخدم في الدراسات التي تدور حول وضع أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية، وخصوصاً شرق أوربة، وهو مصطلح يصف وجودهم الاقتصادي والاجتماعي والحضاري جماعةً وظيفيةً وسيطة تضطلع بوظائف وحرف ومهن مختلفة، مثل التجارة البدائية والربا، وقد كانتا عمليتين مرتبطتين بالنظام الإقطاعي ولكنهما لم تكونا قط من صميم العملية الإنتاجية ذاتها، بل إن الحرف التي كان يمارسها اليهود أنفسهم، لم تكن مرتبطة بالفلاحين، وإنما كانت مرتبطة بالتجار اليهود أو الأمراء الإقطاعيين. ولذلك، فحينما ظهرت الرأسمالية المحلية في شرق أوربةَ مع بدايات القرن التاسع عشر، ثم الدولةُ القومية والنظام المصرفي الحديث، وجد أعضاء الجماعات اليهودية أنفسهم بلا دور اقتصادي أو إنتاجي يلعبونه، وبذلك صاروا عرضة لاضطهاد المجتمع الذي لم يعد في حاجة إلى خدماتهم ولم يعد يرى لهم نفعاً، الأمر الذي أدى إلى زيادة حدة تفاقم المسالة اليهودية وزيادة هجرتهم إلى غرب أوربة، وقد بذلت الحكومة الروسية، وكذلك الحكومة النمساوية التي كانت تتبعها جاليشيا، جهوداً شتى لتحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج عن طريق فتح أبواب مهنة الزراعة أمامهم. وساهم في هذه الجهود مليونيرات الغرب من اليهود، مثل هيرش وروتشيلد، لأن هجرة اليهود من شرق أوربة إلى غربها كانت تسبب لهم الحرج الشديد كما كانت تهدد مواقعهم الاقتصادية والحضارية التي اكتسبوها عن طريق الاندماج، وقد تعثرت هذه المحاولات وهو ما اضطر الحكومة الروسية، على سبيل المثال، إلى

أن تلجأ للقمع الاقتصادي عن طريق إصدار قوانين مايو. وهامشيةُ اليهود موضوع أساسي كامن في كتابات الصهاينة العماليين الذين يقترحون تحويل اليهود إلى شعب منتج عن طريق الهجرة واقتحام الأرض والعمل والحراسة والإنتاج.

كما أشار الصهاينة إلى «شذوذ اليهود» وهي عبارة تصف بعض السمات غير الطبيعية، والتي يفترض أنها تسم أعضاء الجماعات اليهودية الغربية، والتي يمكن إزالتها عن طريق إصلاح اليهود أو تحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج أو عن طريق دمجهم أو تطبيعهم. ويرى الصهاينة أن وجود اليهود في المنفى والشتات (أي خارج فلسطين) حالة شاذة تسبب شذوذاً للشخصية اليهودية، وبالفعل، وجه الصهاينة سهام نقدهم إلى هذه الشخصية المريضة الشاذة غير السوية.

ولشذوذ الشخصية اليهودية، من وجهة نظرهم، مظهران أساسيان: أحدهما اقتصادي والآخر سياسي، أما المظهر الاقتصادي، فيتبدى في اشتغال اليهود بأعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة، مثل: التهريب والأعمال المالية والاتجار في العقارات وتجارة الرقيق الأبيض والتسول، بينما يتمثل المظهر السياسي فيما يطلق عليه إشكالية العجز وعدم المشاركة في السلطة. وقد انعكست الظاهرة في ازدواج الولاء عند اليهودي، فهو نظراً لافتقاره إلى وطن قومي خاص به يضطر إلى أن ينتمي إلى مجتمعات غريبة يحاول أن يندمج فيها، ولكن نزعته القومية الحقيقية تستمر، رغم ذلك، في التعبير عن نفسها رغم أنفه، فينقسم على نفسه وتتنازعه الولاءات المتناقضة، وقد لاحظ المؤرخ الصهيوني العمالي دوف بير بوروخوف أن الهرم الاجتماعي عند اليهود مشوه تماما، فبدلا من وجود قاعدة عريضة من العمال والفلاحين والطبقات المنتجة، وقلة من المفكرين والأطباء والمحامين والوسطاء، كما هو الحال في معظم المجتمعات، نجد العكس تماماً عند اليهود فالهرم الإنتاجي عند اليهود مقلوب رأساً على عقب؛ إذ إن معظم اليهود يعملون وسطاءَ، وغني عن القول إن السمات الشاذة التي تسم أعضاء الجماعات اليهودية هي في واقع الأمر سمات أساسية لأية جماعة وظيفية، ومن ثم فهي تمثل ظاهرة إنسانية اجتماعية عامة لا تتسم بأي شذوذ. ولكن المعادين لليهود والصهاينة يرونها كذلك لأنهم يعزلون أعضاء الجماعات اليهودية عن محيطهم الحضاري والاجتماعي وينظرون إليهم من خلال نماذج اختزالية لا علاقة لها بوضعهم المتعيّن، ثم يحكمون عليهم بالشذوذ.

وقد طرح الصهاينة رؤيتهم للمجتمع اليهودي المثالي (المجتمع الصهيوني) جزءاً من مشروع حضاري متكامل يهدف إلى تطبيع الشخصية اليهودية، أي تخليصها من شذوذها المزعوم، وذلك بتحويل اليهود إلى أشخاص طبيعيين ينتجون ويستهلكون ويتحكمون في مصيرهم السياسي ويشعرون بالولاء نحو دولتهم، شأنهم في هذا شأن البشر كافة.

دافع الصهاينة عن اليهود من منظور نفعهم، ولكن هذا الدفاع يتضمن داخله قدراً كبيراً من رفضهم وعدم قبولهم بشراً لهم حقوقهم الإنسانية المطلقة، فالعنصر النافع عنصر متحوسل يستفاد منه طالما كان نافعاً ومنتجاً، كما يجب التخلص منه إن أصبح غير نافع وغير منتج، والدولة الاستيطانية الصهيونية، دولة نافعة للغرب ستخلص أوربة من اليهود وستحولهم إلى عنصر نافع.

والتعبيرات المجازية التي تستخدم للإشارة إلى الدولة الصهيونية تؤكد كلها كونها أداة نافعة؛ فالدولة هي حصن ضد الهمجية الشرقية (وضد الأصولية الإسلامية في الوقت الحالي)، وهي مؤخراً حاملة طائرات لأمريكة، وهي في كلتا الحالتين ليس لها قيمة ذاتية، وإنما تتبع قيمتها مما تؤديه من خدمات وتجلبه من منفعة، فالدولة هنا وظيفة ودور وليست كياناً مستقلاً له حركياته، وهي تستمد استمرارها، بل ووجودها من مدى مقدرتها على أداء هذا الدور، ولذا فنحن نشير إلى الدولة الصهيونية بتقديرها دولةً مملوكية، علاقتها بالغرب تشبه علاقة المملوك بالسلطان؛ فهي علاقة نفعية محضة، مستمرة طالما استمرت حاجة السلطان إلى الأداء، ونحن نشير لها بأنها الدولة الوظيفية، أي الدولة التي تضمن استمرارها وبقاءها من خلال أدائها لوظيفتها، وربما يبين هذا مدى أهمية الانتفاضة التي أثبتت أن الدولة الصهيونية غير قادرة على أداء دورها ووظيفتها قاعدةً استراتيجيةً في الشرق الأوسط، وأن نفعها ليس كبيراً، وأن أداءها لوظيفتها أصبح أمراً مكلفاً للغاية.

الأسباب السابقة (وضع اليهود جماعةً وظيفية - العقيدة الألفية - هامشية اليهود ونفعهم) هي الأسباب الأساسية التي أدت إلى ظهور الاستعمار الاستيطاني الصهيوني. ويمكن أن تدرج الأسباب الأخرى التالية على أنها عوامل مساعدة:

١- تَزايُد عدد أعضاء الجماعات اليهودية زيادة ملحوظة بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ، وخصوصاً في شرق أوربة، ابتداء من القرن التاسع عشر.

٢- وجود اليهود في مناطق حدودية متنازع عليها بين الدول الغربية.

٣- تعثُّر التحديث في شرق أوربة الأمر الذي دفع بالألوف إلى أوربة الغربية، وهو ما ولد الفزع في قلوب حكومات غرب أوربة وأعضاء الجماعات اليهودية فيها، ونحن نذهب إلى عام ١٨٨٢ (تاريخ صدور قوانين مايو التي كرست تعثر التحديث في الإمبراطورية القيصرية الروسية) وهو تاريخ ظهور الصهيونية بين اليهود.

٤- عزلة يهود اليديشية ثقافياً بخاصة في منطقة الاستيطان وفشل قطاعات كبيرة منهم في التكيف مع الأوضاع الجديدة.

٥- أزمة اليهودية الحاخامية وظهور حركات الإصلاح والدمج.

٦- سقوط القيادات التقليدية للجماعات اليهودية (الحاخامات وأثرياء اليهود) وظهور المثقف اليهودي الذي فقد هويته ولم يكتسب هوية غربية جديدة.

ويمكن القول إنَّ كل العناصر السابقة أدت إلى وجود تربة خصبة لظهور الحل الصهيوني، وهذا ما أدى إلى تحول الإمكانية إلى حقيقة.

٧- ظهور الإمبريالية الغربية رؤيةً معرفيةً وحركة سياسية ثم قوةً عسكريةً اكتسحت العالم بأسره وحولته نظرياً وفعلياً إلى مادة لا قداسة لها تُوظّف في خدمة الشعوب الغربية. وقد وجدت الإمبريالية الغربية في أعضاء الجماعات اليهودية ضالتها لأنها مادة استيطانية تسبب مشاكل أمنية إن بقيت داخل العالم الغربي، ولكنها تستطيع أن تزيد نفوذه إن نُقلت خارجه وتحولت إلى مادة قتالية تحوسل لحساب الغرب داخل نطاق الدولة الوظيفية. ووجدت القيادات الصهيونية بدورها أن ثمة إمكانية لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ من خلال تقبل الوظيفة القتالية المطروحة.

إن الأسباب التي أدت إلى ظهور الصهيونية أسبابٌ مركبة، وكذا تاريخ الصهيونية، ولعل تركيبية تاريخ الحركة الصهيونية يعود إلى الأسباب السابقة وإلى تداخل مستوياته وساحاته.

• المسألة اليهودية والمسألة الأوربية

نحن نذهب إلى أنه لا توجد مسألة يهودية عالمية وإنما توجد مسألة يهودية شرق أوربية، وهي مشكلة أعضاء الجماعات اليهودية في شرق أوربة الذين كانوا يعيشون في مجتمعات تعثرت فيها عملية التحديث في الوقت الذي حدثت فيها طفرة سكانية بينهم فتحول أعضاء الجماعات اليهودية من جماعات وظيفية تقوم بوظيفة حيوية إلى جماعات وظيفية بلا وظيفة، وبذلك صاروا فائضاً بشرياً. وبدؤوا في الهجرة إلى غرب أوربة. فواجهت أوربة إشكالية هذا الفائض البشري الذي كان يهدد أمنها الاجتماعي، وبدأت تتخذ إجراءات للحد من هذه الهجرة. فلورد بلفور، على سبيل المثال، استصدر، حينما كان يشغل منصب رئيس الوزراء في بريطانية عام ١٩٠٥، قانون الغرباء لمنع اليهود من دخول إنجلترة، ولطرح الحل الغربي للمسألة اليهودية.

ولا يمكن فهم هذا الحل إلا في إطار ما أسميه «المسألة الأوربية»، وهو مصطلح قمنا بسكه لوصف ظاهرة لها إنعكاسات عالمية. ولا يمكن فهم كثير من الظواهر في كل أنحاء العالم، ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر، إلا في علاقتها بالمسألة الأوربية. ويمكننا بشئ من التبسيط غير المخل أن نرى القانون العام الذي كان يتحكم بأوربةَ في القرن التاسع عشر، فقد تفجرت داخل هذه القارة ثورة صناعية غيَّرت من علاقة الإنسان بالطبيعة تغييراً جوهرياً فاستطاع الإنسان أن ينتج وفرة من السلع تفوق بمراحل ما يمكنه استهلاكه. ولكن هذه الوفرة من السلع - هذا «الخير» إن أردنا استخدام مصطلح أخلاقي - لم يحسن استخدامه بأي شكل، فالثروة في حد ذاتها لا تنتج ولا تثمر شيئاً وما يهم هو كيفية استخدامها وكيفية توزيعها واستهلاكها. ولذا فالثورة الصناعية في أوربة قد نتج عنها خلل اجتماعي رهيب. فالسلع الوفيرة لم توزع بالعدل بين الناس مما أدى إلى انقسام المجتمع إلى أغلبية من الفقراء المُعدمين الذين ينتجون ولا يستهلكون إلا النذر اليسير بسبب فقرهم، وأقلية من الأثرياء الذين لا ينتجون، ولا يستهلكون إلا النذر اليسير بسبب قلة عددهم. وقد تسبَّب هذا في دورات من الكساد الاقتصادي فتكدستِ السلع التي لا يستهلكها أحد، والعمال العاطلون أضْحَوْا غير قادرين على استهلاك شيء. ولذا فحل المسألة الأوربية في ذلك الوقت كان يتلخص في تصريف

الفائض السلعي والفائض الإنساني والتخلص منهما. بل إنه ظهرت مشكلة أخرى وهي الحاجة للمواد الخام اللازمة للمصانع (أو الطواحين الشيطانية كما سماها أحد الشعراء) حتى تدور ولا تتوقف قط عن الدوران وتنتج السلع التي لا يستهلكها أحد. ولكن الثورة الصناعية ذاتها سخَّرت الطاقة لخدمة الإنسان وجعلت من اليسير عليه أن ينتقل من مكان إلى مكان بيسر وسهولة، كما أصبح من الممكن لأي إنسان، بغض النظر عن أصله القومي أو الثقافي، أن يقطن في أي مكان يختاره «حاراً شديد الحرارة كان أو بارداً شديد البرودة».

هذه العوامل مجتمعة (الفائض السلعي - الفائض البشري - القدرة على التوسع والانتشار في كل بقاع الأرض) تشكِّل جوهر المسألة الأوربية في القرن التاسع عشر، كما تشير إلى الحل الأساسي المطروح والحل - في اقتصاد مبني على الإنتاج والتصدير - كان هو تصدير المشاكل الأوربية إلى شعوب آسية وإفريقية، وتصدير المشاكل هو في جوهره الاستعمار، إذ جيَّشت أوربة الجيوش وبنت الأساطيل وأنتجت السلاح واقتسمت العالم كله (باستثناء بضعة جيوب صغيرة نائية مثل اليابان التي كانت تحف بمحاولة استعمارها مصاعب كبيرة)، والاستعمار الغربي كان ضرورياً وأصنافاً، فحل مشكلة الحصول على المواد الخام وتصريف السلع المباشرة كان يتطلب أن تسير الجيوش وتخضع البلاد التي تشكل مصدراً للمواد الخام أو سوقاً محتملة للسلع فتسلبها الإرادة السياسية والاقتصادية وتحولها إلى مصدر أساسي للمواد التي يريدها المستعمر، وتحطم صناعاتها الأساسية التقليدية والجديدة لتحولها إلى سوق خصب للسلع، وهذا ما حدث في مصر والهند، حيث تحولت مصر إلى مزرعة قطن لمصانع لانكشير، وكانت القوى الأوربية قد حطمت كل الصناعات التي أسسها محمد علي وأغرقت مصر بالديون. هذا النوع من الاستعمار يمكن أن نسميه «الاستعمار التقليدي».

أما مشكلة تصريف «الفائض البشري» فتتطلب نوعاً آخر من الاستعمار. فبعد أن كانت جيوش أوربة الاستعمارية تسيطر على بلد ما كانت تخصص مناطق معينة لتوطين السكان الأوربيين فيها، ومن هنا كانت تسمية هذا النوع من الاستعمار بـ «الاستعمارَ الاستيطانيَّ أو السكانيَّ». فإذا كان الاستعمار التقليدي يأخذ شكل جيش يغزو بلداً ما ثم يستغله ككل لصالح البلد الغازي، فإن الاستعمار الاستيطاني

يأخذ شكل نقل مستوطنين أوربيين من بلادهم إلى البلد الجديد ليعيشوا فيه وليتخذوه وطناً جديداً لهم. ورغم اختلاف هذين النوعين من الاستعمار إلا أنهما مع هذا يشكلان وحدة لا تنفصم عُراها. فكلاهما يشكل بُعداً استراتيجياً للقارة الأوربية، وكلاهما يشكِّل قاعدة انطلاق. فالجيوش تحمي المستوطن، والمستوطن يشكل قاعدة سكانية للجيوش، ولا يمكن بأية حال فصل الاستعمار الفرنسي في الغرب وتونس حيث كان يأخذ شكلاً تقليدياً، عنه في الجزائر حيث كان يأخذ شكلاً استيطانياً. وليس من قبيل المصادفة أن طلائع الاستعماريين الاستيطانيين الصهاينة وصلت إلى فلسطين في عام ١٨٨٢ وهو العام نفسه الذي دخلت فيه الجيوش البريطانية مصر.

ورغم ترابط مظاهر الاستعمار كلها إلا أننا يمكننا أن نتصور الأنماط الاستعمارية المختلفة على شكل هرم، قاعدته «الاستعمارُ الجديد» أو «النظام العالمي الجديد»، وهو أقل أنواع الاستعمار وضوحاً (وإن كان أكثرها شيوعاً في الوقت الحاضر بعد سقوط الهيمنة الإمبريالية القديمة)، لأنه يلجأ إلى السيطرة الاقتصادية والسياسية عن طريق بعض أبناء البلد ذاتها، كما يمنحهم شيئاً من الاستقلال السياسي ويغويهم بحلم المشاركة في استغلال الشعوب. ويعلو هذا النمط في الدرجة الاستعمار التقليدي، حيث يمارس المستعمر الهيمنة السياسية والاقتصادية المباشرة، ويتحكم في مقادير الشعوب عن طريق الغزو العسكري المباشر والاحتفاظ بقوات عسكرية تحمي مصالحه ضد القوى القومية المحلية. يعلو هذا النمط الأخير الاستعمار الاستيطاني، بأشكاله المختلفة:

١- الاستعمار الاستيطاني الاندماجي، الذي يبدأ فيه العنصر الدخيل، بالهيمنة على السكان الأصليين ثم الاندماج معهم بعد حين، إلى أن يمتزج الطرفان كليةً مكونين كتلة إثنية جديدة (كما هو الحال في أمريكة اللاتينية).

٢- الاستعمار الاستيطاني (الذي يهدف لاستغلال الأرض ومن عليها من البشر) المبني على التفرقة اللونية (كما هو الحال في جنوب إفريقية)، حيث يحتفظ العنصر السكاني الدخيل باستقلاله، ويلجأ إلى عزل السكان الأصليين داخل مناطق محدودة حتى يسهل استغلالهم، كما أصبحت الولايات المتحدة ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر تنتمي هي الأخرى لهذا النمط.

٣- في أعلى الهرم يوجد الاستعمار الاستيطاني الإحلالي (كما هو الحال في الولايات المتحدة في سنوات الاستيطان الأولى وفي إسرائيل) حيث يظل العنصر البشري الدخيل محتفظاً باستقلاله عن السكان الأصليين، ثم يحاول التخلص منهم عن طريق إبادتهم ونقلهم خارج الحدود، فالأبارتهايد (الانفصال اللوني الكامل) لا يحل مشكلة الاستعمار الصهيوني بمنطلقاته الأيديولوجية (وإصراره على دولة يهودية خالصة). والاستعمار الإحلالي يضمن الاستقرار العنصري والاجتماعي الداخلي للمجتمع الاستيطاني، وفي الوقت ذاته يشوه بشكل كامل البناء الاقتصادي والحضاري للسكان الأصليين الذين تم طردهم. وبذا يكون الاستعمار الصهيوني الاستيطاني/ الإحلالي أعلى مراحل الاستعمار وأكثر أشكاله شراسة وعنفاً.

هذا هو الإطار الذي تم من خلاله حل مسألة أورية اليهودية: تصديرها إلى العالم العربي، وتأسيس دولة وظيفية، استيطانية إحلالية، تقوم الجماعة الوظيفية اليهودية التي فَقَدت وظيفتها بوظيفة جديدة فيها، فبدلاً من التجارة والربا، تقوم الدولة الوظيفية بالقتال دفاعاً عن المصالح الغربية.

• تاريخ الصهيونية: المرحلة التكوينية

يمكن تقسيم تاريخ الصهيونية إلى ثلاث مراحل أساسية:

أولاً: المرحلة التكوينية.

ثانياً: الصهيونية بين اليهود.

ثالثاً: مرحلة الولادة في مطلع القرن العشرين أو مرحلة بلفور حتى الوقت الحاضر.

وكل مرحلة تنقسم بدورها إلى فترات مختلفة. فالمرحلة التكوينية تنقسم إلى المراحل الآتية:

١- الصهيونية ذات الديباجة المسيحية (حتى نهاية القرن السابع عشر): شهدت هذه المرحلة من ناحية الخلفية العامة البدايات الحقيقية للانقلاب التجاري في الغرب، إذ هيمن الجيب التجاري (الذي كان منعزلاً في المدن في أوربة الإقطاعية)

على الاقتصاد الزراعي الإقطاعي عام ١٥٠٠ تقريباً، وأعاد صياغة الإنتاج وتوجيهه فخرج به عن نطاق الاكتفاء الذاتي وسد الحاجة، وبدأ التجار يلعبون دوراً مهماً في توجيه سياسات الحكومات، وهذا ما يعبر عنه باصطلاح «الانقلاب التجاري». وقد شجع هذا الانقلاب حركة الاكتشافات الجغرافية وهي حركة استعمارية ضخمة كانت تأخذ شكل استيطان في مراكز تجارية على الساحل، وفي أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، أصبحت إنجلترة بعد أن تحولت عن الكاثوليكية ونفضت النفوذ الإسباني عنها، أهم قوة استعمارية، فراكمت الثروات وسيطرت على رقعة كبيرة من الأرض. وواكب كل هذا حركةُ الإصلاح الديني التي أعادت تعريف علاقة الإنسان بالخالق وبالكتاب المقدس فأصبح في إمكان الفرد أن يحقق الخلاص بنفسه لنفسه خارج الإطار الكنسي الجمعي، ودون حاجة إلى رجال الدين، وأصبح من واجبه أن يفسر الكتاب المقدس لنفسه.

وإذا ما تركنا الخلفية والمادة البشرية جانباً وانتقلنا إلى الساحة، فلسطين، وجدنا أن الإمبراطورية العثمانية في هذه المرحلة كانت لا تزال تقف شامخة تحمي كل رعاياها، مسلمين ومسيحيين ويهوداً، وتشكل كتلة بشرية ضخمة متماسكة، ولم يكن الاستعمار الغربي يجرؤ على مواجهتها، وكان يفضل الالتفاف من حولها. ومع هذا يجب أن نسجل أن هذه الفترة شهدت بداية جمود الدولة العثمانية وظهور علامات ضعفها (في الوقت الذي كانت فيه الدول القومية الأوربية تزداد قوة بتأثير الانقلاب التجاري).

ظهرت الصيغة الصهيونية الأساسية في أواخر القرن السادس عشر على شكل الأحلام الاسترجاعية في الأوساط البروتستانتية الاستعمارية، وخصوصاً في إنجلترة، وقد ولدت فكرةً وحسب، وإمكانية تبغي التحقق لا في أوربة وإنما خارجها، وليس من خلال الإنسان الأوربي كُلّاً، وإنما من خلال الجماعات الوظيفية اليهودية، وكانت الصيغة الصهيونية الأساسية متدثرة بديباجات مسيحية بروتستانتية، وقد كانت هذه الصهيونية ترى اليهود مادةً متحوسلةً تماماً، ولذا، فلم يتصور أن يكون لهم دولة وظيفية مستقلة (فمركز الحلول هو المسيحيون البروتستانت) والمكان الذي سينقلون إليه كان يختلف من مفكر إلى آخر، والهدف من نقلهم هو الإعداد للخلاص المسيحي، ويلاحظ أن الصهيونية التوطينية (يهودية

كانت أم مسيحية) تنظر إلى اليهود من الخارج عنصراً يُستخدم ومادة توظف، وإن كان يجدر ملاحظة أن الصهيونية هي بالدرجة الأولى حركة غير مسيحية. كما يلاحظ أن الخطاب الصهيوني كان هامشياً للغاية، مقصوراً على الأصوليين البروتستانت.

٢- صهيونية غير اليهود (العلمانية) (حتى منتصف القرن التاسع عشر): شهدت هذه المرحلة تراكم رؤوس الأموال وهيمنة الملكيات المطلقة (بتوجهها المركنتالي) على معظم أوربة، غربها ووسطها، وإلى حدٍّ ما شرقها، ورغم أن القوى التقليدية كانت لا تزال مسيطرة على دفة الحكم فإن الطبقات البرجوازية ازدادت قوة وثقة بنفسها وبدأت تطالب بنصيب من الحكم، بل بدأت تؤثر فيه. وقد عبر هذا عن نفسه من خلال الفلسفات الثورية المختلفة والنظريات الكثيرة عن الدولة والفكر العقلاني، وأخيراً من خلال الثورة الفرنسية التي تعد ثمرة كل الإرهاصات السابقة وتشكل نقطة تحول في تاريخ أوربة بأسرها.

وقد أدى تراكم رؤوس الأموال والفتوحات العسكرية والاكتشافات الجغرافية وتقدم العلم والتكنولوجية إلى حدوث النقلة النوعية التي يطلق عليها «الثورة الصناعية» ويرى بعض المؤرخين أن بدايتها تعود إلى هذه الفترة، وكانت إنجلترة في المقدمة في هذا التحول، فقد كانت أول دولة في العالم تتحول من دولة تجارية إلى دولة رأسمالية صناعية، ثم تحولت إلى قوة عظمى بعد انتصارها على فرنسة في حرب السنوات السبع، وبعد توقيع معاهدة أوترخت عام ١٧١٣. وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت إنجلترة أكبر قوة استعمارية في العالم، ومع تصاعد المشروع الاستعماري انزوى دعاة الديباجات الدينية وتدثرت الصياغة الصهيونية الأساسية بالديباجات العلمانية الرومانسية والعضوية والنفعية والعقلانية، وقد دعى نابليون (أول غاز في الشرق الإسلامي وعدو اليهود) إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين مستخدماً خليطاً من الديباجات الرومانسية والدينية والنفعية.

وكان الوهن الذي دب في أوصال الدولة العثمانية (رجل أوربة المريض) قد بدأ يظهر ويتضح، وكانت كل القوى الغربية تفكر في طريقة للاستفادة من هذا الضعف لتحقق لنفسها بعض المكاسب. وقد أخذ هذا شكل هجوم مباشر من

روسية التي ضمت بعض الإمارات التركية على البحر الأسود، ثم وقع هجوم نابليون على مصر، بينما قررت إنجلترة، ومن بعدها ألمانية (في مراحل مختلفة) الحفاظ على هذه الإمبراطورية مع تحقيق المكاسب من خلال التدخل في شؤونها وإصلاحها حتى تقف حاجزاً ضد أي زحف روسي محتمل.

ولعل أهم حقيقة سياسية في هذه المرحلة هي ظهور محمد علي المفاجئ وقيامه بتكوين إمبراطوريته الصغيرة. فقد قلب موازين القوى وهدد المشروع الاستعماري الغربي الذي كان يفترض أن العالم كله ما هو إلا ساحة لنشاطه وسوقاً لسلعته، ووضع حداً لآمال الدول الغربية التي كانت تترقب اللحظة المواتية لاقتسام تركة الرجل المريض المحتضر. ولذا تحالفت الدول الغربية كلها، ومنها فرنسة، وعقدت مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ وقررت فيه الإجهاز عليه، فاضطرته إلى التوقيع على معاهدة لندن لتهدئة المشرق. وعند هذه النقطة تبلورت الفكرة الصهيونية بين غير اليهود، وتحولت من مجرد فكرة إلى مشروع استعماري محدد، إذ بدأت تطرح فكرة تقسيم الدولة العثمانية ومن ثم اكتسبت الصيغة الصهيونية الأساسية مضموناً تاريخياً وبعداً سياسياً، وأصبح بالإمكان دمج المسألة اليهودية (مسألة الشعب العضوي المنبوذ) مع المسألة الشرقية (تقسيم الدولة العثمانية)، وطُرحت إمكانية توظيف الشعب المنبوذ وأصبح التفكير في حل المسألة اليهودية عن طريق نقل اليهود إلى فلسطين وإيجاد قاعدة الاستعمار الغربي ممكناً (أي أن تتم حوسلة اليهود باسم الحضارة الغربية ومصالحها التي هي مركز الحلول).ويمكن القول إنَّ الفكرة الصهيونية قد بدأت تتحول إلى فكرة مركزية في الوجدان السياسي الغربي. وهذه المرحلة هي مرحلة صهيونية غير اليهود (العلمانية)، وهي صهيونية توطينية. وظهر أهم مفكر صهيوني (إيرل أوف شافتسبري السابع)، كما ظهر لورانس أوليفانت. ولكن، حتى هذه المرحلة لم تكن فكرة الدولة اليهودية قد ظهرت، إذ كان التصور لا يزال أن يكون التجمع اليهودي محمية تابعة لدولة غربية. وحتى فلسطين نفسها مكاناً للتجمع كان لا يزال أمراً غير مقرر. وكانت النظرة لليهود لا تزال خارجية، فقد كان ينظر إليهم مادةً استعمالية لا قيمة لها في حد ذاتها تكتسب قيمتها من نفعها. وكانت ديباجات الصهيونية في هذه المرحلة عقلانية مادية رومانسية (لا عقلانية مادية).

• الصهيونية بين اليهود قبل بلفور

نشأت الصهيونية حركةً سياسية بين الجهات الغربية غير اليهودية؛ ثم انتقلت إلى الجماعات اليهودية، ويمكن تقسيم تاريخ الصهيونية بين اليهود إلى عدة مراحل أيضاً:

١- **صهيونية أثرياء الغرب المندمجين (النصف الثاني من القرن التاسع عشر):**
في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تعد الحروب ضد دول آسية وإفريقية، بعد التطورات الصناعية المذهلة في أوربة، أمراً يشكل على خزائن الدولة الاستعمارية، بل إن العائد أصبح يفوق التكاليف (وكانت إحدى مقولات أعداء المشروع الاستعماري أن تكاليف الإمبراطورية تفوق عائدها). ومما تجدر ملاحظته كذلك أن الضغوط السكانية والأزمة الاقتصادية داخل المجتمعات الغربية جعلتها تبحث عن حل لمشاكلها خارج أوربة. ولكل هذا طرحت الإمبريالية نفسها على أنها المخرج من المأزق التاريخي.

ولكن المشروع الإمبريالي لم يكن يتم في ظل نظريات التجارة الحرة، إذ سيطر فكر احتكاري جديد يسمي «نيو - مركنتالي new- mercantile» (أي «المركنتالي الجديد») فتمَّ تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ واحتكارات، كل منطقة منها مقصورة على الدولة التي استعمرتها (ومن هنا كانت المؤتمرات الدولية المختلفة في هذه الفترة لتقسيم العالم إلى مناطق نفوذ) ومع منتصف القرن التاسع عشر كانت إنجلترة ورشة العالم بلا منازع، فإنتاجها الصناعي كان قد وصل إلى مستوى لم تعرفه البشرية من قبل، وإمبراطوريتها كانت مترامية الأطراف تحميها قوة عسكرية ضخمة وأسطول يسيطر على كل بحار العالم، وقد اتخذت السياسة البريطانية شكلاً إمبريالياً أكثر حدة، ولاسيما بعد تحطيم مطامع روسية في حرب القرم، وتحول مشروعها الاستعماري إلى أواسط آسية وغيرها من المناطق البعيدة عن إفريقية والشرق الأوسط اللذين تزايد الاهتمام الإمبريالي البريطاني بهما، فاشترت بريطانية أسهم شركة قناة السويس عام ١٨٧٦، واستولت على قبرص عام ١٨٧٨، واحتلت مصر (الطريق إلى الهند) عام ١٨٨٢. ونتيجة كل هذا أصبح مصير فلسطين جزءاً من المخطط الاستعماري البريطاني. الأمر الذي حدا بكتشنر إلى أن يطالب بتأمين ضم فلسطين للإمبراطورية. ومع هذا كانت بريطانية لا تزال ملتزمة

بضمان ممتلكات الدولة العثمانية «من النيل إلى الفرات» التي «وعد الرب بها إبراهيم» ومن ثم أصبحت منطقة نفوذ بريطانية، ولكن في عام ١٨٨٥ قررت حكومة المحافظين أن من الخير الموافقة على اقتراح القيصر بتقسيم الإمبراطورية (العثمانية).

ومع هزيمة فرنسة على يد ألمانية عام ١٨٧١ نشط المشروع الإمبريالي الألماني، وبالتالي العلاقة مع الدولة العثمانية، فزاد حجم القروض الألمانية لها، وزار القيصر وليام الثاني القسطنطينية عام ١٨٩٨ وزار بعدها فلسطين، ولذا ظل المشروع الصهيوني متأرجحاً بين أعظم قوتين إمبرياليتين في ذلك الحين، البريطانية والألمانية.

كانت الصيغة الصهيونية حتى هذه المرحلة مجرد فكرة تبحث عن المادة البشرية اليهودية المستهدفة التي ستوظف. ومع تعثر التحديث في شرق أوربة في أواخر القرن التاسعَ عشر، تدفق المهاجرون اليهود من شرق أوربة إلى غربها، الأمر الذي هدد أمن هذه الدول كما هدد مكانة أعضاء الجماعات اليهودية فيها، وقد أدى هذا إلى تشابك مصير يهود غرب أوربة ومصير يهود اليديشية، وحلاً لهذه المشكلة، اكتشف يهود الغرب الحل الصهيوني دون أية ديباجات قومية أو سياسية (ومن هنا كان رفض فكرة الدولة اليهودية والابتعاد عن فلسطين مكاناً للتوطين وعدم الاهتمام بالدولة الراعية إذ لا حاجة لها) وظهرت الصهيونية التوطينية بين اليهود في غرب أوربة، وخصوصاً بين أثرياء الغرب المندمجين، وعلى هذا، فهو أول اتجاه صهيوني يظهر بين اليهود، ومع هذا فهو يشبه صهيونية غير اليهود في أنه ينظر لليهود من الخارج.

ويمكننا أن نقول إن تاريخ صهيونية غير اليهود يبدأ مع ظهور حركة الاستعمار الاستيطاني، وتتبلور ديباجاته وتكتسب بعداً أساسياً مع ظهور محمد علي وسقوطه (ويلاحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية لا علاقة لهم بتطور الفكرة الصهيونية). ولا يبدأ تاريخ الصهيونية إلا مع تعثر التحديث وتعاظم الإمبريالية رؤيةً وممارسةً.

ومن أهم الصهاينة التوطينين في هذه المرحلة إدموند دي روتشيلد وهيرش ومونتفيوري:

٢- **إرهاصات التيارات الصهيونية المختلفة بين اليهود (العقود الأخيرة في القرن التاسع عشر)**: لا تختلف الخلفية التاريخية لهذه المرحلة كثيراً عن سابقتها، فالإمبريالية الغربية كانت قد قسمت العالم بينها. وكانت ألمانية تحاول أن تعيد التقسيم لتوسيع الرقعة التي تهيمن عليها. ومن هنا كان استمرار تذبذب الصهاينة بين بريطانية وألمانية. ورغم أن سياسة بريطانية الرسمية كانت الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية وأملاكها إلا أن القرار بتقسيمها كان قد تم اتخاذه بالفعل، وكان التعبير عن كل هذه الصراعات هو الحربَ العالمية الأولى التي انتهت بضم فلسطين (الساحة) إلى الإمبراطورية البريطانية واختفاء الدولة العثمانية كقوة سياسية.

أ) الصهيونية التسللية: اكتشف يهود شرق أوربة الصهيونية حركةً استيطانية، ولكنهم لم يدركوا حتمية الحل الإمبريالي. ونظراً لقصور رؤيتهم، حاولوا الاستيطان دون دعم إمبريالي، وحاولوا تجنيد أثرياء يهود الغرب المندمجين ليرعوا مشروعهم ويدعموه، وهذا ما سميناه «الصهيونية التسللية» (التي يقال لها «عملية») وهي أول صهيونية استيطانية، وتتسم بأنها نابعة من المادة البشرية المستهدفة، ويظل مفهوم الدولة شاحباً بين دعاة الصهيونية التسللية، كما أن فلسطين ليست بالضرورة ساحة الاستيطان. ومن أهم دعاة الصهيونية التسللية ليلينبلوم وبنسكر، ثم ظهرت جماعات البيلو وأحباء صهيون. ويمكن النظر إليها إرهاصاتٍ لهرتزل وللصيغة الصهيونية الأساسية بعد تهويدها.

ب) إرهاصات الصهيونية الإثنية الدينية والعلمانية: وظهرت كتابات كاليشر والقلعي التي تعدُّ إرهاصات للصهيونية الإثنية الدينية، ونشر آحاد هعام كتاباته الصهيونية التي ترى أهمية تأسيس دولة يهودية في فلسطين، ولكن وظيفتها لم تكن الإسراع بعملية دمج اليهود بل الحفاظ على هويتهم.

ج) إرهاصات الصهيونية العمالية : وقد ظهرت كذلك كتابات هس في منتصف القرن التاسع عشر التي ساعدت مفكري الصهيونية العمالية على صياغة أفكارهم.

- مرحلة هرتزل (العقود الأخيرة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين):
ظهر هرتزل بين صفوف يهود الغرب المندمجين التوطينيين فاكتشف حاجة الغرب ويهود الغرب للتخلص وبسرعة من يهود شرق أوربة. ولكنه اكتشف الحقيقة البدهية الغائبة عن الجميع: حتمية التحرك داخل إطار الإمبريالية الغربية التي يمكنها وحدها أن تنقل اليهود خارج أوربة وأن توظفهم لصالحها نظير أن تزودهم بالدعم والحماية. وقد اكتشف هرتزل أيضاً فكرة القومية العضوية والشعب العضوي (فولك) التي تستطيع أوربة العلمانية الإمبريالية أن تدرك اليهود من خلالها. وقد نجح هرتزل في التوصل إلى خطاب مراوغ (صياغة هلامية، وتوظيف الصمت) وهو ما جعل وضع نصوص العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود العالم ممكناً. وهو عقد يرضي يهود الشرق ولا يفزع يهود الغرب، ويجعل بإمكان الإمبريالية أن تضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ، كما أنه فتح الباب أمام عملية تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية من خلال الديباجات اليهودية المختلفة؛ ويتميز هرتزل عن كلٍّ من شافتسبري وأوليفانت في أنه هو نفسه يهودي ينظر إلى المادة البشرية المستهدفة من الداخل، ولكنه يهودي غير يهودي، ولذا فهو ينظر إلى هذه المادة من الخارج ويراها مشكلةً تبغي حلاً لا قيمة إنسانية تبغي تحقُّقاً، وبسبب ازدواجيته هذه، نجح هرتزل في أن يكون جسراً بين التوطينين والاستيطانيين وبين اليهود والغرب، ولذا يمكن القول إنَّ الصهيونية تحولت من فكرة إلى مشروع استيطاني استعماري على يد هرتزل في مؤتمر بال الذي ولدت فيه الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. وقد فزع أثرياء الغرب اليهود من دعوة هرتزل في بادئ الأمر. كما رفضها معظم الجماعات والمنظمات اليهودية في العالم.

- تبلور الفكرة الصهيونية بين اليهود:

أ) حتمية الحل الإمبريالي: أدرك قادة يهود شرق أوربة حتمية الحل الإمبريالي من خلال هرتزل.

ب) استقرار الصيغة الصهيونية الشاملة: تم قبول الدولة اليهودية الوظيفية هدفاً أساسياً للحركة الصهيونية وإطاراً يتم توظيف اليهود من خلاله، وأدّى تقسيم الدولة العثمانية إلى حسم الأمور تماماً لصالح دعاة الاستيطان في فلسطين.

ج) تهويد الصيغة الصهيونية : أحس قادة شرق أوربة أن الصيغة الصهيونية الأساسية، وصيغة هرتزل الاستعمارية، لا يمكن أن تجند يهود اليديشية، ولذا فقد أثاروا قضية المعنى والوعي اليهودي وأضافوا ديباجات إثنية دينية وعلمانية أدت إلى تهويد الصيغة الصهيونية وجعلت الشعب اليهودي مرة أخرى مركزاً للحلول وجماعة لها قيمة في حد ذاتها، الأمر الذي جعل بإمكان يهود شرق أوربة استبطان الصيغة الصهيونية الأساسية، ويلاحظ أن الصهيونية الإثنية الدينية والعلمانية لا هي بالتوطينية ولا هي بالاستيطانية لأنها تتوجه لمستوى الهوية والوعي الذي يتجاوز ثنائية الاستيطان والتوطين وإن كان لها ثنائيتها الخاصة (ديني/ علماني)، وهي صهيونية تنظر إلى اليهود من الداخل.

د) الديباجات والتيارات السياسية: أدخل بعض الصهاينة العلمانيين ديباجات ليبرالية (الصهيونية العامة) أو اشتراكية (صهيونية عالمية) أو فاشية (الصهيونية التصحيحية) لتحديد شكل الدولة المزمع إقامتها، أي أنهم حددوا شكل الاستيطان وبذا تكون الفكرة الصهيونية قد اكتملت وتحددت ملامحها وصيغت كل الديباجات اللازمة لتسويقها أمام قطاعات وطبقات الجماعات اليهودية في شرق أوربة وغربها، وحتى ذلك التاريخ، كانت هناك صراعات كثيرة داخل الحركة الصهيونية:

أ) صراع بين التسلليين والدبلوماسيين.

ب) بين الدينيين والعلمانيين.

ج) بين دعاة الاعتماد على ألمانية في مواجهة دعاة الاعتماد على إنجلترة.

د) صراعات أيديولوجية بين دعاة الليبرالية ودعاة الاشتراكية.

هـ) صراع بين دعاة الصهيونية الإقليمية ودعاة الصهيونية التوطينية، أي بين دعاة الاستيطان في أي مكان ودعاة ما يسمى «صهيونية صهيون» أي الاستيطان في فلسطين وحدها.

٥) تأسيس المنظمة الصهيونية: لم تكن بلورة الفكرة الصهيونية كافية، بل كان ضرورياً أن يوجد إطار تنظيمي، وقد وضع هرتزل التصور الأساسي في كتابه **دولة اليهود**، ثم دعا للمؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) وتم تأسيس المنظمة الصهيونية.

- **الصهيونية من بلفور إلى شارون**

تختلف خريطة العالم السياسية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى عن التي سادت قبلها اختلافاً بيِّناً. فقد انتصر الاستعمار البريطاني على الاستعمار الألماني والتهم النصيب الأكبر من الإمبراطورية العثمانية، ثم ظهرت إرهاصات القومية العربية (ولكن حركة القومية العربية وحركة المقاومة العربية الفلسطينية، وبخاصة في العقود الأولى من هذه الفترة كانت ضعيفة غير قادرة على تعبئة الجماهير وتنظيمها ضد الاستعمارين الإنجليزي والصهيوني بتنظيمهما الحديث وعلاقاتهما العالمية وتعاونهما الوثيق داخل فلسطين وخارجها). وقد تصاعدت المقاومة في الثلاثينيات. ولكن المؤسستين الاستعماريتين نجحتا في قمعها وانتهى الأمر بطرد غالبية الفلسطينيين من ديارهم وأعلنت الدولة عام ١٩٤٨ بموافقة الدول الغربية العظمى كلها وموافقة الاتحاد السوفييتي (ولم تظهر المقاومة الفلسطينية مرة أخرى بشكل منظم إلا عام ١٩٦٥ بقيادة فتح وبمشاركة الفصائل الفلسطينية الأخرى). وقد خاضت الدولة الصهيونية حروبها المتعددة ضد العرب، من حرب ١٩٤٨ إلى حرب ١٩٥٦ إلى حرب ١٩٦٧ إلى حرب ١٩٧٣ إلى اجتياح لبنان عام ١٩٨٢ وما تبعه من توسع ومزيد من القمع.

وفي بداية هذه المرحلة ظهرت الولايات المتحدة قوةً كبرى لها ثقل يعتد به على الصعيد العالمي، أما الاتحاد السوفيتي فقد دخل مرحلة البناء والتحديث الاشتراكي التي فرضت عليه نوعاً من العزلة. ومع ثلاثينيات القرن بدأ مركز الإمبريالية في الانتقال من لندن إلى واشنطن، وهي عملية يمكن القول إنها اكتملت بعد الحرب العالمية الثانية التي خرجت منها الولايات المتحدة قائداً للمعسكر الإمبريالي بلا منازع.

كما يلاحظ تركز معظم يهود العالم في الولايات المتحدة؛ وقد كان لهذين العنصرين أعمق الأثر في تعميق توجه الحركة الصهيونية ثم الدولة الصهيونية نحو أمريكة.

مع وعد بلفور، حسمت كل الأمور، فبعد ظهور الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة وقبول القيادات الصهيونية لها، يظهر بلفور (ممثل الإمبراطورية البريطانية والحضارة الغربية كلِّها) ويوقع عقد بلفور ممثلاً للحضارة الغربية (ويوقعه عن الطرف الآخر الصهاينة التوطينيون من يهود الغرب المندمجين والصهاينة الاستيطانيين اليهود ممثلي المادة البشرية اليهودية من شرق أوربة) فتصبح الحركة الصهيونية مشروعاً استعمارياً استيطانياً إحلالياً.

ويجب ألا نخلق انطباعاً خاطئاً بأن هناك تعاقباً زمنياً صارماً، فاليهودية ذات الديباجة المسيحية لا تزال مزدهرة رغم أن الحضارة الغربية قد تطورت بطريقة همشت المسيحية، كما أن صهيونية غير اليهود (العلمانية) لا تزال قائمة والصهيونية التوطينية لا تزال هي الصهيونية المنتشرة بين معظم يهود العالم (ويطلق عليها صهيونية الدياسبورا).

وبعد إعلان وعد بلفور - الذي ستفرد له مساحة لائقة به لاحقاً في هذا الفصل - وبعد اكتساب المنظمات الصهيونية الشرعيةَ الاستعماريةَ التي كانت تسعى إليها، تغيرت الصورة تماماً، فلم تعد القضية قضية بعض قيادات الفائض اليهودي من شرق أوربة، ولم تعد المسألة متصلة بإغاثة بضعة آلاف من اليهود، وإنما أصبحت المنظمة تابعة لأكبر قوة استعمارية على وجه الأرض آنذاك، وأصبح لها وظيفة محددة هي نقل المادة البشرية اليهودية إلى فلسطين لتأسيس قاعدة لهذه القوة، ولذا فلم يعد هناك مجال للاختلافات الصغيرة بين دعاة الاستيطان العمليين مقابل دعاة بذل الجهود الدبلوماسية مع الدولة الراعية، كما لم يعد هناك أي مبرر لوجود دعاة الصهيونية الإقليمية (أي توطين اليهود خارج فلسطين)، وتساقطت بالتالي كثير من التقسيمات الفرعية أو أصبحت غير ذات موضوع، وتم تقسيم العمل على أساس جديد يقبله الجميع، وظهر ما يمكن تسميته «الصهيونية التوفيقية» كما أن الرفض اليهودي للصهيونية فقد دعامته الأساسية الخوف من ازدواج الولاء؛ إذ أصبح تأييد الصهيونية أمراً لا يتناقض مع ولاء الإنسان الغربي لوطنه وحضارته.

وتاريخ الحركة الصهيونية بعد ذلك هو تاريخ الاستيطان الصهيوني في فلسطين تحت رعاية حكومة الانتداب، وقد ظهرت بعض التوترات بين القوة الاستعمارية الراعية والمستوطنين (وهو توتر يسم علاقة أية دولة راعية بالمستوطنين التابعين

لها، وهو لا يعود إلى تناقض المصالح وإنما إلى اختلاف نطاقها، فمصالح الدولة الراعية أكثر اتساعاً وعالمية من مصالح المستوطنين). ولذا، فقد أصدرت الحكومة البريطانية الراعية مجموعة من الكتب البيضاء لتوضح موقفها من المستوطنين الصهاينة ومن العرب، وقد انتقل دور الدولة الراعية من إنجلترة إلى الولايات المتحدة. ولكن كل هذه العناصر لا تغير بنية الفكر الصهيوني ولا اتجاه الحركة ولا تؤثر في المنظمة الصهيونية.

أما بالنسبة إلى المنظمة الصهيونية، فبعد صدور وعد بلفور كان ضرورياً أن يكون لها ذراعها الاستيطاني الذي يتعامل مع حقائق الموقف في فلسطين، وقد أسست المنظمة الصهيونية ساعدها التنفيذي المعروف باسم الوكالة اليهودية عام ١٩٢٢، إذ نص صك الانتداب البريطاني على فلسطين على الاعتراف بوكالة يهودية مناسبة لإسداء المشورة إلى سلطات الانتداب في جميع الأمور المتعلقة بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وفي عام ١٩٢٩، نجح وايزمان - رئيس المنظمة الصهيونية آنذاك - في إقناع أعضاء المؤتمر الصهيوني السادس عشر بضرورة توسيع الوكالة اليهودية فيتشكل مجلسها من عدد من أعضاء المنظمة وعدد مثله من غير أعضائها، وكان المفروض من ذلك استمالة أثرياء اليهود التوطينيين لتمويل المشروع الصهيوني دون إلزامهم بالانخراط في صفوف المنظمة، والإيحاء في الوقت نفسه بأن الوكالة تمثل جميع يهود العالم ولا تقتصر على أعضاء المنظمة، وكان من شأن هذه الخطوة أن تعطي دفعة قوية للحركة الصهيونية وتدعم الموقف التفاوضي للمنظمة الصهيونية مع الحكومة البريطانية التي كان يقلقها تصاعد الأصوات الرافضة للصهيونية في أوساط يهود بريطانية (وقد ظلت المنظمتان تُعرَفان بالاسم نفسه على النحو التالي: المنظمة الصهيونية/ الوكالة اليهودية حتى عام ١٩٧١ حين جرت عملية مزعومة وشكلية لإعادة التنظيم فأصبحت المنظمتان منفصلتين قانونياً ولكل منهما قيادة مختلفة).

ولم يهدأ الصراع تماماً بين التوطينيين والاستيطانيين، فحتى عام ١٩٤٨، كان الصراع يدور حول من يتحكم في المنظمة وحول تحديد أهداف المشروع الصهيوني. أما بعد عام ١٩٤٨، فإن مجال الصراع أصبح تعريف اليهودي (الديني والعلماني) إذ حُسمت قضية التحكم في المنظمة لصالح المستوطنين تماماً.

رغم عدم اشتراك يهود البلاد العربية في إفراز الفكر الصهيوني أو الحركة الصهيونية، ورغم أن الصهيونية (بشقيها الشرقي والغربي) لم تتوجه إليهم بشكل خاص ولم تحاول تجنيدهم بشكل عام وواسع قبل عام ١٩٤٨، إلا أن إنشاء الدولة قد خلق حركيات تتخطى إرادتهم. كما أن حاجة الدولة الصهيونية إلى طاقة بشرية (بعد عزل يهود الشرق أو اختفائهم وبعد رفض يهود الغرب الهجرة) جعلها تهتم بهم وتجندهم وتفرض عليهم في نهاية الأمر «مصيراً صهيونياً» أي الخروجَ من أوطانهم. وقد استقرت أعداد كبيرة منهم في الدولة الصهيونية، وإن كان من الملحوظ أن أعداداً أكبر استقرت خارجها.

وقد ظهرت صراعات بين دعاة الديمقراطية ودعاة الشمولية، وبين دعاة المشروع الرأسمالي الحر والنهج الاشتراكي، ولكنها صراعات لا علاقة لها بالفكر الصهيوني ولا بالحركة الصهيونية؛ فهي صراعات داخلية بين المستوطنين، وإذا شارك فيها الصهاينة التوطينيون فإن مساهمتهم تظل ثانوية، وتعود هامشية هذه الصراعات إلى أن الولايات المتحدة تمول التجمع الصهيوني بأسره، بمن فيه من رأسماليين وإرهابيين وعقلاء واشتراكيين وقتلة، فالحقيقة الأساسية هي وظيفية الدولة الصهيونية، ولذا فإن الصراعات ذات المضمون الأيديولوجي العميق أو السياسي المسطح ليست ذات أهمية كبيرة، أما الصراع بين الأشكناز والشرقيين فهو صراع عميق ومهم ولكنه لا يؤثر في الفكر الصهيوني أو الحركة الصهيونية، فهو قضية إسرائيلية داخلية تماماً.

وهذه المرحلة شهدت تحول الفكرة الصهيونية. الاستيطانية، إلى واقع استيطاني إحلالي، إذ نجحت الدولة الصهيونية في طرد معظم العرب من فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ واستبعاد من تبقى منهم.

وتواجه الصهيونية، فكرةً وحركةً ومنظمةً ودولةً، أزمةً عميقةً لعدة أسباب من بينها انصراف يهود العالم عنها، فالصهيونية، لا تعني لهم الكثير، فهم يفضلون إما الاندماج في مجتمعاتهم أو الهجرة إلى الولايات المتحدة، وقد تدهورت صورة المُستوطن الصهيوني إعلاميا بعد الانتفاضة إذ إن هذه الدولة الشرسة أصبحت تسبب لهم الحرج الشديد، وهي لم تعد دولة إحلالية، يمكن الدفاع عنها بحسبانها دولة يهودية خالصة (الأبارتهايد). وقد أدى هذا إلى أن المادة البشرية المستهدفة

ترفض الهجرة، الأمر الذي يسبب مشكلة سكانية استيطانية للمستوطن الصهيوني. ويلاحظ تزايد حركات رفض الصهيونية والتملص منها وعدم الاكتراث بها بين يهود العالم.

وعلى المستوى الأيديولوجي، يلاحظ، في عصر نهاية الأيديولوجية وما بعد الحداثة، أن كل النظريات تتقلص ويختفي المركز، والشيء نفسه يسري على الصهيونية إذ إن إيمان يهود العالم بها قد تقلص تماماً، ولذا فإن من يهاجر إلى إسرائيل إنما يفعل ذلك لأسباب نفعية مادية مباشرة، وفي داخل إسرائيل، تظهر أجيال جديدة تنظر إلى الصهيونية بكثير من السخرية، وعلى المستوى التنظيمي، تفقد المنظمة كثيراً من حيويتها وتصبح أداة في يد الدولة الصهيونية، وتقابل اجتماعاتها بالازدراء من قبل يهود العالم والمستوطنين في فلسطين، ولم تغير اتفاقية أوسلو من الأمر كثيراً، بل لعلها تسرع بتفاقم أزمة الصهيونية، فالدولة ستصبح أكثر ثباتاً واستقراراً وستتحدد هويتها دولةً لها مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية المتشعبة التي ليس لها بالضرورة علاقة كبيرة بأعضاء الجماعات اليهودية في العالم.

- **صهيونية تابعة**

عادةً ما يُوصف ثيودور هرتزل بأنه مؤسس الحركة الصهيونية أو الأب الروحي لها، وهو وصفٌ يفتقر إلى الدقة، وإن كان ينطوي على شيءٍ من الصحة.

فقد ظهرت تسمية «الصهيونية»، وسيلةً لحل ما عُرف باسم «المسألة اليهودية» في أوربة، عندما استخدمها الكاتب النمساوي اليهودي ناثان بيرنباوم (١٨٦٤-١٩٣٧) في عام ١٨٩٠، لوصف تيارٍ يدافع عما يُسمى «العِرق اليهودي» و«البحث عن وطنٍ للفائض البشري اليهودي» انطلاقاً من أن «السمات العِرقية اليهودية قيمة مطلقة بدلاً من الدين اليهودي». ولكن الإرهاصات الأولى لهذا المفهوم ظهرت قبل ذلك بكثيرٍ، وفي أوساطٍ غير يهودية على وجه الخصوص، بل وشديدة العداء لليهود واليهودية في أغلب الأحيان.

فعلى سبيل المثال، طالب إرنست لاهاران، المساعد الشخصي لنابليون الثالث، في كتيبٍ صدر عام ١٨٦٠، بتهجير الجماعات اليهودية الأوربية إلى

فلسطين وتوطينهم فيها لاستعادتها من الدولة العثمانية. كما سرد لورد بالمرستون (١٧٨٤-١٨٦٥)، في رسالةٍ إلى السفير الإنجليزي لدى الدولة العثمانية عام ١٨٤٠، المكاسب التي ستعود على الإمبراطورية الإنجليزية من توطين يهود أوربة في فلسطين، ولا سيما الوقوف في وجه التطلعات القومية لمحمد علي. وتبعه في ذلك لورانس أوليفانت (١٨٢٩-١٨٨٨)، الذي أكد أن الهدف من توطين اليهود في فلسطين هو ضمان التغلغل البريطاني السياسي والاقتصادي والعسكري في المنطقة. وذهب لورد شافتسبري (١٨٠١-١٨٨٥)، إلى أن جوهر المعاناة التي يقاسيها ما يُسمى «الشعب اليهودي» هو ما يتصف به من «الانحطاط الخلقي والعناد والجهل بالإنجيل»، ومن ثم فإن علاجه يتمثل في إعادته إلى «الأرض القديمة» التي ظل مرتبطاً بها على مر العصور. ولخص شافتسبري فكرته في العبارة الشهيرة التي أصبحت مكوناً أساسياً للمشروع الصهيوني، وهي «أرض بلا شعبٍ لشعبٍ بلا أرض»، وهي عبارة تعكس الرؤية الاستعمارية العنصرية الغربية التي ترى العالم، بشعوبه وبلدانه وموارده، مجرد مادةٍ مستباحةٍ يمكن أن يوظفها الغرب لمصلحته، ما دام هو مركز العالم وسيده ومرجعيته.

ولكن شافتسبري كان يؤكد في الوقت نفسه على الفوائد التي ستعود على الإمبراطورية الإنجليزية من وراء توطين اليهود في فلسطين، ولا سيما توسيع نفوذها في مواجهة القوة الاستعمارية الفرنسية المنافسة. فقد ذكر في مقالٍ له عام ١٨٧٦:

«إن فلسطين في حاجةٍ إلى السكان ورأس المال، وبإمكان اليهود أن يعطوها الشيئين معاً، وإنجلترة لها مصلحة في استرجاعها، لأنها ستكون ضربةً لإنجلترة إن وُضع منافسوها في سورية. لكل هذا، يجب أن تحتفظ إنجلترة بسورية لنفسها كما يجب أن تدافع عن قومية اليهود وتساعدهم حتى يعودوا فيكونوا بمنزلة الخميرة لأرضهم القديمة. إن إنجلترة أكبرُ قوة تجارية وبحرية في العالم، ولهذا فلابد لها أن تضطلع بدور توطين اليهود في فلسطين».

وعندما ظهر هرتزل على مسرح الأحداث، كانت الصيغة الأساسية للفكرة الصهيونية قد تبلورت من خلال كتابات عددٍ من الكتاب اليهود من أمثال موسى هس (١٨١٢-١٨٧٥) وليو بنسكر (١٨٢١-١٨٩١)، وبيرتس سمولنسكين (١٨٤٢-

١٨٨٥)، وموشيه ليلينبلوم (١٨٤٣-١٩١٠) وغيرهم، وكانت جمعيات «أحباء صهيون» تسعى جاهدةً إلى تهجير أعدادٍ من يهود شرق أوربة للاستيطان في فلسطين، من خلال عمليات تسللٍ تحظى برعاية وتمويل بعض أثرياء اليهود في أوربة.

ولكن هذه الكتابات ظلت مجرد تصوراتٍ نظريةٍ أقرب إلى الأمنيات التي لا تستند إلى أي أساسٍ واقعي، ولا تحظى بتأييد جماهيري، كما ظلت محاولات التسلل إلى فلسطين محدودة الأثر، ولم تتخذ شكل حركةٍ منظمة ومستمرة. وكان هرتزل هو الذي حوّل الأفكار والأماني إلى حركةٍ ذات إطار تنظيمي محدد هو «المنظمة الصهيونية»، ومن ثم وضع أولى اللبنات لتحقق المشروع الصهيوني. فلماذا نجح هرتزل فيما أخفق فيه الآخرون؟ ولماذا استمر مشروع هرتزل، ومن بعده وايزمان، وتحوَّل إلى واقعٍ ملموسٍ بينما أخفقتِ المشاريع الأخرى؟

لعل «الإنجاز» الأساسي لهرتزل يكمن في إدراكه استحالة وضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ دون الاستعانة بدعم ورعاية إحدى القوى الاستعمارية الكبرى، ومن ثم سعيه الدؤوب للبحث عن قوةٍ كبرى تجد مصلحةً في تبني هذا المشروع وتسخيره لخدمتها. وفي سياق هذا السعي، عرض هرتزل خدماته على السلطان العثماني في إحدى رسائله قائلاً: «نحن اليهودَ نحتاج إلى من يحمينا في هذا العالم، ونحن نريد لهذا الحامي أن يستعيد قوته»، ثم ألمح إلى إمكان المشاركة في تخفيف ديون الدولة العثمانية المتراكمة. ولم يتردد هرتزل في التصريح بأن بوسع بريطانية أن تكسب «عشرة ملايين عميل» من يهود العالم إذا ما شجعت عملية استيطان اليهود في فلسطين، بل ووصف «الفكرة الصهيونية نفسها بأنها «فكرة استعمارية» ولهذا فلابد «أن تلقى الفهم في إنجلترة بسهولةٍ وسرعةٍ». كما تكررت المساعي نفسها مع قيصر روسية (كما سيأتي شرح ذلك) وملك إيطالية.

ويصف هرتزل شكل الدولة المقترحة لتوطين اليهود فيؤكد أنها «ستُبنى على غرار مشاريع الاستعمار الاستيطاني المنطلق من القارة الأوربية»، وأنها ستكون حائطاً منيعاً بين «أوربة المتحضرة» و«آسية البربرية»، «وسيكون على هذه الدولة أن تبقى على اتصالٍ بأوربة، بينما سيكون على أوربة واجب ضمان وجود هذه الدولة».

وبالمثل، سار وايزمان على الطريق نفسه، متمسكاً بالنظر إلى المشروع الصهيوني «في ضوء المصالح الإمبريالية»، وعارضاً توظيفه لخدمة هذه المصالح. ولكنه أدرك أن الإمبراطورية البريطانية، أكبرَ قوةٍ استعمارية آنذاك وصاحبةَ المصلحة الأولى في تقليص النفوذ الفرنسي في منطقة الشام، هي الجهة التي يجب أن تلجأ إليها الحركة الصهيونية من أجل تحقيق غايتها.

ولم يكن هذا التوافق بين المشروع الصهيوني والمشروع الاستعماري مجرد حدثٍ عارضٍ أو إجراءٍ مؤقتٍ أملته تقديراتٌ مرحلية، بل ظل سمةً أساسيةً لهذا المشروع ولدولته من بعد. ولعل الدعم الأمريكي المتواصل لإسرائيل، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، والدور الذي تضطلع به إسرائيل في خدمة المصالح الغربية في المنطقة هما دليل واضح على أن التبعية هي أحد العناصر المكونة لهذا الجيب الاستعماري الاستيطاني.

● **الوعود البلفورية**

ويعني مصطلح «الوعود البلفورية» أن ثمة أنموذجاً كامناً متكرراً في الحضارة الغربية، يجعلها تنحو منحىً «صهيونياً». وقد نجح الصهاينة في أن يخفوا عدة حقائق مهمة للغاية، وهي أن الفكر الصهيوني والأيديولوجية الصهيونية لا تضرب بجذورها في التوراة أو التلمود، وإنما في الفكر الاستعماري الغربي، وأن الفكر الصهيوني لم ينشأ في الأوساط اليهودية وإنما في الأوساط الاستعمارية الغربية، وأن الفكر الصهيوني تبلور على يد مفكرين غربيين هما لورد شافتسبري وسير لورانس أوليفانت، وكلاهما كان يمقت اليهود ويود تخليص أوربة منهم.

وقد نجح الصهاينة أيضاً في إخفاء الوعود البلفورية، أو تحويلها إلى أحداث تاريخية لا يربطها رابط. والوعود البلفورية هي مجموعة من التصريحات التي أصدرها بعض رجال السياسة في الغرب، وجوهرها هو الدعوة لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ونقل يهود العالم الغربي إليها، مما يعني تخليص أوربة منهم، وأن لليهود حقوقاً مطلقة في فلسطين، بينما لا توجد أية حقوق لسكانها الأصليين. وكانت هذه التصريحات تهدف إلى أن يكون نقل اليهود هو مقدمة لتأسيس دولة يقوم الغرب بتمويلها ودعمها اقتصادياً وعسكرياً، على أن تكون وظيفتها هي خدمة مصالح الدولة الغربية التي تقدم الدعم، ومن ثم فإن الدولة الصهيونية هي دولة

وظيفية. وهذه هي العناصر الأساسية في كل الوعود البلفورية التي تدعم هذه الدولة وتضمن بقاءها واستمرارها.

وليس من قبيل المصادفة أن أول غاز للشرق في العصر الحديث، وهو نابليون بونابرت، كان أيضاً أول من أصدر وعداً بلفورياً، يتضمن معظم العناصر التي يتضمنها وعد بلفور، والوعود الأخرى. فهو أولاً يعدُّ أعضاء الجماعات اليهودية في فرنسة شعباً غريباً عن فرنسة، وأن وطنهم هو فلسطين الذي يجب أن تنقل إليه الكتلة البشرية اليهودية. وقد جاء في وعد نابليون أن فرنسة تدعوهم إلى الاستيلاء على إرثهم، أي فلسطين، وأخذ ما تم فتحه، على أن لهم حقوقاً مطلقة في فلسطين، وأن فرنسة ستضمن لهم الاحتفاظ به، وهذا هو جوهر الاستعمار الاستيطاني الإحلالي. ويستخدم نابليون العديد من الزخارف اللفظية والديباجات الرومانسية، ولكن دوافعه الحقيقية مختلفة تمام الاختلاف، فمن المعروف أنه كان يبغض اليهود، والشاهد على ذلك سياسته تجاه اليهود في فرنسة وبولندة، وقد اكتشف أن إرسال اليهود إلى فلسطين يعني تخليص أوروبة منهم وتوظيفهم في خدمة مشاريعه الاستعمارية وتحويلهم إلى عملاء له.

كما صدر وعد بلفوري ألماني في سبتمبر ١٨٩٨، وكان خطاباً من دوق إيلونبرج باسم حكومة القيصر إلى هرتزل جاء فيه أن القيصر «على استعداد أن يأخذ على عاتقه مسؤولية محمية [يهودية] في حالة تأسيسها». وكان القيصر، شأنه شأن نابليون، يبغض اليهود. ففي مجال محاولة تبرير تعاونه مع «قتلة المسيح»، أي اليهود، يقول القيصر: إن الهدف من مشروعه الصهيوني هو «إفراغ ألمانية من اليهود الذين فيها «وكلما عجلوا بالذهاب...، كان ذلك أفضل». وسينجم عن هذا توجيه «طاقة اليهود ومواهبهم إلى أهداف أكثر نبلاً من استغلال المسيحيين» كما أن «ألمانية ستستفيد غاية الاستفادة وأن رأس المال اليهودي العالمي، بكل خطورته، سينظر بعين العرفان إلى ألمانية».

ومن الأمثلة الأخرى على الوعود البلفورية، الوعد البلفوري الروسي القيصري. فقد قام هرتزل، بتفويض من المؤتمر الصهيوني الخامس (١٩٠١)، بمقابلة فون بليفيه، وزير الداخلية الروسي المعادي لليهود، حتى يَحصُل على تصريح يعبِّر عن نوايا الروس يتلوه في المؤتمر الصهيوني السادس المزمع عقده سنة

١٩٠٣. وبالفعل، صَدَر الوعد البلفوري القيصري في شكل رسالة وجهها بليفيه إلى هرتزل، وجاء فيها:

«ما دامت الصهيونية تحاول تأسيس دولة مستقلة في فلسطين، وتنظيم هجرة اليهود الروس، فمن المؤكد أن تظل الحكومة الروسية تحبذ ذلك. وتستطيع الصهيونية أن تعتمد على تأييد معنوي ومادي من روسية إذا ساعدت الإجراءات العملية التي يفكر فيها على تخفيف عدد اليهود في روسية».

- **لماذا صدر وعد بلفور؟**

«وعد بلفور» هو التصريح الشهير الذي أصدرته الحكومة البريطانية عام ١٩١٧ تعلن فيه تعاطفها مع الأماني اليهودية في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وحين صدر الوعد كان عدد أعضاء الجماعة اليهودية في فلسطين لا يزيد عن ٥٪ من مجموع عدد السكان. وقد أخذ الوعد شكل رسالة بعث بها لورد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ إلى اللورد إدموند دي روتشيلد أحد زعماء الحركة الصهيونية آنذاك. وفيما يلي النص الكامل للرسالة:

«عزيزي اللورد روتشيلد:

يسعدني كثيراً أن أنهي إليكم، نيابةً عن حكومة جلالة الملك، التصريح التالي تعاطفاً مع أماني اليهود الصهاينة التي قدموها ووافق عليها مجلس الوزراء. إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وسوف تبذل ما في وسعها لتيسير تحقيق هذا الهدف. وليكن مفهوماً بجلاء أنه لن يتم شيء من شأنه الإخلال بالحقوق المدنية للجماعات غير اليهودية المقيمة في فلسطين أو بالحقوق أو الأوضاع القانونية التي يتمتع بها اليهود في أية دولة أخرى.

وسوف أكون مديناً بالعرفان لو قمتم بإبلاغ هذا التصريح إلى الاتحاد الصهيوني.

(إمضاء)

وهناك ملاحظتان أساسيتان على هذا النص:

١- فالملاحظ أولا أن صيغة الوعد واضحة تماماً هنا، إذ تُوجَد هيئة حكومية (حكومة جلالة الملك) تؤكد أنها تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي يضم «الشعب اليهودي»، أي أنه تم الاعتراف باليهود لا كلاجئين أو مضطهدين مساكين، كما أن الهدف من الوعد ليس هدفاً خيرياً ولكنه هدف سياسي (استعماري). كما أن هذه الحكومة التي أصدرت الوعد لن تكتفي بالأمنيات وإنما سوف تبذل ما في وسعها لتيسير تحقيق هذا الهدف. هذا هو الجوهر الواضح للوعد.

٢- ثم تبدأ بعد ذلك الديباجات التي تهدف إلى التغطية، فالوعد لن يضر بمصالح الجماعات غير اليهودية المقيمة في فلسطين ولا بمصالح الجماعات اليهودية التي لا تود المساهمة في المشروع الصهيوني؛ بل تود الاستمرار في التمتع بما حققته من اندماج وحراك اجتماعي. وسنلاحظ أن الديباجات تتسم بكثير من الغموض إذ إن الوعد لم يتحدث عن كيفية ضمان هذه الحقوق.

وهنا لابد أن يثار سؤال عن السبب الذي دفع بريطانية إلى إصدار هذا الوعد، وصياغته بهذه العبارات المراوغة. وفي هذا السياق، يقدم بعض المؤرخين الصهاينة أو المتعاطفين مع الصهيونية، عدداً من التفسيرات التي يجب التوقف أمامها وتحليل مغزاها.

فهناك نظرية مفادها أن بلفور صدر في موقفه هذا عن إحساس عميق بالشفقة تجاه اليهود بسبب ما عانوه من اضطهاد؛ وبأن الوقت قد حان لأن تقوم الحضارة المسيحية بعمل شيء لليهود، ولذلك، فإنه كان يرى أن إنشاء دولة صهيونية هو أحد أعمال التعويض التاريخية. ولكن من الثابت تاريخياً أن بلفور كان معادياً لليهود، وأنه حينما تولى رئاسة الوزارة الإنجليزية بين عامي ١٩٠٣ و١٩٠٥ هاجم اليهود المهاجرين إلى إنجلترة لرفضهم الاندماج مع السكان واستصدر تشريعات تحد من الهجرة اليهودية لخشيته من الشر الأكيد الذي قد يحيقُ ببلاده. فهو يصف اليهود بأنهم «جماعة أجنبية معادية» تؤمن بدين هو محل كره متوارث من المحيطين بها، أدى وجودها في الحضارة الغربية إلى «بؤس وشقاء استمرا دهراً من الزمان». ولأن تلك الحضارة لا تستطيع طرد أو استيعاب هذه الجماعة، فهم يتسببون في

كوارث تحيق بإنجلترة. وقد أعلن بلفور أن ولاء اليهود للدول التي يعيشون فيها «ضعيف إذا ما قورن بولائهم لدينهم وعرقهم، وذلك نتيجة لطريقتهم في الحياة ونتيجة لعزلتهم، فهم لا يتزاوجون إلا من بني جنسهم». فهم يعانون من ازدواج الولاء، بل وانعدامه أحياناً. وخلص بلفور إلى أنه ليس في مصلحة أي بلد أن يكون فيه يهود مهما بلغت وطنيتهم واندماجهم في الحياة القومية، وإلى أن حل المسألة اليهودية هو نقل الكتلة البشرية اليهودية إلى فلسطين حيث يمكن توظيفها في خدمة إنجلترة. وهكذا اكتمل العنصران: تخليص أورية من اليهود وتوظيفهم في خدمة الدولة التي ترعاهم، فالدافع الحقيقي لوعد بلفور هو رغبة الإمبراطورية البريطانية في التخلص من اليهود وزرع دولة استيطانية في وسط العالم العربي في بقعة مهمة جغرافية لحماية مصالحها الاستعمارية، خصوصاً في قناة السويس ولحماية الطريق إلى الهند.

ولم يكن لويد جورج رئيس الوزراء يقل كرهاً لأعضاء الجماعات اليهودية عن بلفور، تماماً مثل تشامبرلين قبلهما، والذي كان وراء الوعد البلفوري الخاص بشرق إفريقية. وينطبق الوضع نفسه على الشخصيات الأساسية الأخرى وراء الوعد مثل جورج ملنر وإيان سمطس، وكلها شخصيات لعبت دوراً أساسياً في التشكيل الاستعماري الغربي.

ويرى بعض المؤرخين أن إنجلترة أصدرت الوعد تعبيراً عن اعترافها بالجميل لوايزمان لاختراعه مادة الأسيتون المحرقة أثناء الحرب العالمية الأولى، وهو تفسير تافه لأقصى حد لا يستحق الذكر إلا أنه ورد في بعض الدراسات الصهيونية والدراسات العربية المتأثرة بها. ويبدو أن وايزمان نفسه قد تقبَّل هذا التفسير بعض الوقت. ولذا، حينما توترت العلاقات بين إنجلترة والمستوطنين الصهاينة في الأربعينيات، وضع وايزمان مواهبه العلمية تحت تصرف الإمبراطورية، متصوراً أن بإمكانه ممارسة بعض التأثير عليها. وبطبيعة الحال، لم يُوفَّق وايزمان في مساعيه. وفيما يتصل بجهوده الدبلوماسية نفسها أثناء الحرب، يمكن القول إنه كان شخصية محدودة الذكاء، فلم يدرك الأبعاد الإمبريالية للمشروع الصهيوني أو لوحشية المشروع الإمبريالي، وغير مدرك حتى لدقائق السياسة البريطانية (وهذا هو وصف موظفي الخارجية البريطانية له في تقاريرهم السرية التي تم الكشف عنها مؤخراً).

وحينما اندلعت الحرب العالمية الأولى، كان وايزمان قد وصل لتوه إلى سويسرة في إجازة صيفية. ثم اضطر إلى العودة إلى بريطانية، فطلب منه لويد جورج أن يقابل هربرت صمويل، فعبَّر عن خوفه من أن يكون صمويل مثل سائر يهود إنجلترة معادياً للصهيونية، ولكنه فوجئ بأن صمويل هذا صهيوني هو الآخر. وحينما تقدَّم بطلباته الصهيونية، أخبره صمويل بأن طلباته هذه متواضعة أكثر من اللازم وأن عليه أن يفكر على مستوى أكبر من ذلك (ويبدو أن هرتزل لم يشف التسلليين تماماً من ضيق الأفق والفشل في إدراك عالمية الظاهرة الإمبريالية ووحشيتها). ثم أخبره صمويل بأن أعضاء الوزارة يفكرون في أهداف صهيونية، ودوَّن وايزمان بعد ذلك العبارة التالية: «لو كنت يهودياً متديناً لظننت أن عودة الماشيَّح قد دنت». ومع هذا، وكما سنبيِّن فيما بعد، أظهر وايزمان شيئاً من الذكاء باكتشافه بريطانية (لا ألمانية) القوةَ الإمبريالية الصاعدة التي يمكنها أن ترعى المشروع الصهيوني. ولعل الأمر لا يدل على ذكاء بقدر ما ينبع من وجوده في إنجلترة بالفعل وتَحرُّكه داخل إطار المصالح البريطانية. ولعله لو وُجد في فرنسة لما أدرك شيئاً.

وهناك نظرية تذهب إلى أن الضغط الصهيوني العام (واليهودي الخاص) هو الذي أدَّى إلى صدور وعد بلفور. لكن من المعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية لم يكونوا كتلة بشرية ضخمة في بلاد غرب أوربة، ولم يكونوا من الشعوب المهمة التي يتعين على القوى العظمى أن تساعدها أو تعاديها، بل كان من الممكن تجاهلهم. ويمكن القول إنَّ أعضاء الجماعات اليهودية كانوا مصدر ضيق وحسب، ولم يكونوا قط مصدر تهديد. أما الصهاينة فلم تكُن لهم أية قوة عسكرية أو سياسية أو حتى مالية (فأثرياء اليهود كانوا حينذاك ضد الحركة الصهيونية). ولكل هذا، لم يكن مفر من أن تُقدم المطالب الصهيونية على هيئة طلب لخدمة مصالح إحدى الدول الإمبريالية العظمى.

ولعل أكبر دليل على أن الضغط الصهيوني أو اليهودي لم يشكل عنصراً فعالاً في عملية استصدار وعد بلفور وأنه عنصر ثانوي على أحسن تقدير، هو نجاح الصهاينة في إنجلترة وفشلهم في ألمانية. فقد بذل صهاينة ألمانية جهوداً محمومة لاستصدار وعد بلفوري، وكانت توجد عندهم مقومات النجاح، ولكن كل هذا لم يُجْدِ فتيلاً:

* فقد بذل صهاينة ألمانية قصارى جهدهم ليبينوا للحكومة الألمانية مدى نفع اليهود للمشروع الاستعماري الألماني، وقد كان هناك كثير من المفكرين الألمان غير اليهود يشاركون في هذه الرؤية.

* وكان عدد كبير من الزعماء الصهاينة يقف وراء ألمانية، وكانت برلين (لوقت طويل) المقر الرئيسي للمنظمة.

* وكانت ألمانية حليفة لتركية التي كانت فلسطين تابعة لها.

* وكانت لغة المؤتمرات الصهيونية هي الألمانية، كما كانت ثقافة مؤسسي الحركة الصهيونية ألمانية.

* وكانت الجماعة اليهودية في ألمانية مُشرَّبة بالثقافة الألمانية، وكان كثير من أعضاء النخبة الثقافية الألمانية من اليهود، وقد يسَّر هذا على اليهود الحركة داخل المجتمع الألماني.

* وكانت الجماعة اليهودية في ألمانية ذات ثقل مالي وثقافي وسياسي كبير؛ إذ كانت أهم البنوك الألمانية في أيد يهودية.

* وشارك أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانية في القوات المسلحة الألمانية أثناء الحرب بأعداد تفوق نسبتهم القومية.

* وخلال الحرب العالمية الأولى، كانت القوات الألمانية تقوم بما سمته «تحرير» بولندة وليتوانية وغرب روسية (مراكز الكثافة البشرية اليهودية) واعتبرت اليهود عنصراً بشرياً ألمانية (تابعاً لألمانية). وقد أسَّس الزعيم الصهيوني ماكس بودنهايمر لجنة لتحرير يهود روسية عام ١٩١٤ كان بين أعضائها ليو موتزكين. وقد أصدرت هذه اللجنة نشرة بالعبرية كتب ناحوم سوكولوف افتتاحيتها. وكان الصهاينة يأملون أن تستولي القوات الألمانية على غرب روسية حيث كان يوجد معظم اليهود. ومعنى هذا أنه كان ثمة تلاق بين الآمال الصهيونية والآمال التوسعية الألمانية.

* وكانت الأرستقراطية اليهودية في أمريكة (كبار المموِّلين) من أصل ألماني، وقد كانت هذه الأرستقراطية متعاطفة تماماً مع ألمانية ومؤيدة لها.

ويمكن أن نقارن هذا الوضع بوضع الجماعة اليهودية في إنجلترة، حيث كانت صغيرة العدد ومندمجة ومعادية للصهيونية، وكانت الحركة الصهيونية فيها ضعيفة للغاية. ومع هذا، فشل صهاينة ألمانية في استصدار وعد بلفوري من ألمانية. وحينما نجحوا، كان ذلك في مرحلة متأخرة من الحرب وكان وعداً باهتاً للغاية، بينما نجح صهاينة إنجلترة فيما فشل فيه صهاينة ألمانية.

وفي الواقع، يمكننا تفسير الفشل الصهيوني في ألمانية والنجاح الصهيوني في إنجلترة، لا بالقوة والضعف الذاتيين الصهيونيين، لا بحجم الضغوط الصهيونية مهما كانت ضخمة ومهمة وحيوية، ولكن بالعودة إلى المصالح الاستراتيجية الغربية. ويبدو أن ألمانية، بسبب علاقتها الحميمة مع تركية، لم يكن بإمكانها أن تُصدر مثل هذا الوعد (تماماً كما كان الوضع مع إنجلترة عام ١٩٠٤ حينما أصدرت وعد شرق إفريقية البلفوري ولم تذكر فلسطين من قريب أو بعيد لأن علاقتها مع الدولة العثمانية لم تكن تسمح بذلك). ومن المعروف أن وايزمان، كي ينجح في الحصول على وعد بلفور، قطع علاقته مع اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية في برلين ورفض المراسلة مع زملائه في دول الوفاق Entente ورفض موقف الحياد الرسمي الذي اتخذته المنظمة ذات الجذور الألمانية والتوجه الألماني. كما أنه لم يخبر المقر الرئيسي للمنظمة في كوبنهاجن بمباحثاته مع إنجلترة. ويُقال إن انقسام الحركة الصهيونية لم يُعق جهوده بل ساعدها. والواقع أن نجاحه في إنجلترة، تماماً مثل الفشل الصهيوني في ألمانية، يمكن تفسيره باستراتيجية الإمبراطورية الإنجليزية التي قررت تقسيم الدولة العثمانية واحتلال الشرق العربي. ولعل ذكاء وايزمان يَكمُن في اكتشافه الطابع الذيلي للحركة الصهيونية وحتمية الاعتماد على القوة الإمبريالية الصاعدة (القوة البريطانية) فتبعها بكل قوته.

كان وعد بلفور إمكانية كامنة في الحضارة الغربية، وفي حاجة إلى البلورة والتحديد لتوجد بالفعل، ولذا يجب ألا ننظر لوعد بلفور بمعزل عن الوعود البلفورية السابقة عليه أو اللاحقة له أو بمعزل عن المعاهدات الاستعمارية الدولية التي أُبرمت أثناء الحرب العالمية الأولى وكانت تهدف إلى حل المسألة الشرقية عن طريق تقسيم تركية، وأهم هذه المعاهدات اتفاقية سايكس - بيكو واتفاقية ماكماهون - حسين. كما يجب ألّا يُنظر إلى الوعد بعيداً عن البراءات التي كانت تُعطَى للشركات الاستيطانية في آسية وإفريقية، ولا عن تقسيم العالم من قبَل القوى

الإمبريالية الغربية وإعادة تقسيمه عام ١٩١٧، ولا عن الرؤية المعرفية الإمبريالية، ولا عن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة التي كانت كامنة في الحضارة الغربية.

ولذا، قد يكون من المفيد أن نحاول فَهْم وعد بلفور في هذا الإطار وعَدَّه براءة لاستعمار فلسطين، الأمر الذي يتطلب منا أن نزيح الديباجات العلنية لنصل إلى لُب الموضوع، أي المصالح الاستراتيجية الغربية كما تخيَّلها أو توهَّمها أصحابها وكما قاموا بتحديدها، وهي مصالح تحددت في الإطار الإمبريالي الغربي، أي تحويل العالم إلى مادة استعمالية يوظفها القوي لحسابه. وفي هذا الإطار يمكن وضع «وعد بوش الجديد»، فهو وعد بلفوري حتى النخاع.

- **وعد بوش الجديد**

ففي المؤتمر الصحفي الذي عُقد في واشنطن يوم ١٤ إبريل/ نيسان ٢٠٠٤، كشف شارون وبوش عن رسائل متبادلة بينهما قبل وصول شارون إلى البيت الأبيض تضمنت تقديم وعود وضمانات أمريكية لتنفيذ خطة شارون بالانسحاب من قطاع غزة. وقد خلصت تصريحات بوش إلى صياغة رؤية جديدة للإدارة الأمريكية تتجاوز كل الخطوط الحمراء التي وضعتها لنفسها الإدارات الأمريكية السابقة، كما تتجاوز قرارات الأمم المتحدة والشرعية الدولية، وبذلك وضع أسساً جديدة للإدارة الأمريكية تتعامل من خلالها مع الصراع العربي الإسرائيلي، ويمكن تلخيص هذه الأسس فيما يلي:

١- ضرورة تخلي اللاجئين الفلسطينيين عن حق العودة إلى أراضي عام ١٩٤٨، التي أُقيمت عليها دولة إسرائيل، ويمكن توطينهم في دولة فلسطين (أي الضفة الغربية وغزة) وليس داخل إسرائيل.

٢- لإسرائيل الحق في الاحتفاظ ببعض «المستوطنات» (المستعمرات) في الضفة الغربية، حفاظاً على أمنها واستقرارها وحلاً لإشكاليات ديموغرافية في إسرائيل.

٣- من غير الواقعي توقع اتفاق سلام نهائي بانسحاب إسرائيل إلى حدود ما قبل ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، على تقدير أن هذه الحدود ليست مقدسة ومن ثم يمكن تجاوزها.

٤- المنطقة التي منحها بوش للاستيطان الإسرائيلي تشمل القدس الكبرى وتحيط بالمدينة المقدسة من كل جانب.

٥- الالتزام الأمريكي بسلامة الدولة اليهودية وبقائها واستمرارها، أي أن بوش أكد يهودية الدولة الصهيونية وأن شرعيتها تستند إلى يهوديتها، مما يعني قبول الفكرة الصهيونية القائلة بأن حقوق اليهود المطلقة في فلسطين تجبُّ وتهمش حقوق الفلسطينيين.

٦- الموافقة الأمريكية على إقامة الجدار العازل بعدِّه جداراً سياسياً وأمنياً في ذات الوقت.

٧- ضرورة الاعتراف الفلسطيني والعربي بالأمر الواقع استناداً إلى تغير الظروف على الأرض، وضرورة أن يخضع الحل النهائي للقضية الفلسطينية للتراضي بين الطرفين بعيداً عن ادعاءات الحق والشرعية.

٨- قيام الدولة الفلسطينية مرهون بنجاح السلطة الفلسطينية في القضاء على «الإرهاب» وتفكيك بنيانه حفاظاً على أمن واستقرار إسرائيل، وهو ما يعني تخلي إدارة بوش عن وعدها بإقامة الدولة الفلسطينية في عام ٢٠٠٥م!!

ولن يتحدث بوش عن توظيف الدولة الصهيونية في خدمة المصالح الأمريكية فهذا أمر أصبح بديهياً ولا يحتاج إلى أية إشارة، وقد تخطت هذه الأسس كل الخطوط الحمراء، كما سبق القول، وذلك للأسباب التالية:

١- من المعروف أن قرار قبول إسرائيل في الأمم المتحدة في مايو/ أيار ١٩٤٩ مرتبط بتنفيذها لقرار الأمم المتحدة الصادر في ١١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٨، والذي يقضي بالسماح في أقرب وقت ممكن للاجئين الراغبين في العودة إلى ديارهم بأن يعودوا إليها، مع دفع تعويضات عن ممتلكات الذين لا يختارون العودة أو عن الأضرار التي لحقت بهم. والمعروف أن حق العودة غير قابل للتصرف طبقاً للقانون الدولي.

٢- في تصريحاته قال بوش إنه في ضوء ما سماه «الحقائق الجديدة» على الأرض، بما في ذلك المراكز السكانية الإسرائيلية الكبرى، فليس من الواقعي أن تؤدي مفاوضات الحل النهائي إلى عودة كاملة لخطوط هدنة عام

١٩٤٨. ومن خلال هذا الخطاب المراوغ يشير بوش إلى المستوطنات الاستعمارية في الضفة الغربية من طرف خفي، ويرى استحالة فكها، مما يعني تجاوز أحد الخطوط الحمراء التي التزمت بها الإدارات الأمريكية السابقة كما كفلها القانون الدولي. فقرارا مجلس الأمن رقما ٢٤٢ و٣٣٨ يقران بحدود ١٩٦٧ وبأن الوجود الإسرائيلي في أراضي ما بعد يونيو/ حزيران ١٩٦٧ هو سلطة احتلال، كما يقر القانون الدولي بأن الاحتلال وجود مؤقت وليس دائماً وأن إقامة مستوطنات في الأراضي المحتلة أمر غير شرعي.

٣- ثمة تقبل أمريكي كامل للمنطق الإسرائيلي الخاص «بخلق حقائق جديدة على الأرض» من خلال القوة العسكرية، ثم ضمان بقائها واستمرارها من خلال مزيد من القوة، ففي الوقت الذي تقوم فيه إسرائيل بنزع الأشجار وتجريف الأراضي وهدم المنازل وقتل الأطفال واغتيال القيادات السياسية الفلسطينية وهدم البنية التحتية للسلطة الفلسطينية، يطرح بوش رؤيته انطلاقاً من الحقائق الجديدة التي فرضها الاحتلال الصهيوني، مما يؤكد القبول الكامل للإرهاب المؤسسي الصهيوني.

٤- التخلي عن صيغة «الأرض مقابل السلام» لتحل محلها صيغة «التفاوض مقابل التجميد التام للإرهاب». وقد علق فايسجلاس، مستشار شارون، على ذلك بقوله: «عندما تحدث شارون قبل ٦ سنوات عن أننا لن نتفاوض أبداً في ظل إطلاق النار، أثار موجات من الضحك وعُدَّتْ كلماته شعارات مغرورة لشخص بعيد عن الواقع. أما اليوم فقد أصبح رئيس الولايات المتحدة نفسه يسير على هذا المبدأ» (صحيفة هآرتس ١٨ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٤).

وهذه الأسس الجديدة للسياسة الخارجية الأمريكية من شأنها أن تفقد الولايات المتحدة دورها المزعوم وسيطاً محايداً نزيهاً، ومن ثم فالرهان على هذا الدور مرة أخرى هو رهان العاجزين.

وهنا يطرح السؤال نفسه: ما الذي دفع بوش لتجاوز كل هذه الخطوط الحمراء مرة واحدة دون اكتراث بالرأي العام العالمي والأوربي والعربي؟ للإجابة على هذا السؤال يمكن طرح الأسباب التالية:

١- بُنيت السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط على أساسين، أولهما الحفاظ على وضع التجزئة والتعامل مع كل بلد عربي على حدة وليس بعدِّه جزءاً من كتلة اقتصادية حضارية واحدة، ولهذا أصرت إسرائيل ألا يتم التفاوض بينها وبين الدول العربية مجتمعة، بل أن تتفاوض مع كل دولة على حدة، وهو ما تحقق في كامب ديفيد، وهذا يعني في واقع الأمر إسقاط البعد العربي تماماً. أما الثاني فهو أن الوضع الأمثل للولايات المتحدة في العالم العربي هو ما سمي Controlled Imbalance أو «عدم التوازن المنضبط»، أي أن تكون هناك حالة عدم استقرار دائمة ولكن يمكن التحكم فيها، إما بتصعيدها أو تهدئتها أملاً في فرض الهيمنة الكاملة، وما غزو العراق ومحاولة تطويق العالم العربي استراتيجياً من داخله وخارجه بسلسلة من القواعد العسكرية. والحديث عن «الإصلاح السياسي» إلا جزء من هذه السياسة الجديدة.

٢- لم تعد الولايات المتحدة تخشى من تأثر مصالحها بسبب انحيازها إلى إسرائيل، ذلك أن رد الفعل العربى يأتي دائماً باهتاً ويقتصر على مجرد إلقاء بيانات الاعتراض، ولا يرقى حتى إلى الإدانة، بعد أن تأكد الخضوع العربي الرسمي للولايات المتحدة عسكرياً واقتصادياً.

٣- ترى الولايات المتحدة أن إسرائيل هي أداتها في الشرق الأوسط، ومن هنا كان دعمها الاقتصادي والسياسي والعسكري لها، وتحالفها الاستراتيجي معها. وقد باءت بالفشل محاولة بعض الدول العربية أن تطرح نفسها بديلاً لإسرائيل، أداةً للهيمنة الأمريكية، لأسباب عديدة من أهمها أن الولايات المتحدة تعرف أن النظم الموالية لها في العالم العربي مهددة دائماً بالسقوط أمام الغضب الجماهيري العربي.

وقد وُصفت تصريحات بوش بأنها «وعد بلفور جديد» وهو وصف دقيق يضع تصريحات بوش في إطارها الاستعماري الغربي الأوسع.

● نزع الصبغة الصهيونية عن الدولة الصهيونية

ما هو الحل لهذه الورطة التاريخية؟ لا يوجد حل سوى نزع الصبغة الصهيونية عن الدولة الصهيونية. ينطلق مفهوم «نزع الصبغة الصهيونية عن الدولة الصهيونية»

من إدراك أن الصراع القائم في الشرق الأوسط الآن ليس نتاج «كره عميق وأزلي» بين العرب واليهود والأغيار وأنه ليس نتيجة العقد التاريخية والنفسية (كما يدعي الصهاينة) وإنما هو وضع بنيوي يولد الصراع نشأ عن تطور تاريخي وسياسي وبشري محدد، وطالما ظل هذا الوضع قائماً يظل الصراع قائماً، وأنه لا سبيل لإنهاء الصراع إلا من خلال فك بنية الصراع ذاتها.

والدولة الصهيونية ليست مجرد دولة وإنما هي دولة وظيفية بكل ما تتسم به الدولة الوظيفية من عزلة واعتماد على قوى خاصة، وقد عبرت هذه الوظيفيةُ عن نفسها في بنية متكاملة من القوانين العنصرية (قوانين العودة والجنسية) والمفاهيم العدوانية (نظرية الأمن- مفهوم السلام - مفهوم الحكم الذاتي) والمؤسسات الاقتصادية الاستبعادية (الكيبوتس - الصندوق القومي اليهودي) ومؤسسات القمع التي تتمتع بكفاءة عالية (المؤسسة العسكرية الإسرائيلية - الموساد - الشين بيت.... إلخ).

ولا يمكن توقع أي سلام في إطار بنية القمع والظلم والعدوان هذه، أي في إطار الصهيونية، بينما يمكن أن نتحرك نحو قدر معقول من السلام من خلال نزع الصبغة الصهيونية (الاستيطانية الإحلالية)، ونزع الصبغة الصهيونية لا يعني إبادة الإسرائيليين أو هدم دولتهم أو القضاء على هويتهم الإسرائيلية أو اليهودية (كما يحلو للبعض أن يصور الأمر)، وإنما يعني خلق الإطار القانوني والسياسي والأخلاقي الذي يزيل أسباب التوتر والصدام.

ولعل جوهر نزع الصبغة الصهيونية هو فصل المسألة الإسرائيلية عن المسألة اليهودية، أي أن يرى الإسرائيليون أنفسهم بعدِّهم جزءاً لا يتجزأ من المنطقة (وليس كما يقول أبا إيبان: في المنطقة ولكن ليسوا منها). وعملية نزع الصبغة الصهيونية لا تتم دفعة واحدة وإنما تبدأ بإعلان النوايا واتخاذ خطوات قد تكون رمزية ولكنها ذات دلالة عميقة مثل أن تلغي الدولة الصهيونية قانون العودة وتوقف بناء المستوطنات وتعلن نيتها تنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحدة الخاصة بإعادة الفلسطينيين إلى ديارهم، ويتبع ذلك خطوات أكثر راديكالية مثل إلغاء الصندوق القومي اليهودي وفك المستوطنات وتعريف الحدود الدولية للدولة الجديدة وتشكيل لجان للتحقيق في المذابح التي ارتكبت ضد الفلسطينيين لتعويضهم مادياً ومعنوياً، ثم يمكن بعد ذلك أن تبدأ الدولة الجديدة في السماح

للفلسطينيين بالعودة في إطار مقدرتها الاستيعابية، وهي ولا شك عالية، فإسرائيل الصهيونية قد نجحت في استيعاب أكثر من نصف مليون يهودي سوفيتي في العشر سنين الأخيرة، رغم أنهم ليسوا من أبناء المنطقة، كما أن مؤهلاتهم عالية لدرجة كبيرة لم يكن التجمع الصهيوني في حاجة إليها، على عكس الفلسطينيين فهم أبناء المنطقة يعرفونها أرضاً وجواً وبحراً، وأعداد كبيرة منهم تعمل بالفعل داخل الاقتصاد الإسرائيلي و عندهم من المؤهلات والكفاءات ما يسهل عملية استيعابهم، وستكون القدس عن حق هي العاصمةَ الأبدية للدولة الجديدة وهي دولة متعددة الأديان ولذا فهناك مجال للهوية الدينية اليهودية أن تعبر عن نفسها في إطارها، ويتوج كل هذا باندماج الدولة الجديدة في نظام إقليمي نابع من مصالح سكان المنطقة أنفسهم ومن منظوماتهم الحضارية والأخلاقية، وعلى الجانب الفلسطيني لابد من إعلان أن الإسرائيليين ممن ولدوا ونشؤوا في فلسطين بل ومن استوطنوا فيها ويودون أن تكون فلسطين وطناً لهم، لهم حق المواطنة الكاملة في هذا الكيان الجديد الذي يضم الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي.

وقد يقول بعضٌ إن مثل هذا الاقتراح هو من قبيل الحلم المثالي، وهو بالفعل كذلك، ولكنه مع هذا قابل للتنفيذ وهو أفضل بكثير من الأمر الواقع والوضع القائم، نتاج حالة الحرب الدائمة أو الراقدة والهدنة المؤقتة، والذي يستند إلى موازين القوى الداروينية، وكل أنواع الأسلحة من السلاح النووي والأبيض إلى الحجارة والعصيان المدني، وهو وضع لم يأت لأحد بالسلام أو الطمأنينة، ولعل تعودنا على منظر الدماء وإدماننا لصوت المتفجرات وتقبلنا للعنف والقوة سبيلاً وحيداً لحسم الصراعات هو السبب وراء استخفافنا الكامل بالحلول الراديكالية ووراء هرولتنا وراء محاولات السلام الجارية التي تهدف إلى ترجمة الوضع القائم المبني على الحرب إلى وضع سلام دائم، وهو أمر مستحيل فهو ضد طبيعة الأشياء، فمثل هذا السلام تقوضه بنية الظلم التي تولد التوتر والصراع الدائم.

- **فلسطين: عين القلب وقدس الأقداس**

رغم مرور زهاء عشر سنواتٍ على رحيل المفكر المصري المبدع جمال حمدان (١٩٢٨-١٩٩٣)، لم تتراجع أهمية المنظومة الفكرية التي شيدها وسعى من خلالها إلى الإجابة عن كثيرٍ من الأسئلة المتعلقة بقضايا جوهرية مثل قضية

المشروع الحضاري العربي وقضايا الهوية والانتماء، وقضية الصراع العربي الصهيوني. بل يمكن القول إن كثيراً من الأسئلة التي طرحها جمال حمدان، ولا سيما فيما يخص وضع الكيان الصهيوني وطبيعته ومستقبله، لا تزال تمثل إشكالياتٍ أساسية أمام الفكر العربي، وهو ما يجعل من إلقاء الضوء على بعض أفكاره في هذا الصدد أمراً ضرورياً وملحّاً وغير منبت الصلة بما يشهده مسار الصراع العربي الصهيوني من تطوراتٍ متلاحقة.

ومما يزيد من أهمية العودة إلى كتابات جمال حمدان في هذا الوقت تحديداً أنه لا ينتمي إلى المدرسة المعلوماتية التراكمية التي ينصب اهتمامها في المقام الأول على حشد أكبر عددٍ ممكن من أحدث البيانات والمعلومات، والتي قد تكون متضاربة أو متناقضة، ورصها جنباً إلى جنبٍ دون إدراكٍ للمعنى الكامن وراءها ومظاهر التحيز التي تنطوي عليها والسياق الذي تنبع منه. فنقطة البدء في كل دراساته هي القلق الوجودي العميق إزاء تساؤلاتٍ جوهرية، والسعي إلى صياغة مشروعٍ فكري متكامل يتسم بالتركيب والمنظور النقدي والرؤية الشاملة التي لا تغفل في الوقت نفسه خصوصية الظواهر التي تخضع للدراسة وعلاقة الجزء بالكل.

فأين يقع الكيان الصهيوني في إطار هذه المنظومة الفكرية؟ وما هي طبيعته؟ وما علاقته بالأمن القومي المصري والعربي؟ يعبِّر جمال حمدان عن رأيه في هذه القضايا بإيجاز من خلال سلسلة من المعادلات الاستراتيجية على النحو التالي:

* مَنْ يسيطر على فلسطين.. يهدِّد خط دفاع سيناء الأول.
* مَنْ يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط.. يتحكم في سيناء.
* مَنْ يسيطر على سيناء.. يتحكم في خط دفاع مصر الأخير.
* مَنْ يسيطر على خط دفاع مصر الأخير.. يهدِّد الوادي.

وهذه بالضبط «نواة نظرية الأمن المصري» (د. عمر الفاروق، **ثلاثية حمدان**، ص٢٢٨)، إن موقع مصر مهدد أبداً وبانتظام بالإجهاض والشلل الجزئي ما بقيت إسرائيل؛ خاصةً وأنها «تريد أن ترث دور القناة نهائياً، بل وتهدف إلى سرقة موقع مصر الجغرافي»، ومن ثم يصبح المبدأ الاستراتيجي الأول في نظرية الأمن

المصري هو مرةً أخرى: «دافع عن سيناء - تدافع عن القناة.. تدافع عن مصر جميعاً، ولا ضمان بالتالي إلا بذهاب العدو» (**ثلاثية جمال حمدان**، ص ٢٢٨).

ويحدد جمال حمدان دوائر ثلاثاً تقع في إطارها مصر، ففي الدائرة الأولى نجد مصر «محكوماً عليها بالعروبة» (بعد أن دخل الجد الفرعوني المتحف)، فهي «لا تستطيع أن تنسحب من عروبتها، أن تنضوها عن نفسها حتى لو أرادت» (**ثلاثية جمال حمدان**، ص ٢٤). بل إنها محكوم عليها بأن تتصدر العالم العربي الذي تقع فلسطين في منتصفه، لكن بدلاً من فلسطين التي توحد شطريه [والتي تمثل] نقطة عبور بينهما، تظهر إسرائيل التي تمثل فاصلاً أرضياً يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها، فهي «إسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ونزيف مزمن في مواردها وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير» (جمال حمدان، **استراتيجية الاستعمار والتحرير**، ص ١٧٥).

وفي الدائرة الثانية، أي الدائرة الإسلامية، نجد «أن فلسطين عين القلب من العالم الإسلامي، لا جغرافياً فحسب، بل ودينياً أولاً وقبل كل شيء. إن يكن العالم العربي هو قلب العالم الإسلامي روحياً وموقعاً، فإن فلسطين - مصرَ في هذا الصدد - هي أرض الزاوية في العالم الإسلامي طبيعياً. وبالفعل فإنها تقع في سُرَّة العالم الإسلامي تتوسطه - ما بين الصين شرقاً والأطلسي غرباً وما بين وسط آسية شمالاً وجنوب إفريقية جنوباً. إن مكانة فلسطين في العالم الإسلامي تتلخص ببساطة وبما فيه الكفاية في أنها من منطقة النواة وقدس الأقداس فيه أرضاً وديناً» (جمال حمدان، **العالم الإسلامي المعاصر**، ص ٢٠٨).

ثم تلتحم الدائرتان العربية والإسلامية «فالخطر الصهيوني لا يستهدف الأرض المقدسة في فلسطين وحسب»، وإنما يمتد من النيل إلى الفرات شرقاً بغرب، ومن الإسكندرية حتى المدينة شمالاً بجنوب. وهذا وذاك يعني نصف المشرق العربي بالتقريب، ويضم كل أرض الإسلام المقدسة، بل وكل دائرة الرسالات، ويرادف قلب العالم العربي، وفي الوقت نفسه سُرَّة العالم الإسلامي (**العالم الإسلامي المعاصر**، ص٢١٥). ولذا إن كان ثمة للعالم الإسلامي من وحدة سياسية، فهي وحدة العمل السياسي، وهو العمل من أجل إنقاذ واستنقاذ فلسطين للعروبة والإسلام، وإذا كان من واجب العالم العربي أن يدعو إلى «قومية المعركة»، فإن

من واجب العالم الإسلامي - كما يرى كثيرون - أن يتنادى إلى «إسلامية المعركة» (**العالم الإسلامي المعاصر**، ص ص ٢١٦-٢١٧).

وتتسع الدوائر لتصل إلى الدائرة الإفريقية الآسيوية.. وهنا أيضاً سنجد إسرائيل «أخطر مناطق العدوانية الإمبريالية في العالم الثالث.. أخطر مناطق التسليح الغربي.. ترسانة أمريكية مسلحة حتى الأسنان». ويضع جمال حمدان ما يسميه «معادلة عالمية تتألف من عدة متتاليات إقليمية تختزل أساسيات الصراع المستقبلي:

* مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث.

* مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربي.

* مصير العالم العربي يتوقف على مصير فلسطين/ إسرائيل».

إسرائيل، إذن، ذات أهميةٍ خاصة بالنسبة إلى جمال حمدان، ولكنها ليست مهمة في ذاتها، بل تنبع أهميتها من أهمية فلسطين بالنسبة لمصر والعالم العربي والعالم الإسلامي والعالم الإفريقي/ الآسيوي ثم التشكيل الاستعماري الغربي.

وينظر جمال حمدان إلى إسرائيل على أنها ظاهرة غربية بالدرجة الأولى، ثم تأتي العناصر اليهودية لهذه الظاهرة في المقام الثاني، فهو يصف إسرائيل بأنها ظاهرة استعمارية صرفة (**استراتيجية الاستعمار والتحرير**، ص ١١٩)، فهي قطعة من الاستعمار الغربي، ولكنها قطعة ذات مكانة خاصة «فهي بالنسبة إليه قاعدة متكاملة آمنة عسكرياً، ورأس جسر ثابت استراتيجياً، ووكيل عام اقتصادياً، وعميل خاص احتكارياً» (**استراتيجية الاستعمار والتحرير**، ص ١٧٥). ومن ثم، فالصهيونية اليوم «هي بلا مبالغة أو مزايدة أكبر خطر وتحدٍّ يواجه العالم الإسلامي المعاصر، تماماً كما يواجهه العالم العربي» (**العالم الإسلامي المعاصر**، ص ٢١٥).

تُرى، هل يمكن للمرء في ضوء مخططات التوسع والهيمنة الإسرائيلية المستمرة والدور المنوط بها في الاستراتيجية الغربية في الوقت الراهن أن يصل إلى نتائج مغايرة لما توصل إليه جمال حمدان قبل عدة عقودٍ؟

الفصل الرابع

صراع المصطلحات والمفاهيم

● هل الصهيونية عالمية؟

من القضايا المنهجية المهمة، وإن كانت تبدو إجرائية، قضية «ترجمة المصطلح». فهل نترجم المصطلح حرفياً أم نترجمه موضحين المفهوم الكامن وراءه؟ وهل يعني ذلك أننا نترجم أم نفسر، أم نترجم ونفسر معاً؟

خذ، مثلاً، مصطلحاً شائعاً مثل «عصر الاكتشافات»، وهو ترجمة لمصطلح Age of explorations، ويُشير للحقبة الممتدة من أواخر القرن السادس عشر حتى أوائل القرن الثامن عشر تقريباً، وهي الفترة التي تُوصف بأنها شهدت «اكتشاف» الإنسان الغربي لما يُسمى «العالم الجديد». فالمصطلح يعني أن الإنسان الغربي «اكتشف أرضاً جديدة فيها أشجار وأحجار وأزهار»، ولكن هل كان فيها بشر؟ إن لفظة «اكتشف» تنكر وجود أي بشر، أو تهمِّش هذا الوجود على الأقل، رغم أن العالم الجديد، أي الأمريكتان، كان يعج بالأمم والحضارات المتنوعة. فكيف إذن ظهر مصطلح «عصر الاكتشافات»؟

يعكس هذا المصطلح تمركز الإنسان الغربي حول ذاته، وجعْلها معياراً وحيداً للحكم على ما حوله. ولأنه مركز الكون، فلابد أن يهمل الآخرين تماماً وكأنه لا وجود لهم. والعالم الجديد هو «أرض بلا شعب»، مثلما قال الصهاينة عن فلسطين، ولهذا كان من الطبيعي، وقد «عثر» الإنسان الغربي على «الهنود الحمر»

هناك، أن يبيد غالبيتهم (ويُقال إن عدد الهنود الحمر في أمريكة الشمالية كان يتجاوز ستة ملايين نسمة)، وأن يستعبد من بقي منهم حياً.

أما إذا تُرجم المصطلح بعبارة «عصر الاكتشافات الاستعماري الاستيطاني الإبادي»، فسوف يتضح المفهوم العنصري الإبادي الكامن وراء مصطلحٍ يبدو بريئاً ومحايداً.

وبالمثل، فإن مصطلحاتٍ مثل «الحرب العالمية الأولى والثانية» و«الرأي العام العالمي» تنبع من التمركز الغربي العنصري نفسه حول الذات. فالحروب «العالمية» اندلعت بين الدول الغربية من أجل الهيمنة واقتسام الغنائم، و«الرأي العام العالمي» لا شأن له بالرأي العام في الهند والصين وإندونيسية، أي ما يقرب من نصف البشرية! ولكن العالم بالنسبة إلى الإنسان الغربي هو الغرب، ولهذا تصبح كل الأحداث «عالمية» لمجرد أنها تنتمي إلى الغرب. وفي المقابل، ينبغي أن نقول «الحرب الغربية الأولى التي يُقال لها عالمية»، أو «الحرب العالمية (أي الغربية) الثانية»، حتى تتضح المفاهيم الكامنة.

وتتبدى المشكلة نفسها في مصطلح «الحروب الصليبية»، الذي ما زال بعض الكتاب العرب يصرون على استخدامه دون وعي بما ينطوي عليه من مفاهيم قد تكون مضادةً تماماً لمنطلقاتهم أو على الأقل قد تكون ضارةً أشد الضرر بما يسعون إليه من أهدافٍ. فالمصطلح هو ترجمة لكلمة Crusades التي تعني بشكلٍ عامٍّ أية حملة عسكرية عنيفة، ولكنه يتبنى في الوقت نفسه الشعارات المخادعة التي حاول الغزاة الفرنجة بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر أن يتستروا بها لإخفاء أغراضهم الحقيقية في النهب والسيطرة. فقد رفع هؤلاء الغزاة رايات المسيحية لإضفاء نوعٍ من «القداسة» على حملاتهم العسكرية ولزرع الفتنة بين المسيحيين والمسلمين في الشرق ولاستمالة مسيحيي المشرق إلى جانبهم من خلال الإيحاء بأنهم إنما جاؤوا لإنقاذهم من «الاضطهاد الإسلامي». ولم يكن لهذه الادعاءات أن تنطلي على العرب آنذاك، فسرعان ما اتضح أن الغزاة براء من كل القيم المسيحية والدينية عموماً، وأن العرب من مسلمين ومسيحيين يقفون صفاً واحداً في مواجهة تلك الغزوة الهمجية. بل ويمكن القول إن المؤرخين العرب القدامى كانوا على إدراكٍ كاملٍ بأبعاد الغزو وحقيقته، عندما استبعدوا صفة «الصليبية» واستخدموا بدلاً

من ذلك تعبيراتٍ مثل «غزوات الفرنجة» أو «حروب الفرنجة» لوصف تلك الحملات التي شكلت إحدى حلقات السعي الغربي للهيمنة على المنطقة العربية.

وإذا ما انتقلنا إلى المصطلحات المتعلقة بالصراع العربي الصهيوني، لوجدنا أن طائفةً كبيرةً من الترجمات «البغبغائية»، التي تُسمى «ترجمات أمينة»، قد تبنت كثيراً من المفاهيم الصهيونية المضللة، والتي تحاول إسباغ قدرٍ من الشرعية أو العدالة على المخطط الصهيوني المتمثل في اغتصاب الأرض العربية وفرض الهيمنة على المنطقة. ويتضح ذلك في ترجمة مصطلح «الصهيونية العالمية، وهو ترجمة حرفية «دقيقة» للمصطلح الإنجليزي «World Zionism». فمن الواضح أن الترجمة لم تدرك أن المفهوم الكامن وراء المصطلح نابع من أيديولوجية شاملة، لا هي بموضوعية ولا محايدة، وإنما تعبر عن آمال وطموحات ومشاريع أصحابها. فالصهيونية تدَّعي أنها تعبير عن «القومية اليهودية»، أي أنها قومية اليهود، كل اليهود أينما كانوا. وحيث أن اليهود موجودون في كل بقاع الأرض: في فرنسة والهند والصين وتنزانية، فهي «عالمية».

ولكن، لو دققنا النظر لاكتشفنا أن المصطلح الذي اختاره الصهاينة لمنظمتهم (المنظمة الصهيونية العالمية) يعكس هذا التحيز. فالصهيونية ليست ظاهرة عالمية، لأنها لا توجد في إفريقية (باستثناء الجيب الاستيطاني السابق في جنوب إفريقية)، ولا في آسية (باستثناء الجيب الصهيوني في فلسطين)، ولا في أمريكة اللاتينية (باستثناء بيونس أيرس في الأرجنتين وربما ريو دي جانيرو في البرازيل). ويرجع هذا لسببٍ بسيطٍ، وهو أن الغالبية الساحقة من يهود العالم (أكثر من ٩٠ بالمئة) تركزت في العالم الغربي منذ القرن التاسع عشر، وازداد التركز في القرن العشرين. فلا يوجد في الصين سوى عشرة يهود، ولا يوجد في الهند سوى بضع مئات. ومن ثم، فالصهيونية ظاهرة غربية تماماً وليست عالمية.

وينطبق القول نفسه على كلمة «ستلمنت Settlement»، التي ترجمناها بحرفية مفرطة بكلمة «مستوطنة»، وهي مشتقة من «التوطين والوطن»، مع أن المفروض أن نترجمها بعبارة «مستعمرات استيطانية». ويزداد الأمر سوءاً وببغائية حين نتحدث عن «مستوطناتٍ غير شرعية»، وهي ترجمة لعبارة «Illegal Settlements» التي تُستخدم في الخطاب السياسي الإسرائيلي للإشارة إلى المستعمرات التي تُشيَّد دون تصريح

من الدولة الصهيونية، وكأن هناك مستعمرات أخرى «شرعية»، وكأن هذه الدولة هي صاحبة الحق المطلق فيها، وكأنها لم تغتصب كل هذه الأرض التي تُقام عليها المستعمرات من العرب أصحابها الأصليين.

• الإرهاب في الخطاب الصهيوني

تتضح أبعاد قضية المصطلحات بصورةٍ جليةٍ من خلال النظر في التعامل الصهيوني مع بعض المصطلحات.

والملاحظ أن الصهاينة يدركون تماماً أهمية المصطلح وأهمية تسمية الأشياء على نحوٍ يعكس الرؤية الصهيونية ويؤكدها، فضلاً عن إشاعة المصطلحات والتسميات الصهيونية من خلال الإعلام الغربي الذي يساند المشروع الصهيوني ويشاركه تحيزاته. ومن هنا، تنبع أهمية إخضاع مثل هذه المصطلحات لعملية تفكيك وإعادة تركيب حتى يمكن كشف المفاهيم الكامنة خلفها.

ويأتي في مقدمة هذه المصطلحات «المشبَّعة» بكل المفاهيم والثوابت الصهيونية مصطلح «الإرهاب»، والذي قد ينساق بعض في عالمنا العربي إلى استخدامه دون وعي بأبعاده ومضامينه التي قد تكون مضادةً تماماً لتصوراتهم ومواقفهم.

وقد استخدم الصهاينة وأصدقاؤهم في الولايات المتحدة مصطلح «الإرهاب» الذي يصور المقاومة على أنها مجرد إرهاب مجنون نتيجة شرٍ متأصلٍ في النفس العربية وكره مفطور فيها ليس له أساس قانوني أو أخلاقي. وهذا الشر والكره موجهان ضد اليهود الذين يودون أن يعيشوا في أمان وسلام. بل يتمادى الصهاينة بالقول إن الإرهاب العربي ضد المستوطنين الصهاينة إنما هو استمرار لظاهرة معاداة اليهود واليهودية («معاداة السامية» في المصطلح الغربي)، وكره الأغيار عبر التاريخ لليهود.

ومصطلح «الإرهاب» هو إفراز للتصور الصهيوني والأمريكي الذي يرى أن الوجود الصهيوني في فلسطين ليس احتلالاً وإنما هو وجود شرعي لابد للعرب من قبوله إن كانوا عقلانيين، أما إن قاوموه فهم يقومون بعمل إرهابي غير عقلاني غير شرعي. وهكذا، يبدو الفلسطينيون الذين يدافعون عن وجودهم ويقاومون الغزو

والتغييب والتهميش وكأنهم مجموعة من «المجانين» الذين يتلذذون بإراقة الدماء ولا يملُّون من التضحية بأنفسهم وأبنائهم دونما هدفٍ سوى استمرار هذه الحالة العبثية.

وبطبيعة الحال لا يتعرض الصهاينة أو الأمريكيون إلى مدى «شرعية» الوجود الصهيوني نفسه على أرض فلسطين، بل ويتجاهلون الحقيقة المتمثلة في أن هذه «الشرعية» ليس لها سند سوى القوة العسكرية والدعم الغربي فحسب. ومن الطبيعي أيضاً أن تتجاهل هذه الرؤية كثيراً من حقائق التاريخ والجغرافية، من قبيل الحقوق التاريخية الثابتة للشعب الفلسطيني، وانتمائه إلى المحيط العربي الأوسع، وحقه في نيل حريته والعيش بكرامةٍ على أرضه.

وللرد على هذه الترهات لابد من التأكيد على أن الفعل الفلسطيني هو فعل مقاومة، فالظاهرة الصهيونية ليست ظاهرة يهودية وإنما ظاهرة استعمارية إحلالية، ومقاومة العرب لها لا تختلف عن مقاومة الشعوب المقهورة للمستوطنين الغزاة، ومن ثم فهي مجرد فصلٍ في تاريخ طويل من مواجهة الشعوب لكل صور الاستعمار والاضطهاد، يمتد من الجزائر إلى فيتنام، ومن الهند إلى جنوب إفريقية.

وتتسم الرؤية الصهيونية الاستيطانية والرؤى الاستيطانية على وجه العموم بأنها تحاول أن تنكر تاريخ الأرض التي احتلها المستوطنون، ففلسطين - حسب تصورهم - هي أرض بلا شعب. ولكن هذه الرؤية العنصرية أحياناً ما تتساقط في لحظات صدق نادرة تتجاوز الاعتذاريات الصهيونية البلهاء. وفي مثل هذه اللحظات يدرك الصهاينة أن الأرض مأهولة وأنهم اغتصبوها من أهلها وأنهم سيشتبكون معهم.

ففي خطاب له في يوليو/ تموز ١٩٣٦ أمام اللجنة السياسية لحزب «الماباي»، عرَّف موشيه شاريت الثورة العربية بأنها ثورة الجماهير التي تمليها المصالح القومية الحقة، ثم أضاف أن الفلسطينيين يشعرون أنهم جزء من الأمة العربية التي تضم العراق والحجاز واليمن، ففلسطين بالنسبة إليهم وحدة مستقلة لها وجه عربي؛ وهذا الوجه آخذ في التغير. فحيفا من وجهة نظرهم كانت بلدة عربية وهاهي ذي قد أضحت يهودية. ورد الفعل الفلسطيني - كما أكد شاريت - لا يمكن أن يكون سوى المقاومة. وفي ٢٨ سبتمبر/ أيلول من العام نفسه، كان شاريت قاطعاً في تشخيصه للحركة العربية على أنها ثورة ومقاومة قومية وأن القيادة الجديدة تختلف

عن القيادات القديمة. كما لاحظ وجود عناصر جديدة في حركة المقاومة: اشتراك المسيحيين العرب بل والنساء المسيحيات في حركة المقاومة، كما لاحظ تعاطف المثقفين العرب مع هذه الحركة، وبين أن من أهم دوافع الثورة الرغبةَ في إنقاذ الطابع العربي الفلسطيني وليس مجرد معارضة اليهود.

وقد توصل بن جوريون للنتائج نفسها وبطريقة أكثر تبلوراً عام ١٩٣٨ حين قال: «نحن هنا لا نجابه إرهاباً وإنما نجابه حرباً، وهي حرب قومية أعلنها العرب علينا، وما الإرهاب سوى إحدى وسائل الحرب لما يعدُّونه اغتصاباً لوطنهم من قِبَل اليهود - ولهذا يحاربون. ووراء الإرهابيين توجد حركة قد تكون بدائية ولكنها ليست خالية من المثالية والتضحية بالذات. يجب ألا نبني الآمال على أن العصابات الإرهابية سينال منها التعب، لأنه إذا ما نال من أحدهم التعب سيحل آخرون محله، فالشعب الذي يحارب ضد اغتصاب أرضه لن ينال منه التعب سريعاً... وحينما نقول إن العرب هم البادئون بالعدوان وندافع عن أنفسنا، فإننا نذكر نصف الحقيقة وحسب. ومن الناحية السياسية نحن البادئون بالعدوان وهم المدافعون عن أنفسهم، إن الأرض أرضهم لأنهم قاطنون فيها بينما نحن نريد أن نأتي ونستوطن فيها ونأخذها منهم حسب تصورهم».

ولكن هذا الإدراك الصهيوني يظل أمراً استثنائياً ونادراً، أما القاعدة فهي أن يلجأ الصهاينة إلى وصم جميع صور المقاومة الفلسطينية بأنها تندرج ضمن أعمال «الإرهاب»، أو إلى التقليل من شأنها أو تشويهها وإسقاط صفة المقاومة عنها. فبعد اندلاع انتفاضة عام ١٩٨٧، على سبيل المثال، رفض السياسيون والكتاب الصهاينة استخدام كلمة «انتفاضة»، وكانوا يتحدثون بدلاً من ذلك عن «أعمال شغب» أو «أعمال عنف»، والهدف من ذلك هو إنكار أن ما يقوم به الفلسطينيون هو تعبير عن مقاومة شعبٍ احتُلت أرضه، وأن الصهاينة هم قوة احتلالٍ ليس إلا. ومع ذلك، فقد فرضت هذه الانتفاضة، ومن بعدها انتفاضة الأقصى، كثيراً من الحقائق على أرض الواقع، وأصبح من الصعب على الوعي الصهيوني غض الطرف عنها تماماً.

• المقاومة الفلسطينية والعنف الصهيوني

ظهرت في الآونة الأخيرة مصطلحات مثل «إيقاف العنف» و«وقف إطلاق النار» و«ضبط النفس» إشارة إلى ما يحدث في فلسطين المحتلة. وهذه المصطلحات

تحمل تحيزات محددة، فهي تصنِّف كلاً من المقاومة الفلسطينية والعنف الصهيوني على أنهما الشيء نفسه، وكأن هناك حالة حرب بين جيشين متكافئين أو شبه متكافئين يحاربان بخصوص قطعة أرض متنازع عليها، ولكل فريق حقوق متساوية فيها، وكأنه لا يوجد قرارات أصدرتها هيئة الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٩ تعطي أحد الفريقين حقوقاً في أرضه. إن هذه المصطلحات تسوِّي بين من يحمل السلاح ويدافع عن أرضه وكرامته وإنسانيته من جهة، وبين من يغتصب الأرض وينكل بأصحابها ويستخدم آخر ما توصلت إليه التكنولوجيا العسكرية من جهة أخرى. ولنتصور لو سُميت الأشياء بأسمائها وقلنا «إيقاف المقاومة» أو على العكس قلنا «إيقاف أعمال الاغتصاب والقمع الإسرائيلي» ألن يكشف هذا التحيزات الكامنة.

إن كلمة «مصطلح» من فعل «اصطلح»، فيقال «اصطلح القوم»، أي «زال ما بينهم من خلاف و«اصطلحوا على الأمر»، أي «تعارفوا عليه واتفقوا». والاصطلاح معناه اتفاق طائفة ما على شيء محدد، ولذا سمي «علم الاصطلاح»، «علم التواطؤ». ولكن في حالة «وقف العنف» والمصطلحات الأخرى الشبيهة، هل اشتركنا في تحديد معناها، أم أننا استوردناها ثم رددناها دون وعي من جانبنا للتحيزات التي تخبئها؟

لا تختلف الحال كثيراً بالنسبة إلى معظم المصطلحات التي تُستخدم لوصف الظواهر اليهودية والصهيونية من مثل «الشعب اليهودي» أو «الوحدة اليهودية» أو «العبقرية اليهودية». ونحن لو أمعنّا النظر لوجدنا أن أصل معظم هذه المُصطلَحات هو المُصطلَح التوراتي «الشعب المختار أو الشعب المقدس»، وهو مُصطلَح يفترض أن اليهود يكوِّنون كتلة بشرية تتسم بقدر كبير من الوحدة والتماسك يتجاوز كل الأزمنة والأمكنة، كتلة لها «تاريخ يهودي» مستقل يتسم بقدر عالٍ من الوحدة والاستمرارية. ولذا فالإنسان الغربي يرى أعضاء الجماعات اليهودية، رغم تنوعهم الهائل، على أنهم يكوِّنون كياناً واحداً رغم أن هؤلاء اليهود كانوا عبرانيين في بادئ الأمر ثم تطورت عقيدتهم من العبادة الإسرائيلية القربانية إلى العقيدة اليهودية الحاخامية، وتفرع عنها المحافظون والإصلاحيون والأرثوذكس، ثم اليهود الملحدون والإثنيون وغيرُهم. وتوجد عشرات الجماعات اليهودية غير المتجانسة سياسياً وحضارياً. كل هؤلاء رآهم الغرب داخل تحيزه التوراتي بعدِّهم العبرانيين أو

اليهود أو الشعب المختار الذي تمتد إليه ذراع الإله القوية تقوده في خروجه من مصر وتجواله في أرض التيه وفي صعوده إلى أرض الميعاد!

ومن المُصطلَحات الأخرى التي اخترقت معجمنا مُصطلَحات من مثل: «المنفى» و«الشتات» و«الدياسبورا»، وهي مُصطلَحات تفترض أن ثمة علاقة عضوية بين «الشعب المختار» و«الأرض الموعودة» أو بين اليهود وفلسطين، وأن ثمة مركزية لليهود في تاريخ فلسطين ومركزية لفلسطين في تاريخ اليهود، إذ إن الرب قد وعد شعبه بفلسطين وجعلها مقصورة عليه. ورغم أن هذه الأرض المقدسة كانت تُدعى «رتنو» عند الفراعنة، ثم أصبحت «كنعان»، وأصبح ساحلها يُدعى «فلستيا»، ولفترة وجيزة سُميت بعض أجزائها «يهودا وإسرائيل» ثم سُميت كلها بعد ذلك «فلسطين»، وأصبحت مقاطعة رومانية ثم بيزنطية مسيحية وأخيراً جزءاً من الدولة الإسلامية، إلا أنها تجمدت وتحولت في الوجدان الغربي إلى إرتس يسرائيل.

ولأن اليهود شعب واحد نُفي من «أرضه الموعودة» قسراً، ولأنه مرتبط عضوياً بها، فإن هذا الشعب يتطلع دائماً إلى «العودة» إلى أرض الأجداد. ومُصطلَح «العودة» لا يمكن فهمه إلا في إطار الإيمان بمركزية فلسطين في حياة اليهود، فهم حينما يبتعدون عنها فإنهم «يتشتتون» ويشعرون بالغربة و«النفي»، ويريدون «العودة» إليها. وعبارة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» لا يمكن فهمها إلا في إطار تصور أن اليهود شعب واحد مستمر في وحدته عبر التاريخ، وفي رغبته في العودة، وأن أرض فلسطين هي أرضه، إن تركها تصبح أرضاً فارغة من السكان بلا شعب، تنتظر سكانها من أعضاء الشعب اليهودي ليعودوا إليها، فهم العنصر المركزي بالنسبة إليها، وما عدا ذلك فهو شيء عرضي غير أصيل. وهم حينما يعودون ليسوا مغتصبين للأرض وإنما «رواد» صهاينة، فالرائد هو من يصل إلى أرض خراب فارغة لا يوجد سكان فيها. وإن استوطن هذا الشعب في أرض غير فلسطين فهو شعب بلا أرض. ولتحقيق الاستمرارية ولرأب الصدع لابد أن يعود الشعب للأرض وتعود الأرض للشعب فيعم السلام ويسود الوئام. ولذا عُرِّفت الصهيونية بأنها «عودة اليهود لأرض الأجداد».

وغني عن القول إنَّ مُصطلَح «العودة» شأنه شأن المُصطلَحات الأخرى («الشعب اليهودي» و«التاريخ اليهودي» و«الشتات» و«النفي») التي تشكل حجر

الأساس في العقيدة الصهيونية تتنافى كلها تماماً مع الواقع التاريخي للجماعات اليهودية وفلسطين. ففلسطين عامرة بسكانها، واليهود ليسوا شعباً كما أسلفنا، بل جماعات، وهم لا يريدون العودة على أرض الأجداد، فهم قابعون بأوطانهم التي يقطنون فيها، وإلا فلِمَ ظل غالبية أعضاء «هذا الشعب» في أوطانه ولم يسارع بالهجرة أو بالعودة إلى وطنه الأصلي؟ ولِمَ لا تزال غالبية يهود العالم خارج وطن الأجداد، تتمتع بمستويات معيشية مرتفعة في الولايات المتحدة وكندة وفرنسة وأسترالية... إلخ، و«يعانون» من معدلات عالية من الاندماج والزواج المختلط ! (الذي يسميه الصهاينة «الهولوكوست الصامت»)؟

و«وقف العنف» هو خط طويل من المُصطلَحات المتحيزة ضدنا. فنحن نرى أن وجود القوات الإسرائيلية في الضفة الغربية هو احتلال للأراضي الفلسطينية، وتؤيدنا في ذلك قرارات هيئة الأمم المتحدة، ولكن إسرائيل والولايات المتحدة يستخدمون بدلاً من ذلك عبارة «أرض متنازع عليها disputed territory». وقد تحدثوا بعض الوقت عن «الأرض مقابل السلام»، وقد تطور هذا ليصبح «الأرض مقابل الأمن» و«الأمن مقابل الأمن»، إلى أن تدهور الأمر تماماً وأصبحت المسألة «الأرض مقابل الكلام». وكل هذه الشعارات تهدف إلى فرض المفاهيم الصهيونية الأمريكية في السلام، والتي تعني في واقع الأمر الاستسلام وقبول تقسيم دولة فلسطين إلى كانتونات وبقاء المستوطنات والرضوخ للمطالب الإسرائيلية في القدس الشرقية، وأخيراً التنازلَ عن الحق الفلسطيني التاريخي في عودة اللاجئين الفلسطينيين.

ولكن يوجد استثناء واحد لهذه الظاهرة، وهي كلمة «انتفاضة» التي تتلألأ كالنجم الساطع في سمائنا، وكالشمس الحارقة في سمائها. وحينما ظهرت كلمة «انتفاضة» لأول مرة مع انتفاضة ١٩٨٧، حاول بعض الكُتَّاب إسقاطها وإحلال كلمة «ثورة» محلها. ولكن كلمة «انتفاضة» مناسبة تماماً لوصف ما حدث في فلسطين عام ١٩٨٧، وما يحدث فيها في الوقت الحاضر. والكلمة مشتقة من فعل «نفض» مثل «نفض الثوب» يعني «حرَّكه ليزول عنه الغبار أو نحوه». ولعل هذا وصف دقيق للاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي لم يضرب جذوراً في تربتنا الجغرافية والتاريخية، فهو مثل الغبار الذي علق بالثوب الفلسطيني ولم يمس

الجوهر. ويقولون أيضاً «نفض المكان» أي «نظر جميع ما فيه حتى يعرفه»، وهذا تكتيك معروف لدى شباب الانتفاضة، ويقولون أيضاً «نفض الطريق» أي «طهره من اللصوص». ويقال «النفضة» وهي «جماعة يبعثون في الأرض متجسسين لينظروا هل فيها عدو أو خوف»، وهذا أيضاً تكتيك آخر للمنتفضين. وتحمل الكلمة أيضاً معاني الخصوبة فيقال «نفض الكرم» أي «تفتحت عناقيده». ويقال - وهذا هو الأهم - «نفضت المرأة» أي «كثر أولادها»، و«المرأة النفوض» هي المرأة الكثيرة الأولاد، أي المرأة التي لا تكف عن الإنجاب تماماً مثل الأنثى الفلسطينية. وانظر كذلك إلى تعبيرات مثل «نفض عنه الكسل» و«نفض عنه الهم» وكذلك «انتفض واقفاً»، وهي كلها اصطلاحات تعني أن ما يحدث الآن كان هناك دائماً.

إن «الانتفاضة» (بما تحمل من معاني الخصب والاستمرار والتجذر الواثق من نفسه) ليست «ثورة» (بكل ما تحمل من معاني الاحتراق والبدايات الجديدة). إن الثورة انقطاع، أما الانتفاضة فعودة لما سبق واسترجاعٌ للهوية التي سُلبت حتى تصبح «إسرائيل» مرة أخرى «فلسطين» كما كانت دائماً عبر التاريخ وكما ستكون بإذن الله في المستقبل. ولا يمكننا أن ننسب لشباب الانتفاضة الذين اختاروا المصطلح معرفة بكل هذا وإدراكاً واعياً له. ولكن لا يمكن أيضاً أن ننكر إحساسهم الحضاري السليم بلحظتهم التاريخية أو ارتباطهم المباشر بتراثهم أو إعراضهم النفسي والمعرفي عن الأنموذج الغربي. فقد آثروا أن يحملوا علم الانتفاضة بكل مدلولات الكلمة العميقة الدالة والتي لا نظير لها في اللغات الأوربية (ومن هنا يكتبون في الصحف الغربية كلمة «انتفاضة» بحروف لاتينية intifada مما ينم عن إدراكهم لخصوصيتها). إن المناضلين الفلسطينيين في اختيارهم لكلمة «انتفاضة» وضعوا أيديهم على واحدة من أهم خصائص تحركهم التاريخي المبارك: وهو أنه تحرك يتم داخل إطار الهوية التي تمتد من الماضي عبر الحاضر إلى المستقبل بإذن الله.

- **الخطاب العملي**

ثمة مناهج كثيرة لتناول الظواهر اليهودية الصهيونية يتم الإفصاح عنها من خلال خطاب تحليلي. ونحن نميل إلى تقسيم الخطابات التحليلة العربية إلى قسمين: الخطاب العملي والخطاب التفسيري.

يهدف الخطاب العملي إلى «كشف الصهاينة» أو «فضحهم» أو «التشهير بهم»، أو حشد الجماهير وتجنيدها ضدهم، أما الخطاب التفسيري فلا يهدف إلى أي من الأهداف السابقة وإنما يهدف إلى تعميق رؤيتنا للعدو حتى نعرفه في كل تركيبيته، ومن ثمَّ تزداد قدرتنا على تفسير الظواهر اليهودية والصهيونية والتنبؤ بها، ومن ثم مقدرتنا على التصدي للعدو. وثمة أنواع مختلفة من الخطاب العملي؛ نذكر أهمها فيما يأتي:

١- الخطاب العملي (الدعائي التعبوي): هو خطاب يهدف إلى تعبئة الجماهير ولا يُعنى كثيراً بقضية التفسير، وثمة أشكال مختلفة من هذا الخطاب أهمها ما يأتي:

أ) الخطاب التآمري: من أكثر أنواع الخطاب العملي (التعبوي) انتشاراً الخطاب التآمري الذي يذهب إلى أن اليهود أينما كانوا، يحيكون المؤامرات. ويصدر الأنموذج عن أنموذج اختزالي يضع اليهود كل اليهود في سلة واحدة، ومن ثم فهو يذهب إلى أن كل الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية شيء واحد. ويتم اختزال الإسرائيلي في الصهيوني والصهيوني في اليهودي. لأن الجميع «يهود والسلام». كما يتم اختزال اليهود (بل الواقع بأسره) في قوالب جاهزة وأنماط سابقة. فاليهود - حسب تصور دعاة الخطاب التآمري- شخصيات مخربة هدامة دائماً وأبداً، تتآمر بطبيعتها ضد كل ما هو خير ونبيل (فهذا - حسب تصورهم - مكوِّن أساسي وثابت في طبيعة اليهود). وهم مسؤولون عن كل الشرور (أو على الأقل معظمها)، وسلوكهم هو تعبير عن مخطط جبار وضعه العقل اليهودي (أو حاخامات اليهود) لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس حتى تزداد كل شعوب العالم ضعفاً ووهناً بينما يزداد اليهود قوة وبأساً، وذلك بهدف السيطرة على العالم. والعالم كله - حسب هذا التصور - إن هو إلا رقعة شطرنج، وكل البشر إن هم إلا أحجار عليه يحركها اليهود بكل بساطة لإنجاز مخططهم، فهم أصحاب قوة خارقة لا تضاهيها قوة، ونفوذ كبير ليس مثله نفوذ. والتاريخ اليهودي بأسره إن هو إلا تعبير عن هذا الأنموذج الثابت، وهذه المؤامرة التي لا تتغير. والصهيونية - في تصور التآمريين- ليست ظاهرة مرتبطة بحركيات التاريخ والفكر الغربي، وإنما هي مجرد تعبير عن هذا الشر الأزلي الكامن في النفس اليهودية، ذلك الشر الذي يتبدى

في الغزو الصهيوني لفلسطين وضرب المفاعل الذري العراقي، وغزو لبنان، وقمع الانتفاضة، والهجرة اليهودية السوفييتية إلى فلسطين، وسقوط الاتحاد السوفييتي... إلخ. ومشاكلُ الخطاب التآمري كثيرة، فهو أولاً يضفي قوةً خارقةً على اليهود. الأمر الذي يولِّد الخوف في نفوس من يحارب ضدهم. وهو إلى جانب ذلك حين يتحدث عن اليهود بشكل عام يفقد الدارس أية مقدرة على رؤية الواقع في تركيبيته. والخطاب التآمري يعتمد على أدلة مشكوك فيها من مثل بروتوكولات حكماء صهيون وينصرف عن رؤية البطش الصهيوني في الواقع، مع أن ما حدث في دير ياسين وصبرة وشاتيلة ومخيم جنين، يفوق كثيراً ما جاء في البروتوكولات.

ب) الخطاب شبة الديني: يحاول الخطاب شبه الديني أن يعبئ الجماهير ضد اليهود، كل اليهود، بعدِّهم «أعداء الله»، أي إنه يصدر عن منطلقات الخطاب التآمري نفسها التي تذهب إلى أن الشر مسألة متأصلة وراثية في الطبيعة اليهودية، فهو يجري في عروق اليهود ودمهم، وبالتالي فحربنا ضدهم ستستمر حتى يوم القيامة، وقد سمينا هذا الخطاب «شبه ديني»، لأنه يستند إلى مقولة علمانية مادية (العِرْق والدم) ليؤسس عليها رؤية دينية.

ج) الخطاب الدعائي (الإعلامي): هو الخطاب الدعائي المحض الذي يتوجه، على سبيل المثال، إلى الرأي العام العالمي فيوضح له أن «إسرائيل دولة معتدية». وأن وضع «اللاجئين الفلسطينيين سبُة في جبين البشرية»، وأن «المستوطنين الصهاينة يستولون على الأراضي الفلسطينية دون وجه حق»، وأنهم عنصريون يعذبون النساء والأطفال»، وهكذا. ويمكن أن يتوجه الخطاب الدعائي نحو الداخل ليصبح خطاباً تعبوياً يهدف إلى تعبئة الجماهير ضد العدو الصهيوني وضد المؤامرة المستمرة (أو العكس الآن، إذ يمكن أن يقوم الخطاب التعبوي بالتبشير بالسلام). وغني عن القول إنَّ مثل هذا الخطاب لا يفيد كثيراً في فهم ما يجري حولنا، فهو لا يكترث به أساساً. ونحن لا نقف ضد الدعاية أو التعبئة ولكن المهم أن نعرف أنهما أمران مختلفان عن التفسير.

د) الخطاب القانوني: ويمكن للخطاب العملي أن يكون قانونياً وتصبح القضية هي المرافعة لتوضيح الحق العربي والأساس القانوني له. والشكل الأساسي الذي يأخذه هذا الخطاب هو مراكمة قرارات هيئة الأمم المتحدة واحداً تلو آخر في

مجلدات ضخمة تطبع بعناية فائقة وتوزع على الهيئات والدول والمنظمات الدولية المعنية. ومثل هذا الخطاب لا يُعنَى كثيراً بتفسير أسباب الصراع أو بنيته أو طرق حله أو تصعيده أو إدارته. ولا شك في أن معرفة الإطار القانوني للصراع أمر مهم للغاية ولكنه يختلف تماماً عن عملية التفسير التي تنطوي على جهد أكثر تركيباً من مراكمة القوانين.

ومن الأشكال الأخرى للخطاب القانوني ما ينشر من دراسات تحت شعار صريح أو ضمني فحواه «من فمك ندينك يا إسرائيل». وهذه الدراسات تتكون عادة من اقتباسات من كتابات بعض المؤلفين الإسرائيليين ومن أعضاء الجماعات اليهودية ينتقدون فيها اليهودية وأعضاء الجماعات اليهودية وإسرائيل. وتوضع الاقتباسات التي لا يربطها رابط جنباً إلى جنب ثم تقدم على أنها أدلة دامغة في المرافعة التي لا تنتهي ضد الصهيونية وإسرائيل وكل اليهود!

هـ) الخطاب الأخلاقي: وهو الخطاب الذي يصدر عن قيم أخلاقية إنسانية ويحاول أن يحض على وضعها موضع التطبيق. ويمكن القول بأن ثمة نقاط تشابه أساسية بين الخطابين الدعائي التعبوي والعملي القانوني من جهة والخطاب الأخلاقي من جهة أخرى، فجميعها ذات توجه عملي غير تفسيري. فمقولات أخلاقية مثل الاعتدال والتسامح والإنصاف والخير ليست مقولات تحليلية أو تفسيرية، فهي تعبير عن حالات عقلية أو عاطفية وعن مواقف أخلاقية ولا علاقة لها ببنية الواقع المركبة أو العملية التفسيرية. وهذه المقولات تجعل الباحث يركز على الحالة العاطفية والعقلية للفاعل ويستبعد العناصر الأخرى، أو تجعله يركز هو نفسه على إصدار الحكم الأخلاقي الصحيح على الأحداث بدلاً من دراسة بنية الواقع وآلياته وحركياته بهدف تفسيره.

وقد ظهرت مؤخراً مصطلحات أخلاقية مثل «ثقافة السلام وثقافة الحرب» ليست لها قيمة تحليلية كبيرة، وهي مصطلحات تخلق الوهم بوجود شيء أخلاقي مطلق اسمه «السلام» مقابل شيء آخر لا أخلاقي مطلق يسمى «الحرب» ولا يوجد أي منهما داخل أي سياق إنساني وتاريخي أو اجتماعي. وقد تمت تعبئة مصطلح «ثقافة السلام» بكل الإيحاءات الإيجابية الممكنة وأصبح الحديث عن «الحرب» مهما كانت أسبابها ومهما كانت الدوافع وراءها (مثل الحرب من أجل تحرير

الأرض والذات على سبيل المثال أمراً سلبياً وشكلاً من أشكال العنف. ونحن نطرح جنباً إلى جنب مع «ثقافة السلام والحرب» مصطلح «ثقافة العدل والظلم». ولذا يمكننا أن نتحدث عن «ثقافة السلام والعدل» مقابل «ثقافة الحرب والظلم». كما يمكن أن نتحدث عن «ثقافة السلام والظلم» وثقافة «الحرب والعدل». والهدف من كل هذا هو أن نبين البعد الأخلاقي لمثل هذه المصطلحات وأنها ليست، في واقع الأمر، مصطلحات وصفية وإنما هي مصطلحات وعظية وتعبوية، وأن نزيد من تركيبيتها ومقدرتها على التعامل مع واقع الإنسان المُركب.

ونحن لا نرفض القيم الأخلاقية وضرورتها للإنسان إنساناً، بل ونرى أن التفسير لابد وأن يترجم نفسه في نهاية الأمر إلى فعل إنساني فاضل، حتى يقف الإنسان وراء ما يتصور أنه إنساني وأخلاقي (المعروف)، ويقف ضد ما يتصور أنه غير إنساني وغير أخلاقي (المنكر). إلا أن مثل هذا الموقف الأخلاقي الإنساني، هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابد أن يسبقه إدراك كامل لطبيعة الموقف الأخلاقي وتحليل للواقع المتعين بكل مكوِّناته وتركيبته حتى يمكن فهمه قبل الحكم عليه.

ومعظم أنواع الخطاب السابقة تنطلق من بعض ثوابت موقفنا من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني: رفض عميق له - تعاطف مع الفلسطينيين - إحساس بضرورة مساعدة الفلسطينيين... إلخ، كما أنها تتحرك في إطار هذه الثوابت، وهو أمر ولا شك محمود، ولكنها مع هذا لا تلقي بأي ضوء جديد أو قديم على بنية الكيان الصهيوني ولا تحاول التنبؤ بخصوص سلوكه. ورغم أهمية بعض أنواع الخطاب غير التفسيري في تجنيد الجماهير وفي مخاطبة الرأي العام العالمي فمن الواجب أن ندرك أنها لا تفسر شيئاً، فهي ليست دعوة إلى اتخاذ خطوات إجرائية لا تهدف إلى تفسير الظاهرة الصهيونية.

ولكننا في واقع الأمر لا يمكننا أن نقوم بالتعبئة إلا بعد التحليل والفهم، فالتعبئة لا تتم في فراغ وإنما تعبأ استناداً إلى وقائع محددة، كما أنها تتحرك نحو اتجاه معين وإلا تحولت إلى تهييج غوغائي وطنين إعلامي، ولكن الخطاب الإعلامي التعبوي وأنواع الخطاب الأخرى تنطلق من بعض القوالب اللفظية الجاهزة والأطروحات الشائعة (دون اختبارها) فتخلق وهمَ المعرفة.

• الخطاب التفسيري الاختزالي

الخطاب التحليلي التفسيري، على عكس الخطاب العملي، لا يهدف إلى التعبئة أو التحريض أو الدفاع عن الحق العربي، بل يهدف إلى تعميق رؤيتنا للعدو حتى نعرفه حق المعرفة، فتزداد مقدرتنا على تفسير الظواهر اليهودية والصهيونية والتنبؤ بها، ومن ثم تزداد مقدرتنا على التصدي للعدو. ولكن ثمة خطابات تفسيرية تنحو منحىً اختزالياً إذ إنها تفسر الظاهرة الصهيونية من خلال عنصر واحد أو عنصرين، ولا تعطي صورة مركبة له.

أ) الخطاب الماركسي: الخطاب الماركسي اختزل الظاهرة الصهيونية في أنموذج الصراع الطبقي والاستعمار الغربي، فالصهيونية إن هي إلا حركة البورجوازية اليهودية أو جزء من التحرك الرأسمالي الاستعماري ضد العالم الثالث. ومن ثمَّ الدولة الصهيونية إن هي إلا قاعدة للاستعمار الغربي. ومن الواضح أن الخطاب الماركسي قد وضع أيدينا على بعض الملامح الأساسية للصهيونية، ولكنه أهمل كل ملامحها الخاصة وأهمل ديباجاتها وخصوصية علاقتها بالعالم الغربي، ولم يستطع تحديد علاقتها بالعالم العربي أو بالشعب الفلسطيني.

ب) الخطاب النفسي: يحاول أصحاب هذا الخطاب أن يفسروا الصراع العربي الإسرائيلي على أساس نفسي، وكأنه صراع دائر داخل الذات الفلسطينية والذات الإسرائيلية. وهذا الخطاب بطبيعة الحال لا يفسر إلا جانباً واحداً في الصراع، ولا يمكنه تفسير تغيراته أو حدته أو كثيراً من الظواهر مثل مخيمات اللاجئين والاستيطان الصهيوني في الضفة الغربية. فهذه ليست ظواهر نفسية، وإنما ظواهر سياسية واجتماعية، قد يكون لها بعد نفسي، ولكن الأنموذج النفسي يعجز عن تفسيرها.

ج) الخطاب النصوصي: النصوصية هي محاولة تفسير سلوك اليهود في ضوء ما جاء في العهد القديم والكتب المقدسة اليهودية الأخرى (التلمود - كتب القبَّالاه - وبعض الجهابذة يضمون لذلك **بروتوكولات حكماء صهيون** بحسبانها كتاباً مقدساً باطنياً عند اليهود). وتنطلق محاولة التفسير هذه من تصور مفاده أن سلوك اليهودي هو تعبير مباشر عن بعض نصوص العهد

القديم والتلمود. وكأن واقع الصهاينة ويهود العصر الحديث سواء أكانوا في أمريكة أم جنوب إفريقية أم في إثيوبية لا يختلف عن واقع العبرانيين القدامى أو يهود الصين في القرن الخامس عشر. وكأن ما ورد في العهد القديم والتلمود إن هو إلا مخطط يهودي قديم، يعبر عن جوهر يهودي ثابت، وأن من يريد أن يفهم اليهود والصهيونية ويتصدى لهما عليه ألا يضيع وقته في قراءة الواقع وتفاصيله، وإنما عليه أن يذهب إلى أحد هذه الكتب (خصوصاً البروتوكولات، فهي قصيرة وواضحة وسهلة وتأخذ شكل مخطط واضح) وسيجد فيها تفسيراً لكل شيء بل تنبؤاً بكل شيء.

ومثل هذا الأنموذج الاختزالي لا يتنبه إلى أن علاقة الإنسان بالكتب المقدسة التي يؤمن بها علاقة مركبة إلى أقصى حد، فهي ليست علاقة سبب ونتيجة. كما أن مسألة التفسير مسألة حيوية في تحديد هذه العلاقة، فيمكن أن يكون التفسير حرفياً مغلقاً، ويمكن أن يكون مجازياً منفتحاً. فتفسير الصهاينة لنص ما يختلف عن تفسير اليهود الإصلاحيين له. وأخيراً لا يدرك هؤلاء التآمريون أن أغلبية اليهود في العصر الحديث لا تؤمن بهذه الكتب أساساً ولا تقرؤها. وقد استشرى مرض النصوصية وانتقل من اقتباس العهد القديم إلى اقتباس أي تصريح صهيوني وتصديقه.

ونحن عادة نأخذ تصريحات الإسرائيليين بوصفها تعبيراً عن دوافعهم وخططهم الحقيقية وليست مجرد مزاعم آمال. ثم تتشيأ النصوص والتصريحات الصهيونية وتتحول من الدوافع الكامنة، والمُخطط المُبيَّت، لتصبح القوة الذاتية ثمَّ الواقعَ الموضوعي. وبذا تتسم التسوية بين الزعم والآمال وبين التوقعات والواقع. كل هذا يؤدي إلى إهمال حقيقة بدهية وهي أن الآخر قد يفشل في إدراك دوافعه الحقيقية (بسبب التزامه الأيديولوجي)، وأنه قد يعني ما يقول ويصدقه ولكنه مع هذا لا يعبِّر عن دوافعه الكامنة الحقيقية التي تحركه لأنه لا يستطيع أن يواجه نفسه. وهناك، إلى جانب ذلك، الادعاء الواعي؛ إذ قد يكون من صالح الشخص أن يعلن مزاعمه ويخبئ دوافعه حتى يخدم مصلحته. فقد يزعم المهاجر اليهودي أنه هاجر بسبب رغبته اليهودية العارمة النبيلة في العودة إلى أرض الميعاد ليخبئ دوافعه الخسيسة في الهرب من البطالة والبحث عن الحَراك الاجتماعي والحصول على الدعم الصهيوني السخي لمن يستوطن في فلسطين. وقل الشيء نفسه عن القوة الذاتية.

فمزاعم الآخر عن قوته قد تكون خاطئة تماماً وقد تكون تزييفاً واعياً. وحينما صرح الصهاينة أن عدد المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفييتي في موجة الهجرة الأخيرة سيصل إلى الملايين، فلعلهم كانوا مخلصين فيما يقولون ثم فشلوا في تقويم موقف اليهود السوفييت وعوامل الطرد والجذب العامة والخاصة التي تتجاذبهم، ولعل آمالهم الأيديولوجية قد ضللتهم. ولعلّ الصهاينة قد قاموا بتضليل الجميع عن عمد حتى يتم تخويف العرب (فيسرعوا إلى مائدة المفاوضات) وحتى تزيد الولايات المتحدة (ومن ورائها يهود العالم) من دعمها المادي والسياسي. ومن المؤكد أن الملايين المزعومة من المهاجرين لم تصل.

وقل الشيء نفسه عن مخططات الاستيطان في الضفة الغربية التي كانت تطمح إلى توطين مئات الألوف (على أمل أن يصل عدد المستوطنين إلى ثلاثة أرباع المليون). وقد حرص الصهاينة على إعلان هذه المخططات على الملأ. ولكن من المعروف أن هذه المخططات لم تتحقق. فلعل من أدلوا بهذه التصريحات لم يدركوا أن مصادر الهجرة اليهودية في العالم قد بدأت تجف، وأن يهود العالم مستقرون في بلادهم مندمجون فيها، خصوصاً في العالم الغربي، وأن الولايات المتحدة تمثل نقطة الجذب الكبرى لمن يريد أن يهاجر منهم، وأن كل هذا يضع قيوداً بنيوية على تحقيق المخططات ويؤدي إلى إفشالها. ومن المحتمل أنهم كانوا مدركين تماماً لأبعاد الموقف وأصدروا التصريحات بهدف التخويف وجمع الأموال أيضاً.

ولذا، فإن من المهم بمكان أن نقرر إذا ما كان الزعم الصهيوني يعبر عن آمال الصهاينة بإخلاص أم أنه ادعاء صهيوني كاذب وواع، فلو كان أملاً فسيؤثر في خطة عمل صهيونية، أما إذا كان ادعاءً واعياً أو أكذوبة فلابد أن يُسقط من الحسبان لأن الهدف منه هو تضليلنا. وعلينا بعد ذلك أن نقرر إن كانت الآمال تتطابق مع الواقع أم لا، ومدى إمكان تحقيقها، وذلك بدلاً من السقوط في قبضة تشيؤ المزاعم والتصريحات والنصوص المقدسة.

د) الخطاب الموضوعي المتلقي: لكل ما تقدم، هيمن على الخطاب التحليلي العربي أنموذج معلوماتي موضوعي متلقٍ وثائقي. فتراكُمُ المعلوماتُ والحقائق والأفكار والتصريحات والنصوص المقدسة وتُرص رصاً بغض النظر عن

مدى أهميتها ومدى مركزيتها ومقدرتها التفسيرية. وهي حقائق لا يربطها رابط ولا تخضع لأي شكل من أشكال التحليل المتعمق عادةً؛ إذ يأخذ التحليل شكل تحليل مضمون بدائي جداً يهمل قضية المنظور (الوعي - الدوافع - التوقعات) والدلالة الداخلية التي يراها الإنسان فيما يقع له من أحداث وفيما يحيط به من ظواهر وفيما يقوم به من أفعال، كما يهمل خصوصية الظواهر الصهيونية (رغم انتمائها إلى نمط عام) وكل أبعادها المعرفية. وينحل الفكر الصهيوني إلى مجرد مجموعة من الأفكار الصهيونية لا تكوِّن منظومة مترابطة متكاملة. ثم يلجأ الباحث للتصنيف السطحي بناء على عدد الكلمات وتكرار الجمل والموضوعات وذلك في إطار الأطروحات العامة المسيطرة. وبذلك تُجمَّد الظواهر والحقائق ويعزل بعضها عن بعض وتُجرَّد من تاريخها وسياقها، ويكون الرصد رصداً لحقائق متفرقة، لا لأنماط متكررة، ومن ثَم يتمكن الباحثُ أن يفرض عليها أي معنى عامّاً أو خاصّاً يشاء، وإن قام بفرض نمط ما عليها فلا يكون إلّا أطروحة اختزالية بسيطة. ويأخذ البحث العلمي شكل اختيار الحقائق التي يدلل بها الباحث على البدهية الاختزالية الأولى.

إن المطلوب هو التوصل إلى معرفة حقيقية تستند إلى رصد دقيق ومركب للواقع، وهذا ما نفتقده في أنواع الخطاب السابقة؟

- **الخطاب التفسيري المركب**

ولفهم طبيعة الخطاب التفسيري المركب، قد يكون من المفيد الإشارة إلى نوعين من أنواع الرصد: الرصد المباشر، والرصد من خلال أنموذجاتٍ وأنماط متواترة، والنوع الأول نسميه «الرصدَ الموضوعي المتلقي»، أما الثاني فنسميه «التفسيرية». ويفترض الرصد الموضوعي أن عقل الإنسان سلبي متلق، وأن ثمة قانوناً عاماً واحداً ينطبق على كل الظواهر الإنسانية والطبيعية، وأن الواقع بسيط. والهدف من المعرفة في الإطار الموضوعي هو نقل الواقع كما هو، ورفض الخصوصية، ورفضُ مراكمة المعلومات.

أما التفسيرية فترى الواقع بأسره مجردَ مادة خام تحتاج إلى تفسير، أي تفكيك وتجريد وإعادة تركيب. ولا يعني هذا رفض الواقع الموضوعي بل يعني عدمَ تلقيه

كما هو بشكل مباشر وإنما إدراكه بطريقة إبداعية، فثمة فرق بين الحقائق والحقيقة. فالحقائق توجد جاهزة في الواقع، أما الحقيقة فهي أمر يجرده الإنسان من الحقائق والمعلومات والإحصائيات، ليضعه داخل إطار ينتظم الظواهر المتشابهة.

ومن شأن اللجوء إلى التفسيرية أن يجعلنا نتجاوز عقدة الموضوعية والذاتية. فنحن نختبر على محك الواقع الأطروحات التي توصلنا لها من خلال التفكيك والتجريد والتركيب، فإن فسرت هذه الاطروحات جوانب كثيرة من الواقع بشكل معقول فهي «أكثر تفسيرية»، وإن أخفقت تماماً أو نجحت في تفسير بضعة جوانب وحسب من الواقع فهي «أقل تفسيرية»، ونقترح أن يحل هذان المصطلحان محل مصطلحَيْ «موضوعي» و«ذاتي».

وتهدف عملية التفكيك والتجريد والتركيب إلى تحقيق الأهداف التالية:

* دراسة الظاهرة ومكوناتها لا في حدود قوانين حركتها الخاصة المعروفة وإنما في علاقتها بمحيطها المركب.
* تجاوز سلاسل السببية البسيطة والتعاقبية القاصرة عن تفسير الظواهر في تركيبيتها والتي تسقط عادة إما في عملية وصفية معلوماتية أو عملية أخلاقية تبشيرية.
* إدراك علاقة الكل بالجزء والخاص بالعام وترابطهما واستقلال الواحد منهما عن الآخر.
* الوصول إلى أنماط متكررة يمكن من خلالها إدراك المعلومات، لا ذراتٍ وإنما شبكةً علاقات ذات دلالة.

ولعل الأداة التحليلية الأساسية في المنهج التفسيري هي ما نسميه «الأنموذج التفسيري»، وهو بنية تصورية يجردها عقل الباحث من الحقائق والمعطيات التي أمامه. فهو يستبعد بعضها لأنها غير دالة (من وجهة نظره) ويستبقي بعضها الآخر، ثم يربط بينها وينسقها تنسيقاً خاصاً فتصبح (حسب تصوره) مماثلة في تناسقها وترابطها للعلاقات الموجودة بين عناصر الواقع.

والأنموذجاتُ التفسيرية ليست مجرد استدلالات منطقية وتمارين عقلية مجردة وإنما مقولات منهجية تلعب دراسات الحالة دوراً أساسياً في بنائها وتعديلها. فبناء

الأنموذج التفسيري ينطلق من دراسة تفصيلية معمقة لحالة فردية يُنظر إليها حالةً أنموذجاتية (أي ممثلة لحالات أخرى عديدة تنتمي إلى الأنموذج نفسه)، فتهدف الدراسة استكشاف الأنموذج التفسيري لهذه الحالة وبلورته، ثم تطبيقه على حالات أخرى تندرج تحته، وهو ما يتطلب عدم التوقف عند المقولات العامة الكلية للأنموذج وإنما بذل المجهود التطبيقي الذي يعطيه الحياةَ ويغذي مقولاته ويختبرها ويطورها ويغيرها أيضاً.

ويفترض الأنموذج التفسيري وجود أنموذج إدراكي كامن يتبدى - من الناحية النظرية - في كل الظواهر الصهيونية الإسرائيلية، فهو النمط الأساسي الكامن الذي تنضوي تحته معظم- إن لم يكن كل- المعلومات.

ولابد أن يدرك الباحث أن العثور على المعلومات لم يعد الإشكالية البحثية الأساسية، فالحاسب الآلي وشبكة المعلومات (الإنترنت) فيهما من المعلومات ما يفيض عن حاجة الإنسان. أما العملية البحثية فهي عملية تفكيكية تركيبية في آن معاً، تهدف إلى تفكيك المفاهيم والمصطلحات الصهيونية الغربية لتظهر ما فيها من تحيزات عنصرية إمبريالية، ثم تقترح إطاراً تفسيرياً له مقدرة تفسيرية أعلى.

ولا يعني هذا بطبيعة الحال استبعاد المعلومات، فالتعميم الذي لا يستند إلى حقائق صلبة هو مجرد تحليق ذاتي في الفضاء المجرد لا يربطه أي رابط مع الواقع، تماماً مثل التركيز على التفاصيل خارج أي إطار، الذي يشبه الزحف على الأرض دون استيعاب الصورة الكلية الرابطة بين التفاصيل والمعلومات. والمعلومة التي لا توجد داخل إطار هي مجرد عبء على العقل الإنساني أو وسيلة لادعاء المعرفة، لا أكثر ولا أقل. فالمهم أن تظل المعلومة داخل إطار متكرر يعطيها المعنى والدلالة، وهو ما يعبر عنه جمال حمدان بقوله: «يجب أن نحدق وأن نحلق» معاً.

- **كيف نفهم الكيان الصهيوني: المنطلقات**

كثيراً ما يجد الباحثون الذين يتصدون لدراسة الظاهرة الصهيونية والكيان الصهيوني أنهم في حاجةٍ إلى تحديد بعض المنطلقات المبدئية، التي تضع الظاهرة في سياقها التاريخي دون أن تهمل سماتها الخاصة، وتخضعها للدراسة العميقة

المتأنية دون أن تغفل طبيعة الصراع الدائر وآلياته وحركياته. وقد رأيت أن أعرض هنا عدداً من المنطلقات الأولية التي خلصت إليها من خبرتي في دراسة اليهود واليهودية والصهيونية، لتكون تحت تصرف الجيل الجديد من الباحثين في هذا المجال.

وابتداءً يجب أن يدرك الباحث أن العرب ليسوا في عداء أزلي أو تاريخي مع اليهود، فلا علاقة لنا بيهود موزامبيق أو أكوادور أو حتى يهودِ الولايات المتحدة، إلا بمقدار دعمهم للمستوطن الصهيوني، كما يجب أن يدرك الباحث أن من مصلحة العرب الدفاعَ عن حقوق أعضاء الجماعات اليهودية الدينية والمدنية في أوطانهم. فاليهودي الذي يُضطهد في بلده ويهتز وضعه فيها قد يُضطر للهجرة منها، فيتحول من مواطن في بلده إلى مستوطن صهيوني يحمل السلاح ضدنا. ومن هنا كان تأكيدنا أن الصهيونية والعداء لليهود واليهودية هما وجهان لعملة واحدة، وكلاهما يرى أن اليهود لا ينتمون إلى أوطانهم التي يعيشون فيها، ولابد من إخراجهم منها، والفارق الوحيد هو أن المعادين لليهود يطالبون بإخراج اليهود وطردهم إلى أي مكانٍ وبأية طريقة، بينما يذهب الصهاينة إلى أن عملية الخروج لابد أن تتم بشكل منهجي منظم، وأن تُوجه إلى فلسطين. ومن ثم فإن رفضنا للعنصرية (صهيونية أم معادية لليهود واليهودية) له جانبان متلازمان: أخلاقي وعملي.

وينبغي على الباحث ألا يرى اليهود والصهاينة بحسبانهم قوة لا تُقهر، بل بعدِّهم مجرد جماعة إنسانية تعيش في الزمان (التاريخي) والمكان (الجغرافي). فهم ليسوا شياطين ولا عباقرة، وهم لا يعيشون خارج التاريخ والجغرافية كما يدَّعي الصهاينة والمعادون لليهود واليهودية، وإنما هم بشر مثلنا، لهم محاسنهم ومساوئهم، ومواطن قوتهم وضعفهم، يخضعون لقوانين التاريخ والحضارة والعمران الإنساني، شأنهم في هذا شأن كل البشر، ومن ثم يمكن التفاوض معهم، كما يمكن مقاتلتهم وهزيمتهم وطردهم، كما فعل حزب الله في جنوب لبنان.

ويجب أن يدرك الباحث أننا لا نعادي الصهاينة لأنهم يهود، وإنما لأنهم استعمروا فلسطين، ولأن الكيان الصهيوني كيان استعماري استيطاني إحلالي غُرس

غرساً في وسط العالم العربي بدعمٍ من الإمبريالية الغربية. فعداؤنا لهم لا يختلف عن عدائنا للفرنجة وممالكهم التي دامت قرنين من الزمان، وعداء المصريين للمحتل البريطاني، وعداء الشعب الجزائري للمستوطنين الفرنسيين، وعداء الأفارقة لنظام التفرقة اللونية في جنوب إفريقية ولكل أشكال الاستعمار في ربوع إفريقية، وعداء كل شعوب العالم الثالث للاستعمار.

ولابد من التأكيد أيضاً على أن اليهودية بالنسبة للصهاينة هي مجرد وسيلة إعلامية وديباجات اعتذارية لتغطية فعل الاغتصاب والاستيطان والإحلال. فالصهيونية وإسرائيل ليستا ظاهرتين «يهوديتين» وإنما هما ظاهرتان استعماريتان غربيتان تستخدمان ديباجات يهودية.

وبناءً على ذلك، يمكن القول إن محاولة تفسير سلوك الصهاينة بالعودة إلى التوراة والتلمود والبروتوكولات لا تفيد كثيراً، ومن ثم ينبغي على الباحث أن يعود إلى دراسة تاريخ الجيوب الاستيطانية الإحلالية الأخرى، مثل الجيب الاستيطاني في الجزائر أو جنوب إفريقية، للتعرف على أوجه التماثل بينها وبين الكيان الصهيوني.

ومن المهم أن يبتعد الباحث عن الوقوع في فخ مفاهيم من قبيل «الوحدة اليهودية»، التي تفترض أن اليهود يتصرفون بالطريقة نفسها بغض النظر عن مواصفات الزمان والمكان. وبدلاً من استخدام عباراتٍ من مثل «اليهود جميعاً» و«العبقرية اليهودية» و«الجريمة اليهودية» وما إلى ذلك، يجب على الباحث أن يستخدم مصطلحاتٍ تنظر إلى «اليهود» جماعاتٍ يهوديةً متنوعة، لا يمكن فهم سلوك أي منها إلا في إطار المجتمع الذي تعيش فيه. فهل يمكن، مثلاً، فهم تاريخ يهود إنجلترة دون العودة إلى تاريخ إنجلترة العام؟

ولابد أن يدرك الباحث أن الكيان الصهيوني ينتمي إلى نمط الجيوب الاستيطانية الإحلالية، إلا إنه يتسم ببعض السمات الخاصة:

أ- فهناك الديباجات اليهودية التي يتمكن هذا الكيان من خلالها تجنيد يهود العالم والرأي العام الغربي.

ب- الطابع الوظيفي للدولة - الذي يترجم نفسه إلى دولة استيطانية إحلالية تخدم

المصالح الغربية نظير أن يقوم الغرب بحمايتها ودعمها وضمان بقائها واستمرارها. وهذا الوضع يفترض طابعاً استثنائياً للاندماج في النظام الدولي والاعتماد عليه.

ج- لا تتفق ضرورات الاستيطان وأداء الوظيفة في كثير من الأحيان مع ضرورات البقاء دولةً، والأولويات السياسية للنخبة الحاكمة لا تتطابق دائماً مع المنطق الصهيوني الخالص. وهكذا تصبح من الإشكاليات الأساسية لدراسة واقع الصهيونية والممارسات الإسرائيلية استكشاف أنماط التفاعل بين منطق المشروع الصهيوني ومنطق الدولة الطبيعية.

د- يتسم التجمع الصهيوني بتعدد موجات الهجرة وتنوع الجماعات اليهودية وأنماط الاستقطاب بينها (عرقياً، جيلياً،... وما إلى ذلك) ولذا فإننا نجد أنفسنا أمام كيانٍ يتمتع بمعدلات استثنائية للتغير الاجتماعي، وهو ما يطرح عدداً من الأسئلة عن مصادر الثبات والتغير في الجوانب المختلفة للدولة والمجتمع الإسرائيلي.

هـ- أدى هذا كله إلى خصوصية الأزمات التي يمر بها التجمع الصهيوني (الأزمة الاستيطانية، الصراع الديني العلماني، تزايد معدلات الأمركة، قضية «من هو اليهودي»...).

وأخيراً فلابد أن يكون واضحاً أن الهدف من العملية البحثية ليس فضح الكيان الصهيوني، وإنما فهمه وفهم آلياته حتى يمكن التصدي له. وبهذا المعنى، يصبح الجهد البحثي المعرفي شكلاً من أشكال المقاومة والجهاد، فمن خلال الدراسة يتعمق فهمنا لهذا الكيان الاستيطاني الإحلالي فتتحسَّنُ كفاءتنا في المواجهة معه، وإلحاق الهزيمة به، وبذلك تتحول الحقيقة إلى عمل.

- **عبري ويهودي وصهيوني وإسرائيلي**

يحاول الصهاينة فرض رؤيتهم الاختزالية العنصرية على واقع الجماعات اليهودية في العالم فيتحدثون عن أعضائهم المتباينين عقائدياً وثقافياً بعدِّهم «يهوداً» فحسب، وكأن هذا الخليط المتنوع بل والمتنافر يشكل وحدة متجانسة متماسكة. وفي المقابل يجب ألا يسقط الباحث العربي في هذه الاختزالية؛ بل أن يسعى إلى

تطوير هيكل من المصطلحات يبرز عدم التجانس، ومن ثم يتسم بمقدرة تفسيرية عالية. وفيما يلي محاولة لتعريف بعض المصطلحات المتداولة في الخطاب الصهيوني بطريقة تبرز عدم التجانس.

١- عبري: عبري هي أقدم التسميات التي تطلق على أعضاء الجماعات اليهودية، ويقال أيضاً «عبراني» وجمعها «عبرانيون». والكلمة ذات معان ومدلولات عديدة، فيرى بعض الكتاب أن الكلمة ترادف كلمة «عبيرو» التي ترد في المدونات المصرية و«خابيرو» التي ترد في المدونات الأكادية، ولكن البعض الآخر يشكك في هذا الاشتقاق ويرى أن كلمة «عبري» صفة تدل على النسب أو الانتماء لوجود ياء النسب في آخرها في حين أن كلمة «خابيرو» أو «حبيرو» لا تعني غير المزاملة والمرافقة.

ويقال أيضاً إنَّ كلمة عبري مشتقة من «العبور» من عبارة «عبر النهر»: فهرب هو وكل ما كان له وقام وعبر النهر وجعل وجهه شطرَ جبل جلعاد. (تكوين ٣١/ ٢١). ويرى البعض أنه حين يقول الساميون «عبر النهر» دون ذكر اسم هذا النهر فإنهم يعنون نهر الفرات. والإشارة هنا إلى عبور يعقوب الفرات هارباً من أصهاره، ويرى بعض الباحثين أن عبور يعقوب النهر هو أساس اسم العبرانيين حيث ينتسبون إلى من قام بهذا العبور أي يعقوب الذي سمي «يسرائيل».

وربما كان الاسم إشارة إلى جماعة قبلية كبيرة، ويظهر هذا الاستعمال في العلاقة بين المصطلح «عبري» واسم «عابر» حفيد سام (تكوين ١٠ / ٢٤ - ٢٥، ١١ / ١٥ - ١٦) الذي تنتسب إليه مجموعة كبيرة من الأنساب. ولكن أول شخص يشار إليه بأنه عبري هو إبراهيم (تكوين ١٤، ١٣) في سياق لا يدل على أن الإشارة إثنية، حيث تدل على الوضع الاجتماعي بعدّه غريباً أو أجنبياً ليست له حقوق، وتشير كلمة «عبري» في التوراة إلى العبرانيين أيضاً بعدِّهم غرباء.

ويفضل بعض الصهاينة العلمانيين استخدام كلمة عبري أو عبراني على استخدام كلمة «يسرائيلي» أو «يهودي»، بعدِّهم أن الكلمة تشير إلى العبرانيين قبل اعتناقهم اليهودية أي أن مصطلح «عبري» يؤكد الجانب العرقي على حساب الجانب الديني فيما يسمى «القومية اليهودية».

٢ - يسرائيل: يسرائيل كلمة عبرية غامضة المعنى يمكن تقسيمها إلى «يسرا» أي الذي يحارب أو يصارع، و«إيل» وهو الأصل السامي لكلمة «إله». والكلمة تعني حرفياً «الذي يصارع الإله» أو «جندي الإله إيل». وهما في كل التفسيرات معنيان أساسيان هما معنى الصراع والحرب ومعنى القداسة.

وقد وردت الكلمة في الكتابات المصرية في عهد مرنبتاح في عام ١٢٣٠ ق.م بوصفها اسماً لإحدى المدن أو ربما لبطن من بطون القبائل في جنوبي كنعان، ولعل هذا يدل على أن الكلمة كنعانية الأصل.

وتشير الكلمة أيضاً إلى نسل يعقوب، ثم أصبحت تشير إلى المملكة الشمالية يسرائيل قبل التهجير الآشوري، ثم استخدمت للإشارة إلى سكان المملكة الجنوبية، يهودا بعد سقوط مملكة يسرائيل إلى أن حلت كلمة «يهودي» محلها.

وللكلمة معنيان أساسيان: فهي تعني اليهود بوصفهم شعباً مقدساً وتعني فلسطين بوصفها أرضا مقدسة، وهي ترد مضافة إلى كلمات أخرى من مثل «عام يسرائيل» أي «شعب إسرائيل» و«كنيست يسرائيل» أي «مجمع إسرائيل» أو «جماعة يسرائيل». وقد بعثت كلمة «يسرائيلي» مرة أخرى في عصر الانعتاق في القرن التاسع عشر الميلادي، كما بعثت كلمة «عبراني» لأن كلمة «يهودي» كانت تحمل إيحاءات سلبية.

وفي العصر الحديث تستخدم عبارة «مدينة إسرائيل» العبرية للإشارة إلى الدولة الصهيونية وكلمة «إسرائيليين» للإشارة إلى أعضاء التجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين. ولكننا إذا أردنا التفرقة فمن المستحسن إطلاق كلمة «إسرائيليين» على سكان التجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين وحدهم، وتسمية اليهود القدامى، بوصفهم أصحابَ تجمع بشري له خصائص إثنية متميزة، «العبرانيين» أو «جماعة يسرائيل» أو «اليسرائيليين» وذلك لنصفهم بأنهم جماعة دينية، على أن تظل كلمة يهودي مصطلحاً يشير إلى كل من يعتنق اليهودية، وهي العقيدة التي اكتسبت ملامحها الرئيسية في القرن الأول قبل الميلاد، أما مصطلح «عبري» فيستخدم للإشارة إلى الناحيتين اللغوية والأدبية فحسب.

٣ - يهودي: كانت كلمة «يهودي» تشير إلى الشخص الذي يعتنق اليهودية، وقد ظهرت بعد الكلمتين الأخريين «عبراني» و«يسرائيلي» أو عضو «جماعة

يسرائيل». و«يهودي» كلمة عبرية مشتقة من يهودا، وهو اسم أحد أبناء يعقوب والذي سميت به إحدى قبائل العبرانيين الاثنتي عشرة.

والاسم مشتق من الأصل السامي القديم «ودي» التي تفيد الاعتراف والإقرار والجزاء مثل كلمة دية عند العرب، واكتسبت هذه الكلمة معنى الإقرار والاعتراف بالجميل. وقد استوحت لينة زوجة يعقوب اسم ابنها الرابع من هذا المعنى «هذه المرة أحمد الرب لذلك دعت اسمه يهودا (تكوين ٢٩ / ٣٥). فكلمة «يهوده» تعني الرب و«دي» تعني الشكر ومنهما «يهودي».

وكانت الكلمة ذات دلالة جغرافية تاريخية في بادئ الأمر، إذ كانت تشير إلى سكان المملكة الجنوبية (يهودا) فحسب، ولكن دلالتها اتسعت لتشمل اليهود كافة خصوصاً بعد انصهار سكان المملكة الشمالية (يسرائيل) بعد التهجير الآشوري، واختفت من مسرح التاريخ واستمرت مملكة يهودا قرنين من الزمان.

ويمكن القول إن كلمة «يهودي» في الوقت الحالي لها معنيان:

١- يهودي بالمعنى الديني الإثني.

٢- يهودي بالمعنى الإثني المحض.

فالكلمة إذن تشير إلى الكتل اليهودية الثلاث الأساسية، وهي الأشكناز والسفارد ويهود العالم الإسلامي، وإلى الجماعات اليهودية الأخرى التي انفصلت عن الكتل الثلاث الكبرى مثل الفلاشا ويهود الهند. وهي تشير أيضاً إلى اليهود من شتى الفرق التي نشأت في العالم الغربي، أي الإصلاحيين والمحافظين والأرثوذكس والتجديديين حتى لو كفر أعضاء هذه الفرق بعضهم بعضاً. ويستخدم المصطلح للإشارة إلى المستوطنين الصهاينة مع أن مسألة: من هو اليهودي، لا تزال دون إجابة داخل الدولة الصهيونية، أي أن الكلمة ذات مجال دلالي مختلط وغير محدد.

٤ - صهيوني: «الصهيوني» هو من يؤمن بالعقيدة الصهيونية (إما في شكلها الاستيطاني أو في صورتها التوطينية). وغني عن البيان أن مصطلح صهيوني لا علاقة له بمصطلح «يهودي» فليس كل اليهود صهاينة وليس كل الصهاينة يهوداً. وهناك صهاينة مسلمون وصهاينة مسيحيون وصهاينة بوذيون وصهاينة لا دين لهم ولا ملة.

٥ - إسرائيلي: «الإسرائيلي» هو مواطن الدولة الصهيونية، وهو يختلف عن «اليسرائيلي» أو عضو «جماعة يسرائيل»، وهم العبرانيون جماعةٌ دينية. وليس كل الإسرائيليين صهاينة تماماً، كما أن كل الصهاينة ليسوا بالضرورة إسرائيليين، ولا يوجد أي ترادف بين إسرائيلي ويهودي بل إن هناك إسرائيليين كثيرين يرفضون العقيدة اليهودية.

• التراث اليهودي المسيحي

موضوع علاقة الصهيونية بالمسيحية موضوع خلافي ومركب متعدد الأبعاد، وهو يحتاج إلى كثير من التأمل وإعادة النظر في المصطلحات فيما تخبئه من مفاهيم، إذ إنه ليس موضوعاً دينياً محضاً وإنما له بعد سياسي. ولهذا نجد أن بعضاً ممن له مصلحة يقوم بلي عنق المصطلحات ليفرض عليها مفاهيم معينة حتى يمكنه توظيفها لصالحه. وهذا ما فعله الصهاينة وأنصارهم. ومع الأسف، هناك في العالم العربي من ينقل ما يرد لنا من مصطلحات، ثم يرددها ببغائية مذهلة دون أن يدرك عملية التشويه التي تمت، والتي لا تخدم إلا صالح أعداء الوطن والأمة.

وقد اخترقت مثل هذه المصطلحات الخطاب التحليلي العربي. خذ على سبيل المثال مصطلحاً مثل «الحروب الصليبية»، هذه ترجمة للكلمة الغربية (الإنجليزية) crusade نسبة إلى cross، أي الصليب. وهي تعني أن الحملات الصليبية كانت حملات مسيحية، بينما يعرف أي دارس لهذه الواقعة التاريخية أنها كانت حملات استعمارية حتى النخاع والمسيحية براء منها. وقد أدرك المؤرخون العرب والمسلمون المعاصرون لهذه الحملات طبيعتها الاستعمارية الاستيطانية، ولذلك كانوا يسمونها «حروب الفرنجة» نسبة إلى غالبية العنصر البشري الذي قام بالغزو والسلب والنهب (الذي أتى أساساً من بلاد الفرانك، أي فرنسة). وهو غزو وسلب ونهب لم يكن يفرق بين المسلم والمسيحي واليهودي، ولهذا قامت بعض هذه الحملات التي يقال لها «صليبية» بسلب بيزنطة عاصمة المسيحية الشرقية، بل ويقال إن هذه الحملات أنهكت قوى الإمبراطورية الرومانية الشرقية، الأمر الذي جعل سقوطها في يد العثمانيين فيما بعد أمراً يسيراً. وبدلاً من استخدام المصطلح العربي القديم الدقيق، الدال على طبيعة الظاهرة، فقد قمنا بترجمة المصطلح الغربي، الذي يحاول تخبئتها وتعميتها.

وإذا كان هذا هو الحال مع مصطلحات واضحة البراءة مثل «الحروب الصليبية» و«المسألة اليهودية».. فما بالكم بمصطلحات من مثل «التراث اليهودي المسيحي» و«الصهيونية المسيحية» اللّذين شاع استخدامهما في الآونة الأخيرة؟ وهما مصطلحان يفهم منهما أن ثمة علاقة قوية، بل وعضوية، بين اليهودية والمسيحية وبين المسيحية والصهيونية. وقد بلغ المصطلحان من الذيوع أن كثيراً من الناس يتقبلونهما، بما يعبران عنه من مفاهيم، بحسبانهما من البديهيات. ولكن الرؤية المتفحصة لهذين المصطلحين تبين أن علاقتهما بالواقع واهية جدّاً، وأنهما مصطلحان «أيديولوجيان» بمعنى أن لهما مضموناً فكرياً متحيزاً لأيديولوجيات بعينها (الإمبريالية والصهيونية).

والملاحظ أن ثمة عنصراً أخلاقياً مشتركاً بين الديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام (يصلح أساساً لعقد اجتماعي جديد). ولكن، إلى جانب نقط الاتفاق الأخلاقية، هناك نقاط اختلاف، بعضها جوهري، في رقعة أصول الدين أو لاهوته. ومصطلح «التراث اليهودي المسيحي يتجاهل مثل هذه الاختلافات، فهو يفترض أن اليهودية والمسيحية يكونان كلّاً واحداً، وهو ادعاء له ما يسانده بشكل جزئي داخل النسق الديني المسيحي ولكنه لا يعبر بأية حال عن الصورة الكلية إذ إنه يتجاهل حقائق دينية أساسية. فهناك الاختلافات الأساسية الواضحة بخصوص طبيعة الإله وعلاقته بالبشر. كما يختلف موقف اليهودية والمسيحية من الخطيئة بشكل جوهري، فالمسيحية تؤمن بأن الإنسان ساقط بسبب الخطيئة الأولى. أما اليهودية، فلا تؤمن بالخطيئة الأولى. ولهذا يُرى أداء الشعائر، واتباع الأوامر والنواهي كافيين، في السياق اليهودي، لخلاص الإنسان. أما في المسيحية (الكاثوليكية على الأقل)، فلابد من قيام الكنيسة والكهنوت بعملية الوساطة حتى يتم الخلاص، فلا خلاص خارج الكنيسة.

وثمة خلافات بين العقيدتين حول فكرة المسيح، فاليهودية ترى المسيح شخصيةً سياسية قومية سيقود شعبه إلى صهيون ويعيد بناء الهيكل ويؤسس المملكة اليهودية مرة أخرى، أمّا المسيحية فترى المسيح إلهاً / إنساناً مهمته خلاص كل البشرية لا الشعب اليهودي وحسب (ولذا فنحن في كتاباتنا عن الصهيونية واليهودية نشير إلى المسيح المخلص اليهودي بكلمة «الماشيح»، أي نستخدم المنطوق العبري حتى نفرق بين النسقين الدينيين).

وتُعدُّ قضية صلب المسيح قضية أساسية ونقطة خلاف رئيسية. فمن المعروف أن كل أمة أو مجموعة عرقية أو دينية تؤمن بأنها مدينة بوجودها لشكل من أشكال التضحية والفداء الرمزي أو الفعلي الذي يكتسب مكانة رمزية ويصبح الركيزةَ النهائية للنسق ولحظة التأسيس. إن حادثة الصلب في المسيحية هي هذه اللحظة، حين نزل ابن الإله إلى الأرض وارتضى لنفسه أن يصلب، وكان فعله هذا الفداءَ الأكبر. لكن لحظة الصلب هذه ليست لحظة زمنية، رغم حدوثها في الزمان، وهي لا ترتبط بفترة تاريخية معينة رغم وقوعها في التاريخ (فهي كونية). وفي احتفالات الجمعة الحزينة، يحاول المسيحي المؤمن أن يستعيد آلام المسيح، هذه الواقعة الكونية التي لا يمكن أن تنافسها واقعة أخرى. واليهود عنصر أساسي في حادثة الصلب، فكهنتهم وحاخاماتهم هم الذين حاكموا المسيح وهم الذين أصروا على صلبه، فهم قتلة الرب، الذين يقتلونه دائماً، بإنكارهم إياه.

ورغم المحاولات العديدة، المسيحية واليهودية، لتغيير هذه البنية الرمزية للوجدان المسيحي، فإن مثل هذه المحاولات لا تكلل بالنجاح نظراً لأن المجال الرمزي يتسم بقدر من الثبات ولا يخضع بسهولة للأهواء وللتيارات السياسية المتغيرة. ولهذا، فكثيراً ما تنشب الصراعات فجأة وبلا مقدمات حين يقوم بعض المسيحيين بتمثيل مسرحيات دينية تبرز الرموز المسيحية وتسقط على اليهودي دور قاتل الرب. وقد نشب صراع حول أوشفيتس كان في جوهره صراعاً حول الرموز ومعناها. فحادثة الإبادة (الهولوكوست) أصبحت في الوجدان اليهودي لا تختلف كثيراً عن حادثة الصلب في الوجدان المسيحي. ولذا، حين أقامت بعض الراهبات الكرمليات ديراً في هذا المعتقل لإقامة الصلاة على الضحايا من أي عرق أو دين أو جنسية، اعترض ممثلو أعضاء الجماعات اليهودية، لأن هذا يعني فرض لحظة الصلب المسيحية على لحظة الصلب اليهودية!

وثمة رأي داخل المسيحية يقول بأن العهد الجديد لم ينسخ العهد القديم، ولكنه مع هذا حل محله وتجاوزه. ومع أن الكنيسة لم تستبعد العهد القديم، فإن الإيمان المسيحي يستند إلى أن الشريعة (أو القانون) قد تحققت من خلال المسيح وتم تجاوزها، وأن الرحمة الإلهية والإيمان بالمسيح وسيلة للخلاص حلت محل الشريعة والأوامر والنواهي، ومن ثم كان رفض الشعائر الخاصة بالطعام والختان التي تمسك بها اليهود. وقد ذهب المسيحيون إلى أن اليهودية دين الظاهر والتفسير

الحرفي دون إدراك المعنى الخفي أو الباطن، وأن الكنيسة هي يسرائيل فيروس، أي يسرائيل الحقيقية، وأنها يسرائيل الروحية، أما اليهود فهم يسرائيل الزائفة الجسدية التي لا تدرك مغزى رسالتها. وبذلك، فقد اليهود دورهم، وأصبحت اليهودية ديانة متدنية بالنسبة إلى المسيحيين، ووصف اليهود بأنهم شعب يحمل كتباً ذكية ولكنه لا يفقه معنى ما يحمل.

لكل هذا، أعادت الكنيسة تفسير العهد القديم فاكتسبت مدلولاً جديداً مختلفاً تماماً عن مدلوله عند اليهود الذين استمروا في شرحه وتفسيره على طريقتهم، وفهمه فهماً حرفياً وحلولياً وقومياً. ومن ثم اختلف النسق الديني اليهودي عن النسق الديني المسيحي. ومن أهم أشكال الاختلاف أن المسيحية أصبحت ديناً عالمياً، باب الهداية فيه مفتوح للجميع، على عكس اليهودية التي ظلت ديناً حلولياً مغلقاً مقصوراً على شعب أو عرق بعينه يظل وحده موضع الحلول الإلهي. ثم تعمق الاختلاف فأصبحت للمسيحيين رؤية مختلفة تماماً عن رؤية اليهودية.

وقد تبدى كل هذا في شكل صراع تاريخي حقيقي، فقد رفض اليهود المسيح (عيسى بن مريم) ولا يزالون يرفضونه. ويلوم الآباء المسيحيون الأوائل اليهود بعدِّهم مسؤولين عما حاق بالمسيحيين الأولين من اضطهاد، وأنهم هم الذين كانوا يحرضون الرومان ضد المسيحيين ويلعنون المسيحيين في المعابد اليهودية، وأنهم هم المسئولون في نهاية الأمر عن صلب المسيح. وهم يرون أن هدم الهيكل وتشتيتهم هو العقاب الإلهي الذي حاق بهم على ما اقترفوه من ذنوب (وتشكل معاداة اليهود، بعدِّهم قتلةَ الرب، جزءاً أساسياً وجوهرياً من التراث الفني الديني المسيحي من موسيقى ورسم ومسرحيات).

وقد استمر الصراع إلى أن تغلبت المسيحية في نهاية الأمر على اليهودية، وانتشرت بين جماهير الإمبراطورية الرومانية. واستمر من تبقى من اليهود في الإيمان باليهودية، والتعبير عن رأيهم في كتب مثل التلمود والقبالاه، وفي الحديث عن المسيح والمسيحيين بنبرة سلبية وعنصرية للغاية.

وقد تحدد موقف الكنيسة (الكاثوليكية) من اليهود في مفهوم الشعب الشاهد، وهو أن اليهود هم الشعب الذي أنكر المسيح الذي أرسل إليهم، وهم لهذا قد تشتتوا عقاباً لهم على ما اقترفوه من ذنوب. ولكن رفض اليهود للمسيح سر من

الأسرار، فاليهود في ضعفهم وذلتهم وتشردهم يقفون شاهداً على عظمة الكنيسة، أي أن اليهود بعنادهم تحولوا إلى أداة لنشر المسيحية.

ومن ثم، يمكن القول إن العلاقة بين اليهودية والمسيحية علاقة عدائية متوترة إلى أقصى حد، واستخدام مصطلح «التراث اليهودي المسيحي» فيه محاولة لطمس معالم ونقط الاختلاف الجوهرية بين العقيدتين حتى يمكن زيادة الدعم الغربي للدولة اليهودية، والحصول على رضاء الجماهير الغربية على هذا الدعم الذي يتنافى مع القيم المسيحية والأخلاقية الإنسانية.

- **الصهيونية ذات الديباجة المسيحية**

في الآونة الأخيرة، بدأ يتواتر في الدراسات العربية مصطلح «الصهيونية المسيحية»، الذي انتشر في اللغات الأوربية وتسلل منها إلى اللغة العربية. والواقع أن هذا المصطلح يضفي على الصهيونية صبغة عالمية تربطها بالمسيحية كلاًّ، وهو أمر مخالف تماماً للواقع، إذ ليس هناك صهيونية مسيحية في الشرق. بل إن أوائل المعادين للصهيونية بين عرب فلسطين كانوا من العرب المسيحيين، وأول مفكر عربي تنبأ بأبعاد الصراع العربي - الصهيوني وبمدى عمقه هو المفكر المسيحي (اللبناني الأصل الفلسطيني الإقامة) نجيب عازوري. كما أن الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية تعارضان الصهيونية على أساس عقائدي ديني مسيحي. وإن حدث تقارب ما (كما هو الحال مع الفاتيكان)، فإن ذلك يتم مع دولة إسرائيل ولتقديراتٍ عملية خارجة عن الإطار الديني العقائدي إلى حد كبير، وفي الغرب المسيحي البروتستانتي، هناك عشرات من المفكرين المسيحيين الذين يرفضون الصهيونية على أساس ديني مسيحي أيضاً. ولهذا، فإن مصطلح «الصهيونية المسيحية» مصطلح غير علمي نظراً لعموميته ومطلقيته. ومن هنا، يجب الحديث عن «الصهيونية ذات الديباجة المسيحية»، فهي صهيونية غير مسيحية بأية حال، بل صهيونية استمدت ديباجتها (عن طريق الحذف والانتقاء) من التراث المسيحي دون الالتزام بهذا التراث بكل قيمه وأبعاده، ودون استعداد منها لأن يحكم عليها من منظوره الأخلاقي.

وهذا هو الفارق بين أية عقيدة دينية وأية عقيدة علمانية، فالمؤمن بعقيدة دينية يؤمن بمجموعة من القيم المطلقة المتجاوزة لإرادته (فهي ليست من إبداعه ولا من

إبداع غيره من البشر)، ومن ثم يمكن تقويمه وتقويمُ سلوكه من منظور هذه القيم. أما العقيدة العلمانية، فهي مجموعة من القيم النسبية المتغيرة، ولا يمكن أن يحاكم الإنسان العلماني من منظورها إذ بوسعه أن يرفضها ويتنكر لها ويعدلها بما يتفق مع مواقفه المتغيرة واحتياجاته المتطورة وأهوائه المتجددة ورغباته التي لا تنتهي.

ولذلك فإن المسيحيين الذين يقومون بتعديل عقيدتهم لتتفق مع رؤيتهم ومصالحهم السياسية، يقومون بتطويع العقيدة الدينية لأهوائهم السياسية.

وتستند الصهيونية المسيحية إلى العقيدة الألفية الاسترجاعية التي تعود جذورها إلى اليهودية وإلى كثير من العقائد الشعبية، ولكنها مع هذا أصبحت فكرة مركزية في المسيحية البروتستانتية، إذ يؤمن كثير من المسيحيين البروتستانت بأنه حينما يعود المسيح المخلص (الذي يُشار إليه بأنه.. «الملك الألفي») سيحكم العالم (لأنه الملك المقدس)، هو والقديسون، ألفَ عام يشار إليها أحياناً باسم «أيام المسيح» أو «الألف السعيدة»، وهي فترة سيسود فيها السلام والعدل في عالم التاريخ والطبيعة وفي مجتمع الإنسان والحيوان.

وكما تبدأ الألف السعيدة، فلا بُدَّ أن يتم استرجاع اليهود إلى فلسطين تمهيداً لمجيء المسيح. ومن هنا، فإن العقيدة الاسترجاعية هي مركز وعصب العقيدة الألفية. ويرى الاسترجاعيون أن عودة اليهود إلى فلسطين هي بشرى الألف عام السعيدة، وأن الفردوس الأرضي الألفي لن يتحقق إلا بهذه العودة. كما يرون أن اليهود هم شعب الله المختار «القديم أو الأول». (على أنَّ المسيحيين هم شعب الله المختار الجديد أو الثاني)، وأن أرض فلسطين هي أرضهم التي وعدهم الإله بها، ووعود الرب لا تُخْلَفُ حتى وإن خرج الشعب القديم عن الطريق ورفض المسيح (وصلبه). ومن الطبيعي، في إطار هذه الرؤية، أن يُنظر إلى كل من يقف في وجه هذه العودة عدوّاً من أعداء الإله والخلاص المسيحي، فأعداء اليهود هم أعداء الإله.

ويلاحظ أن الفكر الحلولي المسيحي، شأنه شأن الفكر الحلولي اليهودي، يجعل اختيار الإله لليهود ليس منوطاً بفعلهم الخير وتحاشيهم الشر، فهي مسألة عضوية حتمية تتجاوز الخير والشر كما أنه يجعل الخلاص مسألة مرتبطة باليهود، ومنح اليهود مركزية في رؤيا الخلاص.

ومن الواضح أن العقيدة الاسترجاعية، شأنها شأن العقيدة الألفية، تفترض استمراراً كاملاً ووحدة عضوية بين اليهود في الماضي والحاضر والمستقبل، ومن ثم فهي تنكر التاريخ تماماً. ولكن هذا «التقديس» لليهود يضمر كرهاً عميقاً لهم ورفضاً شاملاً لهم ولوجودهم، ذلك أن بنية العقيدة الاسترجاعية هي نفسها بنية فكرة الشعب العضوي المنبوذ، أي أن اليهود شعب مختار، متماسك عضوياً يرفض الاندماج في الشعوب الأخرى، ولذا لابد من نبذه ونقله إلى مكان آخر! ويمكن تلخيص هذا الكُره وذلك الرفض في العناصر التالية:

يذهب الاسترجاعيون إلى أن اليهود أنكروا المسيح وصلبوه، وأن عملية استرجاعهم إن هي إلا جزء من عملية تصحيح لهذا الخلل التاريخي وجزء من عملية تطهيرهم من آثامهم. فاليهود ليسوا مركز الخلاص بل هم مركز الخلل وسببه، والواقع أنهم إذا كانوا مركز الخلاص، فهذا يعود إلى أنهم بإنكارهم المسيح أصبحوا مركز الخلل وسببه الأساسي وتجسيداً للشر في التاريخ. والخلاص لا يمكن أن يتم إلا بتطهير مركز الخطيئة (تنصير اليهود أو إبادتهم)، ولعل هذا التركيز على أن اليهود أصل الخطيئة يفسر أن المسيخ الدجال (الذي سيكون ظهوره أقصى درجات الشر) سيكون يهودياً (من سورية)، وأنه هو الذي سيقود ملوك الأرض ضد المسيح في المعركة الأخيرة (هرمجدون).

تذهب العقائد الألفية والاسترجاعية إلى أن عملية الخلاص النهائي ستصاحبها معارك ومذابح تصل ذروتها في معركة واحدة أخيرة (هرمجدون)، وهي معارك سيروح ضحيتها ثلثا يهود العالم وستُخرب أورشليم (القدس). بل إنه كلما ازداد العنف ازدادت لحظة النهاية اقتراباً، فكأن التعجيل بالنهاية لا يتم هنا من خلال فعل أخلاقي يقوم به المسيحيون وإنما من خلال تقديم قربان مادي جسدي للإله (هولوكوست) يشوى بأكمله. بل إن أبعاد هذه المذبحة ستكون أوسع مدى من المحرقة النازية، فكأن العقيدة الاسترجاعية هي عكس العقيدة المسيحية. ففي العقيدة المسيحية، يأتي المسيح وينزف دمه ويصلب ويهزم، فهو قربان يقدم الإله فداء للبشر بأسرهم، قربان لا حاجة بعده إلى قرابين. أما العقيدة الاسترجاعية فتذهب إلى أن المسيح قائد عسكري يدخل المعارك ويثخن في الأعداء ثم ينتصر، واليهود هم الذين سينزفون، وهم قربان للرب الذي لا حاجة به إلى قرابين،

ولذلك فإن ذبحهم (أو صلبهم) يشير إلى النهاية الألفية السعيدة. كما أن اليهود، حسب الرؤية المسيحية التقليدية، كانوا دعاة القومية، على حين أن المسيح هو داعية العالمية. أما هنا، فإن العكس هو الصحيح، فاليهود هم مركز خلاص العالم والمسيح هو القائد القومي الذي سيؤسس مملكته في صهيون.

انتهت حياة المسيح الأولى بإنكار اليهود له وصلبه، أما حياته الثانية فستنتهي بإعلان انتصاره وبالتدخل في اخر لحظة لإنقاذ البقية الباقية من اليهود (وإعادتهم إلى أرضهم)، فيخر اليهود أمام المسيح ويعترفون بألوهيته ويقابلونه على الإيمان به الماشيحَ المنتظر ويتحولون إلى دعاة تبشير بالمسيحية ينشرون الإنجيل في العالم، أي إن المسيح سينجح في إقناع اليهود بما فشل في إقناعهم به أول مرة. وحينما يحدث ذلك، تكون الدائرة قد اكتملت وتمت هداية العالم بأسره.

العقيدة الاسترجاعية عقيدة تحوسل اليهود تماماً، أي تحولهم إلى وسيلة أو أداة نافعة وأساسية لخلاص المسيحيين. ولكنها، في حد ذاتها، لا قيمة لها، فهم يستمدون قيمتهم من مقدار أدائهم لوظيفتهم ومقدار تعجيلهم بعملية الخلاص المسيحية.

وترفض العقيدة الألفية الاسترجاعية التفسير المجازي للعهدين القديم والجديد، وترى أن ما أتى فيهما نبوءاتٌ حرفية عن المستقبل. فيرى الألفيون، على سبيل المثال، أن العبارات التي وردت عن خراب أورشليم (القدس) تشير إلى حروب عام ١٩٦٧ أو عام ١٩٤٨. أما الرؤية المسيحية التقليدية، فتذهب إلى أنها تحققت بالفعل عام ٧٠ ميلادية على يد تيتوس.

ويقوم هؤلاء الاسترجاعيون، كما سبق القول، بحوسلة إسرائيل بشكل حاد. وعلى سبيل المثال، يرى تيري ريزنهوفر (المليونير الأصولي الأمريكي الذي يقوم بتمويل عملية إعادة بناء الهيكل) أن السلام بين إسرائيل وجيرانها مسألة مستحيلة. وبصفة عامة، ترى الرؤية الاسترجاعية أن هرمجدون نبوءة حتمية لابد أن تتحقق. بل ويرى الاسترجاعيون ضرورة تحريك الأمور باتجاه الحرب لإضرام الصراع والتعجيل بالنهاية (ولذا، فإن موقفهم من مفاوضات السلام أكثر تشدداً من موقف أكثر صقور إسرائيل تشدداً). ولا يختلف الأمر كثيراً بشأن حدود أرض الميعاد، فهذه الحدود معطى ثابت مقدس لا يمكن التفاوض بشأنه. كما أن حدود إسرائيل

التي يتخيلها الاسترجاعيون أكثر اتساعاً من حدود إسرائيل الكبرى التي يتخيلها أكثر الصهاينة تطرفاً. فحدودها، حسب الرؤية الاسترجاعية، تضم الأردن وأجزاء من مصر ولبنان ومعظم سورية (وضمنها دمشق)، أي إن الاسترجاعيين يرون ضرورة سفك الدم اليهودي تحقيقاً لرؤيتهم لنبوءات الكتاب المقدس.

لكل هذا، لا يرحب يهود أمريكة كثيراً بهذه الصهيونية التي تدعي المسيحية (والتي تطالب بنقلهم إلى إسرائيل ووضعهم في حالة حرب دائمة). هذا على عكس الدولية الصهيونية التي تجد أن هؤلاء الصهاينة الذين يستخدمون الديباجات المسيحية يكوِّنون اللوبي الصهيوني القوي الذي يعيش في صلب المجتمع الأمريكي، إن القضية مركبة ومتداخلة إلى أقصى حد، ومع هذا فإننا نجد في عالمنا العربي من يتحدث عن «الصهيونية المسيحية» وكأنها بالفعل «مسيحية» وليست حركة حرفية تخضع النص المقدس لأهوائها، وتستخدم ديباجات مسيحية لتخبئة المضمون السياسي الاستعماري العلماني.

الفصل الخامس

الإعلام الصهيوني

● الصورة المجازية والحقيقة

استخدام الصورة المجازية قد يكون واعياً، فيحاول المتحدث أن يتحكم في الصورة المجازية لتكون قناعاً يستر به نفسه ويخبئ رؤيته الحقيقية، ولكن بدلاً من ذلك تهزمه الصورة، بل تفضحه وتُسقط قناعه، إذ إن منطقها الداخلي قد يعبر عن عكس ما يرمي المتحدث إليه. ولنضرب مثلاً: استخدم الصحفي الأمريكي توماس فريدمان في حديثه عن العولمة صورتين مجازيتين للتعبير عن رؤيته للمجتمع التقليدي ومجتمع العولمة الحديث. فاستخدام صورة شجرة الزيتون ليرمز بها إلى المجتمع التقليدي (على أنها رمز الجذور الثقافية) واستخدم صورة سيارة التويوتا المعروفة باللكزس ليرمز بها لمجتمع العولمة (على أنها رمز الحركة والتجديد المستمر).

ويؤكد لنا فريدمان أنه يمكن الجمع بين الاثنين. ولكن منطق الصورة، إن أخضعناه للتحليل الدقيق، يقول غير ذلك. فشجرة الزيتون ثابتة، أما السيارة اللكزس فمتحركة، وشجرة الزيتون تم استيعابها في المجتمع الإنساني، فالإنسان هو الذي يزرعها ويرعاها ويستخدمها ويوظفها لصالحه، أي إنها اكتسبت بُعداً إنسانياً من خلاله، أما السيارة اللكزس فلم يذكر فريدمان شيئاً عن الهدف من استخدامها، أو عن المكان الذي تتوجه إليه، فهي تشبه مفهوم التقدم الغربي، الذي لم يخبرنا أحد حتى الآن عن غايته أو هدفه. ويمكن أن نذكر في هذا السياق كيف

حوَّل المنتفضون عام ١٩٨٧ شجرة الزيتون إلى رمز للحياة والهوية، فهي تمد الفلسطينيين بزيت الزيتون الذي يُعد مكوناً أساسياً لطعامهم. كما أنها - كما يقول المثل الشعبي الفلسطيني - يمكن للمرأة أن تتعرى تحتها، أي إن الشجرة تستر الإنسان ولا تُعريه (كما تفعل منظومة الحداثة !).

وفي الكتاب نفسه الذي وردت فيه الصورتان السابقتان أشار توماس فريدمان إلى أنه «لم يحدث أن خاضت دولتان يوجد بهما مطاعم ماكونالدز حرباً فيما بينهما». ويدلل على حجته بالإشارة إلى حالة الشرق الأوسط، «انظر إلى الشرق الأوسط: في إسرائيل الآن (يوجد) محلات ماكدونالدز كوشير، وفي السعودية محلات ماكدونالدز تغلق خمس مرات في اليوم في أوقات صلاة المسلمين، ومصر بها محلات ماكدونالدز، كما أصبحت لبنان والأردن من الدول التي توجد بها محلات ماكدونالدز، لم تحدث في أي من هذه الدول حرب منذ دخول الأقواس الذهبية (علامة ماكونالدز) إليها».

وفي المقابل، يتساءل: أين يوجد اليوم التهديد الكبير بالحرب في الشرق الأوسط؟ ويشير إلى الدول الثلاث التي لا يوجد بها «ماكدونالدز»، أي سورية وإيران والعراق. ولذا فهي في تقديره، الدول المؤهلة لخوض الحرب! وإذا وصلت دولة ما إلى مستوى التنمية الاقتصادية الذي يؤدي إلى وجود طبقة وسطى تكفي لنجاح شبكة من «محال ماكدونالدز» بها، فإنها تصبح إحدى «دول ماكدونالدز».

الماكدونالدز هنا تحول إلى رمز على شيء يؤدي - في تصور فريدمان - إلى حالة من الهدوء، هذا الشيء ليس شيئاً مادياً (مسحوق أصفر يوضع في الساندوتش أو المشروب على سبيل المثال فيصيب الإنسان بغيبوبة) وإنما شيء معنوي. ولكن لم يبين فريدمان طبيعة هذا الشيء، وإن كان يُلمِّح له حين يقول إن الشعوب في «دول ماكدونالدز» لم تعد تحب خوض الحروب، بل تفضِّل الانتظار في طوابير البيرجر. كما يروي قصة أحد دعاة الإصلاح في إندونيسية وابنه اللذين كانا ينتقمان من عهد سوهارتو مرة كل أسبوع بتناولهما الغداء في مطاعم ماكدونالدز. إن دققنا النظر وقمنا بتحليل الصور سنكتشف أن الإنسان الذي يتردد على مطاعم ماكدونالدز، كما يتصور فريدمان، إنسان ضُمرت هويته ولم يعد تهمه مسائل معنوية غير محسوسة مثل الوطن والكرامة، فهو إنسان طبيعي، اقتصادي جسماني كامل

يدور في إطار حواسه الخمس. ومن مزايا العناصر الاقتصادية والجسمانية أنها يمكن قياسها وحسابها، وبالتالي يمكن تسوية أية خلافات قد تنشأ بشأنها (على عكس الخلافات التي تنشأ بشأن مفاهيم غير مادية مثل الوطن والأرض والكرامة والعِرض).

كثيراً ما كان يلجأ المفكر المصري جمال حمدان للمجاز. وهذا في حد ذاته تعبير عن رفضه لفكرة وحدة العلوم أيضاً. فاللغة الرياضية العامة المجردة التي تصلح للتعبير عن الظواهر الطبيعية، لا تصلح للتعبير عن كل جوانب الظاهرة الإنسانية. ففي وصفه لتوزيع اليهود في العالم يقول إنه ليس صحيحاً أن «تحت كل حجر في العالم يهودياً»، ويأخذ صورة الحجر المجازية ويقترح صورة أخرى مشتقة منها ولكنها مع هذا تقف على طرف النقيض منها: «الأصح أن نقول إن توزيع اليهود العالمي توزيع رشاش متطاير في معظمه يتحول أحياناً إلى تراب رمزي بحت». وهكذا يتحول الحجر الصلب إلى «رشاش متطاير» ثم إلى «تراب».

وفي مكان آخر يتحدث جمال حمدان عن الظاهرة نفسها فيقول «الصورة المجازية ليست نهر مجرة مرصعة عالمياً بمستعمرات اليهود، ولكنها يمكن أن تكون منثوراً من النوى والنويات السديمية هناك وهناك». إن جمال حمدان استخدم الآلية نفسها تقريباً التي استخدمها من قبل، يأخذ صورة «نهر المجرة» ليحوله إلى «منثور من النوى والنويات السديمية»، وبدلاً من النور الذي له مركز وقوام يظهر عالم بلا مركز.

وقد استخدم جمال حمدان مجموعة أخرى من الصور المجازية تشي بولائه العربي على حساب جذوره «المصرية». فنحن نحب الجد (الفرعوني) ونتذكره، أما الأب فنحن ننتمي إليه، لاسيما إذا كان الأب العربي هو «آخر انقطاع عن الاستمرارية المصرية»، خاصةً وأن الجد قد ابتعد كثيراً. فمصر الفرعونية (كما يبيِّن جمال حمدان) «لم تعد إلا مكدسة في المتحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين، أما في الوادي فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من النهر. ولهذا فنحن ننتهي إلى أن الحضارة الفرعونية قد ماتت في مجموعها، دون أن ينفي ذلك الاستمرارية المحورية في حضارتنا المادية». ولذا يُحذر جمال حمدان دعاة «الفرعونية (وغيرها من دعاوى الرجعية التاريخية والوطنيات الضيقة

كالفينيقية والآشورية)، فالمقصود من هذه الدعوات نفي القومية العربية ونسخ العروبة ومضاربة القومية الشاملة بالوطنية المغلقة». كما يُحذر من دعاة الاستمرارية في الكيان المصري «لا ليبرز أصالة ما، ولكن ليقلل من جانب الانقطاع، ومن ثمَّ ليضخم في البُعد الفرعوني في تاريخنا فيبعدنا عن عروبتنا ويطمس معالمها».

- **الصورة المجازية والإدراك الصهيوني**

يسيطر على الصهيونية حس تجاري قوي، فهم يدركون الدولة الصهيونية سلعةً نافعة للغرب، وقد لخصت حنة إرنت الموقف بقولها «إن الصهيونية بطرحها نفسها (حركة قومية) باعت نفسها منذ البداية للقيام بالوظيفة القتالية الاستيطانية، فشعار الدولة اليهودية كان يعني في واقع الأمر أن اليهود ينوون التستر وراء القومية وأنهم سيقدمون أنفسهم باعتبار أنهم «**مجال نفوذ**» إستراتيجي لأية قوة كبرى تدفع الثمن».

والدولة الصهيونية ليست سلعة نافعة وحسب بل سلعة رخيصة أيضاً، ولذا نجد أن الصهاينة لا يكلون من التأكيد على مقدار النفع الذي سيعود على الراعي والمموِّل (الإمبريالي للمشروع الصهيوني) نظير تكاليف زهيدة، تماماً مثلما يفعل أي شخص رشيد مع أية سلعة تُباع وتُشتَرى. وبالفعل، نجد أنه، في وقت كان فيه المشروع الصهيوني لا يزال في إطار النظرية والأُمنية، كان الزعماء الصهاينة يؤكدون، واحداً تلو آخر، أن تمويل مثل هذا المشروع الاستيطاني الصهيوني مسألة مربحة للدولة التي ستستثمر فيه. وقد أدرك هرتزل - بمكره ودهائه - أن ثورة الفلاحين المصريين ستجعل مصر مكلفة جداً إذا ما اتُّخِذَتْ قاعدةً عسكريةً بالنسبة إلى إنجلترة، ولذا فقد أشار إلى أن المشروع الصهيوني، بتكاليفه الزهيدة، شيء مغر. واستخدام وايزمان الصورة المجازية التجارية التعاقدية نفسها حين كتب لتشرشل قائلاً: «إن السياسة الصهيونية في فلسطين ليست على الإطلاق تبديداً للموارد، وإنما هي التأمين الضروري الذي نعطيه لك بسعر أرخص من أن يحلم به أي فرد آخر».

ولا يختلف صوت يعقوب ميريدور وزير التخطيط والتنسيق الاقتصادي (١٩٨٢ - ١٩٨٤) كثيراً، ففي حديث له لإذاعة الجيش الأمريكي ركَّز على مدى رخص وانخفاض ثمن إسرائيل قاعدةً للمصالح الأمريكية. وقد بيَّن الوزير الإسرائيلي أن تكاليف حماية المصالح يمكن أن تصل إلى ٥٥ بليون دولار. وحيث إن المعونة

التي تدفعها الولايات المتحدة للدولة الصهيونية لا تصل بأية حال إلى هذا القدر، فاختتم ميريدور حديثه بملحوظة فكاهية ولكنها في الوقت نفسه بالغة الدلالة، إذ قال: «أين إذن بقية المبلغ؟».

ويبدو أن هذا هو الخط الإعلامي الإسرائيلي في مواجهة الأمريكيين، ففي العام نفسه بيَّن أريل شارون أن المعونات التي قدمتها الولايات المتحدة للكيان الصهيوني لا تزيد عن ثلاثين ملياراً من الدولارات، أما الخدمات التي قدمتها إسرائيل إلى أمريكة فتفوق مئة مليار دولار. ثم قال بشكل شبه جدّي ما قاله ميريدور بشكل فكاهي: «إن الولايات المتحدة لا تزال مدينة لنا بسبعين ملياراً من الدولارات».

وقد لخص سبير كل الموضوعات والصور المجازية السابقة فقال إن الزعماء الإسرائيليين مضطرون دائماً لأن يذكِّروا القيادة الأمريكية في واشنطن بمقدار تكلفة وجود الجيش الأمريكي في غرب أوربة بالمقارنة بتلك الهبات الممنوحة لإسرائيل. وقد بيَّن سبير أن الجيش الإسرائيلي ليس خدمة حربية كامنة وحسب، وإنما هو أيضاً خدمة رخيصة، بل إنها أرخص من أي خيار عسكري آخر محتمل لأمريكا في المنطقة، وحسبما جاء في مقاله، يوافق البنتاجون على هذا الرأي، ولذا لا يبدي خبراؤه أي تأفف إزاء الحساب الذي يقدمه الإسرائيليون، بل إن هناك من يرى أنه رخيص نسبياً.

ويخرج تصور الصهاينة للشرق الأوسط عن هذا التصور السلعي التجاري، ففي حديث له عن السوق الشرق أوسطية يقول «شمعون بيريز» حين تشتري بضائع يابانية فإنك تصوِّت لصالح اليابان»، فالسلعة هنا ليست مجرد شيء، وإنما هي رمز لليابان، واليابان هنا هي بلد يُعرَّف منتجاً للسلع، وطن اقتصادي (على غرار إنسان اقتصادي). ويقترح بيريز أن نبني الشرق الأوسط بجعله «منطقة اقتصادية» لا يوجد فيها مجال للخلافات غير الاقتصادية من خلال تعاون الأموال الخليجية مع العمالة المصرية مع المياه التركية مع العقول الإسرائيلية. ورغم أن كل العناصر «اقتصادية مادية» إلا أن هناك صورة مجازية كامنة (عالم الأشياء في مقابل عالم الإنسان) تم ترتيب العناصر حسبها، فالأموال والعمالة والمياه تنتمي لعالم الأشياء، أمّا العقول فتنتمي لعالم الإنسان. هل كان يقصد بيريز ذلك، أم أن المضمون الصهيوني

العنصري الذي حاول أن يغلفه بغلاف اقتصادي محايد قد ظهر دون إدراك منه ؟ لا تهم الإجابة على هذا السؤال، لأن المهم هو منطق الصورة. ولعل بيريز لو أدرك أن رؤيته العنصرية الكامنة ستظهر من خلال الصورة المجازية لحاول تغييرها.

وقد طورت مفهوم الجماعة الوظيفية في **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، والجماعة الوظيفية هي جماعة يستوردها المجتمع من خارجه أو يجندها من داخله ويوكل لها وظيفةً لا يمكن لأعضاء المجتمع المضيف أن يقوموا بها، إما لأهميتها أو لوضاعتها (من منظورهم) أو لعدم توفر الخبرة الكافية عندهم. والعلاقة بين المجتمع والجماعة الوظيفية علاقة تعاقدية غير تراحمية، فالمجتمع قد سمح بوجود الجماعة الوظيفية بسبب نفعها، لا حباً أو كرهاً فيها. وقد بينت أن الجماعات اليهودية في الغرب كانت بالدرجة الأولى جماعات وظيفية تقوم بدور التاجر والمرابي في المجتمعات الإقطاعية؛ وأن ميراث الجماعة الوظيفية قد ترك أثراً عميقاً على الخطاب الصهيوني.

وقد أشرت في الموسوعة إلى أن المسألة اليهودية هي مشكلة الجماعات الوظيفية التي أصبحت بلا وظيفة بعد ظهور النظام المصرفي والدولة القومية المركزية. وقد قرر الغرب حل المسألة اليهودية بأن يوجد وظيفة جديدة لأعضاء الجماعات اليهودية، هذه الوظيفة هي وظيفة المستوطنين الذين يوطّنون في منطقة استراتيجية مهمة بالنسبة إلى الغرب فيقومون على خدمة مصالحها، والقتال دفاعاً عنها، مقابل أن يقوم الغرب بحمايتهم وضمان مستواهم المعيش. وبذلك نحن نسمي الدولة الصهيونية (الاستيطانية) دولةً وظيفية.

ورغم أن الصهاينة لم يستخدموا مصطلح الدولة الوظيفية، إلا أنهم أدركوا المفهوم بشكل غائم، فهو جزء من ميراث الجماعات اليهودية التي كانت تعمل بالتجارة وإقراض المال في الغرب. ولذا نجد أن الصورة المجازية الأساسية في الوجدان الصهيوني (الوظيفي) هي أن العالم بأسره إن هو إلا سوق، وأن ما يُسمَّى «الوطن القومي» إن هو إلا سلعة تُباع وتُشتَرى. ويبدو أنه في المراحل الأولى للحركة الصهيونية ساد تصوُّر بين المفكرين الصهاينة مفاده أن الحصول على هذا الوطن يمكن أن يتم من خلال عملية تجارية رشيدة من خلال المقايضة والمساومة والسعر المغري. وكان تيودور هرتزل - مؤسس المنظمة الصهيونية - يتصوَّر أن

الحركة الصهيونية، مُمثِّلةَ الشعب اليهودي، ستقوم بشراء العريش أو أوغندا، أو حائط المبكى وفلسطين من أصحابها. فالأرض هنا ليست وطناً وإنما عقار، وعلاقة الإنسان بها ليست علاقة انتماء وكيان وإنما علاقة نفعية تعاقدية. وحينما نشر هرتزل كتابه **دولة اليهود**، اتهمه بعض اليهود بأنه تقاضى مبلغاً ضخماً من شركة أراض بريطانية كانت تود القيام بأعمال تجارية في فلسطين؛ فتم تفسير الحلم القومي على أنه مشروع تجاري. وعلّق هو على هذا الاتهام بقوله: «إن اليهود لا يصدقون أن أي شخص يمكن أن يتصرف مدفوعاً باقتناع أخلاقي». وكان هرتزل يتصوَّر، في واقع الأمر، أن العالم حانوت أو سوق كبيرة، فحينما ذهب لمقابلة جوزيف تشامبرلين (وزير المستعمرات البريطاني) ليطلب منه قطعة أرض ليقيم عليها وطناً، كان يتخيل أن الإمبراطورية الإنجليزية مثل دكان كبير للعاديات التي لا يعرف مالكها عدد السلع فيها على وجه الدقة، وتخيل هرتزل نفسه زبوناً يطلب سلعة اسمها «مكان تجمُّع الشعب اليهودي» ويحاول مع صاحب الدكان أن يبحث له عن مثل هذا المكان/ السلعة في بضاعته.

وكان هرتزل يؤمن بأن الدولة اليهودية (الوظيفية) نفسها سلعة مربحة ناجحة، فهو يوضح أن الجمعية اليهودية ستعمل مع السلطات الموجودة في الأرض، وتحت إشراف القوى الأوربية: «وإذا وافقوا على الخطة فإن هذه السلطات ستستفيد بالمقابل، وسندفع قسطاً من دَينها العام ونتبنى إقامة مشاريع نحن أيضاً محتاجون إليها، كما سنقوم بأشياء أخرى كثيرة. ستكون فكرة خَلْق دولة يهودية مفيدة للأراضي المجاورة، لأن استثمار قطعة أرض ضيقة يرفع قيمة المناطق التي تجاورها».

إن هذا التصوُّر التجاري التعاقدي للوطن القومي اليهودي ليس مقصوراً بأية حال على هرتزل، فموسى هس - وهو من رواد الفكر الصهيوني العمالي - يؤكد أنه لا توجد أية قوى أوربية تفكر في مَنْع اليهود من شراء أرض أجدادهم ثانيةً. وهو يتصوَّر أن تركية سترد لهم وطنهم نظير حفنة من الذهب. وتصوُّر موشيه ليلينبلوم - وهو رائد آخر من رواد الفكر الصهيوني - لفكرة شراء الوطن ليس مغايراً لفكرة هس: «على رجالنا الأغنياء أن يبدؤوا بشراء العقارات في تلك الأرض، ولو ببعض ما يملكون من ثروة، وما دام هؤلاء لا يرغبون في تَرْك أراضيهم التي يسكنونها الآن، فليشتر كل منهم قطعة أرض في أرض إسرائيل

بيعض من مالهم وتُعطَى هذه الأراضي لمن يستغلها على أساس اتفاقية بشأن العائد (أو الربح) مع الشاري». ويرى ليو بنسكر - مؤسس جماعة أحباء صهيون - أن حل المسألة اليهودية يتلخص في تأسيس شركة مساهمة لشراء قطعة أرض تتسع لعدة ملايين من اليهود يسكنون فيها مع مرور الزمن. وهذا التصور التجاري لكل أراضي آسية وإفريقية لم يكن أمراً غريباً على العقل الغربي الاستعماري في القرن التاسع عشر الذي كان يرى العالم بأسره حيزاً للاستغلال وأرضاً تُوظَّف بطريقة مربحة (من خلال شركات ذات براءة في معظم الأحيان).

ولنحاول الغوص في مكنون الوجدان الإسرائيلي، مستخدمين منهج تحليل الصورة. سيكشف الدارس أنه رغم كل الانتصارات الإسرائيلية إلا أن الإسرائيليين يمارسون إحساساً بالعبث وفقدان الاتجاه، والسوداوية والحتمية والإحساس بأن حالة الحرب دائمة. ويتضح هذا بشكل شبه مباشر في كلمات موشيه ديان في جنازة صديقه روي روتبرج، الذي قتله الفدائيون الفلسطينيون في أوائل الخمسينيات: «إننا جيل من المستوطنين، ولا نستطيع غرس شجرة أو بناء بيت دون الخوذة الحديدية والمدفع؛ علينا ألا نغمض عيوننا عن الحقد المشتعل في أفئدة مئات الآلاف من العرب حولنا. علينا ألا ندير رؤوسنا حتى لا ترتعش أيدينا. إنه قدر جيلنا وخياره، أن نكون مستعدين ومسلحين، أن نكون أقوياء وألا نعرف الرحمة، حتى لا يسقط السيف من قبضتنا فنلاقي حتفنا».

والصورة المجازية الكامنة، المستوطن المسلح الذي يمسك سيفاً بيده والذي يرتعد خوفاً من الحقد المحيط به، تتحول إلى صورة واضحة في كلمات الشاعر الإسرائيلي حاييم جوري حين يتحدثُ عما سماه «مركب إسحاق» وهو أن الإنسان الإسرائيلي يُولد «وفي داخله السكين الذي سيذبحه». كما بين جوري أن «هذا التراب (أي إسرائيل) لا يرتوي»، فهو يطالب دائماً « بمزيد من المدافن وصناديق دفن الموتى»، كما لو كانت أرض إسرائيل آلة ثأر بذيئة، لا مجرد قطعة أرض أو إقليم. كما لاحظ الكاتب الإسرائيلي بن عيزر أن الإسرائيليين الشباب، الذين يخدمون في الجيش، يشعرون أن أهلهم بالاشتراك مع الدولة يضحون بهم دون تعويض أو عزاء من عقيدة دينية تؤمن بالحياة بعد الموت، ولذا فهم يشعرون أن هذه الحروب هي «تضحية علمانية بإسحاق»، أي إنها تضحية بشرية لا هدف لها ولا معنى.

ويفضح الصهاينة عقليتهم العنصرية من خلال الصور المجازية التي يستخدمونها، فقد وصف شامير المنتفضين إبان انتفاضة عام ١٩٨٧ بأنهم مثل «الجراد»، ووصفهم أحد الجنرالات الصهاينة أنهم مثل «الصراصير». وقد استخدم باراك صورة مجازية مماثلة ليبرر انسحابه من جنوب لبنان فقال: إن الحرب ضد الإرهاب، أي مقاتلي حزب الله، مثل الحرب ضد «البعوض». وهي صورة مجازية تهدف إلى تحويل المقاتلين إلى حشرات، وبالتالي تكون إبادتهم مسألة مقبولة. وكان الصهاينة قد استخدموا من قبل صورة «المستنقع» لوصف لبنان، إلى أن أصبح «المستنقع اللبناني»، الذي كان يهدد وجودهم ويكاد يبتلعهم، صورة مجازية أساسية في الوجدان الإسرائيلي (بعد أن كانوا في الماضي يتباهون بأنهم جاؤوا إلى فلسطين فوجدوها مستنقعات وصحارى، فجففوا المستنقعات وزرعوا الصحارى!).

ويفشل الصهاينة أحياناً في استخدام الصور المجازية. فقد صرح شامير بأن العملاق الإسرائيلي سيسحق القزم الفلسطيني، وهذه بطبيعة الحال صورة مجازية ولكنها عكس الصورة التي تود إسرائيل إشاعتها عن نفسها بأنها داوود الصغير الذي ينازل العملاق طالوت فيهزمه بمكره ودهائه، أي إن الصورة الجديدة تقوض الصورة القديمة.

وينطبق الوضع نفسه على باراك الذي فَقَد سيطرته على الصور المجازية التي يستخدمها حين قال: «إن منهجنا هو تجفيف المستنقع»، ولكن إذا كان الانسحاب هو تجفيف المستنقع، فالماء الراكد إذن هو جيش الغزو الصهيوني، وجنوده هم البعوض، أليس كذلك ؟ أي إن الصورة الجديدة تقوض الصورة القديمة تماماً، وتقلب الأمر رأساً على عقب.

وكان إفرايم سنيه أكثر دقة وأمانة في وصفه للانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان حينما قال: «نحن نفضل كوليرا الانسحاب على سرطان وطاعون بقاء الاحتلال». فصورة المرض المجازي تُستخدم هنا لوصف كل من الاحتلال والانسحاب، فبقاء القوات الإسرائيلية مرض وانسحابها مرض، والاختيار هنا بين الأمرين أو المرضين. ولكن علينا نحن العرب أن نتذكر أن ما حوَّل الاحتلال من نزهة خلوية إلى كوليرا هو مقاتلو حزب الله.

• الصور المجازية والتحليل السياسي

من الأدوات التحليلية الأساسية في العلوم ما يُعرف بالنموذج، وهو بنية تصوُّرية يجردها عقل الإنسان من كم ضخم من العلاقات والتفاصيل والحقائق والوقائع، فيستبعد بعضها لأنها غير دالة (من وجهة نظره) ويستبقي بعضها الآخر، ثم يربط بينها وينسقها تنسيقاً خاصاً فتصبح (حَسْب تصوُّره) مترابطة ومُماثلة في ترابطها للعلاقات الموجودة بين عناصر الواقع. وعملية الإبقاء والاستبعاد والتجريد تستند إلى أولويات محددة تستند بدورها إلى رؤية للكون، إذ يستبعد صاحب النموذج ما يراه غير مهم وهامشياً ويُبقي ما يراه مهماً ومركزياً، من وجهة نظره، وانطلاقاً من رؤيته. وبالتالي إن حللنا خطابه وتوصلنا إلى أساسه التصنيفي وأساس الإبقاء والاستبعاد فإننا سنكتشف رؤيته ومعتقداته وتحيزاته وما يسمى «ما قبل الفهم» (بالإنجليزية: بري أندرستا ندنج Pre understanding) أي مجموعة الأفكار والرؤى والتحيزات التي تسبق أي دراسة، والتي تشكل الركيزة الفكرية التي لا يناقشها الإنسان وينطلق منها وحسب.

ولنضرب مثلاً. كثير من المفكرين الغربيين في القرن التاسع عشر كانوا ينطلقون من تمركزهم حول ذاتهم الغربية الأوربية (بالإنجليزية: إيرو سنتريستي Euro-centricity). وكان هذا يحدد لهم مجال الرؤية وطريقة تصنيف الواقع وترتيبه. فالغرب بالنسبة إليهم هو المركز، وما عدا ذلك هامشاً. ولذا فهم كانوا يدرسون بقية العالم، ويسمونه «الشرق» بعدّه كلاً مصمتاً متجانساً لا فرق بين الصيني والياباني، ولا فرق بين العربي والإفريقي، فكلهم شعوب ملونة متخلفة هامشية بالنسبة إلى الجنس الأبيض المتقدم المركزي. ولذا كان بوسعهم أن يتحدثوا عن «الاستبداد الشرقي» أو عن «النمط الآسيوي للإنتاج»، أي إن كل آسية وإفريقية هي شيء واحد متجانس. وهذا ما تم التعبير عنه بطريقة سوقية وبسيطة حينما يقال: ذا وست آند ذا رست .The west and the rest

وعادةً ما يترجم النموذج نفسه إلى صورة مجازية. والمجاز اللغوي قد يكون مجرد زخارف ومحسنات في بعض الأحيان، ولكنه في أكثر الأحيان جزء أساسي من التفكير الإنساني، أي جزء من نسيج اللغة التي هي جزء لا يتجزأ من عملية الإدراك. فنحن نتحدث عن «عين الماء» و«يد الكرسي» و«رجل المائدة»، وهذه

كلها صور مجازية نستخدمها دون أن نشعر، نظراً لشيوع الصور وبساطتها. ولا يمكن إدراك بعض الظواهر الإنسانية المركبة ولا الإفصاح عنها دون اللجوء للمجاز المركب، أي أن استخدام المجاز أمر حتمي في معظم عمليات الإدراك والإفصاح، خصوصاً تلك التي تتناول الظواهر التي تتسم بقدرٍ عالٍ من التركيب.

والحركة العامة للمجاز هي عادةً ربط العنصر المادي البسيط بعناصر معنوية مركبة، وربط ما هو معروف ومحسوس (عالم الشهادة) بما هو غير معروف وغير محسوس (عالم الغيب) حتى يصبح غير المعروف وغير المحسوس أكثر قرباً منا نحن البشرَ الذين نعيش في عالم المادة وداخل حدوده، وإن كنا نحلم بما وراءه، وبذا تصبح الدوال اللغوية أكثر اتساعاً وتركيباً.

وتتكون الصورة المجازية من جانبين، جانب محسوس مستمد من عالمنا المألوف المباشر، وآخر مجرد يعبِّر عن عالم الأفكار. فلنضرب مثلاً بهذا البيت من الشعر: «دقات قلب المرء قائلة له .. إن الحياة دقائقٌ وثوانِ». قام الشاعر في هذا البيت بالحديث عن مفهوم الزمن ومروره (الحياة دقائق وثوانٍ)، ولكنه أراد أن يجعل هذا المفهوم المجرد أكثر تعيناً فيمكن للقارئ أن يدركه بشكل مباشر، فقام بالربط بين مفهوم الزمان والساعة التي تتكلم (دقات قلب المرء قائلة له) فأصبح المفهوم المجرد أكثر قرباً ومباشرة.

والصور المجازية وسيلة إدراكية لا يمكن للمرء أن يدرك واقعه دونها، أو حتى أن يعبر عن مكنون نفسه إلا من خلالها. فالصور المجازية هي جزء أساسي من عملية الإدراك، وهي بذلك مرتبطة تمام الارتباط بالنماذج المعرفية والإدراكية ورؤية الكون وخير وسيلة للتعبير عنها. ويوجد داخل كل نص، مكتوب أو شفهي، نموذج كامن يستند إلى ركيزة أساسية، عادةً ما تترجم نفسها إلى صورة مجازية، استخدمها صاحبها (بوعي أو بغير وعي) للتعبير عن هذا النموذج. ويتجلى النموذج الإدراكي (المجرد) من خلال الصور المجازية بشكل متعين مباشر، وبذلك تتضح مرجعيته النهائية، وقد لا يمكن إدراك طبيعة النموذج وبنيته دونها.

ومنهج تحليل النصوص من خلال الصور المجازية منهج معروف في الدراسات الأدبية ولكننا سنطبقه على المجال السياسي. فعلى سبيل المثال، حين ندرس مسرحية ماكبث لشكسبير، يمكن أن نلاحظ تواتر صور عديدة من أهمها

صورة الدم التي يستخدمها كل من ماكبث وزوجته بشكل متكرر. وبعد دراسة السياقات المختلفة التي ترد فيها صورة الدم، سنلاحظ ارتباطها بالإحساس العميق بالندم الذي يشعر به البطلان من جراء الجريمة التي اقترفاها، ومحاولتهما إخفاء هذا الشعور، دون جدوى. وينتهي الأمر بأن تنتحر الليدي ماكبث، أما ماكبث فيُلقي بنفسه في أحضان الحتمية والقدرية، ويرتكب جريمةً تلو أخرى. ومع هذا يظل إحساسه بالندم قوياً حتى وهو يخوض في «بحار الدم».

وقد استخدم الكاتب البريطاني توماس أديسون في مقال له نُشر في مجلة سبكتيتور في القرن الثامن عشر صورة مجازية ليصف علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بالحضارة الغربية، فقال إنهم أصبحوا الأداة التي تتحدث من خلالها الأمم التي تفصل بينها مسافات شاسعة والتي تترابط من خلالها الإنسانية. ثم تتعمق الصورة المجازية وتزداد تبلوراً حين يبين أديسون أنهم أصبحوا مثل الأوتاد والمسامير في بناء شامخ. وهذه الصور المجازية قد تبدو وكأنها مدح لليهود وتعبير عن حب لهم، ولكنها في واقع الأمر تُبيِّن أن الحضارة الغربية ترى أن اليهود دونَ قيمة في حد ذاتهم، غير أن أهميتهم مطلقة لاحتفاظ هيكل البناء بتماسكه، أي أنهم وسيلة وليسوا غاية. (وقد استمر هذا الموقف حتى الوقت الحاضر، فالدولة الصهيونية مجرد أداة في يد الغرب، لا قيمة لها في حد ذاتها، ولكن تكمن أهميتها في الدور أو الوظيفة التي تقوم بها، أي حماية المصالح الغربية في العالم العربي).

ويمكن استخدام الصورة المجازية وسيلةً لتمرير التحيزات وفرضها بشكل خفي، فالمجاز يقوم بترتيب تفاصيل الواقع لنقل رؤية معينة. وإذا ما درسنا الخطاب السياسي الغربي وجدنا أنه يستخدم صوراً مجازية كثيرة تعبر عن الرؤية الغربية للعالم، ولكنها تبدو كما لو كانت محايدة. فحينما يشيرون إلى العالم العربي أنه «الشرق الأوسط» أو حتى «المنطقة»، وحينما يصفونَ «الفدائيين» «إرهابيين» و«المقاومة» «عنفاً» فإنهم في واقع الأمر يفرضون صوراً مجازية تجسد مفاهيمهم. فبدلاً من العالم العربي، المصطلح الذي يستدعي التاريخ والتراث والهوية، نجد أن مصطلح «المنطقة» ينقل إلى وجداننا صورة أرض ممتدة بلا تاريخ أو تراث، وبدلاً من نُبل المقاومة يشيرون إلى لا عقلانية العنف.

ولأضرب مثلاً أكثر إثارة وهو اصطلاح «رجل أوربة المريض» الذي كان يتواتر في الخطاب السياسي الغربي في أواخر القرن التاسع عشر، والإشارة هنا إلى صورة رجل يحتضر، يُعالِج سكرات الموت، هو الدولة العثمانية. والصورة المجازية المستخدمة تجعلنا ننظر بكثير من الاشمئزاز على أسوأ تقدير، وبكثير من الشفقة (دون أي احترام) على أحسنه، وننسى تماماً أن الدولة العثمانية كانت تحمي شعوبها - رغم ضعفها واستبدادها - من الهجمة الاستعمارية الغربية التي عصفت بالعالم بأسره، وننسى أن رجل أوربة لم يكن من أوربة، وإنما كان يقف على رأس الشرق الإسلامي زعيماً وقائداً له. ومن الواضح أن صورة رجل أوربة المريض تعكس منظوراً غربياً للقضية، ينظر للدولة العثمانية ميراثاً سيُقسَّم ويُوزَّع بين القوى الغربية، وهي رؤية لا علاقة لها من قريب أو بعيد برؤية شعوب هذه المنطقة.

والصورة تفترض أن هذا الرجل المريض يوجد على حدود أوربة، ولكنه ليس منها، وبذلك تحدد لنا مجال الرؤية التاريخية المسموح لعيوننا بالتحرك فيه، الأمر الذي ينسينا صورة مجازية أخرى، صورة «رجل أوربة النهم المفترس»، أي الإمبريالية الغربية التي كانت تبيد سكان إفريقية آنذاك بعد أن كانت قد أبادت أعداداً كبيرة من سكان الأمريكتين الأصليين، وبعد أن أبادت سكان أسترالية ونيوزيلندة، والتي كانت تقوم في الوقت نفسه باستبعاد سكان آسية، وتخوض حرباً ضارية لتسويق الأفيون في الصين لنشر التقدم الأوربي والغيبوبة العالمية الدائمة بين ربوعه. هذا الرجل النهم كان رابضاً على حدود العالم الإسلامي بعد أن التف حوله عدة قرون خشية «رجل أوربة العثماني القوي» الذي كان لا يزال بعافيته، وهو كان رابضاً يتلمظ ويمصمص شفتيه على أمل أن يحل الوهن بـ «الرجل العثماني المسلم». وحينما بدأ المرض يدب فيه كان يقضم منه قضمة هنا وقضمة هناك، وكان يدس له السم في طعامه أحياناً، بل فيما يقدمه له من أدوية وهمية (من مساعدات وخلافه). وقد جمع «رجل أوربة النهم» كل قواه وقضى على «رجل الشرق الفتي» (مصر محمد علي) الذي كان بوسعه أن يحقن الرجل المريض ببعض المقويات، ولعله كان من الممكن أن يُشفى ويُعافى نتيجة ذلك. كل هذه الظلال والمعاني والدلالات اختفت تماماً بسبب عبارة «رجل أوربة المريض» التي رسمت أمامنا صورة أخفت صورة (الرجل النهم).

• استراتيجية إعلامية صهيونية جديدة

في جميع مراحل المفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين، كان يتم تأجيل ما يُسمى «قضايا الوضع النهائي»، مثل حق العودة وإقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس وتفكيك المستوطنات، على أنها قضايا شائكة يجب أن تُناقش بالتفصيل فيما بعد، مما يعني الاعتراف بوجودها وأهميتها. إلا .ان ثمة نغمة غريبة بدأت تظهر مؤخراً في الأوساط الصهيونية ومؤداها أن جوهر الصراع العربي الإسرائيلي لا يكمن في الاحتلال الصهيوني ولا في إنكار الحقوق الفلسطينية المشروعة، بل في تمسك الفلسطينيين ببعض المنطلقات الأساسية، وهو ما يوضحه عاموس جلبوع في مقال بعنوان كاشف دالٍّ وهو «ليس عرفات وحده المريض بل المجتمع الفلسطيني الذي لا يزال يتمسك بالأسس التي أبقت الصراع قائماً» (صحيفة معاريف، ٣١ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٤). ويرى جلبوع أن المجتمع الفلسطيني بدأ في النزاع مع إسرائيل قبل عام ١٩٦٧، فهو مجتمع يعتقد أن تجربته المؤسِسة هي نكبة ١٩٤٨، ومن ثم فإن أي حل للنزاع يجب أن يبدأ من هذه النقطة. ويشكل لاجئو عام ١٩٤٨ ونسلهم جزءاً لا يُستهان به من هذا المجتمع، وقد مثَّل عرفات هؤلاء اللاجئين بإخلاص وحوَّلهم إلى رمز للكفاح الفلسطيني لتحرير كل فلسطين، وغدت قضية اللاجئين مصدر إجماع فلسطيني، فلم تعد هناك سوى قلة قليلة في المجتمع الفلسطيني قادرة على التشكيك في عدالتها ومحوريتها.

والمقدمات منطقية للغاية، ويمكن أن يُضاف إليها أن التجربة المؤسِسة للفلسطينيين ليست نكبة ١٩٤٨ وإنما وصول المستعمرين الصهاينة إلى أرض الفلسطينيين، حيث استمر تدفقهم من عام ١٨٨٢ حتى إعلان الدولة عام ١٩٤٨ ثم تواصل بعد ذلك حتى الوقت الراهن. وقد بدأت المقاومة الفلسطينية بأشكال مختلفة منذ بداية التسلل الصهيوني، كما بدأت عسكرة تجمع المستوطنين، وتحددت خطوط المواجهة بين طرفين رئيسيين: قوة احتلال تغتصب الأرض ويساندها الاستعمار الغربي من جهة، وشعب يسعى لاستعادة أرضه وتحرير وطنه من جهة أخرى. والمنطقي في هذه الحالة، إذا ما فُهمت جذور المشكلة على هذا النحو، أن يتم البحث عن حلول إنسانية معقولة تستعيد حقوق أصحاب الأرض وترفع الظلم عنهم. إلا إن جلبوع سرعان ما يتناسى هذه المقدمات المنطقية ويتهم

المجتمع الفلسطيني بأكمله بأنه «مجتمع مريض»، وبدلاً من أن يقدم الشواهد على قوله، يقذف القارئ بسيل من العبارات الإنشائية العامة التي لا تفسر شيئاً، فيقول إن «المجتمع الفلسطيني برمته مريض، وهذا هو لب مشكلته ومشكلتنا، [ونرجو] ألا يكون مرض هذا المجتمع عضالاً، لأن هناك من يعتقد أن هذا هو الحال». ثم يسقط جلبوع تماماً في أسر الخريطة الإدراكية الصهيونية، وبدلاً من تفهم دوافع المقاومة الفلسطينية، يمضي محللاً ما يسميه «الإرهاب الفلسطيني»، فيقول: «هذا مجتمع جعل تعليم الإرهاب، تعليم الجهاد، تعليم كراهية إسرائيل، تعليم إبادة إسرائيل الشريرة، أمراً جذرياً عميقاً، وجزءاً من الثقافة ونمط الحياة الفلسطينية. هذا مجتمع لا توجد فيه سياقات لاتخاذ القرارات، لا يوجد فيه اتفاق على القيادة، لا توجد فيه مؤسسات عسكرية تخضع لقيادة سياسية. هذا مجتمع ممزق ومنشق سياسياً. هذا مجتمع لم تولد فيه الانتفاضة الأخيرة مرونةً تجاه إسرائيل، بل آلاف القتلى وعشرات الآلاف من المعوقين ومزيداً من الكراهية».

وما يطلبه جلبوع من الفلسطينيين إذن، هو أن ينسوا تجربتهم المؤسسة، وكأن تجربتهم مع النكبة ومع الاحتلال الصهيوني، بكل ما يرتبط به من قمع وإهدار لحقوقهم، هي من اختيارهم، وكأنهم هم الذين خلقوا هذا الواقع اليومي المرير الذي يرزحون تحت وطأته. والواضح أن هذا النسيان أمر مستحيل، فضلاً عن أنه غير إنساني. فليس بوسع الفلسطيني أن يمحو من ذاكرته واقعة اغتصاب الوطن، ما دام الاحتلال مستمراً وما دام يستيقظ في الصباح على ضجيج مكبرات الصوت التي تأمره بإخلاء منزله لكي تهدمه الجرافات الإسرائيلية، بينما ترتفع أبنية المستوطنات الصهيونية محاطةً بالأسوار والجنود فوق أراضي الفلسطينيين التي صُودرت وأشجار الزيتون التي اقُتلعت، وما دام عاجزاً عن رؤية أهله أو التوجه إلى عمله أو مدرسته في الطرف الآخر من البلدة بعد أن حولت الجدران العازلة والأسلاك الشائكة والحواجز الأمنية جميع المدن والبلدات الفلسطينية إلى جزر منعزلة.

إلا أنَّ رأي جلبوع هذا ليس الأول من نوعه. فمنذ فترة أدلى حاخام إنجلترة الأكبر بتصريح طالب فيه الفلسطينيين بنسيان ما حدث عام ١٩٤٨، أي نسيان أن وطنهم محتل وأنهم طُردوا منه منذ ذلك الحين، وأن من حقهم العودة إليه، وأن

من واجبهم الدفاع عن هذا الحق بكل الوسائل، وهو ما تكفله قرارات الأمم المتحدة والمواثيق والأعراف الدولية.

ويتبدى الموقف نفسه بصورة جلية في مقال للكاتب الإسرائيلي شلومو أفنيري بعنوان «الرواية التاريخية الفلسطينية هي المسؤولة عن الموقف الذي مثله عرفات» (صحيفة يديعوت أحرونوت، ٣١ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٤). ويرى أفنيري، وهو من أبرز المفكرين الصهاينة ومستشار أساسي في وزارة الخارجية الإسرائيلية وأستاذ للعلوم السياسة، أن الرواية الفلسطينية (أو «التجربة المؤسِسة» كما يسميها جلبوع) لا تزال تنظر إلى إسرائيل دولة غير شرعية، أشبه ما تكون بالاستعمار الفرنسي في الجزائر، ويخلص إلى أن هذه الرواية وما تنطوي عليه من رؤية للصراع: «هي أساس الرفض لمشروع التقسيم الذي وضعته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧، وبسببها شن الفلسطينيون الحرب ضد مشروع التقسيم، ومنها وُلد الإصرار على إبقاء مخيمات اللاجئين في صورتها المؤقتة (ومن ثم الحكم على مئات الآلاف من الفلسطينيين بحياة العفن والمرارة)، وبسببها كان الرفض للانضمام إلى مبادرة السادات عام ١٩٧٧، كما أنها هي التي ولدت الإرهاب أداةً شرعية في الكفاح ضد إسرائيل، ومن ثم عُدَّ الانتحاريون شهداء. وحتى اليوم لم ينطلق صوت فلسطيني يختلف مع هذا المفهوم القائم على أساس الرواية الفلسطينية. وما دامت هذه الرواية قائمة، فمن الصعب تصور إمكان تحقيق السلام بين إسرائيل والفلسطينيين».

والواضح أن آراء جلبوع وأفنيري وحاخام إنجلترة تُعد جزءاً من استراتيجية إعلامية صهيونية جديدة تحاول تصوير الصراع العربي الإسرائيلي محصلةً لرواسب «الحقد الفلسطيني» ومشاكل «العقلية الفلسطينية السلبية» و«عدم الواقعية»، مما ينقل هذا الصراع إلى عالم الذات والأمراض النفسية ويبعده عن جذوره التاريخية الحقيقية في أرض الواقع وفي العالم الموضوعي. كما أن هذه الاستراتيجية تسقط الشرعية عن المقاومة الفلسطينية وتسبغها على دولة الاحتلال، وهي الدولة الصهيونية العنصرية، ومن ثم تسوِّغ لها كل ما ترتكبه من جرائم ضد «دعاة الكراهية والحقد» الذين تتمثل «خطيئتهم» الأساسية في أنهم يتمسكون بحقوقهم ويرفضون النسيان!!

الفصل السادس

خرافة القومية اليهودية

• القومية اليهودية بين الوهم والحقيقة

تدعي الصهيونية أنها «القومية اليهودية»، وأنها بذلك حركة لتحرير يهود العالم. فما هي حقيقة هذا الادعاء؟ للإجابة عن هذا السؤال، يجدر في البداية إلقاء الضوء على الدين اليهودي وبعض سماته الأساسية. فالملاحظ أن الدين اليهودي، على خلاف الديانات السماوية الأخرى، يمزج، على مستوى المصطلح على الأقل، بين فكرة «الشعب» بالمعنى العرقي وفكرة «الأمة» بالمعنى الديني. وعلى الرغم من تداخل «الزمني» بالمقدس و«القومي» بالديني في اليهودية، فقد ظلت فكرة «القومية اليهودية» إمكانية فكرية كامنة تعبر عن نفسها بشكل روحي عاطفي لا يتعدى نطاق الصلوات والدعوات، عن «اللقاء العام القادم في أورشليم»، وهي صلوات ودعوات لا تختلف كثيراً عن التحية الإسلامية بعد الصلاة أو التعبير العاطفي عن الرغبة في زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد ظلت الفكرة كامنة لأن الممارسات اليومية لدى اليهود على الرغم من إحساسهم بأنفسهم «شعباً» أو جماعةً تنتمي إلى العرق نفسه، كانت تقنعهم بأنهم في واقع الأمر جماعات يهودية متناثرة ومنتشرة في العالم، تعيش منفصلة إلى هذا أو ذاك الحد عن الأغلبية السائدة في كل مجتمع، مع أنها جزء لا يتجزأ من هذا المجتمع، أي إن السمة المشتركة بين يهود العالم هي انفصالهم النسبي عن الأغلبية في الشعوب التي تعيش بين ظهرانيها، إلى جانب ممارستهم لبعض الطقوس الدينية (اليهودية) المختلفة. وهم

لا يختلفون في هذا عن أي أقليات دينية أخرى، فالأقليات الدينية الإسلامية في الولايات المتحدة وإفريقية والهند تتسم بأنها منفصلة نسبياً عن الأغلبية الدينية السائدة في المجتمع، وبأنها أقليات تمارس أيضا طقوساً دينية مشتركة.

ولعل إحساس اليهود بواقع حياتهم هو الذي أخمد الشعور بالانتماء القومي الوهمي، فلم يسجل تاريخ الجماعات اليهودية أية حركات منظمة للعودة لأرض الميعاد، وظل ارتباطهم بالأرض أشبه بارتباط المسيحي أو المسلم بأرضه المقدسة. ومن الثابت أن تواريخ الجماعات اليهودية في العالم أو («الشعب اليهودي» كما يقول الصهاينة) كانت تتسم، خصوصاً في العالم الغربي، بالحركة والهجرة الدائمة من مكان إلى اخر. فاليهود هاجروا إلى الأندلس، وحينما طردهم العرب اتجهوا إلى هولندة والقاهرة واستوطن بعضهم ألمانية ومنها انتقلوا إلى بولندة وروسية، ولم يحدث قط أن هاجر اليهود في جماعات يعتد بها إلى فلسطين (وطنهم «القومي» المزعوم).

ومع هذا، يمكن الإشارة إلى سمة خصوصية انفرد بها أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي وهي تحولهم إلى جماعات وظيفية تعمل بالتجارة والربا، ومن سمات هذه الجماعات الوظيفية أنها تشعر بالغربة في مجتمع الأغلبية، ورغم أنها تستمد خطابها الحضاري من هذا المجتمع، فإنها تتصور أنها ذات هوية مستقلة وأن لها وطناً آخر (صهيون)، فتنعزل عن هذا المجتمع، وتبدأ في الإحساس بأنها «أقلية إثنينية» مع أنها في واقع الأمر «جماعة وظيفية». ومما عمق هذا الاتجاه بين اليهود أن التنظيم الاجتماعي الاقتصادي في المجتمعات الزراعية الإقطاعية في أوربة بالذات كان فيها يأخذ شكلاً دينياً. فقد كانت العلاقة بين الأمير الإقطاعي من جهة وفرسانه وفلاحيه من جهة أخرى علاقة أخذت طابعاً دينياً مسيحياً، وبالتالي انقسم المجتمع إلى بناء أساسي (إقطاعي - زراعي - مسيحي) وبناء فرعي (تجاري - يهودي) داخل البناء الأساسي.

ورغم أن هذه التقسيمات والتصورات مناسبة تماما للمجتمعات الإقطاعية، فقد انهارت كل الجيوب الإقطاعية المتخلفة بظهور الرأسمالية الحديثة الباحثة عن السوق القومية. ومما له دلالته أن الثورة الفرنسية قد بادرت لدى قيامها إلى مطالبة اليهود بالتخلي عن أوهامهم القومية حول أنفسهم، وأن يتقبلوا انتماءهم القومي

الحقيقي الوحيد وهو انتماؤهم لفرنسة (وللسوق القومية الموحدة)، على أن يتحول انتماؤهم اليهودي إلى انتماء ديني وحسب. أي إن علمنة الدولة وفصل الدين عن الدولة (أو القومية)، وهي الخطوة الأولى نحو نشوء الدولة العصرية الحديثة، كان لابد وأن يقابله علمنة مماثلة من جانب اليهود وحسم لمسألةِ الدين القومي والقومية الدينية. وقد تكررت هذه الظاهرة في كل أنحاء أوربة مع زحف الحركة القومية البورجوازية الحديثة، فكانت الحكومة القومية أو الجماهير ذاتها تهدم حيطان الجيتو، رمز الانعزال الاقتصادي. وكانت هذه العملية تصاحب الانعتاق السياسي لليهود أو منحهم حقوقهم الدينية والسياسية التي تجعل منهم مواطنين لهم كل الحقوق وعليهم كل الواجبات.

وقد وجد اليهود أنفسهم في مفترق الطرق بعد عملية الانعتاق وبعد ظهور أنماط الحياة الجديدة التي كانت تفرض عليهم الاندماج. وقد استجاب اليهود في بادئ الأمر لهذا التحدي استجابة خلاقة، فظهرت حركة الاستنارة اليهودية وحركة اليهودية الإصلاحية اللتان كانتا تناديان ببعث اليهود وتطويرهم اقتصادياً وحضارياً حتى يمكنهم التأقلم مع الاقتصاد الجديد ومع الأوضاع السياسية والحضارية التي نجمت عنه. وقد قام اليهود الإصلاحيون بإلغاء الصلوات ذات الطابع «القومي» (اليهودي)، وذلك من أجل تعميق ولاء اليهودي للوطن الذي يعيش فيه وقصر انتمائه اليهودي على الدين وحده.

• التعريف الصهيوني للقومية اليهودية

ولكن الصهاينة، ممثلي العقلية الجيتوية، وقفوا ضد التيار الإصلاحي وراحوا يعملون على تحويل «الإحساس الديني» بالانتماء إلى جماعة دينية واحدة والارتباط العاطفي بالأراضي المقدسة اليهودية، إلى «شعور قومي» و«برنامج سياسي». وعلى الرغم من محورية الفكرة القومية بالنسبة للصهاينة، فلا يزال التعريف الصهيوني للقومية اليهودية غير معروف على وجه الدقة. فالصهاينة حقا يتفقون على أن اليهود يكوِّنون شعباً ينتمي إلى قومية واحدة وهم يرون أنه شعب شُرِّد وحُرم استقلاله ألفي عام (منذ أن خرب تيتوس الهيكل) وعليه أن يعود إلى أرضه معتمداً على الوسائل الإنسانية العادية دون انتظار الماشيح المخلص (حسب الرؤية الدينية الأرثوذكسية)، وينادون أيضا بأن اليهودية إنما هي قومية وحسب بل هي «أم» القوميات كلها،

إلا أنهم مع هذا يصرون على أن الانتماء اليهودي «القومي» يختلف في أساسياته عن الانتماء القومي العادي. وهم غير محقين في هذا إلى حد كبير، ذلك لأن «القومية اليهودية» تفتقر إلى اللغة المشتركة، فالأغلبية العظمى من يهود العالم لا تعرف العبرية. كما أننا نجد أن لكل مدرسة صهيونية تعريفها المستقل للأساس «القومي» المشترك بين اليهود. وسنحاول هنا أن نوجز بعض هذه الأسس المختلفة.

١ - **الدين اليهودي**: يحاول دعاة فكرة «القومية اليهودية» من الصهاينة المتدينين أن يؤكدوا على الوحدة الدينية بين أعضاء الجماعات اليهودية وعلى أنهم «أمة مقدسة». وقد تقبلت الصهيونية اللادينية التراث الديني اليهودي واحداً من مقومات القومية اليهودية، وحولته إلى ما يشبه الفولكلور أو التراث الثقافي الشعبي. ولكن الدين لا يصلح أن يكون أساساً لنشوء قومية، لأن الرابطة الدينية رابطة أخلاقية وليست رابطة زمنية متعينة. وعلى أية حال فإن معظم الصهاينة لا يقبلون بالدين اليهودي وحده أساساً للقومية اليهودية. ومن المعروف أن عدداً كبيراً من الإسرائيليين (بما في ذلك القيادات السياسية) لا أدريون أو ملحدون. ومعنى ذلك أنهم يؤمنون باليهودية لا ديناً ولا مجموعةً من القيم الملزمة أخلاقياً وإنما تراثاً فولكلورياً، ولكنهم يرون أن عدم إيمانهم بالدين اليهودي لا يسقط عنهم «القومية» المزعومة.

٢ - **معاداة اليهود**: يرى بعض الصهاينة أن «معاداة اليهود» هي التي خلقت الوعي «القومي». اليهودي، وهذا تفسير دقيق إلى حد ما. ففي مرحلة الاندماج والانعتاق في أوربة، زادت الزيجات المختلطة بين اليهود والأغيار حتى إنها كانت تصل أحياناً إلى ٨٠٪، ولم يظهر ما يسمى بالوعي «القومي» إلا بعد عام ١٨٨١ عقب تصاعد موجات الاضطهاد ضد اليهود في شرق أوربة وعقب صدور قوانين مايو. ويختلف تفسير ظاهرة معاداة اليهود من تيار صهيوني لآخر، فيرى دعاة الصهيونية السياسية أنها ظاهرة أزلية لأن كره الأغيار لليهود مسألة لصيقة بطبيعتهم البشرية، بينما يحاول الصهاينة العماليون تفسيرها تفسيراً تاريخياً فيشيرون إلى التطور الاقتصادي الشاذ لليهود وتحولهم إلى جماعات هامشية غير منتجة ومنبوذة من المجتمع. والاستجابة الصهيونية لمعاداة اليهود ليس الحرب ضد العنصرية وإنما الهجرة إلى أرض الميعاد. ويرى الصهاينة الدينيون أن ظاهرة معاداة اليهود هي تعبير عن كره الأغيار لشعب مقدس مختار!

وبغض النظر عن تفسير نشأة ظاهرة معاداة اليهود، فإن السؤال التالي يظل مطروحاً: هل يمكن تسمية الوعي بهذه الظاهرة بأنه وعي قومي أم أنه مجرد إحساس بالظلم يمارسه أعضاء الأقليات الدينية والعرقية الذين يضطهدهم مجتمع الأغلبية ويميز ضدهم؟ وبالتالي: هل يمكن تسمية الهجرة إلى فلسطين هجرة قومية أم أنها مجرد بحث عن ملجأ أو مكان أفضل للاستثمار والحياة المستقرة والفرص الاقتصادية؟

وقد أثبتت تواريخ الجماعات اليهودية في العالم أن الهجرة اليهودية لم تكن قومية وإنما كانت اقتصادية بالدرجة الأولى، فقد اتجهت الغالبية العظمى من يهود العالم في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى المكان المنطقي (الولايات المتحدة) ولم تتجه إلى المكان القومي المزعوم (فلسطين). وقد حقق المهاجرون اليهود إلى الولايات المتحدة ربحاً كبيراً واستقراراً نفسياً عظيماً، ولذلك فإن عدد من يهاجر منهم إلى إسرائيل يكاد يقرب من الصفر. وفي الفترة بين عام ١٨٨١ وعام ١٩٣٣، لم يكن يوجد في فلسطين إلا حوالي ١٨٠ ألف مستوطن بعضهم استوطن فيها لأسباب دينية لا تربطها وشائج صلة بالتصورات القومية، وفي الفترة ذاتها هاجر ما يزيد على أربعة ملايين يهودي إلى العالم الجديد.

ولفهم سلوك هذه الجماعات وحركتها ومصيرها لابد من العودة إلى التشكيلات الحضارية التاريخية التي كانوا يوجدون فيها لا إلى جوهر يهودي يتجاوز الزمان والمكان ويشكل وحدتها الجوهرية، أو إلى تاريخ يهودي يتطور حسب قوانينه الداخلية ويتطور اليهود في إطاره منعزلين عن تواريخ الجماعات التي يعيشون بين ظهرانيها.

إن مشاكل الجماعات اليهودية متنوعة ونابعة من وجودها في مجتمعات مختلفة ذات مستويات مختلفة من التقدم والتخلف، واستخدام اصطلاح يهود على إطلاقه لن يساعد كثيراً على التحليل والتفسير، ومن ثم نرى أن كلاً من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية هما في واقع الأمر عقائد وهويات تأخذ شكل تركيب تراكمي جيولوجي يحوي داخله طبقات غير متجانسة يعيش بعضها فوق بعض، وإذا ما أطلقنا على هذا اسم «يهود» و«يهودية» لكان في الأمر تعسف ولي لعنق الواقع، ولذلك فنحن نشير إلى العقائد وإلى الجماعات اليهودية إذ تؤكد كلمة جماعات على استقلال كل جماعة وعلى خضوعها لحركيات تاريخية وحضارية مختلفة.

• شعب يهودي أم جماعات يهودية؟

يحاول الصهاينة فرض مفهوم الوحدة اليهودية على واقع أعضاء الجماعات اليهودية وتواريخهم وانتماءاتهم المتباينة، وهذا ما يفعله أيضاً المعادون لليهود واليهودية. ويتضح هذا، على سبيل المثال، من التأمل في الدلالات المختلفة لمصطلح بسيط مثل «اليهود»، وهو مصطلح خلافي يخفي تحيزات مختلفة.

وقد نجح الصهاينة في ترسيخ مفهوم «الوحدة اليهودية» في وجدان معظم الباحثين فأصبحوا يتصورون أن مصطلح «يهودي» (بشكل عام ومطلق) مصطلح محدد المعنى، رغم أن كلمة يهودي هي من أكثر الدوال إشكالية رغم بساطتها. فكلمة «يهودي» يمكن أن تستخدم للإشارة إلى العبرانيين القدامى جماعة عرقية أو إثنية (قوم) أو فهم جماعة دينية (شعب مختار)؛ كما تستخدم الكلمة للإشارة إلى اليهود الحاخاميين والقرائين والسامريين ويهود الصين وأثيوبية.

ويُشار إلى اليهود شعباً مقدساً في التراثين الدينيين المسيحي واليهودي. وبعد ظهور العلمانية أصبحوا شعباً عضوياً يشار إليهم بوصفهم «الشعب اليهودي»، أو بالمعنى اللاديني مجرد «اليهود» (بالإنجليزية: جوري Jewry). ويشار إلى السفارد والأشكناز والصابرا ويهود الولايات المتحدة على أنهم يهود، وتزداد الأمور اختلاطاً حين يستخدم المصطلح للإشارة إلى يهود العالم وإلى صهاينة العالم والمستوطنين الصهاينة في إسرائيل ولعل المصدر الأساسي لهذا الخلط هو التراث الإنجيلي الذي يتحدث دائماً عن اليهود كُلاًّ على أنهم الشعب، وهي طريقة للرؤية ورثها العالم الغربي كله، ولهذا نجد أن المحايدين العلميين والمعادين لليهود والصهاينة المتحيزين، يتحدثون جميعاً عن اليهود كياناً متجانساً.

وغني عن القول إن استخدام الدال (يهودي) بهذه الطريقة يجعله عديم الفائدة، إذ يشير إلى حقل دلالي متضارب ومدلولات مختلفة، وهو الأمر الذي يتجلى من خلال دراسة الحقل الدلالي لبعض المصطلحات السائدة للإشارة إلى اليهود، ومن بينها :

١ - «اليهود بوصفهم كلاًّ متماسكاً»

وهي ترجمتنا للكلمة الإنجليزية جوري Jewry، والتي كانت تستخدم أصلاً للإشارة إلى الجيتو أو الشارع أو الحي الذي يسكنه اليهود، وهي تشير إلى اليهود

كلاً متماسكاً لا أنهم جماعات شتى لكل منها انتماؤها العرقي أو الإثني أو الحضاري وتضم في صفوفها أعضاء يهود لكل طموحاته وتصوراته الخاصة به. وتفترض الكلمة أن هناك علاقة عضوية بين أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، وأنهم يخضعون للحركيات التاريخية نفسها التي تجبُّ الانتماءات المختلفة والتناقضات الكامنة والظاهرة.

ويحبذ الصهاينة استخدام هذا المصطلح لأنه يعبر عن رؤيتهم ونموذجهم التفسيري، وهذا المصطلح لا يختلف كثيرا في تضميناته عن مصطلحات مثل «الشعب اليهودي» أو «الشعب العضوي» فهي جميعاً تشير إلى كل عضوي متماسك.

٢ - «الشعب اليهودي»

وهي عبارة تفترض أن اليهود شعب واحد بالمعنى القومي أو العرقي للكلمة، كما تفترض أن لديهم قوميتهم اليهودية المستقلة وهو أمر يتنافى مع الواقع التاريخي كما بينا في تحليلنا المصطلحي.

٣ - «الشعب»

وهي كلمة تتواتر في الأدبيات الدينية اليهودية والمسيحية وفي الدراسات الدنيوية أيضاً. ويختلف معنى الكلمة في السياق الديني عنه في السياق الدنيوي والتاريخي، فهي في السياق الديني تعني «جماعة دينية» ترتبط بميثاق مع الإله وتنتفي عنها صفة الشعب بعدم تنفيذها العهد، وهذا الشعب قد يرى نفسه شعباً مختاراً أو شعباً مقدساً أو أمة الروح أو الأمة المقدسة أو الشعب الأزلي أو المفضل على العالمين، ومن أسمائه «بنو يسرائيل» و«شعب يسرائيل».

أما في السياق الدنيوي فالأمر أكثر تركيباً، «الشعب» يعني مجموعة القبائل العبرانية التي تسللت إلى كنعان ثم اتحدت في المملكة العبرانية المتحدة ثم انفكت إلى مملكتين المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية، وقد عدَّه اليونانيون والرومان «إثنوس»، أي قوماً يترأسهم رئيس القوم (إثنآرخ) ثم تحولوا إلى جماعات يهودية مختلفة منتشرة. وفي العصر الحديث عاد الحديث بين الصهاينة عن «الشعب اليهودي» أو «الشعب العضوي (فولك)».

٤ - «الشعبان»

وهو مصطلح صهيوني جديد يشير إلى كل من الشعب الفلسطيني و«الشعب الإسرائيلي» أو «اليهودي». وهذا المصطلح يتضمن شكلاً من أشكال الاعتراف بوجود شعب فلسطيني وحقوق فلسطينية في أرض فلسطين (إرتس يسرائيل في المصطلح الصهيوني)، ولكنه يؤكد أيضاً وجود شعب يهودي له حقوق في فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٤٨، كما يتضمن شكلا من أشكال التكافؤ بين الفلسطينيين والمستوطنين الصهاينة وشكلاً من أشكال المساواة في الحقوق، وكأن الغزاة الصهاينة لا يختلفون عن السكان الأصليين، فمصطلح «الشعبين» يضفي شرعية على عملية الغزو الصهيوني.

٥ - الجماعات اليهودية

وهو المصطلح الذي نقترحه بدلاً من مصطلح «اليهود». ونحن نذهب إلى أن العبرانيين (والعبرانيين اليهود)، أي اليهود القدامى، كانوا يشكلون وحدة ثقافية وإثنية تتسم بقدر من التماسك والتجانس والوحدة، ولكن مع انتشار اليهود في أرجاء العالم في مجتمعات مختلفة لكل تقاليدها الحضارية والدينية وتواريخها تفاعل اليهود مع هذه التقاليد والتواريخ وخضعوا لمؤثراتها شأنهم شأن كل الأقليات والبشر، وقد بدأت عملية الانتشار مع التهجير البابلي، ولكن وتيرتها تصاعدت مع ظهور الحضارة الهيلينية والرومانية، واكتملت عملية الانتشار والتفرق مع هدم الهيكل في عام ٧٠م على يد تيتوس وكذلك سقوط العبادة القربانية المركزية وأية سلطة دينية مركزية يهودية، وقد تحول اليهود نتيجة هذه العملية إلى جماعات مختلفة متفرقة غير متجانسة. ونحن نفضل استخدام مصطلح جماعات يهودية على مصطلح يهود، لأن المصطلح الأخير يؤكد التماسك والتجانس والوحدة والحقُّ أنه لا تماسكَ ولا تجانسَ ولا وحدة.

- **سفارديم وأشكناز ويهود العالم الإسلامي**

يمكن تصنيف الجماعات اليهودية المتنوعة على أسس عدة، كلها ذات مقدرة تفسيرية وتصنيفية جزئية. وهذا يعود إلى إشكالين أساسيين كامنين في الشرع والموروث الديني اليهوديين: فاليهودي يُعرَّف بأنه من وُلِد لأم يهودية أو تهوّد

بحسب الشريعة. وهو ما يعني أن هناك أساساً عقائدياً (التهود والإيمان باليهودية) وأساساً عرقياً (الأم يهودية)، أي أن الانتماء إلى اليهودية يمكن أن يتم على أساس أي من المنطلقين. كما أن اليهودي الملحد يظل يهودياً على الرغم من إلحاده (وهذا أمر ينفرد الشرع اليهودي به دون الإسلام أو المسيحية).

ويمكن تصنيف أعضاء الجماعات اليهودية، على أساس عرقي أو إثني، إلى مجموعات كبرى ثلاث:

١ - السفارديم:

هم اليهود الذين كانوا يتحدثون اللادينو، وهم نسل أولئك اليهود الذين عاشوا في شبه جزيرة أيبيرية أصلاً، وحينما طرد أعضاء الجماعة اليهودية منها اتجهوا إلى الدولة العثمانية واليونان وشمال إفريقية، وكانت قطاعات من يهود المارانو المتخفين (الذين أظهروا الكاثوليكية وأبطنوا اليهودية هرباً من محاكم التفتيش) تلحق بهم وتشهر يهوديتها فتصبح من السفارديم. وكان بين السفارد نخبة تمتلك مهارات إدارية، كما كانت تمتلك رأس مال كبيراً يؤهلها للاضطلاع بدور التجارة الدولية. وفعلا كوّن السفارد شبكة تجارية دولية فقاموا، بدور أساسي في تطوير الرأسمالية الغربية. وكانت لهم طريقتهم الخاصة في الصلاة والطقوس الدينية، ولذا يمكن الإشارة إلى النهج السفاردي في العبادة، كما أن عبريتهم تختلف عن عبرية الأشكناز، وكان السفارد أكثر اندماجاً في محيطهم الحضاري وأكثر استيعاباً للحضارة العربية ثم الحضارة الغربية. وظهر في صفوفهم الفيلسوف إسبينوزا ورئيس الوزراء دزرائيلي، وثمة عداء متأصل بين السفارد والأشكناز، فالسفارد كانوا أرستقراطية اليهود، وكان استقرار الأشكناز في أماكن تجمعهم يسبب لهم الحرج، وكانوا لا يتعبدون معهم ولا يتزوجون منهم، وكانوا يحاولون الاحتفاظ بمسافة بينهم، وقد انقلب الوضع رأساً على عقب بعد أن تحولوا إلى أقلية وحقق الأشكناز بروزا في الحضارة الغربية، وبعد إعلان دولة إسرائيل.

٢ - يهود الشرق والعالم الإسلامي:

يُشار إلى يهود الشرق والعالم الإسلامي بأنهم «سفارد» أيضاً، وهذه تسمية مغلوطة، ويعود هذا إلى أن كثيراً من يهود العالم الإسلامي يتبع النهج السفاردي

في العبادة، لكن هذا لا يجعلهم من السفارد، فتجربتهم الدينية والثقافية والتاريخية مختلفة تماماً. وينقسم يهود العالم الإسلامي إلى عدة أقسام، أهمها يهود البلاد العربية أو اليهود المستعربة الذين استوعبوا التراث العربي وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منه، غير أن هناك جماعات صغيرة أخرى، مثل اليهود الأكراد وبقايا السامريين ويهود جبال الأطلس من البربر ويهود إيران، وغيرهم. ويتميز كل فريق بأنه مستوعب في إطاره الحضاري للمجتمع الذي يعيش في كنفه فيتحدث لغته، بل أيضاً لهجة المجتمع الذي يعيش فيه، ويتعامل مع العالم من خلال أنساق هذا المجتمع الثقافية والرمزية. وتوجد أحياناً سمات دينية فريدة لأعضاء هذه الجماعات الصغيرة، تعزلها عن التيار الرئيسي لليهودية، إذ إن المكون الإثني كثيراً ما يؤثر في المكون الديني ويغلب عليه.

٣ - الأشكناز:

هم أساساً يهود شرق أوربة (روسية / بولندة) الذين يتحدثون اليديشية. ويعود أصلهم إلى ألمانية (أشكناز بالعبرية) ومع أن أغلبية الأشكناز كانت تتحدث اليديشية، فقد كان الأشكناز يتحدثون اللغات الأوربية الأخرى، وحينما كان المهاجرون الأشكناز يغادرون بولندة إلى بلاد مثل هولندة وإنجلترة ثم الولايات المتحدة، كانت المجتمعات المضيفة (بما في ذلك أعضاء الجماعة اليهودية فيها) تعدّهم متخلفين، فقد كانوا يعملون صغارَ مرابين وباعة متجولين، وكانوا يُحضرون معهم بعض الأمراض الاجتماعية، كالغش التجاري والدعارة. وكانوا يظهرون عزوفاً عن الاندماج، ولاسيما أن أزياءهم وطريقة قص شعرهم مختلفة، فكانت تميزهم وتعزلهم عن محيطهم الحضاري الجديد. وصيغ الدين اليهودي التي يعرفونها تختلف عن الصيغ التي يعرفها السفارد.

ولذا، يمكن الحديث أيضاً عن النهج الأشكنازي في العبادة، والمسألة اليهودية كانت أساساً مسألة يهود شرق أوربة من الأشكناز، وقد ظهرت جميع الحركات الفكرية اليهودية الحديثة في صفوفهم أيضاً: حركة الاستنارة اليهودية، اليهودية الإصلاحية، اليهودية المحافظة، قومية الدياسبورا، البوند، وأخيراً الصهيونية التي بدأت حركةً أشكنازية تهدف إلى تأسيس دولة أشكنازية، لكن يهود الشرق والعالم الإسلامي وبقايا السفارد اكتسحوها.

• يهود إصلاحيون ومحافظون أرثوذكس

يمكن تقسيم يهود العالم من الناحية الدينية إلى قسمين أساسيين:

١ - يهود إثنيون وهؤلاء فقدوا كل علاقتهم بالعقيدة اليهودية والموروث الديني، وهم يرون أن يهوديتهم تكمن في إثنيتهم، أي في أسلوب حياتهم وموروثهم الثقافي، ويمكن القول بأن أكثر من نصف يهود أمريكة يهود بهذا المعنى، أما في الاتحاد السوفييتي (سابقاً)، فإن عددهم يزيد عن ذلك كثيراً، ويشار إلى هذا الفريق بأنه اليهود الملحدون أو العلمانيون.

٢- يهود يؤمنون بصيغة ما من صيغ العقيدة اليهودية، وهؤلاء ينقسمون إلى عدة أقسام:

(أ) اليهودية الأرثوذكسية: هي وارثة اليهودية الحاخامية أو المعيارية أو التلمودية. وهي الصيغة اليهودية التي سادت بين الجماعات اليهودية الأساسية في الغرب منذ العصور الوسطى حتى نهاية القرن التاسع عشر. ويؤمن اليهود الأرثوذكس بأن التوراة مرسلة من الإله، وبأن كل ما جاء فيها ملزم. ولذا، فهم يرون ضرورة أن يلتزم اليهودي بتنفيذ الوصايا والنواهي (المتسفوت)، وضرورة إقامة الشعائر كافة، بما في ذلك شعيرة السبت والطعام الشرعي.

(ب) اليهودية الإصلاحية: هي أول المذاهب اليهودية التي تحدت اليهودية الحاخامية وظهرت في ألمانية (مهد الإصلاح الديني المسيحي)، وتعد ترجمة لفكر عصر الاستنارة. وهي تحاول أن تعبر عن العصر الحديث، فتُحكِّم العقل في كل شيء، وتحاول أن تفصل المكون الديني عن المكون العرقي أو القومي في العقيدة اليهودية فيصبح المكون الديني وحده ملزماً، ويسقط أي تفسير قومي لأفكار مثل «العودة» و«النفي». وتصبح كلها أفكاراً تعبر عن تطلع ديني يتحقق في آخر الأيام، أو بالتدريج عبر التاريخ. وهذا كله يهدف إلى تعميق ولاء اليهودي للوطن الذي يعيش فيه ودمجه في محيطه الحضاري فيتحول إلى مواطن في الشارع ويهودي في منزله. (ومع هذا تم صهينة اليهودية الإصلاحية، شأنها شأن معظم التيارات والطوائف اليهودية الأخرى).

(ج) اليهودية المحافظة: هي مجموعة من التيارات الفكرية تصدر عن الإيمان بأن العقيدة اليهودية تعبير عن روح الشعب اليهودي الثابتة (لا عن روح العصر المتغيرة)، وبأن هذه العقيدة تطورت عبر التاريخ وأخذت أشكالاً مختلفة، وبأنها من ثم قادرة على التكيف مع اللحظة التاريخية.

فاليهودية ليست مجموعة عقائد ثابتة وإنما هي تراث أخذ في التطور التاريخي الدائم. لكن أي تغيير يدخل على هذه العقائد لابد من أن يكون نابعاً من صميمها معبراً عن روح الشعب اليهودي وهويته. ويمكن القول إنَّ اليهودية المحافظة ترى الدين اليهودي الفلكلور اليهودي، أو الروح القومية اليهودية. وهي في هذا قريبة للغاية من الرؤية الصهيونية لليهودية، على الرغم من أن ما يهيمن على المؤسسة الدينية في إسرائيل هو اليهودية الأرثوذكسية.

ولا تؤمن اليهودية الإصلاحية أو المحافظة بأن الكتاب المقدس مُرسل من الإله، وإنما هي مجموعة من الأقوال الحكيمة والأساطير الشعبية التي ألهم الخالق بعض الأنبياء بها لكنه لم يوح إليهم بها، ومن ثم، فمن حق المخلوق أن يتصرف بحسب ما يمليه العقل أو العصر عليه، فيغير ويُبدل في الشعائر، بل يُسقطها تماماً في بعض الأحيان. ولذا فإن الإصلاحيين والمحافظين لا يلتزمون الوصايا (الأوامر والنواهي)، ولا يقيمون شعائر السبت أو الطعام الشرعي إلا على نحو جزئي من قبيل الحفاظ على الفلكلور. وقد أباحت اليهودية الإصلاحية والمحافظة ترسيم النساء حاخامات، كما أباحت الشذوذ الجنسي بين الذكور والإناث، بل ويرسم الآن الشواذ والسحاقيات حاخاميين. والأغلبية الساحقة من يهود العالم الغربي إثنية أو محافظة وإصلاحية، ولا يشكل الأرثوذكس سوى أقلية لا تزيد عن ٥٪. ويلاحظ إقبال أعضاء الجماعات اليهودية على العبادات الجديدة، مثل البهائية والماسونية وما يسمي ديانات العالم الجديد (الإيمان بأن للهرم شكلاً ذا قوة سحرية خارقة، على سبيل المثال).

إلى جانب هذه التقسيمات الأساسية توجد جماعات هامشية لا حصر لها، مثل السامريين الذين لا يؤمنون بالتلمود ولا بمعظم كتب العهد القديم، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة أساساً بنسختها المختلفة عن تلك المتداولة بين

اليهود كافة، ومركزهم هو جبل جرزيم في نابلس، لا جبل صهيون، وهم لا يؤمنون بمجيء الماشيح. وهناك أيضاً القراؤون الذين تمردوا على التلمود (بتأثير الفكر المعتزلي الإسلامي)، وزلزلوا اليهودية الحاخامية من جذورها، لكن لم يبق منهم سوى بضعة آلاف في كاليفورنية وبعض مناطق روسية وإسرائيل، وهناك بقايا يهود كايفنج في الصين، يعبدون يهوه الذي يسمونه تنين (السماء) ويتعبدون في معبدين يهوديين، أحدهما لعبادة الإله والآخر لعبادة الأسلاف، وهم لا يعرفون لا التلمود ولا التوراة، وملامحهم صينية تماماً، ويمكن أن نشير إلى يهوديتهم بأنها يهودية كونفوشيوسية (تماماً مثلما نجد أن يهودية بني إسرائيل في الهند يهودية هندوكية). وهناك عشرات من الجماعات والطوائف والفرق اليهودية الأخرى الهامشية.

لكن بدلاً من الدخول في تفصيلات لا حصر لها، يمكن أن نقارن بين عينتين إحداهما مركزية وتضم يهود الولايات المتحدة الذين يشكلون أكبر تجمع يهودي في العالم، والأخرى هامشية وتضم الفلاشاه الذين يشكلون تجمعاً صغيراً هامشياً منعزلاً.

ينتمي يهود الولايات المتحدة في الدرجة الأولى، إلى الجنس الأبيض، وأغلبيتهم الساحقة من أصل أشكنازي (ألماني أو روسي/ بولندي). وتوجد قلة من السفارد، والقرائين، والكرمشاكي (وهم ينتمون إلى جماعة يهودية صغيرة في شبه جزيرة القرم، يتحدث أعضاؤها بالتترية، ويبدو أنهم من بقايا يهود الخزر). وهناك أيضاً بعض الأمريكيين السود الذين يُدعَون «العبرانيين السود» وهؤلاء يؤمنون بعقيدة شبه يهودية تتحدث عن مؤامرة الإنسان الأبيض لفصل آسية عن إفريقية عن طريق شق قناة السويس، ويدعون أنهم هم العبرانيون الحقيقيون، ومن ثم يرون أنهم هم وحدهم أصحاب الحق في استرداد إسرائيل والاستيطان فيها وحكمها. وتوجد جماعة منهم في شيكاغو هاجرأعداد منها إلى إسرائيل، حيث استقروا في جوار ديمونة وفي أماكن أخرى، وهؤلاء لا تعترف إسرائيل أو المؤسسات الحاخامية بهم، بطبيعة الحال، ولذا فهم يشكلون أقلية منبوذة داخل كل من الدولة الصهيونية والجماعة اليهودية في الولايات المتحدة.

أما الفلاشاه، فهم من يهود إثيوبية، وملامحهم لا تختلف من قريب أو بعيد عن ملامح بعض قبائل أو أقوام إثيوبية. وإذا كان هناك بينهم من التنويعات، فهي

تنويعات تشبه في بعض الوجوه التنويعات الموجودة في مجتمعهم. وهناك جماعة الفلاشاه موراه، وهي جماعة مسيحية شبه يهودية منبوذة من الفلاشاه كانت قد تنصرت منذ ما يقرب من قرنين من الزمان.

ومن الناحية الدينية، ينقسم يهود الولايات المتحدة إلى قسمين أساسيين: يهود إثنيون لا أدريون ويهود متدينون وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى إصلاحيين ومحافظين وتجديديين وأرثوذكس (ويوجد بعض الفرق الأخرى شبه الدينية من أتباع العبادات الجديدة). واليهود الدينيون في الولايات المتحدة يتعبدون في المعبد اليهودي (السيناجوج)، ويرأسهم حاخام، ولا يقيمون معظم الشعائر ولا يكترثون بالطعام الشرعي أو بشعائر السبت والطهارة والنجاسة.

أما الفلاشاه، فكما أسلفنا، هم أساساً خارج نطاق اليهودية الحاخامية، ولا يعرفون التلمود، وتختلف بعض شعائرهم عن شعائر اليهودية الحاخامية، فشعائر الطهارة والنجاسة عندهم مركبة وشاملة، ومع هذا فهم يقيمون شعائرهم كلها (وقد صدموا حينما هاجروا إلى إسرائيل بسبب انصراف أعضاء الدولة اليهودية عن الشعائر اليهودية)، ويرأس يهود الفلاشاه قساوسة (يقال لهم قسيم)، وهم يعرفون نظام الرهبنة، إذ فيهم رهبان وراهبات، ويصلون في معبد يهودي يسمى المسجد، ويخلعون نعالهم قبل دخوله!

ومن ناحية اللغة فإن يهود الولايات المتحدة يتحدثون الإنجليزية، ويعرف بعض علمائهم العبرية والآرامية، كما توجد العبرية في بعض كتب الصلوات، أما يهود الفلاشاه، فهم يتحدثون الأمهرية (ويتحدث بعضهم بالتيجرينية). ويتعبدون بالجعيزية، لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية، ويضم كتابهم المقدس بعض نصوص العهد الجديد.

ولكل جماعة يهودية خطابها الحضاري وفلكلورها الذي ينبع من محيطها الحضاري، ففي حالة يهود أمريكة، ينبع خطابهم الحضاري من محيطهم الحضاري الحالي (الأمريكي)، أو من محيطهم الحضاري السابق (روسية - بولندة - ألمانية - إنجلترة)، أما في حالة يهود الفلاشاه، فهو ينبع كله من محيطهم الحضاري الإثيوبي الإفريقي. وفي حين أن اليهودي الأمريكي يرتدي البنطلون «الجينز» ويأكل «الهامبورجر» ويرقص الديسكو ويعيش في منزل عصري. وقد يُطعّم حديثه ببعض

الكلمات اليديشية، ويتحدث بعض الحسيديين منهم اليديشية كما يحتفظ بعضهم بالأزياء التي كانوا يرتدونها في شرق أوربة، فإن يهودي الفلاشاه يرتدي شالاً لا يختلف عما يرتديه من حوله من أبناء إثيوبية، وهو يأكل طعامهم، ويرقص الرقصات المعروفة في منطقته، ويعيش في كوخ مغطى بالحطب لا يختلف من قريب أو بعيد عن الأكواخ المجاورة، والوضع الاجتماعي ليهود أمريكة (نسبة الطلاق - الوظائف - المهن) ورؤيتهم للكون لا تختلف عن وضع الإنسان الأمريكي ورؤيته للكون. اللذين يختلفان بشكل جوهري عن وضع الفلاشاه ورؤيتهم. ولهذا كله، فبينما كانت الدولة الصهيونية تتلهف لهجرة يهود الولايات المتحدة إليها، فإنها كانت ترفض هجرة الفلاشاه حتى سنة ١٩٧٣. ولئن كانت الدولة الصهيونية تشجع هجرتهم الآن، فليس ذلك بسبب أي تغيير طرأ على هويتهم إنما بسبب تغييرات طرأت على سياسة الدولة الصهيونية، بل أيضاً على هويتها، ومدى حاجتها إلى العنصر البشري. بل إن الدولة الصهيونية بدأت ترحب بالفلاشاه موراه، مع أن هؤلاء لا يمكن اعتبارهم يهوداً مهما يتم من تطويع للكمات قسراً.

يمكن القول: إن الاختلافات بين يهود الولايات المتحدة ويهود الفلاشاه هي حقاً اختلافات جذرية في جميع المجالات. لكن قد يقال إن مثل هذه الاختلافات العميقة موجودة عادة بين المركز والأطراف في أي تشكيل حضاري أو نسق ديني، فالجماعات المسيحية المتطرفة (المورمون مثلاً) مختلفة جوهرياً عن الأشكال المركزية المسيحية، والقول نفسه ينطبق على الإسلام، وفي هذا بعض الصدق. بيد أن وضع اليهود واليهودية يظل فريداً إلى حد كبير، فالمركز في اليهودية اختفى منذ أمد طويل، الأمر الذي سمح بتطور الأطراف على نحو مستقل تماماً عن المركز، أي مركز، وأصبح للأطراف شرعية لا تقل شرعية عما يُسمَّى التيار الأساسي في اليهودية. وحتى قبل أن يختفي المركز، كان النسق الديني اليهودي يحوي تناقضات عميقة كثيرة، وعدد كبير من المفاهيم الدينية لم يستقر، فالسنهدرين (أعلى سلطة دينية يهودية في القرن الأول الميلادي وهي التي قامت بمحاكمة السيد المسيح) كان يضم الصدوقيين الذين كانوا يؤمنون بيهودية وثنية هرمية صارمة لا بعث فيها ولا إيمان، وإنما عقيدة جافة جامدة تدور حول القرابين والشعائر المنضبطة والمرتبطة بالأرض تماماً. لكن السنهدرين كان في الوقت ذاته يضم الفريسيين الذين كانوا يؤمنون بالبعث وبضرورة الإيمان باليوم الآخر (وكانوا يقومون بالتبشير

باليهودية، وهو الأمر الذي لا تعرفه اليهودية). وعلى الرغم من الاختلافات العميقة، كان الصدوقيون والفريسيون يجلسون جنباً إلى جنب في السنهدرين، ويمارسون نشاطهم الديني، ولا يمكن تفسير هذا الوضع إلا بعدم تبلور النسق الديني اليهودي قبل تحطيم الهيكل وسقوط المركز، يضاف إلى هذا ما يمكن تسميته التعريف الثنائي لليهودي على أساس عقدي وعلى أساس عرقي أسلفنا الإشارة إليه. ذلك كله سمح بظهور ما يمكن تسميته الخاصية الجيولوجية لكل من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية (أو العقائد والهويات اليهودية إن أردنا توخي الدقة) وهي أن هذه العقائد والهويات تأخذ شكل تركيب جيولوجي مكون من طبقات مختلفة، مستقلة ومتراكمة أو متجاورة، لكنها غير ملتحمة ولا متفاعلة، كما أنها لا تخضع لأية معيارية مركزية. ومع هذا، فإن هذه العقائد كافة سُمِّيَت «يهودية» وسمي كل هؤلاء «يهوداً»، وهو أمر كان مقبولاً أو يمكن تجاهله من قبل. لكن مع ظهور الدولة الصهيونية وبداية المواجهة بين هذه العقائد وتلك الهويات، تفجر السؤال الذي لا يزال يبحث عن إجابة. من هو اليهودي؟

لهذا كله، نجد أن مصطلح «يهودي» مصطلح عام ومقدرته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة إن لم تكن منعدمة بسبب عموميته وإطلاقه، ولذا فإننا نفضِّل استخدام مصطلح «جماعات يهودية»، ونحرص على استخدامه قدر استطاعتنا (إلا إذا تطلب السياق غير ذلك)، فهو مصطلح يُصنِّف هذه الجماعات اليهودية بحسبانها «يهودية»، لكنه يؤكد في الوقت نفسه عدم تجانسها باستخدام كلمة «جماعات».

- **الحاخام القائد والتناقض الديني العلماني**

توجد تناقضات عميقة تعتمل داخل التجمع الصهيوني من أهمها التناقض الديني العلماني. كما توجد تناقضات هامة في حد ذاتها مثل التناقض الإشكنازي/السفاردي، ولكنها تقل في أهميتها عن التناقض الديني العلماني. وقد عبَّر الحاخام عوفاديا يوسف عن تناقضات التجمع الصهيوني حين أصدر منذ عدة أعوام فتوى دينية شهيرة حول تأييد الانسحاب الإسرائيلي من أراضٍ عربية محتلة (حقناً للدماء وصوناً للأرواح اليهودية). وقد استدعى الحاخام مفهوماً دينياً يهودياً هو «بيكواح نيفيش» أي «فداء النفس»، أي أن النفس اليهودية أغلى من الأرض (اليهودية) ولا يصح التضحية بها.

ولكن هذا الحاخام نفسه صرح في موعظته الأسبوعية في عيد الفصح العبري هذا العام (٢٠٠٠) بأن «الإله يجب أن يدمر العرب» وطلب من أتباعه أن يكرروا وراءه عبارة «صب غضبك على الأغيار» كما طلب من الإله «أن يرد الصاع صاعين إلى العرب وأن يقطع نسلهم ويبيدهم ويذلهم ويمحو أثرهم». وفي مناسبة أخرى، صرح بأن العرب «أنجاس وأفاعٍ» وأن «الإله يندم كل يوم على أنه خلق ذرية إسماعيل».

وقد حاول بعض المتحدثين الرسميين الإسرائيليين التخفيف من حدة وقع هذه التصريحات العنصرية، فقالوا إن الحاخام يقصد «المخربين» وليس العرب على وجه العموم. وكما قال الحاخام ميخائيل ملكيئور (من حزب ميماد الديني «المعتدل» والمؤتلف مع حزب العمل) فإن «ثمة وصية في الدين اليهودي تقول لنا بعدم إدارة الخد الأيسر لمن يصفعنا على الخد الأيمن. ومن هنا، فليس المطلوب منا أن نكون إنسانيين مع الذين يريدون المس بنا تنفيذاً للوصية القائلة: الذي يأتي لقتلك بكروا بقتله».

وفي هذا السياق، لا يهمنا اتهام الحاخام يوسف بالعنصرية أو تبرئته من التهمة أو التخفيف منها، وإنما يهمنا أن نفسر سر هذا التحول حتى نفهم حركيات التجمع الصهيوني. ولفهم هذا، لابد وأن نضع اللعنات التي صبها عوفاديا يوسف على العرب في سياق أوسع من اللعنات الأخرى!

وقد أعلن الحاخام في فبراير عام ١٩٩٩ أن كل قضاة المحكمة العليا في إسرائيل نجسون يرتكبون الفاحشة (**معاريف**، ١٩ مارس/ آذار ٢٠٠٠). كما صب لعناته على النساء العلمانيات اللائي لا يمارسن شعائر الطهارة وبالتالي يلدن أطفالاً نجسين. وفي عام ١٩٩٧، صرح بأن «الرجل يجب ألا يسير بين امرأتين أو حمارين أو جملين» لماذا؟ «لأن النساء لا يعرن التوراة أي التفات، وكل من يسير بالقرب منهن يصبح مثلهن». وفي ٣ مارس/آذار ٢٠٠٠، قال الحاخام في إحدى مواعظه إنَّ يوسي ساريد (وهو من أهم شخصيات اليسار العلماني) ملعون، تماماً مثل كل أعداء اليهود وأن الإله سيجتثه من جذوره. وقد أدلى الحاخام بتصريحه هذا قبل عيد البوريم حيث يتم شنق تمثال هامان، الوزير الفارسي الذي حاول أن يبيد اليهود.

ولم تسلم المؤسسة الدينية الأشكنازية من هجمات الحاخام عوفاديا يوسف، فحينما سُئل عن أقرب العقائد الدينية إلى اليهودية قال «حركة حبد»، وهي حركة دينية إشكنازية يهودية أرثوذكسية. وهو بتعليقه هذا ينكر عليها صفة اليهودية.

الهجوم، إذن، ليس ضد العرب وحدهم وإنما ضد حزمة من المؤسسات والعقائد والجماعات البشرية، فما هي دوافع الحاخام؟ ابتداءً، يجب أن نشير إلى أن الحقيقة الأساسية في حياة الحاخام عوفاديا يوسف هي أنه مؤسس حزب شاس وزعيمه الروحي، وهو حزب ديني/ قومي سفاردي. والحاخام من مواليد العراق (١٩٢٠)، وكان رئيس المحكمة الدينية اليهودية في القاهرة (١٩٤٧ - ١٩٥٠)، والحاخام السفاردي الرئيسي لمدينة تل أبيب (١٩٥٤ - ١٩٧٢)، والحاخام السفاردي الرئيسي في إسرائيل (١٩٧٣ - ١٩٨٣).

والواقع أن بزوغ نجمه هو انعكاس لعدم تجانس التجمع الصهيوني. فهذا التجمع منقسم على نفسه عدة انقسامات: فهناك الانقسام الأكبر وهو الانقسام الديني العلماني، ولكن هناك انقساماً آخر لا يقل عن الانقسام الأول أهمية هو الانقسام الغربي الشرقي. والجدول التالي الخاص بالتقسيم على أساس ديني يبين مدى تداخل الأمور في إسرائيل:

٣,٩٪ أرثوذكس متطرفون (حاريدي)

١١,٠٪ متدينون (داتي)

٢٦,٨٪ تقليدي (ماسورتي)

٢٤,٣٪ علماني يحتفظ ببعض التقاليد (حيلوني حاميكاييم ماسورت)

٣٠,٦٪ علماني (حيلوني)

٤,٤٪ معادٍ للدين

والجدير بالذكر أن الماسورتي (التقليدي) ليس متديناً بالمعنى المعروف وإنما هو من يرى ضرورة الحفاظ على التقاليد الإثنية الدينية (نوعاً من أنواع الفولكلور)، وهو ليس بالضرورة من يؤمن بالعقيدة.

وتزداد الصورة تركيباً إن صنفنا أعضاء التجمع الصهيوني على أساس أصولهم العِرْقية. وإلى جانب هذه الانقسامات والصراعات، يوجد الصراع الأكبر، وهو الصراع العربي الإسرائيلي. لكن هذا الصراع، رغم تأثيره العميق على الصراعات الأخرى، يتطلب معالجة منفصلة.

وقد أسس الدولة الصهيونية مجموعة من يهود شرق أوربة ممن فَقَدوا إيمانهم الديني وأصبحوا ملاحدة يرون أن الصهيونية إنما هي ثورة على العقيدة اليهودية. فالرواد الصهاينة أو الآباء الصنهاينة كانوا لا يكنون أي حب أو احترام للعقائد والتقاليد اليهودية، وكانوا يرون أن دولتهم العبرية تشكل نهاية للشخصية اليهودية التقليدية وبداية للشخصية العبرية التي تصاغ على نمط الشخصية القومية العلمانية في الغرب، وعلى هذا الأساس تم تأسيس الدولة الصهيونية. ولكن الدولة الصهيونية، مع هذا، ادعت أنها «دولة يهودية» تستمد شرعيتها من كونها يهودية. مع دخول الفكر العلماني مرحلة الأزمة على المستوى العالمي وعلى مستوى إسرائيل، بدأت المؤسسة الدينية في إسرائيل تطرح نفسها بديلاً. فعلت ذلك على استحياء في بادئ الأمر. ومع تصاعد أزمة الصهيونية العلمانية، ازدادت هذه المؤسسة الدينية ثقة بنفسها وازدادت نبرتها حدة.

وتطالب المؤسسة الدينية أن تصبح الدولة اليهودية «يهودية» بالمعنى الديني وليس بالمعنى الإثني، بمعنى أن يهودية هذه الدولة يجب ألا تكمن في مجموعة من الرموز القومية الدينية (مثل النشيد القومي وأنواع معينة من الطعام... إلخ) وإنما يجب أن تتبدى في مجموعة من الممارسات والشعائر الدينية الحقيقية (مثل إقامة شعائر السبت التي يرى العلمانيون أنها قاسية للغاية وتحرمهم من عطلة نهاية الأسبوع، واتباع قوانين الكاشروت، أي الطعام المباح شرعاً، وهي كثيرة ومركبة وصعبة).

وإلى جانب الصراع الديني العلماني، يقوم الصراع السفاردي/ الأشكنازي (الشرقي/ الغربي). فمن المعروف أن التقاليد السفاردية الدينية، أي المنهاج السفاردي، كان له اليد الطولى في فلسطين، وكان على الحاخامات الأشكناز أن ينضموا إلى الجماعة الدينية السفاردية التي كان يترأسها ريشون لتسيون (الأول في صهيون) وهو حاخام سفاردي كان يختاره المجلس الحاخامي ثم توافق عليه السلطة العثمانية.

ولكن، ابتداءً من نهاية القرن التاسع عشر، ومع تزايد النفوذ الغربي، بدأت في الظهور جماعات إشكنازية مستقلة تمولها الجماعات اليهودية في أوربة وبمساعدة قناصل الدول الغربية، خاصةً روسية القيصرية التي كانت تبذل قصارى جهدها في التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية.

وبدأ سلطان الأشكناز يتزايد حتى عام ١٩١١ حينما وافق الحاخام السفاردي بن زيون أوزايل أن يقتسِمَ السلطة الدينية مع الحاخام يتسحاق كوك. ولكن ما حدث أن الحاخام كوك، وكان صهيونياً حتى النخاع، نجح تقريباً في الاستئثار بها حتى سادت التقاليد الأشكنازية، ووجد الحاخام السفاردي نفسه مضطراً للتنازل إلى أن وصل الأمر إلى أن أصبحت الثقافة السفاردية الدينية والشعبية موضع احتقار. وتحت شعار صهر المنفيين، حاولت المؤسسة الأشكنازية محو هوية السفارد.

ويقود الحاخام عوفاديا يوسف ثورة ضد هذا الوضع بشقيه الديني والإثني ليعيد الأمور إلى ما كانت عليه، وليعيد المنهاج الديني السفاردي إلى مكان القيادة ويؤكد الهوية السفاردية. فهو، إذن، يقود صراعاً حضارياً تبدى في تأسيسه لحزب شاس الذي أخذ يتعاظم نفوذه في الخارطة السياسية الإسرائيلية إلى أن حصل على ١٧ مقعداً في الكنيست في انتخابات ١٩٩٩، وبذلك أصبح ثالث حزب ومنافساً قوياً لحزب الليكود على القواعد الشعبية الشرقية التي يرتكز إليها والتي استطاع من خلالها مناحم بيجين أن يحقق ثورته الانتخابية عام ١٩٧٧ حينما أسقط المؤسسة العمالية وحل محلها.

ويحاول الحاخام عوفاديا يوسف تأكيد الهوية اليهودية الدينية الإثنية الشرقية، وعلى هذا فإن صراعه الحضاري يتم على المستويين الديني والإثني. وهو لم يكتف بابتزاز الحكومات الإسرائيلية المتتالية لتمويل نظامه التعليمي أو مؤسساته الاجتماعية بل نجده يحاول الآن أن يلعب دوراً سياسياً قيادياً حتى يمكنه المشاركة في السلطة وحتى يمكن إعادة تقسيم الثروة القومية «اليهودية».

وفي إطار هذا المناخ السياسي العام المشبع بالتفكير العنصري ضد العرب (خاصةً بعد تصاعد الانتفاضة) والمشبع بالخوف منهم، يتم التحرك في إسرائيل. ولعل تخلي الحاخام عوفاديا يوسف عن موقفه القديم بخصوص «فداء النفس»

بمثابة محاولة من جانبه لأن يثبت للجمهور الإسرائيلي أن حزبه الشرقي قد تأسرل تماماً وأنه من ثمَّ قادر على قيادة الدولة الصهيونية، ولعل الهجوم على العرب يكسبه قدراً كبيراً من الشرعية.

- **خرافة الشعب اليهودي الواحد**

يضم التجمع الصهيوني جماعات يهودية وغير يهودية تجعل من أسطورة «أتون الصهر» أكذوبة كبرى. وكان علم الاجتماع الإسرائيلي يذهب إلى أن التجمع الصهيوني يضم مجموعتين أساسيتين هما الأشكناز والسفارد ومجموعات صغيرة أخرى. وهذا في حد ذاته تزييف؟ فالمجموعة الأشكنازية ليست كياناً متجانساً، إذ تضم داخلها يهوداً من شرق أوربة ويهوداً من وسط أوربة ويهوداً من غربها، بالإضافة إلى يهود من الولايات المتحدة وكندة وأسترالية وأمريكة اللاتينية. وتضم كل من تلك الجماعات أقليات مختلفة، فجماعة يهود غرب أوربة تضم يهوداً من فرنسة، وهؤلاء مختلفون عن يهود هولندة ويهود إيطالية ويهود إنجلترة.

واصطلاح «سفارد» هو الآخر اصطلاح عريض، فهو اصطلاح ديني ووثني في الوقت ذاته، يشير إلى اليهود الذين يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة (ومن بينهم يهود هولنديون وإيطاليون وإنجليزيون) ولكنه يشير أيضاً إلى اليهود الذين جاؤوا من شبه جزيرة أيبرية. وهناك كثير من الدراسات التي تبين عمق التفرقة العنصرية ضد اليهود السفارد في الدولة الصهيونية التي أسسها الأشكناز وتهيمن عليها المؤسسة الأشكنازية. وتزداد الصورة اختلاطاً حينما نتعامل مع «المجموعات الصغيرة» الأخرى، ومنها مثلاً:

يهود الهند:

وهي جماعات يهودية متباينة، من أهمها «يهود كوشين» و«بني إسرائيل» واليهود البغدادية، وهاجر عدد من هؤلاء إلى إسرائيل، وتم توطينهم في مدن التنمية خصوصاً تلك الموجودة في النقب والمنطقة الجنوبية مثل بئر سبع وعسقلان وعراد إضافة إلى بيسان في غور الأردن. ويعيش قسم آخر في المدن الكبرى الثلاث: القدس وتل أبيب وحيفا. ويعيش عدد قليل للغاية في بعض الكيبوتسات (وهي مؤسسات أشكنازية بالدرجة الأولى). ويعاني يهود الهند (خاصة «بني

إسرائيل») من التفرقة العنصرية، فالمؤسسة الحاخامية لم تعترف بهم يهوداً، لأنهم فقدوا صلتهم باليهودية الحاخامية ودخلت على عباداتهم كثير من الشعائر الهندوكية.

يهود جورجية:

وهم اليهود الذين كانوا يقطنون في دولة جورجية. وهؤلاء ابتعدوا عن تقاليد اليهودية الحاخامية لأنهم، على سبيل المثال، لا يحافظون على قوانين الطعام الشرعية ولا يعرفون كثيراً من الشعائر اليهودية. وقد هاجر عدد كبير منهم إلى إسرائيل، خاصة في أوائل السبعينيات. وهم يعانون أيضاً من التفرقة العنصرية، وقد أصبحوا من أهم أعمدة الجريمة المنظمة في الدولة الصهيونية وتخصصوا في تزييف النقود.

اليهود القراؤون:

وهم أتباع فرقة دينية يهودية تأسست في العراق في القرن الثامن الميلادي وانتشرت أفكارها بين كل الجماعات اليهودية في العالم. ويُلاحظ أثر التفكير الديني الإسلامي على فكر القرائين. ويتضح هذا في أن القرائين جعلوا التوراة (النص المقدس المكتوب) المرجع الأول والأخير في الأمور الدينية كافة، ولذلك هاجموا التلمود، وفنَّدوا التراث الحاخامي بعدِّه اجتهاداً من وضع البشر وليس نصاً إلهياً ملزماً. وهناك اختلافات أساسية بين اليهودية القرائية واليهودية الحاخامية، ولعل من أهمها أن القرائين يؤمنون بأن تشتت اليهود في العالم هو شيء إيجابي لأنه يطهرهم من ذنوبهم، ومن ثمَّ فهم لا يؤمنون بضرورة العود إلى أرض الميعاد، أي أنه لا يوجد تيار صهيوني داخل اليهودية القرائية، وعندما أُعلنت الدولة الصهيونية كان القراؤون معادين لها، ومع هذا، كان من شأن السياسات التي انتهجتها بعض الحكومات العربية، والنابعة من عدم إدراك الاختلافات بين اليهودية الحاخامية واليهودية القرائية، أن اضطرت القرائين إلى الهجرة إلى إسرائيل، ويبلغ عددهم نحو عشرين ألفاً. ويترأس الجماعة القرائية حاخام أكبر متنقل، ولا يزال انتماؤهم الديني القرائي قوياً، ومن ثم تستمر خلافاتهم مع اليهود الحاخاميين، وهو الأمر الذي ينعكس على العلاقات بينهم داخل المستوطنات المشتركة.

العبرانيون السود:

وهم فريق من الأمريكيين السود يؤمنون باليهودية ويلتزمون بتطبيق الشريعة اليهودية بتشدد يفوق تشدد اليهود البيض وإن كانت لهم رؤية مختلفة تماماً عن الرؤية الصهيونية. إذ يؤكد العبرانيون السود أنهم هم وحدهم سلالة اليهود القدامى، وأن أنبياء اليهود كانوا من السود، وأن إسرائيل القديمة كانت دولة سوداء أيضاً، وأن قناة السويس ما هي إلا ثغرة صنعها الإنسان الأبيض لفصل إسرائيل عن إفريقية السوداء. وقد دخل العبرانيون السود إلى إسرائيل بتأشيرات سياحية ثم استقروا في إسرائيل، ولكن المؤسسة الصهيونية رفضت إصدار أية بطاقات رسمية لهم، وهم يعاملون معاملة أسوأ من معاملة الفلاشاه، فوسائل الإعلام الإسرائيلية تشكك في يهوديتهم وترفض كثير من المدن الإسرائيلية توطينهم فيها. وقد تم توطينهم في ديمونة في أكشاك مؤقتة. وتتسم أسر العبرانيين السود بالخصوبة العالية فعدد أطفال الأسرة يصل إلى ١٠ أطفال في المتوسط، بل وهناك أسر وصل عدد أطفالها إلى ٢٠ (**الجيروساليم بوست الدولية** ٢٨ يونيو/ حزيران ٢٠٠٢)، ولذا تعد المنطقة التي يعيش فيها العبرانيون السود من أكثر المناطق ازدحاماً في إسرائيل.

العمال الوافدون:

لعلّ من المشكلات الجديدة التي يواجهها الجيب الصهيوني مشكلة العمال الوافدين، وهي مشكلة آخذة في التفاقم. فقبل اندلاع انتفاضة الأقصى كان العمال الفلسطينيون يذهبون إلى فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٤٨ فيؤدون عملهم ثم يعودون إلى منازلهم في الضفة أو القطاع. ولكن مع اندلاع الانتفاضة أصبحت هذه الهجرة اليومية مصدر تهديد أمني، فأوقفتها السلطات الإسرائيلية. ويدأ الكيان الصهيوني يفتح أبوابه للعمال من الفلبين وتركية، وإن كان يعتمد أساساً على العمال من شرق أوربة. وقد بلغ عددهم حوالي ٣٠٠ ألف، وهي كتلة بشرية كبيرة مقيمة بشكل دائم داخل التجمع الصهيوني، ولذا فهي تهدد أمنه الاجتماعي، إذ بدأ أعضاء هذه الكتلة وغالبيتهم الساحقة من الذكور، في الزواج من الإسرائيليات. والأدهى من ذلك أن كثيرين منهم أعلنوا استعدادهم للتهود والحصول على الجنسية الإسرائيلية (بكل ما يحمله ذلك من مزايا اقتصادية). وهم في هذا لا يختلفون كثيراً عن

المهاجرين السوفييت من غير اليهود وأشباه اليهود الذين يعلنون أنهم يهود من أجل الحصول على مستوى معيشي أفضل.

فما الذي يجمع إذن بين يهود الهند ويهود جورجية ويهود القرائين والعبرانيين السود والسفارد بكل انتماءاتهم الدينية والعرقية المختلفة؟ وهل يمكن، والحال كذلك، الحديث عن «أتون الصهر» أو عن «الشعب اليهودي الواحد»؟

- **تهجير الفلاشاه**

من أكثر الشواهد على عدم تجانس ما يسمى بالشخصية اليهودية يهود الفلاشاه. ويتركز الفلاشاه أساساً في شمال إثيوبية في المنطقة الواقعة بين نهر نازي في الشمال والشرق، وبحيرة تانا والنيل الأزرق في الجنوب، والحدود السودانية في الغرب. وهم يعيشون في قرى صغيرة مقصورة عليهم تضم كل قرية نحو خمسين أو ستين عائلة، وتوجد أهم القرى بجوار مدينة جوندار. كما يوجد داخل جوندار نفسها جماعة صغيرة من الفلاشاه تعيش في حي مقصور عليها. وتوجد قرى الفلاشاه عادة على قمة أحد التلال القريبة من النهر. وتتكون كل قرية من مجموعة من الأكواخ المستديرة يغطيها القش، ويخصص أحد الأكواخ معبداً لهم، كما يخصص كوخان آخران بعيدان عن القرية لعزل النساء وقت الطمث وبعد الإنجاب.

ولا تختلف ملامح الفلاشاه كثيراً عن ملامح غيرهم من الإثيوبيين، كما لا يمكن الحديث عن نمط فلاشي متميز إذ اختلطت فيهم الدماء الحامية والسامية. ولذا، لا توجد اختلافات في لون الجلد وملامح الوجه. ولا يختلف أسلوب حياتهم، من معظم الوجوه، عن أسلوب حياة جيرانهم، كما أنهم يرتدون نمط الثياب نفسه ويأتزرون بالعباءة المسماة «الشامة». وهم يعملون أساساً بالزراعة عمالاً أجراء، كما يعملون في بعض الحرف الأخرى مثل صناعة الفخار والغزل والنسيج وصنع السلال، كما يعملون حدادين وصاغة وحائكي ملابس، ويعمل كثير منهم الآن بحرفة البناء في المدن.

ويتحدث معظم الفلاشاه الأمهرية. وثمة أقلية منهم تعيش في تيجري وفي إريترية وتتحدث اللغة التيجرينية. وهناك أقلية أخرى في الجزء الشمالي تتحدث لهجات قبائل الأجاو، أما أدبهم، فكله مكتوب باللغة الجعيزية أو الإثيوبية (لغة

إثيوبية الكلاسيكية) وهي أيضاً لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية. والفلاشاه يجهلون العبرية تماماً، فمعرفتهم بها مقصورة على بضع كلمات لا يدركون هم أنفسهم أنها من هذه اللغة.

والتراث الشعبي للفلاشاه، كما هو الحال في إفريقية، ثري للغاية، فلهم أغان ورقصات عديدة. كما إن لهم تاريخهم الأسطوري. ويمارس الفلاشاه طقس الزار لطرد الأرواح. ويقال إن هذا الطقس بدأ في إثيوبية وانتشر منها إلى بعض بلاد الشرق الأوسط. كما أنهم يقومون بصنع الأحجبة والتعاويذ اتقاء للعيون الشريرة. وبسبب اشتغالهم حدادين، يعدُّهم أهل القرى من السحرة.

وتستند عبادة الفلاشاه إلى العهد القديم الذي لا يعرفونه إلا باللغة الجعيزية. ويضم العهد القديم الذي يعرفونه كل الكتب المعتمدة وبعض كتب الأبوكريفة غير المعتمدة مثل: كتاب يهوديت، وحكمة سليمان، وحكمة بن صيرا، وكتاب المكابيين الأول والثاني، وكتاب باروخ. ولم يصل التلمود إلى الفلاشاه، وغني عن الذكر أن التلمود هو العمود الفقري لليهودية الحاخامية وعصبها، وينطوي عدم الاعتراف به على عدم اعتراف بها.

وهناك كثير من العناصر اللاهوتية والحضارية المشتركة بين المسيحيين واليهود في إثيوبية. فبعض الكتب الدينية متداولة بين الفريقين معاً، واللغة الجعيزية هي لغة العبادة بين اليهود والمسيحيين هناك، كما أن أسطورة الأصل مشتركة مع تنويعات خفيفة. ويمكن أن نضيف هنا أن الفلاشاه ليس لديهم حاخامات وإنما قساوسة يطلق على واحدهم لفظة «قس». كما أنهم ينتسبون، مثل الكهنة القدامى في يهودية ما قبل التهجير، إلى هارون. وينتخب الكهنة في كل منطقة كاهناً أعظم لكي يصبح زعيماً دينياً للجماعة، ويصبح من صلاحياته ترسيم الكهنة.

ويقدم الكهنة القرابين في المناسبات الدينية المختلفة. ويعيش بعض هؤلاء الكهنة في الأديرة رهباناً وراهباتٍ على النمط المسيحي، ويطلق عليهم لقب «ناذير» وهي لفظة عبرية تعني «الذي نذر نفسه للشعائر الدينية وانقطع لها». كما أن بعضاً آخر يعيش على طريقة النساك في الغابات والصحارى وعلى حواف القرى. ومن الطريف أن طقس «الاعتراف» في المسيحية موجود عند الفلاشاه، فهم يدلون باعترافاتهم إلى الكاهن من آونة إلى أخرى وعند نهاية اليوم. وإلى جانب الرهبان

والكهنة، يوجد علماء يستخدمون صحن المعبد لتعليم الدين. ويسمي الفلاشاه مكان العبادة الخاص بهم «المسجد» ويخلعون النعال حين يدخلون للصلاة. ويبدو أن فريقاً من الفلاشاه تأثر بالتراث الإسلامي وقد تحول بعضهم إلى الإسلام عند وصوله إلى إسرائيل وقد كتب أحد الصحفيين الإسرائيليين مقالاً بعنوان «الفلاشاه السنيون» يرصد فيه هذه الطائفة.

ويقيم الفلاشاه شعائر يوم السبت بصرامة غير عادية، فيمتنعون عن الجماع الجنسي في ذلك اليوم، ويقضي الرجال يومهم في الصلاة. لكن التحريمات الخاصة به مختلفة من بعض الوجوه عن تحريمات اليهود الأرثوذكس. فهم مثلاً لا يعدُّون استخدام النور الكهربائي من المحرمات. كما أنهم يحتفلون بعدد من الأعياد أكبر من المنصوص عليه في الشريعة اليهودية، وهم يحافظون على شعائر الزواج والختان اليهودية، ولكنهم يختنون البنات على عادة بعض الشعوب الإفريقية. وهم يحافظون كذلك على التحريمات الخاصة بالطعام، ولكنهم لا يستعملون أواني منفصلة للمأكولات من الحليب واللحم على غرار الجماعات اليهودية الأخرى.

ومن ناحيتهم، فإن المسيحيين الإثيوبيين (هم الآخرون) يختنون أولادهم الذكور، ويمتنعون عن تناول المأكولات المحرمة عند اليهود. كما أنهم، ولفترة طويلة، كانوا يتخذون السبت يوم راحة لهم بدلاً من الأحد. ومن الجوانب اليهودية الأخرى في المسيحية الإثيوبية، التأكيد على أهمية العهد القديم في الكتاب المقدس. وكذلك يلاحظ وجود الرموز المتعلقة بسفينة العهد في كثير من الكنائس المسيحية الإثيوبية.

كما اشتهر الفلاشاه بمغالاتهم في التطهر، ولذا فهم يمتنعون قدر الإمكان عن لمس الغرباء. وإذا حدث أن لمس أحدهم غريباً، فإن عليه أن يتطهر (ولذلك توجد قراهم على مقربة من الأنهار حتى يمكنهم التطهر دائماً). ومن هنا، فإن الفلاشاه الذين يعيشون في جوندار، ويفرض عليهم أسلوب حياتهم الاحتكاك الدائم بالأجانب والغرباء، يعدون «غير طاهرين» في نظر بقية الفلاشاه.

وتتبدى مغالاة الفلاشاه في قوانين الطهارة في تعاملهم مع النساء. فبعد أن تلد المرأة ولداً، فإنها تعد غير طاهرة مدة أربعين يوماً. وإن وضعت بنتاً، فإن المدة

تتضاعف. وبعد نهاية المدة، تحلق المرأة شعر رأسها وتغطس في الماء وتغسل ملابسها قبل أن تعود إلى منزلها. وأحياناً يحرق الكوخ الذي قضت فيه فترة العزل.

والمعبد هو مركز الحياة الدينية بين الفلاشاه، والذي تطلق عليه كلمة «مسجد» أو «بيت إجزا بهير» أو «بيت الإله». ويستخدم الفلاشاه اللغة الجعيزية في الصلاة، ويقضون معظم يوم السبت وأيام الأعياد في الصلاة داخل المسجد، ويقفون لتناول الطعام في مأدبة جماعية. كما أنهم يغنون ويرقصون في الأعياد.

ويؤمن الفلاشاه بإله واحد ويؤمنون بالبعث والعالم الآخر والثواب والعقاب، كما يؤمنون بعقائد اليهود الأخرى، كإيمانهم بأنهم من الشعب المختار وأنه سيظهر بينهم ماشيح. ويبدو أن بعض الفلاشاه ممن تقع قراهم على مقربة من قرى المسلمين قد استوعبوا أيضاً عناصر إسلامية في عقيدتهم، وربما كان بينهم مسلمون حقاً. إذ ذكرت الصحف الإسرائيلية أن بعضهم قد اعتنق الإسلام في إسرائيل، كما أوردت أن بعضهم، أثناء زيارة حائط المبكى، سمع صوت الأذان فاتجه إلى المسجد لإقامة الصلاة. كما ذكرت إحدى الصحف الإسرائيلية أن بعضهم أقام الصلاة على طريقة المسلمين في المطار فور وصوله إلى إسرائيل وقد وصفتهم الصحيفة بأنهم «فلاشاه سنيون».

وقد احتفظ الفلاشاه بهويتهم المتميزة، وهي هوية إثنية إفريقية استمدوها من بيئتهم ومن طبيعة التشكيل الحضاري الإفريقي. ويرى بعض المتخصصين في مجتمع الفلاشاه أنهم من قبيلة الأجاو، وأنهم عرق إثيوبي صاف، أما تقاليدهم وعاداتهم فتشمل خليطاً من المعتقدات والطقوس الوثنية واليهودية والمسيحية وربما الإسلامية. وقد نفى أحد المؤرخين صفة اليهودية عنهم ووصفهم بأنهم مسيحيون تمسكوا لسبب أو آخر بالعهد القديم بدلاً من العهد الجديد. وهو يرى أن علاقات الفلاشاه، الحضارية والعرقية، مع جيرانهم المسيحيين الإثيوبيين، تتخطى تلك التي يشاركون بها يهود العالم. كما أن بعض علماء الأنثروبولوجية الغربيين يصنفونهم «مسيحيين دخلت على عقائدهم عناصر يهودية». وقد تكون هذه الطبيعة المختلطة لهوية الفلاشاه هي ما حدا بأحد المسؤولين في الوكالة اليهودية في أوائل الخمسينيات إلى إسداء النصح لمن فكر منهم في الهجرة إلى إسرائيل بالتنصر وحل مشكلتهم بهذه الطريقة بدلاً من الهجرة إلى إسرائيل.

ويلقي تعريف الفلاشاه في الموسوعة اليهودية كثيراً من الشك على انتمائهم الديني، إذ جاء فيه ما يلي: «الفلاشاه جماعة إثنية في إثيوبية تزعم أنها من أصل يهودي، ومرتبطة بنوع من أنواع الديانة اليهودية يستند إلى العهد القديم والكتب الخارجية (أبو كريفا)، أي الكتب غير المعتمدة، والكتب الدينية الأخرى التي ظهرت بعد الانتهاء من تدوين العهد القديم».

والواضح أن هذا التعريف يرى أنهم من أصول إثنية ليست يهودية بالضرورة، وأنهم ليسوا يهوداً وإن كانوا «يزعمون» أنهم من أصل يهودي. كما أن ما يعرفونه عن اليهودية يختلف عن اليهودية التي يتبعها معظم يهود العالم والسائدة في الدولة الصهيونية. ففي أي شيء تختلف يهودية الفلاشاه عن اليهودية الحاخامية؟

• الفلاشاه وأزمة المستوطن الصهيوني

رغم الاختلاف العميق بين يهود العالم ويهود الفلاشاه، فقد تم تهجيرهم باسم الهوية اليهودية العالمية. ومن الواضح أنهم سيفقدون في إسرائيل هويتهم الإفريقية ولن يكتسبوا هوية جديدة، لأن المجتمع ينظر إليهم بعين الشك بسبب لون جلدهم وتوجههم الثقافي بل ومعتقداتهم الدينية، وقد شككت دار الحاخامية في يهوديتهم في بادئ الأمر، ثم عادت واعترفت بهم يهوداً تمهيداً لعملية التهجير. ومع هذا، لم يكن الاعتراف بهم كاملاً، فيهوديتهم حسب التصور الديني ناقصة. ولذا، طلب منهم عند وصولهم أن يعاد تختينهم وأن يأخذوا حماماً طقسياً لتطهيرهم. ويلاحظ أنه لا تصدر لهم بطاقة هوية إلا بعد هذه الطقوس، بل ويتسلمها بعضهم دون تحديد الديانة حتى بعد الختان والاستحمام الطقوسي. ومن الطريف أن هؤلاء الفلاشاه، المشكوك في يهوديتهم، ذهلوا من علمانية المجتمع الصهيوني وعدم حرصه على الشعائر اليهودية إذ لاحظوا أن يهود الكيان الصهيوني لا يلتزمون بشعائر السبت.

ولكن الرفض على أساس إثني وعرقي كان أعمق وأشد حدة. فعلى سبيل المثال، رفضت مدينة إيلات (عدد سكانها عشرون ألفاً) تزويد المستوطنين الفلاشاه بالماء والكهرباء، كما رفض المجلس المحلي لمستوطنة يروحام إدخال الفلاشاه إليها. وفي صفد، تظاهر السكان ضد إعطاء المهاجرين من إثيوبية بيوتاً، كما هدد أولياء أمور الطلاب في المدارس الدينية بالامتناع عن إرسال أطفالهم إليها إذا

استمر أطفال الفلاشاه معهم. وشكا رئيسا بلدية عكا ونهارية من توطين الفلاشاه في بلدتيهما بحجة أن هذه مدن اصطياد سياحية ووجود الفلاشاه لا يساعد كثيراً على اجتذاب السياح، بل يخلق التوتر ويزيد تفاقم ظاهرة العنصرية في المدينة. وقد كشف النقاب مؤخراً أن بنك الدم الإسرائيلي أخذ يتخلص من مخزون الدم الذي تبرع به يهود الفلاشاه، خوفاً من أن يكون ملوثاً بفيروس مرض الإيدز.

وقد تسبب وصول الفلاشاه إلى إسرائيل في تقويض مقولة الشعب اليهودي الواحد إلى حد كبير. ولنتخيل يهودياً أمريكياً أشقر من أتباع المذهب الإصلاحي يقف بجوار يهودي من الفلاشاه، أسود البشرة يرقص في مسجده اليهودي في أعياده الإفريقية، فهل سيقتنع الاثنان بأنهما ينتميان إلى شعب واحد.

بدأت الدولة الصهيونية تتحرك نحو تهجير الفلاشاه مورا. وهم فلاشاه تنصروا بكامل إرادتهم منذ مدة تتراوح بين قرنين وثلاثين عاماً. ويبدو أن الفلاشاه أنفسهم يعدُّون الفلاشاه مورا (أياً كان نوعهم) غير يهود. ولذا، فإن أياً منهم، إذا أراد العودة إلى حظيرة الدين اليهودي، تطبق عليه الشعائر الخاصة بمن يريد التهود، فيحلق شعر رأسه وجسمه، وهى شعائر لا تطبق إلا على غير اليهود.

ويمكن طرح السؤال التالي: ما الذي يمكن أن تربحه الدولة الصهيونية من تهجير ما بين ٥٠ ألفا و٦٠ ألف يهودي من إثيوبية (العدد الكلى للفلاشاه في إسرائيل)، خصوصاً أنها كانت تدرك بعض المشاكل التي ستنجم عن هذه الهجرة؟ يمكننا ابتداء استبعاد العنصر الإنساني، فلو كان الدافع إنسانياً لانصب اهتمام الكيان الصهيوني على تحسين أحوالهم في بلادهم، وعلى الدفاع عن حقوقهم هناك، ولشمل كل ضحايا المجاعة في إثيوبية. ولعل أول الدوافع الحقيقية هو الدافع المالي، فالقصص المثيرة عن تدهور حال يهود إثيوبية تؤدي إلى تدفق التبرعات. كما أن هناك مردوداً إعلامياً. فإسرائيل دولة معروفة للعالم الغربي بعنصريتها. ولذا فإن إنقاذ يهود الفلاشاه (السود.. الأفارقة) قد يحسن صورتها بعض الشيء.

وهذه الدوافع المادية والمالية والإعلامية دوافع حقيقية ولكنها سطحية. أما الدافع الحقيقي الكامن وراء تهجير الفلاشاه فهو الأزمة العقائدية والسكانية العميقة للنظام الصهيوني. فالكيان الصهيوني يعانى من نضوب مصادر الهجرة اليهودية، إذ إنَّ يهود الغرب المتحمسين يكتفون بإرسال الشيكات وبرقيات التأييد الحارة

ولا يهاجر منهم إلا قليل نادر. أما يهود الاتحاد السوفييتي فهم، بالمثل، يؤثرون الهجرة، إن هاجروا، إلى الولايات المتحدة، وبعد الهجرة السوفييتية اليهودية الأخيرة، جف منبع شرق أوربة، وقد كان المصدر التقليدي للمستوطنين، لكن العنصر البشري أساسي بالنسبة إلى الاستعمار الاستيطاني الإحلالي، والفلاشاه (والفلاشاه مورا) سيساهمون بلا شك في سد هذا العجز، فالدافع وراء تهجير الفلاشاه والفلاشاه مورا هو تعطش آلة الحرب والاستيطان الصهيونيتين للمادة البشرية، وستساعد هجرتهم الاستيطانية هذه الآلة على الدوران. كما أن الفلاشاه زراع مهرة، وقد يمكنهم زراعة الأرض الفلسطينية التي استولت عليها الدولة الصهيونية، خصوصاً بعد عزوف المستوطنين الصهاينة عن فلاحتها كما أن المؤسسات الزراعية الصهيونية تعاني من ندرة الأيدي العاملة اليهودية وتضطر إلى استئجار عمالة عربية، وقد يبطئ وجود الفلاشاه هذه العملية قليلاً، ويلاحظ أيضاً أن الوظائف الدنيا في الهرم الإنتاجي أصبحت شاغرة بعد أن حقق اليهود الشرقيون شيئاً من الحراك الاجتماعي، وبدأ العرب في ملئها، الأمر الذي أدى إلى تزايد اعتماد المستوطن الصهيوني على العمالة العربية، وهو أمر يهدد أمنه، ولعل المادة البشرية الوافدة، يهودية كانت أم غير يهودية، تسد هذه الثغرة.

ومن الواضح أن تهجير الفلاشاه هو تعبير عن مقدرة الصهاينة على الحركة والإنجاز ولكنه في الوقت نفسه تعبير عن أزمة صهيونية. وهي عملية تحل بعض المشاكل مؤقتاً، ولكنها ستفجر بعض المشاكل الأخرى، وبكل حدة، داخل الكيان الصهيوني. وقد تفجرت مرة أخرى مع وصول الفلاشاه مسألةُ: من هو اليهودي. كما أنها قد تساعد على التشكيك في المقولة الصهيونية الخاصة بوحدة الشعب اليهودي، إذ يأتي الفلاشي بملامح وقيم وعادات مختلفة.

- **تهجير الفلاشاه مورا: حل الأزمة بمزيد من الأزمات!!**

مع تفاقم الأزمات داخل الكيان الصهيوني، ولاسيما الأزمة السكانية ونضوب مصادر الهجرة اليهودية التقليدية، بدأ التفكير في تهجير أعداد من «الفلاشاه مورا» من إثيوبية للاستيطان في فلسطين المحتلة. ويثير هذا المسعى كثيراً من التساؤلات عن واقع الجماعات اليهودية في العالم وعن طبيعة الدولة الصهيونية وادعائها بأنها «دولة يهودية»، فضلاً عن السؤال التقليدي عن «من هو اليهودي؟».

ولكن يجدر في البداية إلقاء الضوء على هذه المادة البشرية الجديدة التي تستهدفها المساعي الصهيونية، وعلاقتها باليهودية. فكلمة «فلاشاه» تعني «الغرباء» أما «مورا» فإنها تعني «الأغيار» أي غير اليهود. فإذا كانت هناك شكوك قوية حول يهودية «الفلاشاه»، فإن «الفلاشاه مورا» مشكوك في يهوديتهم حتى من «الفلاشاه» أنفسهم. ويتجلى ذلك بصفة خاصة إذا أراد أحد أفراد «الفلاشاه مورا» العودة إلى حظيرة الدين اليهودي، حيث تُطبق عليه الشعائر الخاصة بمن يريد التهود، مثل حلاقة الرأس، وهي شعائر لا تُطبق إلا على غير اليهود. ويرجع ذلك إلى أن «الفلاشاه مورا» تنصروا على أيدي المبشرين المسيحيين قبل حوالي قرنين من الزمان. وتحاول الصحافة الإسرائيلية تبرير عملية تهجير هؤلاء، فتصنفهم على أنهم من «يهود المارانو»، أي اليهود المتخفين، وهو اصطلاح يُطلق في الأدبيات اليهودية على اليهود الذين يتظاهرون بتغيير دينهم ولكنهم يستمرون في ممارسة شعائر دينهم اليهودي في الخفاء، ويبلغ عدد «الفلاشاه مورا» حوالي ١٧٥ ألفاً، منهم ١٥ ألفاً ممن تنصروا واندمجوا في المجتمع المسيحي، ولا تربطهم باليهودية سوى جذورهم الفلاشية (العرقية).

وكانت المؤسسة الحاخامية في الكيان الصهيوني (والعناصر الأخرى التي تعارض هجرة «الفلاشاه مورا») تشير إلى أن أفراد هذه الجماعة لم يتنصروا قسراً، بل تحولوا عن يهوديتهم لتحقيق المغانم الاقتصادية والحراك الاجتماعي وللاستفادة من المعونات المالية التي يقدمها المبشرون، وأنهم يودون الهجرة إلى إسرائيل للأسباب نفسها. ومن ثم، فإن دوافعهم ليست دينية ولا أيديولوجية، فهم إذن مرتزقة.

ولكن يبدو أن بعض العناصر الدينية في إسرائيل لا تُمانع في الوقت الحاضر في هجرتهم، كما بدأت الولايات المتحدة تدعو إلى تهجيرهم. والدافع وراء هذا، على ما يبدو، هو تعطش المستوطن الصهيوني للمادة البشرية، خاصة بعد أن أدت انتفاضة الأقصى إلى تراجع عدد المهاجرين اليهود من الخارج من ٦١ ألف شخص عام ٢٠٠٠ إلى حوالي ٢١ ألف شخص فقط في عام ٢٠٠٣ (موقع www.moia.gov.il). وفي المقابل، تتزايد أعداد النازحين والراغبين في النزوح من الكيان الصهيوني، حيث تشير الإحصائيات إلى أن حوالي ١٩٣ إسرائيلياً غادروا البلاد خلال شهر فبراير/ شباط الماضي، ويمثل هذا الرقم زيادة بنسبة ٢٠ بالمئة

عن مثيله في الفترة نفسها من العام السابق (موقع www.IsraelNN.com، ١٧ مارس/ آذار ٢٠٠٤)، ويفضل معظم هؤلاء الاستقرار في أوربة أو أمريكة الشمالية. كما يُلاحظ أن الوظائف الدنيا في الهرم الإنتاجي أصبحت شاغرة بعد أن حقق اليهود الشرقيون شيئاً من الحَراك الاجتماعي، وبدأ العرب في ملئها، وهو الأمر الذي أدى إلى تزايد اعتماد المستوطن الصهيوني على العمالة العربية، مما يهدد أمنه. ولعل المادة البشرية الوافدة، يهودية كانت أم غير يهودية، تسد هذه الثغرة.

ويبدو أيضاً أن المؤسسة الحاخامية قد غيرت موقفها التقليدي من «الفلاشاه مورا». فقد صرح الحاخام السفاردي الأكبر أن الفلاشاه مورا «يهود كاملون بلا شك»! ولهذا بدأت المؤسسة الحاخامية في حثهم على الهجرة وتهويدهم وضمهم إلى صفوف اليهود الأرثوذكس حتى يتزايد عددهم (مع أن اليهودية الأرثوذكسية لا تشجع التهود).

وتوجد جماعة تسمى «مؤتمر شمال أمريكة بخصوص يهود إثيوبية» North American Conference on Ethiopian Jewry تعمل على تشجيع الهجرة، وهي تدير مجمعاً ضخماً في أديس أبابا وآخر في جوندة يهتم بتعليم أعضاء جماعة الفلاشاه مورا شعائر الدين اليهودي قبل تهجيرهم إلى فلسطين المحتلة. وتُعقد في المجمع حلقات دراسية لتعلم العبرية، كما يضم معبداً يهودياً.

وقد أعلن سلفان شالوم، وزير خارجية إسرائيل، أنه سيسرع بعملية تهجير وتوطين ٢٤ ألفاً من جماعة «الفلاشاه مورا» الذين يعيشون في مجمعات «مؤتمر شمال أمريكة» في أديس أبابا وجوندة، كما صرح وزير الداخلية (وهو من حزب شاس الديني) أنه سيساهم في عملية الإسراع هذه.

وقد أدى نشاط «مؤتمر شمال أمريكة» إلى اندلاع نقاش حاد في إسرائيل بين العلمانيين (ومعظمهم من الأشكناز البيض) والمتدينين. فقد اتهم العلمانيون المؤتمر بأنه «يخلق اليهود تخليقاً، وأنه يغري المسيحيين الإثيوبيين بالخروج من قراهم، بأن يعدهم بالطعام والأموال وبالهجرة إلى فلسطين في مقابل اعتناق اليهودية الأرثوذكسية. كما شكك بعض المسؤولين في صدق ادعاءات «الفلاشاه موراه» بأنهم يهود. وصرح وزير الهجرة والاستيعاب أنه لا يمكن لإسرائيل استيعاب هذا العدد، وأن توطينهم قد يبدأ حلقة مفرغة من تصاعد هجرة «الفلاشاه موراه»،

فالمهاجرون الجدد سيطالبون بإحضار باقي أفراد عائلاتهم من إثيوبية وهي عملية لا نهاية لها، كما قال أحد المسؤولين. ويطالب هؤلاء المعارضون بإغلاق مجمعات أديس أبابا وجوندة ووضع نهاية لهجرة «الفلاشاه مورا».

ويرد أعضاء «مؤتمر شمال أمريكة» بالقول إن «الفلاشاه مورا» يشعرون في أعماق أعماقهم أنهم يهود (ومن الطريف أن أحد تعريفات اليهودي تقول إنه الشخص الذي يشعر أنه كذلك، وكأن الشعور الذاتي يعادل الكيان الموضوعي).

ويعود اعتراض المتحدثين باسم اليهود الأشكناز على هجرة «الفلاشاه مورا» إلى خشيتهم من تزايد عدد اليهود الأرثوذكس، فضلاً عن خوفهم (المسكوت عنه) من تزايد عدد السود والشرقيين بشكل عام، بحيث يصبح اليهود الأشكناز في نهاية الأمر مجرد أقلية في الدولة الصهيونية. ووضع الأقلية هذا هو أكثر ما يخشونه، فقد تركوا أوطانهم الأصلية واستوطنوا في فلسطين المحتلة ليصبحوا أغلبية!

ولكن ما يهمنا نحن العربَ، أن هجرة «الفلاشاه مورا» تفاقم من أزمات التجمع الصهيوني. ولو أُحسن فهم هذه الأزمات لأمكن توظيفها في عملية تفكيك الجيب الاستيطاني الصهيوني.

- **أبناء يهود اليمن: ضحايا في أرض الميعاد!**

الصهيونية ... ذلك الحلم الرومانسي بالعودة السعيدة إلى أرض الميعاد التي تنتظر شعبها المنفي منذ ألفي عام، لم يكن سبباً في تحقيق السعادة بالنسبة إلى كل من حملته أقداره بإرادته أو رغماً عنها إلى هذه الأرض، ومن ضمنهم مئات الأسر من اليهود اليمانيين الذين اختفى أطفالهم من المستشفيات ومخيمات المهاجرين في أوائل الخمسينيات في ظروفٍ غامضة!!.

ولمحاولة فهم ما حدث لهؤلاء الأطفال لابد من العودة إلى أصول فكرة الصهيونية، التي انطلقت من توليفة من الأفكار العلمانية الشاملة التي شاعت في الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر، ولعل أهمها هو الفكر العنصري العِرْقي الذي يرى البشر جميعاً مادة، ولذا فالاختلافات بينهم مادية تنبع من خصائصهم العِرْقية والتشريحية، ومن هنا تبرز أهمية الاختلافات العِرقية (لون البشرة - حجم الرأس ...) معياراً للتفرقة بين البشر، وما يترتب على ذلك من حسبانِ أيِّ حضارة

أو رقي شعب ما أو تخلفه هو نتيجة حتمية لصفاته العِرقية والتشريحية. وقد تبنت الصهيونية هذه النظرية لتفسير ظاهرة نبذ الشعب العضوي اليهودي في أوربة وضرورة نقله، واستخدمتها في فلسطين لتبرير عملية طرد العرب من بلادهم بحسبانهم عِرقاً أدنى من العِرق اليهودي.

ومنذ تأسيس الدولة الصهيونية سرت جرثومة العنصرية فيها وعبرت عن نفسها لا على المستوى الدستوري والقانوني فحسب (قانون العودة مثلاً) وإنما على مستوى الممارسة في المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية أيضاً. فالتفرقة بين العرب واليهود من المواطنين الإسرائيليين واضحة لكل مراقب، وقد عبر موسيه آرتس، وزير الدفاع السابق وأحد أقطاب الليكود، عن ذلك بقوله: «هناك في دولة إسرائيل شيء يهودي خاص، فهل يتمكن العرب من الشعور الكامل بالانتماء إليه؟؟». وعلى سبيل المثال لا الحصر يظهر ذلك واضحاً في المجال السياسي وفي مخصصات المجالس المحلية اليهودية التي تبلغ خمسة أضعاف المخصصات للمجالس العربية وفي مخصصات إعالة الأطفال وقروض الإسكان، وكذلك في مستوى التعليم وفرص العمل وغيرها كثير.

وفي داخل النطاق اليهودي نفسه تُعدُّ قصة اختطاف أبناء اليهود اليمانيين دليلاً واضحاً على تميز اليهود من ذوي الأصول الغربية على اليهود من ذوي الأصول الشرقية. ففي الفترة من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٥٢ اختفى حوالي ١٠٣٣ طفلاً يمانياً من مخيمات المهاجرين والمستشفيات، وادعت السلطات في ذلك الوقت أنهم قد تُوفوا ودُفنوا، ولكنها لم تُعط لأهلهم شهادات وفاة ولم تُقدم لهم أية إيضاحات عن أسباب هذه الوفيات. وهكذا ظل السؤال حائراً في عقول وقلوب هؤلاء الآباء الذين يرفضون تصديق ما حدث. ونتيجةً لاستمرار إثارة هذه القضية تشكلت عام ١٩٦٧ لجنة للتحقيق في هذه المسألة توصلت إلى أنه لم تحدث عمليات اختطاف لهؤلاء الأطفال. ولكن الأهالي لم يفقدوا الأمل، وفي عام ١٩٨٨ تشكلت لجنة تحقيق ثانية توصلت في عام ١٩٩٤ إلى النتيجة نفسها.

وردّاً على هذه النتيجة المخيبة للآمال حدث احتجاج مسلح على يد الحاخام عوزي ميشولام الذي فتح النار هو وأتباعه على الشرطة، مطالبين بلجنة جديدة للتحقيق. وبالفعل تكونت هذه اللجنة عام ١٩٩٥ وانتهت في عام ٢٠٠١ إلى القول

بأنه لم يحدث اختطاف لهؤلاء الأطفال على يد المؤسسة الرسمية، وذكرت اللجنة أن ٩٧٢ طفلاً قد تُوفوا وأن خمسة أطفال لا يزالون أحياء ولكن مصير ٥٦ طفلاً لا يزال في طي المجهول. وادعت اللجنة أن بعض العاملين في مجال الرعاية الاجتماعية ظنوا أن عائلات هؤلاء الأطفال قد تخلت عنهم، ولذلك عرضوهم للتبني على مجموعة من الأسر الأشكنازية المحرومة من الإنجاب!! وأن هذا كله حدث دون أدنى مسؤولية من المؤسسة الحاكمة.

وفي إطار عمل اللجنة الأخيرة تم استخراج بقايا جثث ٢٢ طفلاً من مقبرةٍ في بتاح تكفا لإجراء فحوص الحامض النووي DNA في محاولة لإثبات علاقتهم بتلك الأسر اليمانية. ولكن هذه المحاولة لم تؤد إلا إلى مزيد من الشكوك بدلاً من إغلاق هذا الملف الذي أصبح مثاراً بشكل متواتر وحاد في الكيان الصهيوني (هآرتس، ١٦ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٧). فعند فتح القبور، التي تعود لأكثر من خمسين عاماً، لم يجد الأهالي إلا قطعاً غير مكتملة من العظام مما حرك في أذهانهم فكرة أن هذه القبور فارغة، وزرع الشك مرة أخرى بين الأهالي والسلطات وأعاد فكرة المؤامرة إلى الوجود بعد خمسين عاماً من عدم التصديق (هآرتس، ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١). وكانت الخيبة الكبرى هي نتائج الفحوص التي أثبتت أن جثة واحدة فقط «قد توجد بينها صلات عائلية» مع إحدى الأسر الشاكية!!

إن هذه القضية التي تبدو عصيةً على الحل تسلط الضوء بقوة على العنصرية الصهيونية التي لم يفلت من براثنها حتى اليهود، وتبدو بالنسبة إلى أهالي أولئك الأطفال رحلةَ بحث لا نهاية لها، على حد تعبير صحيفة الجيروساليم بوست (٢٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١). فهؤلاء الأهالي يشعرون وكأن أطفالهم «قد تبخروا في الهواء»، مثلما قالت أخت أحد المفقودين الذي اختفى بعد ولادته في مستشفى عام ١٩٥٠. ولا تزال عائلات الضحايا تأمل في كشف ما حدث، إلا إن بعض الأهالي يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن اشتراك المؤسسة الحاكمة في مؤامرةٍ منظمةٍ لاختطاف أطفالهم سوف يمنع أية لجنة تحقيق من كشف ما حدث، فكيف يمكن للمؤسسة أن تعرّي أخطاءها؟؟

ومما لاشك فيه أن اختطاف طفل من أسرته أمر عصيٌّ على النسيان بالنسبة إلى أية أسرة، ولكن مأساة هؤلاء الأطفال تمثل للمهاجرين اليمانيين كل

الإحباطات والمصاعب والإهانات التي تعرضوا لها منذ أن تركوا بلاد اليمن السعيد وتوجهوا إلى «أرض الميعاد السعيدة» تحت تأثير الدعاية الصهيونية عن الجنة الموعودة التي تنتظرهم.

وتروي إحدى الأمهات قصة طفلها الذي ولدته عام ١٩٤٩ وفي المستشفى سخر الأطباء منها ورفضوا أن يسلموها الطفل بدعوى أنه ليس ابنها، ثم أجبروها على أن تقسم على التوراة أنها أمه حتى تأخذه. وفي العام التالي، وعند ولادة طفلها الثاني اختفى الطفل في المستشفى بعد شهرين من الولادة!!

ويعبِّر أخو هذا الطفل، الذي يبلغ من العمر الآن خمسين عاماً، عن سخطه على الطريقة التي عُومل بها أهله لدى وصولهم إلى «أرض الميعاد»، ويتساءل «هل كان الناس هنا يظنون أن اليمانيين لا يحسون بالألم كغيرهم من البشر؟». وينظر بأسى إلى الطريقة التي جُمع بها يهود المنفى ونُقلوا إلى إسرائيل على يد الصهاينة، ويقول «إن القضية تنتقل من جيلٍ إلى جيل. لقد كانوا يظنون أننا سوف نبقى بدائيين إلى الأبد ولكننا لسنا كذلك، نحن نعرف الآن كل ما ارتكبوه بحقنا من الفظائع، حتى لو نسي والدي فإن أولادي لن ينسوا».

إنه ميراث الكراهية الذي زرعته العنصرية الصهيونية حتى في قلوب اليهود - شعب الله المختار -!!!.

الفصل السابع

خرافة الهوية اليهودية

• الهوية اليهودية

ثمة انطباع عام في الأوساط العربية مفاده أن الصهيونية مشروع ناجح تماماً، فقد تم تأسيس الدولة وتحقيق كل ما يصبو إليه الصهاينة من أهداف وغايات. ولا يمكن إنكار أن في هذا القول شيئاً من الحقيقة، فانتصارات الدولة الصهيونية العسكرية، ووجود أربعة ملايين مستوطن صهيوني في وسط العالم العربي، هو إنجاز استعماري لا ريب فيه: ويعود هذا النجاح إلى أسباب عدة من بينها أن الصهاينة اكتشفوا الإمبريالية الغربية بحسبانها الآلية الأساسية في القرن التاسع عشر لتنفيذ أي مشروع خارج أوربة، فكل من كان لديه مشروع يرغب في تحقيقه ما كان عليه إلا أن يتبنى الحل الدارويني السحري وهو الحل الإمبريالي. وقد أنجزت الصهيونية ذلك بنجاح كبير.

وقد حرص الصهاينة، قبل تأسيس الدولة وبعده، أن يحتفظوا بدورهم قاعدةً للاستعمار الغربي، وقلعةً أمامية له تدافع عن أمنه ومصالحه. وقد ضمن لها هذا الوضع الدعم الغربي العسكري والسياسي والاقتصادي الدائم.

والأيديولوجية الصهيونية أيديولوجية حديثة بمعنى الكلمة، داروينية حتى النخاع، لا تؤمن إلا بقيم الصراع والبقاء المادي للأقوى. وهي بالتالي أيديولوجية ذات جاذبية خاصة تلاقي هوى عند إنسان أوربة الحديث، دارويني المنزع والاتجاه، ومع هذا، ورغم داروينيتها الواضحة، فقد نجحت هذه الأيديولوجية في

إخفاء هذا الجوهر المادي الحديث من خلال ديباجات دينية واشتراكية وديمقراطية قوية ومتنوعة. وقد أعطى تنوع الديباجات الصهيونية قوة تعبوية عالية لهذه الأيديولوجية بين جماهير اليهود.

إلَّا أن ثمة مواطنَ ضعف إلى جانب مواطن القوة هذه، ومنها مثلاً أن كل أيديولوجية إصلاحية تنطوي على قوة مثالية، ولذلك فإن ثمة مسافة. تفصل بين الأيديولوجية الإصلاحية والواقع الظالم، ولكن لابد أن تكون المسافة معقولة حتى تكون هذه الأيديولوجية أيديولوجية فعالة ولا تصبح أيديولوجية فاشية. والأيديولوجية الصهيونية أيديولوجية لها برنامج إصلاحي؛ الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وتجميع أعضاء الشعب اليهودي من كل أنحاء العالم وتأسيس دولة يهودية خالصة. ولكن المسافة التي تفصل البرنامج الإصلاحي الصهيوني عن الواقع مسافة أقل ما توصف به أنها شاسعة. وهو برنامج يمكن تلخيصه في عبارة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، وهو برنامج لا علاقة له بأي واقع، سواء الواقع الفلسطيني أم واقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم.

ومنذ البداية، ارتطم البرنامج الإصلاحي الصهيوني بالواقع غير المتجانس ليهود العالم. وفي عام ١٩٥٠، صدر قانون العودة الإسرائيلي الذي يؤكد أنه «يحق لكل يهودي أن يهاجر إلى إسرائيل» ولكن من أصدروا القانون نسوا (أو تناسوا) أن يعرفوا من هو اليهودي الذي يحق له الهجرة إلى فلسطين المحتلة بموجب هذا القانون. وقد أثيرت قضية «من هو اليهودي» مرات عدة، وكان الأمر ينتهي إلى تجاهلها نظراً لعدم التوصل إلى حد أدنى من الاتفاق حولها، وهو ما عبر عنه أحد المعلقين الإسرائيليين بقوله إنه «مع مرور السنين، اتضح شيئاً فشيئاً أنه لا تتوفر إمكانية لتكوين إجماع وطني بخصوص هذه القضية، وقد طرح البرنامج الإصلاحي الصهيوني في بداية الأمر رؤية «أتون الصهر» أو مزج الجماعات (بالعبرية: ميزوج جاليوت)، وفحواها أن أعضاء الجماعات اليهودية سيحضرون إلى إسرائيل ويتخلون تدريجياً عن هوياتهم القديمة التي اكتسبوها في المنفى ويتم صهرهم جميعاً في بوتقة واحدة فيكتسبوا هوية إسرائيلية جديدة، وبذلك يتحقق الحلم الصهيوني الخاص بتجميع «الشعب اليهودي» الواحد. وبالفعل، كان علم الاجتماع الإسرائيلي يدور في إطار هذا التصور، وكان يراكم الحقائق التي تؤكد هذا الزعم،

لاحظ على سبيل المثال، الاختفاء التدريجي للأحزاب التي تستند إلى أساس عرقي وظهور الأحزاب الأيديولوجية التي سيطرت على المسرح السياسي في الدولة الصهيونية حتى نهاية الستينيات.

ولكن، بمرور الوقت، بدأت أسطورة «أتون الصهر» تتآكل، وبدأ علم الاجتماع الإسرائيلي يعترف تدريجياً بأن هناك أمتين واحدة غربية (إشكنازية) والأخرى شرقية (سفاردية)، ثم بدأ الانقسام الديني العلماني في التبلور، وعادت الأحزاب العرقية إلى الظهور، فهناك حزب «شاس» (السفاردي) وهناك أحزاب روسية وأخرى دينية إشكنازية وهكذا.

ومن المشاكل الجديدة التي يواجهها الجيب الصهيوني مشكلة العمال الوافدين، وهي مشكلة آخذة في التفاقم. فقبل اندلاع انتفاضة الأقصى، كان العمال الفلسطينيون يذهبون إلى فلسطين المحتلة (قبل عام ١٩٤٨) فيؤدون عملهم ثم يعودون إلى منازلهم في الضفة - أو القطاع. ولكن مع اندلاع الانتفاضة، أصبحت هذه الهجرة اليومية مصدر تهديد أمني، فأوقفتها السلطات الإسرائيلية. وبدأ الكيان الصهيوني يفتح أبوابه للعمال من الفلبين وتركية، وإن كان يعتمد أساساً على العمال من شرق أوربة. وقد بلغ عددهم حوالي ٣٠٠ ألف، وهي كتلة بشرية كبيرة مقيمة بشكل دائم داخل التجمع الصهيوني. ولذا، فهي تهدد أمنه الاجتماعي إذ بدأ أعضاء هذه الكتلة، وغالبيتهم الساحقة من الذكور، في الزواج من الإسرائيليات، والأدهى من ذلك أن كثيرين منهم أعلنوا استعدادهم للتهود والحصول على الجنسية الإسرائيلية (بكل ما يحمله ذلك من مزايا اقتصادية). وهم في هذا لا يختلفون كثيراً عن المهاجرين السوفييت من غير اليهود وأشباه اليهود الذين يعلنون أنهم يهود أو لا مانع لديهم من التهود من أجل الحصول على مستوى معيشي أفضل.

ويُعد الانتماء العرقي الروسي واحداً من عشرات الانتماءات الأخرى التي تبين كذب مقولة «الشعب اليهودي الواحد» وتقوّض أسطورة «أتون الصهر» الذي سيقفز فيه كل مهاجر يهودي جديد ليخرج بعد قليل مواطناً إسرائيلياً لا علاقة له بتراثه الحضاري وتاريخه الاجتماعي وهويته العرقية التي حملها من وطنه الأصلي.

وقد أدى فشل أسطورة «أتون الصهر» إلى تفاقم حدة قضية الهوية، بل وإلى انفراط العقد الاجتماعي الصهيوني أو على الأقل تآكله. فقد كان هناك اتفاق على المقولات الأساسية، مثل القول بأن اليهود شعب واحد (يضم الدينيين والأشكناز والسفارد وغيرهم)، وأنه شعب يطمح للعودة إلى أرضه للاستيطان فيها، وأن الصهيونية ستنهي حالة النفي وستقوم بتطبيع اليهود. الصهيونية قد فشلت في كل هذا، فاليهودي (هذا المكوِّن الأساسي لهذا الشعب اليهودي) لم يُعرَّف بطريقة ترضي كل الأطراف، وهو شعب يرفض العودة لوطنه «القومي»، الأمر الذي يخلق أزمة سكانية استيطانية. ولهذا، لم يقم اتفاق على المكونات الأساسية للصهيونية وأهدافها المبدئية، فالرؤية ليس لها ما يساندها في الواقع، والواقع صلب لا يود أن يخضع للرؤية.

وقد ترجم هذا التآكل نفسه إلى عدم اكتراث بالمشروع الصهيوني الذي قام بدوره بترجمة نفسه إلى عدم الإيمان بالقيم الصهيونية (الريادية) المبنية على التقشف وتأجيل الإشباع. وبدلاً من ذلك، ظهر السعار الاستهلاكي والنزوع نحو الأمركة والعولمة والخصخصة، وهي حالة لا تصيب الصهاينة وحدهم وإنما تصيب أي مجتمع يفتقر إلى الاتجاه وإلى المشروع الحضاري ولا يحل مشكلة المعنى. ولكن، رغم كل هذا التآكل، يظل هناك إجماع صهيوني لم يتآكل وهو رفض الاعتراف بالفلسطينيين وحقهم في هذه الأرض التي تم اغتصابها.

- **من هو اليهودي؟**

أصدر المؤتمر الصهيوني الرابع والثلاثون (٢٠٠٢) قراراً يدعو الكنيست إلى الموافقة على القانون الأساسي الخاص بالحرية الدينية («هآرتس» ٢١ يونيو/ حزيران ٢٠٠٢). ومن المعروف أن الدولة الصهيونية ليس لها دستور، بل مجموعة من القوانين الأساسية التي صدرت في فتراتٍ مختلفة. والقانون الأساسي المقترح يعترف بعقود الزواج وأحكام الطلاق المدنية (أي التي تمت أمام محكمة مدنية وليس على يد حاخام). كما يضمن القانون المساواة الكاملة بين جميع المذاهب اليهودية ويمنع التفرقة على أساس ديني. وقد تقدمت مجموعة تسمى «الأغلبية الصهيونية» بمشروع القرار، وهي مجموعة تضم المهاجرين من اليهود السوفييت وممثلين لليهودية الإصلاحية والمحافظة والعناصر العلمانية في التجمع الصهيوني،

وهم يشكلون أغلبية في المنظمة الصهيونية (كما يشكلون أغلبية في التجمع الصهيوني). وقد وافق على مشروع القرار معظم ممثلي حزبي الليكود والعمل في المنظمة، كما وافق عليه الكنيست بشكل مبدئي بعد القراءة الأولى (وكل مشروع يحتاج لثلاث قراءات لتتم الموافقة النهائية عليه).

ولكن ماذا سيحدث في التجمع الصهيوني لو وافق الكنيست على هذا القانون الأساسي المقترح؟ أعتقد أن النتائج ستشكل ما يشبه الكارثة بالنسبة إلى إسرائيل. فالتجمع الصهيوني يستند إلى ما يسمى اتفاقية الوضع الراهن. فقد أرسل بن جوريون عام ١٩٤٧ (رئيس الوكالة اليهودية) خطاباً إلى زعماء حركة «أجودات إسرائيل» وعد فيه بالحفاظ على الوضع الراهن، أي الواقع الديني بين المستوطنين الصهاينة إبان حكم الانتداب، مما كان يعني أن الصلاحيات المطلقة في مجال الزواج والطلاق وُضعت في يد مؤسسة القضاء الحاخامي التي يسيطر عليها المتدينون. وبالإضافة إلى ذلك، تم الاعتراف بالتعليم الديني المستقل، وهو ما يعني أن الدولة عليها أن تموله، كما أُعفي طلبة المعاهد الدينية من الخدمة العسكرية. وتُرفق اتفاقية الوضع الراهن بكل اتفاق ائتلافي منذ عام ١٩٩٥.

وقد ظل الوضع الراهن قائماً حتى عهد قريب إلى أن ظهرت عدة عوامل أدت إلى زيادة حدة الاستقطاب الديني - العلماني على مستوى الدولة الصهيونية وعلى مستوى العالم، وهو الأمر الذي وضع اتفاقية الوضع الراهن موضع التساؤل. ومن أبرز هذه العوامل:

* تزايد معدلات العلمنة منذ السبعينيات بين اليهود وفي التجمع الصهيوني.

* يُلاحظ أنه مع تزايد معدلات العلمنة بين يهود العالم (خاصة يهود الولايات المتحدة) يتزايد ضيقهم بهيمنة المؤسسة الحاخامية الأرثوذكسية على مناحي الحياة في التجمع الصهيوني.

* يُلاحظ أن الهوة التي تفصل بين المذاهب اليهودية مثل اليهودية الإصلاحية والمحافظة والتجديدية، من جهة، واليهودية الأرثوذكسية، من جهة أخرى، قد تزايدت عبر السنين. فالحاخامات الإصلاحيون، على سبيل المثال، لا يترددون الآن في عقد زيجات «شرعية» بين شخصين من الجنس نفسه أمام

حائط المبكى، وهو الأمر الذي يُقابل بالاستهجان لدى أتباع اليهودية الأرثوذكسية. ولهذا صرح أحد الحاخامات الأرثوذكس أن هناك الآن عقيدتين يهوديتين: اليهودية الأرثوذكسية ثم المذاهب الأخرى. وهو محق في ذلك تماماً، فالمذاهب اليهودية الأخرى قد ابتعدت تماماً عن العقيدة اليهودية الحاخامية.

* وعلى الرغم من هذا يُلاحظ أن ممثلي هذه المذاهب اليهودية (شبه العلمانية) بمساعدة العلمانيين في التجمع الصهيوني قد سيطروا تماماً على المنظمة الصهيونية، في الوقت الذي تزايدت فيه هيمنة الأحزاب الدينية في الدولة الصهيونية.

* يُضاف إلى هذا كله ظهور كتلة اليهود السوفييت، وهي كتلة علمانية تماماً، بل إن كثيراً من أعضائها ليسوا يهوداً أساساً، فهؤلاء هاجروا إلى الدولة الصهيونية بحثاً عن الحراك الاجتماعي ولا يربطهم رابط باليهودية أو الصهيونية، وأمثال هؤلاء بطبيعة الحال يقفون بكل حزم في المعسكر العلماني.

* في الوقت ذاته، تصاعدت حدة الخطاب الديني ونفوذ الأحزاب الدينية داخل التجمع الصهيوني، فأصبحوا يكونون كتلة كبيرة لها ثقل ملحوظ.

* يُلاحظ أن الاستيطان في الضفة الغربية (والاستيطان هو عمود الصهيونية الفقري) أصبح حكراً تقريباً على المهووسين الدينيين. بل إن كثيراً من العلمانيين (من أعضاء حزب العمل وغيره من الأحزاب العلمانية) يعارضون الاستيطان في الضفة الغربية، بل ويطالب بعضهم بضرورة إخلاء المستوطنات، حفاظاً على أمن إسرائيل (داخل حدود عام ١٩٤٨).

* عند إعلان الدولة الصهيونية كان عدد طلبة المعاهد الدينية، عندما اتُّفق على إعفائهم من الخدمة العسكرية، لا يتجاوز ٤٠٠، ولكن عددهم الآن يزيد عن ٣٠ ألفاً. ومع اندلاع انتفاضة الأقصى وتساقط القتلى والجرحى الإسرائيليين واستدعاء جنود الاحتياط تصاعد احتجاج الجمهور العلماني على إعفاء طلبة المعاهد الدينية من أداء الخدمة العسكرية، خاصة وقد أصبح يُنظر إليها

لا بحسبانها واجباً فحسب، بل وضرورة لبقاء التجمع الصهيوني. وحينما أصدر الكنيست تشريعاً يقضي بتأكيد إعفاء طلبة المدارس الدينية ثار الرأي العام العلماني وبدأ توجيه الاتهامات إلى طلبة المدارس الدينية بأنهم يتهربون من الخدمة العسكرية ومن عبء الدفاع عن المجتمع الإسرائيلي، لاسيما وأن هؤلاء الطلاب هم من أشد دعاة التوسع الاستيطاني وإقامة ما يُسمى «إسرائيل الكبرى». وقد وصف يوسف لبيد، أحد قادة حزب «شفوي» العلماني قرار الكنيست بأنه نوع من التمييز بين دم [العلمانيين] ودم [طلبة المدارس الدينية]. أما أوفير باينز، عضو حزب العمل، فقد تنبأ بأن هذا القانون سيترك «جرحاً لا يندمل بين العلمانيين والمتدينين»، كما قال بعض المعلقين إن هذا القانون سيجعل التمييز بين الفريقين مسألة راسخة ذات سندٍ قانوني. وقد رد المتحدثون باسم المؤسسة الدينية بأن دراسة التوراة هي سر بقاء «الشعب اليهودي» («الهيرالد تربيون» ٢٥ يوليو/ تموز ٢٠٠٢)، وهي أطروحة لا أعتقد أن الصهاينة العلمانيين يقبلونها.

وقد تبلور الصراع بين الصهاينة الدينيين والصهاينة العلمانيين في إشكالية «من هو اليهودي؟» أي ما الذي يشكل يهودية اليهودي؟ هل هو انتماؤه العرقي وحسب (أي إنه وُلد لأم يهودية) أم انتماؤه العرقي والديني (أي إنه وُلد لأم يهودية ويؤمن بالعقيدة اليهودية ويمارس شعائرها). وهذه الإشكالية قديمة داخل العقيدة اليهودية التي عرَّفت اليهود على أساس عرقي وديني، وهي لا تزال تزلزل الكيان الصهيوني من آونة لأخرى، وإصدار القانون الأساسي الخاص بالحرية الدينية لن يكون مجرد زلزال عابر وإنما سيكون بركاناً متفجراً يدمر العقد الذي يستند إليه هذا الكيان. ولعل هذا هو السبب في أن القرارات النهائية لهذا المؤتمر الصهيوني لم تتضمن القرار الخاص بالقانون الأساسي الخاص بالحرية الدينية، رغم أن صحيفة «هآرتس»، كما سبقت الإشارة، قد نشرت خبر صدوره عن المؤتمر في صدر صفحتها الأولى.

- **التهويد العلماني**

استقر في إسرائيل خلال الأعوام القليلة الماضية مالا يقل عن نصف مليون شخص غير يهودي، نصفهم من المهاجرين والنصف الآخر من العمال الأجانب.

ويشكل هؤلاء، الذين قدموا في معظمهم من بلدان الاتحاد السوفييتي السابق وبعض بلدان آسية، كتلة بشرية كبيرة بالقياس إلى إجمالي تعداد السكان في الدولة الصهيونية، وقد أصبحت تسبب كثيراً من المشاكل الاجتماعية، ومن أهمها أن أعضاء هذه الكتلة البشرية، كما هو متوقع من أي بشر، يتزاوجون وينجبون. ولكن هذا الأمر البسيط والمتوقع له توابع في المجتمع الاستيطاني العنصري الصهيوني، فهو يزيد من عمق الهوة بين المتدينين والعلمانيين.

ولفهم هذه القضية كان من الضروري تطوير مصطلحاتٍ جديدة تتلاءم مع جدة الظاهرة، وهذا ما فعله أشير كوهين، وهو من علماء الاجتماع في إسرائيل (قسم الدراسات السياسية في جامعة بارإيلان)، فقد نحت مصطلحاً جديداً هو «الاندماج الداخلي». والاندماج في الخطاب الصهيوني هو إعادة اندماج أعضاء الجماعات اليهودية في المجتمعات غير اليهودية. ولكن أشير كوهين لاحظ أنه لأول مرة في التاريخ تظهر عملية اندماج عكسية، أي اندماج المهاجرين والعمال غير اليهود في «المجتمع اليهودي» في إسرائيل، فهم يندمجون ثقافياً واجتماعياً (إثنياً) في هذا المجتمع، فيتحدثون العبرية ويكتسبون طبائع الإسرائيليين ويأكلون طعامهم ويرتدون رداءهم، ولكنهم يظلون من منظور الشريعة اليهودية غير يهود، لأن هذه الشريعة تُعرِّف اليهوديَّ تعريفاً مزدوجاً. فاليهودي هو أولاً من ولد لأم يهودية (وهذا هو الجانب العرقي أو الإثني/ أو العلماني الذي يرضي العلمانيين ولهذا يكتفون به)، ولكن الشريعة اليهودية تضيف شرطاً آخر يقضي بأن اليهودي هو من يؤمن بالعقيدة اليهودية أو من تم تهويده على يد حاخام أرثوذكسي. وهذا بطبيعة الحال لا يرضي العلمانيين، ولهذا إذا قرر أحد هؤلاء المهاجرين في المستقبل أن يتزوج من مواطنة إسرائيلية يهودية، فإن مثل هذا الزواج سيصنف بحسبانِهِ زواجاً مختلطاً، أي أنه زواج بين يهودي وغير يهودي، وهو الأمر الذي تحرمه العقيدة اليهودية.

وقد لاحظ أشير كوهين أن هناك ما يقرب من ٢٠٠ ألف شخص، ممن لا ينطبق عليهم هذا التعريف لليهودي، غير متزوجين وعلى استعداد للزواج، أي أنهم يمثلون قنبلة موقوتة ستطرح قضية «من هو اليهودي؟» مرة أخرى وبعنف على المجتمع الإسرائيلي. فالإسرائيليون العلمانيون يذهبون إلى أن المهاجر غير اليهودي الذي اندمج ثقافياً في المجتمع الصهيوني وربط مستقبله بمصيره، يصبح يهودياً، بل إنهم يذهبون إلى أبعد من هذا، فهم يتحدثون الآن عما يُسمى «التهويد العلماني».

ومن أبرز دعاة هذا الاتجاه يوسى بيلين (وزير العدل في حكومة باراك)، وكذلك يعقوف مالكين (أستاذ علم الجمال في جامعة تل أبيب ورئيس تحرير مجلة اليهودية الحرة Free Judaism)، فهما يحددان بعض قواعد أو شعائر هذا «التهويد العلماني»، ومن بينها المعرفة الوثيقة بما يسمي «الثقافة اليهودية»، والانخراط في الحياة اليهودية الجماعية، وممارسة بعض الشعائر الدينية بتقديرها فلكلور الشعب اليهودي، وتلاوة التوراة بحسبانها كتاباً تراثياً غير ملزم دينياً أو أخلاقياً. بل إن العلمانيين يرون أن كثيراً من الشعائر والمحظورات الدينية تثير السخرية والضحك. فهم يذهبون مثلاً إلى أن أكل لحم الخنزير، الذي تحرمه الشريعة اليهودية، هو مسألة شخصية يقررها كل شخص لنفسه، وأن الشذوذ الجنسي مسألة طبيعية ولا يجوز أن تُقابل بالرفض والتحريم من جانب المتدينين، فهي مجرد أسلوب حياة يختاره الفرد لنفسه. وكل هذا يعني أن العلمانيين يرون أن من يكتسب ما يسمى الثقافة اليهودية يصبح يهودياً، بل إنهم يرون أن المعيار الأساسي هو أن يربط الإنسان المتهود مصيره بمصير «الشعب اليهودي»، أما العقيدة اليهودية وما يرتبط بها من شعائر فهذه مسائل ثانوية.

والملاحظ أنه كلما ازداد العلمانيون شططاً في دعواتهم وأنشطتهم، ازداد الأرثوذكس بدورهم تطرفاً في المقابل، وصل الأمر بهم إلى المطالبة بزيادة الحواجز بين اليهود وغير اليهود. فقد طالب الحاخام جداليا أكسيلورد (وهو يعمل قاضياً في المحكمة الدينية في محكمة الحاخامية) بأنه حتى بعد أن يتم إصدار شهادة التهويد لأحد المهاجرين غير اليهود، لابد وأن يُعاد اختبار صاحب هذه الشهادة وأسلوب حياته كل عام للتأكد من مدى تمسكه باليهودية، وكأن شهادة التهويد هي مجرد وثيقة مثل رخصة القيادة لابد من تجديدها.

ويرى أشير كوهين أن قانون العودة الصهيوني لابد وأن يُعدَّل لأنه فتح الباب على مصراعيه أمام غير اليهود للهجرة والاستقرار في إسرائيل. فهو يطالب على سبيل المثال بإلغاء البند الخاص بالأحفاد، وهو البند الذي يسمح لشخص ما بالهجرة إلى الدولة الصهيونية إذا كان جده يهودياً، حتى لو كان أبواه غير يهوديين (أي تنصرا أو تزوج أحدهما من زوج غير يهودي). كما طالب أشير كوهين بعدم الربط بين حق العودة وحق الحصول على الجنسية الإسرائيلية! وهذا شيء مضحك

للغاية يدل على عمق الأزمة التي يواجهها الكيان الصهيوني، فماذا تعني «عودة» اليهودي إلى أرض الميعاد دون أن يحصل على الجنسية؟ هل سيجلس هناك على حقيبته ينتظر «العودة» إلى دولةٍ أخرى تمنحه الجنسية؟ وأخيراً يطالب أشير كوهين بأن تكون المؤسسة الحاخامية أكثر مرونة في شعائر التهويد، وهي شعائر تحددت عبر مئات السنين ويصعب تغيرها أو تعديلها خاصةً مع تصاعد هذه اللهجة العلمانية وهذا الحديث الجديد عن التهويد العلماني، والذي يوحي بأن اليهودية العلمانية أصبحت متساوية مع اليهودية الحاخامية الأرثوذكسية.

وليس من الغريب أن «أشير كوهين» لم يتقدم بأية اقتراحاتٍ محددةٍ بخصوص تغيير شعائر التهويد، فأي خوضٍ في هذه القضية لابد وأن يصطدم في نهاية المطاف بالسؤال المعلق الذي لم يتفق المتدينون ولا العلمانيون على إجابةٍ محددةٍ له، وهو «من هو اليهودي؟».

- **أتون الصهر الإسرائيلي**

تنطوي كل أيديولوجية إصلاحية على نزعة مثالية. ففي جنوب إفريقية، على سبيل المثال، كانت أيديولوجية الثوار الإفريقيين هي إزالة النظام العنصري الذي يستند إلى التفرقة بين البشر على أساس اللون، وتشييد نظام جديد مبني على المساواة بين كل المواطنين دون تفرقة بسبب الدين أو اللون أو العرق. وفي الولايات المتحدة، في أواخر القرن السابع عشر، تمثلت أيديولوجية السكان البيض في ضرورة الاستقلال عن العرش البريطاني الذي كان يستغلهم ويفرض عليهم الضرائب دون وجه حق.

وثمة مسافة تفصل بين الأيديولوجية الإصلاحية والواقع الظالم، ولكنها ليست مسافة شاسعة، خاصة وأن الأيديولوجية الإصلاحية في حالة جنوب إفريقية والولايات المتحدة كانت تستند إلى منظومة أخلاقية تعبر عن أنبل القيم الإنسانية» ولذا نجد أن الثوار في الولايات المتحدة وفي جنوب إفريقية حملوا السلاح ضد القوة الظالمة الحاكمة وحاربوا ضدها وكُللت جهودهم بالنجاح.

والأيديولوجية الصهيونية هي الأخرى أيديولوجية لها برنامج إصلاحي: الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وتجميع أعضاء الشعب اليهودي من كل أنحاء العالم وتأسيس دولة يهودية خالصة. ولكن المسافة التي تفصل البرنامج الإصلاحي

الصهيوني عن الواقع مسافة أقل ما توصف به بأنها شاسعة. بل يمكن القول إنه لا توجد علاقة واضحة بين البرنامج الإصلاحي الصهيوني والواقع سواء الواقع الفلسطيني أو واقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم. فالواقع الفلسطيني أثمر مقاومة فلسطينية مستمرة منذ أن وصل المستوطنون الصهاينة، وهي مقاومة أخذت في التصاعد والنضج إلى أن وصلت إلى ذروتها في انتفاضة الأقصى. كما أن واقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم يثبت أنهم ليسوا شعباً يهودياً بل جماعات يهودية تستمد كل جماعة منها خطابها الحضاري من المجتمع الذي تعيش فيه. ومع هذا استمر الصهاينة في محاولة تنفيذ برنامجهم «الإصلاحي». وقد عبر هذا عن نفسه مؤخراً فيما سُمي «ميثاق طبرية» الذي وقع عليه عدد من المفكرين وقادة الرأي والقادة السياسيين والعسكريين في الكيان الصهيوني. تقول الوثيقة إن إسرائيل تجسد حق الشعب اليهودي في تقرير المصير. وهي ملتزمة بمواصلة وجود الشعب اليهودي وحقه في أن يحكم نفسه بنفسه في دولته السيادية. وهي دولة لها طابع يهودي واضح يجد تعبيره في التزامها العميق بالتاريخ اليهودي والثقافة الإسرائيلية وتشجيع الهجرة والاستيعاب، ونشر اللغة العبرية وهي لغة الدولة الأساسية، ولغة الإبداع الإسرائيلي المميز، كما يُقال.

ومنذ البداية، ارتطمت هذه الكلمات الطنانة بالواقع غير المتجانس ليهود العالم. وفي عام ١٩٥٠، صدر قانون العودة الإسرائيلي الذي يؤكد أنه «يحق لكل يهودي أن يهاجر إلى إسرائيل» ولكن من أصدروا القانون نسوا (أو تناسوا) أن يعرِّفوا من هو اليهودي الذي يحق له الهجرة إلى فلسطين المحتلة بموجب هذا القانون. ولذا لم يكن أحد يهتم بتفحص كل مهاجر وإذا ما كان قد ولد لأم يهودية بالفعل أو أنه قد خضع لطقوس التهويد حسب الشريعة اليهودية.

وقد أُثيرت قضية «من هو اليهودي» عدة مرات، ولكن الأمر كان ينتهي إلى تجاهلها نظراً لعدم التوصل إلى حدٍّ أدنى من الاتفاق حولها، وهو ما عبَّر عنه أحد المعلقين الإسرائيليين بقوله إنه «مع مرور السنين اتضح شيئاً فشيئاً أنه لا تتوفر إمكانية لتكوين إجماع وطني بخصوص هذه القضية». وقد طرح البرنامج الإصلاحي الصهيوني في بداية الأمر رؤية «أتون الصهر» أو مزج الجاليات (بالعبرية: ميزوج جاليوت)، وفحواها أن أعضاء الجماعات اليهودية سيحضرون إلى إسرائيل ويتخلون تدريجياً عن هوياتهم القديمة التي اكتسبوها في المنفى ويتم صهرهم

جميعاً في بوتقة واحدة فيكتسبوا هوية إسرائيلية جديدة، وبذلك يتحقق الحلم الصهيوني الخاص بتجميع «الشعب اليهودي» الواحد. وبالفعل كان علم الاجتماع الإسرائيلي يدور في إطار هذا التصور، وكان يراكم الحقائق التي تؤكد هذا الزعم. لاحظ على سبيل المثال الاختفاء التدريجي للأحزاب التي تستند إلى أساس عِرقي وظهور الأحزاب الأيديولوجية التي سيطرت على المسرح السياسي في الدولة الصهيونية حتى نهاية الستينيات.

ولكن بمرور الوقت بدأت أسطورة «أتون الصهر» تتآكل، وبدأ علم الاجتماع الإسرائيلي يعترف تدريجياً بأن هناك أمتين واحدة غربية (أشكنازية) والأخرى شرقية (سفاردية)، ثم بدأ الانقسام الديني العلماني في التبلور، وعادت الأحزاب العِرقية إلى الظهور، فهناك حزب «شاس» (السفاردي) وهناك أحزاب روسية وأخرى دينية أشكنازية وهكذا.

والتركيبة السكانية الإسرائيلية (حسب بيانات عام ١٩٩٢) تبين مدى عدم التجانس، فالأوربيون والأمريكيون يشكلون قرابة ٤٠ بالمئة والنسبة الباقية ذات أصول شرقية (إفريقية آسيوية) واصطلاح «أصول شرقية» اصطلاح عريض للغاية يشير إلى متحفٍ من الأقليات العِرقية والدينية ليس له نظير في العالم.

ولنبدأ بالمهاجرين الذين جاؤوا من اتحاد دول الكومنولث (الاتحاد السوفييتي سابقاً). فلم يكن الدافع وراء هجرة هذه الكتلة البشرية هو العودة إلى أرض الأجداد تحقيقاً للوعد الإلهي، وإنما كان يشكل فرار مجموعة من المرتزقة من إمبراطورية تداعت أركانها إلى بقعة من الأرض يمكنهم أن يحققوا فيها مستوى معيشياً معقولاً.

وقد أظهر بحث أجراه العلامة يوحانان بيريس من قسم العلوم الاجتماعية بجامعة تل أبيب، وعُرضت نتائجه في مقال بعنوان «غرباء في بيتنا: فشل بوتقة الصهر» بقلم ناتاشا موزجوفياه (يديعوت أحرونوت ٢٩ مايو/ أيار ٢٠٠٠)، أن ٨ بالمئة فقط من مهاجري دول الكومنولث يعدّون أنفسهم إسرائيليين. وقد شمل البحث ١٢٠٠ شخص، وتنخفض النسبة إلى ٤ بالمئة فقط بالنسبة للذين هاجروا بعد عام ١٩٧٧! كما لُوحظ أن هؤلاء المهاجرين يبتعدون تدريجياً عن اللغة العبرية، فعدد الذين يستخدمون اللغة العبرية حتى بعد أربع سنوات من التواجد في الكيان الصهيوني لا يزيد عن ٦ بالمئة. ولذا توجد عشرات المجلات والجرائد

باللغة الروسية، كما توجد محطات إذاعة وتليفزيون باللغة الروسية، كما أن هناك حزبين روسيين.

ويبدو أن أعضاء التجمع الصهيوني لم يرحبوا بهؤلاء المهاجرين الجدد، وهذا أمر مفهوم فهم يحصلون على امتيازات كثيرة (رغم احتفاظهم بهويتهم الروسية ورغم أن يهوديتهم أمر مشكوك فيه)، بينما توجد قطاعات كثيرة في هذا التجمع تعاني من الفقر وليس ثمة شبهة في انتمائها اليهودي. وقد اشتكت إحدى المهاجرات الروسيات من هذا الوضع بقولها: «أنا بالذات لا تبدو ملامحي روسيةً نموذجية، ولكن ما إن أفتح فمي لأتكلم حتى يعرفوا أنني روسية. وعندما يحدث هذا تبدأ التعليقات والإهانات والشتائم وعبارات الازدراء». ويتعرض كثير من أبناء المهاجرين الروس للإيذاء بسبب انتمائهم العِرقي، بل إن ناتان شارانسكي عضو الحكومة الإسرائيلية قال: «أنا شخصياً أعدُّ نفسي يهودياً إسرائيلياً من أصل روسي. ولكن عندما ينادون عليك بكلمة «روسي»، فإنك تجد نفسك رغم أنفك في هذا الإطار الضيق. والانتماء العِرقي الروسي هو واحد من عشرات الانتماءات الأخرى التي تبيِّن كذب مقولة «الشعب اليهودي الواحد» وتقوِّض أسطورة «أتون الصهر» الذي سيقفز فيه كل مهاجر يهودي جديد ليخرج بعد قليل مواطناً إسرائيلياً لا علاقة له بتراثه الحضاري وتاريخه الاجتماعي وهويته العِرقية التي حملها من وطنه الأصلي.

- **هل إسرائيل دولة يهودية؟**

كتبت صحيفة إسرائيلية مقالاً ادعت فيه أن السبب الأساسي لأمراض إسرائيل هو الدين اليهودي، وعنوان مقالها هو «كيف ابتليت الصهيونية السياسية بالدين اليهودي؟» وتدعي هذه الصحيفة أن الصهيونية حين ولدت فكرةً كانت «متنورة ومثيرة وغنية بالوعود»، ولكنها لم تعرف «كيف تفصل المستقبل الصهيوني عن الماضي اليهودي؟». وفسرت التمييز العنصري ضد العرب بأنه «نابع من الشذوذ الإسرائيلي الناجم عن تبني الأنموذج الرجعي الذي تطرحه اليهودية الأرثوذكسية في إسرائيل، والذي يؤثر عليها. فالدولة الصهيونية - في تصورها - أصبحت دولة دينية مع أن الأيديولوجية الصهيونية أيديولوجية علمانية، قومية ليبرالية.

وتصور أن إسرائيل «أصبحت» دولة دينية وهم يسيطر على كثير من المستوطنين الصهاينة، كما أن تصور هذه الدولة بحسبانها دولة يهودية إما بالمعنى الديني أو

بالمعنى الإثني الثقافي أو العرقي وهم يسيطر على معظم العرب. وقد كتب الكاتب الصحفي شموئيل شامير مقالاً بعنوان «الصهيونية: كولونيالية أم دين» (٢٨ إبريل ٢٠٠٥)، يوضح فيه هذه النقطة، ويصنف الدولة الصهيونية تصنيفاً له مقدرة تفسيرية عالية. (ورد المقال في نشرة المشهد الإسرائيلي التي ينشرها المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية - مدار) فهو يرى أن نقطة انطلاق الصحفية الإسرائيلية مغلوطة تماماً، وأنه من الضروري أن نرى الكيان الإسرائيلي بحسبانِهِ كياناً كولونيالياً (استعمارياً)، ومن ثم فإن الطريق لحل الصراع لن يكون إلا عن طريق تبني سياسة معادية للاستعمار.

ويذكرنا الكاتب بأن اليهودية الأرثوذكسية عارضت الصهيونية كلية منذ بدء ظهورها للأسباب التالية:

١- كانت المؤسسة الدينية تخاف فقدان السيطرة على المهاجرين (إلى فلسطين). وقد عارضت كذلك الهجرة للولايات المتحدة وأوربة الغربية. وقد كانت على حق؛ فمعظم المهاجرين تم علمنتهم، وانحرفوا عن العقيدة اليهودية أو تبنَّوْا صيغاً مخففة منها لا علاقة لها باليهودية الأرثوذكسية.

٢- الصهيونية كانت حركة قومية تبنتها الحكومات الأوربية غير اليهودية، وهي حركة نشأت على غرار الحركات القومية العلمانية في الغرب، وهي حركات قامت على خلفية علمانية واستبدلت بالفكر الديني فكراً علمانياً. وهذا ما حدث لليهود الذين انخرطوا في الفكر القومي الصهيوني.

٣- كان الآباء الأوائل الصهاينة ورواد الفكر الصهيوني مثل تيودور هرتزل وماكس نوردو وبن جوريون من العلمانيين الرافضين للدين اليهودي وأي دين.

٤- ويمكن أن نضيف نحن أن اليهودية الحاخامية (الأرثوذكسية) كانت تحرم العودة إلى أرض الميعاد دون انتظار للأمر الإلهي بالعودة، إذ إن التصور الحاخامي لقضية العودة أن على اليهودي أن ينتظر في صبر وأناة إلى أن يرسل الإله بالماشيح (المسيح المخلِّص اليهودي) ليقود شعبه إلى صهيون في آخر الأيام، ومن يأخذ الأمر بيده ويمل من الانتظار فإنه يرتكب جريمة «دحيكات هاكتس» أي التعجيل بالنهاية.

ويؤكد كاتب المقال أن الصهاينة الأوائل لم يكونوا متدينين لكنهم كانوا متحمسين بشدة للأساطير اليهودية ومنها استمدوا الأساس للصهيونية. هذه الظاهرة لم تكن مميزة أو مختلفة عما هو دارج في الحركات القومية العلمانية التي مجّدت أبطالاً قوميين أسطوريين قدر ما استطاعت. وقد تبنى الصهاينة غير المتدينين قصص التوراة لغرض مماثل، فهم يهدفون لخلق أيديولوجية وأساطير قومية شبه تاريخية صهيونية.

«لقد تكون الجانب الكولونيالي للصهيونية عندما تحولت الهجرة إلى فلسطين إلى واقع ملموس. واستوطن الوافدون الجدد على حساب السكان الأصليين، والصهيونية لم تكن فريدة في ذلك، فهي انطلقت من الرأي الذي ساد في أوربة الإمبريالية في ذلك الوقت والذاهب إلى أنه يمكن الاستيطان في أي مكان خارج أوربة، ويمكن طرد سكان الأرض الأصليين وإبادتهم ومصادرة أرضهم، فهم ـ حسب التصور العنصري الغربي ـ شعوب متخلفة، بل وليسوا من بني البشر».

هذه هي نقطة الانطلاق الحقيقية للحركة الصهيونية. أما ما يسمى «الصهيونية الدينية» فهي لم تقم بأي دور مهم، حتى يونيه ١٩٦٧. ويقول الكاتب إن محاولة تفسير الانعزالية الصهيونية عن المواطنين العرب وخلق مجتمع منافس لهم في فلسطين، أمر لا يمكن تفسيره بالعودة إلى الدين اليهودي. ثم يضع الكاتب النقط على الحروف، فيقول إن الصهيونية حركة استيطانية استعمارية استيطانية، فالمؤسسات الصهيونية العلمانية، الاشتراكية وغير الاشتراكية، لم يخطر لها ببال استيعاب الفلسطينيين. ثم يضرب الكاتب مثلا بالصندوق القومي اليهودي الذي منع منذ البداية بيع أراض لغير اليهود. ولم يوافق على إقامة بلدة غير يهودية على أراضيه بعدِّها ملكاً للشعب اليهودي، فهل الذي حدد سلوك الصندوق المنطلقات الدينية؟ لقد تأسس «الصندوق القومي» من قِبَلِ يهود علمانيين حسب أنموذج صناديق أرض مشابه في نهاية القرن التاسع عشر في ألمانية القيصرية، وكان هدفها التسلط على أراضي الفلاحين البولنديين والاستيلاء عليها، فهدف الصندوق القومي اليهودي لا علاقة له بالدين اليهودي، فهو هدف لكل توسع كولونيالي.

والدافع الأول لتأسيس حركة «أرض إسرائيل الكاملة»، جاء من الجانب اليساري العلماني للمجتمع الإسرائيلي. و «مشروعُ» الاستيطان في الضفة الغربية هو

من بدايته مشروع استعماري استيطاني إحلالي والعنصر الديني فيه هامشي. هذا هو واقع الكولونيالية الصهيونية، وهو ليس نابعاً إطلاقاً من اعتبارات دينية إنما من المنطق الداخلي للكولونيالية التي جاءت للتسلط على الشعب الذي وجد في المكان.

لعل كل هذا يقنع كثيرين في عالمنا العربي أن إسرائيل ليست دولة يهودية، وإنما هي دولة استعمارية استيطانية إحلالية، وهذا التصنيف لها سيجعلنا قادرين على رصد سلوكها والتنبؤ به، وتفسر الدعم الأمريكي السخي لها. كما أننا نؤكد أنها دولة استعمارية وأننا نحارب ضدها لا لأن المستوطنين الصهاينة يهود وإنما نقاتلهم ضدهم لأنهم محتلون، تماماً كما حاربنا ضد ممالك الفرنجة التي يقال لها الممالك الصليبية. وأننا سنحارب ضد أي محتل من أي ملة أو دين، فالقضية هي قضية الاحتلال وليس يهوديته. وفي هذا الإطار لا يمكن أن توصف المقاومة بأنها «إرهاب»، بل تصبح ـ حسب القانون الدولي ـ حقاً بل واجب الشعب المحتل.

وقد يسأل سائل أين موقع البعد الديني هنا؟ أنا من المؤمنين أنه لا يمكن فصل البعد الديني عن البعد السياسي أو البعد القومي أو البعد النفسي، فما يحرك المرء ليس بعداً واحداً وإنما عدة أبعاد. فالمجاهد الفلسطيني يتحرك دفاعاً عن أرضه (وهذا بعد قومي) ويوظف كل ما لديه من قدرات (وهذا بعد سياسي وعسكري) إيماناً منه بالله ثمَّ بالوطن (وهذا بعد ديني وسياسي في الوقت ذاته) وتعبيراً عن فطرة إنسانية سليمة ترفض الخضوع للمغتصب (بعد نفسي) فالمقاومة تنبع من كل أبعاد الإنسان. والإنسان المسلم لم يأمره دينه بالحرب ضد اليهود لأنهم يهود، وإنما أمره بإقامة العدل في الأرض وفي رد الظالم. فالمقاومة الفلسطينية ليست مقاومة عنصرية وإنما هي مقاومة إنسانية، وهي إنسانية لأنها متمسكة بأهداب الدين الإسلامي، وسواء كانت دولة إسرائيل يهودية أو بوذية أو ملحدة، فنحن نقاومها، بحسبانها احتلالاً وظلماً وبطشاً بأصحاب الأرض. والمقاومة من هذا المنظور تعبر عن أعظم وأنبل ما في الإنسان.

- **دولة يهودية أم دولة اليهود؟**

ثمة خلل في طريقة تصنيف الدولة الصهيونية في كثيرٍ من الكتابات العربية، إذ تصنفها على أنها دولة يهودية، متبعةً في ذلك الكتاب الغربيين بل والصهاينة أنفسهم. ولكن هذه الكتابات لم تكلف نفسها عناء النظر في الأسباب التي دعت العالم الغربي لتصنيف الدولة الصهيونية على هذا النحو، ولا عناء اكتشاف بعض التناقضات الكامنة في التصنيف الصهيوني الغربي للدولة الصهيونية.

فقد كانت القوى الاستعمارية الغربية منذ منتصف القرن التاسع عشر تريد إنشاء جيبٍ استيطاني في فلسطين يضم بعض أعضاء الجماعات اليهودية، حتى يتسنى لها التخلص مما كان يُسمى «الفائض البشرى اليهودي» Jewish surplus، وحتى تؤسس قاعدة للاستعمار الغربي تخدم المصالح الغربية. ولتغطية هذه الدوافع ادعت القوى الغربية أن هذه القاعدة المنشودة ستكون «دولة يهودية» يحقق اليهود فيها هويتهم وينفذون تعاليم شريعتهم، وتمكنت بذلك من تجنيد بعض العناصر البشرية اليهودية ونقلها إلى فلسطين، كما أمكنها توظيف هذه العناصر في خدمة الاستعمار الغربي الذي يدعمها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً ويصب فيها بلايين الدولارات. وهي تبرر هذا الدعم السخي أمام جماهيرها بأن تخبرها أن هذه دولة يهودية، وأنها جزء من التراث اليهودي المسيحي.

وتصنيف الدولة الصهيونية على أنها دولة يهودية يجعل من طردها للفلسطينيين واحتلال أراضيهم مسألة تحرير للوطن القومي، ويجعل من الاستمرار في قتل الفلسطينيين وتشريدهم عملية دفاع مشروع عن النفس، ويجعل من مقاومة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني عملاً «إرهابياً». فالخطأ في التصنيف هنا ليس مسألة أكاديمية، بل مسألة تحدد كثيراً من المفاهيم والمواقف. وهذا ما أكده مناحم بيجين، رئيس الوزراء الصهيوني الأسبق، في خطابٍ أمام بعض أعضاء كيبوتس عين حرود في الستينيات، إذ قال: «لو كانت هذه الأرض فلسطين وليست أرتس يسرائيل [أي لو كانت هذه الأرض هي وطن الفلسطينيين وليست أرض الميعاد التي ورد ذكرها في التوراة] فأنتم مجرد غزاة ولصوص»، لأن تصنيف الدولة الصهيونية على أنها دولة يهودية تستند إلى العهد القديم هو الذي يسبغ عليها الشرعية ويكفل لها تأييد الرأي العام في الغرب.

والجدير بالذكر أن مؤسس الحركة الصهيونية، ثيودور هرتزل، لم يكن يكترث بالعقيدة اليهودية وكان يتعمد خرق تعاليمها، شأنه في هذا شأن معظم الزعماء الصهاينة الأوائل. وكان عنوان الكتاب الذي عرض فيه رؤيته لحل المسألة اليهودية هو «دولة اليهود» وليس «الدولة اليهودية»، وشتان ما بين الاثنين. فإذا كانت دولة يهودية تستند شرعيتها إلى ما جاء في العهد القديم، وجب عليها تنفيذ التعاليم اليهودية في كل مجالات الحياة، لتكون متسقة مع نفسها. أما إذا كانت دولة اليهود، فهذا يعنى أنها لا تكترث بالشرعية اليهودية ولا بالحياة الدينية اليهودية، وإنما تهتم بأعضاء الجماعات اليهودية، فتحاول إنقاذ اليهود أينما كانوا والحفاظ على هويتهم اليهودية وتراثهم اليهودي وعلى الأشكال الثقافية اليهودية المختلفة.

وقد انقسمت الحركة الصهيونية حول هذه المسألة منذ البداية، فكان هناك مَنْ يصر على أن الصهيونية حركة دينية وأن الدولة الصهيونية دولة يهودية، وهؤلاء هم دعاة «الصهيونية الدينية»، وفي المقابل كان هناك دعاة ما يسمى «الصهيونية الثقافية ممنْ يرون أن الصهيونية حركة علمانية لا تدافع عن الدين اليهودي وإنما تدافع عن اليهود وعن هويتهم.

ورغم التناقض الظاهري بين الاتجاهين الصهيونيين، فكلاهما يدور حول مفهوم «الشعب اليهودي» الواحد وينطلق منه، وكلاهما يضفى القداسة على هذا الشعب ويفترض وجود حقوق مطلقة له في أرض فلسطين. إلا أنَّ أتباع الاتجاه الأول يرون أن مصدر القداسة هو الإله، بينما يرى أتباع الاتجاه الثاني أن مصدر القداسة هو الشعب نفسه.

ولم يمنع هذا الاتفاق المنهجي من ظهور الخلافات بين الفريقين في مجال الممارسة في الدولة الصهيونية. فدعاة الصهيونية الدينية يرون أنه إذا لم تكن الدولة الصهيونية يهودية حقاً ومحكومة بالشريعة اليهودية وبأوامرها ونواهيها، سواء في المسائل العامة أو الشخصية، فإنها تفقد شرعيتها ولا يحق لها المطالبة بأرض فلسطين. ولكن الأوامر والنواهي الدينية اليهودية كثيرة ومعقدة إلى درجة يصعب تصورُها، ويضيق بها المواطنون الإسرائيليون العاديون والمهاجرون الجدد، ويتزايد ضيقهم مع تصاعد معدلات العلمنة في إسرائيل.

وقد ظهر الصراع بين التيارين لدى إعلان الدولة الصهيونية، إذ أصر المتدينون على أن ترد عبارة أن الدولة تؤسس «تحت رعاية الإله» وهذا ما رفضه العلمانيون بطبيعة الحال. وحُلت المشكلة مؤقتاً باستخدام العبارة العبرية «تسور يسرائيل» أي «صخرة إسرائيل» وهى عبارة مبهمة، فهي أحد أسماء الإله في العقيدة اليهودية، ولكن يمكن للصهيوني العلماني أن يفسرها على أنها تعني «الأساس القوي» الراسخ أو «الهوية القومية» الثابتة.

ولكن هذا التوافق المؤقت لم يحل المشكلة بل أجَّلها لبعض الوقت ليس إلا، كما بينت تطورات الأحداث فيما بعد. فهناك المهاجرون الجدد والعمال الأجانب الذين لا يؤمنون بالعقيدة اليهودية، ولكنهم لا يمانعون في الاندماج في المجتمع الصهيوني يهوداً إثنيين، شأنهم في هذا شأن الإسرائيليين العلمانيين. وهناك المطالبة بإقرار شرعية الشذوذ الجنسي والزواج بين شخصين من الجنس نفسه وهو ما يرفضه المتدينون. بل وأصبح الدفن يثير مشكلةً، فالمؤسسة الدينية ترفض دفن غير اليهود في مدافن اليهود، وهنا تُثار قضية «من هو اليهودي؟»

وقد تنبه الكاتب المسرحي (الأمريكي اليهودي الشهير) آرثر ميللر لهذا التناقض الذي وقع هو نفسه فيه. ففي مقال له في مجلة التايمز اللندنية (٣ يوليو/ تموز ٢٠٠٣) يقول إنه عند إعلان الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨، تصور أن ذلك الحدث السياسي يشبه أحداث العهد القديم، واهتزت مشاعره بعنف، ولكنه تنبه بعد ذلك إلى أن أبطال هذا الحدث بشر عاديون، تجد من بينهم «سائقي الحافلات ورجال الشرطة والكناسين والقضاة والمجرمين والعاهرات ونجمات السينما والنجارين ووزراء الخارجية». واعترف بأنه نسي في غمرة فرحه أنه إذا أصبحت الدولة اليهودية مثل كل الدول فإنها ستتصرف كأي دولة تدافع عن بقائها بكل الوسائل المتاحة، شرعية كانت أم غير شرعية، بل وستحاول أن تتوسع على حساب الآخرين.

وبعبارةٍ أخرى، فإن ميللر يعترف بأنه أخطأ في تصنيف الدولة الصهيونية ولم يستطع التمييز بين الدولة اليهودية ودولة اليهود. فالدولة اليهودية، كما تصورها، لا تنتمي إلى التاريخ لأنها خرجت من صفحات الكتب المقدسة، أما دولة اليهود فتخضع للقوانين التاريخية التي تنطبق على الظواهر المماثلة. وحينما استرد ميللر

وعيه، صنف الدولة الصهيونية التصنيف الصحيح، فرأى عنفها وبطشها، وسجل احتجاجه عليها.

- **هوية الدولة اليهودية**

يطرح أعضاء الجماعات اليهودية في العالم كثيراً من الأسئلة بشان هوية الدولة اليهودية، ومدى عمق أو حتى حقيقة انتمائها لليهودية، سواء بالمعنى الديني أو الإثني. فالمتدينون يتساءلون: كيف يمكن أن تصنف الدولة الصهيونية على أنها دولة يهودية وهي من أكبر الدول إباحية في العالم ولا يقيم سكانها الشعائر الدينية اليهودية؟ ويتساءل اليهود المهتمون بإثنيتهم وموروثهم اليهودي السؤال نفسه: كيف يمكن أن نسمي الدولة الصهيونية التي تتزايد فيها معدلات الأمركة والعولمة بخطى متسارعة دولة يهودية؟ فبدلا من أن تكون إسرائيل هي صهيون الجديدة أصبحت «ماك إسرائيل» الجديدة (نسبة إلى ماكدونالد). ويتساءل اليهود من ذوي الاتجاهات الثورية: إنها دولة تقوم بالتجسس لحساب الولايات المتحدة، وبتزويد النظم الفاشية في أمريكة اللاتينية بالأسلحة، وكانت تتعاون مع نظام الأبارتهايد (التفرقة اللونية) في جنوب إفريقية، وحاولت قمع الانتفاضة بكل أنواع الإرهاب المتاحة ولا تزال تنكر على الفلسطينيين حق تقرير المصير وتستعمر أرضهم، فكيف يمكن أن نصف مثل هذه الدولة بكلمة «يهودية»؟

وقد طرحت القضية نفسها داخل إسرائيل ولكن على مستوى آخر وبشكل مختلف. فمن المعروف أن الاستعمار الصهيوني قد مر بثلاث مراحل: المرحلة الأولى هي المرحلة الإحلالية التي وصلت إلى ذروتها عام ١٩٤٨ مع إعلان الدولة وطرد الفلسطينيين ووصول آلاف المهاجرين للاستيطان في أرض فلسطين، ثم انتهت هذه المرحلة عام ١٩٦٧ حين قامت إسرائيل بضم الضفة الغربية والقطاع وهي مناطق مأهولة بالسكان العرب الذين لم يتمكن الاستعمار الصهيوني من طردهم، فتحول الاستعمار الاستيطاني الإحلالي (على طريقة أمريكة الشمالية حيث يباد السكان الأصليون أو يُطردون) إلى استعمار استيطاني مبني على التفرقة اللونية (على طريقة جنوب إفريقية حيث يتم الاحتفاظ بالأرض بمن عليها من سكان يتم تحويلهم إلى مصدر للعمالة الرخيصة). وقد أتاح النظام العالمي الجديد فرصاً جديدة للنظام الاستيطاني الصهيوني فأصبح بوسعه أن يتجاوز نطاق فلسطين

المحتلة ليتغلغل في البلاد العربية وليحول السوق العربية إلى سوق شرق أوسطية يلعب هو فيها دور الوسيط الأساسي بين العرب والغرب، بل وبين كل دولة عربية وأخرى، ويصبح هو القناة التي توزع من خلالها رؤوس الأموال الخارجية على المنطقة، والهدف النهائي هو أن يقوم التجمع الصهيوني بتحديد شكل المنطقة وإدارتها بما يتناسب مع مصلحته والمصالح الغربية.

وتكمن المفارقة الكبرى في أن توسع الجيب الاستيطاني يتطلب مزيداً من المستوطنين، أي المادة البشرية المطلوبة للاستيطان والقتال، حتى يمكنه الاضطلاع بوظيفته التي تشكل أساس كيانه. ولكن المصادر البشرية للهجرة اليهودية قد جفت إلى حد كبير (بسبب تناقص أعداد اليهود في العالم لانخفاض نسبة الخصوبة بينهم. وقد أفرغت الهجرة اليهودية السوفييتية الأخيرة المصدر الأخير للمادة البشرية الاستيطانية في شرق أوربة، فيهود الولايات المتحدة وغرب أوربة هم صهاينة توطينيون ويتحركون دائماً من أجل المستوطن الصهيوني ولا يهاجرون إليه قط). وتشاهد الدولة الصهيونية عدداً كبيراً من النازحين، أي المستوطنين الصهاينة، ممن يهاجرون من فلسطين المحتلة إلى الولايات المتحدة أو إلى أي بلد آخر. ومما يفاقم الأزمة تزايد السكان العرب.

وكل هذا يجعل التوسع الاستيطاني والاقتصادي أمراً عسيراً. وقد ظهر في إسرائيل صراع بين ما يسمى «الصهيونية الديموجرافية» أو «الصهيونية السكانية» و«صهيونية الأراضي». ويرى الاتجاه الأول (الديموجرافي) أن الاحتفاظ بالأراضي المأهولة بالسكان العرب ليس من الحكمة في شيء، فهم بتكاثرهم سيفوقون الصهاينة عدداً ويهددون الطابع اليهودي للدولة الصهيونية، بل ويرى هؤلاء أن تزايد عدد العرب يهدد الديمقراطية الإسرائيلية ذاتها، إذ من الصعب على دولة ديمقراطية أن تضم أقلية كبيرة (قد تصبح أغلبية) وتنكر عليها حق الاشتراك في صنع القرار. ولهذا، يطالب دعاة هذا الاتجاه بتسليم المناطق المأهولة للعرب (كما حدث مع قطاع غزة) والاحتفاظ فقط بالنقاط الاستراتيجية لضمان الأمن الإسرائيلي، الأمر الذي سيوفر لإسرائيل الجو الملائم لتطوير اقتصادها بطريقة تسمح لها بقيادة منطقة الشرق الأوسط، أما الاتجاه الثاني (صهيونية الأراضي) فيذهب إلى أنه لا يمكن الانسحاب من أي من الأراضي التي احتلها الصهاينة (فهي أرض الميعاد المقدسة) وأنه يمكن الاحتفاظ بها بمن عليها من السكان دون

التخلي بالضرورة عن الطابع اليهودي للدولة (فالقمع المستمر للعرب سيضمن هدوءهم في المناطق (كما تسمى الأراضي المحتلة في الخطاب الصهيوني). ومما يجدر ملاحظته أن الاتجاه الأول يوصف بأنه «معتدل» (بينما يوصف الثاني بأنه «متطرف». وحقيقة الأمر أنه لا يوجد فارق جوهري بينهما، فكلاهما يصدر عن الإجماع الصهيوني، وهما لا يختلفان إلا فيما يتصل بطريقة التطبيق ونطاق التوسع. وترى الولايات المتحدة (رائدة النظام العالمي الجديد) أن مدرسة الصهيونية السكانية هي الأقرب لأهدافها، فالنظام العالمي الجديد يفضل عدم المواجهة المباشرة مع الشعوب المستغلة على حين أن صهيونية الأراضي تؤدي إلى مثل هذه المواجهة.

- **أسطورة الوطن الأصلي**

قرارات المؤتمرات الصهيونية تشبه الأسطوانة المشروخة التي تكرر الأصوات نفسها إلى أن يضطر المستمع إلى إسكاتها. وهذا ما حدث في المؤتمر الرابع والثلاثين (٢٠٠٢)، الذي أكد في قراراته مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا وهو في هذا لا يختلف عن المؤتمر الحادي والثلاثين (١٩٨٧) الذي طرح مبدأ ثنائية المركزية (أي أن يكون ليهود العالم مركزان أحدهما في إسرائيل والثاني في الدياسبورا. أما المؤتمر الثالث والثلاثون (١٩٩٧) فطرح مفهوم مركزية إسرائيل في الحياة اليهودية، متبنياً بذلك الرؤية الأمريكية لإشكالية الهوية في المجتمعات الاستيطانية ولعلاقة المستوطن بوطنه الأصلي. فهناك أمريكيون ألمان وأمريكيون أيرلنديون وأمريكيون عرب وأمريكيون يهود. فالأمريكيون الألمان أمريكيون وطنهم الأصلي ألمانية، والأمريكيون الأيرلنديون أمريكيون وطنهم الأصلي أيرلندة، والأمريكيون اليهود أمريكيون ووطنهم الأصلي إسرائيل (فلسطين) (حسب التصور الصهيوني).

وتبنّي الرؤية الأمريكية للهوية يعني أن بوسع الأمريكي اليهودي أن يصبح مواطناً أمريكياً يندمج في مجتمعه دون أن ينصهر فيه تماماً، فهو أمريكي يحتفظ بهويته اليهودية، ومن ثم تتحقق الرؤية الصهيونية الخاصة بمركزية إسرائيل في الحياة اليهودية.

ولكن المفارقة الكبرى أن أسطورة الوطن الأصلي هي عكس الأسطورة الصهيونية تماماً، فالوطن الأصلي هو الوطن الذي تهاجر منه وليس الوطن الذي

تهاجر إليه، والصهيونية تعني أولاً وقبل كل شيء الهجرة إلى فلسطين والاستيلاء عليها والاستيطان فيها. وفي دراستنا للصهيونية قسمنا الصهيونية إلى قسمين: «صهيونية استيطانية» وهي صهيونية اليهودي الذي يترك وطنه ليستوطن في فلسطين ويحمل السلاح ضد أهلها، و«صهيونية توطينية»، وهي صهيونية اليهودي الذي يبقى في وطنه ولكنه يؤيد الاستيطان فيجمع الأموال ويحضر المهرجانات الصهيونية ويساهم في توطين اليهود الآخرين في فلسطين دون أن يهاجر هو نفسه. وقد قيل في تعريف الصهيونية التوطينية إنها صهيونية اليهودي الذي يأخذ أموالاً من يهودي آخر لتوطين يهودي ثالث في أرض الميعاد!

وبطبيعة الحال لا يقبل الصهاينة بهذا التقسيم، لأنهم لو فعلوا لفقدوا كثيراً من الشرعية، فهم يدعون أن الصهيونية هي أيديولوجية الشعب اليهودي بأسره وقانون العودة هو دعوة لكل يهود العالم للاستيطان في فلسطين، وتقسيم الصهيونية إلى استيطانية وتوطينية يعني أن قانون العودة موجه لجزء صغير من يهود العالم، وهذا ما يرفضه الصهاينة الذين استوطنوا بالفعل في فلسطين، ولهذا يمارسون ضغوطاً على يهود العالم لكي ينفضوا عن أنفسهم الصهيونية التوطينية ويتحولوا إلى صهاينة حقيقيين، أي استيطانيين. وهكذا، فمركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا، بالنسبة إلى الصهاينة الاستيطانيين والإسرائيليين، تعني الهجرة الاستيطانية. وهذا ما أكده المؤتمر الصهيوني الأخير، حيث أيد محورية الهجرة الاستيطانية أساساً لتحقيق الصهيونية، وبذلك أعطى إسرائيل دور المركز بالنسبة إلى يهود العالم، مقدِّراً أن كل من لا يعتزم الهجرة إلى إسرائيل غير صهيوني، بل وخائن للهوية اليهودية!.

وتمثل التجمعات الصهيونية، خاصة في الولايات المتحدة، المعارضة الأساسية لهذا الموقف الذي يقلص، بل يقوض، دورهم تماماً ويهمشهم ويشكك في صهيونيتهم. ولهذا، ترى المنظمات المؤيدة لهذا الاتجاه أن اليهود «أمة» لا ترتبط بوطن واحد، وتكتفي بالحديث عن «شعب يهودي» دون الارتباط بوطن، كما تطالب بتأكيد المشاركة بين الدولة الصهيونية ويهود العالم على قدم المساواة، وبالنظر إلى الهجرة نحو إسرائيل لا على أنها أساس لتحقيق الصهيونية وإنما على أنها مثل أعلى.

وقد نشبت المعارك بين الفريقين، صهاينة العالم (التوطينيين) والصهاينة الاستيطانيين، في المؤتمرات الصهيونية المتعاقبة. ففي المؤتمر الخامس والعشرين (١٩٦١) أكد بن جوريون أن الهجرة إلى إسرائيل واجب ديني وقومي على كل اليهود، لأن اليهودي لا يعبر عن إيمانه بالصهيونية إلا بوجوده في الدولة الصهيونية. وتصدى له ناحوم جولدمان، ممثل يهود العالم، فأكد أن اليهودي قد يكون صهيونياً مخلصاً مع استمراره في بلده الأصلي. وفي المؤتمر الثامن والعشرين (١٩٧٢) بدأت الدولة الصهيونية تصعد حملتها لتهجير اليهود السوفييت، ولكن جولدمان اعترض على هذه الحملة مؤكداً أن من حق كل يهودي أن يبقى في وطنه الحقيقي (أي الوطن الذي يعيش فيه) لا أن يهاجر إلى وطنه الأصلي الوهمي (أي الدولة الصهيونية!).

وأحياناً يزداد تطرف بعض الصهاينة الاستيطانيين فيثيرون قضية حساسة، وهي كيف يمكن لهؤلاء «الزعماء الصهاينة» أن يحضروا المؤتمرات الصهيونية وأن يثرثروا عن الهوية اليهودية والارتباط الأزلي بأرض الميعاد دون أن يستوطنوا هم أنفسهم فيها؟ وفي إحدى المؤتمرات تقدم بعض الاستيطانيين بمشروع قرار يلزم من يحضرون المؤتمرات الصهيونية عدة مرات بالاستيطان في فلسطين المحتلة، فانسحب وفد منظمة «الهادساه» (المنظمة النسوية الصهيونية الأمريكية) وهي أكبر المنظمات الصهيونية على الإطلاق، ولم يعد الوفد إلى قاعة المؤتمر إلا بعد سحب مشروع القرار.

وحدث شيء مماثل في المؤتمر الأخير، حيث ألقى حاييم تسلر، أمين صندوق الوكالة اليهودية، خطاباً قال فيه إنه يفضل المهاجرين غير اليهود من الاتحاد السوفييتي السابق على هؤلاء اليهود الذين يصلّون ثلاث مرات في اليوم ويبقون في نيويورك، أي إنه أعطى أولوية مطلقة للاستيطان الصهيوني تجبُّ حتى الانتماء لليهودية. وبطبيعة الحال ثارت ثائرة المؤتمر وقامت لجنة من يهود العالم الذين يجمعون التبرعات بإقالته.

وهكذا تظل الإشكاليات الأساسية كما هي: من هو اليهودي؟ من هو الصهيوني؟ مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا أم مركزية الدياسبورا في حياة يهود العالم؟ وتظل الأسطوانة المشروخة تدور، وتظل التناقضات تعتمل داخل الكيان الصهيوني، ولكنها لا تتفجر إلا بفعل المقاومة الفلسطينية.

والسبب في إثارة موضوع الهجرة الاستيطانية بهذه الحدة هو عزوف يهود العالم عن الاستيطان في فلسطين. ففي ٩ يونيو ٢٠٠٢ (أي قبل عقد المؤتمر بعدة أيام) أعلنت أرقام الهجرة إلى فلسطين المحتلة خلال النصف الأول من العام، وبلغ العدد ٦٤٦ مهاجراً لا أكثر ولا أقل، وأغلبهم (٤٤٠) من بلدان الاتحاد السوفييتي السابق، بينما جاء ١٥ من فرنسة، و٨ من إنجلترة، و١٣ من الولايات المتحدة وكندة!. وعلقت إحدى الصحف الإسرائيلية بقولها إن تلك الأعداد أشبه بأعداد أفواج سياحية، وأضافت أن معظم هؤلاء المهاجرين يستخدمون إسرائيل محطةً مؤقتة، يهاجرون بعدها إلى بلاد مثل كندة وأسترالية.

ولا شك في أن هذا العزوف يعود بالأساس إلى المقاومة الفلسطينية التي تبين لكل العالم أن الشعب الفلسطيني دخل حرباً من أجل تحرير وطنه، وأنه لم يعد مجرد قطعة أرض خالية يأتي لها من يشاء ليؤسس المستعمرات الاستيطانية والمنازل الفاخرة وحمامات السباحة المترفة.

الفصل الثامن

خرافة الشخصية اليهودية

• الصهيونية والنزعة المادية الاستهلاكية

ثمة تيار نفعي مادي معادٍ لأي أيديولوجيات أو مثاليات أسفر عن وجهٍ فاضح في السنوات الأخيرة في المستوطن الصهيوني. هذا التيار كان في واقع الأمر كامناً في الأيديولوجية الصهيونية منذ البداية، فأهم أهداف الاستعمار الاستيطاني هو استيعاب ما يسمى الفائض البشري human surplus في الغرب، وهم الأفراد من أعضاء الجماعات الوظيفية الذين لم يعد لهم وظيفة والفاشلون اجتماعياً، والعاطلون عن العمل. كل هؤلاء تم تصديرهم إلى الشرق ليحققوا ما فشلوا في تحقيقه في الغرب. فأرسل المجرمون إلى أسترالية، والساخطون دينياً إلى الولايات المتحدة، وأما من يودون تحقيق الحَراك الاجتماعي الذي أخفقوا في تحقيقه في مجتمعاتهم فذهبوا إلى جنوب إفريقية والهند. والجيب الاستيطاني الصهيوني قام بهذه المهمة بالنسبة للفائض البشري اليهودي الذي صدرته شرق أوربة، إلى بقية أنحاء العالم الغربي، بما في ذلك الولايات المتحدة، والذي كان يهدد الأمن الاجتماعي في هذه البلاد. ولذا كان لابد من تحويل هذه الهجرة إلى مكان خارج العالم الغربي، إلى أي مكان في العالم. وقد استقر المستوطنون الصهاينة في فلسطين وهم يعلمون ذلك تماماً، رغم كل الديباجات الدينية عن أرض الميعاد وصهيون والشعب المختار. ولذا ليس من الغريب أن نعرف أن المستوطنين الأوائل

الذين أرسلهم روتشيلد إلى فلسطين للعمل في مزارع الكروم التي أنشأها هناك كانوا يبذلون قصارى جهدهم في ابتزاز أمواله وأموال غيره من أثرياء الغرب.

ويمكن رؤية هجرة يهود البلاد العربية بعد عام ١٩٤٨ في هذا الإطار النفعي الأيديولوجي، فقد استوطنوا فلسطين لتحقيق الحَراك الاجتماعي، لأنهم لم يكونوا قط من المؤمنين بالأيديولوجية الصهيونية. ولذا يلاحظ أن الأثرياء منهم وذوي المؤهلات العالية لم يستوطنوا في فلسطين وإنما هاجروا إلى الغرب.

وقد تصاعدت معدلات هذا الاتجاه بعد عام ١٩٦٧ مع التوجه الاستهلاكي الآخذ في التصاعد، ومع تآكل الأيديولوجية الصهيونية الذي ولَّد ما يُسمَّى «أزمة المعنى». وعادةً ما تؤدي أزمة المعنى إلى إحساس بالعدمية يحاول الإنسان التغلب عليه من خلال الاستغراق في عنصر مادي بشكل كامل (شرب المخدرات - الإباحية - الاستهلاك) يبحث الإنسان فيه عن قدر من اليقين. لكن ما يحدث هو العكس إذ إن تصاعُد الاستهلاك وإغراق الحواس فيه يزيد أزمة المعنى بدلاً من تهدئتها، ويزداد بذلك تآكُل الأيديولوجية وتقويضها.

وتوجد عناصر أخرى في بنية المجتمع الاستيطاني الصهيوني (الاستهلاكي) تصعد هذا الاتجاه. وقد لوحظ أن المجتمعات العلمانية تمر بمرحلتين: مرحلة تقشفية تراكمية (صلبة)، وأخرى استهلاكية فردوسية (سائلة). وتنتمي المجتمعات الاستيطانية إلى النمط نفسه، بل إن تحقق النمط في حالتها يتسم بقدر أعلى من الحدة والتطرف. فالمجتمعات الاستيطانية تبدأ هي الأخرى بمرحلة تقشفية حادة تتطلب التنظيم الصارم وضبط النفس وإنكارها بل والتضحية والقتال المستمر (ضد الطبيعة المعادية والسكان المعادين)، ولكن كل هذا يتم، منذ البداية، باسم الهدف النهائي والقيمة المرجعية النهائية، أي تحقيق الذات وتعظيم اللذة، وكل ما يتم من إرجاء لإشباع الغرائز إنما يتم باسم الاستهلاك الآجل. وإذا كانت مرحلة التقشف حادةً في تقشفها، فالمرحلة الاستهلاكية في المجتمعات الاستيطانية لا تقل عنها حدة. ويعود هذا إلى أن المُستوطن إنسان تَرَك وطنه واقتُلع من جذوره ليحقق حَراكاً اجتماعياً ومزيداً من الاستهلاك، وانتقل إلى مجتمع استيطاني يظن أنه الفردوس الأرضي الموعود. والمهاجر المستوطن يرفض تقاليد وطنه أو يتركها وراءه أو يجمدها، وهو يقوم عادةً بعملية الاستيطان في غياب أية مؤسسات دينية، وإن

وجُدت فهو عادةً يسيطر عليها ويوظفها لتقوم بعملية تسويغ عمليات الإبادة والطرد التي يقوم بها. وهو، إلى جانب كل هذا، لا يتبنَّى التقاليد الدينية والثقافية والاجتماعية للسكان المحليين وإنما يقوم بتحطيمها، ولذا فإنه يصبح كياناً عارياً تماماً أمام المادة. ويعني كل هذا، في نهاية الأمر، أن قيم المنفعة واللذة تكون في مثل هذه المجتمعات في حالة تَرقُّب وانتظار لتتحقق وتكتسح المطلقات كافة في طريقها مع تزايد معدلات العلمنة.

والمُستوطن الصهيوني لا يشكل استثناء من القاعدة، فقد بدأ بمرحلة ريادة مسلحة تقشفية وانتهى إلى مرحلة استهلاكية فردوسية لأن المستوطنين الصهاينة كانوا منذ البداية مموَّلين من الخارج.

ولا شك في أن كون المجتمع الصهيوني مجتمع مهاجرين يعني أن هناك دائماً جماعات بشرية جديدة تفد على المجتمع وتصعِّد من سعاره الاستهلاكي، كما حدث مع وصول المهاجرين السوفييت.

ومما يساعد على تفشي النزعة الاستهلاكية ظاهرة الأمركة، والأمركة هي أسلوب حياة جوهره اتخاذ موقف برجماتي ينصرف عن الكليات والمبادئ ليركز على التفاصيل وحل المشاكل المباشرة، ويعتمد العنف آلية أساسية من آليات حل الصراع، ويركز على الفرد بالدرجة الأولى وتأكيد ضرورة الإشباع الفوري. والأمركة تعني تآكل الجذور وتساقط الحدود الأمر الذي يصعِّد السعار الاستهلاكي.

والأمركة مرتبطة تمام الارتباط بالعولمة التي لها الأثر نفسه في التجمُّع الصهيوني، فالإنسان الذي يفقد جذوره الإثنية والدينية يميل بشكل أكبر نحو الاستهلاك، لأن استهلاك السلع يصبح السبيل إلى تحقيق الفردوس الأرضي. وفي إطار العولمة تصبح السلع العالمية (أي الأمريكية) هي رمزَ هذه الجنة الجديدة.

ويرتبط بكل هذا الاتجاهُ نحو الخصخصة، فالخصخصة تعني أن نقطة البدء هي الفرد وليس المجتمع، وأن المشروع الفردي يسبق المشروع القومي.

وتعبر هذه النفعية المادية الاستهلاكية عن نفسها في علاقة الدولة الصهيونية مع يهود العالم، فهي تضغط عليهم وتحاول ابتزازهم بأن تولد عندهم إحساساً بالذنب

لعدم هجرتهم إلى «أرض الميعاد»، ولكنهم لا يودون الهجرة فهم مندمجون في أوطانهم ويتمتعون بمستوى معيشي مرتفع لا يمكنهم تحقيقه في الدولة الصهيونية. وحيث إنه من الصعب عليهم رفض الصهيونية أو معاداتها لأن الصهاينة قد هيمنوا على كل المؤسسات والجمعيات اليهودية ولذا بدلاً من المواجهة والتصدي يلجؤون للمراوغة والتملص، ولذا بدلاً من الهجرة الاستيطانية فإنهم يجزلون العطاء للدولة الصهيونية التي تلتهم التبرعات وتلتزم الصمت إزاء عدم هجرتهم إلى أرض الميعاد. وقد ظهرت عدة مصطلحات لوصف هذا الوضع:

١- الصهيونية النقدية: أي إن المواطن اليهودي سيعبر عن ولائه للدولة الصهيونية عن طريق دفع مبالغ نقدية للمؤسسات الصهيونية.

٢- الصهيونية الاقتصادية: وهو مرادف للمصطلح السابق.

٣- صهيونية دفتر الشيكات: هذا المصطلح يبين أن العلاقة بين اليهودي وصهيون ليست علاقة عضوية، أزلية، حتمية إلخ، كما يدعي الخطاب الصهيوني، وإنما هي علاقة نفعية مادية، وبدلا من «العودة بعد غياب دام ألفي عام» ظهر دفتر الشيكات، وحل كل المشاكل.

٤- صهيونية النفقة: الصورة المجازية الكامنة في هذا المصطلح هي صورة اليهودي الذي تطارده طليقته (الدولة الصهيونية) وتطالبه بالنفقة، فيضطر أن يدفع لها بل يجزل لها العطاء حتى تكف عن ملاحقته وفضحه أمام نفسه وأمام الجيران، أي إن المصطلح يجعل العلاقة بين يهود العالم والدولة الصهيونية علاقة برانية تماماً، نفعية مادية.

• الشخصية اليهودية واللذة

يدعي الصهاينة أن «الشخصية اليهودية لها خصوصيتها وفرادتها، فاليهود يتسمون بكذا وكذا، ثم يأتون بقائمة من الفضائل التي يختارونها حسب الجمهور المخاطب. فإن كان الجمهور من العسكريين، فإن اليهود يتسمون بالقدرة على القتال وتحمل شظف العيش، أما إذا كان من دعاة السلام فإن اليهود حمائم يكرهون بطبيعتهم منظر الدم. ورغم التناقض الظاهر بين المنطقين فإنه يفترض أن الشخصية اليهودية لها سمات ثابتة تجعل هذه الشخصية بمنأى عن التحولات

الناجمة عن تغير المكان والزمان، لكن مثل هذا التصور وهم يفرز أكاذيب. خذ، على سبيل المثال، الشخصية اليهودية في إسرائيل. فقد ذهب الصهاينة إلى أن الإسرائيليين يحملون لواء أفكار رومانسية مثل العمل العبري، أي أن يعمل اليهودي بيده في الأرض التي يغزوها، وأنه يجب أن يقاتل بنفسه ولا يدع أحداً يحرسه، وهكذا. وبالفعل، كان المستوطنون الأول يحيون حياة متقشفة امتدت منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٧ حيث كانوا يزرعون ويأكلون وينظمون أنفسهم تنظيماً عسكرياً صارماً تحسباً لهجوم السكان الأصليين عليهم بعد الاستيلاء على أرضهم وإبادة البعض منهم. وقد واكب ذلك ضبط للنفس وإنكار للذات، بل تضحية بها.

ولكن (ويا لها من لكن) كان كل هذا يتم، منذ البداية، باسم الهدف النهائي والقيمة المرجعية النهائية، أي تحقيق الذات وتعظيم اللذة، وكل ما كان يتم من إرجاء للإشباع وتقشف حاد كان يتم باسم الاستهلاك الآجل، خاصة وأن المستوطن الصهيوني (رغم كل الادعاءات الأيديولوجية) قد اقتلع من وطنه واستوطن في أرض مغتصبة بحثاً عن الحَراك الاجتماعي والرفاهية الاقتصادية.

وحينما حققت إسرائيل انتصاراً عام ١٩٦٧، أي بعد نحو ٢٠ عاماً فحسب من تأسيس الدولة، تفجرت الرغبات الاستهلاكية وزاد النزوع نحو اللذة وارتفعت التوقعات وانخفضت المقدرة على التحمل إذ شعر المستوطنون الصهاينة أن المرحلة التقشفية قد انتهت وأن الوقت قد حان لدخول مرحلة الاستهلاك والسلع المستوردة، وهذا يعني أن ارتفاع معدلات الأمركة في المجتمع أدى إلى اكتساح القيم، والمطلقات كافة، ومعها المطلق الصهيوني نفسه وسائر آليات ضبط النفس التي تتم في إطاره، وذلك قبل أن يضرب المجتمع بجذوره وقبل أن يؤسس بنيته التحتية. ولهذا، تزايدت معدلات الأمركة في المجتمع، وضعفت مقدرة المستوطنين على تحمل المشاق. ومع تَفجُّر الانتفاضة تصاعدت حدة أزمة المجتمع الصهيوني.

لكل هذا تغيَّرت الأنماط الإدراكية في المجتمع، فتراجع أنموذج «الكيبوتسنيك» (عضو الكيبوتس) المتقشف المحارب، وظهر أنموذج «روش قطان»، أي المواطن ذو الرأس الصغير والمعدة الكبيرة، الاستهلاكي الرخو، وظهر مجتمع ما يسمى «V»: الفولفو والفيديو والفيلا.

وهذه الظواهر موجودة في كل المجتمعات ولكن أثرها السلبي أعمق في التجمع الصهيوني لأنه مجتمع يستند عقده الاجتماعي إلى أيديولوجية تشكل الهوية عصبها وعمودها الفقري.

ويرتبط بكل هذا الاتجاهُ نحو الخصخصة، فالخصخصة تعني أن نقطة البدء هي الفرد وليس المجتمع، وأن المشروع الفردي يسبق المشروع القومي. ومثل هذا الموقف يزيد بغير شك حدة السعار الاستهلاكي. وللخصخصة أعمق الأثر في المجتمع الصهيوني، فهو تجمع استيطاني لابد أن ينظم لنفسه تنظيماً جماعياً ليضمن لنفسه البقاء والاستمرار أمام مقاومة أصحاب الأرض. ولا شك أن كون المجتمع الصهيوني مجتمع مهاجرين يعني أن هناك دائماً جماعات بشرية جديدة تفد على المجتمع وتصعد من سعاره الاستهلاكي..

وفي هذا الإطار ولدت الحساسية الجديدة لدى الشباب الإسرائيلي، فهو - على حد قول المعلق السياسي الإسرائيلي يوئيل ماركوس - لا يفكر إلا في ذاته. والأيديولوجية الصهيونية لا تعني كثيراً بالنسبة إليه، فهو منخرط في حياته اليومية وفي مجتمعه المترف الذي لم تشهده إسرائيل في أي وقت سابق. لقد أصبحت النزعة الفردية وكذلك النزعة المادية هما المسيطرتان على المجتمع الإسرائيلي. وتحولت إسرائيل من بلد كان يقدس الجماعية إلى بلد يقدس الفردية، ومن بلد تتحد كل صفوفه لتطبيق المشروع الصهيوني إلى بلد تغذيه الفردية والمادية من كل جانب.

- **محترفو الاستيطان**

لا يزال كثيرون في العالم العربي يتصورون أن المستوطنين الصهاينة في الضفة الغربية قد استوطنوا هناك دفاعاً عن الأيديولوجية الصهيونية والحلم اليهودي بالعودة إلى أرض الميعاد، وأنهم يقفون دفاعاً عن الأرض التي استولوا عليها يمسكون السلاح بيد والمحراث بالأخرى، وهي الصورة التي يروجها الصهاينة عن أنفسهم ليبثوا الرعب في نفوسنا وحتى يبينوا للعالم مدى صلابتهم في دفاعهم عن أحلامهم وعن «حقوقهم».

ولكن هذه الصورة لا علاقة لها بالواقع، فقد تآكلت الأيديولوجية الصهيونية، وحدثت تحولات عميقة في التجمع الصهيوني. ولابد أن أعترف أنني وقعت تحت

تأثير هذا الأنموذج بعض الوقت إلى أن قابلت طالبة من طالباتي عاشت في حيفا بعض الوقت ولاحظت أنها تتحدث بازدراء شديد عن المستوطنين الصهاينة، ولا تراهم أبطالاً أو مقاتلين شرسين مما جعلني أشعر أن في الأمر شيئاً ما. ثم بدأت أطالع بعض الإعلانات في الصحف الإسرائيلية ولاحظت أن كثيراً منها يفترض أن المستوطن الصهيوني هو إنسان مستهلك وأن ما يهمه هو الربح المادي وليس الدفاع عن الأرض وما شابه من «مثاليات» قومية. ولذا فهذه الإعلانات كانت خالية تماماً من أي إشارات دينية إلا بطريقة ساخرة مستخفة. خذ على سبيل المثال هذا الإعلان عن «ذافرست إنترناشيونال بانك». المانشت الأساسي في الإعلان هو العبارة التالية The right bank for people with rights والتي يمكن ترجمتها: «البنك المناسب (الحقيقي) للشعب صاحب الحقوق». ثمة لعب على كلمة «right» الإنجليزية فهي تعني «مناسب» وتعني «حقوق»، وهي إشارة ساخرة للادعاء الصهيوني أن اليهود لهم «حقوق مطلقة» absolute rights في أرض الميعاد. وبينما يتحدث الإعلام الصهيوني عن «حقوق» اليهود الأزلية الثابتة في أرض الميعاد، فإن الإعلان يتحدث عن حقهم العملي المباشر الحركي في أن يفتحوا حساباً جارياً بالعملات الأجنبية. ثم يذكر حقوق عملية أخرى مثل الحصول على the right currencies أي العملات المناسبة (الحقة) و the right terms أي الشروط المناسبة (الحقة) وهكذا.

أما الإعلان الثاني فهو إعلان نشرته الوكالة اليهودية قسم الهجرة والاستيطان بالاشتراك مع وزارة استيعاب اللاجئين ووزارة الإسكان والتعمير، وهو موجه إلى «اللاجئ العزيز» بالإنجليزية أوليه oleh وهي من الكلمة العبرية «عاليا» أي الصعود (إلى أرض الميعاد) وهي تحمل معاني السمو والرقي الروحي. كل هذا يختفي تماماً فالإعلان يدعوه لأن يجعل منزله في إسرائيل وأن يشتري شقة الآن. ولا يوجد أي ذكر لصهيون أو لأرض الميعاد وإنما يخبره الإعلان «فلتغتنم الفرصة للمزايا الخاصة المتاحة لك اليوم»، ثم يذكر له ثمن الشقة وبعض مزاياها.. والإشارة الوحيدة للرموز اليهودية هي إشارة ساخرة؛ إذ يظهر يدَيْن ممسكتَيْنِ ببيت يوحي بأنه يشبه نجمة داوود (أو هكذا يخيل لي على الأقل). هذه الإعلانات غيرت من وجهة نظري كثيراً وعدلت خريطتي الإدراكية، وبدأت أرى المستوطنين الصهاينة من هذا المنظور الجديد، فوجدت أن الادعاءات الأيديولوجية الصهيونية قد تراجعت،

وحل محلها توجه استهلاكي حاد، والتزام بالقيم النفعية المادية، والبحث عن اللذة في الإطار المادي.

خذ على سبيل المثال هذا الخبر عن نعومي شومير، أشهر مغنية «قومية» صهيونية إسرائيلية. حينما زارت سيناء بعد احتلال إسرائيل لها عام ١٩٦٧ قالت بلهجة أيديولوجية صهيونية نهمة: «هذه هي الأرض التي تمد يدها لتعطي لا لتأخذ». ولكن حين حان الوقت لإخلاء المستوطنات في سيناء، رفض بعض المستوطنين الصهاينة الانصياع لأوامر الدولة الصهيونية وأعلنوا تمسكهم «بالأرض» التي تعطي، وغنَّت نعومي شومر أغنية تؤيد معارضي الإخلاء وتطالب بالتمسك بالأرض. وقرر المستوطنون إقامة مسيرة احتجاج ضد الانسحاب من سيناء، ودعوا نعومي شومير لتغني أغنيتها الحماسية القومية، ففوجؤوا بأن وكيل أعمالها يطلب منهم مبلغاً كبيراً لقاء ذلك، أي إنها مدت يدها لتأخذ لا لتعطي. وعلى كل كانت نعومي شومير تعرف أن تمسكهم بالأرض كان ستاراً أيديولوجياً كثيفاً يغطون به رغبتهم الشرهة في الحصول على تعويضات باهظة من الدولة الصهيونية.

ويتكرر الموقف الآن في غزة، فقد لاحظت الصحف الإسرائيلية أن المستوطنين الذين سيتم إخلاؤهم لا يمانعون في ذلك، وأن الأصوات الرافضة العالية التي يصدرونها ليست تعبيراً عن تمسكهم بالأرض بمقدار ما هي تعبير عن رغبتهم في تحسين موقفهم التفاوضي بشأنِ التعويضات. وقد نشرت بعض الصحف الإسرائيلية أنه بعد الانسحاب من سيناء قام بعض الصهاينة بالاستيطان في غزة والضفة الغربية وهم يعرفون جيداً أن الحكومة ستقوم بإخلائهم يوماً، وستكون ملزمة بدفع تعويضات لهم، أي أنهم استوطنوا كي يحصلوا على تعويضات الإخلاء في المستقبل النقدي الوردي.

وقد لاحظت إحدى الصحف الإسرائيلية (في مقال بعنوان «لا دافع أيديولوجياً وراء تصميم المستوطنين [على البقاء في غزة]: فقط عملية شراء وبيع «٢٩ مايو ٢٠٠٥») أن المستوطنين الذين يزعمون إخلاءهم من منازلهم غير مكترثين بالثوابت الصهيونية وأنهم دخلوا في مفاوضات ساخنة مع الدولة تدور أساساً حول حجم التعويض الذي سيعطى لهم بسبب الإخلاء.

وقد أدرك سماسرة العقارات هذا التحول، ولذا فهم لا يصدعون الرؤوس بالحديث عن أرض الميعاد أو عن القومية اليهودية، وإنما عن المزايا المادية العديدة، مثل انخفاض أسعار المنازل في مستوطنات الضفة الغربية عن نظائرها في فلسطين التي احتلت قبل عام ١٩٦٧. فالمنزل المكون من ثلاث أو أربع غرف يكلف ١٧٠ ألف دولار في معالية أدوميم، بينما في القدس الغربية فهو يكلف ٢٧٠ ألف دولار، يا بلاش. (النيويورك تاميز ٢٠ يونيه ٢٠٠٤)، وكأن الأوطان عقارات وفنادق!

ويمكن وصف صهيونية هؤلاء المستوطنين بأنها «الصهيونية اللوكس» (أو «الصهيونية مكيفة الهواء») وقد صككت هذا المصطلح قياساً على عبارة زئيف شيف «الاستيطان دي لوكس» حيث يشير إلى أسلوب حياة المستوطنين في الضفة الغربية الذي يتسم بالرفاهية الشديدة (على عكس صهيونية المستوطنين الأوائل التي كانت تتسم بالتقشف).

وقد صككت مصطلحاً آخر وهو «الصهيونية المكوكية» قياساً على مصطلح الاستيطان المكوكي (بالإنجليزية: شتل ستلمنت «shuttle settlement») والذي يُستخدَم في الصحف الإسرائيلية للإشارة إلى المستوطنين الذين يقطنون الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ولكنهم يعملون في الأرض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ فهم يتنقلون يومياً من المستوطنات ويعودون إليها في حركة مكوكية. وقد قطن هؤلاء في الضفة الغربية بدافع واحد وهو أن المساكن في المستوطنات أكثر فخامة وترفاً وأقل تكلفة من المساكن خلف الخط الأخضر. ويُقال إن كثيراً من هؤلاء المكوكيين هم «محترفو الاستيطان» (بالإنجليزية: ستلمنت برفشينالز settlement professionals)، أي الذين اشتروا منازلهم هذه واستوطنوا في الضفة الغربية للحصول على «تعويضات» مناسبة إن اضطرت الدولة الصهيونية إلى نَقْل بعض المستوطنات، كما حدث من قبل في مستوطنة يا ميت في سيناء.

- **صهيونية المرتزقة**

أشرنا فيما سبق إلى أن الدافع الأيديولوجي (العقائدي) للاستيطان في فلسطين قد تراجع وتلاشى وحل محله الرغبة في الحَراك الاجتماعي. وهذا واضح في حالة أغلبية المهاجرين من الاتحاد السوفييتي السابق؛ فهؤلاء المهاجرون لا يؤمنون

بالصهيونية أو بأية عقيدة أخرى، كما لا توجد عندهم هوية يهودية واضحة فهم جماعة بشرية فقدت الهوية والقيم، بعد عشرات السنوات من الدعاية الإلحادية في الاتحاد السوفييتي السابق، وأصبح هدفها الأساسي هو البحث عن المنفعة واللذة في الحياة بشكل إجرائي كفء. ومثل هؤلاء لا يفكرون إلا في يومهم وإن فكروا في مستقبلهم فهم يفعلون ذلك بنفس المعايير الكمية الإجرائية، وهم عادة لا يفكرون في الماضي أو التراث أو الهوية. ولا يحملون أي أعباء أيديولوجية أو أخلاقية، فالمعايير التي يستخدمونها معايير مادية تهدف إلى تعظيم المنفعة (المادية الكمية) واللذة (عادة المباشرة)؛ وتطلعاتهم الاستهلاكية شرهة لا تخفف حدتها أي قيم أو رغبة في التجاوز وهي تطلعات لا تقبل أي إرجاء. وذلك بسبب غياب أية مثل عليا. وهم يتسمون بحركية غير عادية ورغبة عارمة في تحقيق الحراك الاجتماعي وتحسين المستوى المعيشي دون اكتراث بأية قيم ثقافية أو دينية أو خصوصية حضارية أو أيّ مطلقات معرفية أو أخلاقية تسبب الصداع للرؤوس المادية النفعية الاستهلاكية.

وقد حاول كثير منهم الهجرة إلى الولايات المتحدة لتحقيق طموحاته المادية الاستهلاكية، ولكن إسرائيل واللوبي الصهيوني نجحا في اقناع الولايات المتحدة بأن توصد أبوابها دونهم. ومن ثم أصبحت إسرائيل بالنسبة إليهم هي السبيل الوحيد للخروج من الاتحاد السوفييتي. ولذا، فإن كثيراً من هؤلاء المهاجرين ذهبوا صاغرين إلى أرض الميعاد لا يحملون في قلوبهم أيَّ تطلُّع لصهيون أو أيَّ حب لها. «فهم لا يريدون سماع أي شيء عنها» (على حد قول يوري جوردون رئيس قسم الاستيعاب في الوكالة اليهودية الذي كان مسؤولاً عن توطين اليهود السوفييت). بل إن بعضهم ادَّعى اليهودية، ولم يمانع في أن يُختن في سبيل الحصول على الدعم المالي على أمل أن تُتاح له فيما بعد فرصة الفرار من أرض الميعاد الصهيونية في فلسطين المحتلة إلى أرض الميعاد الحقيقية في الولايات المتحدة. وتحاول الدولة الصهيونية من جانبها أن تكبلهم بالمساعدات المالية التي يصعب عليهم سدادها حينما تحين لحظة الفرار.

وقد لخص أحد المهاجرين المرتزقة الموقف بقوله: «لم يكن أمامي من خيار إلّا أن أذهب إلى إسرائيل بعد أن قضينا سبعة شهور في رومة». ولكنه أعلن عن تصميمه على عدم البقاء. وقد بدأت الصحف الصادرة بالروسية في إسرائيل

بتخصيص مساحة كبيرة يحتلها معلنون يعرضون تزويد القراء بالسلعة التي تطمح لها غالبية المهاجرين الجدد: تأشيرات دخول إلى كندة (أرض ميعاد أخرى مجاورة للولايات المتحدة). وقد وصف أرييه ديري، وزير الداخلية، المهاجرين المرتزقة وصفاً دقيقاً حين قال: إنهم بعد وصولهم ستجدهم جالسين على حقائب السفر. وقال مسؤول إسرائيلي آخر: «بعض ممن لا يمكنهم الذهاب إلى الولايات المتحدة سيأتون إلى إسرائيل بهدف استخدامها محطة على الطريق، وسيقومون باستغلالنا أيضاً، وسيأخذون أية خبرات قد نقدمها لهم، وقد ينتهي بنا الأمر إلى أن يتجمع عندنا عدد كبير من الناس الذين يشعرون بالبؤس والذين ينتظرون أول فرصة لينزحوا عن إسرائيل»، فهم يعرفون تماماً «أن إسرائيل بلد صعب وأن الولايات المتحدة بلد سهل بالمقارنة». والسهولة قيمة أساسية عند هؤلاء الباحثين عن «الراحة والترف».

وقد وصفت إحدى المؤسسات اليهودية المهاجر اليهودي السوفييتي الأنموذجي (في السبعينيات) بأنه شخص لم يهرب من الاضطهاد وإنما هاجر بإرادته ولدوافع غير عقائدية أصلاً. وذكر بعض المهاجرين الأسباب التي دعتهم إلى ترك الاتحاد السوفيتي، فقال أحدهم: إن الحياة هناك أصبحت مملة. فالهجرة إلى إسرائيل بالنسبة إليهم هي مجرد بحث عن الإثارة. وقال أحد أساتذة علم الجبر إنه ترك الاتحاد السوفييتي لأنه أدرك أن الوقت قد حان لأن يفعل ذلك، وأشار مهاجر ثالث إلى أنه ترك الاتحاد السوفييتي لأنه يريد أن يعيش حياة أفضل. وحتى يؤكد مدى عمق التزامه بهذه الفلسفة، ذكر أنه جاء لا ليشتري سيارة ولكن ليكون لديه سيارة بمحرك أكبر. ومن المستحيل أن نعرف كم مهاجراً (سوفييتياً) يشبه إيفان الذي ترك إسرائيل بعد أن عمل سنة في الكيبوتس، لأنه يكره التعصب الديني والطقس الحار، وكأنه كان يتوقع أن تكون أرض الميعاد في القطب الشمالي أو على مسافة صغيرة من روسيا، أو أن الحركة الصهيونية قد وعدته بأرض ميعاد مكيفة الهواء.

وقد وصف أحد الكُتَّاب الإسرائيليين هؤلاء المهاجرين من الاتحاد السوفييتي (السابق) بأنهم «مهاجرون اقتصاديون»، كما وصفهم آخر بأنهم «هاربون من الاتحاد السوفييتي وليسوا مهاجرين إلى إسرائيل». أما جوليا ميرسكي (عالمة نفس في الجامعة العبرية)، فقد وصفتهم بأنهم «لاجئون وليسوا مهاجرين». ووصفهم

كارل شراج (في الجيروساليم بوست) بأنهم «مستوطنون بالإكراه أو رغم أنفهم».

والمهاجرون السوفييت ليسوا وحدهم من الصهاينة النفعيين الباحثين عن «فوائد» الاستيطان في أرض الميعاد، والذين يريدون توظيفها لا لتحقيق الآمال «القومية» وإنما لتحقيق مصالحهم الشخصية. خذ على سبيل المثال اليهود المسنين الأمريكيين الذين يقررون الهجرة إلى إسرائيل والاستيطان فيها حينما يصلون إلى سن التقاعد لأنهم يمكنهم أن يعيشوا حياة مترفة على معاشاتهم الصغيرة (فكأن إسرائيل هي بيت المسنين أو فلوريدة الصهيونية). وهناك، كذلك، اليهود الذين يرسلون جسمانهم ليُدفن في إسرائيل: فهم يرفضون العيش في إسرائيل، ولكنهم لا يرفضون الموت فيها. وعلى حد قول أحد الكُتَّاب الإسرائيليين، فإنهم يعهدون بالجانب التاريخي في حياتهم إلى أوطانهم، أما الجانب الكوني الذي يتعلق بالموت فهم يعهدون به لإسرائيل! والوكالة اليهودية تسبح مع التيار ولذا فهي تقوم بمحاولة جذب أعضاء الجماعات اليهودية للاستيطان في إسرائيل على أسس نفعية محضة فلا تهيب الإعلانات بحسهم الديني أو بارتباطهم بالأسلاف، وإنما تتحدث بشكل صريح عن البيت المريح، أو الإمكانيات الاستثمارية للمستثمرين وإمكانيات البحث العلمي للعلماء.

وتسمية ظاهرة ما هي الخطوة الأولى نحو فهمها وتفكيكها وإعادة تركيبها. وقد وجدت أن مصطلح «صهيونية المرتزقة» يصف هذه الظاهرة وصفاً له قيمة تفسيرية عالية. فالجندي المرتزق لا يؤمن بأي مثاليات، وهو على استعداد للحرب والقتل والقتال بالنيابة عمن يجزل له العطاء، فهدفه هو النفع المادي، تماماً مثل هذا المواطن اليهودي الذي يقتلع نفسه من وطنه ويأتي لبلادنا ليحتلها طمعاً في العائد المادي الذي تزوده به الدولة. أوَليسَ هذا هو دور الدولة الصهيونية أيضاً، التي يصب فيها الدعم المادي الغربي بلا حساب، حتى تقوم بدورها قاعدةً للمصالح الغربية بوجه عام، والأمريكية على وجه الخصوص؟

• غياب المعايير في التجمع الصهيوني

الوجدان الإسرائيلي، كما هو متوقع، منشغل إلى حد كبير بما يحدث في فلسطين المحتلة: المقاومة - السلطة الفلسطينية - الاستيطان والمستوطنون إلخ، فهي قضايا تمس وجوده. ومع هذا توجد مشاكل داخلية تقضُّ مضجعه من أهمها

انتشار النسبية الأخلاقية التي تؤدي إلى غياب المعايير والقيم العامة التي تتجاوز رغبات الأفراد ونزواتهم وشهواتهم، وهو غياب يعبر عن نفسه في ظواهر عديدة من أهمها الفساد. وقد ورد في إحدى الدراسات الصادرة في إسرائيل (موشيه نجبي: «أصبحنا مثل سدوم» نقلاً عن مقال أنطوان شلحت ٥ أغسطس٢٠٠٥ في **المشهد الإسرائيلي - مدار**) بعض أشكال الفساد في التجمع الصهيوني:

- تجار نساء يتجولون بسبب تهاون المحاكم، (ويبدو أن كثيراً من الإسرائيليين يعملون في تجارة الرقيق الأبيض، حتى إنَّ لغة القوادين في أمستردام توجد فيها كلمات عبرية كثيرة).

- لوائح المرشحين للكنيست تباع في وضح النهار، والساسة الذين يتم انتخابهم بهذه الطريقة هم الذين يشرعون القوانين.

- مسؤولون كبار يستغلون مناصبهم لتحسين وضعيتهم ووضعية المقربين منهم ويحاولون الوصول إلى القمة، دون حسيب أو رقيب.

- القضاء العسكري يمنح حصانة للقادة الذين أهدروا بإهمالهم الإجرامي حياة جنودهم أو استغلوا جنسياً المجندات الإناث. (تستغل بعض المجندات/ المحظيات هذه المكانة فيتصرفن دون أي اكتراث بالقوانين العسكرية، حتى إنَّ إحداهن كانت تطلب من الكوافير والباديكير أن يأتوا لها في وحدتها العسكرية!).

وقد أعطانا هيرش جودمان صورة واضحة وطريفة لهذا الفساد في مقال له نشر في مجلة **الجير وساليم ربورت** (٦ مايو ٢٠٠٥) يقول الكاتب: عرفت أن إسرائيل تواجه مشاكل حقيقية حين رأيت جودي شالوم زوجة وزير الخارجية سيلفان شالوم وقد صاحبت زوجها في زيارة رسمية إلى مصر العام الماضي وقد ارتدت بنطلون جينز ضيقاً إلى درجة أنني تصورت أنها لن تنجح في الهبوط على سلم الطائرة، كما أنها كانت ترتدي بلوزة لم تكشف كتفها وحسب، بل كشفت من جسدها أكثر مما يمكن لأي شخص أن يحب أن يراه!

«ويلاحظ أن السيد وزير الخارجية يعين في كل وظيفة خالية رجالاً من أتباعه، مما يعني أنهم كلهم من رجال نعم، مثل هؤلاء الحمقى الذين سمحوا لزوجته أن

ترافقه إلى مصر وهي شبه عارية. أو لعلهم بعض الأشخاص الذين لهم نفوذ في حزب الليكود. ومن ضمن هؤلاء ديفيد أدمون الذي عين سفيراً لإسرائيل في المجر، حيث أهمل مهامه السياسية وكرس وقته تماماً لأعمال «البيزنس» الخاص به حتى يمكنه أن يدفع الديون التي تراكمت عليه! (وهناك بطبيعة الحال الفضيحة الخاصة بزيارة المطربة مادونا لإسرائيل).

وغياب المعايير يظهر بشكل متبلور في إشكالية الشذوذ الجنسي. خذ على سبيل المثال حالة إيلي إيفين الذي يبلغ من العمر ٦٢ عاماً وهو ضابط متقاعد ويعمل أستاذاً للكيمياء في إحدى الجامعات. في عام ١٩٨٣ فصل إيلي إيفين من الجيش وجرد من رتبته ضابطَ احتياط حينما عرف أنه يعيش مع صديقه وأنه شاذ جنسياً، ولكن الإعلام الإسرائيلي اتخذ موقفاً مؤيداً له واتهم المؤسسة العسكرية بالتمييز العنصري، وبالفعل رضخت المؤسسة وأصدرت تعليمات بعدم التمييز ضد الشذاذ والمساحقات من الجنود والضباط. ويوجد الآن في القوات المسلحة الإسرائيلية جنود وضباط شذاذ، يعلنون عن هويتهم، يتحركون بدون أي محظورات في كل أسلحة الجيش الإسرائيلي. وقد عرض في إسرائيل فيلم عن قصة حب بين جنديين من الجنس نفسه.

ولم تنته القصة عند هذا الحد فقد رشح إيلي إيفين نفسه للكنيست ونجح في الانتخابات وتلقى العشرات من خطابات التهنئة. وقد قاد حملة هو ورفيقه أميت كاما (البالغ من العمر ٤٢ عاماً)، وهو أستاذ إعلام في الجامعة، للدفاع عن حقوق الشذاذ، ورفع دعوى على الجامعة للحصول على الحقوق والعلاوات التي يحصل عليها المتزوجون. وقد تم تسوية القضية مع الجامعة خارج نطاق القضاء. وبعد ذلك تبنى الزوجان شاباً في سن السادسة عشرةَ كانت عائلته قد رفضته لأنه شاذ جنسياً (النيويورك تايمز ١٦ أكتوبر ٢٠٠٢).

وقد ذهب الرفيقان إلى كندة حيث عقد زواجهما بشكل رسمي في تورنتو في ٢١ سبتمبر ٢٠٠٤ (حسبما جاء في هآرتس) كما كانا شاهدي زواج جنسمثلي لصديقين من أصدقائهما. وعند عودتهما إلى الدولة الصهيونية، قررا أن يعقدا احتفالاً «بزواجهما»، كما قررا أن يقدما شكوى إلى المحكمة العليا يطلبان فيه أن تعترف الدولة الصهيونية رسمياً بزواجهما، وأن تطلب المحكمة من وزارة الداخلية

التي رفضت الاعتراف بزواجهما الرسمي في كندة، أن ترجع عن قرارها. وقد ذكر المدعيان المحكمة أن عدم الاعتراف يزواجهما الرسمي يشكل خرقاً للمعاهدات الدولية التي وقعت عليها إسرائيل وانتهاكاً لحقوق الإنسان. (لا أستبعد أن التدخل الغربي في بلادنا باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان قد يصل إلى هذه الدرجة).

وقد كشفت صحيفة نيويورك تايمز عن زواج آرثر فنكلشتاين من صديقه، وقد تم الزواج في منزل فنكلشتاين، ولم يحضره غير عدد قليل من أصدقاء وأقارب وأبناء الرجلين (نعم أبناء الرجلين!) من زواج سابق. وآرثر فنكلشتاين من أهم الشخصيات في المؤسسة السياسية الإسرائيلية، فقد كان مستشار الدعاية الانتخابية لنتنياهو وشارون.

وفي محاولة تفسير هذه الظواهر كتب عوزي بنزيمان في هآرتس (١٢ يونية ٢٠٠٥) أن سببها الحقيقي هو أن الأصوليين حولوا الأرض إلى وثن يعبده الإنسان وأنهم يحتكرون الحقيقة وأن نهجهم الشوفيني القومي الضيق هو سبب الأزمة. وكاتب هذه السطور لا يعرف علاقة الفساد بتوثن الأرض وعبادتها!

ويرد الأصوليون على العلمانيين بقولهم إنَّ العلمانيين يربون أبناءهم على حياة الضياع والتفريط في القيم، وأن أبناءهم متهربون من الخدمة، يسعون وراء اللهو، وينزحون عن أرض الميعاد إلى الخارج ويدمنون المخدرات، ويقلدون الغرب بشكل رخيص، ويتلاعبون بالمال العام من أجل الربح الخاص، وأن ثمة أزمة روحية في المجتمع الصهيوني العلماني الذي حرم اليهودي من البعد الروحي، وأعطاه بالمقابل بضاعة رخيصة.

وفي تصوري أن القضية أكثر تركيباً من ذلك، فالسبب الحقيقي لغياب المعايير هو تآكل الأيديولوجية الصهيونية التي أسست الدولة والتي كانت تزعم أنها عمالية واشتراكية، فقد تآكلت المؤسسات المختلفة التي يقال لها «اشتراكية» والتي كانت تهيمن على الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في إسرائيل. وتحول الاشتراكيون القدامى إلى ما يشبه المديرين ورجال الأعمال. كما أن الطبيعة الاستعمارية للدولة الصهيونية، وتحالفها مع الإمبريالية الغربية، زاد وضوحاً وذيوعاً. وقد أدَّى هذا إلى تآكل الديباجات الصهيونية التي تحاول أن تبرر وجود المستوطنين في منطقة خارج أوربة ترفضهم وتقاومهم. كما أن مفهوم الشعب

اليهودي الواحد، الذي يشكل اللبنة الأساسية في الأيديولوجية الصهيونية، قد تآكل هو الآخر مع إحجام يهود العالم عن الهجرة إلى فلسطين المحتلة، ومع تفاقم الصراع الديني العلماني، ومع العجز عن تعريف من هو اليهودي في دولة تستمد شرعيتها من ادعائها أنها يهودية! وفي غياب إطار أيديولوجي ومشروع قومي، عادة ما ينغلق الإنسان على نفسه ويبحث عن صالحه الشخصي وينتج عن ذلك انتشار النسبية الأخلاقية وغياب المعايير وسقوط الإيمان بـ«الصالح العام» واستشراء الفساد.

هذا هو التجمع الذي نتعامل معه، مجتمع علماني تسيطر عليه النسبية الأخلاقية. ويجب ألا نتصور أن هذه النسبية تؤدي إلى التسامح، بل بالعكس فأنا أرى أن النسبية تعني غياب المعايير الإنسانية والأخلاقية التي يمكن أن يُهيب بها الإنسان، وفي غيابها لا يوجد سوى القوة الغاشمة لحسم أي خلافات، وهذا هو حال الدولة الصهيونية العلمانية النسبية الداروينية معنا!

- **الشذوذ في الدولة الصهيونية**

يمكن تمييز نوعين أساسيين من العلمانية، فهناك العلمانية الجزئية التي تعني فصل الدين عن الدولة، على أن تظل هناك مرجعية ما للدولة وللفرد، أما العلمانية الشاملة فهي فصل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية عن الدولة والمجتمع، بل وعن الحياة في جانبها العام والخاص فيتحول العالم بأسره إلى مادة استعمالية. وتتسم العلمانية الشاملة بغياب أية مرجعية فلسفية وأخلاقية وأية معيارية، ومن ثم تصبح القوة الذاتية هي المعيار الوحيد، فالأقوى هو القادر على توظيف العالم والآخرين لحسابه.

العلمانية الشاملة إذن هي النسبية الأخلاقية التي ترفض أية معيارية والداروينية التي لا تقبل سوى القوة. ومن هذا المنظور فإن العلمانية الشاملة هي الإمبريالية، حيث تتحرك الكتلة البشرية الأقوى لتبطش بالأضعف وتوظفه لحسابها، دون الالتزام بأية قيم خارجة عن ذاتها. والدولة الصهيونية دون شك دولة داروينية تستخدم ما عندها من قوة للاستيلاء على الأرض الفلسطينية وطرد سكانها أو توظفيهم واستغلال مصادرهم الطبيعية لحسابها. فالدولة الصهيونية بهذا المعنى دولة علمانية شاملة، لا تتقيد بأية قيم إنسانية أو أخلاقية.

وقد كان هذا الأمر واضحاً لمؤسس الصهيونية، فهرتزل كان يبحث عن أي أرض لتوطين اليهود فيها، ولم يعر القدس أي اهتمام، لأنه كان يريد «الأرض العلمانية»، على حد قوله. وعندما زار القدس تعمد انتهاك العديد من الشعائر الدينية الصهيونية لكي يؤكد أن الرؤية الصهيونية رؤية علمانية لا دينية. وكذا كان الوضع مع ماكس نوردو الذي كان يجهر بإلحاده، ويؤكد دائماً أن كتاب هرتزل **دولة اليهود** سيحل محل التوراة كتابِ اليهود المقدس.

وقد أسس الصهاينة العلمانيون المستوطن الصهيوني، وهؤلاء ملحدون بشراسة. فكانوا يحرصون على الذهاب إلى حائط المبكى في يوم الغفران (أكثر الأيام قداسة في التقويم الديني اليهودي) ويلتهمون شطائر من لحم الخنزير تعبيراً عن رفضهم لليهودية. ولا تزال الكيبوتسات مؤسسات علمانية تماماً ترفض الاحتفال بالأعياد الدينية وتغير كثيراً من النصوص الدينية. فقد جاء في إحدى المزامير (١١٨/ ٢٤) العبارة التالية: «هذا هو اليوم الذي صنعه الرب»، فتم تغييرها إلى العبارة التالية: «هذا هو اليوم الذي صنعه جيش الدفاع الإسرائيلي». والمؤسسة الصهيونية العلمانية تعدُّ التوراة كتابَ فلكلور، وليست كتاباً مقدساً (على حد قول بن جوريون) والخالق هو الشعب اليهودي (على حد قول جابوتنسكي) أو أرض إسرائيل (على حد قول ديان).

ولا يعني هذا تقلص المؤسسة الدينية في الدولة الصهيونية، بل إنَّ نفوذها يتزايد، ولكنها مرت هي الأخرى بعملية «صهينة» وعلمنة، ولم تعد تلتزم بأي قيم أخلاقية أو إنسانية أو دينية، بل تجعل الشعب اليهودي مرجعية ذاته، ومن ثم تؤيد اغتصاب الأرض وقتل الأبرياء مستخدمة ديباجات دينية لتبرير الأفعال الداروينية العلمانية.

وبالإضافة إلى علمنة العقيدة اليهودية فإن هناك أشكالاً أخرى من العلمنة تفت في عضد المشروع الصهيوني. ففي كتابه **إلفيس بريسلي في القدس** (نيويورك ٢٠٠٢)، يذكر توم سجيف أنه لدى توقيع اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣ تظاهر حوالي ٦٠ ألفاً من الإسرائيليين أمام مكتب رئيس الوزراء في القدس، وفي نفس الليلة أُقيمت حفلة غنائية لمايكل جاكسون في تل أبيب حضرها ٦٠ ألفاً. وتبين ظاهرة دانا انترناشيونال تغلغل النسبية الأخلاقية في التجمع الصهيوني. ودانا انترناشيونال هذه مغنية مشهورة للغاية مثلت إسرائيل في مهرجان غنائي في أوربة وحازت

الجائزة الأولى. وعند عودتها أرسل لها بنيامين نتنياهو، رئيس الوزراء آنذاك، خطاب تهنئة كما عُينت سفيرة شرفية لإسرائيل. وكانت دانا في الأصل رجلاً شاذاً من أصل يماني يسمى بارون كوهين ثم أجرى عملية جراحية تحول بعدها إلى امرأة. وقد تحدث عمليات تغيير الجنس هذه في كل المجتمعات بنسب مختلفة، ولكن عندما يتحول الفعل الفردي إلى رمز قومي، فلابد من دراسة المسألة بتقديرها قضية اجتماعية وليست سلوكاً فردياً.

ويصدق هذا أيضاً على الشذوذ الجنسي. فالعهد القديم يحرم بوضوح العلاقات الجنسية بين أفرادٍ من نفس الجنس، ولكن مع تزايد عملية علمنة اليهودية وأعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث تزايد قبول الشذوذ الجنسي بعدِّه شيئاً طبيعياً. وهذه نتيجة حتمية لغياب اليقين المعرفي والمرجعية الأخلاقية والإنسانية وإنكار أي معيارية. واليهودية الإصلاحية والمحافظة (وهما أكبر الفرق الدينية اليهودية في الغرب) لا تحرِّمان الشذوذ الجنسي، بل وأسست معابد يهودية ومدارس تلمودية للشواذ، ورسم بعض الشواذ حاخامات.

وإذا كان الاهتمام في المرحلة الأولى لبناء الدولة الصهيونية قد انصب على بناء الشخصية الإسرائيلية، القتالية والمنتجة، وسادت معايير مثل التقشف والتضحية بالذات والإحساس بالجماعة، فقد تغير الوضع بعد عام ١٩٦٧، فدَخَلَ المجتمع الصهيوني المرحلة الاستهلاكية وتزايد التوجه نحو اللذة والفردية، وتبدلت المعايير السائدة. فبدلاً من إرجاء الإشباع ظهرت ضرورة الإشباع الفوري، وبدلاً من الإحساس بالانتماء للجماعة ظهرت عقلية الأنا، وبدلاً من اليقين الصهيوني سادت القيم النسبية. وعادةً ما يصاحب مثل هذا التغير تقبل تدريجي لكل شيء بما في ذلك الشذوذ الجنسي.

وقد تأسست جماعة للشواذ جنسياً تُسمى «جماعة الدفاع عن الحقوق الشخصية» عام ١٩٧٥ على يد بعض المهاجرين من الولايات المتحدة وإنجلترة. ورغم أن القانون الإسرائيلي كان يجرم العلاقات الجنسية الشاذة، فقد ظلت السلطات التنفيذية الإسرائيلية تتسامح مع مثل هذه العلاقات. وفي عام ١٩٨٨، ألغى الكنيست القانون الذي يجرم الشذوذ الجنسي، ومنذ ذلك الحين، ظهرت عدة مجلات بالعبرية والإنجليزية للشواذ في إسرائيل. وفي يونيو/ حزيران ١٩٩١، عُقد

في تل أبيب المؤتمر الدولي الثالث للشواذ جنسياً من الذكور والإناث والمتحولين إلى الجنس الآخر. وفي عام ١٩٩٢، أصدر الكنيست قانوناً يحرم التمييز على أساس الميول الجنسية وإن كان لا يعفي الشواذ من الخدمة العسكرية بل يكتفي بنقلهم إلى مواقع غير مهمة أمنياً. وفي العام التالي، ألغى الجيش الإسرائيلي كل القوانين التي تميز ضد الشواذ. وفي عام ١٩٩٤، أصدرت المحكمة العليا قراراً يلزم شركة إلعال بمعاملة رفيق الشاذ جنسياً معاملة الزوج أو الزوجة العاديين. وفي نهاية الأمر اعترفت المحاكم الإسرائيلية بحق الشاذ في العيش مع شريك من الجنس نفسه، والاعتراف به زوجاً أمام القانون.

ومن المفارقات أن المعارضة الدينية كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى تزايد تقبل المجتمع الإسرائيلي للشذوذ الجنسي، فتصاعد الاعتراض الديني يقابله تصاعد ردٍّ فعل تأييد العلمانيين، وبهذا المعنى فإن تزايد تقبل الشذوذ هو تعبير عن احتدام الاستقطاب الديني العلماني.

● **المدينة المقدسة ومسيرة الشذاذ**

بمرور الوقت تتزايد علمنة المجتمع الإسرائيلي ويتزايد تقبل الشذوذ. وقد شهد عام ١٩٩٨ تعيين دانا انترناشيونال، المغنية الإسرائيلية السحاقية، سفيرة شرفية لإسرائيل، وشهد أيضاً نجاح ميشال إيدن في انتخابات مجلس مدينة تل أبيب، لتصبح أول سحاقية بشكل علني تشغل منصباً هاماً من خلال الانتخاب. ويبدو أن هناك عدداً من أعضاء الكنيست من الشواذ الذين يخفون هويتهم الجنسية، ولذلك تحثهم جمعيات الشواذ على الإعلان عن هويتهم.

ومن أبرز الأدلة على تقبل الشذوذ أن رئيس الوزراء، أرييل شارون، قابل وفداً يمثل عدة جمعيات للشواذ والسحاقيات والمخنثين. وكان الإرهابي العتيد في غاية اللطف معهم، حتى إنه ألقى بعض النكات، ثم ناقش معهم مشاكلهم المختلفة مثل اعتراف القانون بالزواج بين الأشخاص من الجنس نفسه، وقضايا تغيير الجنس وتغيير الأسماء، تبعاً لذلك، في الوثائق الرسمية. وأخبرهم شارون أنه لم يكن يعرف كثيراً عن مثل هذه القضايا وأنه يجب أن يدرسها بعناية، ثم اختتم الاجتماع قائلاً: «يجب أن تستمروا في كفاحكم. فالتغيير يجب أن يأتي من الجماهير نفسها، ولهذا عليكم أن تواصلوا السعي لإقناعهم، لكي تكسبوا الجماهير لصفكم».

ويوجد الآن في القدس وحدها حوالي ٥٠ ألفاً من الشواذ بين سكان المدينة اليهود البالغ عددهم نحو ٦٠٠ ألف (**«الهيرالد تريبيون»** ٧ يونيو/ حزيران ٢٠٠٢). ولم تذكر أي من المصادر التي اعتمدنا عليها عدد الشواذ في الدولة الصهيونية كُلّاً ولكنه لابد وأن يكون ضعفي ذلك العدد، فتل أبيب هي عاصمة إسرائيل العلمانية وهي مركز الشذوذ والمخدرات وفيها مقاهٍ ونوادٍ وحاناتٍ للشواذ (أما القدس فالمفروض فيها أنها مدينة مقدسة تسكنها أغلبية من المتدينين). ولذلك كانت تنظم في تل أبيب مسيرات الشواذ السنوية والتي يعلنون فيها اعتزازهم بهويتهم الجنسية.

ولكن مع تزايد تقبل التجمع الصهيوني للشذوذ وتزايد نفوذ الشواذ، قرروا تنظيم مسيرتهم السنوية في المدينة المقدسة! واشترك في المسيرة حوالي أربعة آلاف، مع أنه كان من المتوقع ألا يزيد العدد عن ثلاثة آلاف (**«هآرتس»** ٩ يونيو/ حزيران ٢٠٠٢). وجاء هؤلاء الشواذ من تل أبيب ومدن أخرى في الدولة الصهيونية، أي إنها كانت مسيرة «قومية» بمعنى الكلمة، خاصة وأن بعض المشاركين ليسوا شواذاً بل علمانيون يعربون عن تضامنهم، وتولت الشرطة الإسرائيلية حراسة المسيرة.

وعشية المسيرة زُينت الشوارع بالأعلام والشعارات الداعية للاعتراف القانوني بزيجات الشواذ. ويُذكر أن الحاخامات الإصلاحيين والمحافظين يعقدون زيجات لأشخاص من نفس الجنس أمام حائط المبكى، ولكن المؤسسة الحاخامية (الأرثوذكسية) لا تعترف بها، وإن كانت بعض المحاكم الإسرائيلية تقرها.

وبدأت المسيرة بتلاوة دعاء السفر اليهودي (تفيلات هاديريخ)، ثم أُطلقت بعض البالونات السوداء إحياءً لذكرى من سقطوا صرعى بسبب «الهجمات الإرهابية» (أي العمليات الاستشهادية)، ثم تُليت أدعية بالعبرية والعربية والإنجليزية.

وعقب المسيرة، عُقد اجتماع في حديقة الاستقلال، التي كان الشواذ يلتقون فيها سراً في الماضي. وألقى أحد منظمي المسيرة خطاباً جاء فيه: «كنت أتجول في هذه الحديقة لعدة سنوات، وأعرفها بقعة بقعة. كنت آتي في السر، في الظلام، لأتواصل مع جزء أساسي من كياني: هويتي الجنسية. ورغم الخوف، واصلت الحياة حتى بعد أن تعرضت للاضطهاد على أيدي رجال الشرطة، وللضرب على يد

بعض الفتوات. أما اليوم فأنا أعود لحديقة الاستقلال لأعبر عن قيم عزيزة على قلبي وعلى القدس: قيم التسامح والمساواة والتعدد الحضاري وقبول الآخر، وقد جاء رجال الشرطة اليوم لحمايتنا لا لاضطهادنا».

وقد تعالت أصوات مكبرات الصوت بأغانٍ عن الحرية، وعُلقت لافتات عليها شعارات مثل «حب بلا حدود» (كلمة «حب» «لف Love» بالإنجليزية تعني «حب»، ولكنها تعني أيضاً «جنس» كما هو الحال في عبارة make love التي يترجمها البعض بأنها «يتعاطى الحب» مع أنها في الواقع تعني «يمارس الجنس»). وقدم ممثلون ذكور، يرتدون ملابس النساء، بعض العروض، ثم تتالى المتحدثون. فقال هاجاي إيلاد، القائد الحقيقي للمسيرة، إنها تنبع من حب المدينة والرغبة في جعلها أكثر انفتاحاً». وأضاف متحدث يرتدي القبعة اليهودية التي يرتديها اليهود الأرثوذكس، ولكنها ليست سوداء وإنما في ألوان قوس قزح (شعار الشواذ، وهو شعار ذو محتوى علماني تماماً) إن «المسيرة لحظة مقدسة من الأخوة والسلام»، وقال جيل نافيه «نحن نخلع القداسة على الحياة، فنخبر الناس أن بوسعهم العيش كما يشاؤون. وإذا سار رجلان يمسكان واحد بيد آخر في القدس فإن هذا لن ينقص من قداسة المدينة بل سيساهم فيها. فكل البشر خُلقوا على صورة الإله».

والمنطق الذي يستخدمه هؤلاء الشواذ منطق أعوج، فالإله خلقنا على صورته لكي نتجاوز ذواتنا المادية ورغباتنا التي تجذبنا نحو الطين، وحتى نعبر عن الجانب الرباني. أما الشواذ فيرون أن الإنسان يجب أن يعيش حسب أهوائه الجسدية فحسب.

وتوجه أحد المتحدثين إلى اليهود المتدينين قائلاً: «إن أبانا واحد. فلتعبدوا الإله بطريقتكم، ولتتركونا نعبده بطريقتنا». ولكن الجماهير الدينية أبدت اعتراضها الشديد على هذه المسيرة، فرفعوا لافتات تطالبهم بالعودة إلى أوطانهم (ولكن معظم هؤلاء يعدّون إسرائيل وطنهم بمقتضى قانون العودة، الذي لم يعرِّف من هو اليهودي). وأبدى نائب حزب «شاس» الديني استنكاره الشديد لهذه المسيرة، مبيِّناً أنها إهانة لمكانة القدس وللمثل الأخلاقية المقدسة «للشعب الإسرائيلي» التي ترتكز على الأسرة. وعلق أحد المتدينين بقوله: «إن هذا البلد آخذ في التدهور. فكل مجتمع له معاييره، والبلد الذي لا توجد فيه معايير إنما هو بلد في طريقه إلى

الانتحار. وما هو مقبول في أمستردام (عاصمة الشذوذ والمخدرات) لا يمكن قبوله هنا بالضرورة». وعلق آخر بقوله: «إن الهجمات الإرهابية [الاستشهادية] هي عقاب من الإله على مثل هذه المسيرات وهذا الانحلال».

ويمكننا أن نحاول الآن تفسير ظاهرة انتشار الشذوذ في الدولة الصهيونية:

* أشرنا من قبل إلى تزايد التوجه نحو اللذة والاستهلاك والعلمنة.

* يمكن القول بأن أزمة الهوية في التجمع الصهيوني (من هو اليهودي؟ من هو الصهيوني؟ من هو الإسرائيلي؟) قد تسببت في اهتزاز الهوية الجنسية للمستوطن الإسرائيلي هي الأخرى.

* التجمع الصهيوني، شأنه شأن معظم المجتمعات المتقدمة، يعاني من غياب اليقين المعرفي بسبب تعدد المراكز والاتجاهات والفلسفات والأيديولوجيات. ومما يعمق هذا الاتجاه أن التجمع الصهيوني مجتمع مهاجرين، جاء كل منهم بهوية ثقافية مختلفة، مما يساهم في تقويض أي يقين.

* لاشك أن تآكل الأيديولوجية الصهيونية، التي كانت تفسر الواقع للمستوطنين وتهديهم سواء السبيل، ساهم هو الآخر في تقويض أي يقين وأية هوية.

* إذا كان الإسلام يطالب بتجاوز الرغبات الجسدية في الإنسان فإنه لا ينكرها وإنما يتيح التعبير عنها من خلال قنوات شرعية. أما اليهودية الأرثوذكسية فكانت، مع نهاية القرن الثامن عشر، تحرم كل شيء تقريباً، بما في ذلك التعبير عن الرغبات من خلال القنوات الشرعية، حتى إن أحد المفكرين اليهود قال: «لقد أصبح من المستحيل أن يكون الفرد إنساناً ويهودياً في ذات الوقت». وأدى ذلك إلى رد فعل معاكس ومتطرف كانت أحد أشكاله الشذوذ الجنسي. ولعله ليس من قبيل المصادفة أن أول جماعة عالمية للشواذ جنسياً كان يترأسها ماجنوس هيرشفيلد (١٨٦٨-١٩٣٥) ومساعده كورت هيلر (١٨٨٥-١٩٧٢) وكلاهما كان ألمانياً يهودياً، (بل كان هيلر يزعم أنه من نسل الحاخام هليل)، وكان هيلر هذا أول من طالب باعتبار الشواذ أقلية يجب حماية حقوقها .

* وأخيراً لابد أن نشير إلى تصاعد معدلات الحلولية بين الجماعات اليهودية حتى تصل إلى مرحلة وحدة الوجود، حيث يحل الإله في «الشعب اليهودي» ويتوحد معه ويذوب فيه فيصبح من المستحيل التمييز بين الخالق والمخلوق، فيتأله المخلوق، وهو في هذه الحالة «الشعب اليهودي المختار»، الذي تصبح كل أفعاله مقدسة: سواء كان ذلك اغتصاب الأرض الفلسطينية أو طرد أهلها أو قتلهم. وهذا الموقف يصلح أساساً فلسفياً قوياً لتبرير أي فعل يقوم به الفرد اليهودي بما في ذلك اختيار الهوية الجنسية التي تعجبه، سواء عن طريق التحول إلى جنسٍ آخر أو اختيار رفيقٍ من نفس الجنس: أليست كل أفعال الفرد اليهودي مقدسة؟

وأعتقد أن العربي في الغرب يمكنه توظيف ظاهرة انتشار الشذوذ الجنسي في التجمع الصهيوني وتقبله في تأكيد أن إسرائيل ليست دولة يهودية، كما يمكن توظيف هذه الظاهرة في الحوار مع الجماعات الأصولية المسيحية التي تنظر إلى الدولة الصهيونية تحقيقاً للرؤى الإنجيلية.

* (مصادر هذه الدراسة عديدة، من بينها «نيويورك تايمز» ٨ يونيو/حزيران ٢٠٠٢، محطات التليفزيون الأمريكية المختلفة خاصة CNS 7 يونيو/حزيران ٢٠٠٢، «جويش بولتين» ٣١ أغسطس ٢٠٠١)، «هآرتس» ٩ يونيو/حزيران ٢٠٠٢، وغيرها).

- **الإباحية والشذوذ الجنسي في الدولة اليهودية**

تصنيف الدولة الصهيونية على أنها دولة يهودية هو خطأ تصنيفي جعل من الصعب علينا رصد ما يدور داخل هذه الدولة والتنبؤ بسلوكها. فالدولة الصهيونية رغم كل ديباجاتها اليهودية (أرض الميعاد- الشعب المختار- مركزية القدس... إلخ) هي دولة استعمارية استيطانية إحلالية تؤمن بموازين القوى وبأن القوة هي المعيار الوحيد والآلية الوحيدة لحسم الخلافات؛ فهي بذلك تنتمي لهذا النمط من الدول العلمانية التي تشكل الداروينية الاجتماعية مرجعيتها النهائية.

ولكن غياب أي معايير أخلاقية أو إنسانية أو دينية يسبب انتشار النسبية الأخلاقية واختلاط المعايير. والدولة الصهيونية لا تشكل أي استثناء للقاعدة.

واختلاط المعايير يتضح في قضية من مثل الإباحية. والمجتمع الصهيوني مجتمع متسيب من الناحية الأخلاقية؛ ويعود هذا بغير شك إلى أنه مجتمع مستوطنين مهاجرين. ومثل هذه المجتمعات تتسم بالتفكك والتسيب الخلقي لأسباب كثيرة ليس هنا مجال حصرها. ولعل اعتماد المجتمع الإسرائيلي على السياحة (وفي تصوري أن السائح شخصاً مقتلعاً باحثاً عن المتعة العابرة لقاء أجر، عنصر مدمر من الناحية الأخلاقية والاجتماعية) ساهم هو الآخر في زيادة التفكك والتسيب. ثم كان للسياسات الاقتصادية التي تبناها الليكود في أوائل الثمانينيات (جزءاً من حملته الانتخابية) والتي تشبه من بعض الوجوه سياسات الانفتاح في مصر - بتشجيعه الاستيراد الاستهلاكي- كان لها أعمق الأثر في زيادة حدة السعار الاستهلاكي وما يصحبه من توجهات اجتماعية ضارة. مهما كان السبب فالمحصلة النهائية هي أن المجتمع الإسرائيلي - كما يقول أمنون روبنشتاين في كتابه **العودة للحلم الصهيوني** - أصبح من أكثر المجتمعات انحلالاً في العالم، ولا يوجد أي نوع من أنواع الانحرافات الجنسية إلا ويُمارَس فيه.

وبالفعل أصبحت تل أبيب مدينة تشبه أمستردام من بعض الوجوه، في انتشار المخدرات فيها والشذوذ الجنسي، ويقام كل عام فيها مسيرة الشذاذ. وقد انتقلت هذه المسيرة منذ سنتين إلى القدس. وكما اشتكى أحد الحاخامات: «في الماضي كان هناك تقسيم للعمل، تل أبيب كانت عاصمة العلمانيين، والقدس عاصمة المتدينين. أما الآن فقد اختلط الحابل بالنابل، ولم يبقَ فارق بين الأولى والثانية. فمحلات المجلات الإباحية والأشياء الجنسية توجد الآن في كل مكان في القدس وعلى مقربة من حائط المبكى». وكان أحد ناشري المجلات الإباحية الأمريكية يريد أن ينشر طبعة عبرية من مجلته، فرحبت به المؤسسة العلمانية، واصطحبوه على حائط المبكى، حيث التقطت له بعض الصور، وكأن حائط المبكى مجرد مكان تذكاري أو حتى صالة ديسكو (وحائط المبكى بالعبرية هو «كوتيل»، ويطلق عليه العلمانيون كلمة «ديسكوتيل»).

إن سيادة النسبية الأخلاقية وغياب المعايير يجعل من الصعب على المرء أن يقرر ما هو الصالح وما هو الطالح، وما هو الإنساني وما هو الشاذ غير الإنساني، وما هو الفعل العادل وما هو الفعل الظالم، هذا الوضع يصب تماماً في ظاهرة الشذوذ الجنسي.

ومن المعروف أن العهد القديم يحرم الشذوذ الجنسي بين الذكور، وتبلغ عقوبة هذه الجريمة حد الإعدام. أما التلمود، فهو يُحرِّم مثل هذه العلاقة بين كل من الذكور والإناث. ويبدو أن سلوك أعضاء الجماعات اليهودية عبر التاريخ البشري كان يتسم بالإحجام عن الشذوذ الجنسي. ومما يجدر ذكره أن المواجهة بين اليهودية والهيلينية في القرون الأخيرة قبل الميلاد، أدت إلى تأغرق أعداد كبيرة من أعضاء النخبة اليهودية في مصر وفلسطين، ورغم القبول الواضح في التراث الهيليني للشذوذ الجنسي، فإن أعضاء الجماعات اليهودية لم ينغمسوا في مثل هذه الممارسة. ويبدو أن بعض الأدباء السفارد، متأثرين بتقاليد الشعر العربي والتغزل بالغلمان، كتبوا عن حب أفراد من الجنس نفسه.

ولكن حتى لا تُفسَّر هذه المعلومات تفسيراً عنصرياً يبسط الأمور تبسيطاً مخلاً يجعل اليهود «مسؤولين» عن الشذوذ الجنسي، لابد أن نشير إلى أن قبول الشذوذ الجنسي بشكل متزايد وتطبيعه هو إحدى سمات المجتمعات العلمانية المتقدمة، كما أنه نتيجة حتمية لغياب اليقين المعرفي والمطلقية الأخلاقية وغياب المركز. وإذا كان هناك وجود ملحوظ لليهود في الحركات الداعية لتطبيع الشذوذ الجنسي، فهذا أمر نابع من أن أعضاء الأقليات (الذين يوجدون في الهامش)، وخصوصاً أولئك الذين يتحولون إلى جماعات وظيفية لديهم استعداد أكبر من استعداد أعضاء الأغلبية لارتياد آفاق جديدة سواء في عالم الاستثمار أو في عالم الأفكار والسلوك. ومهما يكن الأمر، فإن حركة الشذوذ الجنسي في العالم الغربي حقَّقت تقدماً ملحوظاً حتى إن قوانين معظم بلاد أوربة قد تغيَّرت، فهي تسمح بالعلاقات الجنسية الشاذة الخاصة بين بالغين يدركون ما يفعلونه ويقبلونه، وبدأت تَصدُر تشريعات تعترف بعلاقة الشواذ جنسياً زواجاً شرعياً يعطي لطرفيه حقوق المتزوجين كافة من معاش حكومي إلى علاوات إضافية بل وحق تبنِّي الأطفال! كما أن كثيراً من الكنائس المسيحية أصبحت تقبل العلاقة الشاذة جنسياً بل وتُؤسَّس الآن كنائس للشواذ جنسياً، ويُرسَّم الشواذ جنسياً قساوسة ووعاظاً. وقد بدأت المؤسسات الدينية اليهودية تلحق بالركب، فاليهودية الإصلاحية والمحافظة لا تُحرِّمان الآن الشذوذ الجنسي. وقد أُسِّست أيضاً معابد يهودية للشواذ جنسياً، ورُسِّم حاخامات شواذ جنسياً من الجنسين. وكما جاء في إحدى الدراسات، فإن المعابد اليهودية الخاصة بالشواذ جنسياً تكافح من أجل الحصول على الفهم والقبول من بيت

إسرائيل (الشعب اليهودي) رغم أنف التحريمات الواردة في التوراة وتقاليد اليهودية الحاخامية التي استبعدتهم من الحياة الدينية للجماعة. وهذا دليل آخر على أن الجماعات اليهودية هي، في نهاية الأمر، ثمرة التغيرات الحضارية والاجتماعية التي تقع للمجتمعات التي يعيشون في كنفها، ومن السخف بمكان التحدث هنا عن «تاريخ يهودي مستقل» أو عن «مسؤولية اليهود عن الشر».

والقانون العثماني الذي طبقته حكومة الانتداب، ومن بعدها الدولة الصهيونية، يُحرِّم العلاقات الجنسية الشاذة. ومع هذا، كانت السلطات التنفيذية الصهيونية تنظر للممارسات الشاذة بكثير من التسامح، ولذا لم يُقدَّم أحد قط للمحاكمة بتهمة الممارسة الجنسية الشاذة.

- **العنف في التجمع الصهيوني**

تناولنا فيما سبق ظاهرة غياب المعايير وانتشار النسبية الأخلاقية في التجمع الصهيوني مما أدى إلى انتشار الفساد والشذوذ الجنسي، وحاولنا تفسير هذه الظاهرة، وهنا سنتناول ظاهرة أخرى تصاحب غياب المعايير وهي ظاهرة العنف. وقد ورد في مقال يارون لندن (**يديعوت أحرونوت ٢ مايو ٢٠٠٥**) الوصف التالي للشباب الإسرائيلي: «فوضى، موسيقى صاخبة... وشرب مفرط وسكين في الجيب - هذه هي عناصر المزيج القاتل الذي يفتك بالشبان في نهاية كل أسبوع، ويقطع أجساد عدد آخر غيرهم». كما ورد وصف آخر للوضع داخل التجمع الصهيوني في كتاب الخبير القضائي الإسرائيلي موشيه نجبي (المعنون **أصبحنا مثل سدوم: في المنزلق من دولة قانون إلى جمهورية موز**): «عصابات الإجرام المنظم تزرع العنف في شوارع إسرائيل، وأذرعها تتغلغل في سلطات النظام الحاكم وتهدد بأن تمس بالديمقراطية من الداخل. قتلة، مغتصبون، أزواج عنيفون، مواطنون عاديون يسامون مر العذاب في غياهب السجون والمعتقلات دونما ذنب اقترفوه، بينما الإعلام الباحث عن الحقيقة، اللاسع، يفقد أنيابه ويأخذ مكانه إعلام امتثالي وفاسق. وأفظع من كل هذا أن سلطات القانون مشلولة تماماً حيال التحريض والعنف الديني- القومي، اللذين سبق لهما أن أديا هنا إلى اغتيال رئيس الوزراء» (إسحاق رابين في ١٩٩٥). (**المشهد الإسرائيلي** «في المنزلق إلى جمهورية موز» بقلم أنطوان شلحت، ٥ أغسطس ٢٠٠٥). وقد جاء

في مقال فراس خطيب (٣٠ مايو ٢٠٠٥) **المشهد الإسرائيلي** ما يلي: «تعاني إسرائيل في الفترة الأخيرة من حركة جريمة تستشري في النوادي الليلية والأماكن الترفيهية. وقد تفشت ظاهرة حَمَلَةِ السكاكين حتى «أصبح وضع السكين في صفوف الشباب الإسرائيلي عادياً جداً». وقد كتب رافي جينات أحد محرري صحيفة **يديعوت أحرونوت** أنه يخاف على ابنته، ابنة السابعة عشرةَ من عمرها من الخروج وحدها، بل إنه يرتجف خوفاً، وذلك لأن جرائم القتل أصبحت عادة يومية. وأضاف قائلاً: إنهم يتحدثون في إسرائيل عن إفلاس التربية والقانون وعن انهيار القيم والنظام، فإنهم يتحدثون ولا يفعلون شيئاً. ولذا طلب جينات من ابنته ألا تخرج من البيت وحدها!

أصبح العنف في التجمع الصهيوني قضية أساسية تشغل بال المستوطنين الصهاينة (في فلسطين المحتلة قبل وبعد ١٩٦٧). وقد احتل موضوع العنف الصدارة في العناوين الرئيسية في الصحف الإسرائيلية. وورد في مقال بعنوان «لجنة وزارية خاصة لمحاربة تصاعد العنف في المجتمع الإسرائيلي» (٦ مايو ٢٠٠٥ والذي نشر في **المشهد الإسرائيلي** [مدار]) إن وزارة الرفاه الاجتماعي بينت أن عدد الأحداث الذين تم توجيههم إلى دائرة مراقبة سلوك الأحداث في أعقاب ارتكابهم جرائم عنف تضاعف خلال السنوات الأربع الماضية! ويستشف من معطيات الشرطة أن ٧١ إسرائيلياً قتلوا منذ مطلع عام ٢٠٠٥، في أعمال العنف المستشرية في إسرائيل، مقابل ٤٩ جريمة قتل في السنوات الأربع الماضية. ويعني ذلك ارتفاع نسبة جرائم القتل بنحو ٤٣٪.

ومن الغريب أن الصحف الإسرائيلية تنشر بموضوعية بالغة تقاريرها عن العنف المستشري والآخذ في الازدياد، ولكنها حين تحاول تفسير الظاهرة فإننا نجد تفسيراتها ساذجة وسطحية. فيورد فراس خطيب في مقاله في **المشهد الإسرائيلي** («جرائم القتل توشك أن تكون عادة في إسرائيل» ٣٠ مايو ٢٠٠٥) ان المراقبين الإسرائيليين يقولون إن «انشغال الدولة في أمور تبتعد عن اهتمامات الشباب يساعد على تفشي العنف». وانتقدت صحيفة **يديعوت أحرونوت** تعامل المؤسسات المتخصصة مع الجريمة، وانتهت النيابة العامة الإسرائيلية بانشغالها بقضايا تحتل العناوين الصحفية وتتجاهل القضايا الملحة في الدولة. ويحاول عوزي بنزيمان في مقاله «الرؤية الأصولية والقيم العلمانية» (**هآرتس** ١٢ يونيه ٢٠٠٥) تفسير ظاهرة

العنف و«مخالفات الشباب الجنائية» بقوله إنَّ الأزمة الاجتماعية النفسية للمهاجرين الجدد. وقد وافقه آخرون يذهبون إلى أن استقطاب إسرائيل لحضارات أخرى من روسية وإثيوبية أدى إلى وجود مجتمع يعاني من مشاكل تربوية لم تستطع المؤسسات معالجتها (٣٧٪ من المجرمين من القادمين الجدد إلى إسرائيل). وقد أضاف بنزيمان سبباً آخر للعنف فهو حسب تصوره ليس نتيجة نمط الحياة البذخ كما يدعي البعض، وإنما نتيجة الضائقة الاقتصادية.

ومن أطرف التفسيرات ما ورد في مقال يارون لندن (**يديعوت أحرونوت** ٢ مايو ٢٠٠٥) الذي يقول «إنَّ العنف الذي يستشري في التجمع الصهيوني نتيجة مباشرة للضجيج والازدحام، «نحن متوترون ومتضايقون ونكثر التحدث بلغة الجسد». وكأن اشارات المرور (وليس المقاومة الفلسطينية) هي سبب توتر المستوطنين الصهاينة!

وحين يحاول المستوطنون الصهاينة اقتراح حل للمشكلة فإنهم لا يجدون غير الحل الأمني. فقد أشارت هآرتس إلى أن القائد العام للشرطة الإسرائيلية، سيطلب في جلسة الحكومة المقررة جعل الحرب ضد العنف «غاية وطنية مفضلة». ونشرت صحيفة **يديعوت أحرونوت**، على صدر صفحتها الأولي (٥ يونيه ٢٠٠٥)، رسالة موجهة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي أريل شارون، ممهورة بتوقيعات أهالي الشبان والشابات الذين قضوا نحبهم ضحايا لجرائم قتل مروعة في الآونة الأخيرة، وجاء فيها: «نشعر بأنه لو كانت هناك قوة للقانون ولو كانت هناك شرطة قوية، لأدى ذلك إلى ردع المجرمين وإلى عدم بلوغ العنف المستويات الوحشية التي بلغها.. نشعر أن هناك حاجة إلى تغيير كبير في سلم الأولويات القومي.. سيدي رئيس الوزراء أعط قوة للشرطة».

ولكن كل هذه التفسيرات والحلول، منها السطحي ومنها العميق، تتجاهل السبب الرئيسي الذي يحاول الصهاينة نسيانه وعدم ذكره وهو أن المجتمعات الاستيطانية مجتمعات مبنية على العنف وأن التجمع الصهيوني الاستيطاني قد جند قواته ليبطش بالمقاومة الفلسطينية ولإذلال الشعب الفلسطيني، وأن هذا الوضع يخلق مناخاً نفسياً يجعل العنف آلية مشروعة ومقبولة لحل كل المشاكل. ولا يمكن أن يُطلب من الجندي الإسرائيلي أن يلجأ للعنف والبطش ضد الفلسطينيين في

الأراضي المحتلة بعد ٦٧، وأن يلزم الهدوء ويسلك سلوكاً متحضراً في الأراضي المحتلة قبل ذلك التاريخ!

وقد لمس عوزي بنزيمان (في المقال الذي أشرنا إليه) التفسير الحقيقي في إشارة عابرة حين قال: يحذر البعض «من العنف المتفشي في المجتمع الإسرائيلي ولا يسألون أنفسهم عن حقيقة سلوك أبنائهم في المناطق»، أي سلوك الجنود الإسرائيليين في الأراضي المحتلة بعد ١٩٦٧. ومع دقة هذا التفسير إلا أنه محدود، فمعظم الإسرائيليين الذين ينتقدون الاحتلال والعنف الصهيوني دائما ما يشيرون إلى «احتلال» الضفة وغزة و«عنف الجنود» الإسرائيليين ضد أهلها، دون الإشارة من قريب أو بعيد إلى الأراضي التي احتلت قبل ٦٧، وكأن الصهاينة استولوا على هذه الأرض بأن أعطوا الفلسطينيين بعض الزهور والحلوى والشربات وطلبوا منهم الرحيل، وكأن دير ياسين وغيرها من المذابح مجرد كوابيس لا يرد لها ذكر إلا في الدعاية العربية، وكأن أعمال المؤرخين الإسرائيليين الجدد لم تقم بتوثيق هذه المذابح.

- **ستة آلاف مليونير في الدولة الصهيونية**

أؤكد دائماً أهمية الخريطة الإدراكية. فما يحدد استجابة إنسان ما للواقع، ليس الواقع في حد ذاته وإنما الواقع كما يراه هو، أو كما يقول علماء النفس ليس المثير في حد ذاته هو الذي يحدد استجابة الإنسان، وإنما المثير بعد أن يسقط عليه المتلقي أوهامه وأحزانه وأفراحه وإدراكه. وحتى نصل إلى هذه الخريطة الإدراكية، أو على الأقل بعض ملامحها، فلنحاول أن نرصد بعض القضايا التي تنشر في الصحافة الإسرائيلية والتي تشغل الوجدان الإسرائيلي.

في بلد يتزايد فيه الفقر يوماً فيوماً، قرأ المستوطن الصهيوني مقالاً عن جدول ميرل لينتش، بيت المال المشهور، جاء فيه : أن عدد أصحاب الملايين في إسرائيل بلغ عام ٢٠٠٤ حوالي ٦٦٠٠ مليونير، أي إن لدى كل واحد منهم سيولة نقدية دائمة من مليون دولار فأكثر. وتبلغ قيمة ثروتهم حوالي ٢٤ مليار دولار، وكان عدد أصحاب الملايين في إسرائيل في عام ٢٠٠٣، ٦ آلاف مليونير، تبلغ ثروتهم ٢٠ مليار دولار. وقد ازداد عدد الأثرياء في العالم في العام الماضي ٢٠٠٤بنسبة ٧٪ (مقارنة مع عام ٢٠٠٣)، أما في إسرائيل فإن عدد الأثرياء

ارتفع بنسبة ١٠٪، وهي من أعلى نسب الارتفاع في العالم. ففي الولايات المتحدة مثلاً، كانت الزيادة بنسبة ٩,٧٪، وفي القارة الآسيوية كان الارتفاع بنسبة ٨,٥٪، والشرق الأوسط ٩,٥٪، أما في أوربة فكان الارتفاع بنسبة ٤,١٪. ومن بين أكثر ٥٠٠ شخص ثراء في العالم يوجدُ ستة إسرائيليين، وأكثر الإسرائيليين ثراء هي شيري أريسون التي تبلغ ثرواتها حوالي أربعةِ مليارات دولار. (**المشهد الإسرائيلي** ٢٧ يونيه ٢٠٠٥). وكل هذه الأرقام والإحصاءات تدل على أن الاستقطاب الطبقي (الأثرياء في مقابل الفقراء) تزداد حدة في التجمع الصهيوني.

وإلى جوار هذا المقال قرأ المستوطن الصهيوني مقالاً لسيفر بلوتسكر (**يديعوت أحرونوت** ٢٤ مارس ٢٠٠٥) جاء فيه أن واحداً من كل أربعة إسرائيليين يعيش تحت خط الفقر، وهذه تعد أعلى نسبة في البلاد الصناعية المتقدمة (والدولة الصهيونية تتباهى دائماً بأنها دولة صناعية متقدمة). ويقول الكاتب ساخراً إن الصحافة الإسرائيلية تعطي انطباعاً بأنه «لا يوجد فردوس على وجه الأرض يشبه إسرائيل، وأن الوفود الأجنبية [التي تود الاستثمار في أرض إسرائيل] تقرع الأبواب حتى يسمح لها بالدخول، مما يترك انطباعاً لدى المرء أن كل شيء هنا رائع، وأننا نسبح في الثروة. بل إن المرء يمكن أن يستنتج، بناء على تقارير الصحافة،أن مشكلتنا الأساسية هي تقرير أي مجموعة استثمارية ستنجح في الحصول على هذا العقد الحكومي أو ذاك. أما مشكلتنا الأساسية الثانية فهي عدم وجود خطوط طيران كافية لنقل كل هؤلاء الإسرائيليين الذين يودون قضاء أجازة عيد الفصح في الخارج. سوق الأوراق المالية في حالة ازدهار، وأرباح الشركات قد وصلت الذروة، ورواتب كبار الموظفين لم تتوقف عن الزيادة- حتى أصبحت أكبر من مرتبات نظرائهم في إنجلترة... ولم يعد الشيقل (العملة الإسرائيلية) هو عملة التداول، فالعملة الآن هي مليون شيقل. في الواقع لم يعد من الملائم الحديث عن أقل من ذلك في أي مجال من المجالات». لا شك أن المواطنين الإسرائيليين الذين يعيشون تحت خط الفقر أو قريباً منه قرؤوا هذه المقالات أو سمعوا عنها، وتأملوا ملياً في الحكم الصهيوني وفي أرض الميعاد، أرض السمن والعسل.

وإلى جانب الحديث عن الثراء والفقر في إسرائيل، هناك خبر صدم القارئ الإسرائيلي نشرته صحيفة **معاريف** (٦ يوليه ٢٠٠٥ نقلاً عن الموقع الإلكتروني لهيئة

الإذاعة البريطانية) مفاده أن الشرطة الإسرائيلية اكتشفت وجود مجموعة من نحو ٢٠ شخصاً من النازيين الجدد في إسرائيل. ولم تعرف ما هي الإجراءات التي ستتخذ ضدهم لسبب بسيط، أنه لا يوجد قوانين تعاقب على اعتناق النازية في إسرائيل. وأشارت الصحيفة إلى أن الخيط الذي قاد إلى هذه المجموعة كان جندياً يبلغ من العمر ٢٠ عاماً تم اعتقاله للاشتباه في تعاطيه المخدرات وبعد التحقيق معه تم العثور على وشم للصليب المعقوف على ذراعه. وقد اعترف الجندي أن جماعته تجري مراسم احتفال نازية سرية وتستخدم شعارات النازية الجديدة ومن بينها الصليب المعقوف. وقد صرح المحقق الإسرائيلي أن هذه الحادثة أثارت الذعر في نفوس الإسرائيليين لأنهم اكتشفوا أن جماعة تضمر النية لإبادة اليهود تعيش وسطهم وهو أمر لم يحلموا بحدوثه في الدولة اليهودية. ومعظم النازيين الجدد من المهاجرين من دول الاتحاد السوفييتي السابق الذين حصلوا على المواطنة بسبب وجود أقارب بعيدين لهم من اليهود، وبعد حضورهم إلى إسرائيل شعروا أنهم مهمشون.

وقد قرأ المستوطن الصهيوني ما جاء في مجلة الجيروساليم ربورت (٦ أغسطس ٢٠٠٤) في مقال بقلم جوتكاين ليما («العالم اليهودي: قلق قبلي») والذي يتناول قضية الجماعة اليهودية في بيرو والتي لا يزيد عدد أفرادها عن ثلاثة آلاف فرد. ومع هذا اتهم عدد كبير منهم في الاشتراك في شبكة الفساد التي نشرها الرئيس السابق البرتو فيوجيموري (ياباني الأصل) وزوجته اليهودية ألين كارب. ولا شك أن الخبر صدم القارئ الإسرائيلي، فقد أحس أن يهود العالم، منصرفون عن أي مثاليات، يهودية كانت أم غير يهودية، وعن العقيدة اليهودية، وهذا يعود إلى أنهم مندمجون تماماً في عالم الأغيار، بخيره وبشره، وبحلوه ومره. ومن ثم فمسألة التطلع الأزلي للعودة إلى صهيون، التي يفترض الصهاينة أنها متغللة في كيان كل يهودي، هي مجرد ادعاء صهيوني لا أساس له من الصحة. وبالمناسبة لو نشرت أي مجلة غير يهودية هذا الخبر بهذه الطريقة لا تهمت على الفور بمعاداة السامية، لأنها ركزت على الجريمة بين اليهود!

ولا أتصور أن المستوطن الصهيوني قد فاته أن يقرأ مقال أميرام باركات الذي ورد فيه أن أكثر من ربع مليون إسرائيلي (٢٨٠ ألفاً) لا يمكنهم الزواج أو الطلاق لأنهم لا ينتمون إلى إحدى الطوائف اليهودية المعترف بها في إسرائيل. والقانون

الإسرائيلي لا يعترف بالزواج المدني، ويطلب من مواطني الدولة الصهيونية أن يتزوجوا على يد رجل دين معترف به من طائفتهم. وقد تم تعريف الطوائف الدينية إبان الفترة العثمانية التي انتهت عام ١٩١٧. وكانت الجماعات اليهودية في ذلك الوقت مستقرة من الناحية الدينية ولكن بعد الحرب العالمية الأولى دخلت كثير من التغيرات والتحولات التي لم يأخذها القانون الإسرائيلي الموروث عن القانون العثماني في الحسبان. وهذا الوضع يثير بحدة قضية الهوية اليهودية والتي يشار إليها بسؤال: من هو اليهودي؟ ومعظم الذين لا يحق لهم الزواج أو الطلاق هم من المهاجرين من روسية (٨٧٪) وإثيوبية (٣٪) ورومانية (٢٪). ولم يذكر المقال نسبة ما يسمى في الشرع اليهودي «العجونه» أو المرأة المربوطة، وهي المرأة التي اختفى زوجها دون أن يرسل لها بورقة الطلاق، وبالتالي لا يحق لها الزواج من آخر. وعدد النسوة اللائي يعانين من عملية الربط هذه يصل إلى بضع ألوف.

- **ماذا يقرأ الإسرائيليون**

لا شك أن الإسرائيليين قد قرؤوا ما ورد في موقع المشهد الإسرائيلي المتميز http://almash-had.madarcentre.org (٨/ ٨/ ٢٠٠٥) نقلا عن الصحف الإسرائيلية عن تقرير مؤسسة التأمين الوطني الإسرائيلية (مؤسسة الضمان الاجتماعي الحكومية)، الذي صدر رسمياً يوم الاثنين ٨/ ٨/ ٢٠٠٥، أشار إلى ارتفاع عدد الفقراء في إسرائيل في عام ٢٠٠٤ إلى أكثر من سبعين ألف شخص، مقارنة مع العام الذي سبقه ٢٠٠٣ وهم يشكلون ارتفاعاً بنسبة ٥,٢٪ في عدد الفقراء، وهي نسبة تساوي أكثر من ضعفي نسبة تكاثر السكان في إسرائيل التي تبلغ حوالي ٢,٤٪. وقد ظهر هذا التقرير بالتزامن مع ظهور ثلاثة تقارير أخرى تشير إلى الفجوات الاجتماعية الآخذة بالاتساع في إسرائيل.

وقد أشارت تمارغوجانسكي عضو كنيست سابقة في لائحة الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة. (في ١٧ أكتوبر ٢٠٠٥) نقلاً عن **المشهد الإسرائيلي في مقال لها بعنوان الهواجس في يوم الغفران** إلى أنه في العامين الأخيرين، على ضوء التطورات السياسية، سجلت إسرائيل نمواً اقتصادياً وازدادت مداخيل الدولة من الضرائب، ولكن كما هو الحال في الدول الرأسمالية فإن ثمار هذا الأمر بغالبيتها وصلت إلى جيوب واحد بالألف من المواطنين. تؤكد معطيات مؤسسة التأمين

الوطني (مؤسسة الضمان الاجتماعي الحكومية) في تقريرها حول الفقر في العام ٢٠٠٤ أن النشاط الاقتصادي، وعمليات الخصخصة وتخفيض الضرائب للأغنياء، زادت من غنى الأغنياء وزادت أعداد الفقراء وفقرهم أيضاً. كما أن مشروع ميزانية الدولة للعام ٢٠٠٦ الذي أقرته الحكومة، لا يتطرق إلى التقليصات المرتقبة في مخصصات الأولاد، وهي التقليصات المقررة منذ عامين، ولا لتآكل أجور العاملين ومخصصات التأمين الوطني على أشكالها، وهذا ما يعني إبقاء هذه الضربات الاقتصادية على حالها. إلى جانب هذا فإن الحكومة تعتزم إجراء تغييرات في رواتب القطاع العام، فسترفع نسبة الخصم من الراتب لغرض تأمين التقاعد، كما أنها ستسمح بإبقاء الموظف على أنه مؤقت لمدة خمسة أعوام وليس لمدة عام واحد كما هو الحال اليوم، وفي كلتا الحالتين يعدُّ ذلك ضربة جدية لرواتب مستخدمي القطاع العام.

وقد قرأ المستوطنون الصهاينة أن أكاديمية العلوم السويدية أعلنت عن منح البروفسور الإسرائيلي يسرائيل أومان، البالغ من العمر ٧٥ سنة، جائزة نوبل في الاقتصاد لعام ٢٠٠٥ مناصفة مع البروفسور الأمريكي توماس شيلينج من جامعة ميريلاند في الولايات المتحدة «تقديراً لمساهمتهما في تحسين الفهم للمواجهات والتعاون بواسطة تحليل نظرية الألعاب، الذي يوفر شرحاً أفضل للخلافات السياسية على خلفية اقتصادية. كما أن نظرية الألعاب تفسر سبب نجاح بعض الدول أكثر من غيرها في استغلال ثروتها الاقتصادية». وقد طيرت وكالات الأنباء الخبر، على أنه خبر عالمي محايد لابد أن يدخل البهجة على قلوب أعضاء الجنس البشري.

ولكن موقع **المشهد الإسرائيلي** (٢٢ أكتوبر ٢٠٠٥) يعطينا معلومات مهمة لإلقاء الضوء على هذا العالم ونظرياته، فقد ولد يسرائيل أومان في مدينة فرانكفورت عام ١٩٣٠ ثم هاجر إلى الولايات المتحدة في صباه حصل على شهادة الدكتوراه في الرياضيات عام ١٩٥٥، أي إنه نشأ وتعلم في الولايات المتحدة. ثم هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٥٦ وبدأ يعمل محاضراً في كلية الرياضيات في الجامعة العبرية في القدس. ومن المعروف أن كثيراً ممن يسمون «العلماء الإسرائيليين» يتلقون تعليمهم في الولايات المتحدة ويجرون أبحاثهم فيها، ثم ينشرونها في إسرائيل، لتحسب ضمن الأبحاث الإسرائيلية. فهل أومان من هؤلاء؟ لم أجد إجابة على هذا السؤال فيما نشره **المشهد الإسرائيلي**.

ولكن هذا الموقع الإلكتروني زودنا بمعلومات أخرى في غاية الأهمية فقد أجرى حواراً مع أستاذ جامعي إسرائيلي وناشط سياسي هو سامي شطريت الذي بيَّن أن أومان يميني متطرف وأنه يجند نشاطه العلمي في خدمة أيديولوجيته فهو من أنصار أرض إسرائيل الكامل. فقد طور أنموذجاً علمياً يوضح «أن نزع سلاح إسرائيل النووي حل غير مرغوب فيه». ثم يضيف شطريت أن أومان هو أحد مؤسسي هذا المجال الجديد نسبياً، والمحبوب أساساً لدى رجال الاستخبارات والجنرالات ورؤساء المنظومات السياسية الكبرى والمسؤولين عن إدارة مفاوضات سياسية وأصحاب المجمعات والشركات التجارية الكبرى وكذلك المحللين في أسواق الرأسمال وغيرهم. وليس من الصعب الاستدلال فوراً على أن ما يجمع هؤلاء جميعاً من قاسم مشترك هو غياب الأخلاق قيمةً فاعلةً في احتساب خطواتهم. إن الإسهام الرئيسي للبروفسور أومان هو نجاحه في تطبيق عمله على ميدان سوق المال والبورصة - أي القدرة على توقع سلوك سهم ما أو سوق معين. وقد أسهم في شبابه أيضاً في تطوير منظومات توجيه استراتيجية لصواريخ باليستية عابرة للقارات! وكل هذه الأمور أبعد ما تكون عن خدمة الإنسانية!

أما بالنسبة إلى مواقفه السياسية فقد أكد شطريت أن البروفسور أومان عَدَّ مؤخراً أن الخروج الإسرائيلي من قطاع غزة «هو عمل غير أخلاقي، غير إنساني وأحمق. لم نربح من ذلك أي شيء وهناك احتمال كبير بأننا خسرنا كثيراً». وأورد شطريت جزءاً من إعلان نشر في وسائل الإعلام الإسرائيلية عشية الانسحاب من غزة وقع عليه أعضاء ما يسمى بـ«طاقم الأساتذة من أجل المناعة السياسية والاقتصادية» (جماعة يمينية متطرفة) بمن فيهم البروفيسور أومان نفسه. وقد وصف البيان الانسحاب من غزة بأنه «رياحٌ لأشرعة الإرهاب وللعداء للسامية، وأن هدم الكنس من قبل شارون - بتأييد جهاز القضاء - من شأنه أن يشجع المس باليهود والكنس والمقابر اليهودية في أرجاء العالم، كما من شأنه أن يضر بالهجرة اليهودية إلى إسرائيل وأن يقوّض أكثر فأكثر ثقة الجمهور بجهاز القضاء في إسرائيل».

وختم شطريت مقاله بالقول: لماذا ينبغي أن تهمني رياضيات هذا الشخص ونظرياته، مهما تبلغ عبقريته، إذا كان تفكيره في القضايا التي يوجد لها تأثير على

البشر الذين يعيشون في هذه البلاد هو تفكير رهيب ومدمر، يقدّس الحروب وتقديم الضحايا البشرية إلى ما لا نهاية. ويمكننا نحن أن نتساءل: ما مدى حيادية جائزة نوبل؟

وقد قرأ الإسرائيليون ما نشر في الصحف الإسرائيلية (٢٢/ ٥/ ٢٠٠٥) عن فيلم مثّل إسرائيل في مهرجان كان بعنوان ما عدا واخدة من عيني لآفي مغربي وهو فيلم تسجيلي، يستند أصلاً إلى محادثات هاتفية تدور، منذ ثلاث سنوات، بينه وبين صديق له فلسطيني يعيش في الضفة الغربية، ويبدو لنا يائساً متشائماً من كل شيء. ومغربي يسجل كل هذا، في إدانة واضحة وصريحة للسلطات القمعية الإسرائيلية، من خلال دمج حديثه مع صديقه بمشاهد يومية من حياة الفلسطينيين في ظل الاحتلال والقمع: «أطفال لا يستطيعون استكمال دراستهم، أمهات منحصرات في البيوت، حواجز تنغص على الناس عيشهم وتمنعهم من الحركة. اقتصاد منهار وآفاق مستقبلية معتمة». فهل سيغير هذا من خريطة الإسرائيليين الإدراكية؟

الفصل التاسع

ثقافات الجماعات اليهودية

• استقلال الثقافة اليهودية

نحن نذهب إلى أنه يمكن القول بأن ثمة تشكيلين حضاريين «يهوديين» يتمتعان بقدر محدود من الاستقلال عما حولهما من تشكيلات حضارية.

١- الثقافة العبرية القديمة، التي تمتعت بقدر من الاستقلال داخل التشكيل الحضاري السامي في الشرق الأوسط القديم. ومع هذا ظل هذا الاستقلال محدوداً للغاية بسبب بساطة الحضارة العبرانية ولضعف الدولة العبرانية ولتبعية الدولتين العبرانيتين (مملكة يهودا ومملكة يسرائيل) للإمبراطوريات الكبرى في الشرق الأوسط القديم (المصرية- الآشورية - البابلية - الفارسية). والتبعيةُ السياسية، خاصة في العصور القديمة، كانت تؤدي إلى تبعية ثقافية بل وأحياناً دينية، ولذا استعارت الثقافة العبرانية كثيراً من حضارات هذه الإمبراطوريات.

٢- الثقافة الإسرائيلية (أو العبرية الحديثة). هذه الثقافة مستقلة - ولا شك - عن التشكيل الحضاري الغربي. ولكنها مع هذا لا تزال ثقافة جديدة لم تكتمل مفرداتها الحضارية بعد، كما أن الصراع الثقافي الحاد بين عشرات الجماعات اليهودية التي انتقلت إلى إسرائيل وتحمل معها تقاليدها الحضارية (سفارد- أشكناز- يهود البلاد العربية - فلاشاه - بني إسرائيل من الهند - يهود بخارى - يهود قراؤون - سامريون.. إلخ) يجعل من العسير بلورة مثل هذه الثقافة.

ولكن العنصر الأساسي الذي يتهدد عملية بلورة خطاب حضاري إسرائيلي مستقل هو أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع استيطاني يدين بالولاء الكامل للولايات المتحدة الأمريكية ويعاني من تبعية اقتصادية وعسكرية مذلة لها، فهو يدين لها ببقائه وبمستواه المعيشي المتفوق، ولذا فثمة اتجاه حاد نحو الأمركة يكتسح في طريقه كل الأشكال الإثنية الخاصة التي أحضرها المستوطنون معهم من أوطانهم الأصلية. ومما يعمق من هذا الاتجاه أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع علماني تماماً، ملتزم بقيم المنفعة واللذة والإشباع المباشر والنسبية الأخلاقية والاستهلاكية وهذا يتعارض مع محاولة التراكم الحضاري. ومع ظهور النظام العالمي الجديد والاستهلاكية العالمية، فإنه من المتوقع أن تزداد الأمور سوءاً.

وبخلاف الحضارة العبرانية القديمة والثقافة الإسرائيلية الجديدة لا يمكن الحديث عن ثقافة أو حضارة يهودية مستقلة أو شبه مستقلة. فاليهود، مثلهم مثل أعضاء الجماعات والأقليات الدينية والعرقية الأخرى كافة، يتفاعلون مع ثقافة الأغلبية التي يعيشون في كنفها ويستوعبون قيمها وثقافتها ولغتها. وإن كان هناك درجة من الاستقلال لكل جماعة يهودية عن الأغلبية، فإن هذا الاستقلال لا يختلف عن استقلال الأقليات الأخرى عن الأغلبية، كما أنه لا يعني بالضرورة أن ثمة عنصراً عالمياً مشتركاً بين كل جماعة يهودية وأخرى، فالعبرانيون، منذ ظهورهم في التاريخ تبنوا حضارات الأمم الأخرى، ابتداء من اللغة، مروراً بالمفاهيم الدينية، وانتهاء بالطراز المعماري. وعلى سبيل المثال، لا يعرف طراز يهودي معماري، أو فن يهودي مستقل، فقد كان هيكل سليمان يتبع الطراز الآشوري الفرعوني (المصري)، ولم يكن يختلف كثيراً عن الهياكل الكنعانية. وكذلك تتبع المعابد اليهودية في العالم العربي الطراز العربي. أما جنوب الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر، فكانت المعابد اليهودية فيه تبنى على الطراز النيوكلاسيكي السائد هناك آنذاك. والفنانون التشكيليون اليهود في العصر الحديث، أمثال مارك شاجال، ينتمون إلى تراث فني غربي ولا يمكن رؤيتهم في إطار ثقافة يهودية مستقلة، ولا يعرف كذلك تراث أدبي يهودي مستقل، فالأدباء اليهود العرب في الجاهلية والإسلام اتبعوا التقاليد السائدة في عصورهم. وكذلك الأدباء اليهود في الولايات المتحدة وإنجلترة، فإبداعهم مرتبط بالتراث الذي ينتمون إليه، وهذا أمر طبيعي.

لا توجد إذن ثقافة يهودية مستقلة، عالمية، تحدد وجدان اليهود وسلوكهم وإنما توجد ثقافات يهودية مختلفة باختلاف التشكيل الحضاري الذي يوجد اليهود داخله. ولذا يجدر بنا أن نتحدث عن ثقافة غربية يهودية أو ثقافة عربية يهودية، وبذا نخفض من مستوانا التعميمي حتى يتلاءم مع الظاهرة موضع الدراسة. ولكننا لو فعلنا ذلك فإننا سنكتشف، على سبيل المثال، أن الثقافة العربية اليهودية هي، في نهاية الأمر، جزء من الثقافة العربية، ولا توجد ملامح يهودية خاصة إلا في بعض الموضوعات وبعض المضامين المختلفة؛ إذ تظل البنية العامة بنية عربية - ولنضرب مثلاً بيعقوب صنوع وشهرته «أبو نظارة» أحد رواد المسرح والصحافة الساخرة، وأحد رواد الحركة القومية في مصر. كتب عدة مسرحيات بالعامية المصرية إلى أن منعته الحكومة في عام ١٨٧٢، وجه هجومه ضد الإنجليز الذين كانوا قد احتلوا مصر. ويثير أبو نظارة قضية الهوية اليهودية والثقافة اليهودية، إذ تصنفه المراجع الصهيونية بحسبانه مثقفاً يهودياً وهو تصنيف لا يفسر أياً من الجوانب المهمة من حياته، أدبية كانت أم سياسية، وهي حياة لا تفهم في كليتها إلا بالعودة إلى حركيات المجتمع المصري وتقاليد الفكاهة المصرية وحركة التحرر الوطني في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ولتحاول؛ على سبيل التجربة؛ أن تفسر سيرة حياته الشخصية والفكرية في إطار الجيتو اليهودي في شرق أوربة أو قصة النجاح اليهودية في الولايات المتحدة أو عنصرية يهود جنوب إفريقية، لو فعلت ذلك لاكتشفت مدى عجز مثل هذا الأنموذج التفسيري الذي يفترض وجود ثقافة يهودية واحدة عالمية.

وقل الشيء نفسه عن الفنان المصري داوود حسني، فهو ملحن وموسيقي مصري يهودي ويقرن اسمه بموسيقيين من أمثال سيد درويش وكامل الخلعي حيث لعب دوراً بارزًا في نهضة الموسيقى في مصر وفي إثرائها في العقود الأولى من القرن العشرين. وقد تميز داوود حسني بشكل خاص في المسرح الغنائي المصري حيث لحن كثيراً من المسرحيات الغنائية، وكان أول من قام بتلحين أول أوبرا مصرية هي «شمشون ودليلة»، كما لحن أوبرا أخرى هي «ليلة كليوباترة» التي ألفها حسين فوزي. وقد تتلمذ على يديه كثير من المطربين والمطربات الذين حققوا شهرة واسعة فيما بعد من مثل أم كلثوم وأسمهان.

وتقوم الإذاعة الإسرائيلية بالإشارة إلى داوود حسني باعتباره موسيقاراً يهوديّا، وهو أمر يستحق التأمل دون شك، إذ إننا لو حاولنا البحث عن أي مكون يهودي في موسيقاه لأعيتنا الحيلة. ولذا يدهش كثيراً من المصريين الذين يعرفون أغانيه وأدواره، كما يدهش كثير من المتخصصين الذين درسوا موسيقاه، حينما يعرفون أنه «يهودي» ومن ناحية أخرى، فإنه برغم تميزه داخل الحضارة العربية الحديثة، وبرغم ذيوع صيته، فإن كثيراً من الموسوعات والدراسات التي تتناول ما يسمى «الثقافة اليهودية» لا تذكر اسمه (فالثقافة اليهودية عادة ما تعني عندهم الثقافة اليديشية أو ثقافة يهود العالم الغربي).

وإذا أردنا بلورة وجهة نظرنا بشكل أكثر حدة (وربما طرافة) وإذا أردنا أن نبين المقدرة التفسيرية لأنموذجنا المقترح (في مقابل الأنموذج الصهيوني القائل بالثقافة اليهودية ووحدتها) فلننظر إلى ظاهرة مثل الرقص الشرقي الذي يقال له البلدي (أي هز البطن). كان يوجد العديد من الراقصات المصريات اليهوديات في (كاباريهات القاهرة) في فترة الأربعينيات. ويوجد عدد لا بأس به منهن الآن في الولايات المتحدة، (خاصة كاليفورنية). ويوجد عدد من الراقصات «البلدي» في الدولة الصهيونية، بل وتوجد مدرسة متخصصة لتدريس هذا الفن في إسرائيل (وقد أثار المتدينون اليهود قضية بدلة الرقص الفاضحة، إبان إحدى جلسات الكنيست) هل أصبح الرقص الشرقي بذلك «فناً يهودياً» وجزءاً من، «التراث اليهودي» أم أنه ظل فناً شرقياً، ولا يمكن فهمه أو حتى فهم اشتغال بعض اليهوديات به، إلا في إطار آليات وحركيات الحضارة العربية؟

• ثقافات الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية

وستتضح المقدرة التفسيرية لأنموذجنا التفسيري المقترح (عدم وجود ثقافة يهودية واحدة) حينما نطبقه على الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية، إذ سنلاحظ أنه لا توجد ثقافة يهودية غربية واحدة، وإنما ثقافات يهودية بعدد الدول التي يتواجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية، فثقافة يهود إسبانية (السفارد) هي ثقافة إسبانية، تماماً مثلما أن ثقافة يهود ألمانية ثقافة ألمانية، وثقافة يهود إيطالية ثقافة إيطالية وثقافة يهود أمريكة ثقافة أمريكية.. وهكذا. ويقول المؤلف الإنجليزي اليهودي آرثر كوستلر إن ما يعرف بالتراث اليهودي، أو الثقافة اليهودية (بمعنى عام

لا بمعنى ديني وحسب) أمر ليس من السهل تعريفه إذ إن كل ما يصدر عن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ليس يهودياً بالمعني المحدد وليس جزءاً من تراث يهودي قائم. فالإنجازات الفلسفية والعلمية والفنية لليهود تتوقف على معطيات ثقافة الشعوب الأخرى وحضاراتها.

والأنموذج التفسيري الصهيوني بافتراضه وجودَ ثقافة يهودية واحدة مستقلة يخلق مشكلات لا حصر لها بخصوص عملية تعريف المثقف اليهودي . فلا يوجد نمط واحد لتناول المثقفين أو الأدباء اليهود للموضوعات اليهودية، فهناك من يتناول الموضوعات اليهودية من منظور يهودي ما مثل الروائي الصهيوني الأمريكي مائير لفين، ولكن هناك أيضاً من يتناولها من منظور معادٍ لليهود مثل الروائي الأمريكي (ناثانيال وست)، وثمة فريق ثالث يتجاهل الموضوع اليهودي تماماً في كل كتاباته أو في معظمها مثل الناقد الأمريكي اليهودي ليونيل ترلنج. وهناك فريق رابع يتناول الموضوع اليهودي ولكنه يضعه في سياق إنساني عام ويرى أن غربة اليهودي الحادة إن هي إلا تعبير عن أزمة الإنسان (العلماني) الحديث، كما يفعل المخرج السينمائي الأمريكي وودي ألين والروائي الروسي أيزاك بابل. وهذا التنوع يجعل من العسير إطلاق اصطلاح «مثقف يهودي» على كل هؤلاء. وفي عام ١٩٨٩، صدر كتاب بعنوان The Blackwell Companion to Jewish Culture (أي **دليل بلاكويل للثقافة اليهودية**). لكن هذا المعجم لا يضم إلّا أسماء المثقفين اليهود في داخل التشكيل الحضاري الغربي، واستبعد المثقفين اليهود من الشرق كافة من مثل يعقوب صنوع وداوود حسني وغيرهما، ولعل محرري هذا المعجم قد فعلوا ذلك ليفرضوا نوعاً من الوحدة عليه. ولكن الوحدة في هذه الحالة هي وحدة غربية وليست يهودية.

ولكن المشكلة الأخرى هي أن هذا المعجم يضم أسماء مثقفين يهود معادين بشكل أساسي لليهودية ولا يمكن فهم فكرهم إلا في إطار تقاليد معاداة اليهود في الحضارة الغربية، فهل يصنف هؤلاء على أنهم مثقفون يهود يعبرون عن الثقافة اليهودية، بينما يُستبعد المثقفون اليهود الشرقيون؟

وهناك مشكلة ثالثة وهي مجموعة المثقفين اليهود الذين يؤكدون انتماءهم للحضارة المسيحية باعتقادها مصدراً لوحيهم ولرؤيتهم للكون، مثل بوريس

باسترناك، وإيليا هرنبرج (في مرحلة من مراحل حياته). بل هناك فيلسوف يسمى ليف شستوف ظهر اسمه في كتاب عن أهم ثلاثة فلاسفة يهود في العصر الحديث ومعه مارتن بوبر وروزنزفايج. ولكن المعجم الذي نتحدث عنه لم يورد اسمه لسبب وجيه هو أن هذا الفيلسوف الذي ولد لأم يهودية يعدُّ فيلسوفاً مسيحياً لأنه يتحدث عن واقعة صلب المسيح بعدِّها أهم حدث تاريخي. ولكن رغم استبعاد معجم بلاكويل لاسمه، فإننا نجد أن اسمه ورد في **الموسوعة اليهودية**. وهناك أيضاً حالة نعوم تشومسكي، وهو من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث ويجيد العبرية وعاش بعض الوقت في إسرائيل، ومع هذا تهمله كل الموسوعات اليهودية ربما بسبب عدائه لإسرائيل والصهيونية. فهل موقف المثقف اليهودي السياسي يسقط عن إثنيته اليهودية؟

وإنكارنا لوجود ثقافة يهودية مستقلة ومثقفين يهود خالصين لا يعني إنكار وجود مكوِّن يهودي أو عناصر يهودية مستقلة. كل ما نذهب إليه أن مثل هذه العناصر، إن وجدت، فليس لها مركزية تفسيرية، أي إنه لتفسير بنية فكر فيلسوف أو مفكر يهودي ما، وطبيعة أدب أديب يهودي ما، علينا تبني تفسيرية مشتقة من الحضارة التي ينتمي إليها هذا المفكر أو الأديب اليهودي بدلاً من العودة للتوراة والتلمود وتاريخ العبرانيين والكنعانيين (كما يفعل الصهاينة والمعادون لليهود) المشتقة من تلك الحضارة ذات مقدرة تفسيرية تفوق بمراحل مقدرة المشتقة من الثقافة اليهودية، ويمكن دراسة العناصر اليهودية بحسبانها عناصر مكملة، دون أن تكتسب مركزية تفسيرية. انطلاقاً من هذا الإطار التفسيري نطرح في **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية** أنموذجاً تفسيرياً جديداً، مشتقاً من الحضارة الغربية الحديثة. فنحن نذهب إلى القول بأن هذه الحضارة قد هيمن عليها بالتدريج (منذ عصر نهضتها) ما نسميه بالأنموذج الحلولي الكموني. والحلولية الكمونية تعني أن الإله قد حل في المادة (الطبيعة والإنسان) وأصبح غير مفارق لها، وبذلك أصبح العالم (الإنسان والطبيعة) مكتفياً بذاته، لا يحتاج إلى قوة خارجة عنه، ويمكن تفسيره بدراسة قوانين الحركة الكامنة (الحالَّةِ) فيه، هذه الحلولية الكمونية هي الإطار الفلسفي العام للحضارة الغربية بعقلانيتها المادية منذ فرانسيس بيكون وديكارت مروراً بهيجل وانتهاءً بنيتشه (الذي ذكَّر أوربة بأن الإله الحالّ في المادة قد مات وأصبح غير قادر على أن يعطي للعالم معنى). والحلولية الكمونية هي الأرضية التي

يدخل عليها اليهود إلى الحضارة الغربية. وسيادة هذه الرؤية الحلولية الكمونية، أمر لا دخل لليهود فيه، وإنما خاضع لحركيات الحضارة الغربية.

هذا هو الأنموذج التفسيري الأكبر. عند هذه اللحظة يمكننا أن ننظر إلى العناصر اليهودية فتراها تشير إلى أن العقيدة اليهودية ذاتها كانت قد أصبحت عقيدة حلولية كمونية بعد هيمنة القبالاه عليها منذ القرن الرابع عشر، وأن الميراث الحلولي للمثقفين اليهود في العصر الحديث (ابتداءً بإسبينوزا وانتهاءً بدريدا) قد ساهم ولا شك في جعلهم أكثر استعداداً لقبول الحضارة الغربية الحديثة، بحلوليتها وكمونيتها. ويمكن أن نشير إلى تصاعد معدلات العلمنة بين الجماعات اليهودية، بدرجات تفوق المعدلات السائدة في المجتمع الغربي (كما هو الحال دائماً مع الأقليات). ويمكن أن نشير كذلك إلى أن إحساس أعضاء الجماعات اليهودية بالغربة وعدم الأمن (كما هو الحال أيضاً مع أعضاء الأقليات) جعلهم تربة صالحة وخصبة لتقبل الحضارة الغربية الحديثة.

ويمكن أخيراً أن نذكر أن موقف كثير من المثقفين اليهود يتسم بأنه موقف نقدي جذري من الحضارة الغربية، يتسم بالشك المعرفي والأخلاقي وسيطرة الفلسفات العدمية. كل هذه العناصر اليهودية ساهمت ولا شك في أن تجعل المثقفين اليهود أكثر استعداداً لتقبل الحضارة الغربية الحديثة وأكثر قدرة على التعبير عنها - أي إن المكوِّن اليهودي في ثقافة المثقف اليهودي الغربي قد يفسر حدة نبرته وجذريتها وعمق عدميتها وحلوليتها. كما قد يفسر تزايد عدد المثقفين اليهود من الثوريين والعدميين ودعاة العقلانية المادية، ولكنه لا يفسر بأية حال ظهور المنظومة الحضارية الغربية الحديثة العقلانية المادية، فهذا مرتبط - كما أسلفنا - بآليات المجتمع الغربي، الثقافية والاقتصادية.

بل إننا نذهب إلى أن بروز أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية الحديثة، ناجم عن انتمائهم إلى هذه الحضارة واندماجهم فيها واستيعابهم لها، لا عن انعزالهم عنها، ويتزايد بروزهم بمقدار تخليهم عن عزلتهم واستقلالهم. وليس من قبيل المصادفة أن أول مفكر يهودي بارز في الحضارة الغربية الحديثة هو إسبينوزا الذي تخلى عن يهوديته. وقد أعلن هايني أن التنصر هو تأشيرة الدخول للحضارة الغربية، فتنصر هو ذاته. وكما فعل أبو ماركس وأولاد هرتزل وأولاد

موسى مندلسون ونصف يهود برلين في القرن التاسع عشر.. إلخ . ولكن الأدق هو القول: إن التخلي عن العقيدة اليهودية (وليس بالضرورة التنصر) هو تأشيرة الدخول فليس مطلوباً من أحد التنصر، لأنَّ مرجعية الحضارة الغربية لم تعد المسيحية وإنما العقلانية المادية أو الحلولية الكمونية. وينبغي الإشارة إلى أن الكمون اليهودي قد ينصرف إلى بنية فكر المثقف اليهودي وإلي الموضوعات الكامنة، وليس إلى مضمونها الواضح. بل إنه يمكن أن يكون المضمون الواضح عالمياً وإنسانياً بل ومعادياً لليهود أو الصهيونية، وتظل البنية والمقولات الأساسية الكامنة يهودية بالمعنى المحدد الذي نطرحه، كما هو الحال مع إسبينوزا ودريدا وفرويد وكافكا. فإسبينوزا، وقف موقفاً رافضاً تماماً لكل الأديان، بل واختص اليهودية بالهجوم الشرس، وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن كثير من المفكرين الغربيين من عنصر النهضة، وهيمنة العقلانية المادية. ومع هذا لا يمكن فهم حدة هذا الرفض وهذا الهجوم إلا بالعودة للقبالاه اللوريانية والتراث الماراني.

واهتمام فرويد الحاد بالجنس يمكن رؤيته تعبيراً طبيعياً عن تصاعد معدلات العلمنة ومحاولة رد كل شيء إلى عنصر واحد كامن/ حال (الجنس في حالة فرويد). ولكن القبالاه اللوريانية كانت قد قامت بإنجاز هذا معرفياً وبشكل متبلور قبل ذلك بعدة قرون. وقد وصف أحد المراجع القبالاه بأنها جنَّست الإله، وألَّهت الجنس، أي جعلته أنموذجاً تفسيرياً كلياً ونهائياً، يُرَدُّ له كل شيء. وهذا ما فعله فرويد.

وتلجأ بعض المراجع لحيلة رخيصة لتأكيد وجود حضارة يهودية مستقلة وهوية يهودية ثقافية مستقلة نابعة منها، فتتحدث **موسوعة الثقافة اليهودية** عن هذا الزي «اليهودي الصميم» الذي يرتديه يهود المغرب والذي يسمي Keswa Kubra وهي «الكسوة الكبيرة»، وتُكتب الكلمة بحروف لاتينية دون ترجمة، فيتصور القارئ الذي لا يعرف العربية أن هذه كلمة عبرية أو كلمة عربية عبرية! ويوجد للزي اليهودي الصميم شيء يسمى Cum وهو الكم. ويأكل أعضاء الجماعات اليهودية في بخارى طعاماً يهودياً مميزاً يسمى Yachni أي الياخني، أما في اليمن فهم يأكلون طعاماً خاصاً للغاية لم نسمع عنه قط من قبل يسمى Khubz أي خبز.

أما في إسرائيل، بلد العجائب، فيأكلون طعاماً موغلاً في يهوديته اسمه Falafel أي الفلافل والتي اكتشفت أنها طعام إسرائيلي فريد حينما كنت أعيش في

مدينة نيويورك. ورؤساء يهود الفلاشاه، هم نوع خاص من الحاخامات، يسمونهم «قسيم» وهي صيغة الجمع العبرية لكلمة «قس» العربية (وربما الأمهرية) التي اقتبسها يهود الفلاشاه الذين دخلت على يهوديتهم عناصر مسيحية كثيرة! وحينما يحاول الإسرائيليون أن يرقصوا فهم يرقصون رقصة يهودية صميمة تسمى «الهورا» (من أصل روماني) أو رقصة يهودية أخرى. تسمى «الدبكة»! وحينما ترتدي مضيفات شركة إلعال زي الفلاحة الفلسطينية، فهذا زي إسرائيلي نابع من الثقافة اليهودية. وحينما أسس متحف في قرى حيفا على هيئة قرية عربية أخبر كتيب المعرض الزائر أن هذه قرية من حوض البحر الأبيض المتوسط حتى يمكن تحاشي ذكر كلمة «فلسطين»، وحتى يختبئ الأصل الحقيقي للمنتج الحضاري. لكن هل يمكن تأسيس ثقافة من خلال مثل هذا التلفيق الرخيص والعنف اللفظي الذي يبعث على الرثاء؟ قد ينجح الصهاينة في تأسيس بعض المستوطنات من خلال العنف والبطش العسكري، ولكن التجذر الحضاري أمر آخر والقلاع الصليبية المهجورة التي لا يبكي أحد على أطلالها، شاهد على ذلك.

لا يوجد استقلال ثقافي يهودي، ومن ثم فلا يمكن الحديث عن خصوصية يهودية، إذ إن مفهوم الخصوصية ليس له ما يسانده في واقع اليهود الثقافي. فثقافات أعضاء الجماعات اليهودية بل ومعتقداتهم الدينية تتسم بقدر عالٍ من عدم التجانس النابع من وجودهم في مجتمعات شتى يتكيفون مع حضاراتها ويستوعبونها ويستمدون خصوصياتهم منها (لا خصوصية يهودية واحدة عالمية، كما يدَّعي الصهاينة والمعادون لليهود) ولذا فقد يكون من الأدق الحديث عن خصوصيات الجماعات اليهودية، تماماً مثل حديثنا عن ثقافات الجماعات اليهودية، لا عن خصوصية يهودية واحدة عالمية مستمدة من معجم حضاري واحد.

- **لغات اليهود ولهجاتهم**

تستخدم بعض المراجع الصهيونية اصطلاح، «اللغات اليهودية» للإشارة إلى اللغات واللهجات والرطانات التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية في العالم.. ونحن نفضل استخدام عبارة لهجات أعضاء الجماعات اليهودية نظراً لمقدرتها التفسيرية العالية ولتأكيدها الحدة وعدم التجانس في الوقت ذاته.

ولم يتحدث اليهود اللغة التي تعرف بالعبرية إلا لفترة قصيرة للغاية، فلغة

الآباء (إبراهيم وإسحاق ويعقوب) (٢١٠٠ - ١٢٠٠ ق.م) كانت لهجة سامية قريبة من العربية أو الآرامية، أما العبرية، فكانت لهجة من اللهجات الكنعانية ولم يتخذها اليهود لساناً لهم إلا بعد إقامتهم في كنعان (ابتداء من ١٢٥٠ ق.م). ويبدو أن العبرية قد اختفت بوصفها لغة الحديث بين اليهود مع التهجير البابلي (٥٦٧ق. م). وثمة نظرية تذهب إلى أن الآرامية (كانت لغة المسؤولين في بلاط ملوك مملكة يهودا الجنوبية). ورغم أنه بقي بعض اليهود في فلسطين يتحدثون العبرية، إلا أن الآرامية حلت تماماً محل العبرية نحو ٢٥٠ ق.م.

أما اللغات التي كان يستخدمها أعضاء الجماعات اليهودية في تعاملهم مع الآخرين بعد انتشارهم في العالم، فكانت في معظم الأحيان لغة الوطن الذي استقروا فيه وانتمَوْا إليه، أو إحدى اللغات الدولية السائدة. فكان يهود بابل يتحدثون الآرامية، لغة التجارة الدولية والإدارة في الشرق الأدنى القديم. وكان يهود الإسكندرية في العصر الهيليني يتحدثون اليونانية، كما أن يهود فلسطين كانوا يتكلمون إما الآرامية أو اليونانية (جاء في العهد الجديد أن القديس بولس تحدث للناس في فلسطين باليونانية ثم تحدث معهم بالآرامية بعد ذلك). وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية، كان يهود الإمبراطورية الشرقية يتحدثون لغة هذه الإمبراطورية، أي اليونانية (وظلوا يتحدثون بها حتى الفتح العثماني). أما يهود الإمبراطورية الغربية وإفريقية وغرب أوربة، فكانوا يتحدثون اللاتينية، ويبدو أن بعض يهود الإمبراطورية الإيرانية كانوا يتحدثون باللهجات الفارسية المختلفة (ففي سفر إستير ورد أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا يتحدثون بالفارسية مع الفرس بدون صعوبة)، وكان يهود العالم العربي يتحدثون العربية، وهكذا. وفي بعض الأحيان، كان أعضاء الجماعات اليهودية يستخدمون، في التعامل فيما بينهم، رطانات مُكوَّنة من لغة الوطن أو لغة المنشأ بعد أن يدخلوا عليها بضع كلمات ومصطلحات عبرية أو أرامية أو ألفاظاً من أية لغة أخرى كانوا يتحدثون بها في البلد الذي كانوا فيه قبل هجرتهم. فيهود الأندلس، على سبيل المثال، كانوا يتحدثون رطانة تسمى «العربية اليهودية»، ويهود إسبانية كانوا يتحدثون اللادينو، وهي رطانة إسبانية (وسيطة) دخلت عليها بضع كلمات من العبرية والتركية واليونانية أما يهود أوربة الشرقية، فكانوا يتحدثون اليديشية، وهي رطانة ألمانية تحولت في مرحلة لاحقة إلى ما يشبه لغة مستقلة للحديث والكتابة. وفي القرن السادس عشر،

يبدو أن معظم يهود العالم كانوا يتحدثون إما اليديشية (في أورية) أو اللادينو (في الدولة العثمانية). وكثيراً ما كان أعضاء الجماعات اليهودية يستخدمون الحروف العبرية في كتابة هذه الرطانات في المعاملات اليومية، مثل الفواتير التجارية أو غير ذلك من أمور الدنيا. ولم يكتب أعضاء الجماعات اليهودية بهذه الرطانات أدبا ذا بال، لا في الماضي ولا في العصر الحديث، وربما يمكن استثناء اليديشية من ذلك، فنظراً لأنها عمرت طويلاً (نسبياً) وأصبحت، مع القرن التاسع عشر، لغة مستقلة يتحدث بها معظم يهود العالم الغربي الذين كانوا مركزين في روسية وبولندة، فكتب بها أدب شعبي للنساء والعامة في بادئ الأمر، ثم كتبت بها أعمال أدبية بعضها يرقى إلى مستوى الأعمال الجادة. ولكن هذه المرحلة دامت فترة قصيرة للغاية بسبب اختفاء اليديشية.

وفي محاولة لتفسير وجود لغة أو رطانة أو لهجة خاصة بأعضاء الجماعات اليهودية، يمكن القول إنَّ كثيراً من الجماعات اليهودية شكلت جماعات وظيفية وسيطة تضطلع بدور التجارة والربا والأعمال الشبيهة الأخرى، ومثل هذه الجماعات كانت في العادة تربطها بالمجتمع علاقة موضوعية، الأمر الذي تطلب خلق مسافة بينها وبين المجتمع. واللغة الخاصة تزيد من غربة الجماعة الوظيفية وتزيد تجردها وتحتفظ لها بعزلتها وهو ما ييسر اضطلاعها بدورها الخاص في المجتمع، فجماعات الغجر تتحدث لغة خاصة بهم تماماً كما كان المماليك يتحدثون الشركسية.

أما بالنسبة إلى لغةِ التأليف الديني، فقد كتب العهد القديم بعبرية قديمة اختفت لغةً مستخدمةً بعد التهجير البابلي، ولذا نجد أن لغة التلمود هي الآرامية بالأساس. ومع هذا، ظلت العبرية لغة المؤلفات الدينية في معظم الأحيان وليس كلها، فوضع هليل وشماي مؤلفاتهما بالعبرية، في حين وضع المفكرون اليهود، في الإسكندرية في العصر الهيليني، مؤلفاتهم الدينية والدنيوية باليونانية. وكان موسى بن ميمون يكتب بالعربية، أما راشي فكان يكتب بالعبرية، وكتب معظم أدب القبالاه الصوفي بالآرامية. وظل هذا الوضع قائماً حتى القرن التاسع عشر، حين بدأ المفكرون اليهود يضعون مؤلفاتهم الدينية بلغة الوطن الأم وحسب. فكتب موسى مندلسون بالألمانية، وكذا مارتن بوبر وكل المفكرين اليهود الأصليين. ويكتب كثير من المفكرين اليهود الآن، مثل جيكوب نيوزنر في الولايات المتحدة، مؤلفاتهم الدينية

باللغة الإنجليزية. بل إن لغة الصلاة عند اليهود الإصلاحيين والمحافظين والتجديديين أصبحت الإنجليزية، ولا يستخدم العبرية غير الأرثوذكس.

وفيما يتعلق بالكتابات التي تقع خارج نطاق التفكير الديني من أدب وفلسفة وعلم، والتي قام بوضعها مؤلفون يهود، وهم قلة نادرة حتى القرن التاسع عشر، فقد كانت اللغة منذ البداية لغة الوطن الأم. ففيلون السكندري وضع مؤلفاته باليونانية، وموسى بن ميمون كان يستخدم العربية، وكذلك كان معظم الشعراء اليهود في الأندلس. أما في العصور الوسطى في الغرب، فلم يظهر مؤلفون يهود يعتد بهم حتى القرن السابع عشر حيث ظهر إسبينوزا، المنشق على اليهودية، الذي كتب مؤلفاته باللاتينية شأنه شأن كثير من الكتاب الغربيين في عصره.

وغني عن البيان أن المؤلفات غير الدينية للمؤلفين من أعضاء الجماعات اليهودية تكتب كلها في الوقت الحاضر بلغة الوطن الذي يعيشون في كنفه. فيعقوب صنوع (الكاتب المصري اليهودي) كتب بالعربية، وهايني وماركس بالألمانية، وبروست بالفرنسية، ودزرائيلي وسول بيلو بالإنجليزية، بل إن معظم كلاسيكيات الفكر الصهيوني كتبت بالألمانية أو الإنجليزية. وكان هرتزل لا يعرف العبرية ولا أبجديتها، لكنه حاول في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) أن يدخل البهجة على قلوب الحاخامات الأرثوذكس فنطق ببعض كلمات عبرية كتبت له بالأبجدية اللاتينية، وكتب فيما بعد (في مذكراته) ملاحظة يقول فيها: «إن محاولتي هذه سببت لي مشقة كبيرة تفوق كل متاعبي في الإعداد للمؤتمر». وكان هرتزل ونوردو وكثير من المفكرين الصهاينة الأوائل، لا يؤمنون بوجود ما يسمى «الثقافة اليهودية». وقد سخر هرتزل من هذا المفهوم بصوت عال حينما طرح لأول مرة في أحد المؤتمرات. ولم يكن هرتزل يتصور أن تكون العبرية هي لغة الوطن القومي الذي يقترحه، إذ كان يرى أن كل مستوطن يهودي سيتحدث بلغته. وقد نشبت في السنين الأولى من الاستيطان حرب سميت «معركة اللغة» بين دعاة استخدام الألمانية من أتباع الاستعمار الألماني ودعاة استخدام العبرية من يهود شرق أوربة التابعين للاستعمار الإنجليزي.

واللغة الأساسية ليهود العالم الآن هي الإنجليزية التي يتحدث بها يهود الولايات المتحدة وكندة وإنجلترة وأسترالية ونيوزيلندة وجنوب إفريقية، وهؤلاء

يشكلون الأغلبية العظمى من يهود العالم (وهذا يعود إلى ارتباط الجماعات اليهودية في العصر الحديث بالتشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي بشكل عام، والأنجلو ساكسوني على وجه الخصوص)، ثم تأتي العبرية (لغة يهود إسرائيل) في المرتبة التالية، أما اليديشية فقد اختفت تماماً تقريباً في الولايات المتحدة، وهي آخذة في الاختفاء في روسية. ولم يعد هناك أثر اللادينو.

ويقال إن تعدد لغات الجماعات اليهودية في شرق أوربة كان سبباً أساسياً في أزمة الهوية التي جابهوها، فقد كانت لغتهم المقدسة هي العبرية، ولغتهم القانونية هي الآرامية (لغة التلمود)، ولغة الحديث هي اليديشية، ولغة المثل الأعلى الاندماجي هي الألمانية أو البولندية أو الروسية وأحياناً الأوكرانية، ولغة المثل الأعلى الصهيوني هي العبرية (لغة حديث لا لغة عبادة). وكان يقابل هذه الانقسامات اللغوية انقسام طبقي واجتماعي. وساعدت كل هذه الانقسامات على تصعيد الأزمة.

ومع بدايات العصر الحديث وخروج اليهود من الجيتو، وبعد تحديثهم وزوال تميزهم الوظيفي، بدأت تختفي هذه الرطانات إذ طالبت الدولة القومية الحديثة أعضاء الأقليات بان يكون انتماؤهم القومي لأوطانهم كاملاً. وتعرضت اليديشية بالذات لهجوم شديد، خصوصا أن التجار اليهود كانوا يستخدمونها، وهو ما كان يسهل لهم غش الآخرين. وتظل الصورة اللغوية العامة بالنسبة إلى أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، وفيما يختص بالحديث ولغة المعاملات اليومية، هي أنهم يتحدثون من ناحية الأساس لغة الموطن الذي كانوا يعيشون في كنفه.

- **أزياء اليهود**

يستمد أعضاء الجماعات اليهودية خطابهم الحضاري وعاداتهم وتقاليدهم من المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها، وهذا يتضح في كثير من الظواهر مثل : الأزياء التي يرتدونها، والأطعمة التي يتناولونها، واللهجات التي يتحدثون بها. خذ، على سبيل المثال، الأزياء. ابتداء لا يمكن الحديث عن «أزياء يهودية»، دائماً يمكن الحديث عن الأزياء والملابس والثياب التي يرتديها أعضاء الجماعات اليهودية المتعددة والتي تختلف باختلاف المجتمعات التي يعيشون في كنفها، ومن ثم يكون اصطلاح «أزياء الجماعات اليهودية» أكثر دقة وأعلى قدرة على التفسير

والتصنيف، فالذي يحدد السمات الأساسية لهذه الأزياء المجتمعات التي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية في كنفها. ولا يمكن فهم تحولات وتطور أزياء أعضاء هذه الجماعات إلا في هذا الإطار، وهو أمر طبيعي تماما. فالأزياء، شأنها شأن اللغة، رموز اجتماعية لا يبتدعها المرء بل دائماً يتلقاها من المجتمع، وقد يحاول التغيير في بعض التفاصيل (وحينئذ قد يوصف بالأصالة أو بالشذوذ)، لكن الأزياء في نهاية الأمر لغة اجتماعية. وقد كان العبرانيون في مصر يرتدون (على ما يبدو) أزياء قدماء المصريين، كما ارتدوا أزياء البابليين ثم الفرس وهم في بابل وفارس، وأزياء اليونان والرومان إبان حكم الإمبراطوريات الهيلينية والرومانية. ولم يختلف زي اليهود المستعربة عن أزياء العرب. ولا نرى يهود الدولة العثمانية يرتدون إلّا الزي السائد في زمانهم ومكانهم. وحينما بدأ العثمانيون يرتدون الطربوش ارتدوه، وعندما تخلوا عنه واستعملوا الأزياء الغربية تحولوا بتحولهم. ويرتدي يهود الهند، من الذكور والإناث، الأزياء الهندية المعروفة، كما ارتدى يهود الصين أزياء أهل بلدهم.

ومع هذا، لابد من الإشارة إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية، شأنهم شأن الأقليات والجماعات الدينية والإثنية الأخرى قبل العصر الحديث، لهم بعض الثياب المميزة المرتبطة بشعائر دينهم وأعيادهم ومناسباتهم التي لا يشاركون فيها أعضاء الأغلبية. فعلى سبيل المثال، يرتدي أعضاء الجماعة اليهودية من المتدينين (أي الغالبية الساحقة من اليهود حتى أواخر القرن الثامن عشر، وأقلية صغيرة للغاية في العصر الحديث) شال الصلاة (طاليت) وهم في طريقهم إلى المعبد يوم السبت، ويرتدي بعضهم شال صلاة صغيراً تحت ملابسه طيلة الوقت، وإن كانت أغلبية يهود العالم هجرت هذه الممارسات الدينية، وحيث إن قوانين المجتمعات التقليدية كانت مبنية على الفصل الحاد بين الطبقات والجماعات، فإن الأزياء كانت تستخدم وسيلة لتدعيم هذا الفصل، فلا يرتدي الفرسان زي الفلاحين، ولا يرتدي هؤلاء زي التجار، وهكذا. ولأن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا يتركون عادة في مهنة واحدة مثل التجارة، فقد كانوا يرتدون زي أهل هذه المهنة حينما يتطلب الأمر اشتغالهم بها. كما أن انتماء الفرد في تلك المجتمعات إلى إحدى الأقليات، خصوصاً إذا كانت الأقلية من الجماعات الوظيفية الوسيطة، كانت ضحية مجموعة من المزايا والأعباء كما كان الحال في العصور الوسطى في

الغرب، إذ كان لابد من ارتداء شارة تميزه عن الآخرين. ومن هنا، وجدت شارة اليهود المميزة التي كانت تعد ميزة يحصلون عليها ويسعون من أجلها، فهي تكفل لهم الحماية وتضمن لهم الإعفاء من جمارك المرور على سبيل المثال. ولكن أحياناً كان يفرض على اليهود في العالم الغربي، وعلى غيرهم من أعضاء الأقليات، زي محدد لضمان الأمن الداخلي أو محاولة للحد من نشاطهم وتضييق الخناق عليهم، خصوصاً حينما يصبح المجتمع غير محتاجٍ إليهم. ولكنه، في جميع الحالات، لم يكن هناك زي واحد يفرض على اليهود في كل زمان ومكان، بل كانت هناك أزياء مختلفة ومتعددة باختلاف وتعدد الأماكن والمراحل التاريخية والظروف الاجتماعية والسياسية.

وإذا كنا قد شبهنا الأزياء باللغة، فإن بوسعنا الآن أن نشبه أزياء أعضاء الجماعات اليهودية باللهجات التي يتحدثون بها.

فلهجات أعضاء الجماعة اليهودية تنبثق من لغة ما؛ يتبنونها ثم يضيفون إليها بعض العبارات العبرية، ويستمرون في استخدامها حتى بعد أن تتطور اللغة الأصلية، كما حدث مع اليديشية التي هي ألمانية العصور الوسطى نقلها اليهود إلى بولندة واستمروا في استخدامها كما هي (مع أنها تطورت في وطنها الأصلي) وأضافوا إليها كلمات سلافية وعبرية..

وعلى سبيل المثال، فإن الزي الذي يسمى «الكسوة الكبرى»، وهو رداء العروس اليهودية في المغرب، يضم. عناصر من أزياء إسبانية كان أعضاء الجماعة اليهودية قد تبنوها قبل طردهم منها وأضافوا إليها عناصر من أزياء المغرب. وحدث تطور مماثل في أزياء يهود شرق أوربة، فهم يرتدون رداءً طويلاً مصنوعاً من الحرير ذا أكمام طويلة ومفتوحاً من الأمام حيث يثبت بحزام في الوسط ويسمى «كفتان» (من الكلمة العربية «قفطاناً»). وكان النبلاء البولنديون يرتدونه. ويبدو أن هؤلاء بدورهم كانوا قد نقلوه من الزى الرسمي لدى المغول في القبيلة الذهبية والتي كانت تمثل القوة العظمى في أوربة السلافية. وتطور الكفتان بعد ذلك وأصبح ما يسمى «كابوت». وقد تبنى يهود شرق أوربة، إلى جانب ذلك، بعض العناصر الأخرى من رداء النبلاء، البولنديين، حيث كان اليهود يشكلون جماعة وظيفية وسيطة تمثل مصالح هؤلاء النبلاء في أوكرانيا وغيرها من الأماكن. ومن أهم هذه

العناصر قبعة اليرمولك، وهو غطاء الرأس الصغير الذي أصبح السمة المميزة لأعضاء الجماعة اليهودية من المتدينين، بل ويرتديه غير المتدينين كذلك بحسبانه طقساً من طقوس حفاظهم على هويتهم. ومن الملامح المميزة أيضاً لرداء يهود شرق أوربة قبعة خارجية تسمى «الشترايميل». ومن الواضح أنها من أصول سلافية، فهي قبعة ثُبِّت في طرفها ذيول ثعالب، وكانت كثرة عدد الذيول من علامات الثروة. وقد ذهب آرثر كوستلر إلى أن هذه القبعة كان يرتديها يهود الخزر وأنهم نقلوها عن قبائل الكازاك.

أما النساء، فقد كن حتى منتصف القرن التاسع عشر يرتدين عمامة عالية بيضاء كانت نسخة طبق الأصل من «الجولوك» التي كانت تلبسها نساء الكازاك والتركمان. ومازالت الفتيات اليهوديات الأرثوذكسيات ملزمات، حتى اليوم، بأن يضعن عوضاً عن العمامة البيضاء العالية شعراً مستعاراً من شعورهن ذاتها، ثم ينزعنه عندما يتزوجن.

وقد احتفل يهود شرق أوربة بهذا الزي بتنويعاته المختلفة. وبقيت لهذا الزي المميز وظيفته في مجال عزل أعضاء الجماعة اليهودية الوظيفية الوسيطة عن محيطهم (إلى جانب الرموز والأشكال الأخرى مثل اللهجة المميزة والعقيدة المختلفة). ولكن، مع التحولات العميقة في وسط أوربة وشرقها، ورغبة الدولة القومية المركزية في إنهاء عزلة اليهود وغيرهم من الجماعات والأقليات، طلب إلى أعضاء الجماعة اليهودية التخلي عن هذا الزي وارتداء الأزياء الغربية، وصدرت قوانين تحرم ارتداء أزياء خاصة بالجماعات اليهودية. لكن أعضاء الجماعة اليهودية رفضوا هذا التغيير القسري في بادئ الأمر، قبل أن يندمجوا في نهاية المطاف. ولا يحافظ على زي يهود شرق أورب غير الجماعات الحسيدية، وهم قلة صغيرة.

ومنذ عام ١٨٨١ وحتى عام ١٩٣٥ اشتغل كثير من اليهود في تجارة الرقيق الأبيض المشينة، وكان القوادون يرتدون الكفتان حتى أصبح الكفتان والبغاء مرتبطين تمام الارتباط في الذهن الشعبي في الغرب.

وفي الوقت الحاضر، ترتدي الغالبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الأزياء السائدة في مجتمعاتهم ويتبعون آخر الموضات، إن سمح لهم دخلهم بذلك، وهم في هذا لا يختلفون عن معظم البشر في القرن العشرين.

أما في الدولة الصهيونية، فلم يلاحظ ظهور زي إسرائيلي أو يهودي خاص، وإن كان يلاحظ أنهم يرتدون الصندل (حتى أصبح إحدى العلامات المميزة لجيل الصابرا). ولكن ارتداء الصندل ليس تعبيراً عن هوية يهودية كامنة أو عن أي شيء من هذا القبيل، وإنما هو تعبير عن حرارة الجو في الشرق الأوسط، ومن ثم نجد أن الصندل منتشر في كل دول المنطقة! كما يلاحظ أن المضيفات في خطوط إلعال الإسرائيلية يرتدين زياً قريباً جداً من زي الفلاحات الفلسطينيات!

ولا يوجد زي خاص وموحد للحاخامات. فحاخامات يهود فرنسة يرتدون زي الوعاظ الهيجونوت، أما في إنجلترة فبعضهم يرتدي زي قساوسة الكنيسة الإنجليكانية، وفي الولايات المتحدة يرتدون الزي الغربي العادي، شأنهم في هذا شأن الوعاظ في كنائس البروتستانت، وفي الدولة العثمانية كان الحاخامات يرتدون زي الشيوخ أي جبة وقفطاناً وعنترية وعمامة.

- **المتحف اليهودي**

يفترض الصهاينة وجود فن يهودي وفلكلور يهودي وأسلوب حياة يهودي، ويفترضون كذلك أن هذا الفلكلور وأسلوب الحياة يعبران عن ذات قومية لها هوية ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان أو تتغير بالمعدل نفسه والطريقة نفسها بين أعضاء الجماعات اليهودية بمعزل عن المجتمعات التي يوجدون فيها، لأن كل هذه الظواهر إنما هي تعبير عن هوية يهودية مستقلة ثابتة، وشخصية يهودية لها سماتها المحددة وخصوصيتها الواضحة، فهي مفاهيم تفترض وجود وحدة قومية يهودية وتستند إليها. وفكرة القومية اليهودية فكرة لا نرفضها لأنها تتناقض مع مصالحنا، وإنما لأنها تتناقض مع واقع أعضاء الجماعات اليهودية ذاتها، وتختزله داخل رؤية واحدية، فهوياتهم لا تتحدد بالعودة إلى مطلقات يهودية ثابتة أو هوية يهودية مركزية واحدة، وإنما تتحدد من خلال الحضارات الكثيرة والمتنوعة التي يعيشون بين ظهرانيها. فيهود أثيوبية، اكتسبوا هويتهم من خلال التشكيل الحضاري الإفريقي، تماماً مثلما اكتسب يهود الولايات المتحدة من محيطهم الحضاري. وهذا التنوع هو ما ترفضه الرؤية الصهيونية.

ولتوضيح وجهة نظرنا، لنتخيل أحد العلماء يود أن يشيد متحفاً إثنوجرافياً يهودياً، فماذا سيواجه؟ سيجد أمامه مواد عديدة: أزياء وتماثيل وشمعدانات

مينوراه بعضها من بخارى وبعض آخر من اليمن، ومن الصين القديمة والحديثة، وروسية في القرن التاسع عشر، وبولندة في القرن السادس عشر، ومن مصر في العصر الهيليني والروماني، ثم في بداية الفتح الإسلامي، ثم بعد ذلك في عصورها المختلفة (الطولوني والفاطمي والأيوبي والمملوكي والعثماني)، ثم في العصر الحديث. كما سيجد أمامه مواد من عشرات البلاد والعصور الأخرى. فإن أصر على أن يهودية هذه الأشياء الإثنوجرافية هي العنصر الأساسي فيها، فلن يمكنه التعامل معها ولا تصنيفها ولذا سيجد نفسه مضطراً إلى تصنيفها على أساس عشرات المجتمعات التي تواجد داخلها اليهود، وكان لكل منها عاداتها وتقاليدها التي استوعبها اليهود بحيث أصبحوا جزءاً منها وأصبحت جزءاً منهم. ولنتخيل عالماً يحاول أن يؤسس متحفاً للفنون اليهودية، فإنه سيجد لوحات وتماثيل من عشرات الأزمنة والأمكنة لا تتبع نمطاً فنياً يهودياً، وإنما أنماطاً فنية مختلفة. ولا شك في أن الأعمال لها علاقة بأعضاء الجماعات اليهودية كأن يكون العمل الفني يتناول موضوعاً يهودياً أو صاغته يد فنان يهودي، ومع هذا لا يمكن فهم هذا العمل إلا بالعودة للحضارة التي أبدع فيها.

بل إن معمار المتحف نفسه سيكون مشكلة، إذ لا يوجد «معمار يهودي». ويتبدى هذا في معمار المعابد اليهودية التي تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة. ولذا، نجد أن متحفاً يهودياً في الولايات المتحدة يأخذ شكلاً حداثياً تفكيكياً وآخر يُشادُ على الطراز القوطي وثالثاً يأخذ شكلاً يقال له سفاردي وهو في واقع الأمر إسباني أو برتغالي. وفي إسرائيل شيد أحد المتاحف على هيئة قرية عربية على تل، وأخذ كل جناح «شكل منزل عربي»، وقد أورد مدير المتحف هذه العبارة في الكتيب الإرشادي الذي يوزع في المتحف فشطبتها الرقابة الإسرائيلية، وكتبت بدلاً من ذلك أن المتحف «شيد على طراز قرية من قرى البحر الأبيض المتوسط»، وذلك لاستبعاد كلمة «عربية». ولكن ما يهمنا في هذا السياق أنه لم يتحدث عن «قرية يهودية» أو «معمار يهودي».

ومن أهم «المتاحف اليهودية» المتحف اليهودي في نيويورك الموجود في الفيفث أفنيو Fifth Avenue (الطريق الخامس) والذي كان في أصله بيت فيلكس وفريداووربورج. ومن المفارقات أن المتحف مبني على الطراز القوطي، وهو

طراز معماري وفني انتشر في أوربة في الفترة من القرن الثاني عشر وحتى القرن الخامس عشر حين حل محل الفن الرومانسكي، ويتميز الفن القوطي بأنه انسيابي تصوفي روحاني. أما المعمار القوطي فكان يتميز بالأبراج المرتفعة والأسقف المرتفعة المعقودة (المقنطرة) وتوجد بين النوافذ الملونة المرتفعة ما يسمى بالإنجليزية «تريسري tracery» أي «الزخرفة التشجيرية»، وهي زخرفة قوامها خطوط مشجرة، خصوصاً في أعلى النافذة. كما يتسم «المعمار القوطي بالأكتاف الطائرة. وهو، على كل حال، طراز مسيحي مرتبط تماماً بالحضارة المسيحية ويعبر عن روحها. وحينما تقترب من المتحف لا تجد فيه أية سمة يهودية، فالزخارف كلها قوطية. وحتى بعد أن تدخله يظل الطراز القوطي محيطاً بك. ومعروضات هذا المتحف أعمال فنية مختلفة تتبع في أسلوبها وبنيتها ولغتها أسلوب وبنية ولغة الحضارات التي يعيش فيها أعضاء الجماعات اليهودية.

لكل ما تقدم، نجد أن مصطلح «المتحف اليهودي» لا يتسم بالدقة، ونجد أن مقدرته التفسيرية والتصنيفية منخفضة للغاية، بل وتكاد تكون منعدمة، فهو يختزل تنوع الجماعات اليهودية وعدم تجانسها في أنموذج واحدي وهمي، ولذا نقترح بدلاً من ذلك مصطلح «متاحف أعضاء الجماعات اليهودية».

• متاحف الإبادة في واشنطن

يجسد معمار المتحف رؤية وأنموذجاً معرفياً. والصهيونية لديها تصور محدد لظاهرة الإبادة النازية ليهود أوربة: وقد أسست عدة متاحف في الولايات المتحدة تجسد وجهة النظر الصهيونية أولها هو متحف إحياء ذكرى الإبادة النازية ليهود أوربة: اسمه الرسمي بالإنجليزية هو هولوكوست ميموريال ميوزيام Holocaust Memorial Museum، وقد افتتحه الرئيس كلنتون في الأسبوع الأخير من إبريل ١٩٩٣. وبُني المتحف في ميدان (أو أرض) المعارض الشهير في واشنطن (يشار إليه بالإنجليزية على أنه «ذي مول The Mall»). ويمكن رؤية تمثال واشنطن الشهير من البقعة التي أقيم فيها المتحف. وقد بلغت كلفته نحو ٩٠ مليون دولار، وصممه المهندس الأمريكي اليهودي جيمس فريد Freed الذي يبلغ من العمر ٥٦ عاماً والذي هرب مع أسرته من ألمانية عام ١٩٣٩. وينطلق المتحف من فكر فلسفي واضح يترجم نفسه إلى معمار، إذ يذهب فريد إلى أن ثمة شيئاً لا يمكن تصديقه،

شيئاً مستحيلاً في هذا المشروع، أي مشروع إنشاء المتحف، وهو بهذا يؤكد الرؤية الصهيونية للإبادة، إذ تم تحويلها من مجرد جريمة شنعاء ارتكبها أحد المجتمعات الغربية (ألمانية النازية)، ضد مجموعات بشرية مختلفة في أوربة من بينها اليهود، إلى شيء ميتافيزيقي لا يمكن فهمه، يقف خارج التاريخ والزمان وهو موجه ضد اليهود وحدهم. ولذا، قرر فريد أن يبني متحفا لا يتسم بالتناسق أو التحضر على حد قوله، ثم أضاف: «لا أعتقد أن هذا المبنى سيكون حسن السير والسلوك، فأنا لا أطيق التجميل، فهذا هو ما فعله النازيون في معسكرات الاعتقال، فالواجهات كانت على الطراز التيرولي Tyrolean وكانت النوافذ تزينها «أصص الورد». ولذا، لابد أن يبعث هذا المبنى الإحساس بالسر والخوف وعدم التصديق». والمشكلة التي واجهها المهندس المصمم فريد - على حد قول أحد النقاد - هي: هل يمكن أن يعبر المعمار المتحضر عن شيء غير متحضر؟

ولحل كل هذه المشاكل، قرر المهندس ألا يكون المتحف جميلاً أكثر من اللازم، وإلا تصور المشاهد أن الإبادة هي مجرد حدث كبير آخر في مسار التاريخ. ولو أخذ المتحف شكلاً عكسياً وتحاشى المصمم معمار الضخامة النيو كلاسيكي السائد في واشنطن وتبنى طرازاً صناعياً (حتى يوحي بجو آلية المصنع الذي كان سائداً في معسكرات الاعتقال) فإنها قد تؤدي إلى تتفيه الحدث. وإن تبنى المتحف أسلوباً حرفياً في تقديم الإبادة، فإنه قد يبعث الاشمئزاز في نفس الزوار فينصرفون عنه، ولذا، فإن هذا المبنى يجب ألا يكون جميلاً أكثر من اللازم، ولا قبيحاً أكثر من اللازم، وهو ما يعني أن أي مبني تقليدي لن يصلح له.

وكان من الممكن (هكذا كان يفكر المصمم على حد قول أحد النقاد) أن يكون المبنى محايداً تماماً، مجرد حائط يضم المعروضات قيمةً مطلقة لا يستطيع أي معماري مهما بلغ ذكاؤه أن يبرزها، فهي تقف بذاتها وكأنها السر الإلهي. ولكن هذا الحل يعني فشل المعمار الحديث في أن يواجه التحدي. وأخيراً كان من الممكن أن يتخلى المصمم تماماً عن الفكرة ويعلن أنها لا يمكن التعبير عنها. ولكن هذا الحل حل يتسم بالجبن، فهو يعني أن الفنان ليست له رسالة اجتماعية.

بقيت مشكلة أخيرة، وهي أن هذا المبني رغم تفرُّده لابد أن يكون جزءاً من مباني المتاحف في واشنطن. وقد تقدم المهندس المصمم برسومات المعرض للجنة

الفنون الجميلة التي تراقب المعمار في واشنطن، ولكنها رفضته؛ إذ وجدته يؤكد رسالته بشكل جازم أكثر من اللائق. بل إن بعض أعضاء اللجنة ألمحوا إلى أن مثل هذا المتحف لا ينتمي إلى عاصمة الولايات المتحدة لأن الإبادة النازية ليست جزءاً من تاريخ أمريكة، وذلك إلى جانب أنها تجربة مؤلمة. ولكن، تم التغلب على هذا الاعتراض الأخير بالإشارة إلى الحائط التجريدي الذي صممه مايا يانج لين لضحايا حرب فيتنام، فهو نصب تذكاري سيُذكِّر المشاهدين بلحظة تاريخية محزنة. وتمت في نهاية الأمر، الموافقة على تصميم المبنى بعد تعديله، وهو يمتد من شارع ١٤ إلى شارع ١٥ شرقي طريق الاستقلال ليكون بين مبنيين، أحدهما على الطراز الكلاسيكي والآخر على الطراز الفكتوري.

وهنا أثيرت قضية واجهة المعرض، ودار الحوار لا في إطار جمالي محض، وإنما في إطار معرفي عميق. فواجهة المعارض الموجودة في المول Mall تتبع في معظم الأحيان الطراز النيوكلاسيكي، وهو طراز يحاكي بشكل واع المعمار اليونانيّ الروماني الوثني، أي أنه يشكل عودة إلى الحضارة الوثنية التي سبقت عصور الظلام المسيحية، وهي حضارة سادت فيها قيم العقل والتوازن دون غيب أو أساطير، ولذا فإن المعمار يتسم بالبساطة والجلال. وقد كان مؤسسو الجمهورية الأمريكية مغرمين بهذا الطراز، ولذا نجد أن جيفرسون أسس منزله في مونتشيلو على الطراز نفسه، وكانت معظم مباني واشنطن حتى عهد قريب تتبع هذا النمط.

قرر المهندس فريد أن واجهة متحف الإبادة لا يمكن أن تعبر عن عصر التنوير والعقل (بالإنجليزية: إنلايتينمنت Enlightenment)، بل لابد أن تعبر عن الإظلام واللاعقل (بالإنجليزية : إنداركنمنت Endarkenment). ولذا، تقرر أن تكون واجهة المتحف ومدخله على الطراز التيرولي (مثل معسكرات الاعتقال والإبادة). وهو يتشابه تشابهاً لا يستهان به مع اتجاه الحداثة الفييناوي (نسبة إلى فيينة) الذي ظهر مع نهاية القرن، وذلك من حيث دقة القوس والتفاصيل الكلاسيكية البارزة. وتم تصميم هذا المدخل بناء على طلب لجنة الفنون الجميلة (ففي التصميم الأصلي كان هناك إفريز بارز يتصف بأنه مصطنع وينذر بالشؤم ويوحي بالخوف). ويؤدي المدخل إلى صالة الشهادة وهي مصنوعة من الطوب الخشن ولها سقف زجاجي مُعلق على عروق حديدية مكشوفة، تسمح بدخول الضوء (الأمر الطبيعي الوحيد

الذي لم ينجح النازيون في القضاء عليه). وهي بذلك تُذكِّر المشاهد بمعسكرات الاعتقال وأفران الغاز. ويخيم على هذا المعمار الصناعي فراغ معتم ثقيل يوحي بجو من القلق المتعمد، فخطوطه غير مستقيمة. ويوجد في المتحف سلم متسع عند قاعدته يضيق بالتدريج حتى يشعر الزوار بالزحام وكأنهم في أحد معسكرات الاعتقال. ويبدو السلم في نهايته منحرفاً داخل منظور زائف.

ويحاول المهندس أن يعبر عن إحساسه بعدم الراحة بطرق مختلفة. فعلى سبيل المثال، يوجد في الحائط الحجري في آخر هذه الصالة شقوق. وبوابات الأجنحة معدنية ثقيلة. وتوجد مكاتب موظفي المتحف داخل أربعة أبراج، لتذكّر الزائر بأبراج المراقبة في معسكر الإبادة، بل إن المصعد الذي يستخدم للوصول إلى هذه المكاتب يجعل الزائر يشعر بعدم الراحة، فهو ضيق والإضاءة بيضاء متوهجة وأبوابه مصنوعة من المعدن الرمادي، تُغلق وتُفتَح بصعوبة كأبواب أفران الغاز. وتضم صالات العرض صوراً وأعمالاً فنية عن الإبادة، وكل مقتنيات المتحف هي أشياء أصلية كانت تستخدم بالفعل في معسكرات السخرة والإبادة، وتوجد شاشات تليفزيون تعرض فيها أفلام تروي أحداث الهولوكوست وأخرى تروي تاريخ معاداة اليهود، ولهذا السبب وضعت الشاشات على ارتفاع متر ونصف حتى لا تسبب إزعاجاً للأطفال.

ويُعطى كل زائر بطاقة كومبيوتر عليها صورة أحد الضحايا، يمكنه أن يتابع قصته من خلال شاشات عرض موجودة في أماكن مختلفة ويسمع مشاهد العرض تسجيلات لأصوات الجنود الأمريكيين الذين حرروا معسكرات الاعتقال وهم يعبرون عن إحساسهم بالصدمة العميقة لما يشاهدونه. ويوجد في الدور الثالث شارع من الحجر وكوبري خشبي تؤدي بالزائر إلى جناح عن جيتو وارسو الذي شهد أعمال المقاومة اليهودية ضد النازيين.

ويقال إن المتحف لم ينس ضحايا الإبادة الآخرين مثل الغجر وغيرهم. ولم ينس كذلك بعض الأغيار الذين ساعدوا اليهود على الفرار من النازيين، ولذا يضم هذا المتحف قارباً من ذلك النوع الذي كان يستعمله الدنماركيون في إنقاذ اليهود.

وهناك خارج المتحف، صالة أخرى تسمى «صالة الذكرى» بنيت على شكل سداسي وارتفاعها ٧٥ قدماً، وسقفها على هيئة قبة. وكان ارتفاع الصالة في الأصل

٨٠ قدماً، كما أن المتحف كله كان من المفروض أن يكون بارزاً في ميدان المتاحف بنحو ٤٠ قدماً. ولكن اللجنة أصرت على أن يكون بمحاذاة المباني الأخرى، كما تم إنقاص حجم المتحف كله ١٠٪ (يبلغ حجم المتحف ٣٦ ألف قدم مربع، وتستغرق مشاهدته ثلاث ساعات)، ولكن هذا المبنى السداسي يظل بمفرده بارزاً في أرض المتحف، لا نوافذ له ولا زخارف على حوائطه سوى اقتباسات من العهد القديم تأخذ شكل نقوش بارزة. كما أن هناك على الحائط كوَّاتٍ تشبه المحراب الصغير يمكن أن توضع فيها مئات الشموع المشتعلة لإحياء ذكرى ضحايا الإبادة النازية. وتضاء هذه الصالة بالنور الطبيعي من ناحية السقف، حيث تكون الحوائط فارغة تماماً، وهيئة الصالة من الخارج لا تختلف عن داخلها، فهي عارية من الزخارف أيضاً إلا من بعض التفاصيل ذات الطابع الكلاسيكي الصارم. وتعطي الصالة الإحساس بأنها شيء ضخم ومجرد يقف في أرض المتاحف.

وتُذكِّر صالة الذكرى المرءَ بقدس الأقداس في هيكل سليمان وهيرود. بل ويمكن القول إنَّ المتحف جملةً يشبه هيكل سليمان. وإذا كان العبرانيون القدامى يعبدون في هيكل سليمان إلههم، فإنهم في متحف الإبادة النازية يعبدون أنفسهم (اليهود أو الشعب اليهودي الذي يتحول هو نفسه إلى الشيم هامفوراش، الاسم المقدس والأعظم الذي لا يستطيع أحد أن يتفوه به إلا كبير الكهنة في قدس الأقداس يوم الغفران) بحسبانِ تجربةَ الإبادة التي حدثت لليهود تجربة تتحدى قدرة الإنسان على الإفصاح عما في داخله.

وقد وُصف معمار المتحف بأنه تفكيكي ينتمي إلى عالم ما بعد الحداثة، ونحن نرى أن هذا وصف دقيق للأنموذج الكامن وراء هذا المتحف ولكل تفاصيله التي يتجلى من خلالها الأنموذج. ففكر ما بعد الحداثة (التفكيكي) يصدر عن الإيمان بأن العلاقة بين الدال والمدلول (الكلمة ومعناها أو الاسم والمسمى) علاقة عشوائية مترهلة، ولذا فاللغة ليست أداة جيدة لتوصيل المعنى أو التواصل بين الناس، وكأن الكلام حبر على ورق: حادثة إمبريقية مادية قد لا تحمل مدلولاً يتجاوز وجودها المادي، بل هو مثل سائل أسود تناثر بطريقة ما على صفحة بيضاء.

ويواكب هذا إدراك الإنسان الغربي أن كل أشكال اليقين داخل منظومته

الحضارية قد تهاوت بتهاوي المنظومات والمرجعيات المعرفية الأخلاقية والإنسانية، الإيمانية وغير الإيمانية، ولذا فالواقع الخارجي لا يمكن الوصول إليه ولا يمكن تصنيفه أو ترتيبه، فهو لا مركز له ولا يمكن الحكم عليه، ولا يمكن محاكمته. ولذا لا يبقى إلا الشيء في ذاته، فيصبح هو ذاته دالاً ومدلولاً وهو مرجعية ذاته. والإبادة هي حدث مرئي يستطيع الإنسان أن يجرِّبه، ولكنه لا يمكنه الإفصاح عنه، فالإبادة صورة تكاد تكون دالاً بلا مدلول أو مدلولا لا يمكن لأي دالذس أن يدل عليه. إن الإبادة هي الأبوريا :aporia الهوة التي تفغر فاها والتي لا قرار لها، الهوة التي تنفتح بعد تساقط كل المرجعيات فلا يرى الإنسان سوى العدم، أو الإبادة النازية لليهود، وكيف تم توصيل ذلك؟ عن طريق إعادة خلق جو المعسكرات ومن خلال وضع الأشياء التي استخدمت فيها أمام المتفرج حتى يجربها دون وساطة أو دوال، والأشياء هنا (مثل الإبادة) هي أيضاً دالٌ دون مدلول أو مدلول دون دالٌ، أو دالٌ هو ذاته مدلول، فالشيء هو الاسم والمسمى.

ورغم ذكر بعض الضحايا غير اليهود، إلا أن المتحف بطبيعة الحال يحاول أن يؤكد أن اليهود هم الضحية، وأن الأغيار تركوا اليهود لمصيرهم (ولعل ذكر الغجر وغيرهم من ضحايا النازي كان ذراً للرماد في العيون وتحسباً لما قد يثار من ضجة بسبب الرؤية الصهيونية التقليدية التي تجعل اليهود الضحية الوحيدة). ويُذكِّر المتحف الشعب الأمريكي بعدم اكتراثه بالإبادة النازية، وبأن الحكومة الأمريكية رفضت السماح للباخرة سانت لويس عام ١٩٣٩ بالرسو في الشواطئ الأمريكية رغم أنها كانت تحمل ١١٢٨ لاجئاً يهودياً فارين من هتلر، ورغم أنها وصلت حتى هافانة. إلا أنها أعيدت إلى ألمانية ليلاقي الفارون مصيرهم. ورفض الحلفاء أن يقوموا بغارات على معسكرات الاعتقال ورفضوا كذلك ضرب خطوط السكك الحديدية التي تؤدي إليها. ويشير المتحف كذلك إلى مؤتمر إيفيان الذي دعا إليه الرئيس روزفلت عام ١٩٣٨، ورفض فيه ممثلو بعض الدول الأوربية أن يسمحوا لليهود الهاربين من الرايخ الثالث بالهجرة إليها.

وإذا كان المتحف يجسد أطروحة فكرية أساسية في تجربة أعضاء الجماعات اليهودية (الإبادة بحسبانها دالاً متجاوزاً يعجز العقل عن الإحاطة به)، وبحسبانها تجربة فريدة في تاريخ الحضارة الغربية الحديثة، فإن من حقنا أن، نثير من جانبنا بعض الإشكاليات، وأن نبين مدى اختزالية الأنموذج الصهيوني الكامن وراء معمار

هذا المتحف، فالإبادة، ظاهرة تاريخية، يمكن تفسير كثير من جوانبها من خلال نماذج مركبة، ومن ثم يمكن فهمها واستيعابها:

١- الإبادة النازية ليست فعلاً فريداً في الحضارة الغربية الحديثة التي قامت بإبادة سكان الأمريكتين وملايين السود من إفريقية.

٢- رغم أن المتحف قد ذكر الضحايا غير اليهود، فإن التركيز ظل أساساً على اليهود. والسؤال الذي طرحه كثيرون هو سؤال ذو مغزى عميق: لماذا لم يقم متحف عن الإبادة الأمريكية للسكان الأصليين ولتاريخ أمريكة المظلم في استغلال العبيد السود إلى درجة تكاد تكون مترادفة مع الإبادة؟ ولماذا لم يذكر المتحف عشرات القساوسة الكاثوليك والرعاة البروتستانت الذين ضحوا بحياتهم من أجل اليهود.

٣- هناك كثير من الحقائق التي قام المتحف بإخفائها، فالمتحف لم يذكر شيئا عن تعاون كثير من قيادات الجماعات اليهودية (خصوصاً الصهاينة) مع النازيين، وتجاهل سؤالاً مهماً هو: هل كانت المقاومة اليهودية للإبادة النازية بالقوة المطلوبة؟ وهل كان بإمكان آلة الفتك الألمانية أن تستمر في الدوران لو رفض ملايين الضحايا أن يتعاونوا مع قاتليهم؟ بل ولنأخذ قضية مثل إنقاذ اليهود. فمن المعروف أن القيادات الصهيونية لم تكترث بذلك كثيراً، بل ومن المعروف أن القيادات الصهيونية كانت تعارض إنقاذ اليهود عن طريق فتح أبواب الهجرة أمامهم إلى بلاد أخرى غير فلسطين. وقد جلست مندوبة المستوطن الصهيوني في مؤتمر إيفيان، وكان اسمها جولدا مائير، دون أن تبدي أي اهتمام بعمليات الإنقاذ التي عقد المؤتمر من أجلها. وبعد الحرب، حينما سُئلت عن سبب عدم اكتراثها هذا، عللته بأنها لم تكن تعرف حجم الكارثة.

٤- احتج الألمان على الصورة المبتسرة التي قُدِّمت عن ألمانية. فتاريخ ألمانية يمتد عدة مئات من السنين قبل الإبادة، وما يزيد على أربعين سنة بعدها، فلماذا التركيز على هذه الحقبة دون غيرها؟. ولذا، اقترحت الحكومة الألمانية أن يُلحَق جناح عن ازدهار الديموقراطية الألمانية بعد الحرب. وغني عن القول إنَّ الطلب قد رفض.

• متحف الإبادة في لوس أنجلوس

يبدو أن بعض قطاعات الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة بدأت تدرك خطورة احتكار دور الضحية، ولذا نجد أن متحف الإبادة الذي شُيِّد في لوس أنجلوس (الذي افتتح في فبراير ١٩٧٩) يُدعَى «بيت شواه (أي بيت الإبادة) ومتحف التسامح». ولهذا الاسم المزدوج أعمق دلالة، فهو يضع الدائرة اليهودية داخل دوائر إنسانية تاريخية أخرى متشابهة.

تتسم واجهة المتحف بأنها حديثة محايدة، فهي مصنوعة من الجرانيت والزجاج، ويمكن القول بأن معمار المتحف جملةً يتسم بالحداثة (ولا يتحيز إلى ما بعد الحداثة). فهو بواجهته وأدواره الأربعة لا يختلف عن كثير من المباني المحيطة به. وينقسم المتحف إلى قسمين، قسم مخصص للتسامح، وهو يغطي تاريخ التعصب في الولايات المتحدة منذ إبادة السكان الأصليين (الهنود الحمر) حتى حادثة ضرب رودني كينج وتبرئة ضباط الشرطة الذين قاموا بضربه. وتتضح حداثة المتحف في استخدامه التكنولوجية المتقدمة بشكل مكثف. فحينما تدخل المبنى يقابلك إنسان مكون من ١٠ أجهزة فيديو، يخبرك أنك إنسان فوق المتوسط، لا تشعر بأي تعصب ضد الآخرين، ولكنه يستمر في الحديث ليبين بعض أشكال التعصب الكامنة في النفس البشرية. وحينما تتركه، ستجد أمامك بابين: واحد للمتعصبين وواحد لغير المتعصبين. وبطبيعة الحال، سيتجه الجميع وبشكل تلقائي للباب الثاني، ولكنهم سيكتشفون أنه مغلق (فهل هذا يعني أن كل البشر متعصبون؟). ثم يدلف المتفرجون إلى صالة يسمعون فيها همسات المتعصبين، ويشاهدون فيها أفلاماً عن إبادة الأرمن والكمبوديين وسكان أمريكة الأصليين في أمريكة اللاتينية.

أما القسم الثاني الخاص بالإبادة، فتوجد به صالة الشهادة التي يمكنك فيها أن تسمع التواريخ الشفهية التي يرويها الضحايا، وشهادات من لا يزال على قيد الحياة. وهناك إحياء لذكرى الأغيار الأتقياء «رايتيوس جنتايلز righteous gentiles» ممن ساعدوا أعضاء الجماعات اليهودية في محاولة الفرار من النازيين، كما توجد غرفة، يمكنك أن تجد فيها تقارير متجددة عن جرائم الكره والتعصب. وفي الوقت الحالي، على سبيل المثال، يمكن أن يتابع الزوار أولا بأول جرائم التطهير

العنصري في البوسنة. وكما هو الحال في متحف إحياء ذكرى الإبادة في واشنطن، فإن كل زائر في المتحف يُعطَى بطاقة تحمل صورة أحد الضحايا يمكنه أن يتابع قصة حياته من خلال شاشات العرض المختلفة في المتحف.

وتوجد في الولايات المتحدة بضعة مراكز تذكارية ومتاحف أخرى صغيرة مخصصة للإبادة النازية (مركز دالاس التذكاري لدراسات الإبادة - مركز الإبادة النازية التذكاري في ميشجان). ويبدو أن من المقرر إقامة متحف في نيويورك باسم «ذكرى الإبادة النازية - متحف التراث اليهودي».

ويذهب بعض المعلقين إلى أن هذه المتاحف لن تؤدي إلى إحياء ذكرى الإبادة، وإنما سيتم من خلالها أمركة الهولوكوست، وأن الإبادة النازية ليهود أوربة ستصبح مثل ميكي ماوس وكوكاكولا وماكدونالد وألعاب الأتاري الإلكترونية المسلية. وبعد عدة سنين ستصبح الإبادة ماركة تجارية مسجلة (De Shoah Business على حد قول المجلة الألمانية دير شبيجل) لا علاقة لها بأوشفيتس، وإنما بمتحف في لوس أنجلوس أو واشنطن.

ويعتقد كثيرون، بناء على المنطق والملاحظة المباشرة، أن إنشاء متاحف الإبادة في الولايات المتحدة هو مؤشر آخر على الهيمنة الصهيونية واليهودية. ولكن من المفارقات أننا لو تعمقنا بعض الشيء لاكتشفنا شيئاً مدهشاً ومغايراً تماماً لما نتصور، فمما لا شك فيه أن هذا المتحف تعبير عن قوة الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة. ولكن هل هذا يعني بالضرورة تعاظم قوة إسرائيل؟ إن الربط الذي يقوم به العقل العربي بين النفوذ اليهودي والنفوذ الإسرائيلي هي عمليه منطقية لا علاقة لها بالواقع المتعين. فقد اعترضت الصحف الإسرائيلية على إقامة هذا المتحف وبقوة. وفي إسرائيل يوجد ضريح ياد فاشيم (النصب والاسم) الذي أقيم لإحياء ذكرى ضحايا الإبادة. وقد أصبح هذا النصب المزار الأساسي الذي يتعين على كبار الزوار زيارته حينما يذهبون إلى إسرائيل. ويرى المستوطنون الصهاينة أن إسرائيل هي المركز القومي والحضاري والمعنوي ليهود العالم الذين يُشكِّلون بالنسبة إليها مجرد الهامش أو الأطراف، ومن ثم لابد أن يظل المزار الأساسي للشعب اليهودي في الوطن القومي. ولذا، فإن إقامة متحف لإحياء ذكرى الإبادة النازية على هذا المستوى في عاصمة الولايات المتحدة، وآخر في لوس أنجلوس،

يُشكل تحدياً لوجهة النظر الصهيونية، ويُشكِّل محاولة من جانب يهود الولايات المتحدة لخلق مسافة بينهم وبين المستوطن الصهيوني ليزيدوا قوة استقلالهم. ومن ثم، فإن متاحف الإبادة قد تكون تعبيراً عن مدى قوة الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة، ولكنها لا تشكل تعاظماً للنفوذ الصهيوني وإنما تحدياً له.

- **المتاحف في الدولة الصهيونية**

تضم إسرائيل متاحف كثيرة لأقصى حد، فهي تضم ١٥٠٠ متحف معظمها متاحف أثار. ولكن يوجد أيضاً متاحف للتاريخ والعلوم والتكنولوجية والتاريخ الطبيعي. لكن بعض هذه المتاحف لا يعدو أن يكون غرفة صغيرة في كيبوتس عثر فيه على بعض التماثيل أثناء زراعة الأرض. وقد كوَّن موشيه ديان مجموعة كبيرة من الآثار قام بسرقتها (وقد كان مشهوراً بذلك). وبعد موته، قامت أرملته ببيعها للدولة بثلاثة ملايين شيكل، وهو ما أثار حفيظة بعض الصحف التي وصفت هذا الفعل بأنه «موت ثان لديان»، إذ كان يتعين على أرملته أن تكفر عن سيئاته بإهداء مجموعة الآثار للدولة. وقبل تناول موضوعنا قد يكون من المفيد أن نحاول تفسير ظاهرة كثرة عدد المتاحف في إسرائيل أكثر من أي بلد بالنسبة إلى عدد السكان. ويمكن اختزال الظاهرة في عبارة أو إثنين، كأن نقول إن كثرة المتاحف في إسرائيل يعود إلى «ثراء الدولة الصهيونية» أو إلى «حب اليهود لتضخيم ذاتهم». ولكننا لو استخدمنا أنموذجاً تحليلياً مركباً لوجدنا أن كثرة المتاحف تعود إلى عدة عناصر من بينها أن التجمع الصهيوني تجمع فسيفسائي يضم جماعات بشرية غير متجانسة أتت كل واحدة منها تحمل حضارتها وتراثها (البولندي أو الروسي أو العربي أو الإثيوبي)، وقد عبر هذا عن نفسه في عديد من المتاحف الإثنوجرافية. كما أن كثيراً من هذه المتاحف يمولها أعضاء الجماعات اليهودية، إذ إنها حلقة وصل بينهم وبين المستوطن الصهيوني، وهي حلقة عاطفية ليس لها أي مضمون سياسي أو ديني، ولذا، فهي لا تسبب حرجاً ولا إحساساً بازدواج الولاء. كما أن تمويل المتحف عمل ثقافي إنساني عام تماماً مثل زراعة الشجرة، على عكس تمويل المستوطنات في الضفة الغربية، فهذا عمل سياسي مئة في المئة. ولذا، يحجم يهود العالم عن تمويل المستوطنات ولكنهم لا يجدون غضاضة في تمويل المتاحف. بل إن بعضاً ممن يدفعون التبرعات للمنظمة الصهيونية العالمية ينبهون على ضرورة عدم

استخدامها في أوجه سياسية، كما أن المنظمة ذاتها ترفض تمويل المستوطنات في الضفة والقطاع، على الأقل في سياستها العلنية.

والمفارقة أن زيادة عدد المتاحف بهذا الشكل الضخم أدى إلى الإسهام في أحد الجوانب السلبية في الاقتصاد الإسرائيلي، وهو تضخم قطاع الخدمات على حساب القطاع الإنتاجي، الأمر الذي يزيد الاقتصاد الإسرائيلي طفيلية وهامشية.

وتوجد في إسرائيل أنواع وأصناف من المتاحف. فهناك متاحف الفنون القديمة متاحف الفنون الحديثة، الإسرائيلية وغير الإسرائيلية، اليهودية وغير اليهودية، وهناك أيضاً متاحف العلوم التي توجد في أي مجتمع. كما توجد متاحف عن مدينة القدس في مراحل تطورها كافة، ومتحف عن مدينة تل أبيب، ويوجد متحف يسمى «هاآرتس» (متحف الأرض) يضم عرضاً للزجاج والسيراميك، وهو أيضاً متحف إثنوجرافي يهتم بتاريخ مدينة تل أبيب وتاريخ حروف الهجاء، وهناك قبة سماوية ملحقة به. وهذه المتاحف جميعاً تميزها الخصوصية الإسرائيلية التي تعبر عن استيطانية التجمع الصهيوني. وتظهر هذه الخصوصية، أول ما تظهر في وجود عدد من المتاحف تعبر عن تاريخ فلسطين الحقيقي (قبل وصول المستوطنين). فيوجد متحف روكفلر المتخصص في آثار فلسطين، ومتحف الفلكلور الفلسطيني، ومتاحف الفنون الإسلامية والمسيحية. كما أن الطبيعة العسكرية لنشأة التجمع الصهيوني تظهر في هذا العدد الهائل من المتاحف، التي تغطي الجوانب العسكرية الاستيطانية. فهناك متحف للهاجاناه، وآخر للكيبوتسات، وثالث عن الجماعات السرية (العسكرية) الصهيونية قبل ١٩٤٨. وهناك متحف المستوطنات الأولى، ومتحف تاريخ الاستيطان، ومتحف الفصائل اليهودية في الحرب العالمية الأولى، كما أن هناك متاحف لهرتزل وجابوتنسكي ووايزمان. وقد تم تأسيس متحف للقوات الجوية.

من أهم المتاحف في إسرائيل، متحف ياد فاشيم الذي تحول إلى ما يشبه المزار المقدَّس ليهود العالم. وعبارة «ياد فاشيم» هي عبارة عبرية معناها «النصب والاسم» «إني أعطيهم في بيتي وفي أسواري نصباً واسماً، أفضل من البنين والبنات. أعطيهم اسماً أبدياً لا ينقطع» [أشعيا ٥٦/٥]. ويقع مركب مباني هذا المتحف على حافة جبل تطل على قرية عين كريم. ويضم ياد فاشيم صالة الذكريات

وأرشيف الإبادة الذي يضم حوالي ٥٠ مليون وثيقة. كما يضم المتحف ما يسمى «شارع الأتقياء بين الأغيار» الذي غُرست فيه ٥٠٠ شجرة تكريماً لأشخاص غير يهود ضحوا بأنفسهم أو عرَّضوا أنفسهم للخطر لحماية اليهود. أما صالة الأسماء، فتضم ما يسمى «صفحات الشهادة» التي تضم حوالي ثلاثة ملايين اسم من أسماء أعضاء الجماعات اليهودية التي قضى عليها النازيون.

أما المناطق المكشوفة، فتضم تماثيل ونصباً عن الإبادة. وعلى سبيل المثال، يوجد نصب يسمى «أوشفيتس» للمثّالة إلسا بولاك، وهو عمود يوحي بأنه مدخنة أفران الغاز كُتبت عليه أرقام ضحايا أوشفيتس (الضحايا اليهود فقط بطبيعة الحال). أما تمثال «عمود البطولة» للفنان الإسرائيلي بوكي شفارتز، فيحتفي بما يسمى «المقاومة اليهودية». ومن أشهر التماثيل، تمثال نادور جيلد المسمى «نصب ضحايا معسكرات الإبادة» وهو أجسام بشرية نحيفة، تشبه أسلاك المعسكرات الشائكة، ترفع يدها وعيونها نحو السماء. ويوجد ميدان صغير على هيئة شمعدان المينوراه في نهايته تمثال برتي فينك «نصب الجنود ومحاربي الجيتو والمقاومين» والذي يرمز إلى ستة مليون يهودي أبيدوا، وتأخذ المينوراه شكل نجمة داود. وهناك سيف صلب ضخم مغمد في النجمة.

ويلي ذلك ما يسمي «وادي الجماعات التي دُمِّرت» نقشت فيه أسماء خمسة آلاف جماعة يهودية في ٢٢ بلداً على بناية صخرية منحوتة في الجبل. وحوائط صالة الذكرى بنيت من كتل ضخمة من البازلت المصقول وعلى أرضها الرمادية الفسيفسائية كتبت أسماء أهم ٢٢ معسكراً للإبادة.

وهناك ما يسمي «النور الأزلي»، كما هو الحال في المعبد اليهودي، تحت قنطرة أو عقد يحوي رماد الضحايا الذي جمع من المعسكرات. ويدخل ضوء النهار بين الحائط والسقف.

ومن المتاحف الأخرى متحف الدياسبورا (بيت هاتسوفوت)، تذهب العقيدة الصهيونية إلى أن ثمة هوية قومية يهودية واحدة عالمية تضم كلا من يهود العالم ويهود إسرائيل (فلسطين). ولذا، لابد من إقامة متحف يجسد هذه الفكرة. ومن ثم قرر المؤتمر اليهودي العالمي عام ١٩٥٩ إنشاء متحف عن يهود العالم يقام في إسرائيل، بحسبانها مركز يهود العالم، وذلك للتعبير عن فكرة الهوية العالمية هذه.

وهنا تبدت المشكلة في أقصى درجات حدتها، إذ اكتشفوا أن الأعمال الفنية الرفيعة التي يقال إنها يهودية موزعة على متاحف العالم. ولذا، قرروا أن يكون متحفاً لا يضم أعمالاً فنية تقليدية، وإنما معروضاته مصنعة وتعتمد على التكنولوجية المتقدمة، أي أنه سيكون متحفاً يتكون من تماثيل توضيحية وشرائح ملونة وبانورامات ومستنسخات، وهو حل ولا شك ذكي. وقد قُسِّم المتحف حسب الموضوع: الأسرة - الجماعة - العقيدة - الثقافة... وهكذا، لأنه لو قسم حسب المناطق الجغرافية أو المراحل التاريخية لاختفت الهوية اليهودية الافتراضية. ولذا، فإن تقسيمها حسب الموضوع ينزع أعضاء الجماعات من سياقهم حتى يصبحوا يهوداً وحسب وبشكل عام: أعضاء في أسر يهودية أو جماعات يهودية يؤمنون بعقيدة يهودية واحدة ويعيشون من خلال ثقافة يهودية واحدة.

ورغم ذكاء الفكرة والمحاولة فقد باءت - في تصورنا - بالفشل، إذ إن عدم التجانس أطل برأسه. ويضم كتاب **قصة الدياسبورا** صوراً لمعظم معروضات المتحف مع التعليقات. وحينما يدخل الزائر المعرض، فإنه يجد عرضاً يسمى «وجوه من خلال الفن»، وهو صور وجوه يهودية من حضارات مختلفة، كل واحد منهم تعبير عن نمط عِرْقي مختلف عن الآخر (هذا على الرغم من استبعاد اليهود الصينيين والإثيوبيين والهنود)، فصورة الحاخام من أمستردام بعيونه الخضراء تبين مدى اختلافه عن صورة السيدة المغربية اليهودية.

ويظهر عدم التجانس في الجزء الخاص بصور المعابد اليهودية. فمعبد التنيوشول في براغ، أقدم معبد يهودي في أوربة، هو مثل طيب للمعمار القوطي في القرن الثالث عشر والرابع عشر (والفن القوطي فن مسيحي حتى النخاع)، ثم يليه معبد مدينة كايفنج الصينية الذي لا يختلف عن المعابد الكونفوشيوسية، وبجوارهما معبد ديورا إيوربوس الهيليني، ومعبد فاس الإسلامي الطراز، ومعبد كوشين الهندي المبني على الطراز الهندي، وهكذا. وعلى أية حال، ورغم التصنيف حسب الموضوع، وهو تصنيف بنيوي يلغي الزمان ويبعد المكان، فإن المكان والزمان يؤكدان نفسيهما.

والكتاب الذي نشرت فيه صور المعرض يسمى -كما أسلفنا - **قصة الدياسبورا**، والدياسبورا تفترض أن ثمة قسراً وإرغاماً، ولكن مما له دلالة أن

الاسم الرسمي للمتحف هو «بيت هاتسوفوت»، وكلمة «تسوفوت» كلمة عبرية تعني «الهجرة الإرادية والطواعية» أي «الدياسبورا الاختيارية»، بمعنى أن هؤلاء المشتتين لا ينوون العودة لأرض الميعاد، وأن حالة انتشارهم حالة نهائية، إذ اختاروها بمحض إرادتهم، وكل هذا يضمر رفضاً للرؤية التي ترى أن الدياسبورا حالة قسرية ومؤقتة، وأن اليهودي إن ترك وشأنه فإنه لابد أن يعود إلى وطنه القومي. والاختلاف هنا يبين مدى عمق الصراع بين يهود العالم والصهيونية. فالصهيونية ترى أن حياتهم خارج فلسطين ليست ذات قيمة وأنها مؤقتة، بينما هم يصرون على أن لحياتهم قيمة كبرى وأنها تستحق الحفاظ عليها، وقد تكون إسرائيل مركز حياتهم، الحقيقي أو المزعوم، لكن المركز لا يلغي الأطراف. وعلى هذا، فهي دياسبورا مؤقتة من وجهة نظر الصهاينة، وهي تسوفوت دائم من وجهة نظر يهود العالم.

- **متحف إسرائيل القومي**

من أهم المتاحف على الإطلاق متحف إسرائيل القومي، وهو موجود في القدس، ويضم مجموعة من الأعمال الفنية وغير الفنية، العالمية وتلك التي صنفت بتقديرها يهودية. وهذا المتحف ظاهرة إسرائيلية حقة، فالمبنى تكلف حوالي ٠٠٠و٧٣٠و٥ دولار وصممه مهندسون إسرائيليون مولودون في أوربة. وقامت الولايات المتحدة بدفع أول نصف مليون دولار أنفقت في تأسيسه، كما قام يهود الولايات المتحدة بدفع مبالغ طائلة مساهمة فيه، وقامت الحكومة الإسرائيلية بتدبُّرِ أمر الأرض (التي سُلبت بطبيعة الحال من الفلسطينيين). ومن ثم، فهو في تركيبه يُشبه تركيب المستوطن الصهيوني. ويتكون المتحف من أربعة أقسام:

١- متحف بزاليل القومي للفنون. ويضم أعمالاً فنية بعضها عالمي وبعضها صنف يهودياً.

٢- متحف صموئيل برونفمان الإنجيلي والأثري. ويضم آثار فلسطين عبر العصور.

٣- حديقة بيلي روز للفنون التي صممها الفنان الياباني إيسامو نوجوشي. وتضم بعض أعمال النحت من القرنين التاسع عشر والعشرين.

٤- مقام (أو مزار) الكتاب، صممه الفنانان فريدريك كسلر وأرمان بارتوسي، وتحفظ فيه مخطوطات البحر الميت. ومن الواضح أن هذا المتحف يجابه مشكلة هوية حقيقية، فالمتحف الأول يضم أعمالا فنية ليست بالضرورة يهودية، كما أن تلك الأعمال التي صنفت يهودية هي أعمال صاغها فنانون يهود واتبعوا فيها تقاليد فنية من مختلف الحضارات. وإن كان هناك جزء يخص الفن الإسرائيلي، فإنه لابد أن يكون فناً إسرائيلياً وليس فناً يهودياً عاماً. أما المتحف الثاني، الذي يضم آثار فلسطين عبر العصور، فإنه سيتعامل مع تاريخ غير يهودي، فالوجود اليهودي في فلسطين لا يتجاوز بضع مئات من السنين بينما يمتد تاريخ فلسطين آلاف السنين. فقبل وصول العبرانيين كان الكنعانيون، كما أن الفلستيين وصلوا مع العبرانيين، وقبل القرن الأول الميلادي كانت العناصر غير اليهودية في فلسطين تتزايد، وكان اليهود يهاجرون منها إلى كثير من مدن البحر الأبيض المتوسط. وازداد انتشار اليهود بعد تحطيم تيتوس للهيكل، وبعد دخول فلسطين في التشكيل الحضاري البيزنطي ثم الإسلامي بدءاً من عهد عمر بن الخطاب وحتى العهد العثماني. فأي عرض لتاريخ فلسطين سيؤكد هوية فلسطين التاريخية المركبة، وإذا كان لنا أن نؤكد مرحلة تاريخية على حساب أخرى، فأعتقد أن المرحلة الإسلامية هي أهمها على الإطلاق وليست المرحلة العبرانية. فالإسلام لا يزال هو الماضي الحي، أي الماضي المستمر في الحاضر، ومعظم سكان فلسطين من المسلمين، والمعجم الحضاري السائد هو المعجم الإسلامي. ولكننا لسنا في مجال الاختيار أو الدفاع عن القضية العربية، وإنما نود فقط أن نبين أحد جوانب الورطة التي يمكن أن تجابه من يحاول تشييد متحف يهودي.

أما حديقة النحت، فإنها تثير قضية دينية، لأن اليهودية حرَّمت التماثيل. كما أن مشكلة الأسلوب الفني لابد أن تثار هنا وبحدة، إذ لا يوجد بالتأكيد نحت يهودي. ولعل الجناح اليهودي حقاً هو «مزار الكتاب» الذي يضم مخطوطات البحر الميت وخطابات بركوخبا، ومع هذا، يمكن أن تثار هنا قضيتان:

١- مخطوطات البحر الميت كتبت في مرحلة لم يكن الفكر الديني اليهودي قد اكتمل فيها بعد. ولذا، فإن هناك أفكاراً عديدة رفضتها اليهودية الحاخامية فيما بعد. بل ويقال إنَّ فرق الزهاد (الأسينيين)، الذين كتبوا مخطوطات البحر الميت، هم الذين انضموا لصفوف المسيحيين. وهناك نظرية تذهب إلى أن المسيح نفسه كان عضواً في إحدى هذه الفرق.

٢ - أما بركوخبا، فهو الذي قاد ثورة عبرانية (يهودية) ضد الرومان فشلت وأدت في نهاية الأمر إلى تدمير البقية الباقية من الوجود اليهودي في فلسطين. كما أن الحاخامات عارضوا ثورة بركوخبا. وهناك الآن اتجاه في إسرائيل لإعادة تفسير ثورة بركوخبا بأنها كانت ثورة هوجاء تدل على الصلف وعلى عدم فهم الملابسات الدولية. ويذهب يهوشوفاط ماركابي إلى أن الإسرائيليين مصابون بمرض يُسميه هو «أعراض بركوخبا»، أي تبنِّي مواقف تودي بصاحبها إلى التهلكة.

الفصل العاشر

الإدراك الصهيوني للواقع

• الخريطة الإدراكية

يسود في الخطاب التحليلي العربي تصورٌ مفاده أن ما يصرح به رجال السياسة والحكم هو تعبير عن موقفهم وخططهم ومشروعاتهم. فالعقل، حسب هذا التصور، هو مرآة تعكس الواقع بشكل بسيط مباشر، وكأن اللسان ينقل ما يعكسه العقل بنفس البساطة والمباشرة. ومثل هذا التصور يتجاهل ما أسميه «الخريطة الإدراكية». فما هي الخريطة الإدراكية؟

على عكس ما يتصور البعض فإن الإنسان لا يدرك واقعه بشكل حسي مادي مباشر إلا في حالات نادرة تتسم بالبساطة، كأن تلسع يدَه سيجارة أو يدخل في عينيه جسم صلب. فالإنسان ليس مجموعة من الخلايا والأعصاب والرغبات والدوافع المادية (الاقتصادية أو الجسمانية) وسلوكه ليس مجرد أفعال وردود أفعال مشروطة، تتحكم فيها قوانين الميكانيكة أو البيولوجية. وعقل الإنسان ليس مجرد مخ مادي: صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات المادية، وإنما هو عقل، له مقدرة توليدية، كما أنه مستقر كثير من الخبرات والمنظومات الأخلاقية والرمزية، ومستودع كثير من الذكريات والصور المخزنة في الوعي واللاوعي.

لكل هذا فإن الإنسان لا يسلك كرد فعل للواقع المادي بشكل مباشر (مثير مادي تعقبه مباشرة استجابة) وإنما يسلك كرد فعل للواقع كما يدركه هو بكل تركيبيته، ومن خلال ما يسقطه على الواقع من أفراح وأتراح، وأشواق ومعان، أو

رموز وذكريات، وأطماع وأحقاد، ونوايا خيّرة وشريرة، ومن خلال مجموعة من المنظومات الأخلاقية والرمزية والأيديولوجية.

ويسبب تركيبية الإنسان هذه، ونظراً لأنه لا يستجيب للواقع المادي مباشرة وإنما يستجيب له من خلال إدراكه له، فلا يمكن لأي دارس أن يحيط بأبعاد أية ظاهرة إنسانية (سياسية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية) إلا بالغوص في أكثر مستويات التحليل عمقاً، أي المقولات والصور الإدراكية التي يدرك من خلالها نفسه وواقعه ومن حوله من بشر ومجتمعات وأشياء. وهذه المقولات والصور تشكل خريطة يحملها الإنسان في عقله ويتصور أن عناصرها وعلاقات هذه العناصر بعضها ببعض تشكل عناصر الواقع وعناصره، وهذه هي الخريطة الإدراكية، التي تحدد ما يمكن أن يراه الإنسان في هذا الواقع الخام، فهي تستبعد وتهمش بعض التفاصيل فلا يراها، وتؤكد بعضاً آخر فيراها مهمة ومركزية.

ومن الأمثلة الطريفة على الخريطة الإدراكية ما يُروى عن ماري أنطوانيت (ملكة فرنسة قبل الثورة التي كانت تعيش عيشة مترفة منعزلة تماماً عن العالم الخارجي). فقد قيل إن بعض الحراس وجدوا فلاحاً مغشياً عليه من فرط الجوع، فأتوا به إليها، فأشفقت عليه وقالت له: «يا سيدي، يجب ألا تتبع هذا الرجيم القاسي». وفي رواية أخرى أنهم أخبروها أن الفلاح لم يجد خبزاً يأكله مدة أسبوع، فقالت مستنكرةً: «لماذا لم تأكل جاتوه؟». وليس ثمة غرابة في موقفها هذا، فظاهرة الفقر والجوع ليست جزءاً من مخزونها الإدراكي، ولهذا لم تستطع إدراكها، ومن ثم نزعت ظاهرة الجوع من سياقها الحقيقي (الفقر) وربطتها بالأسباب التي تعرفها (الرجيم - الجاتوه بدلاً من الخبز)، أي أنها فرضت مخزونها الإدراكي على ما رأته بعيونها (الموضوعية المادية)، وحددت خريطتها الإدراكية مجال الرؤية.

ولا يعني هذا أن الواقع المادي الخام غير موجود بدون الإدراك الإنساني له، فهو ولا شك موجودٌ في ماديته وطبيعيته، وموضوعيته ولا شخصيته وعموميته (خلقه الله خارج وعينا وإدراكنا وإرادتنا)، وهو يؤثر بلا شك في تحديد بعض جوانب فكر البشر وسلوكهم بدرجة تتفاوت في مقدار عمقها من إنسان إلى آخر ومن لحظة زمنية إلى أخرى. ولهذا لا يمكن أن ندرس ظاهرة الإنسان والظواهر

الإنسانية مثلما نرصد الأشياء أو الظواهر الطبيعية المادية، ولا يمكن أن نسجل سلوك الإنسان فرد أو جماعة كما نسجل سلوك النملة وجماعات النمل. فمثل هذه الرؤية (بغض النظر عن لا إنسانيتها المقيتة) رؤية غير دقيقة، لأن الدوافع (خيرة كانت أم شريرة)، وأشكال الوعي (مهما كان زيفها وانفصالها عن الواقع المادي)، والمعنى، أي الدلالة الداخلية التي يراها الإنسان فيما يقع له من أحداث وفيما يحيط به من ظواهر (مهما كانت سطحيته أو عمقه) تشكل جزءاً أساسياً من الواقع الإنساني. ولا يمكن لأي إنسان تجاوز هذه القاعدة.

وتتسم الخريطة الإدراكية بأنها غير واعية في معظم الأحيان، يحملها الإنسان في عقله وهو يرى أنها أكثر منطقية وطبيعية. فالإنسان العنصري لا يرى إلا مساوئ الآخر وفضائل قومه، ويصدق هذا أيضاً على الجندي الأوربي الذي كان يُرسل إلى أحراش إفريقية بعد أن يخبره قادته أنه يحمل عبء الرجل الأبيض، وأنه لم يذهب إلى هناك للسلب والنهب والاستيلاء على الأراضي وطرد سكانها واستغلالهم وإنما لنشر الحضارة في ربوع القارة السوداء وتهذيب سكانها البرابرة الهمجيين الذين لا يستحقون الحياة، فقد كان يستبطن الخريطة الإدراكية دون أن يدري ولا يتورع عن ذبح السكان الأصليين لأنه يحمل لواء الحضارة المتفوقة. ولا يشكل الصهاينة أي استثناء. ولهذا، ينبغي عند دراسة سلوكهم أن نذكر أنفسنا أن ما يحدد سلوكهم ليس استجابتهم المباشرة للعناصر والملابسات المادية المختلفة المحيطة بهم، وإنما رؤيتهم وإدراكهم لها.

وقد أدرك الصهاينة أهمية الخريطة الإدراكية في تشكيل الرأي العام، وفي تحريك الجماهير. فقد قامت الدولة الصهيونية بوصفها دولةً استعمارية استيطانية إحلالية تؤدي وظيفتين وهما: تخليص أوربة من اليهود، ونقلهم إلى فلسطين ليشكلوا قاعدة للاستعمار الغربي، أي إنَّ المشروع الصهيوني حوَّل يهود أوربة إلى مجرد أداة لتحقيق هدف استراتيجي لا أكثر. ولكن من الصعب إقناع أي إنسان بأن يتحول إلى مجرد أداة، ولهذا يتعين تغيير خريطته الإدراكية حتى يمكنه أن يتحرك بحماس ويحمل السلاح دفاعاً عما يتصوره وعما استبطنه. ولتحقيق ذلك، تحركت القيادة الصهيونية على مستويين: فقد أكدت، من ناحية، أن اليهود كتلة بشرية قومية متماسكة لها تاريخها الخاص وخصائصها الفريدة، ولها حق مطلق في فلسطين

بوصفها الوطن القومي، ومن ثم يُصور توجههم لغزو فلسطين «عودةً» إلى أرض الأجداد (وليس احتلالاً أو استعماراً)، وهذه «العودة» تتم بناء على الوعد الإلهي، وليس بناء على وعد بلفور، بل إن فلسطين طبقاً لهذا التصور هي «إرتس يسرائيل». ومن ناحية أخرى، أخذ المتحدثون الصهاينة (ومعظمهم ملاحدة) يتحدثون عن التوراة والتلمود، واتخذت الدولة الصهيونية بعض الرموز الدينية، حتى تصور كثيرون أنها بالفعل دولة يهودية، وراحوا يدركونها على هذا النحو، وينظرون إلى ما ترتكبه من بطش ومذابح على أساس هذا الإدراك. وفي هذا الإطار تصبح المقاومة الفلسطينية مسألة غير مشروعة وغير مفهومة، بل تصبح إرهاباً، ويصبح البطش الصهيوني دفاعاً مشروعاً عن النفس أو عن أرض الأجداد أو عن الهوية اليهودية للدولة.

إلا أنَّ الخريطة الإدراكية قد تتغير عندما يتحدى الواقع هذه الخريطة ويبين قصورها، إذ يهتز أساس الرؤية وأسلوب الإدراك ذاته فتميد الأرض من تحت قدمي صاحبها. وهذا ما حدث للمستوطنين الصهاينة، فقد كان محور خريطتهم الإدراكية أن فلسطين أرض بلا شعب، أو أنَّ شعبها على الأقل شعب يشبه الهنود الحمر يمكن القضاء عليه عن طريق الإبادة أو النقل أو الحصار أو التجاهل. وقبل اندلاع الانتفاضة الأخيرة أصدر المجلس الإقليمي لمستوطنات غور الأردن الاستعمارية خريطة سياحية لا تظهر عليها أية قرى أو مدن عربية، كأنها قد أزيلت، أو كأنها لم توجد أصلاً أي أنها أرض بلا شعب! ولكن ما حدث هو العكس، إذ ظهر أن فلسطين أرض عليها شعب، وهو شعب عريق ينتمي إلى تشكيل حضاري قديم ومركب، وهو يتزايد كماً وكيفاً بطريقة مزعجة. فاهتزت الخريطة الإدراكية وبدأت العصبية تظهر فيما أسميه «المرحلة الشارونية»، وهو تصور المستوطنين أنه يمكن تغيير الواقع بالقوة حتى يتسق مع خريطتهم الإدراكية، ولكن الواقع يتحدى بشكل مستمر الخريطة الإدراكية الأسطورية الصهيونية، فالانتفاضة مستمرة ومقاومة أصحاب الأرض تتصاعد رغم البطش الصهيوني.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الخريطة الإدراكية ليست أمراً حتمياً إذ يمكن تغييرها. وقد بدأت قطاعات لا بأس بها من الجماهير الإسرائيلية تدرك عبث محاولة فرض الأسطورة الصهيونية على الواقع الفلسطيني. ومن أهم الأمثلة على

إمكانية تحرر الإنسان من خريطته الإدراكية القاصرة ما حدث للمفكر الصهيوني نيثان بيرنباوم الذي شارك في تأسيس الحركة الصهيونية، بل ونحت كلمة «صهيونية» ذاتها واشترك في المؤتمر الصهيوني الأول، ولكنه بدأ يكتشف تدريجياً حقيقة الصهيونية بوصفها حركة تقوض الانتماءات الحقيقية ليهود العالم، فترك الحركة الصهيونية وانضم لدعاة اليديشية، لغة يهود شرق أوربة، والذين كانوا يطالبون بالحفاظ على الهوية اليهودية الشرق أوروبية والتي يمكن أن تتحقق في وطنها روسية وبولندة (وهذا يختلف عن نقطة الانطلاق الصهيونية، التي ترى أن ثمة هوية يهودية عالمية، لابد وأن تتحقق في أرض الميعاد). وقد عاش بيرنباوم إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، ورأى الكارثة وهي تقترب وأدرك أن الحضارة الغربية الحديثة مدمرة، فاقترح أن يوطن أعضاء الجماعات اليهودية في أوربة في أماكن زراعية بين البلدان المختلفة، أي أنه أعطى ظهره للتاريخ لإحساسه باقتراب الكارثة.

وأعتقد أن حكم محكمة العدل الدولية الذي صدر مؤخراً بخصوص عدم شرعية جدار الفصل العنصري الذي تشيده الدولة الصهيونية يمكن أن يشكل بداية لتغيير الخريطة الإدراكية في العالم الغربي، فهو يعيد الأمور إلى نصابها، ويبين هوية الدولة الصهيونية بوصفها دولة محتلة (وليس بوصفها دولة يهودية)، ومن ثم تتساقط الادعاءات. وهذا ما أدركه كثير من المعلقين الإسرائيليين أنفسهم، فقد بدأوا باستنكار هذا الحكم واتهامه بمعاداة السامية، وأنه تعبير عن كره الأغيار (أي غير اليهود) لليهود، إلى آخر هذا المخزون من السباب في خريطتهم الإدراكية، ولكنهم أقروا في الوقت نفسه أن «الكراهية لإسرائيل تتزايد وتخترق الحدود، وقرار المحكمة الدولية في لاهاي يرفرف راية حمراء فوق الجدار» (صحيفة معاريف، ١١ يوليو/تموز ٢٠٠٤)، وأن القرار سيضفي شرعية على عمليات المقاومة الفلسطينية وهو بذلك يمثل انتصاراً للفلسطينيين، وربما كان النجاحَ الأكبر لهم منذ قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٥، والذي وسم الصهيونية بالعنصرية» (صحيفة يديعوت أحرونوت، ١١ يوليو/ تموز ٢٠٠٤). ثم يمضي الكاتب نفسه ليؤكد أن القرار يعني إعادة تصنيف الدولة الصهيونية، أي تغيير الخريطة الإدراكية بخصوصها، «فبعد سبعة وثلاثين عاماً من الاحتلال، تتحول إسرائيل في نظر قسم كبير من العالم إلى دولة منبوذة، إنها ليست دولة التمييز العنصري في جنوب إفريقية

ولكنها بالتأكيد من العائلة نفسها». ويذهب كاتب آخر، هو ألوف بن، إلى أنها قد تلاقي مصير «جنوب إفريقية» (صحيفة هآرتس، ١١ يوليو/ تموز ٢٠٠٤)

وأعتقد أنه قد حان الوقت لأن يتوجه الإعلام العربي لهذه القضية، ساعياً إلى التأثير في الخريطة الإدراكية للشعوب الغربية، من خلال ما أسميه الحوار المسلح، أي المقاومة المسلحة المستمرة، التي يصاحبها إعلام قوي يحاول أن يبين حقيقة الدولة الصهيونية في المنطقة بوصفها جيباً استعمارياً استيطانياً إحلالياً يمثل الاستعمار الغربي ويخدم مصالحه.

- **الجمود الإدراكي**

ورث الصهاينة الرؤى الأسطورية والتوراتية المعادية للتاريخ، ولهذا تتسم الرؤية الصهيونية للتاريخ بكثير من جمود ولا تاريخية وحلولية الرؤية اليهودية القديمة. وتزخر الكتابات الصهيونية بعبارات تلمودية تؤكد انعزالية اليهود وتميزهم الحضاري ونقاءهم العرقي. ويتضح أثر الرؤية التلمودية على طريقة إدراك الصهاينة للواقع التاريخي في فلسطين في أواخر القرن الماضي، فهم حينما نظروا إلى فلسطين لم يروا أرضاً فيها شعب أو واقعاً إنسانياً تاريخياً وإنما رأوا مفهوماً تلمودياً يُدعى «إرتس يسرائيل». ولذلك، بدلاً من التعامل مع الواقع الحي بذكاء، نجدهم يلفقون شعارات مثل «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» وهي شعارات جامدة تقترب في اتساقها الهندسي مع نفسها من الحسابات القبالية الرائعة.

وقد سيطرت الرؤية المعادية للتاريخ على القيادة الصهيونية في إسرائيل بل وعلى المجتمع الإسرائيلي كلّاً. وليس من قبيل المصادفة أن الزعيم الصهيوني بن جوريون هو أيضاً عالم توراتي يعرف التلمود تمام المعرفة. والإسرائيليون لا يزالون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم جزء من «التاريخ اليهودي» المقدس ويرون أن انتماءهم القومي هو يهودي وحسب، وأن ثمة رابطاً تاريخياً يربط بين كل أعضاء الجماعات اليهودية في العالم (وحتى الآن ترفض المحاكم تسجيل المواطنين على أنهم إسرائيليو القومية، إذ إن كلمة «إسرائيل» تصف الجنسية وحسب أما القومية فهي «يهودي»).

ولعل هذا الإحساس بالانتماء الزائف لقومية وهمية ولبناء تاريخي وهمي هو الذي يفسر فشل الرأي العام الإسرائيلي حتى الآن في إدراك الوجود القومي

للفلسطينيين (لأن مثل هذا الإدراك ينسف الادعاءات الصهيونية الإسرائيلية من جذورها)، ويفسر تصورهم أن مقاومة الاحتلال الصهيوني ضرب من ضروب الإرهاب.

ونظراً لأنه يدور في مطلقات لا سند لها في الواقع، يظهر هذا الإحساس المعادي للتاريخ على هيئة جمود إدراكي حاد. ولا شك أن هرتزل حينما حضر إلى مصر أدرك أن المنطقة مليئة بالإمكانيات البشرية وأن التاريخ سيكنس المستعمرين حتماً، ولكنه كان في اليوم التالي لتدوينه ملاحظته الذكية يفاوض المندوب السامي البريطاني في إمكانية إنشاء دولة استيطانية لحماية المصالح البريطانية التي سينسفها جدل التاريخ! والأمر لا يختلف كثيراً بالنسبة إلى معظم الزعماء الصهاينة الذين كانوا يتعامون دائماً عن الوجود العربي (إلا قلة قليلة مثل بوبر أوماجنيس).

وقد لعب هذا الجمود الإدراكي ذاته دوراً خطيراً في حرب أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٣، فلقد كان عند الإسرائيليين من الدلالات ما يؤكد أن العرب يستعدون للحرب وأن المصريين سيعبرون القناة إلى سيناء. ولكن الدلالات ظلت معلومات مبعثرة لا ينظمها أي إطار ولا يحددها اتجاه واضح، لأن الإطار والاتجاه لا يمكن أن يدركهما إلا قارئ للتاريخ ومؤمن به، والإسرائيليون لا يمكنهم أن يقرؤوا التاريخ بذكاء ولا أن يؤمنوا بحركته لأنهم لو فعلوا لآمنوا بحتمية يقظة العرب (وهذه مقولة قد نحَّوْها عن فكرهم تمامًا)، وهي يقظة ستؤدي إلى سقوط واختفاء الكيان الصهيوني الشاذ المزروع ميكانيكياً في تاريخ المنطقة.

ويظهر الرفض الصهيوني والإسرائيلي للتاريخ بشكل واضح في تصريحات الزعماء الصهاينة والقادة الإسرائيليين. فهم حينما يستخدمون كلمة «تاريخ»، فإنهم أساساً لا يشيرون إلى التاريخ الحي المتعين وإنما إلى العهد القديم أو إلى تراثهم الديني، المكتوب منه أو الشفوي. ولذا، تصبح الحدود التاريخية هي «الحدود المقدسة المنصوص عليها في العهد القديم (من نهر مصر إلى الفرات)»، وهي حدود لم يشغلها اليهود في أي لحظة من تاريخهم، ولا حتى أيام داود أو سليمان، ولم يرها أي زعيم صهيوني حتى الآن. و«الحقوق التاريخية» هي الحقوق المقدسة التي وردت في العهد القديم أيضاً والتي تؤكد أنهم شعب مقدس مختار له حقوق تستمد شرعيتها من العهد الإلهي الذي قطعه الإله على نفسه لإبراهيم.

وإذا كانت الرؤية اليهودية القديمة تستند إلى اقتصاديات الجيتو الهامشية، فإن الرؤية الإسرائيلية الحديثة المعادية للتاريخ تستند إلى اقتصاديات إسرائيل الهامشية الطفيلية، فهي دولة طفيلية ممولة من الخارج من قبل يهود الدياسبورا والإمبريالية العالمية. والدارس للحياة في إسرائيل يجد أن الوكالة اليهودية تمول كل شيء ابتداءً من البرامج الإذاعية واستيعاب المهجرين وانتهاءً بالمخابرات الإسرائيلية. ومثل هذا التمويل يساهم بلا شك في عزل الإسرائيليين عن واقعهم الاقتصادي والتاريخي ويجعلهم قانعين بالتهويم في أجواء المطلقات اللاتاريخية.

- **العرب واليهود فى الخريطة الإدراكية الصهيونية**

من الأفكار الأساسية المتواترة فى الفكر الصهيوني فكرة نفي الديسابورا (بالانجليزية: Negation Of the Diaspora) التي تعنى في واقع الأمر تصفية كل الجماعات اليهودية في المنفى أي فى العالم، وتجميع كل اليهود في فلسطين، وطن اليهودالقومى حسب الإدعاء الصهيوني. فالصهيونية تنطلق من الإيمان بأن يهود العالم الذين يعيشون خارج فلسطين شخصيات عليلة مريضة طفيلية غير منتجة، ومن ثم فالدياسبورا لاتستحق البقاء ويجب تصفيتها. وممايجدر ذكره أن أدبيات معاداة اليهود تحتوي على نقد متكامل متماسك لما يسمى بالشخصية اليهودية. وقد أصبح هذا النقد جزءاً من ترسانة الصهيونية الإدراكية التي طرحت نفسها على أنها الحركة التى ستشفي اليهود من أمراض المنفى وأنها ستطبّعهم، أي تجعلهم قوما طبيعيين لايختلفون عن باقي البشر، وتخلصهم من الصفات السلبية المفترضة اللصيقة بشخصياتهم.

وقد ترك هذا أثره على الخريطة الإدراكية الصهيونية وعلى رؤيتهم للعرب فى موضوعين أساسين هما «اليهودي كعربي» «والعربي كيهودي»، وهذا جانب من الإدراك الصهيونى للعرب لم يُلقَ عليه الضوء بما فيه الكفاية ،رغم مقدرته التفسيرية العالية. وقد تواتر الموضوع الأول، أي اليهودي كعربي، فى الكتابات الصهيونية التى صدرت قبل أن تتحدد معالم المشروع الاستيطاني الصهيوني تماماً،وقبل أن تتبلور خريطته الإدراكية، وقبل أن يتحول العربي إلى الآخر (ولعل هذا قد حدث بعد وعد بلفور). وفي هذه المرحلة كان من الممكن النظر إلى العربي على أنه الشرقي وممثل الأغيار الأصحاء الذي يمكن التشبه بهم والتوحد معهم للشفاء من

أمراض المنفى. وحسب هذا الإدراك يتحول العربي إلى شيء جميل رومانسي تحيطه غلالات أسطورية كثيفة. ويبدو أن بعض المستوطنين الصهاينة الأول، انطلاقاً من الرؤى الرومانسية التى كانت سائدة فى أروبة آنذاك، كانوا ينظرون إلى استيطانهم فلسطين على أنه نوع من «العودة إلى الشرق» الطاهر (في مقابل الغرب المدنس المليء بالشرور)، وأن «العربي» هو الحكيم الذى سيعلمهم كل الأسرار ويأخذ بيدهم ويهديهم سواء السبيل. وقد تبنى هذه الرؤية بعض زعماء موجة الهجرة الثانية. ويلاحظ أن أول جماعة عسكرية صهيونية (الهاشومير) كان أعضاؤها يرتدون زياً عربياً وكان بعضهم يعيش مع البدو ليتعلموا طريقة حياتهم وعاداتهم. وكان الأدب الصهيونى في هذه المرحلة الأولى مفعماً بهذه الرؤية الرومانسية. فكتب موشيه سميلانسكي، الروائي الصهيوني، سلسلة من الكتب تحت اسم مستعار هو «الخواجه موسى» يصور فيها - وبإعجاب شديد - حياة الفلسطينين الذين تحولوا فى هذه الكتب إلى بدو ورعاة جائلين يذكّرون القارىء بشخصيات العهد القديم. وفى قصة قصيرة كتبها زئيف يافيتس عام ١٩٨٢ يرد وصف لطفل يهودي في مستوطنة بتاح تكفا يتعلم من العرب كيف يدرب جسده على «الحرارة والصقيع وعلى الفيضانات والقحط».

ومن أكثر الأمثلة تطرفاً وطرافة فى الوقت ذاته مسرحية آرييه أورلوف/أربلي التي نشرت عام ١٩١٢ في مجلة هاشيلواح (لسان حال الحركة الصهيونية في روسية والتي كان يحررها ويصدرها المفكر الصهيوني آحاد هعام في مدينة أوديسية). تصور المسرحية جماعة من المستوطنين الاستعماريين الأوائل من موجة الهجرة الثانية يعيشون فى مزرعة جماعية. وبطلة المسرحية هى المستوطنة الصهيونية ناعومي التي ترفض حب اثنين من زملائها وتؤثر عليهما بائعاً جوالاً عربياً يدعى علياً! وحينما يقتل أحد المستوطنين الصهاينة صديقه ينتقم عليّ منه بأن يقتله! ولكن حتى هذا الفعل لايغير من حب ناعومي له وتنتهى المسرحية بمنولوج عاصف تقول فيه ناعومي مخاطبة المستوطنين الصهاينة: «إن روحي تحتقركم أيتها الديدان المتحضرة. لقد تعلمت من العربي الضاري شيئاً، لقد تعلمت منه هذه الكلمات: «الله كريم» (وهذا هو عنوان المسرحية).

ويبدو أن هذا التيار كان شائعاً لدرجة كبيرة حتى إنَّ مجلة **هاشيلواح** نشرت مقالاً لجوزيف كلاوزنر، الناقد الصهيوني، وجّه فيه اللوم للكتّاب الصهاينة في

فلسطين «الذين يصورون كل اليهود فى فلسطين متحدثين بالعربية يشبهون العرب في كل شيء». وقد استمر هذا التيار وأخذ شكلاً مغايراً وهو الدعوة إلى الإيمان بالأصول السامية المشتركة بين العرب واليهود والتي عبر عنها فكر الحركة الكنعانية التي انتشرت بعض الوقت بين المثقفين الصهاينة، والتي تنطلق مما أسموه الوحدة السامية التي تذهب إلى أن المستوطنين الصهاينة ليسوا يهوداً وإنما كنعانيون، وأنهم حين يعودون إلى فلسطين، إنما يعودون إلى وطنهم الأصلي.

هذه الطريقة في إدراك العربيّ بدوياً وبطلاً رومانسياً لا تعني البته اعترافاً بوجوده التاريخي المتعين، وإنما هي محاولة ماكرة، واعية وغير واعية، لتجريده وتغييبه وتهميشه، فالعربي هنا ليس إنساناً حقيقياً وإنما كائناً رومانسياً مجرداً يعيش في السحب أو السماء، مجرد بدوي، أي إنسان متنقل غير مرتبط بأرض، ولذا فهو ليس له أي حقوق في أرضه، أي فلسطين. فتمجيد العربي هو فى واقع الأمر فصل له عن أرضه وعزلٌ عن إنسانيته المتعينة ليصبح شيئاً يشبه الآثار الساكنة (التي تسمى الأنتيكة في مصر). والصهيونية في هذا مرة أخرى لا تختلف كثيراً عن العنصرية الغربية التي لاتمانع بتاتاً فى الإعجاب «بالماضي التليد» و «الأمجاد الغابرة»، طالما أنْ لاعلاقة لها بالواقع، وطالما أنها لا تُستخدم مؤشراً على ما يمكن لصاحب هذا التراث أن ينجزه فى المستقبل. والموقف الصهيوني لايختلف كثيراً عن موقف الغرب من الإسلام، فالغرب لا يعادي الإسلام بشكل عام ومطلق، وإنما يعادي الإسلام المقاوم! فقد تحالف الغرب مع بعض الحركات الإسلامية إبان الحرب الباردة في محاولتِهِ حصار الاتحاد السوفييتي و«الشيوعية الملحدة»، كما قام بدعم المجاهدين فى أفغانستان. وحينما تصاعد تيار القومية العربية تعاون الغرب مع بعض القوى الإسلامية للتصدي للحركة القومية العلمانية. فالغرب رحب بالإسلام وتعاون معه ووظفه حين كانت بعض الحركات الإسلامية متعاونه معه. ولكن حينما ظهرت الحركات الإسلامية التي تدافع عن مصلحة الأمة وكرامتها وترفض الظلم وتناهض العولمة والاستهلاكية والاحتلال، تصاعد العداء الغربي للإسلام وبدأت الحرب الضروس ضد الإرهاب!

ويمكننا الآن أن ننتقل إلى الموضوع الثاني وهو اليهودي كعربي، وسنجد أنه أكثر وضوحاً. وفي مقال سابق أشرنا إلى عدة مستويات مختلفة من الإدراك

الصهيوني للعرب تتجه كلها نحو تحويل العربي إلى شيء تم تغييبه تماماً. فهناك ابتداء العربي كإنسان متخلف وكحيوان اقتصادي لاتحركه سوى الدوافع المادية، وهناك العربي ككائن لايحركه سوى التعصب الديني، ثم هناك العربي الهامشي الذي ليس له حقوق، وأخيراً العربي الغائب الذي لا وجود له. ونحن لودققنا النظر في هذه المستويات للاحظنا أن هذه هي ذاتها صفات اليهودي في أدبيات معاداة اليهود في الغرب، والتي كانت تهدف لإسقاط حقوق اليهودي وطرده بوصفه شخصية طفيلية هامشية غير منتمية وإلى إبادته في نهاية الأمر. وكما قلنا كانت هذه المقولات جزءاً من ترسانة الصهيونية الإدراكية، تشبعت بها وتبنتها وطبقتها على الآخر، أي يهود المنفى، ثم أسقطتها على الآخر الآخر، إن صح التعبير، الآخر مضاعف الأخروية، أي العربي، محاولةً لتغييبه وتهميشه وتجريده وطرده وإبادته واجتثاث علاقته بالأرض، تماماً كما فعل المعادون لليهود باليهود داخل التشكيل الحضاري الغربي.

ولعل من أهم الأمثلة التى يمكن أن نسوقها على هذا الإسقاط، الصورة التى رسمها المفكر الصهيوني الأمريكي هوارس كالن للفلسطيني في المستقبل فقال: «لو حصلوا [أي الفلسطينيون] على مبلغ كاف من المال ليشقوا به طريقهم إلى مكان من المتوقع أن يجدوا فيه سبل العيش المعقولة، وقيل لهم إنَّ هذا هو كل ما سيحصلون عليه ولاشيء آخر أبداً - لو حدث هذا لبدؤوا عندئذ في الاعتماد على النفس» (أي لتحولوا إلى كائنات اقتصادية بلا هوية ولاقيم). ولنلاحظ أن الصورة الكامنة هنا هى صورة «اليهودي التائه» الذي يرحل من مكان لآخر دون توقف، والذي لايهمه سوى المبلغ الذي يحمله، أي إنها صورة اليهودي المرابي الجشع في كتابات المعادين لليهود.

ومن الأمثلة الأخرى الحوار الذى نشر في جريدة **حادشوت** (٢٠ نوفمبر ١٩٨٤) والذي دار بين مراسل الجريدة وزوجة موشيه لينفجر، زعيم جماعة جوش إيمونيم الاستيطانية العنصرية. أخبرت السيدة المراسل أن الأطباء العرب أقل نظافة ومهارة من الأطباء الاسرائيلين، وأنها تفضل أن تعالج أسنانها عند أطباء يهود «لأنني أثق في المعايير اليهودية وحسب. فاليهود موهوبون في هذه الأمور، أما العرب فهم غير قادرين على تطوير صناعات متقدمة. إن كل أمة لها اتجاهها، والعرب لايصلحون إلا أن يكونوا تجاراً». إن العربيَّ هنا هو يهوديُّ البرتوكولات،

مصدر كل الشرور، وهو مثل يهودي البرتوكولات يهدد أمن الدولة الصهيونية وأمن كل يهود العالم. وقد نشرت، على سبيل المثال، عال هاميشمار (٢٣ نوفمبر ١٩٨٤) خبراً مفاده أن الطلبة العرب أرسلوا خطاباً لأعضاء الكنيست يهددونهم فيه بالذبح، وأنهم سيدمرون كل اليهود! ألا يذكرنا هذا بما يسمى بالمؤامرة اليهودية على العالم.

- **الإجماع الصهيوني**

اغتصب المستوطنون الصهاينة أرض فلسطين وطردوا معظم سكانها وأسسوا دولتهم الصهيونية، وهي دولة تستند إلى ما نسميه «الإجماع الصهيوني» وهي الترجمة السياسية للخريطة الإدراكية الصهيونية. و«الإجماع» في عالم السياسة هو الاتفاق بين النخبة والغالبية الساحقة من الشعب بشأن عدد من المسلمات الفلسفية والأخلاقية والسياسية. و«الإجماع الصهيوني» هو اتفاق داخل الدولة الصهيونية بين «التيارات والاتجاهات والأحزاب» الصهيونية التي تضم الغالبية الساحقة من المستوطنين الصهاينة بشأن الأمن وحدود الدولة والعلاقة مع الفلسطينيين ومع يهود العالم ودول العالم، وبخاصة دول العالم الغربي وفي مقدمتها الولايات المتحدة التي ترعى الكيان الصهيوني. وقد تظهر اختلافات بشأن الوسائل والنهج، ولكنها لا تنصرف قط إلى المسلمات النهائية. والعقد الاجتماعي الذي يستند إليه التجمع الصهيوني هو هذا الإجماع نفسه، وهو الذي كان يشكل المرجعية النهائية لكل الأحزاب والتيارات الصهيونية.

والإجماع الصهيوني يصدر عن جملة واحدة: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» هذه الجملة البسيطة العنصرية الإبادية يتم تطويرها على شكل بناء أيديولوجي ومصطلحي متماسك، مع إضافة الديباجات اليهودية التي أضفت بعداً تاريخياً وجمالياً على الرؤية العنصرية الإبادية حتى تبدو كما لو كانت أمراً إنسانياً رائعاً. ويمكن تلخيص بنود الإجماع الصهيوني فيما يلي:

١- اليهود شعب واحد، طليعته هم المستوطنون الصهاينة، وفلسطين هي أرض الميعاد أو إرتس يسرائيل (وطن اليهود القومي) وليست فلسطين، وطن أهلها، وعلى يهود العالم أن يهاجروا إلى إرتس يسرائيل وأن يلتفوا حول دولتهم الصهيونية القومية ويقوموا بدعمها مالياً وسياسياً فهي المركز وهم

الهامش، هذه الدولة يجب أن تكون دولة يهودية خالصة (دولة اليهود ودولة يهودية في آن واحد) تجسد الرؤى اليهودية وبإمكان اليهودي أن يحقق فيها ذاته وهويته.

٢- وجود الفلسطينيين في وطنهم فلسطين - حسب التصور الصهيوني - أمر عرضي زائل، ومن ثم لابد من التخلص منهم إما بالطرق السلمية أو الإرهابية. وانطلاقاً من كل هذا يصبح من «حق» الدولة الصهيونية أن «تدافع» عن نفسها وعن حقوقها المطلقة بكل ضراوة من خلال «جيش الدفاع الإسرائيلي» ضد «إرهاب» السكان الأصليين، أي الفلسطينيين ممن يرفضون الإذعان للرؤية الصهيونية. وقد تتفاوت مفاهيم السلام بين حزب صهيوني يميني وآخر صهيوني يساري، ولكن في التحليل الأخير نجد أن مفهوم الأمن لدى الأحزاب الصهيونية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار يشير إلى مضمون جوهري واحد. فالتيار العمالي يتبنَّى مقولة بن جوريون إن «العرب لا يفهمون سوى لغة القوة». أما التيار التصحيحي فيتبنى نظرية فلاديمير جابوتنسكي بشأن «الجدار الحديدي» وهي النظرية التي طوَّرها شارون إلى مفهوم «الجدار الفولاذي»، وأكدها نتنياهو «وقد وافق باراك على هذا بطريقة ملتوية مراوغة» في كتابه **مكان تحت الشمس** في مفهومه عن «سلاح الردع». وقد تبدّى هذا في كل الترتيبات العسكرية الصهيونية ابتداء من أصغر الأسلحة شأناً حتى الردع النووي.

وينظر الصهاينة إلى القضية الفلسطينية على أنها «قضية أخلاقية» وحسب، ومن ثم يجب عدم الحديث عن «عودة» الفلسطينيين إلى ديارهم («إعادة توطينهم» في المصطلح العربي)، وإنما يجب الحديث عن «منح تعويضات» مالية للمتضررين منهم (وهذا استمرار للعقلية التجارية القومية الصهيونية، التي ترى أن كل شيء يباع ويشترى بما في ذلك الأوطان). أما المتبقون فيستوعبون في أماكن وجودهم (أي في البلدان العربية المختلفة، وبخاصة سورية ولبنان).

٣- سياسة الأمر الواقع هي السياسة الوحيدة التي يمكن اتباعها مع العرب، فالأمر الواقع هو الذي يغير الواقع [العربي] ويفرض واقعاً [صهيونياً] جديداً عليه ويمكن تحقيق السلام وبالشروط الصهيونية من خلاله.

٤- لا يمكن تفكيك المستوطنات القائمة بالفعل، فتفكيك المستوطنات يضرب في صميم الشرعية الصهيونية، ولابد من الحفاظ عليها بشكل أو بآخر. ولكن، هل يجب أن تكون هذه المستوطنات متصلة، بطرق برية أم أنفاق تحت الأرض، أم تظل منفصلة؟ وهل هي مستوطنات مؤقتة (أمنية) أم دائمة (عضوية، إن صح التعبير)؟ كل هذه أمور ثانوية يمكن الاختلاف بشأنها بين أعضاء حزب العمل وحزب الليكود.

٥- القدس هي العاصمة الموحدة والأزلية للدولة الصهيونية (وليست موضوعاً للمساومة) وبإمكان الفلسطينيين أن يأخذوا مكاناً خارج القدس وليسموه ما يشاؤون، الQuds، على سبيل المثال، وهذه (مع الأسف) ليست مجرد نكتة سياسية وإنما حقيقة صهيونية.

٦- الدولة الصهيونية تضم الضفة الغربية، وحدودها هي نهر الأردن، ويختلف العماليون فيما بينهم، كما يختلفون مع أعضاء الليكود، إذا ما كان الوجود الإسرائيلي على نهر الأردن مستمراً (عضوياً دائماً) أم مؤقتاً (أمنياً) إذ يرى أعضاء الليكود أن حدود إسرائيل هي نهر الأردن بالفعل وأن الوجود الإسرائيلي هناك وجود دائم، أما العماليون فهم مستعدون «للخروج» من هذه الأرض من الناحية النظرية على الأقل.

٧- الكيان الفلسطيني الذي سينشأ بعد ذلك (في الضفة والقطاع) كيان سياسي منقوص السيادة، منزوع السلاح ودون جيش، ويشبَّه هذا الكيان ببورتوريكو وأندورة (والأولى دولة حرة، تابعة للولايات المتحدة، لسكانها حق التصويت، دون أن يحملوا الجنسية الأمريكية، أما الثانية، فتخضع لنظام حكم تحت سيادة فرنسة وأسقف من إسبانية [فهي تقع بين البلدين]). أما ماذا تُسمَّى هذه الدولة (هل هي «حكم ذاتي» أم دولة فلسطينية مستقلة»؟) فهذه مسألة ثانوية يمكن الاختلاف بشأنها.

٨- تنازل معظم الصهاينة عن الشعارات القديمة مثل إسرائيل الكبرى «حدودياً» (أي إسرائيل الممتدة من النيل إلى الفرات)، وبدؤوا في تبني شعارات مثل «إسرائيل العظمى اقتصادياً» المهيمنة على المنطقة الممتدة من المحيط إلى

الخليج، فهذا هو عصر النظام العالمي الجديد وما بعد الحداثة، وقد أثبت الصهاينة مقدرة غير عادية على التكيف مع المعطيات الدولية، وهذه سمة أساسية للدولة الوظيفية.

٩- يذهب الإجماع الصهيوني - رغم كل ديباجات الاستقلال الصهيوني والاعتماد على الذات ورفض الأغيار - إلى أنه دون الدعم الغربي، وبخاصة الأمريكي، للمستوطن الصهيوني فإنه لن يقدر له البقاء والاستمرار، وأن هذا المستوطَن الصهيوني هو أساساً دولة وظيفية أسست للاضطلاع بوظيفة أساسية، هي الدفاع عن المصالح الغربية، وأن الغرب قد تبنى المشروع الصهيوني وضمن له البقاء والاستمرار كي يدافع عن مصالح الغرب في المنطقة، ودون أداء هذه الدولة لوظيفتها، لن يكون هناك دعم.

وقد اهتزت بنود هذا الإجماع الواحد تلو الآخر، فمسألة أن اليهود شعب واحد ثبت كذبها. فأعضاء هذا الشعب سعداء في «منفاهم» ولم يهرعوا إلى أرض الميعاد. كما أن الفشل الصهيوني/ الإسرائيلي في تعريف اليهودي مشكلة أساسية تقوض الإجماع الصهيوني وتهدده.

أما بخصوص الفلسطينيين فقد أدرك الصهاينة صعوبة التخلص منهم ومن وجودهم «العرضي الزائل». ولذا يحاول الصهاينة الآن قبول الأمر السكاني الواقع مع الاتجاه نحو تقليل الاحتكاك بالفلسطينيين ومحاصرتهم عبر إقامة كيان خاص بهم، لأنهم يهددون شرعية الوجود الصهيوني ذاته. ولكن الحديث عن «محاصرة السكان» هو نفسه دليل على الفشل الصهيوني في إنشاء الدولة الصهيونية الخالصة، وفي حماية المزاعم الصهيونية التي تحدتها انتفاضة ١٩٨٧ وانتفاضة الأقصى. وقد تحول النظام الاستيطاني الصهيوني عن الإحلال وأصبح نظاماً مبنياً على التفرقة العنصرية (الأبارتهايد).

وقد أثبتت انتفاضة ١٩٨٧ وانتفاضة الأقصى و«الحزام الأمني» في لبنان عدم جدوى الأمر الواقع وعبثيته واستحالة فرض السلام بالشروط الصهيونية. ولذا نجد أن الإجماع الصهيوني قد اهتز بشأن غزوات إسرائيل العسكرية (والتي تحاول من خلالها فرض الأمر الواقع والسلام بالشروط الصهيونية).

- **إجماع المستوطنين**

تساقط وتفكك كثير من بنود الإجماع الصهيوني بسبب اهتزاز الخريطة الإدراكية حتى إن دارسي الكيان الصهيوني يذهبون إلى أن الصهيونية لم تعد هي الأيديولوجية التي تهدي المستوطنين في سلوكهم ولم تعد هي الإطار الذي يدركون العالم من خلاله. وهذا القول - في تصوري- صحيح إلى حد كبير، ولعل أكبر دليل على هذا هو الفتور وعدم الاكتراث تجاه المؤتمرات الصهيونية. انظر على سبيل المثال ما حدث في المؤتمر الصهيوني الثالث والثلاثين الذي عقد في القدس في ديسمبر ١٩٩٧ وصل عيزرا وايزمان، رئيس الدولة، وبنيامين نتنياهو، رئيس الوزراء، متأخرين عن موعدهما. ولم تُعر الصحف الإسرائيلية المؤتمر اهتماماً كبيراً، ونشرت أخباره في مقابل صحف الوفيات. وفي المؤتمر الثاني والثلاثين الذي عقد في القدس في يوليو ١٩٩٢ أحس الجميع بأن «المولد الصهيوني» قد أوشك على الانفضاض، وأن المنظمة الصهيونية أصبحت، «عظاماً جافة» و«هيكلاً بدون وظيفة» (ميزانية المنظمة ٤٩ مليون دولار مقابل ميزانية الوكالة الصهيونية التي بلغت ٤٥٠ مليون دولار). وقد تساءل مراسل الإذاعة الإسرائيلية: «هل مازالت هذه المؤسسة قائمة؟» وقد استنفد معظم الوقت في تدبير التعيينات في المناصب والصراع على الوظائف رغم أنه كان قد وُفق على معظمها قبل المؤتمر.

وقد أثيرت في الآونة الأخيرة شكوك قوية - من جانب كثير من القيادات والتيارات الصهيونية - حول جدوى المؤتمرات الصهيونية ومدى فاعليتها. إذ يرى الكثيرون أن المؤتمرات تحولت إلى منتديات كلامية وأصبحت عاجزة عن مواجهة المظاهر المتفاقمة للأزمة الشاملة للحركة الصهيونية ودولتها، والتي تتمثل في مشاكل النزوح والتساقط واندماج اليهود في مجتمعاتهم والزواج المختلط والتمايز بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، بالإضافة إلى انفضاض يهود العالم عن حركة الصهيونية مما يكرس عزلتها. ومن أبرز الدلائل على تلك الأزمة أن المؤتمرات الصهيونية المتتالية لم تفلح حتى الآن في الاتفاق على حل لمشكلة من هو اليهودي ومن هو الصهيوني، رغم أنها تأتي دائماً في مقدمة الموضوعات المطروحة على جدول الأعمال في المؤتمرات المختلفة. ورغم أن البعض يحاول أن يرجع هذا العجز إلى أسباب فنية وتنظيمية إلا أنه بات واضحاً أن مظاهر الأزمة ذات طبيعة

تاريخية وحتمية تتجاوز الحدود التنظيمية لتصل إلى جذور المشروع الصهيوني نفسه وإلى طابع نشأته وتطوره. ولهذا، فليس من قبيل المبالغة أن يضاف عجز المنظمة الصهيونية العالمية بهيئاتها المختلفة، ومنها المؤتمر، إلى مجمل المظاهر العامة لأزمة الحركة الصهيونية. ولعل ظهور ما بعد الصهيونية هو تعبير عن مدى عمق أزمة الأيديولوجية الصهيونية (كلمة «بعد» في الخطاب الفلسفي الغربي تعني أن النموذج المهيمن قد ضمر وذوي ولم يولد نموذج جديد يحل محله، أي أن ثمة أزمة على مستوى النموذج لم يظهر لها حل بعد، ولعل الكلمة تعني أيضاً «نهاية». ومن أهم مصطلحات المابعد مصطلح «ما بعد الحداثة» الذي صيغ مصطلح، «ما بعد الصهيونية» قياساً عليه).

ويصاحب ظاهرة ما بعد الصهيونية ظاهرة المؤرخين الجدد الذين جعلوا همهم تقويض الأساطير الصهيونية. ويمكن أن نضم لهؤلاء المؤرخ زئيف هرتزوج الذي بيّن أن كثيراً من الأساطير التوراتية التي يستند إليها الصهاينة ليس لها سند تاريخي. وقد طرح عليه السؤال التالي: «إذا كان الأمر كذلك، فماذا تفعلون هنا في شرقنا العربي؟» فأجاب: «نحن هنا لأننا هنا». وهي عبارة بسيطة لكنها تخبئ الوضع الصهيوني الحالي وهو أن الديباجات اليهودية هي مجرد ديباجات وأن الجيب الاستيطاني الصهيوني قائم في إطار الاستعمار الدارويني الذي يغير الواقع عن طريق العنف وقوة السلاح والدعم الغربي. وأن المستوطنين الصهاينة لا يختلفون عن أي مستوطنين آخرين، سلبوا الأرض وحاولوا سحق السكان. وأن كل حديثهم عن السلام هو حديث عن سلام في ضوء إجماع المستوطنين على البقاء بحد السلاح.

ولننظر الآن لمعزوفة السلام الإسرائيلية. تبدأ هذه المعزوفة بالمناداة بالبعد عن عقد التاريخ وأن تتناسى كل دول المنطقة خلافاتها لمواجهة الخطر الأكبر. (الاتحاد السوفييتي- الإسلام.. إلخ). وأن نقطة البداية لابد أن تكون الأمر الواقع. وهذا المفهوم يفترض أن إسرائيل ليست التهديد الأكبر. مع أن الأمر الواقع الذي يطلب منا أن نبدأ منه يقول عكس ذلك. فهو أمر واقع مؤسس على العنف ويؤدي إلى الظلم والقمع اللذين هما مصدر الصراع والحروب والاشتباك. فالمسألة ليست عقداً آنية أو تاريخية، وإنما بنية الظلم التي تشكلت في الواقع ولا يمكن تأسيس سلام حقيقي إلا إذا تم تفكيكها.

بعد تناسي عقد التاريخ يطالب الصهاينة بوقف المقاومة واستسلام الفدائيين مقابل تسليم بعض المدن والقرى لا «تنسحب» منها القوات الإسرائيلية الغازية، وإنما «يعاد نشرها»، وهذا ما يسمونه «الأرض في مقابل السلام». والقوات الإسرائيلية لا تنسحب، لأن أرض فلسطين هي أرض الشعب اليهودي، والقوات الوطنية لا تنسحب من أرض الوطن وإنما يعاد نشرها وحسب. ولذا رغم اتخاذ هذه الخطوة الرمزية الإعلامية فإن الاستيطان سيستمر على قدم وساق والقدس ستظل عاصمة إسرائيل الأبدية.

إن كل هذه التصورات للسلام تنبع من إدراك أن أرض فلسطين هي إرتس يسرائيل، وأن الإسرائيليين لهم حقوق مطلقة فيها، أما الحقوق الفلسطينية فهي مسألة ثانوية، فالأرض في الأصل أرض بلا شعب. وتتبدى هذه الخاصية بشكل واضح ومتبلور في المفهوم الإسرائيلي للحكم الذاتي.

وتصور إسرائيل لمستقبل المنطقة لا يختلف كثيراً عن ذلك، فالمركز هو إسرائيل وهي التي تمسك بكل الخيوط، أما بقية «المنطقة» فهي مساحات وأسواق. وإسقاط عقد التاريخ هنا يعني إسقاط الهوية التاريخية والثقافية ليتحول العرب إلى كائنات اقتصادية، تحركها الدوافع الاقتصادية التي ليس لها هوية أو خصوصية. هنا تظهر سنغافورة صورةً أساسية للمنطقة ومثلاً أعلى: بلد ليس له هوية واضحة ولا تاريخ واضح، نشاطه الأساسي هو نشاط اقتصادي محض. وحينها يتحول العالم العربي إلى سنغافورات مفتتة متصارعة فإن الاستراتيجية الاستعمارية والصهيونية للسلام تكون قد تحققت دون مواجهة ومن خلال «التفاوض» المستمر.

• الخريطة السياحية والخريطة الإدراكية

مرت سبع سنوات سمان ما بين توقيع اتفاقية أوسلو واندلاع انتفاضة الأقصى تصور الإسرائيليون خلالها أنهم سيمكنهم إحكام هيمنتهم على الشعب الفلسطيني وعلى الأرض الفلسطينية من خلال سلطة فلسطينية، لا سلطة لها، منعدمة السيادة تماماً. سلطة يمكن إفسادها عن طريق رشوتها، وسلطة سياسية تقوم بإلغاء الحياة السياسية وتحكم بشكل مطلق فيضمر الإحساس القومي والديني وتتحول الجماهير إلى مجرد وحدات اقتصادية إنتاجية استهلاكية تتبنى رؤية اقتصادية محضة، ومن ثم تنسى الكرامة والوطن وتركز بدلاً من ذلك على تحسين مستوى المعيشة، ومن ثم

يصبح من الممكن رشوتها هي الأخرى (وهذه هي رؤية بيريس لما سماه شرق الأوسط الجديد بأسره). ولوح الغرب والصهاينة للسلطة وللجماهير الفلسطينية بأشياء وردية من مثل تحول فلسطين / إسرائيل (والأردن) إلى سنغافورة وهونج كونج الشرق الأوسط، بلد لا تاريخ له، عدد سكانه محدود، ولكن إنتاجيته مرتفعة إلى أقصى حد، ومستوى المعيشة فيه مرتفع إلى درجة تدير الرؤوس الاقتصادية الاستهلاكية. وكل من يقف ضد هذه الرؤية يمكن لقوات الأمن التابعة للسلطة أن تقوم بترويضه أو القضاء عليه إن اقتضى الأمر، أي أن علاقة الكيان الصهيوني بالسلطة الفلسطينية - حسب تصور الصهاينة لاتفاقية أوسلو - هي علاقة في جوهرها كولونيالية، تلعب فيها الدولة الصهيونية دور الراعي الإمبريالي الذي يوظف الدولة المستغلة لصالحه إما من خلال قواته العسكرية مباشرةً أو من خلال النخبة المحلية الحاكمة، أي إن السلطة الفلسطينية كان المفروض فيها أن تلعب دور الجماعة الوظيفية المنبتة الصلة بالجماهير الفلسطينية، التي تضطلع بوظيفة تسخير الجماهير لصالح الراعي الإمبريالي، نظير بعض المكاسب التي تحققها لنفسها.

وقد استنام المستوطنون الصهاينة لهذه المتتالية اللذيذة التي تحقق لهم كل ما يريدون دون أن يدفعوا أي ثمن فيمكنهم الآن الاستمرار في زيادة المستوطنات وفي تسمينها وتحسينها والاستمتاع ببحبوحة العيش. ومما سبب الطمأنينة الزائفة لدى المستوطنين أن الخريطة السياحية التي أصدرها المجلس الإقليمي لمستوطنات غور الأردن قبل اندلاع الانتفاضة لا يظهر عليها أي قرى أو مدن عربية، كأنها قد تم إزالتها، ولذا كان غور الأردن - حسب هذه الخريطة الوهمية - هو أكثر الأماكن أمناً على وجه الأرض. حقاً إنها أرض بلا شعب، أو على أسوأ تقدير، أرض شعبها مكبل بالأغلال.

إن الصهيونية هي الاستعمار الاستيطاني الإحلالي، والاستعمار الاستيطاني الإحلالي هو الصهيونية العملية، الصهيونية على أرض الواقع التي تقوم باغتصاب الأرض من أصحابها. لقد تم تأسيس دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ على الجزء الأكبر من أرض فلسطين، ثم تم الاستيلاء على الجزء المتبقي في حرب يونيو ١٩٦٧، وبدأت بعدها عمليات مصادرة الأراضي في الضفة الغربية وقطاع غزة وبناء

المستوطنات عليها وفي البداية تم التركيز على وادي الأردن والمناطق القريبة من الخط الأخضر وهي مناطق ليست كثيفة سكانياً (فلسطينياً). ثم أقيمت مستوطنات داخل مناطق الكثافة السكانية الفلسطينية بعضها تحول إلى مدن معترف بها مثل مستوطنة معالي أدوميم.

وتكثف النشاط الاستيطاني خلال فترة حكم الليكود (١٩٧٧ - ١٩٨٤)، وبلغ مجموع المستوطنات تسعين مستوطنة، وفي ظل حكم ائتلاف العمل الليكود (١٩٨٤ - ١٩٩٠) تم إنشاء ١٥ مستوطنة، وجاءت بعد ذلك حكومة إسحق شامير (١٩٩٠ - ١٩٩٢) لتنشئ ١٤ مستوطنة. وفي عهد بنيامين نتنياهو (١٩٩٦ - ١٩٩٩) تم إنشاء ٤٠ بؤرة استيطانية. ثم جاء إيهود باراك الذي تعهد بتجميد العمل في بناء المستوطنات، ولكن شهدت سياسة الاستيطان زخماً واضحاً في عهده، فقد سمحت حكومته ببناء مستوطنات أكثر مما سمح به سلفه اليميني بنيامين نتنياهو.

وخلال العام الأخير من ولاية نتنياهو وطوال فترة ولاية باراك تكثفت عملية توسيع المستوطنات وربطها بالطرق الالتفافية التي تزيد من تقطيع أوصال المناطق الفلسطينية، والعمل على تحويلها إلى كتل استيطانية ليتم التفاوض عليها خلال مفاوضات الوضع النهائي مع السلطة الفلسطينية. فقد تضاعفت مساحة المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة خلال الفترة الممتدة من العام ١٩٩٣ (توقيع اتفاقية أوسلو) وحتى عام ٢٠٠٠، فقد بلغت مساحة المستوطنات في عام ١٩٩٣ نحو ٧٧ كيلو متراً مربعاً، أي ما نسبته ٣,١٪ من مساحة الضفة الغربية. وأصبحت هذه المساحة في عام ألفين ١٥٠ كيلو متراً مربعاً، أي ٦,٢٪ من مساحة الضفة. وكانت مساحة الأراضي التي تتم عليها عمليات الاستيطان تبلغ نحو ٣٠ ألف كيلو متر مربع، أي ما نسبته نحو ٥٠٪ من أراضي الضفة والقطاع: ٦٠٪ من مساحة الضفة و ٣٢٪ من مساحة القطاع. وفي النهاية بلغ عدد المستوطنين ٢٠٨ آلاف في نهاية النصف الأول من عام (٢٠٠١)، أي بزيادة خمسة آلاف عما كان عليه عام (٢٠٠٠).

وكان انتخاب باراك بالنسبة لكثيرين يمثل دخولاً إلى الشوط الأخير في السباق نحو إنهاء الصراع التاريخي، وقد ترافق هذا مع مناخ اقتصادي متفائل يعود أساساً إلى ازدهار شركات التكنولوجية العالية (هاي تك). كل هذا منح المجتمع

الإسرائيلي، المرهق بفعل أعوام كثيرة من الصراع الدموي، أملاً بمستقبل جديد، تستطيع إسرائيل أن تصبح فيه واحدة من الدول الغربية التكنولوجية («كئيبون وعاجزون ويرفضون التعلم» لداني زكائي، مجلة نيم، العدد ١٧، صيف ٢٠٠١).

ولنسمع ماذا يقول المستوطنون الصهاينة عن حالهم في هذه الفترة الوردية: «كان سكان مستوطنات غور الأردن مقتنعينَ تماماً بأنهم كانوا على وشك دخول مرحلة الانتعاش. فبدأت إذاعة المنطقة حملة لجذب المستوطنين واشترك في الحملة مغن إسرائيليٌّ دعا المستوطنين إلى الانتقال إلى الوادي ليحققوا أحلامهم»، فلتنتقل إلى بيت خاص، في مستوطنة متميزة، ولتتمتع بالهدوء والاستقلال في أجمل بقعة في وادي غور الأردن (هآرتس، سبتمبر ٢٠٠١).

وبدأت مستوطنة يافيت حملة ناجحة في اجتذاب عشرات الأسر الذين عبَّروا عن رغبتهم في الاستيطان (وكان من بينهم أسرة/ زوج من المساحقات) وبعضهم فكَّر في إقامة مركز كلي ومزرعة بيئية (لا تعتمد على أي سماد صناعي). وكانت هناك امرأة متخصصة في الروحانيات قررت أن تعيش بمفردها في مبنى مهجور لتقيس درجة الروحانية داخلها، وتوصلت إلى أن الطاقة العجيبة الكامنة فيها ستكفيها لمدة عام على الأقل!

وقد أحجم البعض عن المجيء للمستوطنة لأنهم لا يمكنهم العيش دون الشوبنج مول وصخبها. ولكن جاء ثمانية أسر في نهاية الأمر وسجلوا أنفسهم في حي «ابن بيتك بنفسك»، وقد كان انطباع أبناء المؤسسين إيجابياً فقرروا العودة إلى المستوطنة بعد أداء الخدمة العسكرية. وقد تم بيع ١٣٠ منزلاً بعد حملة التسويق. وهكذا عادت الحياة مرةً أخرى إلى مستوطنة يافيت وأصبحت المنطقة المخصصة للعب الأطفال مليئة بالحياة. وبدأت الحضانة تعمل مرةً أخرى، وعادت الليالي الاجتماعية مرةً أخرى، وغمرت السعادة كبار السن. وكانت الحياة الوردية تسير على ما يرام بشكل روتيني، فكانت آلاف السيارات تستخدم الطريق العام رقم ٩٠ كل يوم. وكان هناك محطة بنزين، تقف فيها السيارات، وعادةً ما كان قائدو السيارات يطلبون ساندوتش».

ثم جاءت الانتفاضة وتغير كل شيء في المجتمع الصهيوني وفي وجدان المستوطنين الصهاينة.

- **مستوطنات الأشباح**

حين وصل شارون إلى السلطة انتعشت آمال المستوطنين لأنه صاحب فكر صهيوني توسعي إرهابي. ومن أقواله مؤخراً: «المستوطنات لها أهمية تاريخية واستراتيجية لأنها تحمي مسقط رأس الشعب اليهودي، كما توفر لنا عمقاً إستراتيجياً لحماية وجودنا». ويذهب شارون إلى إيجاد المبررات التي تدعم سياسته الاستيطانية زاعماً أن اتفاقات أوسلو لا تمنع إقامة مستوطنات جديدة ولا توسيع أخرى قائمة مستنداً إلى نظرية أطلقتها الحكومة السابقة تقول بضرورة مراعاة النمو الديموجرافي في المستوطنات القائمة. كما رفض أية دعوة لتفكيك أو إخلاء أية مستوطنة، ولهذا السبب أسند شارون الوزارات المسؤولة عن الاستيطان إلى غلاة اليمين، حيث تولى أفيجدور ليبرمان وزارة البنى التحتية وناثان شارانسكي وزارة الإسكان، كما تولى أتباعه الدوائر التنفيذية في الوزارات التي لها علاقة بالاستيطان. كما قامت حكومة شارون بتوفير الدعم المالي اللازم لتكثيف الاستيطان، حيث دعا إلى تخصيص ٣٦٠ مليون دولار للاستيطان (عاد وخفضها إلى ١٥٠ مليون دولار بسبب انتقادات وضغوطات أمريكية). كما دعا شارون وزارات عدة إلى تخفيض أجزاء من ميزانيات وزاراتهم لمصلحة المستوطنات، ناهيك عن الامتيازات والتسهيلات المالية التي تُمنح للمستوطنين.

ومنذ تولى شارون السلطة، تم استحداث ١٥ موقعاً استيطانياً جديداً. ويبرر شارون وحكومته التوسع في بناء المستوطنات على أساس ضرورة مراعاة النمو الديموجرافي فيها. ولكن هل التوسع في بناء المستوطنات يواكبه بالفعل زيادة في المستوطنين؟

العكس هو الصحيح، إذ يلاحظ أنه رغم التوسع الاستيطاني إلا أن (هناك تراجعاً في النمو السكاني للمستوطنين، ويعود هذا بالدرجة الأولى إلى تزايد هجمات المنتفضين على المستوطنين، فقد جاء في صحيفة معاريف (١٧/ ١١/ ٢٠٠٠) أن مستوطنة جيلو تحولت إلى مسرح للخوف والرعب وقلب المستوطنين على الحكومة. وقد كتب يهودا جولان ساخراً: يمارس سكان جيلو تسلية جديدة: مشاهدة إطلاق النار ... يستعدون كل مساء للعرض اليومي المجاني الخاص بالضاحية) وقد أدى كل هذا إلى تقويض الروح المعنوية في المستوطنات.

ويعطينا أحد المقالات النادرة التي نشرت في هاآرتس ٢١ سبتمبر ٢٠٠١ صورة عن المستوطنات من الداخل. بدأ المقال بشكوى أحد المستوطنين بأن الجمهور في إسرائيل لا يعرف ماذا يحدث في المستوطنات. الإحصاءات الرسمية تقول إن ٥١ أسرة قد تركت غور الأردن منذ بداية العام، لكن الرقم أعلى من ذلك بكثير. كما أن الإحصاءات لا تتضمن المستوطنين الذين يديرون حياتهم بالريموت كونترول (أي عن بُعد) وهم كثر. فهم ظاهرياً يعيشون في المستوطنات، لكنهم «حقيقةً» يقضون معظم أوقاتهم خلف الخط الأخضر (أي فلسطين المحتلة ٤٨). [لِمَ يبني شارون المستوطنات إذن؟ هذا دليل آخر على أن الأيديولوجية الصهيونية لم يعد يربطها رابط بالواقع].

ثم انهمرت الشكاوى .. قال أحد المستوطنين: لقد سرت عدوى الرحيل في الوادي، ولا يبدو أنه يوجد أي علاج. مستوطنة يافيت التي كان يقطنها ٣٨ أسرة تركتها ثمانية أسر. ومستوطنة جلجال تركتها ٦ أسر من ٣٦ أسرة، أما ماسوا فقد تركتها ٥ أسر من ٣٥ أسرة، وجيتيت تركتها ٨ من ١٢، أما مستوطنة ناعران فلم يبق فيها سوى ستة أسر. وقد ظهر في إسرائيل، منذ منتصف الثمانينيات، مصطلح الـ dummy settlements، والتي نترجمها بعبارة «مستوطنات الأشباح»، أي المستوطنات التي تُشيَّد ولا يقطنها سوى بضعة أسر. من الواضح أن المستوطنات ستزداد شبحية. فقد كان هناك بعض الأسر المترددة في مستوطنة يافيت، ولكن بعد مقتل روهار شورجي، أحد سكان المستوطنة (في ٧ أغسطس ٢٠٠١)، تركت زوجته وأولادها المستوطنة، ثم تبعهم آخرون.

ولكن أسوأ ضربة كانت حيث هاجر موسى هوفتمان وزوجته بريجيت، فهما من مؤسسي المستوطنة. وكانت الضربة من القوة بحيث أن المستوطنين لا يحبون الحديث عن هذا الموضوع، ولكن حسب ما سمعه مراسل هاآرتس من بعض المستوطنين، حينما عادت بريجيت من إجازة في فرنسة وجدت أن الجو في المستوطنة مختلف تماماً عما كانت تعرفه. صدمها كل شيء فجأة: الحزن من أجل شورجي - رحيل بعض العائلات التي ساعدتهم على التأقلم والاستقرار - الحزن المخيم على الجميع حينئذٍ شعرت بريجيت هوفتمان أن أسلوب حياة الأسرة قد تساقط أمام عيونها فقررت الرحيل.

لقد ازدادت مستوطنات الأشباح شبحية، وازدادت جيتوية «لم يعد أحد يفكر في أن يقوم برحلة.. وإن سرت هنا بعد الظلام فلن تجد إنساناً، نصف المنازل مظلمة، ٧٠٠٠ طفل لم يعودوا بعد الإجازة الصيفية، مكان لعب الأطفال خالٍ تماماً، كل شيء توقف؟ يقول صاحب أحد المطاعم: «انظر كم نحن مشغولون الآن». ويشير ساخراً إلى درج النقود الفارغ «سوء طالعنا أننا انتهينا من تجديد المطعم قبل أن تتاح لنا فرصة أن نذوق العسل [في أرض بلا شعب؟!]، وما هو الوقت الآن؟ أربعة، إن جلست هنا حتى السابعة، أي عندما أغلق المطعم، لن ترى أكثر من جندي أو جنديين يأتون إلى المطعم [بدلاً من الأطفال وضحكاتهم يأتي الجنود وأسلحتهم .. أليس هذا هو مصير كل المستوطنين الذين اغتصبوا الأرض من أصحابها؟!].

والمصيبة الكبرى أن كثيراً من المستوطنين الصهاينة داخل الخط الأخضر [أي فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٤٨] يلقون باللوم على مستوطني الضفة الغربية والقطاع (أي فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٦٧) بوصفهم المتسببين في الانتفاضة. ويخرج صاحب المطعم خطاباً أرسله أحدهم إلى زوجته بعد أن ظهرت في التليفزيون.. يقول الخطاب «لقد ذهبت لتعيشوا في الأرض المحتلة. إن غور الأردن أرض محتلة. والآن تعرفون المتاعب، ولكنكم أنتم الذين سببتموه لأنفسكم، إن كنتم تريدون الأمن، فلتهاجروا إلى إسرائيل. أنتم تعيشون في الخارج الآن. يجب أن تعرفوا أنكم مهاجرون، تماماً مثل الإسرائيليين الذين يعيشون في نيويورك».

وهناك إشارات كثيرة إلى أن المؤسسة العسكرية غير سعيدة البتة بوجود المستوطنين في الضفة الغربية والقطاع، رغم تأييدها للتوسع الصهيوني. في الماضي كان المستوطنون يحملون المحراث في يد والبندقية في الأخرى، فقد كانوا هم رأس الحربة الصهيونية، الطليعة العسكرية التي يقذف بها في المعركة قبل تحرك الجيش، أي أن المستوطنات كانت في خدمة الجيش. ولكن مع ظهور المستوطنات المكيفة الهواء، التي يقطنها مستوطنون يبحثون عن اللذة، تغيَّر الوضع تماماً، وأصبح من واجب الجيش حمايتهم، وأصبح الجيش في خدمة المستوطنات. وقد أشار مستشار وزير الدفاع الإسرائيلي لشؤون الاستيطان خلال مناقشة في الكنيست إلى أن تكلفة جنود حماية المستوطنات تقدر بحوالي عشرين مليون دولار. ولذا

طالبت وزارة الدفاع أكثر من مرة بزيادة الموازنة المخصصة لها لمواجهة تبعات التصدي للانتفاضة.

هذا هو الجو العام داخل المستوطنات، وهو جو مشبع باليأس، جو طارد لا يشجع على البقاء، جو يختنق فيه الوهم الصهيوني. وهل يمكن للمستوطنين أن يعيشوا دون أوهام، دون خرائط سياحية وإدراكية لا تظهر فيها قرى عربية؟

• العجز المكتسب

مع استمرار الانتفاضة الفلسطينية تزايد الإحساس بعدم الأمن داخل المستوطن الصهيوني. ولكن: ما هو الأثر النفسي لهذا الإحساس بعدم الأمن؟ كفانا الباحثون الإسرائيليون مؤونة البحث فقد جاء في جريدة **هآرتس** (٦ أكتوبر ٢٠٠١) أن عدد المرتادين على عيادات الأطباء قد زاد بشكل كبير في الآونة الأخيرة رغم أنهم ليسوا مرضى من الناحية العضوية، وإنما يعانون من ضغوط وتوتر على خلفية الأحداث الأخيرة (أي الانتفاضة).

وقد نشرت كل من هآرتس وبنئيم (عدد ١٧ صيف ٢٠٠١) عن ظاهرة يسميها علماء النفس ظاهرة «العجز المكتسب». ولشرح هذه الظاهرة تقول الصحف إنه أجريت تجربة عُرِّض أثناءها كلبان لصدمات كهربائية وأعطي واحد منهما الفرصة للفرار، أما الآخر فقد حُرم منها، فاكتسب الأول حساً سريعاً بتجنب الصدمات الكهربائية من خلال القفز إلى الجهة الآمنة، أما الثاني فقد تكيف تماماً وتقبل الموقف بخنوع، حتى إنه حينما أتيحت له فرصة الهرب في تجربة أخرى، لم يغتنمها؛ فالعجز المكتسب هو سلوك سلبي ينشأ من الإدراك أن لا وسيلة لتجنب آثار مؤلمة، ومن عدم اليقين بخصوص أي شيء، فهي حالة «إين بريرا» بامتياز.

وقد توصل العلماء إلى أن ظاهرة العجز المكتسب في المجتمع الإسرائيلي تنطوي على أخطار كثيرة مثل الشلل من جهة، والتطلع إلى حلول سحرية من جهة أخرى قد تحل كل المشاكل بضربة واحدة. وهذا الاتجاه الأخير أرض خصبة لتطور توق قوي إلى ظهور مسيح دجال، والاستعداد لقبول من يقدم نفسه «قائداً قوياً» يمكنه حل المشكلات كافة .. هذا يفسر ظهور شارون الذي وعدهم بإعادة الأمور إلى نصابها.

وقد طرح شارون برنامج الحد الأقصى الصهيوني، فأعلن أنه لا مجال للتنازل عن غور الأردن أو إزالة المستوطنات أو تقسيم القدس أو عودة اللاجئين (**معاريف** ١٤ نوفمبر ٢٠٠١) أي أن خريطته مختلفة تماماً عن الخريطة الفلسطينية، ثم بدأ شارون بعد ذلك يتحدث عن بعث الروح القديمة. روح التقشف وتحمل المشقات التي تسم الرواد الصهاينة، وقال إنه سيقود الإسرائيليين في حرب بحيث يمكنهم دخول معركة تمتد لعدة سنين بل وربما عشرات السنين يردون فيها الصاع صاعين للفلسطينيين.

ولكن (كما يلاحظ جاكسون دايل في الواشنطن بوست في ٤ سبتمبر ٢٠٠١) لابد أن شارون من القيادات الإسرائيلية التي فشلتْ في فهم أن عقلية الكيبوتس القديمة قد ولت وذهبت وأنه حل محلها مجتمع علماني مترف، مجتمع الهاي تك، الذي لن يقبل سنوات طويلة من الهجمات الانتحارية دون وجود أمل في تسوية دائمة. نقلاً عن باري روبين (**الجيروساليم بوست** ١٦ سبتمبر ٢٠٠١).

وهذا ما لاحظه أيضاً أتيان هابر، فهو يشير في مقال له (**يديعوت أحرونوت** ١١ نوفمبر ٢٠٠١) وقد سبقت الإشارة إليه إلى أن جيش الحفاة في فيتنام الشمالية قد هزم الأمريكيين المسلحين بأحدث الوسائل القتالية... ويكمن السر في أن الروح هي التي دفعت المقاتلين وقادتهم إلى الانتصار. الروح تعني المعنويات والتصميم والوعي بعدالة النهج والإحساس بعدم وجود خيار آخر.

ثم يتساءل الكاتب: لماذا نتذكر ذلك الآن تحديداً؟« لأنه من المهم أن نقول لليهود إنه ليس الشاباك (جهاز الأمن الداخلي) وليس إريئيل شارون هما اللذان ينتصران في الحرب ضد الفلسطينيين وإنما هي الروح.. الروح نفسها التي ميزت دولة إسرائيل طوال سنوات جيل كامل ومكنتها من القتال من أجل حياتها. الروح نفسها التي تبتعد عنا هذه الأيام». ويختتم هابر مقاله بعبارة «الكآبة تكتنف دولة إسرائيل، ليلة سعيدة أيها اليأس»، وهي العبارة نفسها التي اختارها عنواناً لمقاله.

إن خريطة شارون الصلبة ارتطمت بالواقع الأكثر صلابة: واقع الفلسطينيين الصامد وواقع الإسرائيليين المتآكل. والنتيجة هي فقدان الاتجاه «فشارون ليس لديه تكتيك فقط. المبدأ البسيط: أن نصمد؛ ألا تطرف لنا عين؛ أن نقلل الأضرار؛ أن نتماسك عندما تقع كارثة؛ أن نمضي قدماً إلى أين؟» - **معاريف** ٢١ سبتمبر ٢٠٠١).

ما هو المخرج إذن من كل هذا؟ يبدو أن بعض الإسرائيليين بدؤوا يدركون أن خريطة شارون الصلبة التي تبقي على المستوطنات لا تشكل مخرجاً بل مصيدة. فيشير جدعون ليفي في مقال له (هآرتس ٢ ديسمبر ٢٠٠١) إلى أن مروان البرغوثي بيَّن أن المستوطنات هي أكبر برهان على عزم حكومة إسرائيل مواصلة الاحتلال إلى الأبد ومن هنا كانت المقاومة. كما أن الولايات المتحدة (صديق إسرائيل شبه الأوتوماتيكي، على حد قول كاتب المقال) ربطت بين إقامة المستوطنات والعنف (أي مقاومة). ومع هذا لا تزال السياسة الاستيطانية كما هي، فقد أسست ٢٨ مستوطنة جديدة منذ الانتخابات الأخيرة.. رغم أن كل المستوطنين يعيشون اليوم في منطقة الخطر. سكان المستوطنات المعزولة، ومن ضمنها مستوطنات قطاع غزة، معرضون لخطر كبير بصورة استثنائية، المستوطنون هناك يعرفون ذلك وحكومتهم تعرف ذلك، وهناك قسم صغير منهم يتعطش للمساعدة حتى يتمكن من المغادرة والحكومة لا تحرك ساكناً من أجل إنقاذهم، وبدلاً من ذلك أنشأ المستوطنون وفي خطوة استفزازية موقعاً استيطانياً جديداً».

كل عملية قتل تؤدي تقريباً إلى إنشاء موقع استيطاني جديد، أو على الأقل «خيمة عزاء» حيث يتحول قسم منها إلى مستوطنات دائمة بشكل مخالف ليس فقط للقانون الدولي وإنما لبرنامج الحكومة الحالية الأساسي.. لجنة المالية التابعة للكنيست صادقت على منح ميزانية تبلغ ٤٤ مليون شيكل لشق أربعة طرق التفافية جديدة في الضفة للالتفاف على الطرق الالتفافية السابقة التي تبين الآن أنها طرقات خطيرة، وزير المواصلات صادق على تخصيص ١٦ مليون شيكل أخرى من أجل إضاءة المفترقات في شوارع الغور بدلاً من الإعلان عنها شوارعَ خطيرة للتنقل ليلاً، ووزارة البناء والإسكان تخطط لإنشاء مدينة جديدة لستة آلاف ساكن سيحاولون إغراءهم أيضاً للدخول في «مصيدة الموت». السخافة السياسية والاقتصادية تتواصل بلا عراقيل، مثيرة العنف ومحدقة حياة الناس بالخطر لتفرغ خزينة الدولة وتمس بصورة إسرائيل في العالم دون أن يضع أحد من بيننا نهاية لهذه المهزلة الكبرى».

ويضع موسى ساريد المسألة بشكل قاطع حين يقول: إن الاحتلال الإسرائيلي (أي الاستيطان في الضفة الغربية) هو مصنع الإرهاب (أي المقاومة) ويقترح ساريد أن يجلس شارون وعرفات سوياً ويقول شارون لعرفات: أنت ياسر عرفات تقضي

على العنف بقوة الذراع معنا، وأنا شارون أجمِّد المستوطنات.. سنبدأ كلانا بالحديث عن نهاية الاحتلال وعن دولة فلسطينية وتجري مفاوضات على حدودها وقيودها، أنت عرفات تجفف مستنقع الإرهاب، وأنا شارون أجفف مستنقع الاحتلال. التجفيف الجزئي يبيد البعوض» (**معاريف ٣ ديسمبر ٢٠٠١**).

لابد أن المستوطن الصهيوني يقرأ كل هذا ويستخلص النتائج بنفسه، متجاوزاً خريطة شارون الصلبة التي لا علاقة لها بالواقع، رغم أنها تشبع شهوة الانتقام لديه.

- **الرعب يجتاح الجيب الصهيوني**

حينما تتصاعد المقاومة العربية للغزوة الصهيونية، يبدأ الوجدان الإسرائيلي في الشعور بورطته التاريخية: كتلة بشرية تم نقلها من أوربة ثم غُرست غرساً في فلسطين، في وسط العالم العربي فقسمته إلى قسمين ثم طردت الفلسطينيين من أرضهم وأرض أجدادهم. وكان الصهاينة الأوائل يتصورون أن الفلسطينيين سيختفون من على وجه الأرض، مثلما اختفى السكان الأصليون في أمريكة. ولكن الفلسطينيين لم يختفوا بل تجمعوا ونظموا أنفسهم في حركة مقاومة آخذة في التصاعد. ولذا قال الشاعر الإسرائيلي حاييم جوري بمرارة إن «المستوطن الإسرائيلي يُولد وفي داخله السكين الذي سيذبحه». وعندما اندلعت الانتفاضة الأولى، كتب الشاعر إفرايم سيدون قصيدة (رفض التليفزيون الإسرائيلي إذاعتها) رسم فيها صورة فكاهية سوداء للإسرائيليين الذين يتجاهلون النار المشتعلة حولهم. فالأب جالس تأكل النيران قدميه، ولكن الأم لا تضطرب لأن الأب لديه قدم صناعية. ثم يغني الأب والأم قائلين: «لقد أثبتنا للنار بشكل واضح ... من هو الرجل هنا، ومن الحاكم».

ومع اندلاع انتفاضة الأقصى بدأ الوجدان الإسرائيلي يشعر مرة أخرى بالوجود الفلسطيني وبالمقاومة الفلسطينية. ويتحدث الأديب عاموس ألون (**«نيويورك ريفيو أوف بوكس» ٢٣ مايو/ أيار ٢٠٠٢**) عن الإحساس بالخوف الذي اجتاح المجتمع الإسرائيلي، وكيف أن المحلات أُغلقت، وانتشر الجنود في كل مكان. وحين ذهب إلى مكتبة الجامعة العبرية (وهذا قبل العملية الاستشهادية في كافيتريا الجامعة) لم يجد غير ثلاثة أشخاص في مكان كان يقدم الخدمات لعشرين ألف

طالب. وعندما ذهب إلى عيادة أحد الأطباء سمع الممرضة تقول: إنها وكل الممرضات سيتوقفن عن العمل في غضون ساعة إن لم يُعين جندي للحراسة.

وقد نشرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» (١٢ إبريل/ نيسان ٢٠٠٢) مقالاً ساخراً بعنوان «أغيثونا».

يبدأ المقال بالكلمات التالية: «المطلوب من القراء الذين يعيشون بالقرب من البحر أن يقطعوا هذه المذكرة، وأن يترجموها إلى الإنجليزية ويطووها بعناية ثم يضعوها في زجاجة مغلقة، ويلقوا بها في البحر، ولهم في النهاية أن يتمنوا خيراً». أما المذكرة فجاء فيها ما يلي:

إلى كل الناس الطيبين الذين سيعثرون على هذه المذكرة، هذه الرسالة التي وصلتكم هي من رجال ونساء وأطفال حُوصروا في مكانٍ منعزل في الشرق الأوسط.

نحن أناس طيبون، ولكن نتيجة حادثة تصويت حادة [أي انتخاب شارون] وجدنا أنفسنا تحت رحمة مجموعة من القيادات الفريدة في غبائها: معظمهم جنرالات ولواءات ورجال دين وغير ذلك من رجال العصابات.

هؤلاء الأشرار يُصرُّون على أن الإله نفسه هو الذي طلب منهم أن يحاربوا بلا نهاية من أجل قطعة من الأرض لا فائدة تُرجى منها [إشارة إلى المستوطنات في الضفة الغربية] يقولون إنها مقدسة بالنسبة إليهم، وهم يفرضون علينا أن نموِّل حروبهم بل وأن نشترك فيها بشكل مباشر أحياناً.

إن وجدتم هذه المذكرة، نرجو أن تأخذوها إلى قياداتكم. فهذه آخر وسيلة للاتصال. فالتليفزيون والإذاعة تتحكم فيها حكومتنا وعملاؤها ... لا يزال عندنا بعض الطعام والماء، ولكن لم يبق سوى قطرات بسيطة في مخزوننا من العقل والحكمة.

التوقيع

(الجبهة الشعبية لتحرير الناس العاديين).

ونصادف الاستجابة الكوميدية السوداء نفسها في البرنامج التليفزيوني «في إسرائيل فقط» الذي يقدمه إيريز طال وأورنا باناي. ويتكون البرنامج من مشاهد تمثيلية قصيرة تبين أثر الانتفاضة على المجتمع الإسرائيلي. وتبدأ إحدى التمثيليات برجلٍ وحبيبته يذهبان إلى أحد المطاعم ويجلسان على مائدةٍ يحرسهما حارس مدجج بالسلاح ويطلبان عشاء، ولكن حينما يفتح النادل زجاجة الشامبانيا يلقي الرجل وحبيبته بنفسيهما على الأرض ثم تصرخ المرأة في النادل: «هل أنت مجنون؟ ما الذي يجعلك تفتح الزجاجات بهذه الطريقة؟». وكأن هناك طريقة أخرى لفتح الزجاجة. ثم يعود الرجل وحبيبته إلى المائدة، ولكي يتخلصا بعض الشيء من خوفهما يغنيان أغنيةً عن الليل الجميل، ولكن الرجل يُسقط كوباً من الماء عن طريق الخطأ فيتحطم، فيلقي الحبيبان بنفسيهما مرة أخرى على الأرض، ثم يعودان إلى المائدة مرة ثالثة، ويحاولان تهدئة الخوف فيغنيان أحد أناشيد حركة السلام الإسرائيلية ويطلقان بالوناً، ولكن البالون ينفجر فيلقيان بنفسيهما مرة ثالثة على الأرض وتصرخ المرأة «لا تتركني وحدي. أنا لا أستطيع أن أتحرك»، ولكنها تكتشف أن الرجل قد لاذ بالفرار.

وعندما صرح وزير الدفاع الإسرائيلي، بنيامين بن أليعازر، أن الإسرائيليين لا يشعرون بأي توتر أو قلق بسبب انتفاضة الأقصى بل إنهم فرحون مبتسمون دائماً، أذاع برنامج «في إسرائيل فقط» تصريح الوزير وقد صاحبته أغنية فرحة، ولكن على الشاشة ظهرت صور إحدى الهجمات الفدائية وقد تناثرت الأشلاء وسالت الدماء وهُرعت سيارات الإسعاف.

ويشاهد البرنامج حوالي نصف مليون مشاهد، وهو رقم كبير للغاية، خاصة إذا عرفنا أنه يُذاع يوم الجمعة مساءً (بعد ابتداء طقوس السبت) حين يمتنع اليهود الأرثوذكس البالغُ عددهم حوالي مليون نسمة عن مشاهدة التليفزيون.

ولعل أثر انتفاضة الأقصى يظهر بصورةٍ أوضح في رواية أورلي كاستيل بلوم المعنونة «أشلاء بشرية». والرواية تعكس التنوع (أو ربما عدم التجانس) العِرقي الذي يسم المجتمع الإسرائيلي في الوقت الحاضر. فهناك سمسار أشكنازي وفراش كردي وعارضة أزياء إثيوبية. وتحتك هذه الشخصيات بعضها ببعض في عالم تصفه الروائية بأنه «لم تسقط فيه قبة السماء على الأرض وحسب، بل مادت الأرض

ذاتها. وهذا يعود إلى أن الإرهابيين (أي الفدائيين الفلسطينيين) موجودون في كل مكان». ولذا حينما تتأخر صديقة السمسار الأشكنازي فإنه يفترض على الفور أنها سقطت ضحية إحدى الهجمات الاستشهادية. لقد أصبح الرعب من الهجمة التالية معلماً أساسياً في التجمع الصهيوني إلى درجة أن الروائية تقول: «إنك حين تضع ابنتك في حافلة، فإنك كمن يلعب الروليت الروسية» (وهي لعبة انتحارية، كان يلعبها الجنود الأمريكيون في فيتنام).

ويمكننا الآن أن ننتقل من عالم الأدب والوجدان إلى عالم الواقع والأرقام، وسنجد أن الأمر لا يختلف كثيراً. فعلى سبيل المثال، تُقدر خسائر الاقتصاد الإسرائيلي من جراء الانتفاضة بما يتراوح بين ٦ بالمئة إلى ٨ بالمئة من إجمالي الناتج القومي (**«يديعوت أحرونوت»** ٢٨ يونيو/ حزيران ٢٠٠٢)، وكان قطاع السياحة هو الأكثر تضرراً نظراً لعزوف السياح عن التوجه إلى الدولة الصهيونية بسبب المخاوف الأمنية (**«واشنطن بوست»** ١٩ مايو/ أيار ٢٠٠٢). ووصلت نسبة العاطلين عن العمل خلال عام ٢٠٠١ إلى أكثر من ٢٧٦ ألف شخص، أي ما يزيد عن ١٠ بالمئة من قوة العمل (**«هآرتس»** ١٣ يونيو/ حزيران ٢٠٠٢) ويتزايد بصفة مستمرة عدد المستوطنين الصهاينة الذين يتقدمون للحصول على الجنسية الألمانية، حيث بلغ ١٧٥١ في عام ٢٠٠١ (**«يديعوت أحرونوت»** ١٧ يونيو/ حزيران ٢٠٠٢). وقد نشرت إحدى الصحف أن عدد النازحين سنوياً يتراوح بين ١٥ و٢٠ ألفاً (هذا الرقم لا يتضمن بطبيعة الحال النازحين الذين يدَّعون أنهم تركوا إسرائيل لفترة مؤقتة). كما أن ٢٢ بالمئة من الشباب في المرحلة العمرية من ١٨إلى ٣٥ عاماً يودون النزوح عن الدولة الصهيونية. أما أرقام الهجرة إلى إسرائيل فهي تبعث على السخرية، فعدد الذين هاجروا إلى إسرائيل في الأسبوع الثاني من يونيو/ حزيران ٢٠٠٢ لم يزد عن ٦١٦ منهم ٤٤٠ مهاجر من روسية وأوكرانية ولم يحضر سوى ٨ من المملكة المتحدة و١٣ من الولايات المتحدة). وقد علق أحدهم على ذلك بقوله «هذه ليست أعداد مهاجرين، إنها أعداد سياح عابرين» (موقع israelNN.com، ٩ يونيو/ حزيران ٢٠٠٢). ويُلاحظ أن أكثرية المهاجرين من روسية وأوكرانية، أي أنهم من غير اليهود، وقد تنبأ عالم السكان الإسرائيلي سرجيو ديلا برجولا أنه في خلال ثمانية أعوام ستكون الغالبية الساحقة من المهاجرين إلى إسرائيل (٩٤بالمئة) من غير اليهود (**«جيروساليم بوست»** ١٢ يونيو/ حزيران ٢٠٠٢).

ولا يمكن تفسير هذه الأرقام إلا في ضوء الرعب الذي يجتاح الجيب الصهيوني والذي يكمن وراءه سبب جوهري، وهو «الانتفاضة الفلسطينية».

• الانتحار البطولي والهروب الجبان

قام العالم الغربي بنقل كتلة بشرية يهودية غربية إلى فلسطين وغرسها غرساً في وسطنا. وتحاول هذه الكتلة أن تسبغ الشرعية على نفسها من خلال سلسلة من الأكاذيب من مثل أن هذه الكتلة تكون شعباً وأن هذا الشعب مرتبط عضوياً بأرض فلسطين وأنه لهذا السبب يقوم باستعادتها (أي اغتصابها) إلى آخر هذه الأكاذيب.

وقد تعلمنا كيف نفند هذه الأكاذيب، ولكنها مع هذا، بسبب ما أسميه موضوعيتنا المتلقية أو الببغائية، أي الاتجاه نحو نقل ما يصلنا من معلومات وأخبار دون نقد أو تمحيص، فإننا كثيراً ما ننقل تصريحات عدونا عن نفسه وعنا، كما لو كان التصريح حقيقة صلبة أو مخططاً قابلاً للتحقيق، وقد أضعف هذا مقدرتنا التحليلية والتفسيرية إلى حد كبير.

ويشيع الكيان الصهيوني عن نفسه أن جيشه قوة لا تقهر، وأن ذراعه الطويلة تمتد لتصل إلى أعدائه فيقضي عليهم، وقد صدّق كثيرون هذا الادعاء ولا يزال بعض يعيش في ظلاله مع أنه بعد حرب ١٩٦٧ توالت الهزائم على هذا الجيش ابتداء من حرب الاستنزاف مروراً بحرب ١٩٧٣ ثم الانسحاب من لبنان، فجنوب لبنان، بخلاف انتفاضة الأقصى.

ومن الادعاءات التي يذيعها العدو عن نفسه ما يمكن تسميته بالعقدة الشمشونية، وهي أن العدو الصهيوني إن تم استفزازه ومحاصرته فإنه سيحطم الدنيا على رأسه وعلى رؤوس الآخرين، كما فعل شمشون في الهيكل، ومن الأساطير الشمشونية الأخرى أسطورة ماساداه، وهي آخر قلعة يهودية سقطت في أيدي الرومان أثناء التمرد اليهودي الأول ضد الإمبراطورية الرومانية (٦٦- ٧٠ ميلادية)، وتذهب الأسطورة الصهيونية إلى أن المحاربين اليهود المحاصرين آثروا الانتحار على الاستسلام للرومان، وأن انتحارهم هذا يقف دليلاً ناصعاً على مدى صلابة اليهود ووحدتهم. ويلاحظ أن في كلا الأسطورتين حالة حصار نهائية مغلقة، لا يمكن الفكاك منها إلا بتدمير الذات وربما تدمير الآخر.

وقد أحاطت الدعاية الصهيونية واقعة ماساداه بهالات صوفية وحولتها إلى أسطورة قومية محورية، وتقوم أجهزة الإعلام الإسرائيلي بمحاصرة العقل الإسرائيلي بهذه الأسطورة. فتقيم بعض أسلحة الجيش احتفالات ترديد يمين الولاء على قمة القلعة، ويقسمون في نهايته بأن ماساداه لن تسقط ثانية، وتنظم رحلات لأفواج السياح اليهود وطلبة المدارس الإسرائيلية للحج إلى القلعة، كما تحرص إسرائيل على أن تدرج زيارة هذه القلعة ضمن برنامج كل زعيم سياسي أجنبي يذهب إلى إسرائيل، بل وعمدت الدولة الصهيونية عام ١٩٦٩ إلى «إعادة دفن المنتحرين».

والحركة الصهيونية في إشاعتها لهذه الأساطير الانتحارية عن الذات اليهودية، تحاول التأثير في الرأي العام العالمي ليزداد تقبلا لفكرة الشعب اليهودي الواحد، كما تحاول توليد الرهبة والخوف في العقل العربي لتكسب كثيراً من المعارك النفسية والفعلية دون خوض أي حرب.

ولكن من المعروف أن القوات الإسرائيلية التي حُوصرت في خط بارليف، على سبيل المثال، استسلمت بطريقة عملية ورشيدة للغاية على مسمع ومرأى الصليب الأحمر الدولي والتليفزيون المصري. وفي أحد هذه المواقع، سأل الجنود قادتهم بتهكم إن كان المطلوب هو القتال حتى الموت لإقامة ماساداه ثانية، فأتاهم الرد بالاستسلام على أن يبتسموا أمام عدسات التليفزيون المصري. أما الجنود الإسرائيليون الذين انتحروا في أثناء عملية لبنان، فيبدو أنهم قاموا بفعلتهم هذه يأساً من الحرب وثمنها الفادح، إذ إنهم لم يكونوا داخل موقع محاصر، وبذلك فإن انتحارهم لم يكن من أجل الدولة والمُثُل الصهيونية وإنما للاحتجاج عليها.

ومع اندلاع انتفاضة ١٩٨٧ لم يتحدث الصهاينة عن النهاية في الإطار الانتحاري للماساداه، فكل من يهوشفاط حركبي وآرييل شارون، حين تحدثا عن نهاية الكيان الصهيوني، لم يشيرا من قريب أو بعيد إلى ماساداه وإنما إلى الطائرة المروحية الأمريكية، أي تلك الطائرة التي ستأتي حينما تحين لحظة النهاية وتحط فوق سطح السفارة الأمريكية (كما حدث في سايجون في فيتنام) لتأخذ فلول المستوطنين وعملاء الولايات المتحدة، أي أنه بدلاً من الانتحار البطولي الأسطوري المزعوم سيركض الجميع نحو الطائرة.

وبعد اندلاع انتفاضة الأقصى والاستقلال تكرر النمط نفسه فلم يتحدث الصهاينة عن الانتحار البطولي، وإنما عن «ركوب آخر طائرة إذا تكررت قصة سايجون (هآرتس ٢٤/ ١/ ٢٠٠٠). وفي مقال بعنوان «ليلة سعيدة أيها اليأس.. والكآبة تكتنف إسرائيل» كتبه اتيان هابر (**يديعوت أحرونوت** ١١/ ١١/ ٢٠٠١) يشير إلى أن الجيش الأمريكي كان مسلحاً بأحدث المعدات العسكرية، ومع هذا يتذكر الجميع «صورة المروحيات الأمريكية تحوم فوق مقر السفارة في سايجون محاولة إنقاذ الأمريكيين و[عملائهم] المحليين في ظل حالة من الهلع والخوف حتى الموت» و كل لبيب بالإشارة يفهم. فماساداه لم تطل برأسها، وإنما الطائرة المروحية رمز المقدرة على الاستسلام وعلى الهروب الجبان في الوقت المناسب.

وعلى كل من الواضح أن أسطورة ماساداه أسطورة كاذبة في أساسها (تماماً مثل ادعاء أن فلسطين أرض بلا شعب) فهي قصة خرافية وأسطورية ملفقة ولا يمكن التدليل التاريخي على سلامة الاكتشافات الأثرية التي تستند إليها. والمصدر الوحيد للقصة هو المؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس وهو كاتب ذو خيال واسع لا يُعتد به مؤرخاً.

وأخيراً يلاحظ أن كتب التاريخ الصهيونية أسقطت كثيراً من العناصر التاريخية حتى تفرض على ماساداه معنى صهيونياً فتصبح القلعة رمزاً لوحدة الشعب اليهودي ولرفضه التام للاستسلام للأغيار. فمثلاً لا تذكر المصادر الصهيونية شيئاً عن الحرب الطبقية التي دارت رحاها بين فقراء اليهود وأثريائهم، أو أنه قبل حادثة ماساداه تم ذبح ما لا يقل عن اثني عشر ألف يهودي من أثرياء اليهود على يد إخوانهم من اليهود الفقراء.

وكذلك لا تذكر المصادر الصهيونية شيئاً عن القلاع اليهودية الأخرى مثل هيروديوم وماكايروس اللتين آثرتا الاستسلام والبقاء على الانتحار والموت لعلمها بأن الرومان لن يبيدوا من فيهما لأنهم لم يرتكبوا جريمة الإبادة ضد الحاميات الرومانية التي استسلمت لهم. هذا على عكس ما كان عليه سكان ماساداه الذين كانوا يعرفون أن مصيرهم هو الموت بسبب إبادتهم الحامية الرومانية التي استسلمت لهم، وكانت قلعة ماكايروس أقوى وأهم حصن بعد القدس.

كل هذا يقف دليلاً ناصعاً على أن المحاربين اليهود لا يفضلون الانتحار البطولي على الاستسلام والركوض الجبان نحو الطائرة الأمريكية المروحية (وهذا على كل أمر طبيعي بالنسبة إلى كل متوجه نحو اللذة)، وإذا كان لابد من اختيار رمز ما، فإن قلعة ماكايروس أصلح لذلك من ماساداه، وكل هذا يدعونا إلى رؤية حادثة ماساداه على أنها الاستثناء وليس القاعدة، وعلى أنها ليست ممثلة لما يسمى «التاريخ اليهودي» أو «العبقرية اليهودية»، وأن الوحدة القومية التي تتحدث عنها الصهيونية هي وحدة أسطورية وهمية.

- **العقل الإسرائيلي بعد الانتفاضة**

فلنحاول أن ندخل الوجدان الإسرائيلي لنرى ماذا يحدث فيه، متجاوزين تصريحات شارون الشيطانية والغارات الجهنمية التي تشنها الطائرات الصهيونية والمذابح الدموية التي تُدبرها آلة القمع الصهيونية ضد الفلسطينيين، والحملات الإرهابية التي تقوم بها القوات المسلحة الصهيونية، والأكاذيب المصقولة التي تروج لها آلة الإعلام الصهيونية، فلنتجاوز كل هذا وصولاً إلى استجابة المستوطن الصهيوني لما يحدث من حوله. ويمكن القول إن الحملات والغارات والمذابح تشفي غليله وتشبع شهوة الانتقام لديه، ولكن هل ينتهي الأمر عند ذلك؟

لو قرأنا الصحف الإسرائيلية بعناية لاكتشفنا أن الأمر مختلف تماماً، فشهوة الانتقام هي مجرد بعد واحد، إذ تظل هناك أبعاد أخرى، أهمها مدى إحساس الإسرائيليين بالأمن، هل تهدأ نفوسهم ثم ينعمون بأحلام هادئة بعد الغارات، أم أنهم يستخلصون نتائج مختلفة من المعارك الدائرة على الأرض التي اغتصبوها من أهلها؟ هل تقنعهم الحملات العسكرية أن فلسطين أرض بلا شعب كما أخبرهم زعماؤهم، أو أنه يمكن إخضاع شعبها كما وعدوهم؟!

فلنقرأ الصحف الإسرائيلية سوياً، ولكي نعرف ماذا يدور في خلد المستوطن الصهيوني، فلنتخيله وهو يقرأ **الجيروساليم بوست** (يوم ١٨ نوفمبر ٢٠٠١) عن قضية ذلك المستوطن الإسرائيلي الذي نزح عن إسرائيل واستوطن في الأرجنتين وحمل الجنسيتين الإسرائيلية والأرجنتينية. وحينما عرض على زوجته أن تلحق به في وطنه الجديد هي وابنها رفضت، فقام باختطافه. وحينما رفعت الزوجة قضية تطالب باسترداد ابنها، حكمت المحاكم الأرجنتينية لصالحه لأنَّ إسرائيل مكان غير

آمن، ومن ثم غير صالح لتنشئة الأطفال. لا شك في أن هذا المستوطن سيُصاب بالوجوم، لأن هذا سيذكِّره بوضعه الأمني. فهو قد طالع من قبل هذه الرسالة المفتوحة التي كتبها جندي احتياط إسرائيلي (ونشرت على موقع صحيفة **يديعوت أحرونوت** ٢٩ أغسطس ٢٠٠١ ونقلتها عنها الصحف الإسرائيلية الأخرى). والتي قال فيها بكل صراحة: «أخاف من الموت، بلا سبب كالأبله على الرمال النتنة المسماة قطاع غزة... لا أعرف أين أطير عندما يطلقون عليَّ النار... عدت من الانتفاضة الأولى، ومن حرب لبنان، ومن الانتفاضة الثانية. عدت بحالة جيدة، بمحض المصادفة... لا أؤمن بالمعجزات وبالحظوظ، ولا أعتقد أن لكل طلقة عنواناً، لكن أنا أيضاً ليس لي عنوان... إذا ما مت فسأموت كالأبله. أبله لم ينتبه له أحد. أبله إحصاءات. أبله عائلة ثكلى... أشعر بأن أولئك الجالسين في أبراجهم العاجية أيضاً لا يتابعون إطلاقاً ما يحدث لي ولكتيبتي، وربما ما يحدث لنا جميعاً. أشعر بأنهم لا يعيروننا انتباهاً... وأسأل نفسي إذا ما كنتما، أنتما الجالسيْنِ في برجيكما العاجين، رئيس حكومتي ورئيس أركاني، تعرفان فعلاً ما الذي يجب عمله كي أتمكن من العودة إلى البيت. وقبل هذا وذاك، أرجو أن تبيِّنا لي أنكما معنيان... بخوفي من الموت كالأبله؛ ذلك بأنه لم يعد من الممكن أن تقنعاني بأنه جيد أن نموت من أجل بلدنا... في غزة».

وسيقرأ هذا المستوطن الصهيوني في صحيفة هآرتس (٢ ديسمبر ٢٠٠١) أن «إيتي فحيمة، المستوطنة الصهيونية قُتلت الأسبوع الماضي، وأن زوجها كان قد أصيب [من قبل] بصورة بالغة في عملية شُنت بجانب بيتها في إحدى المستوطنات، وأن أولادها الأربعة أصبحوا أيتاماً من أمهم الآن»!

وحينما يطالع المستوطن الصهيوني مقال يوئيل ماركوس (هآرتس ١٣ نوفمبر ٢٠٠١) «الحقيقة المرة أننا لم ننجح في تصفية الإرهاب ودحره بالقوة» بل إن الفلسطينيين نجحوا «في زرع الرعب في صفوفنا... وفشلنا في إخافتهم» وأكبر دليل على ذلك: «أن الوزير داني نفسه وأبناء عائلته أخلوا بيتهم ... خوفاً على أمنهم، وذلك بناء على نصيحة جهاز الشاباك (جهاز الأمن الداخلي)... وقال رعنان كوهين، عضو المعارضة، إن الوضع خطير جداً «أنا أنظر بخطورة بالغة إلى الوضع الذي لا يستطيع فيه الوزراء أن يتجولوا بحرية داخل الخط الأخضر، وإن لم نشعر

نحن الوزراء بالطمأنينة، فكيف سيشعر الجمهور». واستمر كاتب المقال في القول: «إنجاز الفلسطينيين لا يكمن في إخافة وزير في إسرائيل. إنجازهم الحقيقي يكمن في أنهم وضعوا علامة على كل المستوطنين والإسرائيليين أهدافاً وألحقوا الأذى باقتصاد إسرائيل وبالسياحة الوافدة إليها، وزرعوا من خلال أعمالهم الإرهابية أجواء من الخوف والجزع في الوقت الذي لم تنجح فيه إسرائيل في زرع خوف مشابه في أوساطهم».

ثم يستأنف يوئيل ماركوس مقاله بقوله: «الحقيقة المرة هي أننا لم ننجح في تصفية الإرهاب ودحره بالقوة، ونحن لسنا وحدنا في هذا المجال. في القرن الأخير لم تنجح دولة في العالم في القضاء على الإرهاب القومي [أي المقاومة] بالقوة». ومن الواضح أن الكاتب يخاف من الحديث عن الانتفاضة لأنها مقاومة مشروعة، ولذا يتخفى وراء عبارة «الإرهاب القومي» إلا أنه يعني، في واقع الأمر، «المقاومة الشعبية»، ويستدعي، عن غير وعي، إلى عقل المستوطنين الصهاينة تاريخ حركات المقاومة في إفريقية وآسية، ولذا فالسؤال الحتمي يطرح نفسه على قارئ المقال: لِمَ تمثل الدولة الصهيونية، الاستعمارية الاستيطانية، استثناءً للقاعدة؟

وسيقرأ هذا المستوطن الصهيوني، فيما يقرأ، «أن جمهور المستوطنين (٦٣٪) يعتقد أن الدولة الصهيونية قد دخلت طريقاً مسدوداً، فهي لا يمكنها القضاء على الانتفاضة بالقوة، مما يعني أن الانتفاضة لن تنتهي». وفي الوقت ذاته لا يمكن التوصل إلى اتفاقات سلام مع الفلسطينيين. فكل محاولات وقف إطلاق النار باءت بالفشل (**الجيروساليم بوست** ٣٠/ ٩/ ٢٠٠١). أو كما يقول أمنون دنكنر في مقال نشرته جريدة **معاريف**: «أسوأ الأمور هو أن من الواضح أنه لم يعد ثمة حلول سحرية يمكن التوصل إليها بضربة واحدة. ولم يعد السلام الشامل والنهائي مُغرياً، بل ليس ثمة حلول عسكرية تتكلل بأناشيد المنتصرين. ومن الجهة الأخرى، لا يوجد أي إمكان للاستمرار في ظل الوضع الحالي من دون عمل شيء».

فالعنف (كما جاء في **يديعوت أحرنوت** ١٤ نوفمبر ٢٠٠١) ليس هو المشكلة، العنف هو أحد نتائج المشكلة، والمشكلة هي طموح الشعب الفلسطيني في السيطرة -مكان دولة إسرائيل- على كل الأرض الواقعة بين الأردن والبحر

المتوسط، وماذا عن الاقتراح الخاص بإنشاء دولة القطاع والضفة الغربية؟ سيقرأ هذا المستوطن أقوال مائير عوزائيل «لا توجد دولة مفصولة تماماً إلى جزأين، حتى لو أقمنا دولة بشطرين فإنها لن تبقى دولة بشطرين بل ستتطلع إلى حق الوصل بين الشطرين، وسيزداد العنف المجنون».

لقد وصل العقل الإسرائيلي مرةً أخرى إلى حالة «إين بريرا». وهي عبارة تعني «لا خيار»، وكانت تعني في الماضي أن المستوطن الصهيوني محكوم عليه بالدخول في حروب مستمرة، الواحدة تلو الأخرى لمدة طويلة، ولكن كان الاعتقاد الصهيوني الراسخ أن ثمة مخرجاً في نهاية النفق المظلم. ولكن العبارة في الوقت الحاضر تعني أنها حالة مستمرة من الحرب والعنف لن تؤدي إلى شيء.

- **مصيدة الموت**

ما لم يدركه كثيرون في الوقت الحاضر أن نوعية المستوطن الصهيوني في غزة والضفة الغربية تختلف تماماً عن نوعية المستوطنين في الماضي، فالمستوطن الجديد شخص مُرفَّه يبحث عن راحته ولذته ومنفعته. وقد سميت هذا النوع من الاستيطان عام ١٩٨٤ «الاستيطان مكيَّف الهواء». وقد فوجئت بالمعلِّق العسكري الإسرائيلي البارز زئيف شيف (هآرتس ١٧/٦/١٩٨٦) يُطلق عليه اصطلاح «الأمن ديلوكس» أو «الأمن الفاخر»، فالمستوطنون الصهاينة الجدد في الضفة والقطاع لا يريدون أن يحملوا البندقية أو المحراث «فهم يطالبون الجيش الإسرائيلي وأجهزة الأمن الأخرى أن يضمنوا لهم نوعاً من العيش الممتاز في المناطق المحتلة، وأن تكون حياتهم مكفولة أمنياً. وطبيعة الأمن الذي يطلبونه بالمواصفات التي يطلبونها ليست موجودة في أي مكان آخر في إسرائيل، وإسرائيل بأكملها لا تتمتع بمثل هذا الأمن الفاخر» (هآرتس ١٧/٦/١٩٨٦). وقد بينت هآرتس (٣٠/١٢/١٩٨٧) أن توطين مستوطن صهيوني في النقب يكلف الدولة ٨٢٠ دولاراً، بينما تبلغ تكلفة توطينه في مستوطنة في الضفة الغربية ٢١٠٠ دولار، وهذه التكلفة المباشرة لا تغطي التكاليف غير المباشرة وغير المنظورة من لزوم الاستيطان الفاخر.

ويبدو أنه مع تصاعد المقاومة عادةً ما تعيد قطاعات كثيرة من العدو الصهيوني حساباتها بخصوص الاستيطان في الضفة الغربية وغزة. ففي انتفاضة ١٩٨٧ انطلق السخط على الاستيطان المكيَّف الهواء من عقاله، فوصف رابين المستوطنين بأنهم

يشكلون عبئاً على المؤسسة العسكرية (**الجيروساليم بوست ٤/ ٢/ ١٩٨٨**). وقال أحدهم إن الاستيطان هو «الصنبور الذي لا يُغلق». وكتب يوسي سريد مقالاً في صحيفة **هآرتس ١١/ ٢/ ١٩٨٨**) وصف فيه المستوطنات بأنها ثقوب في الرأس «وأنها عبء». أما المهمة الدفاعية القتالية - وهي مهمة المستوطنات في المحل الأول في الأيديولوجية الصهيونية الكلاسيكية - فلا وجود لها، ومساهمة مستوطنات الضفة في الدفاع عن أمن إسرائيل «يشبه ما تفعله الجدة الخائفة»، أي البكاء والصياح. والأبراج في مستوطنات جوش أيمونيم «هي برج طائر» مهتز «تستطيع إصبع صغيرة أن تطيح به». ووجود ٥٠ - ٦٠ ألف يهودي (عدد المستوطنين الصهاينة آنذاك) بين مليون ونصف فلسطيني في الضفة والقطاع سيثير مشاكل عويصة للجيش، خاصةً في حالة الحرب، كما حدث بالنسبة لمستوطنات الجولان في السبعينيات! إن هؤلاء المستوطنين ليسوا مصدر نفع للجيش الذي يضطلع بكل أو معظم الوظائف التي كان يضطلع بها المستوطنون قبل عام ١٩٤٨.

ومع توقيع اتفاقية أوسلو تراجع السخط على الاستيطان واستقرت الأمور، واستمرت المؤسسة الصهيونية في التهام الأرض وفي تشييد المستوطنات. وبدأ المستوطنون يتحدثون عن مرحلة انتعاش، وأصدر المجلس الإقليمي لمستوطنات غور الأردن خريطة سياحية لا يظهر علها قرى أو مدن عربية. وتقوقع الصهاينة مرة أخرى داخل وهم أن فلسطين «أرض بلا شعب».

ولكن مع اندلاع انتفاضة الأقصى والاستقلال عاد الهجوم على المستوطنات مرة أخرى، فقد وصف أهارون مجيد تصاعُد السخط على الاستيطان في الضفة الغربية والقطاع في هذه الكلمات التالية: «منذ أن توالت هذه العمليات [الفدائية] التي توقع الضحايا بالعشرات، لم يمض يوم ولا ساعة لم توجه فيها إدانات وانتقادات للمستوطنين، من على كل منصة ومن كل ميكروفون. دم القتلة في رقبتهم. كُتّاب المقالات في الصحف لا يضيِّعون أية فرصة للتشهير بهم والبصق في وجوههم حتى حين يكتبون عن آخر فيلم شاهدوه أو عن معرض رسم في المعرض الفلاني. والمحللون الاقتصاديون أيضاً يعزون كل المشاكل التي ألمت بنا (تخفيض الفائدة، ارتفاع سعر الدولار، والفقر، والبطالة وغير ذلك) إلى المستوطنات التي تمص دم الدولة». (**يديعوت أحرونوت ١٣/ ١/ ٢٠٠٢**).

ويصف يهودا ليطاني (يديعوت أحرونوت ٢٧/١٢/٢٠٠١) المستوطنين بأنهم «الجمهور المفضل في دولة إسرائيل. الابن العزيز لكل الحكومات التي لم تجرؤ على المس بميزانية المستوطنات، ولذا بلغ استثمار الحكومات المختلفة في مستوطنات الضفة الغربية منذ عام ١٩٦٧ بعشرات المليارات من الدولارات أنفقت في ميزانيات مباشرة (بناء وسكن وتعليم وأمن وصناعة وتجارة)، وغير مباشرة (خدمات دينية ورفاه اجتماعي وثقافة وسياحة وغير ذلك)، وحراسة جنود الخدمة الإلزامية والاحتياط هي مجرد جزء من النفقات الهائلة التي يتم إنفاقها، ويحظى كثير من المستوطنين بإعفاءات من ضريبة الدخل لأنهم سكان منطقة المواجهة.

أما عكيفا الدار (هآرتس ٤/٢/٢٠٠٢) فهو يشير لهم بأنهم «أقلية صغيرة، لا تلعب أي دور حتى في محاولة تحقيق التوازن الديموجرافي مع العرب. فعدد المستوطنين، بالرغم من كل الامتيازات التي يحصلون عليها، يساوي من حيث الحجم نسبة التكاثر عند الفلسطينيين خلال عامين». كما أنهم مجرد مرتزقة جاؤوا لتحقيق مستوى معيشي مرتفع «فأقل من ٣٠ ألف عائلة من أصل نحو مئة ألف عائلة في المستوطنات استقروا فيها لدوافع أيديولوجية». ويصف غي باخور (يديعوت أحرونوت ٢٩/١/٢٠٠٢) المستوطنين في غزة بأنهم «أقلية هامشية: ثلاثة آلاف شخص يقيمون بين مليوني فلسطيني ويحتجزون نحو ثُلث مساحة القطاع».

ونشرت هآرتس (١٦/٢/٢٠٠٢) أن المستوطنات في الضفة الغربية تستنزف الاقتصاد، وتقوِّض التضامن الاجتماعي، وتخلق فجوات ضخمة بين المستوطنين، الذين يحصلون على كثير من المساعدات من جهة، وبين بقية المواطنين الذين يعيشون خلف الخط الأخضر من جهة. وأضاف المقال أن اليهود الذين يعيشون في الأراضي المحتلة قبل وبعد ١٩٦٧ يشكلون نسبة ٥٣٪، ولكنها ستنخفض إلى ما بين ٤٣- ٤٨٪ عام ٢٠٢٠، مما يعني أن من يريد أن يعيش في دولة ديمقراطية يهودية عليه أن يذهب إلى أن الانسحاب من الأراضي المحتلة (بكثافتها السكانية العربية) أمر حتمي. ويُختتم المقال بتأكيد أن الاحتلال لا يقوض مقدرة دولة إسرائيل على حماية نفسها وحسب، ولا موقفها الأخلاقي أمام العالم فقط، وإنما يقسم المجتمع الإسرائيلي نفسه إلى قسمين.

وبعد تهميش المستوطنات، وبعد إظهار تكلفتها الاقتصادية، يتحدثون في الصحف الإسرائيلية عن تكلفتها السياسية، فا لاستيطان هو مجرد «ورم» (هآرتس ١/ ٢/ ٢٠٠٢)، والمستوطنات هي «مصيدة الموت» (هآرتس ٢/ ٩/ ٢٠٠١)، وهي مصنع الإرهاب» (معاريف ٣/ ١٢/ ٢٠٠١). لكل هذا فإن إعادة المستوطنين (أي فك المستوطنات) ستكون أقل ثمناً من إبقائهم في أماكنهم (عكيفا الدار، هآرتس ٤/ ٢/ ٢٠٠٢).

ورفض الاستيطان والمطالبة بفك المستوطنات يعني سقوط بند أساسي من الإجماع الصهيوني، فالصهيونية -كما أكد بن جوريون أكثر من مرة - هي الاستيطان. وفي أثناء انتفاضة ١٩٨٧، حين بدأ الإجماع الصهيوني بخصوص الاستيطان يتساقط، حذر إسرائيل هاريل المتحدث باسم المستوطنين من أنه إذا حدث تقهقر ما من جانب إسرائيل (أي شكل من أشكال الانسحاب والتنازل)، فهو لن يتوقف عند الخط الأخضر (حدود ١٩٤٨) إذ سيكون هناك انسحاب روحي يمكن أن يتهدَّد وجود الدولة ذاتها (الجيروساليم بوست ٣٠/ ١/ ١٩٨٨). وهو تحذير قد يكون فيه قدر من المبالغة، ولكنه يحتوي أيضاً على قدر كبير من الحقيقة، ففي الحروب القومية (كما يقول إسرائيل هاريل نفسه)، تلعب الروح المعنوية (أو الجهادية) الدور الأساسي، وروح الإسرائيليين المعنوية في حالة تراجع، فهل ستصدق نبوءة هذا المتحدث الصهيوني؟

وهناك سؤال آخر: هل الاعتدال الصهيوني مرتبط بالمقاومة العربية، فكلما صعَّد الفلسطينيون من مقاومتهم، عادت قطاعات من التجمع الصهيوني إلى رشدها وتجاوزت الأوهام الصهيونية الخاصة بأن فلسطين أرض بلا شعب؟ ومن ثم هل التطرف الصهيوني مرتبط بالتخاذل العربي؟ ومن ثم فإن إيقاف الانتفاضة التي يطالب بها البعض لن يهدئ من روع الصهاينة بل سيزيدهم شراسة وتطرفاً؟

هذه أسئلة لابد أن نطرحها على أنفسنا..

- **آين بريرا - لا خيار**

لحظات نادرة تلك التي يعبر فيها الوجدان الصهيوني عن مخاوفه وقلقه، وعما أسميه «الهاجس الأمني»، الذي يرى الصهاينة أنه يعود إلى تجربة اليهود مع

الاضطهاد على يد شعوب الأرض والطرد من أوطانهم، وهي التجربة التي وصلت إلى ذروتها مع الإبادة النازية لليهود. أما أعداء اليهود فهم يقولون إن الهاجس الأمني سببه جبن الشخصية اليهودية وحرصها الشديد على الحياة الدنيا! ومثل هذه الأطروحات تفترض وحدة اليهود وأنهم كيان مستقل عمّن حولهم.

ولكننا لو دققنا النظر لوجدنا أن الهاجس الأمني عند المستوطنين الصهاينة لا يختلف عن الهاجس الأمني الذي يشعر به كل المستوطنين في كل الجيوب الاستيطانية، ومصدره هو الخوف من السكان الأصليين الذين اغتُصبت أرضهم، والذين قد يهبون في أية لحظة للمطالبة بها ولطرد المغتصبين. هذا ما حدث للمستوطنين الأمريكيين البيض في أمريكة الشمالية، وهذا ما حدث لهم في أسترالية ونيوزيلندة والجزائر وجنوب إفريقية. انظر على سبيل المثال لهذه المقطوعة الوصفية: «كان الرجال يمسكون بالمحراث بإحدى أيديهم والبندقية بالأخرى، وكانوا يعدون من المحظوظين إن لم يتلف عدوهم المتوحش نتاج عملهم الشاق إما في الحقول أو في مخزن الغلال».

إن هذه المقطوعة تقدم لنا صورة مزارع مسلح يعمل فيما أسميه «الزراعة العسكرية»؛ أي الزراعة الاستيطانية، وهي الزراعة التي تختلط فيها مهنة الزراعة بمهنة القتال، فهي زراعة تتم على أرض مغتصبة، يقف أصحابها الأصليون على حدودها يقرعون الأبواب بلا هوادة.

والمقطوعة السابقة مقتبسة من قصة قصيرة أمريكية «دفن روجر ملفن» لناثانيال هوثورن، كتبها في منتصف القرن التاسع عشر، ويصف فيها المستوطنين البيض في أمريكة الشمالية، ولكنها أيضاً تصلح لوصف المستوطنين الصهاينة والمؤسسات الإسرائيلية الزراعية العسكرية مثل الكيبوتس.

الهاجس الأمني إذن ليس له جذور يهودية وإنما جذوره استيطانية. وهذا ما أدركه بعض أعضاء النخبة السياسية الحاكمة، وكثير من الأدباء الصهاينة (والخطاب الأدبي [على عكس السياسي] يفصح عن مكنونات النفس البشرية وهواجسها لأنه يعبر عن كيان الإنسان ولا وعيه. أما في حالة الخطاب السياسي، فالمتحدث عادةً ما يأخذ حذره، ويراقب كلامه فلا يُظهر ما يبطن).

وقد فعل موشيه ديان عكس هذا تمامًا، في الخطاب الذي ألقاه في إبريل ١٩٦٥ أمام قبر صديقه الشاب روي روتبرج، ضابط الأمن في إحدى الكيبوتسات (ناحال أوز)، والذي لقي مصرعه على يد الفدائيين الفلسطينيين. وكلمة ديان تستحق أن نقتبسها بأسرها، فهي لحظة صدق نادرة:

«فجر أمس قتل روي، أعماه هدوء الصباح الربيعي ولم ير هؤلاء الذين طلبوا حياته المختبئة خلف الأحراش.

«دعونا اليوم لا نلقي اللوم على القتلة، ما الذي يمكن أن نقوله ضد كراهيتهم البشعة لنا؟ ثماني سنوات الآن وهم يقيمون في معسكرات اللاجئين في غزة، ويرون بأم أعينهم كيف ننقل لوطننا الأراضي والقرى التي امتلكوها وامتلكها أجدادهم من قبل.

«علينا أن نطلب دم روي من بيننا وليس من بين عرب غزة، كيف أغمضنا أعيننا ورفضنا أن ننظر بواقعية إلى مصيرنا، ونرى قدر جيلنا بكل وحشيته؟ هل يمكن أن ننسى أن هذه المجموعة من الصغار، التي تقيم في ناحال أوز، تحمل على أكتافها بوابات غزة الثقيلة؟

ما وراء أحراش الحدود يبرز بحر من الكراهية والثأر: ثأر يتطلع لليوم الذي سيقوم فيه الهدوء بكسر حدة حذرنا، اليوم الذي نذهب فيه للسفراء المنافقين الذين يطالبوننا بإلقاء سلاحنا، علينا، وعلينا وحدنا، يصرخ دم روي من جسده المغدور، لأننا أقسمنا آلاف المرات أن دماءنا لن تُسفك هدرًا. إلا أنه بالأمس فقط قاموا بإغوائنا، وسمعنا وصدقنا.

«دعونا اليوم نراجع أنفسنا، نحن جيل الاستيطان وبدون عمود الصلب وفوهة البندقية لن يمكننا زراعة شجرة أو بناء بيت، دعونا لا نخشى الاطلاع على الكراهية التي تستهلك وتملأ حياة المئات (الآلاف) من العرب الذين يعيشون حولنا، دعونا لا نغمِضُ طرفنا حتى لا تضعف أسلحتنا. هذا هو نصيب جيلنا، هذا خيارنا -أن نكون مستعدين ومسلحين، قساة خشنين- وإلا سقط السيف من يدنا وقصرت أعمارنا.

«إن روي الشاب الذي رحل من تل أبيب ليبني بيته عند بوابات غزة ليكون طليعة لشعبه - أعمى النور في قلبه بصره، فلم ير وميض السيف، أصم الحنين للسلام أذنيه ولم يسمع صوت القاتل يترصده، وأثبتت بوابات غزة أنها ثقيلة على كتفيه، وتغلبت عليه».

والكلمة حزينة ولكنها ليست مأساوية، وإنما قدرية، وهي ترى أن الإسرائيلي هو الضحية، وأن العرب هم المعتدون، ولكن مهما كان الأمر ساد بين الإسرائيليين اصطلاح «آين بريرا»، أي لا خيار، أي أن على المستوطنين الصهاينة أن يحاربوا -يحاربوا دائمًا- يحاربوا أبدًا ضد عدو لم يهدأ له بال، لا في عام ١٩٤٩ ولا في عام ١٩٥٩ ولا في عام ١٩٩٩.

ولا شك أن الهاجس الأمني والإحساس بالقدرية وخيبة الأمل قد تعمق بعد انتفاضة الأقصى والاستقلال. ألم تكن نقطة الانطلاق الصهيونية هي أن إسرائيل «أرض بلا شعب»، فما بال هؤلاء الرجال والأطفال والنساء والشيوخ يلقون بالحجارة، بل ويطلقون النار، عليهم، ألم يكن من المفروض أن يكونوا غائبين؟

- **الخريطة الإدراكية الإسرائيلية في الوقت الحاضر**

لا تنقل وسائل الإعلام العربية سوى الأخبار السياسية وأحياناً الاقتصادية عن الدولة الصهيونية، ونادراً ما تنقل أخباراً اجتماعية. ولكن ماذا عن الخريطة الإدراكية الإسرائيلية، أي كيف يرى الإسرائيليون أنفسهم وحاضرهم ومستقبلهم، وماذا عن مشاعرهم ووجدانهم وأحلامهم ودوافعهم؟ ما هي طبيعة إدراكهم للفلسطينيين ولأنفسهم؟ كل هذه الأسئلة لا تجيب عليها التغطية السياسية والاقتصادية المجردة والعامة . فكثير ممن يرصدون التجمع الصهيوني لا يدركون أن رصد سلوك الإسرائيليين دون إدراك لدوافعهم الداخلية ورؤاهم وما يدور في عقولهم هو رصد لحركات لا دلالة لها، أو حركات يمكن أن نفرض عليها أي دلالة. ولذا أذهب إلى ضرورة دراسة دوافع الإسرائيليين ورؤاهم وتوقعاتهم من أنفسهم ومن مجتمعهم. فالإنسان، في معظم الأحيان، لا يستجيب للدافع أو المؤثر المادي المباشر (كما تفعل الحيوانات) وإنما يستجيب لهذا الدافع أو المؤثر كما يدركه وبمقدار ما يسقط عليه من أساطير وأوهام.

وكي نصل إلى بعض ملامح الخريطة الإدراكية التي تحدد علاقة المستوطنين الصهاينة بواقعهم وبالفلسطينيين ثم سلوكهم، سنطالع سوياً مقال سلمان ناطور (وهو من عرب ١٩٤٨ ومدير معهد إميل توما للدراسات الفلسطينية والإسرائيلية). عنوان المقال «هل حقاً ما فعلناه بكم؟» ويتناول بعض الأساطير الصهيونية، من مثل أن فلسطين أرض بلا شعب، وأن شعبها جماعات من البدو غير مستقرة، تركت أرضها لا بسبب الإرهاب الصهيوني، وإنما لأسباب مختلفة من بينها أنهم باعوا أرضهم أو أن القادة العرب هم الذين طلبوا من الفلسطينيين أن يغادروا أرضهم حتى يتم تطهيرها من اليهود، ومن ثم فالصهاينة لم يرتكبوا جرماً أو إثماً. وقد لاحظ سلمان ناطور أن الأمر آخذ في التغير.

ولكن، ما نسبة هذا التغير؟ يبدو أنها نسبة ضئيلة للغاية، ففي استطلاع للرأي قام به المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار) حول «مواقف اليهود في إسرائيل إزاء مواضيع مختلفة متعلقة بالنزاع الإسرائيلي الفلسطيني» تبين أن ٣٪ فقط لا غير من مجموع الذين شملهم الاستطلاع يقرّون أن الدولة الصهيونية ارتكبت إثماً ضد الفلسطينيين، بينما نجد أن ٥٧٪ يدعون أن الفلسطينيين أخطؤوا التصرف فألحقوا الضرر بأنفسهم، وهذه صياغة تعني التهرب من أي مسؤولية خلقية. بل إن ١٨٪ قالوا إن الفلسطينيين تعرضوا لما يستحقون، وهذه إجابة يصعب فهمها. وهناك ١٦ ٪ لجؤوا لصياغة مبهمة تعترف بوقوع إثم وتتهرب من المسؤولية الأخلاقية في الوقت ذاته، إذ قال ١٦٪ أنه تم ارتكاب إثم ضد الفلسطينيين بغض النظر عن المسئول عنه! والنسبة الباقية لم تجب على أي من الأسئلة السابقة.

وقد توصل استطلاع الرأي الذي سبق الإشارة إليه أن ٧٤ ٪ من كل المستوطنين الصهاينة يرون أن أهم عوامل بقاء إسرائيل هو تفوقهم العسكري، أي أنهم يرون أن العامل الأمني هو أهم العوامل طُراً. وفي استطلاع آخر للرأي قال ٤٨٪ ممن شملهم الاستطلاع إنَّ أهم عوامل بقاء إسرائيل هو هجرة يهود العالم إليها (قالوا هذا وهم يعلمون تمام العلم أن يهود العالم، خاصة يهود الولايات المتحدة الذي يشكلون غالبيتهم، لا ينوون الهجرة). وقد قال ٤٧٪ إن أقامة علاقات طبيعية مع الفلسطينيين والدول العربية والاندماج الاقتصادي والثقافي في الشرق الأوسط هو أهم العوامل. وقد يبدو وكأن هناك تناقضاً في هذه الإجابات،

ولكن الأمر غير ذلك، فهجرة يهود العالم إلى الدولة الصهيونية هي جزء من الحل الأمني، لأنها تعني وصول مادة بشرية قتالية ورأسمال وكفاءات تنعش الاقتصاد الإسرائيلي. أما مسألة الاندماج الاقتصادي والثقافي فلم يبين الاستطلاع شروط هذا الاندماج. ولكن يمكن للباحث أن يخمن، فالاندماج لابد وأن يتم حسب الشروط الصهيونية، والتي تعني في واقع الأمر الرضوخ والاستسلام للخريطة الإدراكية والشروط العنصرية والإسرائيلية.

وموقف المستوطنين الصهاينة من المستوطنات في الضفة الغربية يتفاوت حسب موقعهم الجغرافي. فالمستوطنون في الأراضي الفلسطينية التي احتلت قبل عام ٦٧ يختلف عن موقف المستوطنين في الأراضي الفلسطينية التي احتلت بعد ١٩٦٧، فالجميع يدعي بأنه يشعر بالتعاطف نحو المستوطنين في الضفة الغربية والقطاع ولكن من الواضح أنه تعاطف أجوف، لأنه حين ينتقل الحديث إلى الأعباء الاقتصادية الناجمة عن الاستيطان فإن الأمر يختلف تماماً (ومصدر هذه الإحصائيات هو هآرتس ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٣) ففي استطلاع أجراه يائير شيليج وجد أن ٥٥٪ ممن شملهم الاستطلاع يرون أن المستوطنات تشكل عبئاً اقتصادياً وأنها ليس لها أهمية أمنية، وأنه يجب أن تلغى كل المزايا الاقتصادية الممنوحة للمستوطنين.

وبينما نجد أن ثمة انقساماً بين الصهاينة بخصوص فك المستوطنات (٤٥٪ عارضوا فك المستوطنات ووافق ٥١٪) وبخصوص إقامة دولة فلسطينية في الأرض التي احتلت عام ٦٧ (٣٤٪ وافقوا، ٦٥٪ عارضوا) فإن مثل هذا الانقسام يتلاشى تماماً عند مناقشة حق العودة . إذ لا يوافق سوى ٢٪ على الاعتراف بهذا الحق، ويميل ٥٪ إلى الموافقة، ويعارضه ٨٤٪ بالإضافة إلى ٧٪ يميلون إلى المعارضة.

والموقف نفسه الرافض لحق العودة يتضح في مقال أمنون دنكنر عن مقال كتبه صحفي إسرائيلي (يسمى عاموس شوكين) يدعو للزواج المختلط بين الإسرائيليين والعرب طريقةً لتحقيق السلام في الشرق الأوسط (معاريف ٨ مايو ٢٠٠٥) ويعترض أمنون دنكنر على هذه الدعوة وينبه إلى مخاطرها على التجمع الصهيوني. فيشير إلى حق العودة، والرؤية الفلسطينية الراسخة أن رحم المرأة الفلسطينية سيغرق في نهاية الأمر الأكثرية اليهودية، ويضيف مستنكراً: «كيف يمكن اقتراح أنه

من أجل الحفاظ على الأكثرية اليهودية بعد ذلك فإن جماهير العرب (الذين يقترح شوكين عليهم بسخاء الدخول هاهنا والاستيطان معنا) لن تكون لهم حقوق مستوطنين وإنما حقوق سكان وحسب. فحتى لو لم يكونوا هم وأولادهم بعدهم على مدى الأجيال مستحقين للمواطنة، فإنهم عندما سيكونون أكثرية واضحة في البلاد، فلمن ستكون البلاد؟ هل للأقلية من مواطنيها، أم للأكثرية من سكانها؟

«كل هذا يهين الوعي. لكن هناك إهانة أكبر: إن الشعب اليهودي في العالم يتآكل بمعدل يسبب الذعر بزواجات مختلطة وبابتعاد عن اليهودية، ونجد ناشر صحيفة النخبة المثقفة الإسرائيلية يؤيد الذوبان، ويراه الطريقة المثلى لتحقيق السلام.

«والإهانة الأكثر خطراً هي تلك التي يجب أن يشعر بها من بيننا أولئك الذين يشاركون شوكين إرادته السلمية مع الاستعداد لتقديم بعض التنازلات الأليمة. وهنا يتضح لهم بأنهم عقدوا حلفاً مع الشيطان، وأنَّ شريكهم هذا يدبر، في جوهر الأمر، بالضبط كما يدبر الأسوأ من أعدائنا، أن يجلب تحت غطاء السلام، نهاية وجود إسرائيل دولةً يهودية».

ولنلاحظ ما يلي:

١- إن الهاجس الديموجرافي جزء أساسي من الخريطة الإدراكية الصهيونية.

٢- إن نهاية وجود إسرائيل دولةً يهودية تطارد الوجدان الإسرائيلي بحدة، ويعيد طرح نفسه بمناسبة وبغير مناسبة.

٣- إن رفض حق العودة هو العنصر الأساسي والثابت في الخريطة الإدراكية الصهيونية.

• في الاعتدال والتطرف الصهيونيين

يقول بعض دعاة المهادنة والاستسلام من الحرب إن جوهر الصراع العربي الإسرائيلي نفسي، وإنه لابد من اجتياز الحواجز النفسية والفكرية بيننا وبين المستوطنين الصهاينة، وهذا لن يتأتى إلا بإدخال الطمأنينة إلى قلوبهم وإشعارهم بالأمن، وإن فعلنا ذلك سيسود شكل من أشكال الاعتدال بينهم بدلاً من التطرف

الذي اكتسحهم. وحينما يحدث ذلك سيجلس ممثلو المستوطنين إلى مائدة المفاوضات ويتباحثون مع الفلسطينيين بشكل عقلاني، حتى يصل الجميع إلى صيغة معقولة ترضي كل الأطراف المتنازعة.

وما يتجاهله هؤلاء أن الصراع العربي الصهيوني لم ينشأ بسبب حالة نفسية أو حالة عقلية وإنما لأسباب موضوعية ملموسة، وهي أن كتلة بشرية غريبة وافدة جاءت إلى الأرض الفلسطينية فاستولت عليها وطردت شعبها، ولا يمكن إصلاح الوضع إلا بإرجاع الأرض إلى أصحابها وعودة الشعب الذي طُرد.

ولكن يظل السؤال يطرح نفسه: ما هو تفسير هذا التطرف الصهيوني المتزايد؟ وما سر هذا التأييد الشعبي العارم لشارون؟ لِمَ لَمْ يولِّد الخوف من الهجمات الاستشهادية قدراً من الاعتدال؟ أليس انتخاب شارون دليلاً قاطعاً على صدق مقولة دعاة وقف الانتفاضة، فشارون المتطرف حل محل باراك المعتدل بسبب الهجمات الاستشهادية؟

وللإجابة على هذه الأسئلة لابد أن نشير إلى أن المستوطنين يدركون السكان الأصليين من خلال ثلاثة أنماط أساسية: الإنسان الغائب - الإنسان الهامشي - الإنسان الحقيقي. وهذه الأنماط ليست ثابتة أزلية، وإنما تتغيَّر بتغيُّر الظروف، شأنها في هذا شأن أية خريطة إدراكية. فموازين القوى قد تساهم في تقويض نمط إدراكي، كما قد تساهم في دعمه. ويمكن تلخيص تحولات الخريطة الإدراكية الاستيطانية على النحو التالي:

١- في حالة اتجاه موازين القوى لصالح المستوطنين وضد صالح السكان الأصليين، فإن هذه الموازين ستدعم الإدراك الاستيطاني العنصري المتحيِّز. وسيرى المستوطنون أن البنية الاستيطانية/ الإحلالية قد حققت لهم الأمن الذي يبغونه والمستوى المعيشي المرتفع الذي يتطلعون إليه. وسيساهم ذلك في تحويل الواقع التاريخي إلى شيء هامشي باهت، ويتدعم البرنامج السياسي الاستيطاني/ الإحلالي بوصفه مرشداً للتعامل مع الواقع، ويُهمَّش السكان الأصليين إلى أن يغيبوا تماماً من شاشة الوجدان الاستيطانية ومن خريطة المستوطنين الإدراكية، أي يتحول السكان الأصليون من بشر حقيقيين لهم حقوق إلى كائنات هامشية؛ ثم كائناتٍ لا وجود لها.

٢- في حالة اتجاه موازين القوى لصالح السكان الأصليين وضد صالح المستوطنين، يتولد قدر من الواقعية لدى المستوطنين، إذ يكتشفون أن البنية الاستيطانية/ الإحلالية لم تحقق لهم الأمن الذي يريدونه ولا الرفاهية التي يبغونها، ومن ثم تظهر على شاشة وجدانهم صورة السكان الأصليين، وتتعدل خريطتهم الإدراكية تدريجياً. وتتناسب درجة التحول تناسباً طردياً مع حجم المقاومة ودرجة تزايدها. وتساهم عملية إعادة صياغة الإدراك في تبديد الأوهام والأساطير الأيديولوجية. أي إن ميل موازين القوى لصالح السكان الأصليين يؤدي إلى ترشيد العقل الاستيطاني.

ولكن تحلل الخريطة الإدراكية يُعد من أكثر التجارب إيلاماً، ولهذا يُلاحظ أنه قبل الوصول إلى مرحلة الواقعية والاعتدال يمر المستوطنون عادةً بمرحلةٍ من التطرف والوحشية دفاعاً عن خريطتهم الإدراكية، ولا تستمر هذه المرحلة فترةً طويلة في المعتاد إن استمرت موازين القوى لصالح السكان الأصليين من خلال استمرار مقاومتهم.

ويمكن أن نفسّر التطرف والاعتدال في الجيوب الاستيطانية في ضوء الاحتمالين السابقين. فإن ظل السكان الأصليون ساكنين دون أن يتحدوا الرؤية الإدراكية الاستيطانية أو موازين القوى السائدة، أصبح من الممكن قبولهم كمّاً متخلفاً هامشياً غائباً، ويصبح من الممكن إظهار التسامح تجاههم، بل ومنحهم بعض الحقوق مثل «الحكم الذاتي» (وهنا تكمن المفارقة). أما إذا تحرك السكان الأصليون لتأكيد حقوقهم ورفضوا الهامشية المفروضة عليهم وتحدوا الرؤية الاستيطانية وبدؤوا في تغيير موازين القوة لصالحهم، فإنهم يصبحون مصدر خطر حقيقي ومن ثم يتعين ضربهم ويصبح التسامح معهم أمراً غير مطروح، ويتزايد التطرف والبطش.

وهذا ما حدث في جنوب إفريقية، فمع تصاعد مقاومة السكان الأصليين للمستوطنين البيض لجأ هؤلاء للبطش وضرب المقاومة بيدٍ من حديد على الطريقة الشارونية. ولكن المقاومة استمرت بل وتصاعدت رغم بطش النظام العنصري، إلى أن اكتشف المستوطنون البيض عدم جدوى الإرهاب المؤسسي، وانتهى الأمر بسقوط النظام العنصري. أي أن تطرف المستوطنين هو مؤشر على أن الرسائل

المسلحة التي يرسلها السكان الأصليون بدأت تصل إليهم، وأن التطرف والشراسة ليسا سوى المرحلة قبل الأخيرة التي تسبق تحطم الأسطورة والرضوخ للأمر الواقع.

ولعل هذا هو القصور الأساسي في محاولات التوصل للسلام حسب الشروط الصهيونية. فقد ظن مهندسو هذه الاتفاقيات أنهم عن طريق رفع رايات السلام والاعتدال والحديث الهادئ على مائدة المفاوضات سيُغيِّرون صورة العربي في وعي العالم ويهدئون روع الصهاينة ويقنعونهم بأنهم معتدلون وراغبون في السلام، وأن هذا سيخلق دينامية تفرض على الحكومة الإسرائيلية أن تصل إلى اتفاق عادل أو شبه عادل. ولكن الذي يحدث هو عكس ذلك تماماً. فكلما ازداد «الاعتدال» العربي زاد التطرف الصهيوني وزاد التمسك بالمستوطنات وبكل شبر من الأرض المحتلة. والعكس بالعكس، فكلما زاد «التطرف» العربي، أي المقاومة والحوار المسلح، ازداد الصهاينة رشداً واستعداداً لتَقَبُّل فكرة السلام الذي يستند إلى العدل والمقررات الدولية، بدلاً من السلام حسب الشروط الصهيونية، أي الاستسلام الكامل.

والشيء نفسه ينطبق على دعاة التطبيع، فهم يفترضون أن عملية التطبيع عملية نفسية، غير مدركين أنها عملية بنيوية (أي إنها مرتبطة ببناء الدولة الصهيونية، والبناء بطبيعته لا علاقة له بالحالة النفسية أو العقلية). إن بنية إسرائيل ذاتها بنية غير طبيعية، ولذا فالتطبيع معها غير ممكن.

- **«خريطة الطريق» والمفهوم الإسرائيلي للسلام**

لم تكف الإدارة الأمريكية عن الحديث عن عزمها طرح خطتها لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي، والتي أصبحت تُعرف باسم «خريطة الطريق»، سواء قبل أن تبدأ الولايات المتحدة ومن خلفها بريطانية الخطوات العملية لغزو العراق، أو بينما كانت الآلة العسكرية الأمريكية البريطانية تصب حممها على المدن العراقية، وحتى بعد أن بدا في الأفق أن العمليات العسكرية قد شارفت على الانتهاء. ورغم عدم توفر معلوماتٍ كافية عن تفاصيل هذه الخطة المنتظرة، ورغم أن مجرد طرحها في سياق توسيع الهيمنة الأمريكية والتأكيد على التفوق الاستراتيجي لإسرائيل في المنطقة هو أمر يدعو إلى التريث على الأقل في الحكم عليها، فقد تلقفها البعض

في العالم العربي على أنها «حبل النجاة» الأخير والسبيل الوحيد لإحلال السلام وإنهاء الصراع.

وإذا كان هذا التلهف العربي الرسمي للتسوية يبدو مفهوماً في ظل مناخ الهزيمة، فإن الأمر بالنسبة إلى إسرائيل يحتاج إلى بعض التفسير، لا سيما وأن أية تسوية تفترض أن يقدم كلٌّ من الأطراف المتصارعة قدراً من التنازلات تقبله باقي الأطراف. فما الذي يدفع إسرائيل إلى تقديم تنازلاتٍ عما تعدُّه «حقوقاً ثابتةً» لها؟ وما هي حدود هذه التنازلات؟ وما هو المدى الذي لا يمكن لإسرائيل أن تتجاوزه في أية تسويةٍ؟

يمكن بدايةً رصد عددٍ من الظواهر التي لم يعد الوعي الإسرائيلي قادراً على تجاهلها، وجميعها تجعل من القبول بتسويةٍ ما أمراً ملحاً:

أولاً: لم تأت الانتصارات العسكرية بالسلام للإسرائيليين رغم أن الآلة العسكرية الإسرائيلية وصلت إلى ذروة مقدرتها الحربية، بل إنها أتت لهم بمزيدٍ من الحروب وتحققت النبوءة القائلة بأن أقصى ما يطمح له المستوطنون الصهاينة هو حالة من «الحرب الراقدة».

ثانياً: لم يعد قبول منطق جيش الشعب (النظامي والاحتياطي) بالسهولة نفسها التي كان عليها من قبل، وذلك بسبب مقتضيات الاقتصاد الإسرائيلي في إطار النظام العالمي الجديد وبسبب الأزمة المستحكمة التي يعاني منها هذا الاقتصاد، حيث يصل العجز المالي إلى نحو ٣٠ مليار شيكل خلال عام ٢٠٠٣، وهو ما دفع وزير المالية الإسرائيلي بنيامين نتنياهو إلى القول بأن «الاقتصاد مريض، بل مريض جداً. لقد وصلنا إلى وضعٍ فرغ فيه الصندوق من النقود» (صحيفة **يديعوت أحرونوت**، ١٧ مارس/ آذار ٢٠٠٣).

ثالثاً: لم يَعُد الإسرائيليون قادرين على تحمُّل الحرب الدائمة والاستنفار المتواصل، ذلك أن الحرب الخاطفة الساحقة، أي الحرب بدون تكلفة بشرية واقتصادية عالية، لم تَعُد ممكنة.

رابعاً: تزايد تكلفة الحرب يعني تزايُد اعتماد إسرائيل على الولايات المتحدة. ورغم أن الولايات المتحدة حليف موثوق به تماماً، فإن ثمة عوامل قد تدفع الإدارة

الأمريكية إلى عدم الاستجابة لكل المطالب الإسرائيلية المالية والعسكرية، وفي مقدمتها أزمة الاقتصاد الأمريكي، وخاصة في ضوء التكاليف الباهظة للحرب على العراق، والمعارضة الشعبية المتنامية لهذه الحرب وللهيمنة الأمريكية على العالم، بالإضافة إلى ارتفاع أصواتٍ داخل الولايات المتحدة نفسها تعترض على الأعباء التي يتحملها الشعب الأمريكي من أجل ضمان أمن إسرائيل، بل ووصل الأمر مع الكاتب الأمريكي المعروف بول فندلي إلى حد المطالبة «بتحرير أمريكة من إسرائيل» (موقع ميديا مونيتورز، ١٢ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢).

خامساً: أثبتت انتفاضة الأقصى، ومن قبلها انتفاضة عام ١٩٨٧، أن الآلة العسكرية الإسرائيلية بكل جبروتها تقف عاجزةً عن ردِّ الشعب الفلسطيني عن إصراره المشروع على التحرر والاستقلال، مهما بلغت فداحة التضحيات البشرية والمادية التي يتكبدها، ومهما استخدمت إسرائيل من أساليب وحشية لقمعه، بدءاً من حملات الاغتيال والمجازر الواسعة النطاق، على غرار ما حدث في جنين، مروراً بهدم المنازل وتدمير المؤسسات واقتلاع أشجار الزيتون، وانتهاءً بالحصار المتواصل وإغلاق القرى والبلدات والطرق، والسعي لتهجير الفلسطينيين من أراضيهم عنوةً أو جعل حياتهم فيها مستحيلة بما يجبرهم على الرحيل من تلقاء أنفسهم.

سادساً: ومما يزيد الرغبة في التسوية عند المستوطنين الصهاينة أن ما يُسمى «الشعب اليهودي» (أي الجماعات اليهودية المنتشرة في أنحاء العالم) يبدو عازفاً بشكلٍ كاملٍ تقريباً عن الاستقرار في «الأرض الموعودة»، ناهيك عن الحرب من أجلها، وهو ما يثير مشاكل عديدة بالنسبة إلى دولة إسرائيل، التي يشكل جلب المهاجرين إليها أمراً ضرورياً من الناحية الاقتصادية والسكانية.

سابعاً: بدأت علامات الإرهاق والتذمر تظهر على المستوطنين الصهاينة ويظهر هذا في أزمة الخدمة العسكرية، حيث يرفض ما يزيد عن ٥٠٠ من جنود الجيش الإسرائيلي الخدمة في الضفة الغربية وقطاع غزة، وكذلك في تزايد معدلات النزوح، والعزوف عن الإقامة في المستوطنات، التي أصبح كثير منها يُسمى «مستوطنات الأشباح» لخلوها من السكان (صحيفة هاآرتس، ٢١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١)، والتكالب على الاستهلاك.

ثامناً: رغم كل سلبيات اتفاقيات أوسلو فإن قيام السلطة الفلسطينية يشكل أول اختراق للعمق الاستراتيجي الإسرائيلي، إذ توجد كتلة بشرية ضخمة (مليونا فلسطيني في الأرض المحتلة عام ١٩٦٧، بالإضافة إلى مليون في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨) لها مؤسساتها وإرادتها وطموحاتها. كما ثبت أن الروابط القومية والتاريخية بين فلسطينيي ١٩٦٧ وفلسطينيي ١٩٤٨ أكثر عمقاً وتجذراً واستمراراً من كل المحاولات الإسرائيلية لمحوها أو تهميشها.

هذه بعض الأسباب التي قد تدفع الكيان الصهيوني إلى البحث عن صيغةٍ ما للتسوية، ولكن بنية الصراع لا تزال قائمة، فطبيعة الدولة الصهيونية، دولةً استيطانية إحلالية، لم تتغير، كما أن الرؤية العدوانية القمعية لا تزال كما هي والسلوك العدواني والقمعي لا يزال مستمراً، وإن طرأ بعض التعديل على الديباجة والخطاب، فبدلاً من دق طبول الحرب، يستمر الإعداد للعدوان مع عزف أنغام السلام.

وفي ظل وضعٍ كهذا، لابد من التساؤل عن طبيعة «السلام» الذي تسعى إسرائيل إلى تحقيقه، وعن مدى استعداد إسرائيل للتسليم للفلسطينيين ببعض الحقوق التي لا يمكنهم التنازل عنها، وكذلك عن آفاق هذا «السلام» في ظل الرؤية الأمريكية للمنطقة ولدور إسرائيل فيها بعد فرض سيطرتها على العراق.

● دولة يهودية مفعمة بالنشاط

في دراستنا للخطاب الصهيوني المراوغ بيَّنا أن البحث عن الخريطة الإدراكية للآخر مسألة في غاية الأهمية فهي التي تحدد مرجعية هذا الخطاب، ومن خلال هذه المرجعية يمكن فك شفرته، فالمرجعية هي التي تحدد المعنى الدقيق والمحدد للمفردات والعبارات كما تكشف المفاهيم الكامنة. ولنحاول أن نطبق هذه الآلية على خطابي الرئيس بوش وأريئيل شارون خلال «قمة العقبة». فقد بدأ خطاب الرئيس بوش بتأكيد التحالف الاستراتيجي بين الولايات المتحدة والدولة الصهيونية («إن الصداقة التي جمعت بين بلدينا بدأت منذ نشأة إسرائيل»)، أي أن كل ما سيأتي بعد ذلك لابد وأن ينظر له في هذا الإطار. ولذا أكد بوش أن القضية الأساسية هي قضية «أمن إسرائيل»، وهو بهذا يتبنى الخطاب الإسرائيلي تماماً، بل يمكن القول إنه لم يكتف بذلك بل تبنى الخطاب الصهيوني، إذ عرّف هذا الأمن

بأنه «أمن إسرائيل دولةً يهودية مفعمة بالنشاط»، أي أنه عرف مرجعيته بأنها مرجعية صهيونية، وهذا يعني أن الدولة الصهيونية ليست دولة مواطنيها وإنما دولة كل يهود العالم، مما يجعلها بالضرورة دولة توسعية، فضلاً عن أن هذا المفهوم يهمش سكان الدولة من الفلسطينيين، ويحولهم إلى مواطنين من الدرجة الثانية. ولعل هذا يفسر عبارة «مفعمة بالنشاط» وهى عبارة مبهمة تثير القلق، فكلمة «نشاط» كلمة عامة للغاية ولها دلالات عدة، فإذا كان النشاط صهيونياً فهل المقصود هنا مزيد من الهجرة الاستيطانية من الخارج ومزيد من المستوطنات والتوسع؟ وحينما تعرض بوش لموضوع المستوطنات وإزالتها لم يشر إلا إلى المستوطنات العشوائية، أما المستوطنات التي أُقيمت بتخطيط صهيوني، حسب القانون الصهيوني وفي الإطار التوسعي العنصري الصهيوني، فلم يأت على ذكرها بخير أو شر، ولزم الصمت تماماً حيالها. وقضية المستوطنات حسب تصور بوش «لابد أن تتم مناقشتها» وهذا تأكيد مغلف بأن الأرض الفلسطينية ليست أرض محتلة ccupied بل أرض متنازع عليها disputed، أي أن بوش مرة أخرى تبنى الموقف الصهيوني تماماً. ثم أكد بوش أن وجود القوات الإسرائيلية في الضفة الغربية ليس احتلالاً، حينما أشار إلى «جرائم الإرهاب» وكل «أنواع العنف والإرهاب» و«المجموعات الإرهابية» وضرورة تخليص «المناطق الفلسطينية من الإرهاب»، وهو بذلك يؤكد أن ما يقوم به الفلسطينيون ليس مقاومه للاحتلال، وإنما هو شكل من أشكال العنف والإرهاب.

ولأن بوش تبنى الموقف الصهيوني كاملاً، فإننا نجد المفردات والمفاهيم نفسيهما تقريباً في خطاب شارون، ولكن رئيس الوزراء الإسرائيلي قام باستخدامها بشكل أكثر تبلوراً وأقل صقلاً. يبدأ شارون خطابه بتأكيد أن إسرائيل هي «مهد الشعب اليهودي»، أي إن نقطة انطلاقه صهيونية تماماً، ففلسطين هي إسرائيل، والجماعات اليهودية في العالم هي الشعب اليهودي، وهي عبارات تهمش الشعب الفلسطيني تماماً، بل وتغيبه. وانطلاقاً من هذا المنظور تصبح القضية هي أمن إسرائيل («مسؤوليتي الكبرى هي أمن الشعب الإسرائيلي ودولة إسرائيل»). ثم يشير شارون إلى المقاومة بحسبانها نوعاً من أنواع «الإرهاب»، شأنه في هذا شأن بوش والخطاب الغربي بشكل عام. بل ويؤكد شارون «أنه لا يمكن أن يكون هناك سلام بدون إزالة الإرهاب والعنف والتحريض من كل الأشكال»، أي أن المقاومة

المسلحة إرهاب، وكذلك التحريض على المقاومة أو الدعوة إليها. وهذه العبارة هي الأخرى فضفاضة إلى أبعد الحدود، فمن الممكن وصف أي تصريحٍ أو تلميحٍ يصدر عن أية جهات فلسطينية أو عربية بأنه نوع من «التحريض»، بل ويمكن أن يُدرج تحت هذا الوصف أي انتقادٍ لسياسة الدولة الصهيونية أو لمسلك قواتها. وحينما جاء ذكر للمستوطنات، وضح شارون المرجعية التي يدور في إطارها، فقد أكد أولاً أن إزالة المستوطنات تتم في إطار القانون الإسرائيلي «فمجتمع إسرائيل هو مجتمع يحكمه القانون [الصهيوني]، لذلك سوف نبدأ وفوراً في إزالة المباني غير المشرع بها [من قبل الحكومة الصهيونية] والبؤر السكانية غير المرخص لها»، فإسرائيل هي صاحبة الحق وبالتالي لا يسري على المستوطنات سوى القانون الصهيوني، الذي يصدر عن فكرة أن فلسطين هي إسرائيل، أرض بلا شعب! أما بخصوص الدولة الفلسطينية فقد حرص شارون على أن يبين أن الفلسطينيين سيحكمون أنفسهم في «دولتهم»، وليس في وطنهم ولا في أرضهم، فالسيادة الفلسطينية ليست على الأرض وإنما على الفلسطينيين، حيث قال: إن «من مصلحة إسرائيل ألا تحكم الفلسطينيين، بل أن يحكم الفلسطينيون أنفسهم في دولتهم الخاصة بهم».

وتوضح هذه التصريحات، سواء من جانب بوش أو شارون، أن المرجعية النهائية هي دائماً الأمن الإسرائيلي ومصلحة إسرائيل، كما أُضيف إليها هذه المرة مرجعية أخرى تتمثل في أمن إسرائيل الديموغرافي، فوجود الفلسطينيين كتلةً بشرية ضخمة يهدد هوية الدولة اليهودية، مما يجعل من الضروري التخلص منهم أو تهميش وجودهم حتى يمكن استمرار ذلك الطابع اليهودي المزعوم للدولة الصهيونية.

هذه هي بعض المرجعيات الحقيقية لما يُسمى «خارطة الطريق»، فهل يفسر هذا تعثر عملية السلام؟

الفصل الحادي عشر

رحلة في العقل الإسرائيلي

• رحلة في عقل يساري إسرائيلي

يُعد عاموس كينان من أبرز الصحافيين والكتاب والمفكرين الإسرائيليين وقد عرف بمواقف جريئة منذ الخمسينيات في التصدي للحكم العسكري الذي فُرض على العرب في إسرائيل حتى عام ١٩٦٦، ثم في معارضته الشديدة لاستمرار الاحتلال عام ١٩٦٧، وكذلك في نضاله ضد التمييز العنصري. ولكنه مع هذا يجد نفسه في موقف غريب للغاية، فهو يرفض الظلم إلا أن كونه إسرائيلياً يجعله «محتلاً» شاء أم أبى، فهو ينتمي إلى دولة أسست على أرض الآخرين الذين رفضوا الاستسلام للأمر الواقع، وقرروا المقاومة والكفاح من أجل استعادة أرضهم وحقوقهم. ويتضح هذا في الحوار الذي نشر في مجلة **قضايا إسرائيلية** التي يصدرها المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار في عددها الصادر في خريف ٢٠٠٢).

وقد أجرى الحوار بلال ظاهر الذي سأله: «كتبت مؤخراً مقالاً قلت فيه: إن مروان البرغوثي هو مقاتل من أجل الحرية، ولم ترغب الصحف الإسرائيلية في نشره، هل أصبح الإسرائيليون لا يحتملون فكرة تختلف مع «الإجماع القومي»، حتى ولو كانت من كاتب مثلك؟» فأجاب: في فترة الانتداب البريطاني كانت هناك مجموعة من الأساتذة الجامعيين اليهود أطلقت على نفسها اسم «بريت شالوم»، وقد تعامل ما يُسمّى بـ «اليشوف» مع هذه المجموعة بازدراء، لمجرد أن أفراد هذه

المجموعة دعوا إلى إقامة سلام مع الفلسطينيين. وقد كان هذا الاستهزاء بأعضاء «بريت شالوم» (تحالف السلام)، على الرغم من أن أعضاءها كانوا من أبرز المثقفين اليهود، مثل الحاخام بنيامين والبروفسور الذي كان رئيس الجامعة العبرية في القدس، يهودا ماجنيس وجرثوم شوليم المفكر اليهودي المتخصص في التصوف اليهودي، ثم أضاف عاموس كينان قائلاً: «حين سئلت عن الفرق بين الإرهابي والمقاتل من أجل الحرية، قلت: إن المقاتل من أجل الحرية هو ابن شعبك الذي يقاتل من أجل حرية شعبك، أما الإرهابي فهو شخص من شعب آخر يقاتل من أجل حرية شعب آخر».

حين سأله محاوره سؤالاً محرجاً للغاية عن ترحيل العرب من البلاد، فكانت إجابته مباشرة وغير مراوغة: «كان العرب دون قيادة، وهرب سكان غالبية القرى، وكان هناك من بقوا في قراهم، ولكن الجيش الإسرائيلي أصبح موجودًا ونفذ الترحيل بحق العرب، مثل ترحيل السكان من مجدل، قرب عسقلان، كذلك فإن المجزرة الحقيقية لم تقع في دير ياسين، بل في الدوايمة، قرب الخليل، فهناك قتل الجيش الإسرائيلي كل ما هو حي، رجالاً ونساءً وأطفالاً وكلاباً وقططاً ودجاجاً وماعزً، لم يبق شيئًا. لقد كانت هذه مجزرة بكل معنى الكلمة. وبمناسبة الترحيل، فقد رأيت بأم عيني الوفد الذي خرج من الرملة رافعاً الراية البيضاء، وقال لهم يغئال الون أن يذهبوا إلى الجحيم.

وبعد هذا تبدأ الرؤية في الاهتزاز ويغوص عاموس كينان في الغيبيات الصهيونية. فهو على سبيل المثال يرى أن العرب قد أخطؤوا حينما رفضوا قرار التقسيم، وهو القرار الذي منح المستوطنين الصهاينة أكثر من نصف أرض فلسطين وأسبغ على وجودهم شرعية. بل إننا نجد أنه يساوي بين الوجود الفلسطيني في فلسطين والوجود الصهيوني، فهو يقدم رؤية صهيونية لتاريخ فلسطين. فهو يرى أن العرب احتلوا فلسطين وأن سكان القرى في فلسطين ظلوا يهودًا بعض الوقت، ثم اعتنقوا الإسلام «لقد خرج العرب من الجزيرة العربية واحتلوا الشرق الأوسط، أرض إسرائيل وسورية والعراق وشرقي الأردن ومصر، وعندما احتلوا أرض إسرائيل، تم إرغام اليهود على اعتناق الدين الإسلامي، أو أن اليهود اعتنقوا الإسلام بإرادتهم، وذلك على مر أجيال عديدة، واعلم أن الفلسطينيين ليسوا مجرد

أبناء عمومتنا، وإنما هم في الواقع إخوتنا، وقد أثبتت بحوث في مجال الجينات تطابق جينات اليهود وجينات العرب».

وعاموس كينان يعتبر نفسه يساريًا ولكنه يرى أن معسكر اليسار في إسرائيل قد تهاوى «الذي حدث أن حزب: «مباي» قد انهار ولم يعد قائماً تقريباً. لقد كان «مباي» حزباً كبيراً ومُحِي عن الوجود. وحزب «مباي» موجود اليوم ضمن حركة «ميرتس»، وهناك يوجد على الأقل روح القتال، فهم ضد النظام بصورة حقيقية. لكن هذا هو الحال لأننا الآن نعيش في فترة حكم يميني قوي وفظ، ولا نرى النهاية لهذا الوضع. ولا أمل لليسار أبداً في الانتخابات. كما أن استطلاعات الرأي تظهر تأييد أغلبية الشعب لشارون. وأنا أعتقد أن شارون وكذلك عرفات لا يريدان السلام، عرفات يريد كل فلسطين وشارون يريد كل أرض إسرائيل».

وقد انهار اليسار الإسرائيلي بسبب حرب الأيام الستة. هذه المصيبة التي حلّت بنا، كان يتوجب علينا أن ننسحب فورًا من الأراضي المحتلة. في حينه لم يكن دافيد بن غوريون رئيس الحكومة لكنه كان الوحيد الذي قال بعد الحرب إنه يتوجب الانسحاب، لكن لم يكترث أحد بأقواله واستهزؤوا به، وعندها أيضاً أقيمت الحركة من أجل أرض إسرائيل الكاملة».

وماذا عن تعريفه لنفسه يهودي- صهيوني- إسرائيلي؟ إنني أعرّف نفسي إسرائيلياً، وهذا ما يهمني. أنا ولدت هنا، ولكن والدي صهيوني فهو جاء إلى هنا. من يأتي إلى البلاد فهو صهيوني. والصهيونية مازالت موجودة ولكن «بصورة مشوهة، بسبب المستوطنات ورفض السلام. كذلك فإنني أعرف أن هناك هجرة كبيرة جداً من البلاد».

وهنا طرح عليه محاوره أهم سؤال بخصوص قضية اللاجئين وقضية القدس والمستوطنات؟

«قد يستغرق حل الصراع ٥٠ سنة أو حتى مئة سنة أخرى. فالصراع بين فرنسة وألمانية استمر ٢٠٠ سنة، ونحن مازلنا فقط في المئة سنة الأولى من الصراع... ولا أعرف كيف يمكن تحقيق السلام. ليتني أعرف ذلك. ولكن يجب أن تكون هناك دولتان، وحل قضية اللاجئين يتم ضمن الدولة الفلسطينية وإخلاء كافة المستوطنات وأن يسكن اللاجئون في الفيلات التي بناها المستوطنون، وأن يأتي

المستوطنون للسكن في السهل الساحلي. أما القدس، فيجب أن تكون مقسمة إلى بلدتين، عربية ويهودية. وبإمكان العرب أن يبنوا مباني حكومية خاصة بهم في القسم الشرقي من القدس وأن تكون القدس عاصمة للدولتين، ولا يمكن أن يسود هنا سلام آخر، غير هذا.

هذه هي رؤية عاموس كينان، وهي تعبر عن رؤية ما يسمي باليسار الإسرائيلي، وهو يسار متآكل متهالك، كما قال هو نفسه. ولكنها في الوقت ذاته رؤية كثير من مستوطني ١٩٤٨، الذين يرون أن احتلال الدولة الصهيونية لغزة والضفة الغربية ورفضها الانسحاب منها هما سبب الكوارث التي تحيق بهم من انتفاضة ١٩٨٧ إلى انتفاضة الأقصى إلى حكم محكمة العدل الدولية بخصوص جدار الفصل العنصري. والحد الأدني الذي يطالبون به الانسحاب من المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ وفك المستوطنات وتقسيم القدس هو دون الحد الأدنى الفلسطيني الذي يصر على حق عودة الفلسطينيين إلى ديارهم التي احتلت قبل وبعد عام ١٩٦٧. ومع هذا لابد وأن نأخذ في الاعتبار هذه المجموعة البشرية التي توجد داخل التجمع الصهيوني وألا نسقطها من حساباتنا.

- **العبراني الجديد**

من الجوانب التي تستحق النظر في الظاهرة الصهيونية أن الجيب الاستيطاني الصهيوني يعيش في حالة حرب مستمرة منذ عام ١٩٤٨، وهو تاريخ إعلان قيام الدولة الصهيونية، بل ومنذ عام ١٨٨٢، وهو تاريخ وصول أول مجموعة من المستوطنين الاستعماريين الصهاينة إلى أرض فلسطين. ولا غرابة في ذلك، فمن الخصائص الأساسية لهذا الجيب أنه جيب وظيفي قتالي، زرعه الاستعمار الغربي في قلب العالم العربي ليقوم بالقتال دفاعاً عن المصالح الاستراتيجية الغربية وعن وجوده، وفي نظير ذلك يتولى الغرب دعمه سياسياً واقتصادياً وعسكرياً فيضمن استمراره وبقاءه. ونظراً لهذه الوظيفة القتالية، تكتسب المادة البشرية القتالية، التي يشكل الشباب عمودها الفقري، أهمية قصوى، ويصبح من الضروري لفهم مستقبل الصراع العربي الصهيوني التعرف على وضع الشباب الإسرائيلي وموقفه من الصهيونية ومن تلك الحروب المستمرة.

فقد جاء المستوطنون الصهاينة من أوربة محملين بأفكارهم العنصرية الاستبعادية وأسلحتهم الغربية الحديثة، واستخدموا أقصى أشكال العنف للاستيلاء على الأرض الفلسطينية، واستقروا عليها وكونوا عائلات وأنجبوا أطفالاً، شأنهم في ذلك شأن أي استعمار استيطاني إحلالي. وكان يُطلق على أبنائهم اسم «الصابرا»، وهي كلمة مشتقة من الكلمة العربية «الصبَّار» أو «التين الشوكي». وقد تردد هذا المصطلح في أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرةً، حيث أُطلق على التلاميذ اليهود من مواليد فلسطين، والذين كانوا يحسون بالنقص حيال أقرانهم الأوربيين الأكثر تفوقاً في الدراسة، مما كان يحدو بهم إلى تعويض هذا الشعور بتحدي هؤلاء الأوربيين بنوع من النشاط الخشن يرد لهم اعتبارهم. إلا إن هذا المصطلح أخذ في الاختفاء تدريجياً بسبب التنوع العرقي في الجيب الصهيوني، إذ كان يشير في بادئ الأمر إلى أبناء المستوطنين الصهاينة الغربيين (الأشكناز)، ثم حاول علم الاجتماع الإسرائيلي توسيع نطاقه ليشمل أيضاً أبناء المستوطنين من اليهود الشرقيين (السفارد)، ولكن هذه المحاولة لم يُقدر لها النجاح، وخاصةً بعد وصول أفواج من يهود الفلاشاه والهند ودول الاتحاد السوفييتي السابق، مثل روسية وأوكرانية وجورجية والجمهوريات الإسلامية. ولهذا، يجدر التخلي عن هذا المصطلح واستخدام مصطلحات أخرى بدلاً منه، مثل «الأجيال الجديدة» أو «الشباب الإسرائيلي».

ولفهم عقلية هذه الأجيال الجديدة، ينبغي الإشارة إلى أن الصهيونية تنطلق من نقد عميق لما يُسمى «يهود المنفى»، أي يهود العالم باستثناء فلسطين، إذ يتهمهم الصهاينة بأنهم شخصيات طفيلية، شاذة ومريضة وضعيفة وغير قادرة على الدفاع عن نفسها، ولابد أن تلجأ لغير اليهود (الأغيار) ليكفلوا لها الأمن والبقاء. وقد طرح الصهاينة رؤيتهم للمجتمع اليهودي المثالي (أي المجتمع الصهيوني) بوصفه جزءاً من مشروع حضاري متكامل يهدف إلى تحويل «يهود المنفى» إلى شخصيات سوية منتجة وقوية وقادرة على حماية نفسها. وتستخدم الأدبيات الصهيونية تعبير «العبراني الجديد» للإشارة إلى هذا اليهودي الجديد، الذي يُراد له أن يكون النقيض الكامل لشخصية اليهودي النمطية، وهو ما عبَّرت عنه إحدى القصائد بدعوة المستوطنين الصهاينة لأن يكونوا «أول العبرانيين وآخر اليهود». كما عبَّر الشاعر تسفي جرينبرج عن معنى مماثل عندما كتب في إحدى قصائده:

الأمهات اليهود أحضرن أطفالهن [من المنفى الموبوء] إلى الشمس [في فلسطين]

ليحترق الدم الذي يجري في عروقهم، ويزداد حمرةً

بعد أن بهت في الجيتو وعالم الأغيار.

وقد أشار آرثر كوستلر إلى هذا الأنموذج الجديد بحسبانه «طرزاناً يهودياً»، أي إنساناً طبيعياً مجرداً من القيم والتاريخ، يعيش بقيم الغابة الداروينية، ولا يحتفظ من اليهودية سوى بالاسم. كما يُوصف هذا الأنموذج أحياناً بأنه «سوبرمان يهودي» قياساً على بطل نيتشه الأرقى الذي يمجده الفكر النازي والصهيوني، وهو بطل خارق يجسد مجموعة من القيم التي تعلي من شأن الفعل في مقابل الفكر، ومن القوة الذاتية في مقابل الاعتماد على الأغيار.

وقد حوَّلت الصهيونية العهد القديم إلى مأثور شعبي لهذه الشخصية الجديدة، وهو كتاب تفيض صفحاته بوصف لحروب كثيرة خاضتها جماعات العبرانيين ضد الكنعانيين وغيرهم من الأقوام السامية، حيث طردوا بعضها وأبادوا بعضها الآخر. وانطلاقاً من تصورهم لهذه الشخصية الجديدة، أعاد الصهاينة كتابة ما يسمونه «التاريخ اليهودي»، فأكدوا أن العبرانيين كانوا جماعة محاربة من الرعاة الغزاة الذين أبقوا رايات اليهود مرفوعة، كما بينوا أن ثمة تياراً عسكرياً قوياً في التراث اليهودي، مسلطين الضوء على أحداث بعينها مثل غزو العبرانيين أرض كنعان، وعلى أبطال عسكريين مثل يوشع بن نون وداوود التوراتي، فضلاً عن إبراز ما جاء في التراث الحاخامي من أن «السيف والقوس هما زينة الإنسان». وفي هذا السياق، كان جابوتنسكي، الأب الروحي لبيجن وشارون، يوصي الشباب اليهودي «بالاحتفاظ بالسيف، فهو ملك لأجدادنا العبرانيين الأوائل... لأن التوراة والسيف أُنزلا علينا من السماء». كما كان ينادي بتفضيل السيف، وهو رمز الاستيطان الصهيوني، على الكتاب، وهو رمز يهود المنفى، حتى يظهر ذلك اليهودي الجديد المتحرر من أغلال الدين والقيم.

وفي إطار هذه الرؤية الصهيونية، لا يُعد العنف مجرد أداة لتحقيق بعض الأهداف، بل الأداة التي يتوسل بها الصهاينة لإعادة صياغة الشخصية اليهودية،

فمن خلال العنف يحرر «العبراني الجديد» نفسه من الطفيلية والهامشية والعجز. ويتضح تمجيد العنف على هذا النحو بصورة جلية في كتاب الثورة الذي ألفه مناحم بيجن، وصاغ فيه رؤيته في عبارته الشهيرة «أنا أحارب، إذن أنا موجود»، والتي تعارض عبارة ديكارت المأثورة «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، وتؤكد على أن الوجود اليهودي الجديد لا يرتبط بالعقل الإنساني وإنما بالفعل العسكري. وفي الكتاب نفسه، يعرض بيجن تصوره لمستقبل «الشخصية اليهودية» قائلاً: «من الدم والنار والدموع والرماد سيخرج أنموذج جديد من الرجال لم يعرفه العالم مطلقاً طوال السنوات الماضية، وهو اليهودي المحارب».

وقد نجحت الصهيونية، مثلها مثل كل التجارب الاستيطانية الإحلالية، في تدريب جيل من المستوطنين القادرين على القتال دفاعاً عن المشروع الاستيطاني، أي الاستيلاء على الأرض وطرد أصحابها والاستقرار فيها ونهب ثرواتها. ولتحقيق هذا الهدف، كان من الضروري ترسيخ الاتجاه الجماعي بين المستوطنين، وخاصة في المزارع الجماعية (الكيبوتز) التي كانت تتسم بروح جماعية عسكرية مغايرة للروح الفردية السائدة بين «يهود المنفى»، بل ووصلت هيمنة الروح الجماعية إلى مستوى متطرف، وهو ما تعكسه إحدى القصائد الإسرائيلية بقولها إن «أبناء الأجيال الجديدة يحلمون دائماً بضمير الجمع»، كما تعكسه النكتة الشهيرة من أن أحد أعضاء الكيبوتز وجد نفسه وحيداً بعدما تركه أصدقاؤه، فحاول الانتحار، ولكنه أخفق لأنه كان بمفرده!!

- **اعترافات شابة إسرائيلية!!**

كيف ينظر الشباب الإسرائيلي إلى واقعه ومستقبله في إطار الدولة الصهيونية؟ وما هو موقف أبناء الجيل الجديد من المبادئ والأفكار التي شكلت عصب المشروع الصهيوني؟ وهل تتفق رؤى هؤلاء الشباب وتطلعاتهم وأحلامهم مع التوجهات والسياسات والممارسات التي تنتهجها النخبة الحاكمة؟ وإلى أي مدى يتمسك هؤلاء الشباب بالتقاليد والشعائر الدينية في تلك الدولة التي تدعي أنها «دولة يهودية»؟

لابد أن تطرح هذه الأسئلة نفسها على كل من يحاول دراسة الظاهرة الصهيونية دراسةً عميقةً والتعرف على الواقع الفعلي في الدولة الصهيونية واستشراف الآفاق

المستقبلية لها، خاصة وأن الدعاية الصهيونية كثيراً ما تقدم صورة وردية لمجتمع فتي متماسك نجح في صهر أعضائه القادمين من أشتات الأرض ومن شتى الخلفيات الثقافية والاجتماعية والعرقية وفي خلق أنموذج للشخصية يمثل الحل الأمثل لأمراض وتناقضات «الشخصية اليهودية في المنفى»، وهو ما يُسمى أنموذج «العبراني الجديد». وقد يكون من المفيد، للإجابة على هذه التساؤلات وغيرها، إلقاء الضوء على مقال بعنوان «حكاية جيل شاب ضائع في إسرائيل» (صحيفة صنداي تايمز، ٩ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠١)، كتبته واحدة من أبناء هذا الجيل الجديد، وهي الروائية الإسرائيلية دوريت رابينيان، التي وُلدت عام ١٩٧٢، ويمكن إلى حد كبير عدّه شهادةً تعكس الآراء السائدة لدى قطاع لا يُستهان به من الشباب الإسرائيلي.

تبدأ الكاتبة مقالها بوصف للوضع في إسرائيل، فتقول إنه معقد للغاية ومليء بالتناقضات «إلى حد يجعل كل ما سأقوله صحيحاً وخاطئاً في آن معاً. ففي الحيز القائم بين إعلان الحرب والاستسلام للإرهاب، نشأ خواء رهيب في المجتمع الإسرائيلي، ولا يملك أي مسؤول سياسي أو صحفي عاقل أن يقدم أية اقتراحات حقيقية لإنهاء الصراع». وتمضي الكاتبة لتوضح جذور هذا التناقض، فتقول إن «الوعي الإسرائيلي الجماعي ونظرة آبائنا القديمة والشديدة المثالية، والتي كانت كلها تمثل حجر الزاوية في إنشاء الدولة الصهيونية قبل ثلاثة وخمسين عاماً، والتي وحّدت المهاجرين من مختلف أنحاء العالم في شعب ودولة، هذه النظرة تذهب إلى أنه يتعين على الفرد التضحية بمصلحته وحريته وحياته من أجل المصلحة العامة، ولكنها أصبحت تثير لدى الشباب الآن ضحكة خفية خلال وجبات العشاء الأسرية ليلة السبت».

وإذا كان هذا هو الحال مع عشاء السبت، الذي يتسم بمنزلة خاصة مقدسة في التراث الديني اليهودي وفي التقاليد العرقية لأعضاء الجماعات اليهودية، فماذا عن «المقدس» الآخر غير الديني، ألا وهو واقعة الإبادة النازية ليهود أوربة أو «الهولوكوست»، التي حولها الصهاينة إلى إطار مرجعي وإلى حقيقة جوهرية فيما يُسمى «التاريخ اليهودي»، بل وماذا عن «التاريخ اليهودي» نفسه؟ تقول دوريت رابينيان: «لطالما أطلقنا النكات عن الهولوكوست... وقد أصبح تاريخ الشعب

اليهودي مجرد مادة لاختبارات الالتحاق بالجامعة... لقد أصبحنا نفضل السفر إلى الخارج بدلاً من الاحتفال بأعيادنا الدينية، وصرنا نمارس الجنس ونتحدث عنه، وأصبحنا نقول: من الذي يهتم».

وتنتقل الكاتبة للحديث عن نظرة الشباب لرواد الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، الذين تحيطهم الدعاية الصهيونية بهالة من التمجيد وترفعهم إلى مصافّ الأبطال التاريخيين. ومن هؤلاء جوزيف ترومبلدور، الذي شارك في كثير من العمليات العسكرية مع القوات البريطانية، واقترح غزو فلسطين بجيش قوامه ١٠٠ ألف يهودي، واستقر في فلسطين وساهم بنصيب وافر في أنشطة الاستيطان إلى أن قُتل في إحدى المواجهات مع العرب قبل تأسيس الدولة، ومن ثم أصبح رمزاً لجيل الرواد القديم، ويُقال إن آخر كلماته قبل موته هي هذه العبارة التي أصبحت من المأثورات الصهيونية: «إنه لأمر جيد أن أموت من أجل الوطن». وقد أُقيم له نصب تذكاري، يزوره طلاب المدارس الإسرائيلية مرة كل عام ليروا بأنفسهم «المثل الصهيونية» وقد تحققت من خلال «بطولة» قائد ضحى بحياته من أجلها. وتعليقاً على ذلك، تقول دوريت رابينيان إن «هذه الزيارة السنوية كانت تسبب لنا الملل والضجر... وعند بلوغنا سن الثامنة عشرة جُندنا في الجيش لأداء الخدمة العسكرية، واكتشفنا أنه أمر سيء أن يموت المرء من أجل الوطن». ويُعد هذا الشعور بالتشكك في كثير من المقولات الصهيونية التقليدية أمراً طبيعياً لدى الأجيال الجديدة في إسرائيل، والتي تجد نفسها في اتون حروب ضارية، من حرب لبنان إلى المواجهات المستمرة مع الفلسطينيين في سياق الانتفاضة الأولى ثم انتفاضة الأقصى، دون أن تلوح في الأفق أية بوادر لحياة سالمة آمنة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن أبناء هذا الجيل، كما ترى دوريت رابينيان، «لديهم رغبة عارمة في أن يعيشوا حياتهم على نحو طبيعي، فهم لا يريدون أن يكونوا أنموذجاً أو روحاً للشعب، وغاية ما يصبون إليه هو أن يكونوا وكفى»، أي أن يتمتعوا بالحياة العادية المستقرة وليس حياة القتال المتواصل التي قادتهم إليها الدولة الصهيونية.

وتمضي الكاتبة لتصور جانباً آخر من حياة الشباب الإسرائيلي بعد إتمام الخدمة العسكرية، فتقول: «بعد وقت قصير من تسريحنا نختفي في أبعد مكان يمكن الوصول إليه، مثل معتزلات حكماء وفلاسفة الهند أو أدغال أمريكة الجنوبية

أو جبال نيوزيلندة. وبعد عام أو عامين نعود إلى الوطن، أو لا نعود، أو نتجه للبحث عن جذور ديانتنا اليهودية، أو نتناول عقارات النشوة (أكستاس سي، أو إل سي دي) ونتخيل أن موسيقى الديسكو هي الرمز الديني، ونرقص ونرقص، ونحيل تل أبيب إلى واحدة من عواصم أندية النشوة في العالم من شدة الرقص على إيقاعات هذه الموسيقى الصاخبة التي تقرع داخل رؤوسنا».

وترى الكاتبة أن أعداداً من الشباب المسرحين من الخدمة العسكرية يبحثون عن ملاذ لهم في الإيمان الديني بصور شتى، وهناك آخرون يتجهون إلى قطاع التقنيات المتقدمة ويعملون ليل نهار على أمل أن يحققوا ثراءً فاحشاً، أما السواد الأعظم فينضمون إلى صفوف الطبقة المتوسطة وينجبون أطفالاً يعدونهم بأنهم «حين يكبرون لن تكون بهم حاجة للالتحاق بالجيش، تماماً كما تمنى آباؤنا، وكما كذبوا علينا».

وتختتم الكاتبة مقالها بالإشارة إلى تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية وانعكاساتها على الشباب الإسرائيلي، فتؤكد أن الولايات المتحدة كانت على الدوام المكان الأول الذي يفكرون في اللجوء إليه هرباً من العنف المستمر في «أرض الميعاد»، أما الآن «فلم يعد هناك مكان يمكن الهرب إليه».

وهكذا، تنهي الكاتبة الإسرائيلية الشابة شهادتها برؤية مظلمة للحاضر والمستقبل تبين أن الحلم الصهيوني قد تحول إلى كابوس مخيف!

- **الشباب الإسرائيلي والسياسة**

تتسم شخصية «العبراني الجديد»، أي المستوطن الصهيوني، بعدائها للفكر وتركيزها على الفعل. وقد نجحت النخبة الصهيونية الحاكمة في ترسيخ هذه الرؤية في وجدان الأجيال الأولى من المستوطنين الصهاينة، إذ عبَّرت عن نفسها فيما يُسمى عملية «الريادة» (ويُطلق عليها بالعبرية اسم «حاليتسيوت»، ويُسمى الرائد «حالوتس»). ويعني هذا المصطلح الصهيوني أن اليهودي يهاجر من بلده إلى أرض خالية من السكان ليكتشفها ويكون رائداً فيها، وإن حدثَ ووُجد فيها سكان أصليون فبوسعه، على الطريقة الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية، أن يقضي

عليهم، إما عن طريق الإبادة أو عن طريق الطرد. وبالفعل، ظهر جيل من المستوطنين المقاتلين الذين يدينون بالولاء الكامل للدولة الصهيونية، ويجسدون ما يمكن تسميته «شخصية الطرزان الصهيوني».

وقد ظل هذا الوضع قائماً حتى عام ١٩٦٧، إلا أنه بدأ يتغير بشكل متصاعد منذ ذلك الحين، وهو أمر يلفت النظر، إذ إنَّ «الانتصار» الذي حققته الدولة الصهيونية لم يؤد إلى مزيد من التماسك الاجتماعي والثقة فيما ترفعه هذه الدولة من شعارات، بل تمخض عن نتائج عكسية تماماً. فعلى سبيل المثال، أشار طالب في جامعة تل أبيب، في مقال كتبه في تلك الفترة تحت عنوان «الطالب المخصي»، إلى عدم اكتراث الشباب الإسرائيلي بعالم السياسة والقضايا العامة. فبينما شهدت الجامعات في مختلف بلدان أوربة وأمريكة حركات احتجاج شبابية عارمة في أواخر الستينيات، كان الشباب في الجامعات الإسرائيلية مشغولاً بشيء واحد هو: نفسه. ولهذا، أصبح يُطلق على الجيل الجديد في إسرائيل تعبير «جيل الإكسبرسو»، والذي عُرِّف في **القاموس العالمي للعامية العبرية**، الذي حرره دان بن أموتز وناتيفا بن يهودا، بأنه يشير إلى الشبان الذين لا يؤمنون بفكرة «الريادة» الصهيونية فيقضون جل وقتهم في شرب الإكسبرسو في المقاهي وفي تبادل الأحاديث التافهة. ولا يختلف هذا المصطلح عن مصطلح آخر شائع وهو «روش قطان»، وهو عبارة عبرية تعني «الرأس الصغير»، ويدل على الإنسان العلماني الاستهلاكي الذي يهتم بمصالحه الخاصة واحتياجاته المباشرة ولا يشغل باله بالأهداف القومية الصهيونية أو بعالم الأفكار والقيم، فمعدته كبيرة ورأسه صغير.

وتسوق دراسات علماء الاجتماع في إسرائيل عدة أسباب لهذا الوضع، وفي مقدمتها:

* إنَّ الشباب الإسرائيلي يعيش في حضارة «الآن وهنا»، فالبحث عن المعنى يتم في إطار رأسمالي تنافسي استهلاكي يُعلي من النزعة الفردية، مما يعني العزوف عن قضايا الحياة العامة والصالح العام والانغماس في إشباع الحاجات الشخصية، التي يلتمسها الشباب في النوادي الليلية أو في شركات التقنيات المتقدمة (الهاي تك) أو حتى في محيط العائلة. ويرى شيراليف آري (صحيفة هآرتس، ٢٩ مارس/ آذار ٢٠٠٢) أن الشاب الإسرائيلي الذي يغرق

نفسه في الموسيقى الصاخبة يعتبر نفسه مجرد كائن سلبي لا يملك السيطرة على حياته.

* إنَّ الشاب الإسرائيلي لا يلتحق بالجامعة إلا بعد إنهاء فترة الخدمة العسكرية، التي تزيد من تشوه شخصيته وتقضي على ذاتيته. وعادةً ما يكون في هذه المرحلة أكبر سناً من طلاب الجامعات في البلدان الأخرى، وعليه بعد التخرج أن يصارع لتعويض ما فاته وتلبية المطالب الحيوية الملحَّة، مثل الحصول على وظيفة وتأسيس أسرة، مما يعني مزيداً من الانصراف عن الشأن العام.

* إنَّ وفود مهاجرين جدد ذوي خلفيات اجتماعية وقومية وعرقية وثقافية متباينة يمثل أحد الخصائص الأساسية لدولة إسرائيل، مما يؤدي إلى طرح قضية الهوية على الدوام، ويحول دون تجذر الإحساس بالاستقرار والانتماء إلى مجتمع مترابط يتسم بالانسجام، وهو الأمر الذي يقود بدوره إلى الانكباب على الذات أو البحث عن ملاذ في محيط العائلة أو الطائفة أو المجموعة العرقية، بينما تتراجع القضايا العامة إلى أدنى سلم الأولويات.

وأحياناً ما تضيف الدراسات الإسرائيلية ما تسميه «المشكلة الأمنية»، أي استمرار الانتفاضة الفلسطينية، إلى جملة الأسباب التي تدفع الشباب الإسرائيلي إلى الانصراف عن السياسة، ولكنها تذكرها بشكل عابر وكأنها مجرد مشكلة ثانوية عارضة، كما أنها لا تتطرق لأزمة الصهيونية الأعمق على صعيد النظرية والممارسة. والواقع أن هذين العنصرين يفوقان في أهميتهما ومقدرتهما التفسيرية ما يورده علماء الاجتماع الإسرائيليون من أسباب. فصحيح أن الشباب الإسرائيلي لا يكترث بالسياسة، ولكنه يشعر بمأزق إسرائيل التاريخي، بوصفها جيباً استيطانياً أقامه الغرب الاستعماري في منطقة ذات أهمية استراتيجية، يرتبط سكانها الأصليون بتشكيل حضاري راسخ هو التشكيل العربي. وقد قيل للمستوطنين إنه سيكون من السهل عليهم التخلص من هؤلاء السكان الأصليين والتمتع بخيرات الأرض التي اغتصبوها عنوةً في ظل الحماية والدعم الغربيين. ولكن الواقع الذي يصطدم به هؤلاء المستوطنون كل يوم يختلف تماماً عن تلك الصورة الوردية. فأصحاب الأرض الأصليون يرفضون الخضوع لمنطق التغييب أو التهميش،

ويتزايدون بأعداد كبيرة، ويواصلون إبداع أشكال جديدة من المقاومة في مواجهة المحتل. ولهذا، يشعر كثير من أبناء الأجيال الجديدة من المستوطنين أنهم خُدعوا، وأن الرؤية الصهيونية هي أكذوبة ليس لها أساس في الواقع، وأنها وصلت بهم في نهاية الأمر إلى طريق مسدود.

غير أن هؤلاء الشباب لا يجدون مخرجاً من هذه الورطة التاريخية، فعليهم أن يقضوا ثلاث سنوات على الأقل في الخدمة العسكرية يدافعون عن أفكار لا يؤمنون بها ويقاتلون ويُقتلون من أجل كذبة، وهو الأمر الذي يؤدي إلى اضطراب رؤيتهم واختلال منظومة القيم لديهم. فهم، على سبيل المثال، يطالبون بالمساواة بين الجنسين ولكنهم يرفضون المساواة مع العرب، ويطالبون بالحقوق الديموقراطية، ولكنهم يرفضون أن يتمتع بها العرب. ويُلاحظ أن عدداً كبيراً ممن وُلدوا على أرض فلسطين يعتقدون أن احتلال الأراضي الفلسطينية بالقوة «مسألة طبيعية»، وأن الضفة الغربية ليست أرضاً محتلة بل هي أرض توراتية متنازع عليها، ومن ثم لا يحق لليهود التنازل عنها للعرب، الذين يُشار إليهم باسم «عرب يهودا والسامرة»، وليس عرب فلسطين أو حتى عرب الضفة الغربية، مما يعني تجريدهم من أي انتماء قومي أو تاريخي ويجعل حرمانهم من حقوقهم مسألة عادية لا تثير أية مشكلات أخلاقية. وبالرغم من هذا كله، يتزايد فرار أولئك الشباب أنفسهم من الخدمة العسكرية، فهم يدركون أن حروب إسرائيل لم تحقق لها السلام أو الاستقرار، كما لا يمكن عدَّها دفاعاً عن النفس.

وينعكس اضطراب الرؤية هذا في عدد من الظواهر الاجتماعية المرضية. فعلى سبيل المثال، نشرت صحيفة **يديعوت أحرونوت** (٣ يونيو/ حزيران ٢٠٠٤) نتائج بحث أجراه فريق من جامعة بار إيلان بالتعاون مع وزارات الصحة والتعليم والثقافة في إسرائيل، ووُصف فيه الشباب الإسرائيلي بأنه عنيف ويفرط في تعاطي المشروبات الكحولية ويعاني خوفاً وجودياً. ومن الظواهر التي أبرزها البحث ظاهرة الانتحار، حيث ذكر ١٣ بالمئة من الطلاب في سن الخامسة عشرة أنهم فكروا في الانتحار بجدية، وذكر ٩ بالمئة أنهم أعدوا خطة انتحار، بينما قال ٦ بالمئة إنهم حاولوا الانتحار مرة واحدة على الأقل خلال السنة الأخيرة، مما يعبر عن شيوع الإحساس باليأس الكامل وعدم جدوى الحياة في «أرض الميعاد».

- **تساقط الأساطير!!**

حينما تقرأ الصحف العربية تظن أن التجمع الصهيوني قد حقق نجاحاً ما بعده نجاح، وأن الإسرائيليين يقتلون الفلسطينيين في الصباح ثم يرفلون في حلل السعادة والرفاه والرخاء بقية اليوم وفى عطلة نهاية الأسبوع وإجازات البنوك. ولكن ما مدى مطابقة هذه الصورة للواقع الإسرائيلي؟ حتى نتعرف على العقل الإسرائيلي من الداخل فلنحاول أن نستعرض معاً بعض الأخبار التي يقرأها الإسرائيليون:

* يتصور ٥٥ بالمئة من الإسرائيليين، مع حلول الذكرى الثامنة لاغتيال رابين، أنه سيقع حادث اغتيال سياسي آخر (صحيفة **يديعوت أحرونوت**، نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٢)

[هل هذا الاحتقان السياسي سببه المقاومة الفلسطينية؟]

* صرح زئيف هرتزوج، عالم الآثار الإسرائيلي، أنه بعد ٧٠ عاماً من البحث عن الآثار اكتشف علماء الآثار أن اسم إسرائيل هو اسم جماعة بشرية كانت مستقرة في كنعان في نهاية العصر البرونزي، وأن قصص الآباء كما وردت في العهد القديم قصص أسطورية، وأن العبرانيين لم يستقروا في مصر وأنهم - بذلك - لم يخرجوا منها، وأنهم لم يغزوا أرض كنعان (كما جاء في الرواية التوراتية)، وأنه لا يوجد أي ذكر لإمبراطورية داوود وسليمان أو ما يُسمى المملكة المتحدة، التي لا نعرف حتى اسمها. كما قال هرتزوج إن العبرانيين القدامى لم يعرفوا التوحيد في سيناء وإنما في عهد الملوك.

[وهكذا يعرف الإسرائيليون أن الأساطير التوراتية التي تستند إليها نظرية الحقوق الصهيونية لا أساس لها من الصحة، أي إن وجودهم في فلسطين يستند إلى قوة السلاح وحسب].

* نُشرت معلومات جديدة عن مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتزل. يقول يوسي بيلين في كتابه **هل اليهود على وشك الفناء أو الذوبان؟** (مركز جنين للدراسات الاستراتيجية) إنه رغم كل ما كُتب عنه يظل إنساناً غامضاً. فتكوينه كان أبعد ما يكون عن اليهودية، فكان في طفولته يكره الدراسات اليهودية مما اضطر والديه إلى نقله إلى مدرسة عمومية، وكان طوال حياته يتصرف بشكل متعالٍ ويضمر في داخله مشاعر معادية للسامية، وكان يرى بسمارك

أنموذجه القيادي، وانخرط في الحركة القومية الألمانية، ونأى بنفسه عن اليهودية لدرجة أنه اقترح مرة تنظيم حملة لتحويل يهود أوربة إلى المسيحية، كما أنه لم يكترث بإجراء عملية ختان على الطريقة اليهودية لطفله الأول.

وقد كان في حياته الشخصية إنساناً كريهاً يعاشر العاهرات حتى أصيب بمرض الزهري كما أقام علاقة بطفلتين تبلغان من العمر ثماني وتسع سنوات. وكان عاجزاً عن إقامة علاقات مع النساء البالغات، أما حياته الزوجية فكانت سلسلة من النزاعات وكان يهرب من البيت لعدة أشهر بذرائع مختلفة ليظل بعيداً عن زوجته.

واختفت آثار عائلته بعد وفاته كما لو أنها لم توجد أصلاً، فقد ماتت زوجته بعد إصابتها بالجنون، واعتنق ابنه هانز المسيحية ثم انتحر في عام ١٩٣٠، أما شقيقته بولينا فكانت مدمنة على المخدرات وانتحرت في العام ذاته، وماتت ابنته الثالثة ترود عام ١٩٤٣ بعد أن قضت سنوات في مستشفى للأمراض العقلية، ثم انتحر ابنها الوحيد بيتر تيودور بعدها بثلاث سنوات.

[معظم هذه المعلومات، إن لم يكن كلها، سقطت من التواريخ الصهيونية حتى تحيط مؤسسي الحركة الصهيونية بهالة من القداسة. ولكن الأساطير الصهيونية تتساقط واحدة تلو الأخرى تماماً مثل سقوط الأساطير التوراتية].

* نشر البروفسور زئيف ماموز، الأستاذ بجامعة تل أبيب، دراسة بيّن فيها أن برنامج إسرائيل النووي قد أخفق تماماً. فهو لم يمنع اندلاع الحروب ولم يحل دون انتشار الصراع ولا التصعيد العسكري ولم يزود المدنيين بالحماية ولم يسرِّع بعملية السلام (صحيفة جيروساليم بوست، ١٤ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٢).

[أما ما لم يذكره التقرير فهو أنَّ مقاومة الكتلة البشرية الفلسطينية للكتلة البشرية الصهيونية الغازية واشتباكها معها هو الذي حيّد أسلحة إسرائيل النووية، إذ كيف يمكنها أن تستخدمها ضد سكان الخليل على سبيل المثال].

* نشر مقال بعنوان «تاريخ إسرائيل بأكمله من ب.ج حتى بيبي» (أي من بن جوريون حتى نتنياهو) (صحيفة هآرتس ٢٩ مايو/ أيار ٢٠٠٣) بقلم يوسي ساريد أشار فيه إلى منظمة يهودية خيرية (لجنة التوزيع المشتركة) بدأت تجمع المعونات لإسرائيل بتقديرها إحدى البلاد التي يعاني مواطنوها من الجوع،

فأعدت ما سمته «منبر الجوع» والذي يبين أن المشكلة الأساسية التي تواجهها الدولة الصهيونية الآن هي الجوع وليس الإرهاب. وأصدرت اللجنة كتيباً يقول إن واحداً من كل ثلاثة أطفال إسرائيليين يعيش تحت خط الفقر.

ويقارن يوسى ساريد بين حال إسرائيل في الوقت الحاضر وحالها في الماضي حينما كانت تُقَدَّم للناس بلداً منتجاً للحضارة والعلم، يسكنها رواد صهاينة يحولون الصحارى الصفراء إلى أرض زراعية خضراء ويجففون المستنقعات. بل وكانت الدولة الصهيونية تدعي أنها ستصبح «نوراً لكل الأمم».

لكن إسرائيل الآن تقدم نفسها على أنها بلد من العالم الثالث، وبدلاً من أن تطلب من اليهود التوحد بها، فإنها تطلب منهم أن يعطفوا عليها. لم تعد إسرائيل هي داوود الشاب الصغير الذي يصرع طالوت العملاق، لم تعد شمشون الجبار وإنما هي شمشون بعد أن قصّت دليلة شعره وفقأت عينيه!

[من الذي فقأ عيني شمشون حقاً؟ ألم تلعب الانتفاضة دوراً أساسياً في ذلك؟]

* مع بداية عام ٢٠٠٤، بلغ عدد سكان إسرائيل حوالي ٦,٧٥٠,٠٠٠ نسمة، بما في ذلك سكان الأراضي المحتلة في القدس الشرقية وهضبة الجولان السورية المحتلة. (وذلك حسب ما جاء في معطيات ٢٠٠٣ التي نشرتها دائرة الإحصاء المركزية في الدولة الصهيونية(ولا يشمل هذا العدد الأجانب الذين يسكنون إسرائيل، الذين كان عددهم في نهاية عام ٢٠٠٢ حوالي ٢٣٨ ألف نسمة. وشكل ما اصْطلح على تعريفهم في إسرائيل باسم «اليهود وآخرون» ٨١ بالمئة من السكان، بينهم ٥,١٦٠,٠٠٠ من اليهود و ٢٩٠,٠٠٠ من المهاجرين الجدد إلى إسرائيل وهم غير مسجلين يهوداً في وزارة الداخلية الإسرائيلية (نصفهم من المسيحيين ونصفهم مسجلون بدون ديانة). وبلغت نسبة العرب في إسرائيل ١٩ بالمئة. وبلغت الزيادة السكانية في إسرائيل ١١٦,٠٠٠ تقريباً، أي بنسبة ١,٧ بالمئة، مقارنة مع عدد السكان في العام ٢٠٠٢.

ونوهت دائرة الإحصاء إلى أن نسبة الزيادة السكانية في العام ٢٠٠٣ كانت الأقل منذ عام ١٩٩٠، وأن السبب الرئيسي لانخفاض وتيرة الزيادة السكانية يكمن في انخفاض عدد المهاجرين اليهود إلى إسرائيل. فقد ساهمت الهجرة إلى إسرائيل بنحو ٩ بالمئة من مجمل الزيادة السكانية، مقابل ١٨ بالمئة في عام ٢٠٠٢

(٣٤٠٠٠)، و٣٨ بالمئة في عام ٢٠٠٠. ووصلت غالبية المهاجرين من دول الاتحاد السوفيتي السابق وبلغت نسبتهم ٥٧ بالمئة (١٣٠٠٠)؛ و١٣ بالمئة من إثيوبية (٣٠٠٠)؛ ٨ بالمئة من فرنسة (١٨٠٠)؛ ٧ بالمئة من الولايات المتحدة (١٧٠٠).

[لماذا انخفض عدد المهاجرين، هل للانتفاضة دور في ذلك؟]

وأثارت هذه الإحصائيات ضجة في إسرائيل بعد إضافة معطيات صادرة عن دائرة الإحصاء المركزي الفلسطينية، تشير إلى أن عدد الفلسطينيين الموجودين بين البحر المتوسط ونهر الأردن بلغ ٥,٢ مليون نسمة في الضفة الغربية وقطاع غزة وداخل إسرائيل، مقابل معطيات الدائرة الإسرائيلية التي أفادت بوجود ٥,٤ مليون نسمة من اليهود في المنطقة ذاتها.

وأفادت دائرة الإحصاء الإسرائيلية أن اليهود سيصبحون أقلية في هذه المنطقة في غضون ١٠ سنوات. وقال الجغرافي أرنون سوفير، الخبير في الشؤون الديموغرافية، إن اليهود أقلية منذ اليوم فإذا تم «خصم» نحو ٣٠٠ ألف غير يهودي من العدد المذكور وهو ٥,٤ مليون يصبح عدد اليهود أقل من العرب.

وقال سوفير، «إننا بصدد انهيار من الناحية الديموغرافية. خارطة الديموغرافية في القدس والنقب والجليل تظهر خراباً».

وتستند أقوال سوفير هذه على المعطيات التي تشير إلى أنه يقطن في النقب اليوم أكثر من ١٤٠ ألف عربي، ونسبة العرب في الجليل ٧٥ بالمئة، ومضى سوفير يقول بلهجة تحذير إنه «نشأ تواصل عربي من الجليل حتى جنين، في الوقت الذي يغادر فيه الجيل الشاب من اليهود الجليل للانتقال إلى تل أبيب أو نيويورك. هذه خارطة الخراب الديموغرافي».

[لماذا هذا الخوف من الفلسطينيين؟ هل لأنهم تحولوا من كتله بشرية ساكنة إلى جماعة بشرية مقاومة؟ هل هي الانتفاضة مرة أخرى؟]

- **الإسرائيليون والرسائل المسلحة**

ما هو الأثر الذي يمكن أن يخلفه العنف الذي تمارسه دولة الاحتلال الصهيونية على المحتلين أنفسهم؟ يجيب يهودا ليطاني على هذا السؤال في مقال بصحيفة يديعوت أحرونوت (٢٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٤)، فيرى أن هذا

العنف يحول المستوطنين إلى حيوانات، ويمضي قائلاً: «لقد بدأت مسيرة السلوك الحيواني منذ زمن بعيد، ولكنها الآن تعطي ثمارها الأولية. هذه المسيرة لا تجري فقط على جانب واحد من الخط الأخضر، فهي تتسلل بسرعة إلى جانبه الآخر، إلى حياتنا اليومية في إسرائيل المتنورة والديمقراطية. هذا السلوك الحيواني يصل إلى بيوتنا، إلى أنماط سلوكنا، بين الإنسان ورفيقه، في مراكز الأحزاب، في الطرقات، في ملاعب كرة القدم ومراكز الترفيه. عنف لفظي وجسدي لم نشهد له مثيلاً، وهو استمرار لذات العنف الذي نستخدمه تجاه الفلسطينيين في المناطق. ليس الجنود هم المذنبين، الاحتلال هو المذنب».

وتتناول شالوميت ألوني القضية نفسها، وتحذر من تفكك المجتمع الإسرائيلي. فتقول: «لا أريد أن أعرف. لقد أقلعت عن قراءة الجرائد. إن مجتمعنا تقوضه عبادة القوة. إننا نقتل الفلسطينيين بطريقة تتسم بالخيلاء والخفة مما يسبب لي كثيراً من القلق. ولا أتمتع بأي سلام حينما أرى هذا الحائط الذي نبنيه. نحن ننهب الأرض ونحطم أسلوب حياة شعب عاش في المكان نفسه عبر قرون... نحن مشغولون بتخريب حقول ثلاثة ملايين شخص والبنية التحتية الحيوية لمجتمعهم ونتظاهر بعد ذلك بأننا الضحية. لا يمكنني أن استمر في الحياة مع استمرارنا في العويل أننا الضحايا دون أن نقيم أخلاقياتنا. من المهم أن ندرك أن الهجمات الانتحارية مسألة بشعة، ولكن الغارات الجوية تقتل أعدادًا أكبر. وبينما نشعر بالألم لمقتل ٩٠٠ مواطن إسرائيلي، ننسى أننا قتلنا ثلاثة آلاف من المدنيين الفلسطينيين».

ويقرأ الإسرائيليون هذه الكلمات ويدركون مدى بشاعة الاحتلال وأثره على المجتمع الإسرائيلي، فهل يغير هذا من خريطتهم الإدراكية؟

الإجابة على هذا السؤال بالنفي، فالجو السياسي والثقافي والفكري العنصري السائد في المجتمع الصهيوني يشجع على ارتكاب الجرائم وعمليات القتل، وعادةً ما يلجأ العنصريون لتجريد الآخر من إنسانيته حتى يمكن قتله بسهولة، إذ من الصعب على الإنسان مهما بلغ من قسوة وعدم اكتراث أن يقتل إنساناً آخر، ولهذا فلابد من استبعاد الآخر من دائرة الإنسانية، وهذا ما فعله الصهاينة من البداية وهذا ما يفعلونه الآن.

فها هو يحيل حازان، عضو الكنيست عن اللكيود، يقول في إحدى الجلسات التي عُقدت في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني إن العرب مجرد «ديدان»، وهو نفسه الذي قال مرة إن قتل اليهود يجري في دم العرب. وانطلاقاً من التصور العنصري الشرس نفسه يقول حازان: «إن هذه الديدان تلحق الأذى بالشعب اليهودي منذ مئة عام، بينما نمد نحن أيدينا في سلام. إذا لم ندرك أننا نتعامل مع شعب إرهابي قاتل لا يريدنا أن نبقى هنا فلن نصل إلى السلام والأمن». ثم أضاف أن «العرب شعب من الديدان، تزحف في القاذورات، وليس شعباً يبحث عن السلام».

وها هو القائد الإسرائيلي في القيادة المركزية عامي شوحاط يقول في محاضرة أمام عدد من جنود الاحتياط: «كل العرب نفايات وحثالة». وفي إشارة لياسر عرفات، يقول: «هذا الحثالة قد مات، ولكن قطعة أخرى من النفايات ستحل محله». بل وتباهي القائد بأنه أثناء إحدى العمليات في جنين قام بمصادرة مياه مرسلة للفلسطينيين، لأنه لا يبالي «إن ماتت هذه القاذورات من العطش».

وفي مقال بعنوان «الجيش الإسرائيلي لا يعاني من الأرق بعد قتل المدنيين الفلسطينيين» (معاريف، ٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٤)، يدافع حجاي سيغال عن قتل المدنيين. فقد صرح دان حلوتس رئيس الأركان أنه نام نوماً هادئاً في الليل بعد عملية اغتيال صلاح شحادة، وهو أحد قادة حركة «حماس»، والتي أدت إلى مقتل بعض المدنيين. وقد قُدم للمحاكمة لتصريحه هذا. ويقول الكاتب: «على حلوتس أن يقف بقامة مرفوعة أمام القضاة وأن يكشف أمامهم كامل أفكاره، وأن يقول: «حقاً نمت على نحو ممتاز في الليلة التالية لتصفيتنا شحادة. صحيح أن هناك أبرياء ماتوا في القصف أيضاً، ولكن هكذا هو الحال في الحرب، وليس نحن من شرعنا بها. فهل كان ينبغي أن تقض مضاجعي لأننا وفرنا على شعب إسرائيل بعض الحافلات المتفجرة؟ ومن قرر بأن الأخلاق تستدعي منا تعريض حياة المواطنين في سوق الكرمل للخطر كي نوفر حياة مواطنين في غزة؟

يمكن لحلوتس أن يثبت للقضاة أنه ليس الاستراتيجي الغربي الأول الذي نام جيداً في ملابسات مشابهة. هناك كثيرون وجيدون سبقوه، ومنهم هاري ترومان، أحد الرؤساء الأمريكيين الأكثر نزاهة في كل الأزمنة، الذي شهد بأنه نام جيداً حتى بعد إلقاء القنبلة النووية على اليابان، هذه القنبلة الفظيعة التي جاءت لتوفير

حياة مليون جندي أمريكي. كما أن المارشال البريطاني في تلك الحرب، سير أرثور هرس، لم يتقلب في سريره ليلاً. فالرجل الذي حول دريزدن إلى خرائب كي يجبر الألمان على الاستسلام، نام جيداً رغم علمه بأن عشرات آلاف المدنيين الألمان قُتلوا بقنابل القصف من طائراته».

لكل هذه الأسباب، يشاهد الإسرائيليون مناظر القتل والبطش كل يوم، وينامون مستريحي البال، فخريطتهم الإدراكية تجعلهم يرون القتلى ديداناً تشكل خطراً أمنياً عليهم، وأنهم في حالة دفاع عن النفس، وأنهم ضحايا «العدوان» و«الإرهاب» الفلسطيني. وتبرر لهم خريطتُهم الإدراكية كل شيء، ولهذا لا يتعاطف ٦٦ في المئة من اليهود مع الفلسطينيين الذين هُدمت منازلهم ويؤيدون استمرار شارون في الحكم، حسبما جاء في مقال بقلم أفرايم ياعر (هآرتس، ٧ يونيو/ حزيران ٢٠٠٤)، كما أضاف بأن ٥١ بالمئة يرون أن القوة التي استخدمها الجيش ضد الفلسطينيين في إطار عملياته في رفح كانت ملائمة، وقال ٢٠ بالمئة إن القوة المستخدمة كانت قليلة جدًا. أي إنَّ الغالبية الساحقة للإسرائيليين ترى أن عمليات قتل الأطفال والمدنيين مسألة ضرورية وحتمية ومطلوبة ولا اعتراض لهم عليها.

ومع هذا، فهناك من يطالب بوقف عسكرة الانتفاضة والدخول في مفاوضات من« أجل السلام» مع شارون، وهناك نخب عربية حاكمة تسعى إلى توثيق علاقاتها الاقتصادية مع إسرائيل بدعوى أن هذا يخدم قضية السلام في الشرق الأوسط!

وعلى النقيض من ذلك الموقف المتخاذل، فإن السلام العادل لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال إرسال رسائل مسلحة إلى الجمهور الإسرائيلي الذي يرانا «حشراتٍ» لابد من إبادتها، وهي رسائل تهز من خريطته الإدراكية، وتجعله يدرك أنه يواجه شعباً يطالب بالحرية والاستقلال وبحقوقه التاريخية وليس مجرد سرب من «الديدان».

- **احتراق الأكاذيب**

تتميز الأعمال الفنية (الأدبية والتشكيلية) بأنها تقدم رسالتها من خلال المجاز، ومن خلال التلميح لا التصريح، وهذا يوسع من رقعة الحرية أمام مؤلف العمل، إذ يمكنه أن يتناول موضوعات لا يمكن لرجل السياسة أن يتناولها، وبعبارةٍ أخرى

فهو يتناول «المسكوت عنه» كما نقول هذه الأيام. كما أن الأعمال الفنية تعبر عن المكنونات الخفية للوجدان واللاشعور، بطريقةٍ قد تتجاوز إرادة مؤلف العمل.

انظر على سبيل المثال قصة الروائي الإسرائيلي أبراهام يهوشوا، فهذا الروائي يؤمن إيماناً عميقاً بالأيديولوجية الصهيونية ويدافع عنها بكل جوارحه، مع هذا كتب قصة قصيرة بعنوان «في مواجهة الغابة»، وصفها النقاد والمعلقون والسياسيون في الدولة الصهيونية بأنها هدامة وانتحارية.

تتناول القصة بعض الأحداث في حياة طالب إسرائيلي يكتب دراسة عن ممالك الفرنجة. وإشارة الكاتب لممالك الفرنجة مسألة ذات دلالة عميقة، فالوجدان الاستيطاني الإحلالي الصهيوني مشغول إلى درجة محمومة بهذه الممالك، التي كانت تجربة استيطانية إحلالية دامت زهاء قرنين من الزمان، ولكنها لم تنجح في أن تضرب جذوراً في الأرض العربية، ولذا كان مآلها الاختفاء. وقد عُيِّن الطالب حارساً لغابةٍ غرسها الصندوق القومي اليهودي في موقع قرية عربية أزالها الصهاينة مع ما أزالوه من قرى ومدن. وكانت كل شجرة في الغابة تحمل اسم أحد المساهمين من الصهاينة التوطينيين من يهود الخارج. ومرة أخرى تحمل التفاصيل كثيراً من الدلالات العميقة. فإزالة القرية العربية هو محاولة لفرض الرؤية الصهيونية القائلة بأن فلسطين «أرض بلا شعب»، وهي جريمة يسهم فيها صهاينة الخارج.

وتستمر أحداث القصة، إذ يقابل الطالب/ الحارس عجوزاً أبكم من أهل القرية العربية التي أُزيلت، وتنشأ علاقة مركبة بين الحارس الإسرائيلي والعجوز العربي، فالإسرائيلي يخشى انتقام العربي، ولكنه مع هذا يجد نفسه منجذباً إليه بصورة غير عادية، بل إنه يكتشف أنه يحاول، بلا وعي، مساعدة العربي في إشعال النار بالغابة. وفي النهاية، عندما ينجح العربي في أن يضرم النار في الغابة كلها، يتخلص البطل من كل مشاعره المكبوتة. ولكن ما هي هذه المشاعر المكبوتة؟ لا تخبرنا القصة شيئاً، ومع هذا ليس من الصعب أن نخمن، فالحارس الإسرائيلي يعرف أنه يعيش في كذبةٍ كبرى، ففلسطين عامرة بسكانها، وتاريخ ممالك الفرنجة التي زالت وولت ولم يبق منها سوى بعض الأطلال تحوم في وجدانه، وحينما يظهر العجوز العربي تسنح أمام الحارس الإسرائيلي فرصة التخلص من حالة

الكذب التي يعيش فيها، والتي لا يمكنه أن يواجهها، ولهذا يشعر الحارس بالراحة حينما تحترق الغابة.

ولا أدري مدى تأثر المخرجة السينمائية الإسرائيلية راشيل ليه جونز بهذه القصة، فقد قدمت فيلماً بعنوان «٥٠٠ دونم في القمر» (في المهرجان السنوي الثالث عشر للأفلام المتعلقة بحقوق الإنسان والذي عُقد في نيويورك في النصف الثاني من شهر يونيو/ حزيران ٢٠٠٢). وقد بدأت المخرجة حياتها مثل أي مستوطنة صهيونية، إذ هاجرت من الولايات المتحدة واستقرت في مستوطنة للفنانين تسمى «عين هود» تقع عند سفح جبل الكرمل، أسسها عام ١٩٥٣ فنان يهودي جاء من رومانية، وذلك على أنقاض قرية فلسطينية تُدعى «عين حوض». وقد أعجب الفنان الروماني بجمال القرية فحولها إلى مستعمرة للفنانين والسياح. وقد سُحرت مخرجة الفيلم بجمال بيوت القرية المبنية من الحجارة وبطرقها الضيقة المنحدرة.

ولكن مخرجة الفيلم تدرك تدريجياً كذب الأسطورة الصهيونية إذ بدأت تعرف أن قرية عين حوض الفلسطينية لم تختف تماماً أثناء حرب ١٩٤٨ فرغم أن معظم أهل القرية رحلوا واستقروا في مخيم جنين (تضمن الفيلم حواراً معهم)، فإن أسرة أبو حلمي صممت بل أسست قرية عربية جديدة على بعد ميل واحد من القرية القديمة (لا يختلف هذا كثيراً عن الطرق الالتفافية التي يشيدها المستوطنون الصهاينة في الضفة الغربية لتحاشي رؤية القرى العربية، فبعد أن اكتشفوا أن فلسطين ليست «أرضاً بلا شعب»، قرروا أن يجعلوا منها «أرضاً لا نريد أن نرى أصحابها الأصليين» وقد أصبحت القرية العربية الجديدة كأنها شبح يطارد القرية الاستيطانية، تماماً مثل العجوز الأبكم في قصة يهوشاوا). وتعيش القريتان جنباً إلى جنب، ولكنهما لا يتقاطعان، بل إن عدم التفاهم والمرارة يتزايدان، لأن الصراع بين القريتين متجدد في التاريخ الذي يحاول الإسرائيليون تناسيه (كما تقول المخرجة).

وقد لاحظت المخرجة أن الأسطورة الصهيونية والدعاية الإسرائيلية يستبعدان التاريخ، فتصبح فلسطين مجرد قطعة أرض لا تاريخ لها. وينتج عن هذا أيضاً فصل الأسباب عن النتائج. فالصهاينة يتحدثون عن الإرهاب الفلسطيني ولا يتحدثون قط

عن المستوطنات الصهيونية أو البطش العسكري الإسرائيلي. وهذا ما أكدته المخرجة في حديث لها إذ قالت «إن إسرائيل التي نشأنا فيها، هي مجرد جزء من القصة الكاملة، وهو جزء مشوه ... تنشأ في إسرائيل فترى الأطلال من حولك في كل مكان، ولكنهم يجعلونك تصدق أن هذه الأطلال جزء من تاريخ قديم موغل في القدم. ولكنني الآن أعرف أن هذه الأطلال لا يزيد عمرها عن ثلاثين أو أربعين عاماً». وإذا كان الإسرائيليون ينسون أو يتناسون التاريخ فإن الفيلم يذكّر الجميع بأن المقهى الذي يتجمع فيه الفنانون في المستوطنة الصهيونية كان في يوم من الأيام مسجد القرية. وحينما يتباهى مستوطن صهيوني وزوجته بأصالة منزلهما المبني من الأحجار، فإن الفيلم يذكرنا بأن هذه الأحجار بل نوافذ المنزل كلها مأخوذة من بيوت عربية. وتضيف المخرجة أن الإسرائيليين يتصورون أن هذه المنازل عبارة عن أشياء «عثروا عليها» يمكنهم استخدامها ليشكلوا أعمالهم الفنية! ولكنك لو ألقيت نظرة واحدة على المواد التي بُنيت منها المنازل فإنك ستلاحظ أنها تصرخ باللهجة الفلسطينية.

وكي ينسى المستوطنون الصهاينة التاريخ فقد زرعوا غابة كثيفة من أشجار السرو ليحجبوا القرية العربية الجديدة، التي يقطنها في الوقت الحاضر ٢٥٠ فلسطينياً. ولكن السلطات الإسرائيلية لم تعترف بها (لذا فالقرية محرومة من الماء والكهرباء) لأنها بُنيت في منطقة خضراء، أي «أنها أرض تقرر أن تكون حديقة عامة» حسب خريطة اعتمدتها الدولة الصهيونية عام ١٩٦٥.

ولكن الفلسطينيين لم ينسوا الماضي مطلقاً لأن وجودهم الحالي سواء في جنين أو في قرية عين حوض الجديدة وجود مؤقت. ويقول محمد أبو الهيجا، وهو من أحفاد أبو حلمي: «نحن نكره أشجار السرو اليهودية». وفي عام ١٩٩٨ اندلعت النيران في غابة السرو فظهرت القرية العربية (ألا يذكرنا هذا بقصة يهوشاوا). واكتشفت المخرجة الإسرائيلية الحقيقة، واكتشفت أن الحاضر ليس معزولاً عن الماضي وعن التاريخ وكما قالت: «إذا كنا نريد أن نفهم أين نحن الآن فعلينا أن نعود للماضي».

والفيلم الذي أخرجته راشيل ليه جونز هو إسهام في عملية استرجاع التاريخ الذي يحاول الصهاينة تناسيه وإلغاءه. ولعل عرض مثل هذا الفيلم في

نيويورك ثم التعليق عليه في صحيفة «نيويورك تايمز» (١٧ يونيو/ حزيران ٢٠٠٢) يبينان أن الصهاينة بدؤوا يخسرون بعض المواقع في خضم المعركة الإعلامية المستمرة.

- **أهارون شابتاي: قصيدة ضد واقعها**

الفن، كما يُقال في كثير من الأحيان، هو تعبير عن الواقع بكل ما فيه من تنوع وتناقض، ولكنه يمكن أن يكون أيضاً صرخة احتجاج على هذا الواقع ومحاولةً لتجاوزه وبحثاً عن أفق بديل، وذلك حين ينأى بنفسه عن الخطاب الرسمي السائد ويسعى إلى الإفصاح عن «المسكوت عنه» وإثارة التساؤل حول ما يُعد من المسلمات التي لا تقبل الشك.

ويصدق هذا إلى حد كبير على قصائد الشاعر أهارون شابتاي Aharon Shabtai، وهو واحد من أهم الشعراء الإسرائيليين المعاصرين، ومن أبرز مترجمي الأدب اليوناني القديم إلى العبرية. وقد درس اللغة اليونانية في الجامعة العبرية وجامعتي السوربون وكمبردج، وعمل محاضراً في عدد من الجامعات الإسرائيلية، ونُشر له أكثر من خمس عشرة مجموعة شعرية، وتُرجم كثير منها إلى اللغة الإنجليزية.

ويختار الشاعر لديوانه الأخير عنوان «إني أتهم»، وهو عنوان الخطاب الشهير الذي وجهه الكاتب الفرنسي إميل زولا (١٨٤٠-١٩٠٢) إلى الحكومة الفرنسية متهماً إياها بمعاداة اليهود واليهودية. ولا يخلو هذا الاختيار من مغزى، حيث يوجه شابتاي هو الآخر الاتهام إلى الحكومة الإسرائيلية وسكان المستوطن الصهيوني بارتكاب جرائم ضد الإنسانية جمعاء، بما في ذلك اليهود أنفسهم، وهنا تكمن المفارقة المأساوية، إذ إن اتهام شابتاي موجَّه إلى دولة لا تكف عن الادعاء بأنها تمثل يهود العالم، وأنها قامت لإنقاذهم من عداء «الأغيار»!

ففي قصيدة «الحرب»، التي يوجهها إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إيهود باراك، يقف الشاعر الفرد ضد الإرهاب المؤسسي الذي تنتهجه الدولة الصهيونية، واصفاً وفاضحاً تفاصيله الدموية، وكاشفاً النقاب عن الديباجات التي يستخدمها ستاراً لخداع الجماهير، وفي مقدمتها الديباجات الدينية، فثمة إشارة إلى «قرن

الكبش»، وهو كناية عن «بوق الشوفار» الذي يُستخدم في الطقوس الدينية اليهودية، ولكنه تحول إلى أداة لخدمة الأهداف الصهيونية. ورغم البون الشاسع بين قوة الشاعر الفرد وقوة الدولة المدججة بكل وسائل القمع والبطش، فإن القصيدة تنتهي بانتصاره:

أنا أيضاً أعلنتُ الحرب:
فعليكم إذن أن تحولوا جزءاً من قواتكم
التي انتشرت لاقتلاع العرب
ولطردهم من ديارهم
والاستيلاء على أرضهم
وأن توجهوها ضدي.
لديكم دبابات وطائرات،
وفيالق من الجنود؛
وبيديكم قرن الكبش
لتهيجوا به الجماهير؛
لديكم رجال للاستجواب والتعذيب؛
وزنزانات للاعتقال.
أما أنا فليس لدي سوى هذا القلب
الذي آوي فيه طفلاً عربياً.
فلتصوبوا أسلحتكم نحو قلبي:
وحتى لو مزقتموه إرباً إرباً
فسوف يظل على الدوام،
على الدوام يهزأ منكم.

وتمضي قصيدة «عندما كنا نسير في مظاهرة» على المنوال نفسه تقريباً، فهي تبدأ بوصف لمدى بشاعة العنصرية الصهيونية، التي ترى أن المصير الوحيد الذي يستحقه العربي هو الموت، إلا انها تنتهي بانتصار القصيدة التي يشهرها الشاعر سلاحاً للمقاومة في وجه الطغاة، وهكذا يكتسب وجود الشاعر، وتكتسب قصيدته، مغزى جديداً من خلال رفض العنصرية ومسعاها إلى تغييب ووأد الحضور العربي، بما ينطوي عليه هذا المسعى من تحدٍّ لحقائق الواقع:

منذ يومين،

قُتل تسعة عرب في رفح،

وبالأمس قُتل

ستة في الخليل،

أما اليوم. فلم يُقتل سوى اثنين.

في العام الماضي

بينما كنا نسير في مظاهرة

من شارع شنكين،

مر علينا على دراجة بخارية

وصرخ في وجهنا:

«الموت للعرب».

وفي شارع آخر

قبالة سوق بزاليل

بجوار محل

جزارة براون،

وعلى ناصية شارع بوجراشوف

«الموت للعرب!»

وطوال عام بأكمله

ظلت هذه القصيدة ملقاة

ملقاة على الرصيف

في شارع الملك جورج،

واليوم ألتقطها

وأكتب سطرها الأخير:

«الحياة للعرب!»

وتتناول قصيدة «السلام» قضية إفساد اللغة، ومن ثم المفاهيم التي تعبر عنها، على أيدي الصهاينة، حيث تحول «السلام» إلى كلمة مبتذلة، شأنها شأن البغي، يمكن أن يلوكها القاتل وهو يتفاخر بجرائمه في حق الأبرياء، دون أن يشعر بوخز الضمير أو يتنبه إلى التناقض الصارخ بين قوله وفعله، بل إن الدولة التي تنتج على الدوام أولئك القتلة وتسوقهم لارتكاب مزيد من الجرائم تتحول هي الأخرى إلى ماخور للبغاء، مما يجعل تشدقها بالعبارات المعسولة عن «السلام» من لغو الكلام:

يا لصفاقة

هؤلاء الفارغين!

أخذوا كلمة «سلام»

وسحبوها من شعرها

وجروها

من سريرها المتواضع،

وحولوها إلى بغي

تتسكع بجوار محطة الحافلات المركزية.

وبعد أن قضوا وطرهم منها

حولوا الدولة ذاتها

إلى أريكة

يضاجع عليها كل من يريد هذه البغي طيلة الوقت.

في الصباح تطفئ شهوة قناص يرتدي زيه العسكري،

ويعود في المساء

وهو يعرض في زهو

علامة «X» التي حُفرت

على عقب بندقيته،

بعد أن أردى بالرصاص

امرأةً شابةً في التاسعة عشرة من عمرها،

كانت تنشر الغسيل

فوق سطح بيتها في الخليل.

أما قصيدة «الأشجار تبكي» فتفضح «الواقع الجديد» الذي تستحدثه الدولة الصهيونية على أرض فلسطين، إذ تحولها إلى مادة استعمالية مستباحة تهدف إلى جلب أكبر قدر ممكن من الربح، دون نظر لما يخلفه ذلك من خراب، سواء في أعماق البشر أم في عناصر الطبيعة، ودون تقدير لأية قيم أو مرجعيات متجاوزة لهذا الوجود المادي، فالقيمة الوحيدة المطلقة هي الربح وما عداها باطل. بل إن هذا السعي المحموم لا يتورع عن التضحية بالموروث الديني المقدس، وإن تستر وراءه أحياناً، فالتدمير لا يستثني «الأنواع السبعة» من النباتات التي أوردها «سفر التثنية» بحسبانها من الخصائص المميزة لأرض فلسطين:

الأشجار تبكي

في أرض إسرائيل.

وجنود رومة يدمرون الأرض

عن آخرها قطعة تلو قطعة،

لا يبدون أية رحمة

رداء الأرض

بأنواعها السبعة.

كل الأرض

سوف تُباع لسمسار،

ولن تُصنع منها

صلبان

للمسيح وباراباس.

وعلى قطع الأرض هذه

سوف تُمنح رخص

لبرجر كينج

وكنتاكي فرايد تشيكن.

وتتكرر نبرة السخرية التي يختتم بها الشاعر قصيدته تلك في كثير من القصائد الأخرى، ومنها قصيدة «إلى طيار»، التي تقارن ما بين متطلبات العنف الصهيوني الذي لا يخلو من عبث ومتطلبات الوجود الإنساني للضحايا البسطاء، ولكي تكتمل الحلقة العبثية، فلابد أن يجعل المعتدي قذائفه «حلوة المذاق» حتى يتقبلها الضحايا شاكرين بوصفها «هدية تذكارية»، حتى وإن أودت بحياتهم وخرَّبت ديارهم:

عندما تحلق في المرة القادمة

بطائرتك المروحية

فوق جنين،

فلتتذكر، أيها الطيار، أولئك الأطفال

والكهول من النساء

في البيوت التي تقصفها.

فلتفرش

طبقة من الشيكولاتة على الصاروخ الذي تصوبه،

ولتبذل قصارى جهدك لكي تكون دقيقاً

حتى تصبح هذه الهدية التذكارية حلوة المذاق

حينما تبدأ الحوائط في السقوط.

وتصل السخرية إلى ذروتها في قصيدة «الجنود الدمى»، التي تسلط الضوء على مدى التشوه الإنساني والأخلاقي الذي يصيب الجنود، عندما يتحولون إلى مجرد أدوات للقتل يحركها القادة كيفما يحلو لهم، ومن ثم لا يبقى بوسعهم أن يروا مصيرهم في مصير ضحاياهم. فهؤلاء الضحايا، في نظرهم، ليسوا سوى أهداف عسكرية ينبغي أن تُوجه إليها أسلحة الفتك والدمار. ولكن المفارقة أن الدمار لا يصيب فحسب هؤلاء الضحايا الذين يفقدون بيوتهم وربما حياتهم، بل يمتد بالمثل إلى أولئك الجنود أنفسهم، إذ يفقدون ذواتهم الإنسانية وقدرتهم على التمييز بين الوردة والقذيفة عندما تصبح هويتهم وغاية وجودهم هي القتل وتقطيع الأوصال:

ولماذا لم تحضروا معكم زهوراً،

وشاحنة محملة بالباقات

لأطفال رفح المحرومين؟

أو أكوام من الملابس الرخيصة للأمهات

أو ولاعات صينية للآباء؟

ولماذا لم توقظوهم

بحزمة من المظلات ومعاطف المطر؟

أو سيارة عسكرية ملأى بالألعاب النارية تنشر، ولو للحظة،

خيمة من الروعة فوق البرك الموحلة؟

ألم تقرؤوا قصة أندرسون «الصندوق الطائر»؟

كان بوسعكم أن تستخدموا فم الجرافة

لتدفعوا بالخبز إلى أبواب البيوت.

وأن توزعوا علب الحليب في سرية.

ألا تعرفون كيف تصنعون المفاجأة؟

ألا تحوي عقولكم ذرة من الخيال؟

كان بوسعكم أن تستغلوا غطاء الظلام

لتبنوا في صمت ساحة للّعب،

أو تعيدوا أعمدة الإنارة إلى مكانها في الحواري

أو تزودوا العيادة بما يكفي من الدواء!

ألم تسمعوا عن لوي باستير؟

بأي وحل ملأتم رؤوسكم،

فجئتم في الليل تحت المطر المنهمر

لكي تهدموا سبعين كوخاً بائساً

وتلقوا بسبع مئة إنسان .

من النساء والأطفال . في الوحل؟

أيها الجنود البلهاء الذين جُبلوا من الرصاص،

هل كان أبوكم سكيناً

لا يعرف إلا أن يقطع إرباً إرباً؟

أو كانت أمكم مقصاً

لا يعرف إلا أن يمزق أشلاءً؟

وهكذا، تكشف قصائد شابتاي النقاب عن كثير من متناقضات وأزمات الوجود الاستيطاني الصهيوني على أرض فلسطين، مفجرةً تساؤلات لا تنتهي عن الادعاءات التي يتستر وراءها هذا الوجود، وعن جدوى ما حققه من «انتصارات»، بل وعن شرعيته أصلاً. وإذا كانت القصائد تجنح في أغلب الأحيان إلى المباشرة الفجة، التي تصل أحياناً إلى حد الصراخ، فلأن الشاعر يدرك أن السكوت لم يعد ممكناً أمام الخراب الذي يؤول إليه واقعه.

• النشيد القومي الصهيوني

كتب شلومو أفنيري (يديعوت أحرونوت ٣٠ مايو ٢٠٠٥) عالم السياسة الإسرائيلي وواحد من أهم المستشارين في وزارة الخارجية الإسرائيلية عن تحفظ مواطني إسرائيل العرب على نشيد هاتكفاه (الأمل) وهو نشيد الحركة الصهيونية الذي أصبح النشيد الوطني الإسرائيلي، فهو نشيد يتحدث عن أمل الشعب اليهودي في أن «يصبح شعباً حراً» في وطنه، وأن هذا الأمل عاش في الوجدان اليهودي عبر آلاف السنين. فمثل هذا النشيد يستبعدهم فلا يمكنهم الإحساس بالتعاطف معه أو حتى احترامه. وينطبق الشيء نفسه على كل الرموز اليهودية التي تحيط بالمواطن الإسرائيلي، فعلم الدولة الصهيونية عليه نجمة داوود رمز اليهود واليهودية، كما أن المتدينين يفسرونها تفسيراً دينياً يعطي مكانة كونية خاصة للشعب اليهودي، وشعار الدولة هو شمعدان المينوراه، وهو أيضاً رمز يهودي له دلالات دينية وصوفية عميقة يضفي مركزية كونية على اليهود وهو لا يختلف من هذه الناحية عن نجمة داوود. بل إن اسم الدولة نفسه إسرائيل يعني، في إحدى التفسيرات، «الذي تصارع مع الإله وهزمه» (إسرا: تصارع أو هزم، إيل الإله) وهي رموز يهودية مغرقة في يهوديتها يمكن للمستوطن الصهيوني أن يتماهى معها، ولكن هل يمكن للمواطن الفلسطيني الذي فقد أرضه وطرد منها أن يتعاطف معها ويحترمها؟ يجيب شلومو افنيري على هذا السؤال بالإيجاب. ودفاعاً عن موقفه هذا يقول: «في أكثر من ست دول أوربية ديمقراطية يظهر الصليب على شعار الدولة - سويسرة، والنرويج، والدانمارك، والسويد وفنلندة- وهي من أكثر دول أوربة صحة وليبرالية. العلم البريطاني هو تأليف بين ما لا يقل عن ثلاثة صلبان: صليب القديس جورج الإنكليزي، وصليب القديس أندريو الإسكتلندي، وصليب القديس باتريك الأيرلندي.» ثم يضيف أفنيري قائلاً:

«هل يخطر في البال، أن مواطناً يهودياً أو مسلماً في بلد من هذه البلدان سيزعم أن من الصعب عليه أن يتعاطف مع الدولة لأنه قد نقش على علمها الصليب؟ لست أعرف أن مواطنين يهوداً أو مسلمين طلبوا تغيير أعلام هذه الدول.

«يبدأ نشيد بريطانية الوطني بتوجه إلى الله أن يحفظ الملكة - التي هي رأس الكنيسة الإنجليكانية. ومما لا شك فيه أن أي مواطن بريطاني كاثوليكي، أو يهودي أو مسلم سيكون له مشكلة مع النص، كما أن أي ملحد جمهوري قد لا يستسيغ هذا الوضع. فهل أثار يهودي ما أو مسلم ما في بريطانية اقتراح تغيير للنشيد الوطني؟ النشيد الوطني والعلم تعبير عن شعارات تعاطف الأكثرية في دولة قومية: فليسا محايدين، لأنهما بذلك سيفقدان معناهما ويصبحان بلا أي مضمون. من الواضح أنه يصعب على عربي إسرائيلي أن يُنشد نفس يهودي ثائرة، كما يصعب على قريبه في بريطانية أن يتعاطف مع «حفظ الله الملكة» لكن المسلم في بريطانية، حتى إذا لم يُنشد كلمات النشيد الوطني، فإنه يحترمه بوقوف صامت على الأقل.

«إن ما يمكن أن يُطلب إلى اليهود أو المسلمين في الدول الأوربية الديمقراطية السوية، يمكن أن يتوقع أيضاً من العرب مواطني إسرائيل. حكم الأقلية المسلمة أو اليهودية في كل دولة ديمقراطية سوية».

ما يفعله شلومو أفنيري أنه افترض أن الدولة الصهيونية دولة عادية طبيعية مثل أي دولة أخرى، وأن الأقلية العربية فيها، لا تختلف عن أي أقلية أخرى في أي دولة أخرى، أي أنها دعوة للتطبيع، وهذا تزييف ما بعده تزييف. فالأقلية العربية في الدولة الصهيونية ليست مثل الأقليات الإسلامية في الدول الغربية؛ فالأقليات الإسلامية هي التي هاجرت بمحض إرادتها للغرب واستوطنت فيه بموافقة الدول التي هاجروا إليها وحسب قوانينها، أما أعضاء الأقلية العربية في فلسطين المحتلة فهم أصحاب الأرض الأصليون، وكانوا يشكلون الأغلبية الساحقة فيها حتى عام ١٩٤٨. وقد تم طردهم وطرد ذويهم وذبح العديد منهم وهدمت قراهم، ومن نجا منهم تحول إلى أقلية مقهورة تحت الحكم العسكري الصهيوني والحصار الأمني والبطش المؤسسي.

ويفترض مقال شلومو أفنيري أن إسرائيل دولة طبيعية، وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة. فالدولة الصهيونية لا تزال تجمُّعاً استيطانياً وليس دولة للمواطنين الذين

يعيشون داخل حدودها. ويعطي قانون العودة الحق ليهود العالم في «العودة» إلى فلسطين المحتلة على أنها وطن أجدادهم بعد أن تركوها منذ ألفي عام، وينكر هذا الحق على الفلسطيني الذي اضطر لمغادرة فلسطين منذ بضعة أعوام. كما يتبدى الشذوذ البنيوي في علاقة الدولة الصهيونية بالمنظمة الصهيونية وبالوكالة اليهودية، فهي علاقة شاذة ليس لها نظير في الدول الأخرى. وإسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي تتمتع بعضوية مشروطة بهيئة الأمم المتحدة، وشرط قبولها في المنظمة الدولية هو إعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين، وهو الأمر الذي لا توجد أية مؤشرات على احتمال تنفيذه في المستقبل القريب.

ويتبدى شذوذ إسرائيل البنيوي بشكل واضح في علاقتها بالفلسطينيين ومحاولتها الدائبة أن تحاصرهم مجازياً وفعلياً، وأن تفتت وجودهم القومي وأن تضرب عليهم بيد من حديد وأن تستغلهم مادةً بشريةً وسوقاً للسلع. كما يتبدى ذلك في علاقتها بالعالم العربي الذي تراه «المنطقةَ»، أي مجرد مكان لا تاريخ له ولا اتجاه، ولذا فهي تعدّه سوقاً للسلع ومصدراً للمواد الخامّ والعمالة الرخيصة وحسب، وتطرح السوقَ الشرق أوسطية بديلاً للسوق العربية المشتركة.

إلى جانب أن هذا الجيب الاستيطاني يتلقى من الدعم السياسي والعسكري والاقتصادي من الغرب والولايات المتحدة ما لا نظير له في العصر الحديث، وهذا الدعم أصبح هو العمود الفقري للدولة الصهيونية، ولا يمكن لهذه الدولة الاستمرار أو حتى البقاء دونه.

إن مقال أفنيري يعبر بشكل مصقول للغاية عن الخريطة الإدراكية الصهيونية التي تنكر التاريخ وتود أن تمحو الذاكرة، ولكن المقاومة الفلسطينية تذكر الجميع بأن إسرائيل دولة استعمارية استيطانية إحلالية، وأن الشعب الفلسطيني موجود وأنه لن يتنازل عن حقوقه المشروعة.

وإذا كان خطاب شلومو أفنيري مصقولاً ومنمقاً وتغطيه طبقة لامعة من المنطق المغلوط، فإنه في حالة كبير حاخامات اليهود في بريطانية مضحك، فهو يدعو الفلسطينيين لنسيان النكبة (**القدس العربي** ١٥ يونيه ٢٠٠٤) في الوقت الذي يؤكد فيه للعالم أن اليهود لم ينسوا إرتس إسرائيل (أي فلسطين) رغم مرور حوالي ألفي عام، ويرى الحاخام الأكبر أن إصرار الفلسطينيين على عدم النسيان هو الذي يجبر

إسرائيل (المسكينة المظلومة) على بناء جدار الفصل العنصري لحماية نفسها من الفلسطينيين. وقد نجح الصهاينة في إشاعة خريطتهم الإدراكية إلى درجة أنه في إحدى استطلاعات الرأي التي أجريت في إسكتلندة قال ٦٠٪ ممن شملهم الاستطلاع إنَّ الإسرائيليين يعيشون في وطنهم وأن الفلسطينيين يحاولون غزوه!

- **حرب الأغاني**

يشكل الصراع بين العرب والمستوطنين الصهاينة حجر الزاوية في رؤية أعضاء الفريقين، ولذا نجد أن كل فريق يستخدم أي سلاح تقع يده عليه في حربه ضد الآخر. وقد تحولت الأغاني إلى حلبة من حلبات الصراع بينهما. ويمكننا أن نضرب مثلاً بنعومي شومير وهي من أشهر المغنيات الإسرائيليات التي يحفظ الإسرائيليون العشرات من أغانيها عن ظهر قلب، حتى أصبحت أغانيها جزءاً من الثقافة الشعبية الإسرائيلية. وقد وصفت إحدى الجرائد الإسرائيلية هذه الأغاني بأنها تعبر عن «حب الأنغام والأشعار والطبيعة والبشر»، وعن الرؤية الصهيونية للواقع. ولكن ناحوم برنياع في **يديعوت أحرونوت** (٢٨ يونيه ٢٠٠٤) يعطي صورة أخرى، فيقول إنه حينما ذهبت نعومي شومير إلى سيناء بعد احتلالها انفجرت شاعريتها الغنائية وقالت: «هذه الأرض تعطي ولا تأخذ».

ويبدو أن الأخذ يجري في عروقها، خاصة الاستيلاء على أرض الآخرين. ولكن كيف يمكن تبرير ذلك، يأتي الشعار الصهيوني القديم ليؤكد أن فلسطين «أرض بلا شعب» ويجد الشعار صداه في أغنية نعومي شومير «القدس من ذهب» وهي أشهر أغانيها «القومية»، وقد غنتها بعد استيلاء الدولة الصهيونية على القدس عام ١٩٦٧، وأصبحت من أكثر الأغاني شعبية بسبب مشاعر الزهو المتغطرسة التي أمسكت بتلابيب المستوطنين الصهاينة بعد انتصارهم في الحرب. جاء في هذه الأغنية أن «أسواق القدس مهجورة» «ولم نعد نرى النسوة في طريقهن إلى البحر الميت». فتصدى لها الروائي الإسرائيلي عاموس عوز قائلاً إن أسواق القدس كانت تمور بالعرب، ولا تزال النسوة العرب يهرعن إلى البحر الميت. فكان ردها رداً صهيونياً عنصرياً واضحاً إذ قالت: «لقد فكرت ملياً في هذا السؤال والأمر واضح لي تماماً الآن. إن عاموس عوز يقول إن هناك بشراً [في القدس وفي الطريق إلى البحر الميت]، ولكن بالنسبة إليّ أيُّ مكان ليس فيه يهود هو مكان مهجور. أي

مكان لا يوجد فيه يهود هو مكان فارغ، (عزمي بشاره، «أغاني قديمة» الأهرام ويكلي ٥- ١١ أغسطس ٢٠٠٤)، أي إنها لا تزال ترى فلسطين أرضاً بلا شعب.

وكما يقول ناحوم برنياع - في مقاله الذي أشرنا إليه من قبل- إن أرض إسرائيل (أي فلسطين) بالنسبة إليها أرض أحادية القومية، لا يمكنها أن تسع أكثر من شعب، إنها أرض عذراء تنتظر الاحتلال. أما سكانها الأصليون من العرب فهم غير موجودين، وإذا وجدوا فمصيرهم الإبادة. فالعرب - على حد قولها - «يحبون قتلهم ساخناً، رطباً، آنياً»، وهم «إذا ما سنحت لهم الفرصة ومنحوا الحرية لتحقيق ذاتهم»، فهذا يعني نهاية الإسرائيليين أو اليهود على حد قولها، إذ إن حرية العرب ستجعل الإسرائيليين يتمنون الموت، أو كما تقول: «إننا سنشتاق للغازات الجيدة والمعقمة للألمان»، أي إن الوجود العربي فيه دمار للوجود اليهودي الصهيوني لأن «إسرائيل ليست دولة ديموقراطية، إنها دولة يهودية». ولذا تصبح إبادة الآخر أمراً منطقياً وطبيعياً.

كل هذه التصريحات والمواقف التي تنقع عنصرية ووضاعة وخسة، لم يرد لها ذكر في الصحف الأمريكية اليهودية التي أوردت خبر وفاة نعومي شومر، وقدمت بدلاً من ذلك صورة وردية لها بحسبانها مغنيةً إنسانية ديموقراطية علمانية متسامحة، إلى آخر هذه الصفات التي ليس لها أي علاقة بواقعها أو برؤيتها.

وقد اعتادت نعومي شومير الأخذ دون العطاء وأدمنته بشكل لا يمكن الشفاء منه. فقد كشفت صحيفة هآرتس في ملحقها الأسبوعي (٦ أيار ٢٠٠٥) عن مضمون رسالة وجهتها إلى أحد أصدقائها تعترف فيها أنها سرقت لحن أغنية «القدس من ذهب» من أغنية شعبية معروفة في إقليم الباسك في إسبانية. ويبدو أن الاستيلاء على ممتلكات الآخر يجري في العروق الصهيونية. فكلمات نشيد الهاتيكفاه (النشيد الوطني الصهيوني الإسرائيلي) مأخوذة من أنشودة وطنية بولندية وموسيقاه مقتبسة من أغنية شعبية رومانية، كما أن مؤلف النشيد يهودي لم يطق الإقامة في فلسطين، وتركها واستقر في الولايات المتحدة الأمريكية وتنصر!

وتعليقاً على هذا الخبر قال يوري أفنيري، داعية السلام الإسرائيلي، في **الإنترناشيونال هيرالدتريبيون** (حسبما جاء في **الجيروساليم ريبورت** في مقال ستيورات شوفمان بعنوان «معسكران» ٦ مايو ٢٠٠٥) إنَّ أغنية «القدس من ذهب»

قد لاقت المصير نفسه الذي لقيته حرب يونيه ١٩٦٧. «فلم يبق شيءٌ من «أرض إسرائيل الجميلة» إلا ولهٌ رومانسي ممجوج كانت نعومي شومير تحمل لواءه.. إن دولة صغيرة أنيقة تقدمية، يحترمها العالم، أصبحت دولة محتلة؛ دولةً تنهب الآخرين، يتحكم فيها مجموعة من المستوطنين السكارى. لقد تحطمت أسطورة حرب ٦٧ ثم سقطت أسطورة «القدس من ذهب» رمز هذه الحرب. وماذا يمكن أن يكون أكثر رمزية من ذلك؟

هذا بخصوص هذه المغنية الصهيونية العنصرية، وماذا عن المقاومة الفلسطينية؟ من المعروف أن المنتفضين يستخدمون الأغنية سلاحاً أساسياً في عملية التعبئة الجماهيرية، والحفاظ على الهوية، وتتحول حفلاتُ العرسِ الفلسطينيةُ عادةً إلى مناسبات قومية. ويبين مقال في إحدى الصحف الإسرائيلية هآرتس (٢٨ أغسطس ١٩٨٧) «إن أشرطة الأغاني الوطنية الفلسطينية التي تسجل وتوزع في الضفة الغربية وقطاع غزة تضم معظم المكونات الأخلاقية الوطنية الفلسطينية في المناطق: من تمجيد للمقاتلين الذين يحملون السلاح، واحترام للفلاحين المتمسكين بأرضهم والسعي إلى الحرية والاستقلال والتوق إلى الوطن والتمسك بالأرض ... وهي تعكس العالم الروحاني للجيل الشاب في المناطق في مجال الهوية الوطنية». وضرب المقال مثلاً بعبارات ترد في هذه الأغاني من مثل «في قدس القرآن لن يسيطر شعب غريب» و «أريد بناء أرض وتربية أولادي على حب البندقية». ويمكننا أن نشير إلى هذين النصين:

نزلنا الشوارع . . . ورفعنا الرايات

ونغني للحرية . . . أحلى الأغنيات

أغان للحرية . . . والوحدة الوطنية

والحروب الشعبية . . . طريق الانتصارات

وسلاح الأغاني استفاد من ثورة الكاسيت؛ فكل فرد يمكنه الحصول على جهاز تسجيل ببساطة ويمكنه تشغيله ببساطة أيضاً وفي أي مكان وفي أي وقت، أي إن التعبئة من خلال الأغاني لا تفترض انتماء طبقياً محدداً أو توقفاً عن العمل أو عن الحياة. كما أن الجميع يمكنهم أن يفهموا الأغاني ويطربوا لها، فالأغاني

لا تتطلب مستوى ثقافياً محدداً. والأغاني في نهاية الأمر لها امتداد تراثي عميق، فالشعر الغنائي هو النوع الأدبي الذي أبدع من خلاله العرب، وهو الذي يحفظ جزءاً كبيراً من ذاكرتهم التاريخية ومن رؤيتهم لأنفسهم.

ومن الصفات الأخرى الهامة للأغاني أنه من الصعب للغاية مراقبة مضمونها وضبط عملية توزيعها على الرغم من احتوائها على تعابير مباشرة ولاذعة، أي إنَّ الأغاني متحررة إلى حد ما من قبضة النظام الإسرائيلي الكفء الباطش. ورغم أن الحجارة ثم صواريخ القسام هي أهم أسلحة المقاومة الفلسطينية، إلا أن الأغاني سلاح هام للغاية، خاصة في عملية تعبئة وتجنيد الجماهير.

الفصل الثاني عشر

العداء لليهود واليهودية

● إشكالية معاداة اليهود في الغرب

أثير مؤخراً موضوع معاداة السامية؛ والجميع يتعامل مع هذا المصطلح على أنه مصطلح واضح محدد المعالم لا تاريخ له، والأمر عكس ذلك تماماً. والمصطلح ترجمة شائعة للمصطلح الإنجليزي «أنتي سيميتزم» anti-Semitism. ونحن نفضل استخدام عبارة «معاداة اليهود» للإشارة إلى هذه الظاهرة، فهي ترجمه للمفهوم الكامن وراء العبارة الإنجليزية.

وهذا المصطلح يضرب بجذوره في الفكر العنصري الغربي الذي كان يرمي إلى التمييز الحاد بين الحضارات والأعراق، فميَّز في بداية الأمر بين الآريين والساميين على أساس لغوي. وانتهى به الأمر إلى الحديث عن تفوُّق الآريين على (الساميين) (أي اليهود)، هذا العنصر الآسيوي المغروس في وسط أوربة، كما دار الحديث عن خطر الروح السامية على المجتمعات الآرية. وشاع المصطلح منذ ذلك الوقت وقام الدارسون العرب باستيراده وترجمته كما فعلوا مع كم هائل من المصطلحات الأخرى.

وقد اختلط المجال الدلالي للمصطلح تماماً في اللغات الأوربية بعد ظهور الصهيونية. وبعد سيطرة الخطاب الصهيوني على النشاط الإعلامي الغربي، لم تَعُد هناك تفرقة بين ظاهرة معاداة اليهود في الدولة الرومانية وظاهرة معاداة اليهود في العصور الوسطى المسيحية. ولم يَعُد هناك تمييز بين معاداة اليهود على أساس عِرْقي

وبين معاداة اليهود على أساس ديني. وأصبحت معاداة الصهيونية، بل والدولة الصهيونية هي الأخرى، تُصنَّف من ضروب معاداة اليهود. وحينما كانت دول الكتلة الشرقية تصوِّت ضد إسرائيل في هيئة الأمم المتحدة، كان هذا يُعدُّ أيضاً تعبيراً عن تقاليد معاداة اليهودية الراسخة فيها. وبالمثل عُدَّ قيام فرنسة ببيع طائرات الميراج لليبية تعبيراً عن الظاهرة نفسها. بل ويذهب أنصار هذا الرأي إلى أن نضال الشعب الفلسطيني ضد الاستيطان الصهيوني تعبير عن الظاهرة نفسها. وهكذا اتسع المجال الدلالي للمصطلح واضطرب ليضم عدة ظواهر لا يربطها رابط، حتى أصبح بلا معنى، وأصبح أداة للإرهاب والقمع الفكريين.

وقد ظهر مؤخرًا مصطلح «معاداة السامية الجديدة» (أي «معاداة اليهود الجديدة») في المعجم الصهيوني وهو يشير إلى مدلولات عدة من أهمها ما يلي:

١- ما يزعم الصهاينة أنه أشكال جديدة من معاداة السامية، هو في حقيقة الأمر إعادة إنتاج للأشكال القديمة. ويضربون مثلاً لهذا بالعداء للدولة الصهيونية، فحينما ترتكب الدولة الصهيونية مذبحة مثل قانا فتدمغها معظم دول العالم، وحينما تُبنَى مستوطنة جديدة في القدس أو على حدودها وتصدر هيئة الأمم المتحدة قراراً بإدانتها، فإن هذا يكون تعبيراً عن النمط القديم: عداء الأغيار الأزلي لليهود.

٢- يُستخدم المصطلح أيضاً للإشارة إلى ما يسميه الصهاينة «معاداة السامية الإسلامية»، أي عداء المسلمين لليهود. وهم يرون أن هذا النوع من العنصرية آخذ في التزايد حيث ينظر المسلمون إلى اليهود على أنهم «أعداء الله»، وأن إسرائيل تعبير عن المؤامرة اليهودية الأزلية.

ويُفسِّر الصهاينة ـ كما أسلفنا ـ معاداة اليهود واليهودية بأنها تعود إلى كُره الأغيار لليهود عبر العصور، وهو تفسير له من العمومية ما لا يُفسِّر شيئاً البتة. فإذا كان كره الأغيار لليهود ظاهرة ميتافيزيقية متأصلة، فإن المنطقي هو أن يُعبِّر هذا الكره عن نفسه بشكل مطلق، أي بالطريقة نفسها؛ بغض النظر عن الزمان والمكان. ولكن تاريخ عداء اليهود تاريخ طويل ومتنوع ويفتقر إلى الاستمرار التاريخي كما تختلف دوافعه وأسبابه.

ويمكن القول إنَّ العداء لليهود، بوصفه شكلاً من أشكال العداء للأقليات والغرباء والأجانب (و«الآخر» على وجه العموم)، هو إمكانية كامنة في النفس البشرية التي تنفر من كل ما هو غير مألوف، فهو إمكانية كامنة في كل المجتمعات. ولكن ثمة عناصر تؤدي إلى تحوُّل هذه الدوافع النفعية من حالة الكمون إلى حالة التحقق فتتعدَّد الأفعال الفردية وتصبح ظاهرة اجتماعية، وتتغلغل في بنية المجتمع ذاته.

ولعل من أهم الأسباب التي أدَّت إلى ظهور معاداة اليهود وانتقالها من حالة الكمون إلى مستوى البنية الاجتماعية أن معظم الجماعات اليهودية كانت تشكل جماعات وظيفية قتالية وتجارية في المجتمعات القديمة، وكذلك في المجتمع الغربي في العصر الوسيط حتى القرن التاسع عشر. وقد كانت الجماعات الوظيفية تتكون دائماً من عناصر بشرية غريبة عن المجتمع حتى يمكنها أن تضطلع بوظائف كريهة أو مشبوهة أو متميِّزة تتطلب الموضوعية وعدم الانتماء، مثل: التجارة والربا والقتال والبغاء.

ولكن أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة، برغم غربتهم وتميزهم، كانوا يجدون أنفسهم في قلب الصراعات المختلفة في المجتمع، وبخاصة الصراعات الناشبة بين أعضاء النخبة الحاكمة وبين الطبقات الأخرى للمجتمع، خصوصاً الطبقات الشعبية، إذ إنَّ قطاعات من النخبة الحاكمة كانت تستخدم أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة لضرب بعض طبقات المجتمع لاستغلالها أو كبح جماحها. فأعضاء الجماعة هم سوط في يد الحاكم، أو هكذا كان يراهم المحكومون، ولكنهم أيضاً كبش الفداء الذي يتم التخلص منه عند الحاجة وأمام الهجمات الشعبية، فالأداة ليست غاية في ذاتها.

ومن القضايا التي يجب أخذها في التقدير، أثناء دراسة ظاهرة معاداة اليهود، الإطار السياسي العام الذي يتم فيه هذا العداء. ويتضح هذا في موقف الإمبراطورية الرومانية حين صبَّت جام غضبها على العناصر المتمردة التي كانت في فلسطين تهدد السيطرة الإمبراطورية، ولكنها تحالفت في الوقت نفسه مع أثرياء اليهود الذين كانت مصالحهم مرتبطة بمصلحة الإمبراطورية.

ويتضح الشيء نفسه في موقف الإمبراطورية البريطانية التي قامت بتأييد مشروع الاستيطان الصهيوني ودعمه رغم وجود قطاع داخل أعضاء النخبة الحاكمة

الإنجليزية (وبين الطبقات الشعبية) يكن الكراهية لليهود، خصوصاً للمهاجرين. فالمصالح الإمبراطورية (لا حب اليهود) هي التي دفعت إنجلترة إلى تبنِّي المشروع الصهيوني.

ومعاداة السامية، شأنها شأن الفكر العنصري كُلِّهِ تصل إلى مقولاتها الإدراكيةِ من خلال عمليات فكرية تنحو نحو التجريد والتبسيط والتسطيح والاختزال، مثل التركيز على عنصر من الواقع دون غيره، و تعميم ما يرتكبه بعض أعضاء الجماعات اليهودية من جرائم أو أخطاء على كل أعضاء الجماعات اليهودية، ثم التركيز بعد ذلك على ما يُسمَّى «الشخصية اليهودية» بكل ما تتسم به من شرور وعنف مزعومَيْن. كما يتم فصل أعضاء الجماعات اليهودية عن سياقهم الاجتماعي والحضاري الذي قد يفسر بعض جوانب سلوكهم السلبي؛ كما يلاحظ عدم الربط بين الجماعات اليهودية وغيرها من الجماعات البشرية التي قد تشترك معها في الصفات السلبية نفسها، وذلك بهدف خلع صفة الإطلاق على صفات اليهود حتى تكتسب بعداً نهائياً وتبدوَ كأنها مقصورة عليهم دون سواهم من البشر. ومن أهم آليات الاختزالية العنصرية إسقاط عناصر عدم التجانس بين الجماعات اليهودية المختلفة وعناصر الاختلاف والصراع بين أعضائها وإسقاط واقع انقسامهم إلى طبقات وجماعات مختلفة، فيصبح اليهود كلّاً واحداً متجانساً يُسمَّى «الشعب اليهودي» أو «اليهود».

ولقد أشرنا من قبل إلى اتجاه العنصريين إلى تجريد اليهود واختزالهم عن طريق عزلهم عن سياقهم التاريخي وعن غيرهم من الجماعات البشرية وحسبانهم كُلّاً واحداً متجانساً. وهنا نضيف أن الصهاينة يفعلون الشيء نفسه فهم يرون اليهود باعتبارهم جماعات يهودية غير متجانسة وإنما شعباً يهودياً واحداً كما أن الصهاينة في دراستهم لما يلحق اليهود من اضطهاد، يقومون بعزل ظاهرة اضطهاد اليهود عن الظواهر المماثلة أو المختلفة في المجتمع. وبهذه الطريقة، يصبح هذا الاضطهاد شيئاً فريداً غير مفهوم؛ ويصبح عداء الأغيار لليهود أمراً ثابتاً وتعبيراً عن الطبيعة الشريرة للأغيار. ولذا، فحينما ندرس ظاهرة اضطهاد أعضاء الجماعات اليهودية، فإنه لابد من وضعها في سياقها التاريخي.

وتتمثل السمة الأساسية في أدبيات معاداة اليهود في العصر الحديث أن تُنسب إلى اليهودي صفات خفية ثابتة لصيقة به لا يمكنه التخلص منها إذا شاء أن يفعل.

فبينما كان بوسع اليهودي في الماضي أن يتخلص من هويته تماماً عن طريق التنصر ودخول الكنيسة التي كانت تفتح له دائماً ذراعيها، فإن هذا البديل لم يَعُد مطروحاً في العصر الحديث، مع ظهور النظريات المادية التفسيرية (للإنسان والكون) التي تفسر الكون في إطار مجموعة من القوانين المادية الحتمية التي تخضع لها الظاهرة. إذ إن سمات اليهودي وخصائصه أصبحت خصائص وراثية وسمات بيولوجية ذات جذور مادية عرقية ومن ثم لا يمكنه الفكاك منها مهما بذل من جهود. بل إن اندماج اليهود، ورغبة بعضهم في الهرب من يهوديتهم تشبُّهاً بالأغلبية، هما في الواقع (حسب الرؤية الحديثة لمعاداة اليهود) مؤشراتٌ على نجاحهم في التخفي والتمسك بالهوية!

- **أسباب معاداة اليهود في الغرب في العصر الحديث**

ثمة أسباب كثيرة أدَّت مجتمعة إلى تفجر موجة معاداة اليهود في أوربة أواخر القرن الماضي:

١- أدت الثورة الصناعية والثورة الليبرالية، وظهور الدولة القومية، إلى فقدان اليهود لدورهم التقليدي بوصفهم جماعة وظيفية وسيطة، إذ ظهرت طبقات محلية يمكنها أن تضطلع بهذا الدور.

٢- وجود أغلبية يهود العالم في أوربة الشرقية (يهود اليديشية) في بلاد لم تَسد فيها المثل القومية الليبرالية، وفي مناطق حدودية متنازع عليها، وفي روسية (البلد الذي كانت تحكمه بيروقراطية متخلفة لا تفهم وضع اليهود).

٣- لم يساعد التحديث في وسط أوربة وشرقها في نهاية القرن التاسع عشر كثيراً على استيعاب اليهود الذين فقدوا وظائفهم التقليدية.

٤- من أهم أسباب تزايد مشاعر العداء لليهود الانفجار السكاني بين يهود اليديشية في شرق أوربة في وقت سادت فيه أفكار مالتوس وزاد الحديث عن وجود فائض سكاني لابد من التخلص منه. وقد صدرت شرقُ أوربة ملايين اليهود إلى وسطها وغربها وإلى الولايات المتحدة. وكان يهود شرق أوربة كتلة متميزة متخلفة متحللة، وكان وصولهم يصعِّد مشاعر الكراهية ضدهم. وكان السكان لا يميزون بين اليهود الوافدين واليهود الأصليين؛ إذ إن

الجميع مجرد «يهود». ولم يكن الوافدون يهوداً وحسب، وإنما أجانب في الإلزاس وغرباءَ أيضاً. وكان اليهود مرتبطين أحياناً بالعدو، كما هو الحال في فرنسة، وخصوصاً في الإلزاس واللورين، فاليديشية التي كانوا يتحدثون بها كانت رطانة ألمانية.

٥- انتشر اليهود في المجتمعات الغربية بعد أن ضعفت هويتهم وقيمهم الدينية، وبعد أن اقتلعوا من محيطهم الثقافي المألوف لهم. ولذا، كانت تنتشر بينهم ظواهر مثل الغش والسرقة، الأمر الذي عزز من الصور الإدراكية السلبية عنهم.

٦- ظهور الإمبريالية الغربية، والنظريات العرقية والداروينية التي صاحبتها، والتي جعلت من الصراع حقيقة أساسية في الوجود الإنساني وقبلت القوة العضلية معياراً أساسياً.

وقد أدت كل هذه الأسباب مجتمعة إلى تحول كُره اليهود من مجرد عواطف إنسانية كامنة إلى حركات سياسية.

وتطرح الصهيونية نفسها العقيدةَ التي حررت اليهود من كُرههم لأنفسهم وزادت في احترام الشعوب لهم، وزادت، من ثم، في احترامهم لأنفسهم. ولكن الدارس المدقق سيكتشف أن الصهيونية هي تعبير عن ظاهرة معاداة السامية:

١- فالصهيونية كما أسلفنا، تنظر إلى اليهود نظرة في جوهرها عنصرية اختزالية؛ إذ تراها كلّاً واحداً متجانساً، فهو تعبير عن جوهر يهودي ثابت، وهذا هو جوهر معاداة السامية.

٢- تصدر الصهيونية عن نقد عميق لما يُسمَّى «الشخصية اليهودية التقليدية» (وهو نقد مستمد من المقولات الأساسية لأدبيات معاداة السامية وأنماطها الإدراكية لليهود واليهودية). وتوجد العديد من الإشارات في الصهيونية إلى اليهود بالنظر إليهم بكتريا وحيوانات طفيلية، ولذا تحاول الصهيونية إصلاح هذه الشخصية اليهودية وتخليصها مما يتصوره الصهاينة هامشيتها وخضوعها بل تحاول تطبيعها، فيصبح اليهود مثل الأغيار وتصبح الدولة الصهيونية دولة مثل كل الدول.

٣- تطالب الصهيونية بتصفية الجماعات اليهودية خارج فلسطين فيما يسمى «نفي الدياسبورا».

٤- كان واضعا الأطروحات الصهيونية الأولى (هرتزل ونوردو)، وهما من اليهود الألمان المندمجين، كانا يفكران في الصيغة الصهيونية خوفاً من توافد يهود اليديشية لا حباً فيهم، وكانت الصهيونية منذ البداية صهيونية توطينية بالنسبة إلى يهود الغرب المندمجين واستيطانية بالنسبة ليهود شرق أوربة الذين سيصدَّرون إلى خارج أوربة حتى يتم التخلص منهم، وحتى يحافظ يهود الغرب على مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية.

٥- لم يحقق المشروع الصهيوني النجاح إلا بعد أن ظهرت قيادات صهيونية مندمجة تسلمت قيادة الجماعات اليهودية وحلّت محل القيادات الحاخامية التقليدية و«باعت» المشروع الصهيوني للحضارة الغربية. ولم تنجح هذه القيادة في فرض نفسها إلا بعد أن وافقت عليها السلطات الاستعمارية الغربية، أي إنها قيادة شبه يهودية تستند إلى شرعية غير يهودية!

ومن ثم، يمكن عدُّ الحركة الصهيونية تعبيراً عن ظاهرة معاداة السامية لا تقبلاً للهويات اليهودية المختلفة.

- **معاداة اليهود في العالم العربي**

تحاول الأدبيات الصهيونية في الآونة الأخيرة أن تبيِّن أن ظاهرة العداء لليهود واليهودية ظاهرة متأصلة في المجتمعات العربية وفي التراث الإسلامي وفي الحضارة الإسلامية. وهذه المحاولة جزء من المحاولة الصهيونية المستمرة لتشويه صورة العرب والمسلمين. إلا أنها تعبِّر أيضاً عن رغبة الصهاينة الدفينة في تناسي تاريخ الجماعات اليهودية في الغرب، وتراث العداء لليهود واليهودية الثري الطويل الممتد، الذي انتهى بطردهم وإعادة توطينهم في فلسطين في إطار المشروع الصهيوني.

وعبر التاريخ الإسلامي كان وضع الجماعات اليهودية مستقراً إلى حد كبير. ولكن الوضع تغيَّر بشكل حاد في العصر الحديث، فيُلاحَظ انشغال عربي وإسلامي كبير بالشأن اليهودي. وبدأت تظهر أدبيات كثيرة كتبها عرب ومسلمون تدور في إطار

مفاهيم ومقولات عنصرية (معظمها مستورد من العالم الغربي). ومن بين هذه المقولات أن اليهود مسؤولون عن كل أشرار العالم، كما هو مدوَّن في بروتوكولات حكماء صهيون (الذي يقرؤه كثيرون)، وفي التلمود (الذي لم يقرأه أحد). وبدأ الحديث عن المؤامرة التي يحيكها اليهود ضد المسلمين والعرب، وارتبط اليهود بالشيطان وبالصور الإدراكية النمطية الاختزالية السلبية في عقل كثير من العرب والمسلمين. وبدأت تظهر في الصحف والمجلات وعلى أغلفة الكتب بعضِها صورة اليهودي ذي الأنف المعقوف الذي تقطر أظافره دماً والذي يمتص دماء الآخرين وأموالهم. وتُرجمت البروتوكولات التي يعتقد بعضٌ أنها من كتب اليهود المقدَّسة، كما نُشرت مقتطفات متفرقة من التلمود. بل بدأ بعض المسلمين يرون أن «اليهودية» صفة بيولوجية تورَّث، أي أن اليهودي - حسب هذه الرؤية - هو من وُلد لأم يهودية، وهو تعريف قد يتفق مع العقيدة اليهودية ولكنه لا يتفق البتة مع العقيدة الإسلامية التي لا ترى الدينَ أمراً يورَّث، وإنما هو رؤية يؤمن بها من شاء.

ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أنه كلما ازداد الرعب من إسرائيل و«اليهود» ازدادت صورة اليهودي سوءاً، وكلما ازداد الأنموذج التفسيري التآمري الذي ينسب لليهود قوى عجائبية انتشاراً، وهو أنموذج يصوِّر اليهود قوةً أخطبوطيةً لا تُقهَر، فهم يمسكون بكل الخيوط ويُحركون كل القوى (الرأسمالية والاشتراكية) حتى ينفذوا مخططهم اليهودي الجهنمي المستقل، وما اللوبي الصهيوني سوى تعبير جزئي عن مخطط صهيوني أشمل.

ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أن هذه الرؤية العنصرية تُترجم نفسها إلى كُره أعمى يُطالب بملاحقة اليهود والانتقام منهم وطردهم من أوطانهم والتضييق عليهم. وما ينساه حملة هذه الرؤية أن المواطن اليهودي الذي يتم التضييق عليه وطرده من وطنه يضطر للهجرة إلى فلسطين ليصبح مستوطناً صهيونياً يحمل السلاح ضدنا، فكأن العداء العربي لليهود له مردود صهيوني. ومن المعروف أن الحركة الصهيونية قامت بالتضييق على يهود العراق وخلقت وضعاً صهيونياً بنيوياً اضطرهم للاستيطان في فلسطين.

ورغم رفضنا المبدئي للخطاب الاختزالي الواحدي العنصري التآمري، ورغم إدراكنا لسلبياته من الناحية الأخلاقية والمعرفية والنفسية، إلا أننا يجب أن نفهم سر

ذيوعه وانتشاره وهيمنته على بعض الكُتَّاب الشعبيين (في الصحف والمجلات) وبعض أعضاء النخب العربية السياسية والثقافية.

١- حينما ظهر «اليهودي» في العصر الحديث على شاشة الوعي العربي والإسلامي فقد ظهر داخل التشكيل الإمبريالي الغربي، وجاء إلى بلادنا ممثلاً له حاملاً لواءه وعميلاً له.

٢- من الأمور التي رسَّخت فكرة المؤامرة والهيمنة اليهودية على العالم في الوجدان العربي، الدعم الغربي للتجمُّع الصهيوني بغير تحفُّظ أو شروط أو حدود أو قيود. وهو دعم سياسي واقتصادي وعسكري.

٣- قامت الدولة الصهيونية تعبيراً عن مشروع استيطاني إحلالي عليه أن يلجأ إلى الحد الأقصى من العنف ليتخلص من السكان الأصليين، بما في ذلك الإبادة والطرد والعزل. وقد سمت هذه الدولة نفسها «الدولة اليهودية» فربطت بين اليهودي والعنف والإرهاب.

٤- والأسوأ من هذا أن هذه الدولة ادَّعت أنها تتحدث باسم كل يهود العالم أينما كانوا، ومن ثم فهي تتحدث باسم يهود البلاد العربية، بل تطالب بالتعويضات باسمهم، فكأن الدولة الصهيونية تنكر أن أعضاء الجماعات اليهودية مواطنون في بلادهم، وتدعم الصورة الإدراكية العرْقية أن اليهودي لا انتماء له وأنه يدافع عن مصالحه اليهودية وحسب.

هذه هي بعض الأسباب التي أدَّت إلى هيمنة الرؤية التآمرية على إدراكنا لليهود في العالم العربي وإلى ذيوع البروتوكولات وغير ذلك من كتابات عنصرية تهدف إلى تفسير الواقع بشكل سريع سهل؛ وإلى تفريغ شحنة الغضب عند كثير من العرب. ولكن التفسيرات الاختزالية السهلة وتفريغ شحنة الغضب وتبرير هزيمتنا أمام أنفسنا بان ننسب لعدونا قوة خارقة وسيطرة لا حدود لها، له جوانبه السلبية العديدة، والمطلوب هو أن نفهم أسباب الغضب وأن نفسر أسباب الظاهرة الصهيونية ونحاول استثمار فهمنا وإدراكنا في إطار مشروع نضالي إنساني يهدف إلى تصفية الجيب الاستيطاني الصهيوني ولا يسقط في العنصرية العمياء.

• الجماعة الوظيفية

لابد من معرفة عدونا حق المعرفة ومن إدراكه حق الإدراك. ولكن الإدراك الحقيقي المركب، هو إدراك للمعلومات والبيانات داخل نمط متكرر وإلا لواجهتنا المعلومات المتناثرة الجزئية وكأنها لا معنى لها. ومن الملاحظ أنه حينما تفصل المعلومات عن النمط فإنه يمكن توظيفها بأي شكل يراه الباحث. وهذا ما يفعله العنصريون عادة، إذ إنهم يأخذون صفة سلبية واحدة من صفات أعضاء الأقليات فيفصلونها عن صفاتهم الأخرى (المحايدة أو الحميدة) ثم يفصلونها عن الصفات المماثلة التي قد تتوافر في أعضاء الأقليات الأخرى، بل وأحياناً أعضاء الأغلبية، ثم عن الظروف التاريخية والاجتماعية التي أدت إلى اتصاف عضو الأقلية بهذه الصفة، فتصبح الصفة السلبية وكأنها إحدى السمات الأساسية للطبيعة الأزلية لأعضاء هذه الأقلية والمقصورة عليهم وحدهم. وبطبيعة الحال من خلال عملية فصل المعلومة عن النمط يمكن للعنصري أن يجد معلومات متناثرة هنا وهناك تؤيد «أطروحته».

ويتهم العنصريون اليهود (على عمومهم) بأنهم تجار وغشاشون ومرابون بطبيعتهم، وهو اتهام ليس له ما يسانده في الواقع. فهناك يهود لا يعملون بالتجارة أو الربا، وهناك غير يهود يعملون بالمهنتين، فالاتهام العنصري لليهود، غير واقعي وغير عملي وغير أخلاقي، ولا يفيد كثيراً في رسم خريطة معرفية دقيقة للآخر. ومع هذا يلاحظ اشتغال بعض أعضاء الجماعات اليهودية (خاصة داخل التشكيل الحضاري الغربي) بالتجارة والربا بدرجة ملحوظة، وهو أمر يحتاج للفهم والتفسير.

ولإنجاز ذلك طورتُ في **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية** مفهوم الجماعة الوظيفية. و«الجماعات الوظيفية» هي مجموعات بشرية صغيرة يقوم المجتمع باستيرادها من خارجه أو تجنيدها من داخله ثم يسند إليها وظائف شتى يرى أعضاء هذا المجتمع أنهم لا يمكنهم الاضطلاع بها لأسباب مختلفة، قد تكون هذه الوظائف مشينة في نظر المجتمع ولا تحظى بالاحترام في سلم القيم السائد، وقد تكون متميِّزة ومهمة، وقد يتطلب الاضطلاع بها قدراً عالياً من الحياد والتعاقدية لأن المجتمع يريد الحفاظ على قداسته وتراحمه ومثالياته.

وبعد أن يتم استيراد أو تجنيد العنصر الوظيفي يدخل أعضاء المجتمع المضيف، مع أعضاء الجماعة الوظيفية، في علاقة تعاقدية نفعية محايدة رشيدة واضحة لا تركيب فيها ولا إبهام، ويقوم كل طرف في العلاقة بحوسَلة الطرف الآخر (أي يحوله إلى وسيلة) والنظر إليه على أنه وسيلة لا غاية، وأنه مادة نافعة يتم التعامل معها بمقدار نفعها.

ويحتفظ أعضاء المجتمع المضيف وأعضاء الجماعة الوظيفية بمسافة فيما بينهما. فيقوم المجتمع المضيف بعزل أعضاء الجماعة الوظيفية فيعانون إحساساً عميقاً بالغربة. وفي جميع الأحوال كان أعضاء الجماعة الوظيفية يصبحون قريبين من النخبة الحاكمة يمارسون إحساساً بالولاء العميق تجاهها، فهي التي تستوردهم وهي التي توظفهم وتوكل لهم مهام لا يمكن أن توكل لعضو المجتمع المضيف.

ويُعرِّف مجتمع الأغلبية عضو الجماعة الوظيفية من خلال وظيفته وحسب (لا من خلال إنسانيته الكاملة) وبذلك يصبح عضو الجماعة الوظيفية إنساناً ذا بُعد واحد، يمكن اختزال إنسانيته إلى هذا البعد أو المبدأ الواحد وهو وظيفته.

وينتج عن هذا الوضع انفصال أعضاء الجماعات الوظيفية عن الزمان والمكان اللّذَيْن يعيشون فيهما، ومن ثم غالباً ما يرتبط أعضاء الجماعة الوظيفية عاطفياً بوطن أصلي (صهيون - الصين - القبيلة - العائلة) يصبح موضعَ ولائهم وحبهم وعاطفتهم المشبوبة ويتصورون أنهم جزء من تاريخه وتراثه، فيتعمق شعورهم بالغربة نحو المجتمع المضيف، ويعيشون فيه دون أن يكونوا منه، ويتطور لديهم إحساس عميق بهويتهم المستقلة (مركب الشعب المختار المنفي أو الشعب العضوي المنبوذ). ولكن الجماعة الوظيفية (والوظيفة، ذاتها) هي، في واقع الأمر، موضع الولاء الفعلي والمباشر لعضو الجماعة الوظيفية، فهي أساس وجوده وهويته، إلا أن المعجم الحضاري لأعضاء الجماعة الوظيفية لا يختلف في واقع الأمر عن معجم مجتمع الأغلبية إلا في بعض التفاصيل الخاصة، فهم آلة لا وطن لها اسماً، ولكنهم يعيشون فعلاً في المجتمع المضيف، يؤدون وظيفتهم فيه بشكل يومي، ومن ثم فهويتهم هوية وهمية.

ويُطوِّر طرفا العلاقة (أعضاء الجماعة الوظيفية والمجتمع المضيف) رؤية أخلاقية ثنائية، فما يسري على الواحد من قيم أخلاقية مطلقة لا يسري على

الآخر، فالآخر في هذه العلاقة يقع خارج نطاق الحرمات والمطلقات الأخلاقية وبما أن الجماعة الوظيفية شعب مختار، ويحاول كل طرف تعظيم منفعته ولذته مستخدماً الآخر. لكل هذا، يتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بالحركية البالغة، وهذا أمر مرتبط بكونهم عنصراً نافعاً وآلة يمكن نقلها من مكان إلى آخر.

وقد ولَّدتُ من مفهوم «الجماعة الوظيفية» مفهوم «الإنسان الطبيعي/ المادي»، وهي – في تصوري- صورة الإنسان الكامنة في المنظومة الحداثية المنفصلة عن القيمة.

هذا الإنسان الطبيعي/ المادي هو في جوهره ظاهرة طبيعية/ مادية وليس ظاهرة تاريخية حضارية متميِّزة كما قد يتراءى لنا لأول وهلة، وفضاء هذا الإنسان هو الفضاء الطبيعي/ المادي، وحدوده هي حدود الطبيعة/ المادية. وهو لا يُعرَّف في إطار مقولات تاريخية حضارية وإنما في إطار مقولات طبيعية/ مادية: وظائفه البيولوجية (الهضم – التناسل – اللذة الجنسية)، ودوافعه الغريزية المادية (الرغبة في البقاء المادي – الرغبة في الثروة)، والمثيرات العصبية المباشرة (البيئة المادية – الغدد – الجهاز العصبي).

وقد تفرع عن هذا الإنسان الطبيعي/ المادي نمطان إنسانيان آخران قد يختلفان في مضمونهما عن الإنسان الطبيعي/ المادي أو عن بعضهما بعضاً، ولكنهما، في التحليل الأخير، واحد في بنيتهما وفي أحاديتهما وفي تجردهما من الإنساني والتاريخي وفي أنهما يُعرَّفان في إطار ما هو مادي وكامن فيهما. وهذان النمطان هما ما يلي:

١- الإنسان الاقتصادي: وهو إنسان متحرر تماماً من القيمة، أحادي البعد، دوافعه الأساسية اقتصادية بسيطة، وما يحركه هو القوانين الاقتصادية وحتمياتها، إنسان لا ينتمي إلى حضارة بعينها وإنما ينتمي إلى عالم الاقتصاد العام المجرد. وهو لا يعرف الخصوصية ولا الكرامة ولا الأهداف السامية التي تتجاوز الحركة الاقتصادية، وهو يجيد نشاطاً واحداً هو البيع والشراء ومراكمة الأموال وإنفاقها. والإنسان الاقتصادي هو الإنسان الكامن في كتابات آدم سميث وهو موضع نقد ماركس اللاذع.

٢- الإنسان الجنسي أو الجسماني: وهو أيضاً أحادي البعد، متحرر من القيمة، وهو الآخر دوافعه بسيطة وما يحركه رغباته وملذاته وشهواته وجهازه العصبي. وهو بلا شك إنسان لا ينتمي إلى حضارة بعينها، فعالمه عالم اللذة التي لا تعرف الزمان أو المكان. ولذا فهو لا يعرف الخصوصية، ولا تجد المثاليات، التي تتجاوز اللذة الآنية، مثل الكرامة والشرف، طريقها إليه. وهو لا يجيد إلا نشاطاً واحداً وهو البحث المحموم عن اللذة. والإنسان الجسماني هو الإنسان الذي اكتشفه سيجموند فرويد، وتارة يمتدحه ويقرظه، وتارة يوجه له النقد اللاذع.

وقد ظهر الإنسان الاقتصادي في المراحل الأولى من الرأسمالية (المرحلة التقشفية التراكمية الصلبة). ثم ظهر الإنسان الجسماني في المرحلة اللاحقة (المرحلة الاستهلاكية الفردوسية السائلة). ويمكن القول إنَّ صورة الإنسان المركزية الآن في الحضارة الرأسمالية هي خليط من الإنسان الاقتصادي والإنسان الجسماني. ورغم هذا «التطور التاريخي» إلا أنه يمكن القول إنَّ الإنسان الطبيعي هو ذاته الإنسان الاقتصادي، وهو ذاته الإنسان الجسماني، قد تختلف المضامين لكن البنية واحدة، ولو أننا وضعنا كلمة «اقتصاد» أو كلمة «جنس» محل كلمة «طبيعة» لظل كل شيء على ما هو عليه ولما غيرنا شيئاً في خطابنا.

- **تهويد المجتمع**

ويمكننا الآن أن نخطو خطوة إلى الأمام ونتحدث عن الإنسان الوظيفي، عضو الجماعة الوظيفية. وسرعان ما سنلاحظ أن هذا الإنسان لا يختلف كثيراً عن الإنسان الطبيعي/ المادي أو التنويعات المختلفة عليه، ولكنه بدلاً من أن يُعرَّف في إطار وظائفه البيولوجية أو دوافعه الاقتصادية أو الغريزية (المادية) يُعرَّف في إطار ما يوكل إليه من وظائف أو أدوار اجتماعية. وإذا كان الإنسان الطبيعي ليس له حدود مغايرة لحدود الطبيعة/ المادة، وإذا كان فضاؤه هو الفضاء الطبيعي/ المادي، فعضو الجماعة الوظيفية هو الآخر يكرِّس حياته لأداء وظيفته حتى تصبح حدوده هي حدودها وفضاؤه هو فضاؤها. وإذا كان الإنسان الطبيعي يستمد معياريته من الطبيعة/ المادة (بكل حتمياتها) فالإنسان الوظيفي يستمد معياريته من وظيفته (بكل حتمياتها أيضاً).

وإذا كان الإنسان الطبيعي/ المادي يذعن للقانون الطبيعي العام فإن الإنسان الوظيفي يذعن لقانون الوظيفة. إن «المبدأ الواحد الكامن في الطبيعة المادة» في حالة الإنسان الطبيعي يصبح «المبدأ الواحد الكامن في الوظيفة» في حالة الإنسان الوظيفي. إن كلاً من الإنسان الطبيعي/ المادي والوظيفي إنسان أحادي البعد خاضع للقانون العام وللحتميات الخارجية. وكلاهما مغسول تماماً في الرشد المادي والتعاقد الصارم والحياد الكامل والبرود الموضوعي، وكلاهما تم استيعابه في برنامج محدد (طبيعي/ مادي أو وظيفي) لا يمكنهما تجاوزه، وتم ترشيدهما في إطاره، وكلاهما إنسان مجرد براني، يوجد خارج إطار العلاقات الأولية المتعينة، وكلاهما إنسان ذو بُعد واحد، متشيّئ، لا قداسة له، يدور في إطار المرجعية النهائية المادية.

وقد كان الإنسان الوظيفي (عضو الجماعة الوظيفية) مُهمَّشاً، شأنه في هذا شأن الجماعة الوظيفية. ولكن مع تحول المجتمعات الغربية (ثم بقية المجتمعات في العالم) من الزراعة إلى الصناعة تم إشاعة أنموذج الإنسان الطبيعي/ المادي (الاقتصادي) في المرحلة التقشفية التراكمية.

وقد وصف ماركس (وإنجلز) في **البيان الشيوعي** بدقة بالغة عملية ظهور الإنسان الطبيعي/ المادي الاقتصادي (فالإنسان الجسماني لم يكن قد ظهر بعد إبان المرحلة التي كان يكتب فيها ماركس. وحتى حينما يشير ماركس إلى العلاقات الجنسية [«لقد أصبحت العلاقات بين الرجل والمرأة موضوعاً للتجارة، فالمرأة سلعة يتاجر بها»] فإنه يفعل ذلك من منظور نقده لإنسان الرأسمالية الاقتصادي). يقول ماركس في إطار حديثه عن دور البورجوازية الثوري في التاريخ، إن تلك البورجوازية سحقت تحت أقدامها جميع العلاقات الإقطاعية والبطريركية والعاطفية، ولم تبق أية صلة بين الإنسان والإنسان إلا صلة المصلحة الجافة والدفع الجاف نقداً وعداً، أي أنها قوضت الحيز الإنساني تماماً، وأبقت الحيز الاقتصادي المادي أو الوظيفي وحسب (وهذا هو ما يعنيه في **رأس المال** حينما يتحدث عن علاقات موضوعية بين بشر، وعلاقات اجتماعية بين سلع). يستمر ماركس في **البيان الشيوعي** في حديثه عن البورجوازية الثورية فيقول إنها أغرقت الحمية الدينية وحماسة الفرسان ورِقَّة البرجوازية الصغيرة في مياه الحساب الجليدية

المشبعة بالأنانية، وجعلت الكرامة الشخصية مجرد قيمة تبادل لا أقل ولا أكثر، وقضت على الحريات الجمة، المكتسبة والممنوحة، وأحلت محلها حرية التجارة وحدها، هذه الحريةَ القاسيةَ التي لا تعرف الشفقة أو الرحمة. فالمجتمع البرجوازي مجتمع تعاقدي تحل فيه قيمة التبادل محل القيم الإنسانية كافة، ويعرف البشر في ضوء نفعهم وتسود فيه النظم المعرفية والاقتصادية والأنانية التعاقدية.

وقد أشار ماركس في **المسألة اليهودية** إلى التجربة الرأسمالية الكبرى في أمريكة الشمالية بقوله: «إن مامون (إله المال) هو الوثن الذي يعبدونه هناك بجميع قوى أجسادهم وأرواحهم؛ فالأرض في نظرهم ليست سوى بورصة وهم موقنون بأنهم لا مصير لهم في الحياة الدنيا سوى أن يصبحوا أغنى من جيرانهم. لقد استولت المتاجرة على جميع أفكارهم وليس لديهم تسلية أخرى سوى تبديل أمتعتهم»، وهم «لا يتحدثون إلا عن المنفعة والربح» و«النبؤة الدينية أصبحت سلعة تجارية». إن وصف ماركس هنا لإنسان المجتمعات الرأسمالية هو وصف دقيق لكل من الإنسان الطبيعي/ المادي (الاقتصادي) والإنسان الوظيفي.

ولكن ماركس مع هذا وصف هذه العملية بأنها عملية «تهويد المجتمع»، رغم أنه كان يعلم تمام العلم أن اليهود لم يكونوا وحدهم الضالعين في هذه العملية الانقلابية الكبرى. فكيف انتقل ماركس، بهذه البساطة، من العام (الإنسان الاقتصادي) إلى الخاص (الإنسان اليهودي)؟ يجب أن نشير ابتداء إلى أن ماركس كان يرى أن روح الرأسمالية مستمدة من اليهودية (لا من البروتستانتية كما قال ماكس فيبر). ولعله كان يعني أن الأنموذج المعرفي الذري المتفتت الأناني الذي يشكل جوهر الرأسمالية يوجد في اليهودية بشكل أكثر تبلورا منه في المسيحية. وسيادة النمط المعرفي الكامن في اليهودية يعني في واقع الأمر الانتصار الكامل للرأسمالية ولإنسانها الاقتصادي. ولكن اليهودي، بالنسبة إلى ماركس، هو سيد السوق المالية، وبواسطته أصبح المال (إله إسرائيل الطماع) قوة عالمية، وأصبحت الروح العملية اليهودية هي الروح العملية للشعوب المسيحية. ويمكن القول إنَّ ماركس لا يفرق بين «اليهودي والتاجر»، بل يقرن بينهما، كما أنه لا يفرق بين «اليهودية» و«المتاجرة» و«المنفعة العملية» و«الأنانية» بل يقرن أيضاً بينها. فهو يقول: «التبادل التجاري هو الإله الحقيقي لليهود وأمامه ينبغي ألّا يعيش أي إله آخر» - «المال هو إله إسرائيل الطماع ولا إله سواه». إن اليهودي - حسب تصور

ماركس - هو الإنسان الاقتصادي بامتياز. وتاريخ التحول التدريجي للمجتمعات الغربية وهيمنة العلاقات البرجوازية التعاقدية وظهور الإنسان الاقتصادي هو في واقع الأمر تاريخ «التهويد» التدريجي لأوربة، أي تاريخ تزايد هيمنة الأنموذج التجاري التعاقدي البارد، وهو أيضا تاريخ علمنة إله إسرائيل وتحويله إلى إله العالم، فالبنكنوت (الرب العملي لإسرائيل) أصبح رب العالم الغربي الرأسمالي.

إن ماركس حول الكينونة اليهودية إلى وظيفة فأصبح التاجر هو «اليهودي» وبدلاً من الحديث عن الإنسان الاقتصادي أو الإنسان الوظيفي أصبح الحديث عن «اليهودي»، ويمكننا أن نسميه «اليهودي الوظيفي» أي اليهودي وظيفةً لا عقيدةً أو انتماءً إثنياً. فتهويد المجتمع من ثم هو في واقع الأمر تحويل كل أعضاء المجتمع إلى بشر وظيفيين، أي بشر طبيعيين/ ماديين، مادة بشرية تُوظَّف وتحوسل، وهو أيضاً سيادة النظم المعرفية والاقتصادية البرجوازية وإحلال المجتمع التعاقدي الذري المفتت المبني على الأنانية (جيسيلشافت) محل المجتمع العضوي المترابط التقليدي (جماينشافت).

وقد قام ماركس بعملية الانتقال من العام إلى الخاص هذه وهو واع لها تمام الوعي، ولذا كان يتحدث عن «تهويد المجتمع» بعدِّه مجازاً كاشفاً، لا حقيقةً إمبريقية. فماركس لم يكن يفكر في اليهودي وإنما في اليهودي الوظيفي الذي هو مجرد تنويع متبلور عن أنموذج الإنسان الوظيفي، أي الإنسان الذي يتوحد تماماً مع وظيفته ويفقد إنسانيته وينظر للآخرين أنهم وظيفة (مصدر ربح - مصدر متعة) فيفقدهم إنسانيتهم المركبة. هذا الإنسان - كما أسلفنا - لا يختلف كثيراً في بنيته عن الإنسان الطبيعي/ المادي الاقتصادي.

- **اليهودي الوظيفي**

الانتقال من العام إلى الخاص الذي نجده في كتابات ماركس، ليس أمراً مقصوراً عليه، بل هو أمر عام نجده في كتابات كثير من المفكرين الاشتراكيين في عصره وفي كتابات كثير من علماء الاجتماع الغربي حتى الوقت الحاضر. فالمفكر الاشتراكي الفرنسي ألفونس توسينيل يُحذِّر قرّاءه من أنه يستخدم كلمة «يهودي» لا بمعناها الشائع وإنما بمعنى «مصرفي» أو «مراب» أو «تاجر». ويتحدثون في أدبيات علم الاجتماع الغربي عن الصينيين على أنهم .. «يهود جنوب شرق آسية»

وعن بعض الآسيويين العرب على أنهم «يهود إفريقية» وهكذا، كما يشيرون إلى «المهن والحرف اليهودية»، أي المهن والحرف التي «عادة» ما يضطلع بها أعضاء الجماعات اليهودية في المجتمعات الغربية. ولكنها ليست بالضرورة مقصورة عليهم، إذ يضطلع بها آخرون في مجتمعات أخرى يُطلق عليهم مجازاً «يهوداً». وكل هذه الاستخدامات تبين أن المعنى هو «الإنسان الوظيفي» بشكل عام وليس «اليهوديّ» على وجه التحديد، ولكن مع هذا يطلق عليه «اليهودي» من باب إطلاق الجزء على الكل.

ولتوضيح وجهة نظرنا يمكن أن نضرب مثلاً عكسياً، أي حين يطلق على من يضطلع بالوظائف «اليهودية» اسماً غير كلمة «يهودي»، فيلاحظ على سبيل المثال أن كثيراً من المهاجرين العرب واليهود إلى أمريكا اللاتينية يضطلعون بدور الجماعة الوظيفية، ولكن بدلاً من أن يطلق على العربي كلمة «يهودي» يحدث العكس إذ يطلق على كل من اليهود والعرب - وهم جماعة وظيفية - لفظة واحدة وهي «لوس توركوس Los turquos» الإسبانية، أي، «الأتراك»، فكأنه تم إدراك كل من اليهود والعرب من خلال مقولة تحليلية واحدة ومصطلح واحد. ويسمى تجار بعض دول شرق أوربة (بغض النظر عن انتمائهم الإثني الفعلي) «اليونانيين»، أو «الأرمن». ونحن هنا أمام أربعة دوال أو أسماء مختلفة (يهودي - تركي - يوناني - أرمني) تشير إلى مدلول أو مسمى واحد وهو عضو الجماعة الوظيفية المالية أو «الإنسان الوظيفي» الذي يضطلع بالوظائف «اليهودية». فلا يهم في جميع الحالات إذا ما كان الشخص يهودياً أو تركياً أو يونانياً أو أرمنياً بالفعل، فالدال هنا، رغم تنوعه، يشير إلى مدلول واحد هو الإنسان الوظيفي.

ولذا، قد يكون من الأدق والأشمل تحليلياً أن نأخذ في نظرنا أن ماركس وغيره من المفكرين الاشتراكيين حينما يتحدثون عن «اليهودي» فهم في واقع الأمر يتحدثون عن «اليهودي الوظيفي»: نمط إنساني ينتمي إلى عائلة أشمل وأكثر عمومية هي عائلة الإنسان الوظيفي والإنسان الاقتصادي. فالوظائف التي يضطلع بها هذا اليهودي في مكان وزمان ما، قد يضطلع بها أي إنسان وظيفي أو اقتصادي في مكان وزمان آخر. فالوظيفة وسماتها الموضوعية الباردة النفعية التعاقدية، يجب أن تكون المقولة التحليلية لا اليهوديّ بشخصه (وجوهرِه اليهودي المفترض وشخصيته اليهودية الوهمية). إن فعلنا ذلك، فإننا سندرك الواقع بطريقة أكثر تركيبية وحركية،

إذ إننا لن نبحث طوال الوقت عن هذا اليهودي ذي الأنف المعقوف والظهر المحدودب، الذي لا ولاء له إلا لمنفعته ولذته، والذي لا وطن له، والذي يضطلع بوظائف طفيلية أو مشينة حتى يفكك نسيج المجتمع، والذي يحيك المؤامرات المستمرة - عبر التاريخ وفي كل زمان ومكان - «ضد العروبة والإسلام والبشر على وجه العموم». فمثل هذا البحث، عنصري سطحي، لا طائل من ورائه، يحجب الرؤية ويؤدي إلى عدم إدراك عملية التفكيك الكبرى التي يضطلع بها «اليهودي الوظيفي»، أو «الإنسان الوظيفي» أو الإنسان الطبيعي/ المادي (الاقتصادي والجسماني) الذي لا يرتبط بأي وطن ولا يبحث إلا عن مصلحته ومنفعته ولذته، ولا يرتبط بأي رابط، هذا الإنسان الذي لا يدخل إلا في علاقة تعاقدية باردة مع مجتمعه في ضوء ما يحصل عليه من منفعة ولذة، ولا يتجاوز انتماؤه لهذا الوطن هذه المنفعة وتلك اللذة. هذا الإنسان الطبيعي/ المادي (الاقتصادي - الجسماني) قد يكون يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً أو بوذياً، أو شخصاً لا ملة له ولا دين.

إن اليهودي -من هذا المنظور- لم يعد ضرورياً لعملية التفكيك الانقلابية الكبرى إذ يمكن أن يقوم بهذه الوظيفة أي إنسان آخر أو أي مؤسسات أخرى (الشركات عابرة الجنسيات على سبيل المثال- شركات الإعلانات... إلخ). ولذا فالمعادلة التي نقترحها هي ببساطة كما يلي: الإنسان الطبيعي/ المادي (الاقتصادي - الجسماني) = الإنسان الوظيفي = اليهودي الوظيفي. ورغم تساوي هذه الأنماط بل ترادفها إلا أن الواحد ليس هو الآخر، بل يمكننا القول: إن الأساس في هذه المعادلة هو الإنسان الطبيعي / المادي (الاقتصادي والجسماني)، وأن اليهودي الوظيفي إن هو إلا أحد تجليات الإنسان الطبيعي/ المادي وحسب، وأنه ليس الأساس بأية حال.

وإذا كان هذا أمراً مهماً من الناحية التحليلية، فقد أصبح أكثر أهمية في الوقت الحالي للممارسة السياسية اليومية. فالنظام العالمي الجديد سيقوم بتحويل قطاعات عديدة في المجتمعات الإنسانية (نخب ثقافية وسياسية محلية - قيادات ثورية سابقة - قطاعات اقتصادية) إلى بشر طبيعيين/ ماديين، همهم هو منفعتهم ولذتهم، ثم يمكن تحويلهم إلى ما يشبه الجماعات الوظيفية التي تعمل لصالحه. كل هذا سيتم بهدف تفكيك مجتمعاتنا بعد أن فشل الاستعمار القديم في عملية المواجهة

المباشرة والصريحة معنا، وبعد تزايد نفقات المواجهة العسكرية؛ وستتم عملية التفكيك هذه تحت مظلة ما يسمى «العولمة»، والتخلص من الخصوصية والهوية والذات وكل «مخلفات الماضي». وهذه النخب تقيم بيننا وتتحدث لغتنا وترتدي زينا وتقيم الصلاة معنا في مواقيتها، وبعضها مستمر في استخدام الخطاب الثوري القديم أو الخطاب الديني الجديد، حتى بعد أن تحولوا إلى ما يشبه الجماعة الوظيفية التي تعمل لصالح الاستعمار الغربي، أي حتى بعد أن تم «تهويدهم» (بالمعنى الماركسي) ومما يجدر ذكره أن بعض هذه العناصر التي تمت حوسلتها لصالح الاستعمار الغربي ستضطلع بالدور الوظيفي (اليهودي) المُوكَل لها، عن وعي أحياناً ودونما وعي أحياناً أخرى.

- **العداء للسامية حتى في إسرائيل**

لا يزال موضوع العداء للسامية (أي العداء لليهود) موضوعاً أساسياً في الصحافة الأمريكية، ولكنه يُثار بحدة هذه الأيام بسبب فيلم «آلام المسيح»، الذي يركز على الأيام الأخيرة في حياة المسيح. وقد عُرض الفيلم في عروضٍ خاصة على بعض النقاد ورجال الدين من المسيحيين واليهود، ورأى معظمهم أنه يصوِّر حياة المسيح بصدقٍ، وأنه يتفق تماماً مع ما جاء في الإنجيل. ولكن بعض النقاد قالوا إنه يصور اليهود شعباً متعطشاً للدماء وللمال والانتقام، وأنه سيسبب أزمة في العلاقات المسيحية اليهودية. وقد ظهر عنصر جديد في المعادلة، وهم الأصوليون المسيحيون، ممن يُطلق عليهم اسم «الصهاينة المسيحيين»، الذين يؤيدون الدولة الصهيونية على أنها تحقيق لنبوءات الكتاب المقدس، وهؤلاء يشكلون جماعة ضغطٍ صهيونية (لوبي) أقوى من جماعة الضغط الصهيونية اليهودية. فقد صرح أحد ممثلي هذا التيار بأن المسيحيين الأصوليين من أهم المؤيدين لإسرائيل، ثم ألمح إلى أن اعتراض المؤسسات اليهودية على الفيلم قد يؤدي إلى تراجع هذا التأييد. وأثار هذا التصريح غضب أحد المتحدثين الصهاينة إذ قال: «هذه هي المرة الأولى التي تُطرح فيها العلاقة على هذا النحو: نحن نؤيد إسرائيل فلتلزموا الصمت إذن بخصوص معاداة السامية».

ومما زاد الطين بلة أنه عقب تصوير الفيلم في إيطالية نشرت صحيفة «لاستامبا» La Stampa رسماً كاريكاتورياً يصور دبابة إسرائيلية توشك أن تدوس

المسيح، وهو لا يزال في المهد صبياً، وكُتب تحتها عبارة: «هل تريدون قتلي مرة أخرى؟».

والحادثة الثانية التي أثارت اهتمام الصحافة الأمريكية والصحافة الأمريكية اليهودية هي ما تكشف مؤخراً من أن الرئيس ترومان كان معادياً للسامية. وتحتوي الوثائق، التي أُميط عنها اللثام حديثاً، على حوارٍ دار عام ١٩٤٧ بين ترومان وهنري مورجنتاو، وزير المالية آنذاك وهو أمريكي يهودي، إذ طلب الأخير من الرئيس أن يتدخل للضغط على حكومة الانتداب البريطاني حتى تسمح لسفينةٍ تحمل بعض المهاجرين الصهاينة بإفراغ حمولتها في فلسطين، فكتب ترومان في مذكراته قائلاً: «ليس من حقه على الإطلاق أن يطلب مني ذلك. إن اليهود لا يعرفون حدودهم ولا يدركون حقيقة العلاقات الدولية. إنهم أنانيون للغاية، لا يكترثون بعدد القتلى أو الذين فقدوا المأوى بسبب الحرب من أبناء الشعوب الأخرى، ما دام اليهود يتلقون معاملةً خاصةً. ولكن حين تكون لديهم السلطة (المادية أو المالية أو السياسية) فلا هتلر ولا ستالين يضاهيهم في القسوة أو الإساءة إلى المظلومين»، وفي مجالٍ آخر قال: «إذا كان المسيح لم يستطع إرضاء اليهود عندما كان على الأرض، فكيف يمكنني أن أفعل أنا ذلك؟».

وقد أوردت مجلة «جيروساليم ريبورت» (يوليو/ تموز ٢٠٠٣) هذا الموضوع، ثم تساءلت كيف يمكن لترومان بسجله المؤيد للصهيونية أن يكون معادياً للسامية؟ ومن المعروف أن ترومان ضغط على الحكومة البريطانية لتسمح بتوطين مزيدٍ من اليهود في فلسطين، وسمح بهجرة اليهود الذين فقدوا مأواهم بسبب الحرب إلى الولايات المتحدة، كما اعترف بالدولة الصهيونية فور إعلانها، متجاهلاً توصيات وزارة الخارجية الأمريكية، فكيف يمكن لهذا الرئيس الذي ساند المشروع الصهيوني بكل هذه القوة أن يكون معادياً لليهود واليهودية؟

والإجابة بسيطة للغاية، وهي أن ترومان كان مؤيداً للصهيونية لأنه كان كارهاً لليهود. فمن يكره اليهود لا يرغب في رؤيتهم مواطنين في بلده، بل يفضل أن يراهم وقد هاجروا إلى أي مكانٍ آخر. ومع وجود حكومة الانتداب البريطانية في فلسطين ثم الدولة الصهيونية، أصبحت فلسطين المكان المناسب لتوطين هؤلاء اليهود غير المرغوب فيهم.

وموقف ترومان هذا يؤكد الفكرة التي نؤكِّدُ عليها دائماً، وهي أن المشروع الصهيوني ليس مشروعاً يهودياً، بل هو مشروع استعماري غربي لتخليص أوربة من اليهود، تماماً كما تم تخليص أوربة من الساخطين دينياً من «البيوريتان» Puritan بتوطينهم في أمريكة الشمالية، وتخليص إنجلترة من المجرمين والفاشلين اجتماعياً بتوطينهم أسترالية.

ولم تعد إسرائيل نفسها بمنأى عن تيارات العداء للسامية. فقد رصد «المركز الإعلامي لضحايا معاداة السامية»، وهو هيئة غير حكومية، حوالي ٥٠٠ حادثة اعتداء في إسرائيل في الأعوام الثلاثة الماضية. وهنا يبرز السؤال: ما معنى الاعتداء على اليهود في «الدولة اليهودية»؟ ومن الذي يعتدي عليهم؟ قد يحسب القارئ لأول وهلة أن المعتدين هم من العرب ومنظمات المقاومة الفلسطينية، ولكن الأمر غير ذلك تماماً. فالمقصود هم عشرات الألوف من العمال الأجانب ومن المهاجرين الذين وفدوا إلى إسرائيل من روسية على أنهم يهود، إما بادعاء ذلك، وإما لأن أحد أجدادهم كان يهودياً، أي إنهم يهود اسماً ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن اليهودية ولم يمارسوا شعائرها قط. ودخول هؤلاء المهاجرين في علاقة مع إحدى العائلات اليهودية الأرثوذكسية يولد التوتر، كما حدث في حالة دبورا بيتون التي دعت إحدى عائلات المهاجرين إلى منزلها لعشاء السبت، وهو مناسبة دينية يهودية مهمة. وحين اكتشف أفراد عائلة بيتون أن الضيوف ليسوا يهوداً قطعوا علاقتهم معهم، مما أثار حفيظتهم بطبيعة الحال، ورداً على هذه الإهانة، كان أعضاء الأسرة المهاجرة يتعمدون رسم علامة الصليب كلما رأوا أحد أفراد عائلة بيتون ثم يبصقون على الأرض ويشتمونهم.

وقد بدأ المدعي العام الإسرائيلي إلياكيم روبنشتاين تحقيقاً فيما صرح به وزير العدل يوسف لابيد لرئيس الوزراء من أن النازيين الجدد وصلوا إسرائيل. ويتركز التحقيق حول موقع على الإنترنت يُسمى «الاتحاد الإسرائيلي الأبيض» يشرف عليه عدد من الأشخاص وصفوا أنفسهم بأنهم «يعتزون بأنفسهم، وقد سئموا الحياة مع الأوباش القذرين». وتظهر على الموقع صور لعلم إسرائيل وقد مُزق، وأخرى لشبانٍ إسرائيليين يرتدون زياً عسكرياً ويرفعون يدهم بالتحية النازية المعروفة. ويعرف الموقع الأعداء بأنهم اليهود المهاجرون من الجمهوريات الإسلامية السابقة

والعمال الأجانب والعرب. وتوجد في إسرائيل الآن سلسلة مكتبات روسية تسمى «أريات» تبيع كتباً مستوردة من موسكو تتحدث عن الفاشية اليهودية في روسية، وتحاول إنكار المذابح النازية ليهود أوربة (الهولوكوست)، وهذه بطبيعة الحال جريمة لا تغتفر. ومن المفارقات أن كثيراً من اليهود الروس الذين هاجروا إلى إسرائيل تعرضوا لمعاداة السامية لأول مرة في حياتهم في «أرض الميعاد»!!.

ويبدو أن حوادث معاداة السامية قد تزايدت حتى أخذت بعض الأصوات تطالب بإلغاء «قانون العودة» حتى لا يظل الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام أشباه اليهود ومدعي اليهودية. ولكن إذا أُلغي قانون العودة، فماذا يبقى من الصهيونية؟

- **اليهودي النازي**

بلغ الاتهام بمعاداة السامية مبلغهُ، فتوجد أعمال سينمائية عديدة تتناول الموضوع، من آخرها فيلم بعنوان «ماكس» عن حياة هتلر قبل أن يصبح زعيماً نازياً. ويصور الفيلم هتلر بطريقة سلبية واضحة، فهو في الفيلم فنان فاشل محبط، يحاول أن يغطي فشله وإخفاقه ببيع أعماله الفنية بالانضمام للحركات العنصرية وتحريض الجماهير ضد اليهود بشكل انتهازي غوغائي. ومع هذا، تصدت المنظمات الصهيونية للفيلم واتهمته بأنه يصور هتلر بطريقة إيجابية. وقد شاهدت الفيلم عدة مرات لأبحث عن إجابة للسؤال التالي: لماذا يتصدى الصهاينة لفيلم يصور هتلر بطريقة سلبية، واكتشفت أن الفيلم يحاول «تفسير» حياة هتلر وانحرافه، والخطاب الصهيوني يحاول أن يضفي نوعاً من الفرادة على الظاهرة النازية، لتصبح غير قابلة للتفسير، ومن ثم غير قابلة للنقد ويسهل توظيفها في تحقيق الأهداف الصهيونية. ومن هنا، فإن هذا الفيلم يشكل خطورة على الرؤية الصهيونية. ونحن نذهب إلى أن الغرب حول الإبادة النازية إلى ما يشبه الأيقونة، والأيقونة، بالنسبة للمسيحيين لا تشير إلا إلى ذاتها وهى مصدر المعنى النهائي بالنسبة إلى المصلي.

وقد عُرض فيلم آخر بعنوان «المؤمن»، وكان عنوانه الأصلي هو «اليهودي النازي»، ويحكي قصة شخص معاد للسامية يكره اليهود بعمق ويرى أنه يجب قتلهم جميعاً. ولكن داني بطل الفيلم ليس مجرد بلطجي عنصري، فهو ذكي وقادر على الإفصاح عن نفسه، ويتهم اليهود بأنهم يتحكمون في الإعلام ورأس المال العالمي، ويقوضون التقاليد الأخلاقية من خلال محاولة نشر الشذوذ الجنسي، بل

ويحاولون تقويض المجتمع بأسره بالتركيز على قضايا هامشية وتهميش القضايا الأساسية. وهو يشير إلى أن كل المفكرين يحاولون تقويض مجتمع اليهود: فرويد وماركس وغيرهما، ولكن المفاجأة الكبرى أن داني هذا يهودي! فقد تخرج من يشيفاه (أي مدرسة تلمودية لتخريج الحاخامات)، ورغم عدائه العميق لليهود واليهودية فهو يحتفظ ببعض السمات اليهودية، ويشعر بحنين خفي للجماعة اليهودية. فعلى سبيل المثال، يقوم داني وجماعة من أصدقائه العنصريين بإشعال النار في معبد يهودي، ولكنه يشعر في أثناء ذلك بشيء من الرهبة حين يرى لفائف التوراة (وهي أكثر الأشياء قداسة في المعبد اليهودي). كما أنه يجدد علاقته ببعض زملائه من المدرسة التلمودية ويذهب لإقامة الصلاة في عيد روش هاشاناه (عيد رأس السنة العبرية)، بل ويبدأ بتدريس العبرية والعقيدة اليهودية لصديقته بحجة أنه يود أن يعرف عدوه.

والفيلم يستند إلى قصة حقيقية، وهي قصة حياة دانيال بورروس وهو صبيٌّ يهودي من نيويورك (حي كوينز) وكان من أفضل الطلاب في المدرسة التلمودية، ولكنه بعد تخرجه أصبح من أكبر المدافعين عن النازية وإبادة اليهود. وقد انضم للحزب النازي في الولايات المتحدة وجماعة الكوكلوكس كلان، وقُبض عليه عام ١٩٦٥ في أثناء إحدى اجتماعات الجمعية. وعندما كشفت صحيفة النيويورك تايمز أنه يهودي، انتحر بورروس بعد ساعات من كشف هويته. والطريف أن بورروس كان يشبه داني في كثير من الوجوه، فهو يحن لليهود واليهودية رغم عدائه لهما، إذ حاول أن يقنع أحد أصدقائه بألا يحرقوا لفائف التوراة، بل بدأ في ممارسة بعض الشعائر اليهودية.

وحينما سُئل هنرى بين Bean مخرج الفيلم عن الأسباب التي أدت به إلى إخراج الفيلم قال إن بورروس شخصية منقسمة على نفسها: فهو يهودي معاد للسامية وقد سحره هذا الانفصام. ثم أضاف ضاحكاً «لقد نظرت في قلبي.. أنا يهودي.. ولكن من السهل عليَّ حينما أفكر في اليهودية أن أتصور كيف ينظر المعادي للسامية لليهود واليهودية، وقد حاولت أن آتي بأقوى الأطروحات المعادية للسامية وأكثرها إقناعاً. وقد اعترضت المؤسسة الصهيونية على الفيلم، ولكن بشكل رقيق للغاية، وعُرض الفيلم ولاقى نجاحاً تجارياً لا بأس به. ولعل رقة الاعتراض

الصهيوني تعود إلى أن الفيلم بيَّن أن هوية البطل اليهودية رغم عدائه الظاهري للجماعة والعقيدة اليهودية ظلت ثابتة لم تتحول. فثبات الشخصية اليهودية عبر الزمان والمكان يُعد من المقولات الأساسية في الأيديولوجية الصهيونية. والفيلم ينتهي بالبطل اليهودي النازي أن يحرق معبداً يهودياً ويحاول في الوقت نفسه إنقاذ لفائف التوراة من الحريق!

- **معاداة السامية: بمناسبة وبدون مناسبة أيضاً!!**

من حين لآخر، تستدعي الدوائر الصهيونية تهمة «العداء للسامية» لتفسير حادثة ما أو لوصم سياسات أو إجراءات بعينها أو للتهجم على شخصيات سياسية أو ثقافية أو فنية، حتى وإن كانت تنتمي إلى عصور طويلة خلت. ومؤخراً كانت العاصمة الفرنسية باريس مسرحاً لحادثتين عُدَّتا دليلاً على اتساع نطاق «العداء للسامية» وعلى ما يكنه «الأغيار» من كراهية متأصلة لليهود في كل زمان ومكان.

ففي الحادثة الأولى، زعمت سيدة فرنسية، تُدعى ماري لاوني وتبلغ من العمر ٢٣ عاماً، أنها كانت ضحية اعتداء عنصري للاعتقاد بأنها يهودية، إذ قالت إن ستة شبان مسلحين بالسكاكين، وتدل ملامحهم على أنهم ينحدرون من شمال إفريقية، هاجموها أثناء سفرها في قطار الضواحي في باريس يوم ٩ يوليو/ تموز ٢٠٠٤، وقصوا خصلات من شعرها ومزقوا ثيابها، ثم رسموا الصليب المعقوف على بطنها، وسرقوا حقيبتها ولاذوا بالفرار. وادعت السيدة أن كل هذه الأحداث وقعت على مرأى ومسمع من ركاب القطار دون أن يتقدم أحد منهم لمساعدتها.

وقد أثار نبأ هذه الحادثة موجةً من الاستنكار والغضب في فرنسة، فأدانتها مختلف القوى السياسية والاجتماعية، بما في ذلك الجالية الإسلامية، ووصل التنديد بالحادث إلى الرئيس جاك شيراك، الذي عدَّهُ «عملاً مخزياً». (موقع الإذاعة البريطانية BBC Arabic، ١١ يوليو/ تموز ٢٠٠٤).

وبدلاً من التعامل مع الحادث على أنه عمل جنائي، أو حتى اعتداء عنصري، وقبل أن تتضح أية تفاصيل عن هوية المعتدين أو دوافعهم، بل وقبل التحقق من صحة أقوال المدعية نفسها، ورغم تأكيد الشرطة بأن السيدة ليست يهودية أصلاً، فقد سارع بعض السياسيين والمعلقين في إسرائيل إلى استدعاء قضية «العداء

للسامية»، ووصف الحادث بأنه تعبير عن «تنامي ظاهرة معاداة السامية في المجتمع الفرنسي، وفي أوربة بوجه عام» (**صحيفة هآرتس**، ١١ يوليو/ تموز ٢٠٠٤).

إلا أن «استثمار» تلك الحادثة على هذا النحو لم يدم طويلاً. فما إن مثلت السيدة المدعية أمام الشرطة للتحقيق في بلاغها حتى بدأ التشكك في أقوالها، وتبين أن أجهزة التصوير التي تتابع ما يحدث في محطات القطارات الفرنسية لم ترصد دخول أي شبان تنطبق عليهم الأوصاف التي ذكرتها الشاكية، وسرعان ما اعترفت هي بأنها كذبت وأن الرواية كلَّها لا تعدو أن تكون من نسج خيالها، كما أضافت أنها هي التي رسمت الصليب المعقوف على جسدها بمساعدة صديق لها!! (**صحيفة يديعوت أحرونوت**، ١٤ يوليو/ تموز ٢٠٠٤).

وهكذا، انتهت «الحادثة»، التي كان يمكن أن تصبح قضيةً تتصدر عناوين الأخبار، إلى مجرد مزحة سخيفة وواقعة مُخْتَلَقة. أما الذين تسرعوا بإضفاء أبعاد أخرى عليها واستخدام عباءة «معاداة السامية» الفضفاضة، فلم يتحل أي منهم بالشجاعة للاعتراف بخطأ التقدير، أو للإقرار بضرورة التريث والإحاطة بجوانب أية واقعة قبل إصدار أحكام قاطعة عليها.

ولم يمر وقت طويل حتى طفت قضية «معاداة السامية» مجدداً على سطح الأحداث في فرنسة، مع واقعة ثانية حظيت بقدر أكبر من الاهتمام الإعلامي والسياسي. ففي ٢٢ أغسطس/ آب ٢٠٠٤، أُضرمت النار في مركز اجتماعي يهودي في باريس، وكُتبت على الجدران عبارات وُصفت بأنها «معادية للسامية»، من قبيل «سنكون أسعد بلا يهود»، و«سيكون العالم أطهر دون يهود».

وكما كان الحال مع «الحادثة» السابقة، كانت تهمة «معاداة السامية» هي التهمة الجاهزة التي تُشهر، دون انتظار لنتائج التحقيقات أو معرفة ملابسات الاعتداء أو شخصية الجناة. وكان وزير الخارجية الإسرائيلي سيلفان شالوم ممن أدلوا بتصريحات شديدة اللهجة للتعبير عن «قلق إسرائيل العميق نتيجة وقوع اعتداء آخر مخز ينطوي على معاداة السامية في فرنسة» وللتأكيد على «وقوف إسرائيل وراء يهود فرنسة في مواجهة تلك الاعتداءات المستمرة» (صحيفة هآرتس، ٢٢ أغسطس/ آب ٢٠٠٤). ولعل هذا الاندفاع المحموم إلى استخدام تلك التهمة الثابتة دون أدلة هو ما دفع أحد مستشاري وزير الداخلية الفرنسي دومينيك دوفيلبان

إلى الإعراب عن دهشته قائلاً: «لا أقول: إن علينا التستر على أعمال معاداة السامية، ولكني أقول: إن على قادتنا السياسيين أن يفكروا أكثر من مرة قبل أن يندفعوا أمام آلات التصوير للتعبير عن إدانتهم لاعتداء لا يقل فظاعةً عن اعتداءات عنصرية أخرى، ضد المسلمين مثلاً» (صحيفة جيروساليم بوست، ٢٢ أغسطس/ آب ٢٠٠٤).

وقد أثبتت الأيام التالية أن هذه النصيحة كانت في محلها تماماً. فلم يكد يمر أسبوع على الحادث حتى ألقت السلطات الفرنسية القبض على رجل يهودي عدَّتْهُ المشتبه به الرئيسي في القضية، وألمحت إلى أنه كان يعمل حارساً في المركز في وقت ما ثم فُصل، ولم تستبعد أن يكون قد أُقدم على إحراق المركز بدافع الانتقام (موقع الجزيرة نت www.aljazeera.net، ٣٠ أغسطس/ آب ٢٠٠٤). وربما يكون وضع العبارات العنصرية والإشارة إلى منظمة إسلامية مجهولة على أنها منفذة الهجوم من قبيل حرف الأنظار عن الفاعل الحقيقي وتأليب الرأي العام الفرنسي ضد المسلمين.

وتثير هاتان الواقعتان، وغيرهما من الوقائع التي تُلصق بها تهمة «معاداة السامية»، عدداً من الملاحظات الجوهرية، وفي مقدمتها:

* إنَّ هناك إصراراً من الدوائر الصهيونية على «احتكار» قضية «معاداة السامية» وإلى إبرازها كلما سنحت الفرصة بغرض ترهيب الخصوم أو ابتزاز بعض الدول أو الأطراف، أو حتى لمجرد الإبقاء على الهالة المخيفة التي تحيط بهذه التهمة، والتي تُعد في حد ذاتها رادعاً فعالاً. وفي سبيل تحقيق هذه الأغراض، لا يهم إن كانت الواقعة المشار إليها واقعةً مُختلقة لا أساس لها، أو حتى إذا كان أولئك الذين يُزعم أنهم «ضحايا العداء لليهود» ليسوا يهوداً على الإطلاق، أو إذا كان مرتكب مثل هذه الأعمال يهودياً، فالمهم أن تظل القضية حاضرةً على الدوام وأن يبقى سيف الاتهام مشهراً.

* إنَّ الصهاينة قد وسعوا من المجال الدلالي لتعبير «معاداة السامية» فأصبح يضم خليطاً من الأحداث والمواقف والشخصيات التي لا رابط بينها. وتكفي الإشارة إلى أن قائمة «المعادين للسامية»، حسب التصنيف الصهيوني، تتسع لتشمل الكاتب الإنجليزي الشهير وليام شكسبير، والمفكر الفرنسي روجيه

جارودي، والزعيم الهندي المهاتما غاندي، والرئيس النمساوي الأسبق كورت فالدهايم، ورئيس الوزراء الماليزي السابق محاضر محمد، والممثل الهزلي الفرنسي ديدوني مبالا!!

* إنَّ إسرائيل تسعى منذ قيامها إلى أن تلعب دور الوصية على يهود العالم والمتحدثة باسمهم والمعبرة عن مصالحهم وتطلعاتهم أينما كانوا، بالرغم من رفض قطاعات واسعة من يهود البلدان المختلفة لهذا التوجه. ولا شك أن أجواء «معاداة السامية»، سواء أكانت فعلية أم مزعومة، توفر لها بعض المبررات للمضي في مسعاها وادعاءاتها.

- **قانون معاداة السامية**

وقع الرئيس الأمريكي جورج بوش في السادس عشر من أكتوبر ٢٠٠٤ مشروع قانون يلزم وزارة الخارجية برصد وإحصاء الأعمال المعادية للسامية في العالم وتقويم مواقف الدول من هذه الأعمال. وينص القانون على ضرورة استمرار الولايات المتحدة في جهودها لمحاربة عداء السامية في العالم ثم يضيف القانون، ذراً للرماد في العيون، أن الحرب ضد العداء للسامية ستتم بالتعاون مع منظمات من مثل منظمة الأمن والتعاون الأوربي والاتحاد الأوربي والأمم المتحدة، (ويأتي ذلك في الوقت الذي رفض فيه الرئيس بوش التوقيع على المعاهدة الدولية الخاصة بإنشاء المحكمة الجنائية الدولية بزعم أنه لن يسمح أبداً بأن يقوم قضاة أجانب بمحاكمة جنود أمريكيين متهمين بارتكاب جرائم حرب، بل إن الرئيس بوش أقر قانوناً يلزم الدول التي تتلقى معونات من الولايات المتحدة بتوقيع تعهد بأنها لن تسعى للمطالبة بمحاكمة الجنود الأمريكيين أمام تلك المحكمة الجنائية الدولية). كما نص القانون على تكليف وزارة الخارجية برصد الأعمال المعادية للسامية في العالم وتقديم تقرير عنها في موعد قبل الخامس عشر من نوفمبر ٢٠٠٤ إلى كل من لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ ولجنة العلاقات الدولية بمجلس النواب على أن يتضمن هذا التقرير الآتي:

* رصد أعمال العداء للسامية والعنف ضد اليهود في جميع المؤسسات كالمدارس والمعابد في جميع الدول.

* رصد الجهود المبذولة من الحكومات للتأكد من تطبيق القوانين المتعلقة بحماية حقوق الحرية الدينية لليهود.

* رصد الأعمال الدعائية في وسائل الإعلام الحكومية وغير الحكومية التي تبرر الكراهية لليهود أو تحرض على العنف ضدهم.

ويتضمن القانون الذي أصبح ملزماً لأي إدارة أمريكية قيام وزارة الخارجية بإنشاء إدارة جديدة لمراقبة الأنشطة المعادية للسامية على مستوى العالم وتعيين مبعوث أمريكي عالي المستوي لمراقبة تنفيذ القانون، وإصدار تقرير سنوي يوضح الإجراءات التي قامت بها جميع الدول لمكافحة هذه الظاهرة. ويتكون من شقين أحدهما رصدي قائم على تقويم حجم الظاهرة وانتشارها وتعامل الدول معها وتصنيفها وفق هذه الممارسات ومدى التصدي لها أو السماح بها، ومن ثم تحديد موقف الولايات المتحدة منها، سواء بمقاطعتها ومعاقبتها وفرض العقوبات السياسية والاقتصادية والعسكرية أيضاً عليها، والآخر عقابي قائم على وضع الإجراءات التي يجب على الولايات المتحدة القيام بها للتعامل مع الحالات غير الملتزمة بالقانون بالإضافة إلى ما يحدده القانون من جملة من الخطوات التي تشمل الرقابة على دور العبادة والمناهج التعليمية والإعلامية.

ومن الجدير بالذكر أن وزارة الخارجية الأمريكية اعترضت على هذا المشروع قبل توقيع الرئيس الأمريكي عليه. وأكدت الخارجية الأمريكية في مذكرة غير موقعة إلى لانتوس في يوليو ٢٠٠٤ في أثناء مناقشة التعديل، أن إنشاء مكتب يختص بمراقبة العداء للسامية من شأنه أن يقلل من المصداقية ويعكس المحاباة وعدم التوازن في سياسة الولايات المتحدة لحقوق الإنسان. ومعارضة وزارة الخارجية يأتي في إطار سياسة دائمة لها تظهر عبر تاريخ الولايات المتحدة، فدائماً للخارجية آراء أكثر عقلانية، لأن القائمين عليها يدركون بحكم عملهم طبيعة المجتمعات الأخرى، ويعرفون أن مصالح الولايات المتحدة تتجاوز المصالح الإسرائيلية ومصالح الجماعات اليهودية. من هنا كانت الخارجية الأمريكية ضد اعتراف أمريكة بإسرائيل مع بداية نشأتها كما أن ترومان تجاهلها، وأخيراً كان موقف كولن باول وزير الخارجية الأمريكية من الحرب ضد العراق أكثر عقلانية من وزير الدفاع رامسفيلد. إلا أن المعارضة التي تقوم بها الخارجية ليس لها تأثير كبير، فتأثيرها

دائما محدود، خاصة في ظل المعركة الانتخابية الشرسة، وتصاعد التوتر في منطقة الشرق الأوسط والمصالح الرأسمالية للنخبة الحاكمة. فضلاً على أن المواطن الأمريكي نفسه غير مدرك تماماً للأبعاد والتضمينات المختلفة لصدور مثل هذا القانون ومن ثم أصبح من السهل تمريره دون معارضة قوية.

وقانون مراقبة معاداة السامية هو مجرد حلقة ضمن سلسلة قوانين أمريكية عديدة، وهو جزء من الهجوم الأمريكي على العالم؛ فالولايات المتحدة تريد تأكيد هيمنتها، وتتخذ من مسألة الديموقراطية أحياناً وحقوق الإنسان أحياناً أخرى ثم أخيراً معاداة السامية تُكَأة للتدخل في شؤون الدول الأخرى وفرض سياستها ورؤيتها الخاصة. ولا يمكن فصل هذا التحرك الأمريكي عن موقفها من سورية وحزب الله والفصائل الفلسطينية وتهديدها لهم ودعمها اللاعقلاني لإسرائيل. ويأتي إصدار مثل هذا القانون في إطار سياسة أمريكية واضحة تهدف إلى الهيمنة على العالم، دفعتها إلى الحرب على أفغانستان ثم احتلال العراق وأخيراً تفويض السفارات الأمريكية في العالم أن تكون «واحات للديمقراطية»؛ وأن تتصل بالجماعات الأهلية وأحزاب المعارضة التي تنادي بالديمقراطية (حسب التصور الأمريكي بطبيعة الحال) وهناك حديث عن تكوين فرق عسكرية (ترتدي زياً مدنياً) منتشرة في أنحاء العالم، وتتبع وزارة الدفاع الأمريكي مباشرة وذلك لمكافحة الإرهاب أهم آليات فرض الهيمنة الأمريكية. وهنا يجب أن نتوقف لندرك أن أمريكة رغم أنها تعد قوة عسكرية ضخمة إلا أنها تتراجع اقتصادياً، ومعدلات الاستهلاك بها أعلى بكثير من إمكاناتها، ومن ثم يأتي تحركها في إطار العمل على إحداث توازن في هذه المعادلة عن طريق قوتها العسكرية في محاولة لتعويض تراجعها الاقتصادي. كما أن تصاعد استهلاك البترول في الولايات المتحدة (وفي العالم بشكل عام) يجعل النخبة الحاكمة قلقةً ويدفعها إلى محاولة السيطرة على منابع البترول سواء في بحر قزوين أم في العراق؛ ومن ثمَّ يمكنها أن تحصل على البترول بالسعر الذي تقدره، كما أنه يشكل أداة ضغط على الدول الأخرى وقد خص د. محمد شوقي عبد العال في بحثه المعنون «تجريم معاداة السامية كجزء من الاستراتيجية الأمريكية لإعادة تشكيل العالم» والذي قدمه لمؤتمر قانون معاداة السامية في هذه الكلمات: ثمة محاولات جادة وحقيقية تسعى من خلالها الولايات المتحدة الأمريكية إلى إعادة تشكيل قواعد القانون الدولي ومبادئه الحاكمة على

النحو الذي يتوافق ومصالحها من جانب، ورغبتها في إحكام قبضتها وضمان استمرار سيطرتها علي النظام الدولي منفردة من جانب ثان، وسعيها إلى إعادة تشكيل العالم وصوغه على هواها من جانب ثالث، فيغدو قانون معاداة السامية انعكاساً لمشيئتها وتعبيراً في المقام الأول عن إرادتها وجزءا من استراتيجيتها الهادفة إلى إحكام السيطرة المادية على العالم من خلال الاقتصاد والقوة العسكرية، والسيطرة المعنونة من خلال الإعلام وقواعد القانون».

- **العنصرية المعاكسة**

يشير بعض المعلقين العرب إلى أن عضو الكونجرس توم لانتوس يهودي، وأن هذا يفسر تبنيه لقانون معاداة السامية ونجاحه في تمريره. وفي تصوري أن يهودية لانتوس مسألة لا تعني كثيراً، فتحركه يأتي جزءاً من التوجه الاستراتيجي العام للولايات المتحدة، والدليل على ذلك أن اقتراحاته تحظى أحياناً بالقبول، كما في حالة قانون معاداة السامية، وأحياناً أخرى بالرفض، كما في حالة اقتراحه تخفيض المعونة الأمريكية لمصر بدعوى أنها تدعم قدرات الجيش في مواجهة إسرائيل!! فالعنصر المحدد لأي قرار أمريكي هدفه الأساسي مصلحة أمريكة الاستراتيجية كما تتصورها النخبة. وعلينا أن نفهم أن اللوبي الصهيوني لا يقرر التوجه العام للسياسة الأمريكية، وإنما يمكن أن يتدخل في التفاصيل، أما التوجه العام فتحدده النخبة الأمريكية الحاكمة والتي يلعب فيها كبار الرأسماليين وأصحاب الشركات دوراً مهماً جداً في صياغة هذا التوجه، أما مهمة اللوبي الصهيوني فهي إيجاد مكان له للتحرك داخل الاستراتيجية العامة ومن خلالها يمكنه التأثير، فاللوبي في رأيي جزء وليس المؤثر الأكبر في السياسة الأمريكية.

وصحيح أن المحافظين الجدد معظمهم من اليهود إلا أن هذه المسألة تعد ثانوية، فتحركهم يأتي من خلال سياسة ترى النخبة الحاكمة أنها تخدم المصالح الأمريكية، ومازالت على قناعة أن أمريكة هي في الأساس تشكيل إمبراطوري، في عالم أحادي القطب، تشكل الصهيونية جزءا منه. في هذا السياق يجب أن نفهم ما هو الجزء وما هو الكل!!

وقد تم توسيع مفهوم معاداة السامية فأصبح انتقاد إسرائيل والصهيونية شكلاً من أشكال معاداة السامية هذا على الرغم من أن إسرائيل دولة تتعمد خرق القانون

الدولي وترفض تنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحدة والمؤسسات الدولية، وأخرها حكم محكمة العدل الدولية بخصوص جدار الفصل العنصري. وثمة انتقادات دولية عديدة توجه لإسرائيل من قبل لجنة حقوق الإنسان التابعة لهيئة الأمم المتحدة، وكذلك منظمة العفو الدولية ومنظمات حقوق الإنسان بالإضافة إلى بعض المنظمات الإسرائيلية وبعض كبار الكتاب الغربيين من اليهود وغير اليهود. وتوسيع المفهوم يعد نوعاً من أنواع الردع الاستباقي الذي يوجه لكل مصادر النقد المحتملة لسياسة إسرائيل أو ممارسات قوات الاحتلال. وهو لا يختلف من قريب أو بعيد عن تعريف الإرهاب ووصف المقاومة بأنها شكل من أشكال العنف والإرهاب، وقد وصل التطبيق لهذا المفهوم الموسع لمعاداة السامية إلى مداه عندما تم توجيه هذا الاتهام إلى الشعوب الأوربية عندما بينت نتائج استطلاع الرأي العام الذي أجري في بلدان الاتحاد الأوربي، أن غالبية المواطنين الأوربيين (حوالي ٦٠٪) تذهب إلى أن الدولة الصهيونية تمثل أكبر خطر على السلام العالمي. فاحتجت المنظمات الصهيونية وأخرجت من جعبتها الاتهام جاهزاً. وقد اخترقت عملية توسيع نطاق مصطلح معاداة السامية الموسوعات والقواميس .فقاموس وبستر يعرف العداء للسامية بأنه العداء لليهود أقليةً والعداءُ للصهيونية والتعاطف مع خصوم دولة إسرائيل، وبذلك يصبح التعاطف مع الفلسطينيين نوعاً من العداء للسامية! وفي مقال كتب عن معاداة السامية في العالم العربي نشر في النيويورك تايمز اتهمني كاتب المقال بأنني أتناول ما سماه بالإنجليزية anti-Jewish themes أي موضوعات ضد اليهود، أي أن ثمة موضوعات بعينها، بغض النظر عن طريقة أو منهج أو مضمون التناول، تعد ضد اليهود. ولم يذكر المقال نوعية هذه الموضوعات، ولكن بما أنني لا أهاجم لا اليهود ولا اليهودية قط، فإن هذه الإشارة الغامضة تشير ولا شك إلى الهجوم على الصهيونية وإسرائيل.

وصدور هذا القانون وتوسيع مفهوم معاداة السامية يثير عدة مشاكل قانونية وإنسانية:

١- يشكل القانون ما يمكن تسميته «عنصرية معاكسة» تمنح اليهود منزلة خاصة فوق غيرهم من الأعراق وأصحاب العقائد الأخرى، وتجعلهم معصومين من المحاسبة، وتمنحهم مطلق الحرية لمهاجمة كل الأديان والأعراق. كما يمنح القانون الحصانة لإسرائيل ويجعلها دولة مقدسة ويجرم نقدها ويجرم منتقديها

ومعارضيها. وهنا يطرح السؤال نفسه: من الذي سوف يحاسب العنصرية الإسرائيلية وسياسة التشهير التي تقوم بها جماعات «يهودية» ومنظمات صهيونية وشخصيات دينية «يهودية» ووسائل إعلام إسرائيلية ضد الأغيار جميعاً، أي كل غير اليهود بشكل عام والعرب على وجه الخصوص؟

٢- القانون قائم على أساس عنصري تمييزي لكونه يضع جماعة من البشر فوق الآخرين. ولا يقتصر القانون على تمييز دين معين، ولكنه يخدم أغراضاً أخرى سياسية عبر قمع أي رأي ينتقد السياسات الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني. فمثل هذه الآراء أصبحت معادية للسامية أيضاً لكونها تنتقد إسرائيل وتسعى للإضرار بها. كما أن فعل مقاومة الاحتلال الصهيوني أصبح هو الآخر شكلاً من أشكال الإرهاب والعداء للسامية.

٣- يتناقض القانون مع قيم الحرية والعدالة وحقوق الإنسان كافة، كما يتناقض بشكل واضح مع الرؤية العالمية لحقوق الإنسان بوصفها حقوقاً وقواعد عالمية لا تقبل التجزئة، بما في ذلك القانون الدولي لحقوق الإنسان، أي حماية البشر زمن السلم وزمن الحرب؟ فهل حلت الولايات المتحدة محل الأمم المتحدة واغتصبت إرادة المجتمع الدولي وبدأت توظفها على النحو الذي تريد؟

٤- قانون معاداة السامية وخصوصاً في مجال الجزاءات التي تكفل للرئيس الأمريكي توقيعها على الدول التي تحدث بها وقائع معادية للسامية، مثله مثل قانون حماية حقوق الإنسان والحريات الدينية، والذي سبق للكونجرس أيضاً إصداره، والذي يعطي الرئيس الأمريكي حق إصدار الجزاءات المناسبة ضد الدول التي تخرق حقوق الإنسان، يفتقران للشرعية القانونية والدولية، فالولايات المتحدة الأمريكية بهذين القانونين تخرق قواعد الشرعية الدولية التي لا تسمح لدولة بإرادتها المنفردة بإصدار تشريعات عن طريق مجالسها النيابية، وتوقيع جزاءات وفقاً لتقديرها ضد دول أخرى، زاعمة في القانون الأول خرقها حقوق الإنسان والحرية الدينية، أو زاعمةً وفقاً للقانون الجديد وقائعَ صحيحة أو كاذبة عن معاداة السامية.

٥- كل هذا يعني أن الولايات المتحدة الأمريكية ستتحول إلى قوة عسكرية إمبراطورية باطشة تفرض أفكارها وعقائدها (التي تخدم مصالحها) بقوة

السلاح وتوقع العقوبات على كل من لا يتبع توجيهاتها ومفاهيمها الخلافية وهو أمر مذل ومهين لكل الشعوب.

٦- الرأي العام الغربي ليس ساذجاً لهذه الدرجة إذ لا يمنعه ما يحدث عن طرح التساؤل: لماذا معاداة السامية؟ وماذا عن الأشكال العنصرية الأخرى؟ خاصة أن معاداة السامية لا تشكل قضية ملحة في الولايات المتحدة، فالشكل الأكثر تواتراً هو العنصرية ضد السود والهسبانيك (أي المواطنون من أمريكة اللاتينية ذوو الأصل الإسباني) وضد المسلمين، فالجماعة اليهودية داخل الولايات المتحدة تتحرك جزءاً مندمجاً تماماً داخل المجتمع الأمريكي، والدليل على ذلك نجاحهم في الوصول إلى مستويات عالية سواء في التعليم أم في تبوءِ المناصب أو تحقيق ثروات ضخمة.

٧- صدور مثل هذا القانون قد يحرك المواطن الأمريكي نفسه للتساؤل: لماذا يصدر هذا القانون لصالح اليهود؟ ولماذا لا يكون الحديث عن التمييز العنصري بشكل عام؟ ولاشك أن هذا الموقف سيؤدي ببعض الناس إلى تصور أن اليهود يسيطرون على الإعلام وعلى مؤسسات صنع القرار في الولايات المتحدة وفي كثير من الدول، وهو ما يشكل الأساس الراسخ لمعاداة السامية.

٨- وبطبيعة الحال سيستفز هذا القانون العرب والمسلمين ومشاعر كل الشعوب المعادية لأمريكة في دول العالم المختلفة، التي ستخضع من الآن فصاعداً للمراقبة والتفتيش وربما المعاقبة والحصار، طبقا لموقفها من معاداة السامية، تماماً مثلما تخضع أكثر من ١٩٢ دولة فعلاً لمراقبة قانون الحريات الدينية الأمريكي!

- **عندما يكره اليهودي نفسه**

في الآونة الأخيرة تناقلت وسائل الإعلام المختلفة اسم جورج سوروس، المليونير الأمريكي اليهودي، مصحوباً بانتقادات قوية من جانب بعض الدوائر الصهيونية. فمن هو سوروس هذا؟ سوروس رجل أعمال أمريكي من أصل مجري يهودي، سافر إلى بريطانية في منتصف الأربعينيات تخرج في جامعة لندن، وتأثر

بأفكار كارل بوبر، صاحب فكرة المجتمع المفتوح والذي هاجم الدولة القومية بشراسة. ويعدُّ سوروس نفسه من أتباع دوكينز، الفيلسوف الدارويني والأستاذ بجامعة أوكسفورد. وفي أوائل الستينيات بدأ سوروس العمل في فرع المقاصة المتخصص بالمضاربات بين مختلف أسواق البورصة، ويقول: إنه اكتشف يومها «أن أموالاً كثيرة يمكن الحصول عليها من نقل أموال بين مختلف أنحاء المعمورة نظراً لاختلاف أسعار صرفها بين نقطة وأخرى».

وفي نهاية السبعينيات كان سورس قد كون ثروة طائلة جداً، ولكنه لم يصبح مشهوراً إلا عام ١٩٩٢ حين راهن على تراجع الجنيه الإسترليني، فاقترض مبلغاً كبيراً منه لأجل قصير وحوله إلى ماركات ألمانية، وتحقق ما راهن عليه وخرج الجنيه الإسترليني من نظام النقد المالي الأوربي وفقد ما يزيد على ١٢٪ من قيمته. وكان الفرق ربحاً صافياً لسوروس يعادل مليار دولار. وتبلغ ثروة سوروس حوالي ٧ بليون دولار ويأتي في المرتبة الثامنة والعشرين بين الأكثر ثراء في الولايات المتحدة.

وأثناء الأزمة المالية التي اجتاحت جنوب شرق آسية عام ١٩٩٧، ألقى رئيس الوزراء الماليزي محاضر محمد باللوم على المضاربين الأجانب الذين يتلاعبون بالأسواق المالية وخاصة سوروس، على اتهامه ممولاً يهودياً قاد هذه العملية. غير أن مراجعة تاريخ جورج سوروس تبين لنا أن هذا الأنموذج التفسيري لا يفيد كثيراً، فقد اعترف هو نفسه، في حديث مع شبكة التليفزيون الأمريكية WNET-TV عام ١٩٩٣، أنه تواطأ مع قوات الاحتلال النازي للمجر أثناء الحرب العالمية الثانية، وساعد على نهب ممتلكات اليهود في المجر مقابل سلامته الشخصية، وهو لا ينكر في أحاديثه أنه يبحث عن الربح ومراكمة الثروة.

إن سوروس هو أنموذج جيد للرأسمالي المضارب «غير المنتمي» (فالرأسمالي الحق لا ينتمي إلا لرأسماله وما يحققه من أرباح) الذي لا يتوانى عن جمع الربح من المضاربات في الأسواق المالية، أية أسواق، ولا يتورع حتى عن بيع يهود المجر (بني وطنه وعقيدته!) إلى أعدى أعدائهم. وهو جزء من الاقتصاد الفقاعي (بالإنجليزية: bubble economy)، أو الاقتصاد المشتق (بالإنجليزية: derivative economy)، أي اقتصاد المضاربات الذي لا علاقة له بالعملية الإنتاجية نفسها،

ولا يكن احتراماً كبيراً للإنتاج الصناعي أو الدولة القومية. وما يفسر سلوك سوروس ليس «يهوديته» وإنما انتماؤه لهذا النوع من الاقتصاد. ومن المعروف أن سوروس لا يتبرع بكثيرٍ للمؤسسات اليهودية أو الصهيونية أو الإسرائيلية، وقد فسر ذلك بأن هناك تبرعات يهودية كثيرة للمؤسسات اليهودية ولذلك فهو يوجه تبرعاته لمؤسسات أخرى غير يهودية.

وقد فجر سوروس مؤخراً قنبلة إعلامية أثناء اجتماع لشبكة المتبرعين اليهود. فحينما سُئل عن «معاداة السامية» (أي معاداة اليهود واليهودية) قال: إن سياسات إسرائيل والولايات المتحدة هي التي تسببت في ذلك، وطالب بتغيير النظام السياسي في الولايات المتحدة وأعلن تأييده لاتفاق جنيف، وأعلن عن عزمه تمويل بعض المشاريع في فلسطين (وقد استخدم كلمة «فلسطين» وليس «إسرائيل»!)، بل إنه أشار إلى خطاب محاضر محمد الذي قال فيه إن اليهود يحكمون العالم، واعترف بأن أفعاله هو شخصياً مسؤولة إلى حد ما عن تصاعد معدلات العداء للسامية، وإن كانت مسؤوليته محدودة، فهو لم يعمد إلى ذلك، وإنما كانت نتيجة غير مقصودة لأفعاله (وورلد تليجرافيك ايجنسي ١٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٣). وقد سارعت المؤسسة الصهيونية باتهام سوروس بأنه يتقبل القوالب الذهنية الاختزالية المعادية للسامية، وأن رؤيته متحيزة وتبسط الأمور وأن تعليقاته «قبيحة تماماً». ثم أضاف المتحدث الصهيوني قائلاً: «إذا كان سوروس يرى أنه ساهم في تصاعد معدلات السامية، فما هو الحل الذي يطرحه، هل يتنازل عن ثروته؟ هل عليه أن يغلق فمه؟». ورغم هذا الهجوم، فقد لزمت المؤسسة الصهيونية الصمت بعد ذلك، لأنها تطمع في تبرعات سوروس.

وقد وصف أحدهم سوروس بأنه تعبير عن ظاهرة معاداة اليهود للسامية Jewish Anti-Semitism وظاهرة كُره اليهودي لنفسه Jewish Self-hate، وهي مصطلحات كانت شائعة من قبل ولكنها توارت ولا تظهر إلا في الحالات الاستثنائية، فهي تُستخدم ضد نعوم تشومسكي وغيره من العلماء اليهود الغربيين الشرفاء الذي يرفضون المشروع الصهيوني. والمصطلحان متداخلان تماماً، فاليهودي الذي يعادي اليهود واليهودية يستخدم الصور الإدراكية النمطية السلبية العنصرية ويطبقها على أعضاء الجماعات اليهودية وعلى نفسه، فيراهم مرابين

وطفيليين غشاشين ومتحلين، يدمرون المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه بدلاً من الاندماج فيه. واليهودي الذي يكره نفسه، شأنه في هذا شأن الصهاينة وأعداء اليهود، يؤمن بوجود جوهر يهودي ثابت، لا علاقة له بالمواضعات التاريخية والاجتماعية، كما يؤمن بوجود صفات يهودية ثابتة وخصوصية يهودية لا تتغير، وبأن هذه الصفات هي التي تعوق اليهودي عن الاندماج الكامل في عالم الأغيار وهي سبب شقاء اليهود، ومن ثم فاليهود مسؤولون عما يحدث لهم.

وقد تفاقمت ظاهرة كُره اليهودي لنفسه بين يهود أوربة حين ضعف انتماؤهم الديني واكتسحهم التيار الاندماجي العلماني، فصبوا جام غضبهم على الجيتو اليهودي الفعلي والعقلي وعلى أهلهم وعلى أنفسهم. وانتشرت هذه الظاهرة بشكل واضح بين اليهود في أوربة والولايات المتحدة، خاصة بعد تدفق يهود أوربة الشرقية على بلادهم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فهددوا مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية.

ويتبدى كُره اليهودي لنفسه في أشكال عدة، منها محاولة إخفاء الأصول، وحرص بعض اليهود على عدم الإنجاب كلية حتى لا يزيد عدد اليهود، بل إن بعضهم يضع حداً لحياته بالانتحار. وقد يكون التنصر للحصول على تأشيرة دخول إلى الحضارة الغربية (على حد قول الشاعر الألماني هايني) تعبيراً عن الظاهرة نفسها.

وقد يأخذ كره اليهودي لنفسه شكل إعداد المشاريع المختلفة لإبادة اليهود والتخلص منهم. ويُقال: إن هتلر نفسه كان طفلاً غير شرعي لأب يهودي، ومن المؤكد أن أدولف أيخمان، الذي أرسل بمئات الألوف من اليهود إلى معسكرات الاعتقال والإبادة، كانت تجري في عروقه دماء يهودية.

ولكن هل يمكن وصف ما قاله سوروس بأنه تعبير عن كره اليهودي لنفسه، أم أنه محاولة جادة لتفسير بعض جذور ظاهرة معاداة اليهودية؟ فبدلاً من القول الصهيوني الأبله بأن سبب تفشي ظاهرة معاداة اليهود هو كره الأغيار الأزلي لليهود، يحاول سوروس أن يحدد الجذور التاريخية والاجتماعية والسياسية الحقيقية لهذه الظاهرة، ويشير بأصابع الاتهام إلى إسرائيل والولايات المتحدة، أي أنه يخرج بظاهرة معاداة اليهود من النطاق النفسي والميتافيزيقي ويدخل بها في

التاريخ. وقد تختلف مع سوروس أو تتفق معه، ولكن لا يمكن اتهامه بالعنصرية أو بكره اليهود أو نفسه، فكل ما قام به هو محاولة لتفسير ظاهرة آخذة في التفشي. ومحاولة التفسير بالنسبة للصهاينة- كما بينا فيما سبق- أمر مرفوض، فالمطلوب هو أن تبقى كل الظواهر اليهودية داخل جيتو مقدس لا يمسه أحد.

- **صهيونية ضد اليهود واليهودية**

في إطار سعيهم للحصول على الشرعية والتأييد الجماهيري في أوساط الجماعات اليهودية في أوربة، حاول رواد الحركة الصهيونية إضفاء صبغةٍ دينية على الأفكار الصهيونية، كي تبدو كأنها امتداد لليهودية وليست نقيضاً لها. ومن جهةٍ أخرى، حاول هؤلاء الرواد استغلال مشاعر المعاناة والإحباط لدى الجماهير اليهودية، والتي ساهمت في تفاقمها جملةٍ من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المرتبطة بعملية التحديث والتحول الرأسمالي في أوربة.

وهكذا، لجأت الصهيونية إلى تبني الرموز والأفكار الدينية المألوفة، فصورّت مسعاها الاستعماري تحقيقاً لوعدٍ إلهي، ومن ثم أضفت عليه صفة القداسة والحتمية، ووظفت المقولات التوراتية عن «الشعب اليهودي المختار» وعن «العودة إلى صهيون» مسوّغات للمشروع الصهيوني المتمثل في اغتصاب فلسطين وإقامة كيانٍ قوميٍ يهودي فيها يكون قاعدةً لخدمة مصالح القوى الاستعمارية الكبرى. وفي الوقت نفسه، قدمت الصهيونية نفسها حركةً لإنقاذ اليهود واليهودية من التشويه الذي لحق بهم وبها في الشتات، ومن الاضطهاد الذي تكابده الجماعات اليهودية على أيدي غير اليهود.

ومع ذلك، فمن الواضح أن المنطلقات النظرية للصهيونية والحلول التي اقترحتها لحل ما عُرف باسم «المسألة اليهودية» في أوربة شكلت نقاط التقاءٍ مع نزعات معاداة اليهود، بل وتطور هذا التطابق في بعض الأحيان إلى تعاونٍ عملي وثيق، كما هو الحال في ظل الحكم النازي لألمانية.

وتتواتر عبارات العداء لليهود واليهودية في كتابات الرواد الصهاينة وتصريحاتهم. فعلى سبيل المثال، يرى موسى هس أن العقيدة اليهودية كارثة لا مفر منها، ولذا فعلى اليهودي أن «يتحمل نير مملكة السماء حتى النهاية». ويذهب هس

إلى القول باستحالة اندماج الجماعات اليهودية في الشعوب الأوربية لأنهم يشكلون «شعباً منبوذاً ومُحتقراً ومُشتتاً، شعباً هبط إلى مرتبة الطفيليات التي تعتمد في غذائها على غيرها، شعباً ميتاً لا حياة له».

وكان هرتزل يؤكد على أن رؤيته الصهيونية ليست لها أية مرجعيةٍ دينية، ويجاهر قائلاً «إنني لا أخضع لأي وازع ديني». وقد تعمَّد هرتزل انتهاك الشعائر الدينية اليهودية حين زار مدينة القدس، لكي يؤكد أن حركته لا تنبع من أية منطلقاتٍ دينية تقليدية. ولا يخفي هرتزل الترابط الحتمي بين الصهيونية ومعاداة اليهود في العصر الحديث، فهو يشير في مذكراته إلى أنه كان متفقاً مع صديقه ماكس نوردو على أن «معاداة السامية» هي وحدها التي جعلت منهما يهوداً. وفي موضعٍ آخر يؤكد أن وجود هذا العداء أمر ضروري للمشروع الصهيوني، لأنه «البخار المحرك» لانطلاقه.

ولم يتورع ماكس نوردو، الذي خلف هرتزل في زعامة «المنظمة الصهيونية»، عن إعلان إلحاده والتعبير عن شعوره بالاشمئزاز من المبادئ الأخلاقية والفلسفية التي ساقتها التوراة، فكان يرى أن «التوراة طفولية بوصفها فلسفة، ومقززة بوصفها نظاماً أخلاقياً». كما تنبأ نوردو بأنه سيأتي يوم يحل فيه كتاب هرتزل **دولة اليهود** محل التوراة كتاباً مقدساً. وهو يتفق مع هرتزل في أن معاداة اليهود ظاهرة طبيعية وعادلة.

أما دافيد بن جوريون، فكان يرى أن التوراة ليست سوى كتابٍ للحكايات والمأثورات الشعبية، وأن «الجيش هو خير مفسر للتوراة». بل ومضى إلى أبعد من ذلك مؤكداً أن «الحياة لو تُركت للحاخامات لظل اليهود حتى الآن كلاباً ضالة في كل مكان يضربهم الناس بالأقدام». ولم يقف بن جوريون عند طرح هذه الأفكار بل عمل على تحويلها إلى واقعٍ ملموس في أوساط المستوطنين الأوائل، كما أصر على «عقد قرانه في حفلٍ مدني في نيويورك، وظل فترةً طويلةً يرفض إتمامَ الزواج وفقاً للشعائر الدينية».

ويشير الكاتب الصهيوني ريتشارد كروسمان، في كتابه **أمة تُبعث من جديد: إسرائيل في رؤية وايزمان وبيفن وبن جوريون** (١٩٦٩)، إلى أن صداقته مع حاييم وايزمان، أول رئيس لدولة «إسرائيل»، لم تبدأ إلا عندما اعترف له بأنه «معادٍ

للسامية بالطبع»، وقد علق وايزمان على ذلك مؤكداً أنه لو قال كروسمان غير ذلك لكان إما يكذب على نفسه أو على الآخرين. أما وايزمان نفسه فكان «يتلذذ» بمضايقة الحاخامات بإصراره على تناول الطعام غير المباح شرعاً، حسبما روى كروسمان في كتابه.

وكان الكاتب الصهيوني جوزيف برينر أكثر وضوحاً في عدائه لما أسماه «الشخصية اليهودية المريضة»، وتبدو الأوصاف التي يطلقها على اليهود متطابقةً إلى حدٍ بعيدٍ مع ما يردده أشد المعادين لليهود. فهو يقول، مثلاً: «إن مهمتنا الآن أن نعترف بوضاعتنا منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا، وبكل نقائص شخصيتنا». واليهود في نظره يودون الحياة «كالنمل والكلاب» أو «كالكلاب والمرابين»، فهم «شعب لا يعرف سوى الأنين والاختفاء حتى تهدأ العاصفة، يدير ظهره لإخوانه الفقراء، ويكدس دراهمه، ويتجول بين الأغيار ليؤمن معيشته بينهم، ثم يقضي نهاره يشكو من سوء معاملتهم له».

والملاحظ أن الرؤية الصهيونية التي تعكسها تلك الكتابات والأقوال، تستند إلى الأسس نفسها التي تقوم عليها نزعات معاداة اليهود واليهودية. فنقطة الانطلاق الأساسية عند الطرفين هي أن ثمة «طبيعة يهودية» تميز اليهود عن غيرهم من البشر، وهي طبيعة ثابتة لم يطرأ عليها أي تغيير على مر التاريخ، ولا تختلف باختلاف السياق الحضاري والثقافي الذي يتواجد فيه «اليهودي»، أو الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي الذي يتبوَّؤه. ومن ثم فلا فرق بين يهود اليمن في القرن الثامن عشر مثلاً، ويهود الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن العشرين، أو بين عنصري إرهابي مثل مناحم بيجين ومفكر مناهض للصهيونية مثل ناعوم تشومسكي. ويؤدي ذلك بدوره إلى الحديث عن «وحدة يهودية» تشمل كل الجماعات اليهودية في كل زمانٍ ومكانٍ. وبالمثل، فإن ثمة «تاريخاً يهودياً» مستقلاً عن تاريخ البشرية، وهو تاريخ متصل يسير على وتيرةٍ واحدةٍ ولا يعرف الانقطاع، وجوهره هو «تفرد اليهود»، من جهةٍ، و«العداء الأزلي الذي يكنه الأغيار لهم»، من جهةٍ أخرى. وأمام وضعٍ كهذا، يصبح اندماج هؤلاء اليهود في مجتمعاتهم مستحيلاً، ويصبح من الضروري التخلص منهم إما بعزلهم خلف أسوار الأحياء المغلقة (الجيتو)، وإما بتهجيرهم إلى أرضٍ ما خارج أوطانهم، حتى وإن استدعى ذلك اقتلاع

أصحاب هذه الأرض الأصليين، وإما بالقضاء عليهم فعلياً كما هو الحال في التجربة النازية.

وهكذا، فإن كلاً من الرؤية الصهيونية والنزعة المعادية لليهود تبدأ من نفي التاريخ وإلغاء الزمان والمكان، وتنتهي إلى نفي اليهود وإلغاء وجودهم.

- **نفي الدياسبورا .. مرة أخرى**

من القضايا الأخرى التي يثيرها يهود العالم قضية وظيفة الدولة اليهودية: هل هي دولة تخدم مصالحها بغض النظر عن مصالح اليهود، أم هي دولة يهودية تضع مصالح يهود العالم في الحسبان؟ وعادة ما تثار القضية حين تتعاون الدولة الصهيونية مع إحدى الحكومات التي تأخذ موقفاً معادياً من أعضاء الجماعة اليهودية، فعلى سبيل المثال لا الحصر تعاونت الدولة الصهيونية مع النظام العسكري في الأرجنتين، حينما كان شامير رئيساً للوزراء، وقد ثبت أن هذا النظام المشهور بميوله النازية المعادية لليهود، كان يقوم بتعذيب معارضيه، واليهود منهم على وجه الخصوص، ومع هذا فقد استمر النظام الصهيوني في الحفاظ على علاقاته بالنظام العسكري في الأرجنتين. وكانت السفارة الإسرائيلية ترفض التدخل لصالح المعتقلين السياسيين اليهود. وثمة حقيقة مهمة تدعو إلى التساؤل: إن أحد أهداف الدولة اليهودية هو توفير الأمن والحماية لليهود، ومع ذلك فإن أعضاء الجماعات اليهودية يشعرون بأن أمنهم قد تزعزع بسبب الأحداث في الشرق الأوسط وأن الجو الذي يعيش فيه اليهود في عدة بلاد قد تحوّل من جو آمن إلى جو قلق مشحون. وفي الواقع، فإن كثيراً من المؤسسات اليهودية تحتاج الآن إلى حراسة مسلحة.

ويشير اليساريون اليهود في العالم إلى علاقات إسرائيل بالنظم العسكرية في أمريكة اللاتينية، فهي من أكبر موردي السلاح إليها، كما أن علاقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية مع نظام جنوب إفريقية محل انتقادهم، إذ كيف يتأتى لدولة يهودية متمسكة بالقيم اليهودية أن تتحول إلى حليف لكل قوى القمع والإرهاب في العالم؟ ويضطر الليبراليون أيضاً إلى الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين الكيان الصهيوني حينما يقوم بعمليات وحشية تفوح رائحتها مثل مذبحة صابرا وشاتيلا.

وقد لاحظ هرب كاينون (في مقاله الذي نشرته الجيروساليم بوست ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٠) أن موقف يهود أمريكة من سياسة الولايات المتحدة الخارجية لا يتفق تماماً مع موقف إسرائيل، و٨٥٪ منهم يريدون أن تلعب الولايات المتحدة دوراً نشيطاً في الشرق الأوسط، و٧٥٪ لا يمانعون في ذلك حتى لو أدى إلى مواجهة بينها وبين الدولة الصهيونية.

وقد انفجرت القضية بحدة مؤخراً، فقد سجل لايزي لايلر (جيروساليم بوست ١٩/ ١١/ ٢٠٠١) أقوال بعض قيادات الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ممن يرون أن سياسات إسرائيل والولايات المتحدة ليست بالضرورة متماثلة، مما يعطي الحق لأعضاء الجماعة اليهودية فيها أن يكون لهم رأي في السياسة الخارجية مستقل عن رأي إسرائيل.

وقد طالب زعيم كلال الحاخام إرفين كوهين بتوسيع النقاش، لأنه قد لا تكون المصالح الاستراتيجية الأمريكية والإسرائيلية متماثلةً بالضبط. وعلق الليبرالي ليونارد فاين بأنه «قد آن الأوان أن نبين أن السياسة الإسرائيلية تعرِّض أمن إسرائيل للخطر». كل هذه التصريحات تؤكد شيئاً أساسياً وهو حق يهود العالم في اتخاذ موقف مستقل عن موقف إسرائيل.

وقد وصل هذا التيار ذروته مع خطاب إدجار برونفمان أمام اجتماع المؤتمر اليهودي العالمي (الذي يضم ممثلين عن كل الجماعات اليهودية في العالم ويحاول أن يعبر عن وجهةِ نظرها). عقد الاجتماع في القدس في شهر أكتوبر ٢٠٠١، وفاجأ برونفمان كثيرين بقوله إن الوجود الإسرائيلي في غزة خطأ، وإنَّ المستوطنات التي لا يمكن حمايتها يجب تفكيكها، وإنَّ على الإسرائيليين أن يفصلوا أنفسهم عن الفلسطينيين. كما أن برونفمان ادعى أن القرارات في مثل هذه المسائل يجب ألا تتقرر في الكنيست بل من خلال الاستفتاء العام.

وقد لاحظ لايير أن برونفمان هو أول زعيم يهودي يستخدم منصة فائقة النفوذ كي ينتقد بصراحة حكومة وحدة وطنية في وقت تعيش فيه الدولة اليهودية حصاراً حقيقياً، ويتعرض سكانها للعنف، ويوجه معظم العالم الانتقادات لإسرائيل على الطريقة التي تدافع فيها عن نفسها، وتؤيد فيها أغلبية ساحقة ائتلاف رئيس الوزراء آرييل شارون الواسع.

ويرى الكاتب أنه إذا ما بدأ زعماء يهود الشتات (أي يهود العالم) يحذون حذو برونفمان، فإن هذا سيقوِّض أكثر فأكثر المجتمعات اليهودية المحطمة أصلاً، وأكثر من ذلك سيشجع الحكومات الأجنبية على تكثيف ضغطهم على إسرائيل وهذا صحيح على نحو خاص بالنسبة إلى الولايات المتحدة فهي تقف - بصفتها الحليف الوحيد لإسرائيل - في موقع تحاول فيه إدارة منقسمة المراوحة بين تأييد إسرائيل ومحاولة إقناع الدول الإسلامية بالانضمام إلى ائتلافها.

ويختتم لايير مقاله بإعلانه رفض مثل هذا الموقف من يهود العالم، ويعبر عن استنكاره أسلوب هذا الزعيم اليهودي، الذي يعقد زيارة تضامن قصيرة لإسرائيل، وبدلاً من ذلك يوجه النقد لسياسات إسرائيل، في أمور تتعلق بالحياة والموت. «فلنقلها بوضوح وبصوت عال في السياسة الخارجية وأمور الأمن إسرائيل والشتات (أي يهود العالم) غير متساوين». يبدو أن الدولة الصهيونية تريد من يهود العالم أن يهاجروا إليها ويغدقوا عليها العطاء وأن يلتزموا الصمت تجاه سياساتها الإرهابية، مهما بلغ خللها.

العلاقة إذن بين يهود العالم والدولة الصهيونية ليست علاقة وئام ووفاق كما تدعي آلة الإعلام الصهيونية، فهناك كثير من التوترات والتفجرات، ومع هذا أعلن المتحدث باسم الوكالة اليهودية أنها ستشن «حملة هجرة» على دول مثل الولايات المتحدة وكندة، وستأخذ هذه الحملة شكل حملة إعلامية مناسبة يمكن من خلالها تذكير أعضاء الجماعات اليهودية بأن تحقيق الوجود اليهودي لا يمكن أن يتم على أكمل وجه إلا في إسرائيل، وأن وجود إسرائيل مسألة مصيرية بالنسبة ليهود العالم. وأن الديموجرافية مسألة مصيرية لوجود إسرائيل، ولذا فالهجرة ضرورية لتحقيق ذلك، ومن خلال الحملة يمكن تحويل الهجرة إلى قيمة يهودية مشتركة بين كافة التيارات الدينية (جيروساليم بوست ٢٥ نوفمبر ٢٠٠١)، أي إن المتحدثين باسم الوكالة اليهودية يخرجون المقولات الصهيونية التقليدية من الأدراج وينفضون عنها التراب والعناكب فيتحدثون عن الحفاظ على الهوية اليهودية ونفي الدياسبورا وبناء الوطن القومي، وهي مقولات - كما بيَّنا - أكل الزمان عليها وشرب، ولا تجد آذاناً صاغية من يهود العالم.

لكل هذا يمكن القول إن المتحدثين باسم الوكالة اليهودية يرددون المقولات الصهيونية القديمة بحكم وظيفتهم، رغم إدراكهم أن هذه المقولات لا علاقة لها بواقع يهود العالم، فهم أعضاء في بيروقراطية تحاول البقاء بأي ثمن (وأي بيروقراطية تحاول البقاء بأي ثمن) ومن هنا شعاراتهم وتصريحاتهم التي لا علاقة لها بواقع يهود العالم.

الفصل الثالث عشر

الصهيونية والنازية

● النازيون الجدد

نشرت جريدة الاتحاد في عددها الصادر في ٥ إبريل ٢٠٠١ تصريحات الشيخ عبد الله بن زايد آل نهيان، وزير الإعلام والثقافة، بخصوص الوضع في الأراضي المحتلة، فقد انتقد بشدة الدعم غير المحدود الذي تقدمه الولايات المتحدة لإسرائيل، مما يساعدها على الاستمرار في عملية القمع والإرهاب المستمرة التي تمارسها ضد الفلسطينيين. وقد وصف سموه الصهاينة بالنازيين الجدد، وهو وصف - في تصوري - جريءٌ ودقيق. فنقط التشابه بن النازيين والصهاينة كثيرة.

ومع هذا أحاط الصهاينة الإبادة النازية ليهود أوربة (التي يطلقون عليها الهولوكوست) بالقداسة. كما أنهم يحاولون احتكار دور الضحية لليهود وحدهم دون غيرهم من الجماعات أو الأقليات أو الشعوب. ولهذا يرفض الصهاينة والمدافعون عن الموقف الصهيوني أية محاولة لرؤية الإبادة النازية تعبيراً عن نمط تاريخي عام يتجاوز الحالة النازية والحالة اليهودية. كما يرفض الصهاينة تماماً محاولة مقارنة ما حدث لليهود على يد النازيين بما حدث للغجر أو البولنديين، على سبيل المثال، أو بما حدث لسكان أمريكة الأصليين على يد الإنسان الأبيض، أو ما يحدث للفلسطينيين على أيديهم. ولذا كُمّمت أفواه البولنديين الذين عانوا من ويلات الحكم النازي أكثر من أي جماعة إنسانية أخرى. كما أن عدد من فقدوا من الضحايا يفوق عدد الضحايا اليهود.

لكن المفارقة الكبرى أن كثيراً من الصهاينة يستخدمون اصطلاح «نازي» في كثير من السياقات، فدعاة السلام من الصهاينة يستخدمون اصطلاح «نازي» للإشارة لدعاة الحرب من المستوطنين، بل إن بعضهم يشير إلى جميع المستوطنين في الضفة الغربية نازيين. ويقوم اليهود الشرقيون (السفارد) بالإشارة إلى اليهود الغربيين بأنهم «أشكي نازي» أي أشكنازي. ونشرت جريدة **يديعوت أحرونوت** في عددها الصادر في ٣ مايو ٢٠٠٠ مقالاً أشار إلى أن أحد طلبة قسم عِلْم النفس بجامعة تل أبيب يُدعى آدم جوفري كتب مقالاً شبَّه اليهود المتدينين بالنازيين.

وكثير من الصهاينة الذين يسمَّون بالمعتدلين يشبِّه الصهاينة المتطرفين بأنهم نازيون، فمايكل إيتان (عضو الكنيست الإسرائيلي) أشار إلى وجود تشابه كبير بين القوانين التي يقترح مائير كاهانا تطبيقها على العرب في الدولة الصهيونية وقوانين نورمبرج النازية التي طُبِّقت على اليهود.

ومؤخراً (ملحق **هآرتس** ٢٨ إبريل ٢٠٠٠) وصف الصحفي أمنون دنكنر أحد نشطاء حركة كاخ (إيتامار بن جبير) بأنه نازي صغير. فقام هذا الأخير برفع دعوة قذف ضد دنكنر الذي طلب من البروفسور موسيه تسيرمان (المتخصص في التاريخ الألماني) أن يقوم بإعداد وثيقة تعقد مقارنة شاملة بين أيديولوجية جماعة كاخ (التي أسسها كاهانا) والأيديولوجية النازية، وقد قام البروفسور بالفعل بإعداد الوثيقة وأورد فيها نص منشور وزعته جماعة كاخ في أعقاب مذبحة صابرة وشاتيلة ورد فيه ما يلي: «حربنا ليست حرباً ضد منظمة التحرير الفلسطينية فقط ولكنها ضد كل الشعب الفلسطيني. وهي حرب مقدسة تقتضي الإبادة لكل هذا الشعب!». وقد أشار البروفسور إلى أن حركة كاهانا تستخدم عبارات مثل «الشياطين» و«الصراصير» و«الحشرات» و«الأفاعي» و«السرطانات» و«الطفيليين» للإشارة إلى العرب، وهي عبارات استخدم النازيون بعضها للإشارة لليهود.

وقد بيَّن البروفسور أن كلاً من النازيين والمتطرفين اليهود يدعون إلى طرد الأجانب «وتطهير البلاد منهم» كما يدعون إلى تحريم الزواج المختلط. أما «الأجانب» (العرب في فلسطين واليهود في ألمانية) الذين يبقون داخل حدود الدولة (النازية أو الصهيونية) فلن يُسمح لهم بالإقامة في الأحياء النقية عنصرياً!

إن كل التفاصيل والوقائع التي أوردناها تهدف إلى توضيح أن ثمة إدراكاً صهيونياً لوجود جوانب نازية في بعض الأيديولوجيات الصهيونية مثل أيديولوجية اليهود الأرثوذكس المتطرفين وأيديولوجية جماعة كاخ. وهذا يعني أنه لا داعي على الإطلاق أن تحصر كلمة «نازي» للإشارة للنازيين الألمان الذين قاموا بإبادة اليهود، وإنما يمكن استخدامها للإشارة لكل من يفكر بطريقة نازية ويسلك سلوكاً نازياً، ألمانياً كان أم غير ألماني.

انطلاقاً من هذا يمكن أن نشير للأيديولوجية الصهيونية أيديولوجيةً عرقية نازية، فقانون العودة الصهيوني (الذي يراه بن جوريون العمود الفقري للمستوطن الصهيوني) يفتح أبواب إسرائيل على مصاريعها لأي يهودي يود الاستيطان في أرض فلسطين المحتلة، وينكر هذا الحق الإنساني البسيط على أي فلسطيني اضطر إلى ترك وطنه تحت تهديد السلاح منذ بضع سنوات. كل هذا بهدف تأسيس دولة يهودية خالصة لا تختلف كثيراً في منطلقاتها عن الدولة النازية.

وقد قارن كثير من الكُتَّاب اليهودِ والإسرائيليين بين قانون العودة والقوانين النازية. فعلى سبيل المثال أعرب الأستاذ الإسرائيلي د. كونفيتس - خلال النقاش الذي دار قبل الموافقة على قانون العودة - عن مخاوفه من احتمال مقارنة هذا القانون بالقوانين النازية، ما دام يُجسِّد مبدأ التمييز بين الأفراد على أساس ديني أو عرْقي.

وبعد صدور هذا القانون، حذَّرت جريدة **جويش نيوزلتر**، في عددها الصادر في ١٢ مايو ١٩٥٢، من أن هذا القانون يعيد إلى الذاكرة النظرية العنصرية الخطيرة القائلة إنَّ الفرد الألماني يتمتع بمزايا جنسيته بغض النظر عن المكان الذي يوجد فيه.

وفي مقارنة عقدها روفن جراس بين قانون العودة والقوانين النازية، بيَّن أن قانون العودة يمنح امتيازات الهجرة لأيٍّ يهودي بموجب تعريف قوانين نورمبرج: أي أن يكون جده يهودياً. ويؤكد حاييم كوهين الذي كان قاضياً بالمحكمة العليا في إسرائيل أن «من سخرية الأقدار المريرة أن تُستخدَم الأطروحات البيولوجية والعنصرية نفسها التي روَّج لها النازيون والتي أوحت لهم بقوانين نورمبرج الشائنة، أساساً لتعريف الوضع اليهودي داخل دولة إسرائيل». وهناك، على الأقل، حالة واحدة معروفة، قامت فيها السلطات الدينية في إسرائيل بالرجوع إلى السجلات

النازية، للتأكيد عن الهوية العنصرية الدينية الإثنية لأحد المواطنين الإسرائيليين.

وإلى جانب قانون العودة هناك عشرات من الممارسات الصهيونية الأخرى ذات الطابع العنصري الفاقع، الذي يبرر استخدام كلمة «نازي». خذ على سبيل المثال قوانين الصندوق القومي اليهودي التي تنص على أن هذا الصندوق يقدِّم الدعم لليهود وحدهم، كما أن أحد بنوده تقرر أنه لا يمكن تأجير أرض يمتلكها الشعب اليهودي لغير اليهود، مما يعني أن ٩٠٪ من أرض فلسطين المحتلة لا يمكن لغير اليهود (أي العرب) أن يعملوا فيها أو في المستوطنات الزراعية المقامة عليها أو حتى أن يستأجروا شقة في عمارة مقامة على هذه الأرض.

ألا يبيِّن هذا أن الصهيونية تستند إلى رؤية نازية تترجم نفسها إلى ممارسات صهيونية، وأن سمو الشيخ عبد الله بن زايد حين وصف الصهاينة بأنهم نازيون جدد قد أصاب كبدَ الحقيقة؟

- **هتلر: مؤسس الدولة الصهيونية؟**

الحضارة الغربية، حضارة داروينية تمجِّد القوة وتجعلها الآليةَ الوحيدة لحسم الصراعات، كما تجعل مصلحتها معياراً أوحد للحكم على الظواهر. وهي حضارة إمبريالية عنصرية تتمركز حول نفسها ولا ترى الآخر إلَّا مادةً استعمالية، وهذا هو جوهر كل من النازية والصهيونية. فإذا كانت النازية قد حوَّلت اليهود وغيرهم إلى مادة استعمالية، فإن الصهاينة قد فعلوا ذلك مع الفلسطينيين. وإذا كان النازيون قد فرضوا رؤيتهم على الواقع بقوة السلاح، فإن الصهاينة لم يتوانوا عن استخدم المنهج نفسه.

ويبدو أن الحضارة الغربية غير قادرة على مواجهة نفسها وعلى مواجهة هذه الحقيقة، ولذا فهم لا يكفُّون عن الثرثرة عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الأطفال وحقوق القطط والكلاب. أما الإبادة النازية ليهود أوربة، فبدلاً من رؤيتها على أنها ظاهرة متكررة في الحضارة الغربية الحديثة (التي بدأت بإبادة السكان الأصليين في أمريكة الشمالية واستمرت حتى العصر الحديث في فيتنام والبوسنة والشيشان، مروراً بإبادة السكان الأصليين في أسترالية ونيوزيلندة وإبادة الملايين في إفريقية). نقول بدلاً من أن تدرك الحضارة الغربية الإبادة النازية ظاهرةً متكررة،

فإنها تصنِّفها على أنها حدثٌ فريد ، ثم تستخدمها ستاراً من دخان لتخبئة ما يدور من مذابح في عالمنا.

لكن الأعمال الأدبية - في كثير من الأحيان - لا تعكس الواقع، وإنما تصوِّره تصويراً نقدياً. فأدب القرن التاسع عشر (بما في ذلك الأدب الرومانسي) كُتب إبَّان الثورة الصناعية وسيادة المفاهيم النفعية المادية، ومع هذا وضع الأدباء نُصب أعينهم الهجوم على وحشية الثورة الصناعية ولا إنسانية المفاهيم النفعية المادية.

والقول نفسه ينطبق على الرواية الخيالية التي كتبها عالِم اللغة البريطاني اليهودي جورج ستانير (بعنوان **نقل أ. هـ. إلى سان كريستوبال**)، فهي رواية تاريخية خالية. تدور حول حدث خيالي: العثور على هتلر حياً في إحدى غابات الأمازون، والقبض عليه من قِبَل بعض اليهود الذين اقتفوا أثره، والذين قرروا محاكمته. والمحاكمة دون شك خيالية، ولكنها مع هذا تصل إلى كبد الحقيقة، إذ يبيِّن هتلر العلاقة الوثيقة بين النازية والصهيونية، مشيراً إلى أحد المفاهيم العنصرية الأساسية التي تبناها النازيون، أي مفهوم التفاوت بين الأعراق والجنس الأرقى، مخاطباً اليهود الذين يقومون بمحاكمته:

«يجب أن تفهموا أنني لم أختر شيئاً. لم يكن الجنس المتفوق من بنات أحلام أدولف هتلر، الذي كان يحلم باستعباد الشعوب الأدنى. أكاذيب. أكاذيب... لقد تعلمت قوتكم الخفية هناك. قوة تعاليمكم الخفية. تعاليمكم أنتم. شعب مختار. شعب اختاره الله لنفسه. العِرق الوحيد المختار على وجه الأرض... وجعله الإله فريداً دون البشر.

ثم يقتبس هتلر من العهد القديم، ويشير خصوصاً إلى بطولات يوشع بن نون، وهو بطل قومي/ ديني يتواتر ذكره في الكتابات الصهيونية، ويوصف بأنه حرق المدن وخربها كليةً وأباد سكانها، نساءً ورجالاً وأطفالاً، حتى الحيوانات، هي الأخرى أُبيدت بحد السيف. ولذا فهتلر يرى أن كتاب اليهود المقدَّس تفوح منه رائحة الدم. ثم يُضيف قائلاً: «لقد تعلمت أن أي شعب لابد أن يكون مختاراً كي يُحقق مصيره، وألا يكون هناك أي شعب آخر في مرتبته: الأمة الحقيقية سر دفين، جسد واحد خلقه الله بإرادته، وخلق دمها الطاهر، خلقها سر الإرادة والاختيار. أن تهزم أرضها الموعودة وتستعبد كل من يقف في طريقها. وأن تعلن نفسها خالدة أبدية».

والمصطلح النازي الذي يستخدمه هتلر يُذكِّر المرء بالمصطلح الصهيوني، فكلاهما يأخذ المفاهيم الدينية ثم يقوم بعلمنتها وتجنيد الجماهير من خلالها، وبذلك تحوَّل مفهوم الشعب المختار إلى مفهوم الشعب العضوي (فولك) الذي يرتبط أعضاؤه بأرضهم وببعضهم بعضاً برباط عضوي أزلي، هو «روح الشعب» أو «المصير الأزلي» أو «إله الشعب» إلى آخر هذه المطلقات والغيبيات العلمانية. ثم يستطرد هتلر قائلاً: «لم تكن عنصريتي سوى تقليد هزلي لعنصريتكم أنتم، تقليد هزيل. ماذا يكون الرايخ الذي سيدوم ألف عام بالقياس إلى صهيون الأبدية؟».

إن هتلر بمرافعته هذه يبين أن فكرة الشعب المختار عرقياً، هي فكرة غربية قد يكون لها جذور يهودية، ولكنها أصبحت جزءاً من التراث الغربي. وقد قال هتلر في إحدى خطبه (الحقيقية) إنه لا يوجد سوى شعب مختار واحد، وهو الشعب الألماني. وقد بيَّن أحدُ أهم الزعماء والمنظرين النازيين، ألفريد رزنبرج، أثناء محاكمته في نورمبرج أن نظرية التفاوت بين الأعراق هي جزء لا يتجزأ من الفكر الغربي. فأشار إلى أنه تعرَّف لأول مرة على مصطلح «الإنسان الأعلى» (السوبرمان) في كتاب عن الاستعماريِّ الإنجليزي كتشنر، وأن مصطلح «الجنس المتفوق» أو «الجنس السيد» مأخوذ من كتابات العالِم الأمريكي الأنثروبولوجي ماديسون جرانت والعالِم الفرنسي لابوج، وأن رؤيته العرقية هي نتيجة أربع مئة عام من البحوث العلمية الغربية. ومن المعروف تاريخياً أن هتلر أُشْرِب كثيراً من آرائه من الدراسات الإمبريالية/ العنصرية التي انتشرت في أوربة آنذاك كالميكروب لتبرير المشروع الإمبريالي الغربي.

ولكن الأهم من هذا أن هتلر في مرافعته الخيالية وضع الإبادة النازية في سياق الحضارة الغربية بوصفها حضارة إبادية لا تتردد في إزالة الآخر من طريقها (فهو من الناحية العرقية يشغل مكانة أدنى، ولذا لا يستحق الحياة): «أنا لم أخلق القبح، ولم أكن أسوأ القبحاء. بل إن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك. كم عدد التعساء الصغار الذين قتلهم أصدقاؤكم (المستعمرون) البلجيك في الغابات - إما بشكل مباشر أو بتركهم يموتون جوعاً أو من مرض الزهري حينما اغتصبوا الكونغو؟ أجيبوا عليَّ يا سادة. أم يجب عليَّ أن أذكركم ؟ عشرون مليوناً. هذه النزهة الخلوية كانت قد بدأت وأنا بعد في المهد صبياً؟ في لعبة الأرقام السوداء لست أسوأ اللاعبين». ثم يؤكد هتلر أن ستالين ارتكب هو الآخر جرائم تفوق جرائمه كيفاً وعدداً.

وما لم يذكره هتلر في دفاعه عن نفسه في المحاكمة الخيالية وقائع الإبادة المختلفة في التاريخ الغربي الحديث. ولكننا نعرف أنه في أحاديثه الخاصة (الحقيقية) كثيراً ما كان يبدي إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين البيض وبطريقة «معالجتهم» لقضية الهنود الحمر. وقد صرح هتلر في إحدى خطبه أن الحرب التي تخوضها ألمانية ضد عناصر المقاومة في شرق أوربة لا تختلف كثيراً عن كفاح البيض في أمريكة الشمالية ضد الهنود الحمر. ومن هنا كان هتلر يشير إلى أوربة الشرقية «أرضاً عذراء» أو «صحراء مهجورة»، (تماماً كما كان يتحدث الصهاينة عن «أرض بلا شعب» وعن فلسطين «صحراءَ ومستنقعات»).

بعد أن وضع هتلر الإبادة النازية ليهود أوربة في سياقها الحضاري الغربي العريض، يضعها في سياق ألماني يهودي: رفض اليهود الاندماجيين للنازية وترحيب الصهاينة بها – التعاون بين الصهاينة والنازيين – الصهيونية في علاقتها النظرية والفعلية مع النازية ! فكشف عن كثير من حقائق التعاون بين النازيين والصهاينة. يقول هتلر في مرافعته الخيالية في الرواية نفسها المشار إليها:

> *«هذا الكتاب الغريب المسمى الدولة اليهودية (كتاب هرتزل والإنجيل الصهيوني) قرأته بعناية بالغة. إن كلماته جاءت من أعماق بسمارك (والعسكرية البروسية)، اللغة، الأفكار وحتى النبرة نفسها. إني أتفق معكم أنه كتاب ذكي صاغ الصهيونية على شاكلة الأمة الألمانية الجديدة. ولكن من الذي خلق إسرائيل في واقع الأمر، هرتزل أم أنا ؟ انظروا إلى السؤال دون تحيز ؟ هل كان من الممكن أن تصبح فلسطين إسرائيل .. دون مذبحة الإبادة التي قمت بها. إن مذبحتي هي التي أعطتكم شجاعة الظلم التي جعلتكم تطردون العربي من منزله وحقله لأنه كان يقف في طريقكم. هذا هو الذي يجعلكم قادرين على تحمل معرفة أن هؤلاء الذين قمتم بطردهم، يجلسون يكاد يأكلهم العفن في معسكرات اللاجئين، على بُعد أقلّ من عشرة أميال [من وطنهم]. مدفونين أحياء في بؤسهم».*

ولم يذكر الروائي، على لسان هتلر، معاهدة الهعفراه بين النازيين والصهاينة التي أنقذت الجيب الصهيوني من الهلاك، إذ إنه كان يعاني من توقف الهجرة

الاستيطانية ومن تدفق رؤوس الأموال، الأمر الذي تكفل به النازيون (نظير أن يقوم الصهاينة بكسر طوق المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية). ولهذا قال أحد المعلقين، إذا كان هرتزل هو ماركس الصهيونية (أي منظرها)، فإن هتلر هو لينينها (أي هو من حول النظرية إلى واقع سياسي).

- **من جيتو وارسو إلى مخيم جنين**

نشرت جريدة هآرتس مقالاً بقلم أمير أورين (٢٥/ ١/ ٢٠٠٢) يفيدُ أن قوات الدفاع الإسرائيلية تدرس التكتيكات التي استخدمها النازيون ضد المقاومة اليهودية في جيتو وارسو حتى يمكنهم تطبيقها على المقاومة الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة. فما هو جيتو وارسو هذا؟

أسس النازيون جيتوات كانت تأخذ شكل مناطق تتمتع بقدر كبير من الاستقلال، فكان يتم إخلاء رقعة من إحدى المدن من سكانها من غير اليهود ثم يُنقل إليها عشرات الآلاف من اليهود. ويعد جيتو وارسو أهم هذه الجيتوات وقد بلغ عدد القاطنين فيه عام ١٩٤١ حوالي نصف مليون يهودي يعيشون في رقعة صغيرة حولها حائط ارتفاعه ثمانية أقدام، وكان له اثنان وعشرون مدخلاً يقف على كلٍّ منها ثلاثة جنود، أحدهم ألماني والثاني بولندي مسيحي والثالث بولندي يهودي.

ويجب النظر إلى تجربة جيتو وارسو في ضوء المخطط النازي الذي ينطلق من تصور استقلال اليهود شعباً عضوياً منبوذاً لابد من محاصرته وعزله. ولذا كان للجيتو مؤسساته المستقلة الخاصة به (عملة خاصة - وسائل نقل خاصة - خدمة بريدية - مؤسسات الرفاه الاجتماعي). كما سُمح لجيتو وارسو بأن يكون له نظامه التعليمي، وبأن يفتح المكتبات لبيع الكتب واستعارتها، وبأن يصدر جريدته اليومية بل وكان له ميليشيا ومحاكمُ خاصة به، أي أن الجيتو كان دويلةً صغيرة منعزلة ثقافياً واقتصادياً عما حولها. وكان يدير الدويلة/ الجيتو «سلطة يهودية» أو «مجلس كبراء» تُعيِّن السلطات النازية أعضاءه.

وقد سئل رعنان جسين (المتحدث الرسمي باسم شارون) عن مدى صدق الخبر الذي نشر في هآرتس عن أن الضباط الإسرائيليين يدرسون التكتيكات التي

استخدمها النازيون في سحق تمرد اليهود في وارسو، فلم يكذبه وقال: «من المحتمل أن بعض الضباط قاموا بدراسة [ما حدث في جيتو وارسو] فهم يرون أن ثمة نقاط لقاء بين الموقفين [أي ما حدث في جيتو وارسو وما يحدث في فلسطين] فهم يحاربون من شارع إلى شارع ضد السلطة الفلسطينية، [مثلما فعلت القوات النازية في جيتو وارسو]».

ونحن نعرف ما حدث في جيتو وارسو من خلال مصادر عديدة من أهمها تقرير شتروب المعنون «تمت تصفية جيتو وارسو». وهو تقرير قدَّمه الجنرال النازي يورجين شتروب، يقول فيه: إن الفرق النازية قامت بترحيل ٦٠ ألف يهودي أو تصفيتهم. كما تم ترحيل ٣٠٠ ألف إلى معسكرات الاعتقال والإبادة كما قام ٦٠ ألفاً آخرون بالعمل في مصانع السلاح في الجيتو التي كانت تزود الجيوش النازية بالسلاح. وكان شتروب يشير إلى أعضاء المقاومة اليهودية بأنهم «عصابات العدو المسلحة والإرهابيين» وصور قواته بأنها كانت في حرب بطولية وخطيرة ضد عدو مسلح (تماماً كما تدَّعي إسرائيل في محاولة سحقها الفلسطينيين).

وقد بدأ شتروب مخططه التدميري بأن أحاط الجيتو بحائط عازل ثم بدأ في تدميرها منزلاً منزلاً. فكان يضيق الخناق على المقاومين اليهود فيضطرون إلى مغادرة مخابئهم فتقوم فرق خاصة باغتيالهم. وإذا ما ظهرت مقاومة في أحد المنازل كان يدمر كل المنازل التي حوله. وكل هذا تم بهدف تدمير البنية التحتية للمقاومة اليهودية.

والجيتو -كما أسلفنا- كان يتمتع بقدر من الاستقلال، ولكنه لم يكن استقلالاً كاملاً، إذ كان يقوم باستيراد كل المواد الخام والطعام والملابس التي يحتاجها من سلطة الاحتلال النازية على أن يسدد ثمن الواردات بالمنتجات الصناعية (الملابس والمصنوعات الجلدية) التي كان ينتجها الجيتو. كما كان على المجلس أن يقدم عدداً من العمال يومياً يبيعون عملهم لتسديد واردات الجيتو.

وقد وضع النازيون مخططاً لإبادة يهود جيتو وارسو من خلال فرض وضع اقتصادي غير متكافئ عليهم بحيث يمكنهم من استنزافهم لصالح النازيين، فقيمة السلع التي كان ينتجها الجيتو والخدمات التي يقدِّمها كانت دائماً دون حد الكفاف ولا تفي بالاحتياجات المادية الأساسية للعاملين اليهود، الأمر الذي كان يعني سوء

التغذية داخل الجيتو وتناقص عدد سكانه مع ضمان تدفق فائض القيمة بشكل مستمر إلى النازيين. وقد أدَّى عدم تكافؤ العلاقة بين الدولة النازية والدويلة/ الجيتو اليهودية إلى أن السكان زادوا فقراً وزادت حاجتهم إلى المواد الغذائية، فكانوا يموتون جوعاً ويهلكون بالتدريج وببطء دون أفران غاز.

وكانت علاقة الدولة النازية بدويلة/ جيتو وارسو علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترة بمستعمراتها أو علاقة الدولة الصهيونية بالسلطة الفلسطينية في غزة وأريحا (كما يتخيلها الصهاينة). وربما كان الفارق الأساسي هو درجة التحكم، إذ أن جيتو وارسو كان كياناً صغيراً متخلفاً، ومن ثَمَّ كان بالإمكان التحكم فيه بدرجة كاملة أو شبه كاملة، على عكس الضفة الغربية وغزة حيث يوجد كيان حضاري مركب يعود إلى أعماق آلاف السنين ويتسم بتجذره، كما أن سكان «المناطق» المحتلة لم يتوقفوا قط عن المقاومة. وكل هذا يجعل التحكم في فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٦٧ أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً.

ويدل سلوك الإسرائيليين تجاه السلطة الفلسطينية في غزة وأريحا أنهم استبطنوا هذا الجانب من تجربة يهود أوربة مع النازية. فهم يحاولون أن تكون علاقتهم مع هذه السلطة تشبه في معظم الوجوه علاقة الحكم النازي بالسلطة اليهودية في جيتو وارسو.

وما حدث في جنين يبين مدى استفادة الضباط الإسرائيليين من التكتيكات النازية التي درسوها. ولكن ثمة خلاف أساسي، فبينما كان اليهود أقلية محاصرة في بولندة، منعزلة عن جماهير الشعب البولندي وعن الحركة القومية البولندية، فإن القوات الإسرائيلية تحارب ضد شعب بأكمله يسانده بقية الشعب العربي.

• نازيون في الماضي والحاضر

حينما يقارن أحد الكتَّاب بين الصهيونية والنازية أو بين الصهاينة والنازيين تقوم الدنيا ولا تقعد، وعادةً ما تُشهر تهمة «العداء للسامية» في وجه كل من يحاول التلميح، ولو من طرفٍ خفي إلى وجود تماثل بنيوي بين الفكر الصهيوني والأفكار النازية أو تشابهٍ بين ما ارتكبه النازيون في أوربة وما يرتكبه الصهاينة يومياً ضد الشعب الفلسطيني.

ومع ذلك، فقد أشار بن جوريون إلى جابوتنسكي بحسبانه فلاديمير هتلر، وأشار إلى أتباعه بأنهم الهتلريون. ولم يكن بن جوريون مجافياً للحقيقة فيما يقول ... فمجلة الجبهة الوطنية National Front التي كان يصدرها «الاتحاد العالمي للصهاينة المراجعين» وكانت تعبر عن آراء جابوتنسكي، قالت في عددها الصادر في ٣٠ مارس/ آذار ١٩٣٣: إن الاشتراكيين والديمقراطيين يصفون حركة هتلر بأنها مجرد قشرة، ويمكننا أن نرى أنها قشرة تغطي ثمرة، والقشرة هي معاداة السامية، أما الثمرة فهي تحقيق الهدف الصهيوني المتمثل في تهجير أعدادٍ غفيرة من يهود أوربة للاستيطان في فلسطين. وقد أضاف إلياهو كوهين، وهو محامٍ في حزب جابوتنسكي قائلاً: «لو أن أتباع هتلر خففوا في برامجهم من كرههم لليهود، فإنهم سيحظون بتأييدنا». وقد قال أحد زعماء الحركة التصحيحية: «نحن التصحيحيين نكن الإعجاب الشديد لهتلر، فهو الذي أنقذ ألمانية، ولولاه لهلكت خلال أربعة أعوام وسنتبعه إن هو تخلى عن عدائه لليهود».

وقد أسس أحد أتباع جابوتنسكي ما يسمَّي «عصبة الأشداء» (أي الأقوياء) (بالعبرية: بريت هابر يونيم)، وهي جماعة ذات طابع نازي واضح. وكان من بين هتافات أعضاء العصبة «ألمانية لهتلر، وإيطالية لموسوليني، وفلسطين لجابوتنسكي».

وقد أرسلت جماعة ستيرن الصهيونية للحكومة النازية مذكرةً تتصل بإيجاد حل للمسألة اليهودية في أوربة واشتراك أعضاء جماعة ستيرن إلى جانب القوات النازية في الحرب ضد قوات الحلفاء. وتنص المذكرة على أن إجلاء الجماهير اليهودية من أوربة هو شرط مسبق لحل المسألة اليهودية. وقد عبَّر كاتب الوثيقة عن وجود نقط تماثل بين النازية والصهيونية. كما تذكر الوثيقة وجود مصالح مشتركة بين النازيين والصهيونية، وتعبِّر عن تقدير جماعة ستيرن للرايخ الثالث لتشجيعه النشاط الصهيوني داخل ألمانية وللهجرة الصهيونية إلى فلسطين. وتؤكد الوثيقة ضرورة التعاون بين ألمانية الجديدة و«الشعب اليهودي» في المجالين السياسي والعسكري.

وقد يُقال إن هذا شكل من أشكال التطرف الذي لا يعبر عن التيار الأساسي داخل الصهيونية، أو إنَّ جماعة ستيرن كانت مجرد «انحرافٍ» عن الإجماع الصهيوني، ولكن لدينا من الوثائق ما يدل على أن التيار الأساسي في الحركة

الصهيونية آنذاك كان هو الآخر نازي الهوى. ففي ٢١ يونيو/حزيران ١٩٣٣، أي بعد وصول النازيين إلى السلطة، أصدرت المنظمة الصهيونية في ألمانية «إعلان الاتحاد الصهيوني بشأن وضع اليهود في دولة ألمانية الجديدة»، Ausserung der Zionistischen Vereinigung fur Deutschland zur Stellung der Juden im Neuen Deutschen Staat. والذي حدَّد طبيعة علاقة الصهاينة بالنظام النازي بشكل واضح لا إبهام فيه. وقد اتخذ الإعلان شكل مذكرة أُرسلت مباشرةً إلى الحزب النازي وهتلر وتم من خلالها تحديد المقولات المشتركة بين النازيين والصهاينة. فقد بدأت المذكرة/ الإعلان بتأكيد إمكانية التوصل إلى حلٍ يتفق مع المبادئ الأساسية للدولة الألمانية الجديدة، دولة البعث القومي، ثم طرحت أمام اليهود طريقة جديدة لتنظيم وجودهم. وانتقلت المذكرة بعد ذلك لعرض إطارها السوسيولوجي، فقامت بانتقاد الشخصية اليهودية التي تتسم بالكسل، وبيَّنت أن صعوبة وضع اليهود تنبع من شذوذ النمط الوظيفي الذي يتبعونه، ومن الخلل الكامن في كونهم جماعة تتخذ مواقف فكرية أخلاقية غير متجذرة في تقاليدهم الحضارية الخاصة (أي أنهم قومية عضوية توجد خارج أرضها). وبعد أن تبنت المذكرة هذا النقد النازي لليهود انتقلت لإيضاح نقط الالتقاء الفلسفية والنظرية بين الصهيونية والنازية، فأكدت أن الصهيونية مثل النازية تمزج الدين بالقومية، فالأصل والدين ووحدة المصير والوعي الجمعي يجب أن تكون كلها ذات دلالة حاسمة في صياغة حياة اليهود. وتؤكد المذكرة أن المنظمة تقبل مبدأ العِرق، أحد ثوابت الرؤية النازية، أساساً لتصنيف الأفراد والجماعات المختلفة ولإنشاء علاقة واضحة مع الشعب الألماني وحقائقه القومية والعِرقية. كما تقوم المذكرة بتعريف اليهود تعريفاً عِرقيّاً، مبينة أن هدف الصهيونية هو التصدي للزيجات المختلطة والحفاظ على نقاء الجماعة اليهودية.

هذا هو الإطار الفلسفي الذي اقترحته المنظمة الصهيونية لتحديد العلاقة بين الصهاينة والنظام النازي، مؤكدةً على إمكان تحويله إلى ممارسة وإجراءات. وقد طرحت المنظمة الصهيونية نفسها حركة وحيدة قادرة على أن تأتي بحل للمسألة اليهودية يحوز رضا الدولة النازية الجديدة ويتفق مع خُططها، حلٌ يهدف إلى بعث اليهود من الناحية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية في إطار فكرة الشعب العضوي ويتبع الأنموذج النازي. ثم يمضي البيان موضحاً الهدف الصهيوني بجلاء فيقول: «على تربة الدولة الجديدة، ألمانية النازية، نريد أن نعيد صياغة بنية جماعتنا

بأكملها بطريقة تفيد ألمانية واليهود في المجال المخصص لهم، فهدف الصهيونية هو تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين».

لكل هذا قام النظام النازي بتشجيع النشاط الصهيوني ودعم المؤسسات الصهيونية والسماح للمنظمات الصهيونية بممارسة جميع أنشطتها من تعليم وتدريب على الاستيطان فضلاً عن نشر مجلاتها، بينما مُنع الداعون إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم وكذلك اليهود الأرثوذكس من إلقاء الخطب، أو الإدلاء بتصريحات، أو جمع التبرعات أو مزاولة أي نشاط آخر. وقد قام كورت جروسمان، في كتاب هرتزل السنوي (الجزء الرابع)، بدراسة الموضوع، ونشره تحت عنوان **«الصهاينة وغير الصهاينة تحت حكم النازي في الثلاثينيات»**. وألحق الكاتب بالمقال ثماني وثائق نازية تحمل كلها توجيهات للشرطة خاصة بتنظيم النشاط اليهودي في ألمانية النازية. وأول هذه التوجيهات (رقم ٣٦٤٢٠/ ٨١١٣٤) بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٣٥ أنه «يجب حل المنظمات اليهودية التي تدعو إلى بقاء اليهود في ألمانية». وقد مُنع مواطن صهيوني (جورج لوبنسكر) عن طريق الخطأ من إلقاء الخطب، ثم صدر توجيه آخر (رقم ١٩١٠٦/ ١١٣٥١) ليصحح هذا الوضع، وصدر أمر بالسماح له بممارسة نشاطه« لأنه مدافع بليغ عن الفكرة الصهيونية وتعهد بأن يساعد على هجرة اليهود في المستقبل دون أية عوائق».

ولم يقف الأمر عند حدود التسامح مع نشاط المنظمات الصهيونية، بل تجاوز ذلك إلى التنسيق والتعاون في عمليات إفراغ ألمانية من اليهود. ولعل اتفاقية «الهعفراه بين المنظمة الصهيونية والنظام النازي»، والتي تم بموجبها نقل آلاف اليهود إلى خارج ألمانية، هي خير دليلٍ عملي على مدى التعاون بين الصهاينة والنازيين ومدى التطابق بين أهداف الطرفين، حتى وإن حاول كل منهما فيما بعد التنصل من هذه الوقائع التاريخية.

ولكن لابد من التساؤل هنا عن الصلة بين عمليات تهجير اليهود إلى الخارج وعمليات الإبادة التي نظمها النازيون وراح ضحيتها كثير من اليهود وغيرهم من السلافيين والغجر والعجزة ومعارضي النازية. وبعيداً عن الجدل المستمر حول أعداد الضحايا من اليهود وعن حقيقة أفران الغاز وصحة رقم «الملايين الستة» الذي تصر الدعاية الصهيونية على أنه يمثل من أُبيدوا من اليهود على يد النازية

(وهي على أية حالٍ أمور تستحق دراسة متأنية عميقة بدلاً من اختزال القضية إلى إنكار واقعة الإبادة تماماً أو احتكارها بشكلٍ مبتذل لخدمة الأغراض الصهيونية)، فإن ما تجدر ملاحظته هنا أن عملية نقل اليهود تلك لم تكن بأيةِ حالٍ نقيضاً لعملية الإبادة، فكلتاهما تصدران عن الإيمان بضرورة التخلص من يهود أوربة، إذ ينظر إليهم النازيون «فائضاً بشرياً طفيلياً لا نفع له» وينبغي القضاء عليه أو نفيه خارج أوربة، بينما يرى الصهاينة أن اليهود يمثلون عنصراً غريباً داخل النسيج الأوربي وأن استمرار وجودهم في أوربة هو جذر «المشكلة اليهودية»، ومن ثم ينبغي إفراغ أوربة منهم. وما دام الهدف واحداً، فلا يهم بعد ذلك أن يتحقق من خلال «النقل» أو «القتل».

- **الصهاينة وإبادة اليهود**

ويمكن القول: إن المشروع الصهيوني هو في جوهره مشروع لمساعدة أوربة على التخلص من فائضها اليهودي. ويوجد في الكتابات الصهيونية عديد من الإشارات إلى اليهود بوصفهم بكتيريا وحيواناتٍ طفيليةً. ويتم التخلص من اليهود بالطريقة البلفورية في معظم الأحيان، أي عن طريق شحن اليهود إلى فلسطين بدلاً من معسكرات الاعتقال والغاز. ولكن ثمة حالات تعاون فيها الصهاينة في التخلص من اليهود على الطريقة النازية، ومن هؤلاء، ألفريد نوسيج أحد مؤسسي الحركة الصهيونية مع هرتزل، وأهم شخصية يهودية صهيونية متورطة في التعاون مع النازيين، وهو فنان وشاعر وموسيقار من أصل بولندي وخلفية ثقافية ألمانية، كانت مواهبه متعددة ومتنوعة عبَّر عنها من خلال الأدب (قصائد ومسرحيات ومقالات في النقد الأدبي) والموسيقي (لبريتو لإحدى الأوبرات) والنحت (عُرِضَت تماثيله في معظم أرجاء أوربة وذاعت شهرته نحاتاً). ويُعتبَر نوسيج واضع أساس علم الإحصاء الخاص بالجماعات اليهودية، فنشر أعمالاً بين عامي ١٨٨٧ و١٩٠٣ ووضع أساس إنشاء المعهد الإحصائي والسكاني (الديموجرافي) اليهودي. وقد بدأ حياته، شأنه شأن معظم الزعماء الصهاينة خصوصاً المنحدرين من أصل ثقافي ألماني، بالمطالبة بالاندماج الكامل لليهود، ثم أصبح محرراً في إحدى الصحف البولندية. وفي عام ١٨٨٧، نشر نوسيج كتيباً بعنوان **محاولة لحل المسألة اليهودية** (بالبولندية)، حيث اقترح إنشاء دولة يهودية في فلسطين والدول المجاورة.

وقد يتصوَّر البعض أن ثمة تناقضاً بين نزعة نوسيج الاندماجية الأولى ونزعته الصهيونية بعد ذلك. ولكن هذا النمط معروف تماماً بين مؤسسي الحركة الصهيونية، ولا سيما أصحاب الخلفية الثقافية الألمانية. فهؤلاء يهود غير يهود، بمعنى أنهم حاولوا الاندماج بل الانصهار في الأغلبية لرفضهم لهويتهم اليهودية (الدينية والعرْقية). ولكن المجتمع صنفهم «يهوداً» بالرغم من ذلك. ولهذا، أخذوا يبحثون عن طريقة أخرى للتخلص من اليهود، ووجدوا ضالتهم في الحل الصهيوني، الذي يرمي إلى نقل (ترانسفير) يهود أوربة خارجها، إلى أن يفرغها من يهودها في نهاية الأمر. وقد تصوروا أن هذه العملية ستقضي على الفائض البشري وتُسهِّل اندماج القلة التي ستبقى.

وفي عام ١٩٠٨، أسَّسَ نوسيج منظمة استيطانية تُسمَّى إيكو AIKO للتعجيل بنقل اليهود، ولكنه أخفق على ما يبدو في محاولة نقل اليهود على الطريقة البلفورية، فقرر نقلهم على الطريقة النازية (أي الإبادة)، فاتجه إلى التعاون مع النازيين، فعمل مخبراً للسلطات النازية إبان الحرب العالمية الثانية، وعيَّنه تشيرنياكوف، رئيس مجلس اليهود في وارسو إبان حكم النازي، عضواً في المجلس ورئيساً لقسم الفنون. ونظراً لمعرفته الوثيقة بأعداد اليهود وتوزعهم ومراحلهم العمرية المختلفة (بسبب دراساته التي سبقت الإشارة إليها)، ونظراً لرغبته العميقة في إفراغ أوربة من يهودها، وضع نوسيج خطة متكاملة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء (غير النافعين) وتهجير الباقين أو إبادتهم. وقد اكتشف أعضاء المقاومة اليهودية في جيتو وارسو تعاونه مع النازي وأنه عضو في الجستابو، فحُكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ونُفِّذ الحُكم في ٢٢ فبراير/ شباط ١٩٤٣. وقد اختفى نوسيج تماماً من الأدبيات الصهيونية والغربية، لأنه يُعد أنموذجاً جلياً يفضح المشروع الصهيوني مشروعاً ينبع من كُره عميق لليهود ورغبةً في التخلص منهم.

ومن أهم الصهاينة الذين تعاونوا مع النازيين رودولف كاستنر، أحد زعماء الحركة الصهيونية في المجر، والذي ترأس عدداً من المنظمات الشبابية الصهيونية، ورأس تحرير مجلة «أوج كيليت» Uj Kelet (أي «**الشرق الجديد**»)، وكان نائب رئيس المنظمة الصهيونية في المجر، ثم أصبح مسؤولاً عن «إنقاذ» المهاجرين

اليهود من بولندة وتشيكوسلوفاكية، إذ كان يشغل منصب رئيس لجنة الإغاثة في بوادابست التابعة للوكالة اليهودية.

قام كاستنر بالاتصال بالمخابرات المجرية والنازية (التي كان لها عملاء يعملون داخل المجر، حتى قبل احتلال القوات الألمانية لها)، ثم استمر في التعاون مع النازيين بعد احتلالهم للمجر. وتشير بعض الدراسات إلى أن أيخمان حضر إلى المجر ومعه ١٥٠ موظفاً وحسب، وكان يتبعه عدة آلاف من الجنود المجريين، هذا بينما كان عدد يهود المجر يزيد عن ٨٠٠ ألف، وهو ما يعني استحالة ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) إن قرروا المقاومة. ومع هذا نجح أيخمان في مهمته بفضل تعاون كاستنر معه، إذ يبدو أن كاستنر أقنع أعضاء الجماعة اليهودية في المجر بأن النازيين سيقومون بنقلهم إلى أماكن جديدة يستقرون فيها أو إلى معسكرات تدريب مهني لإعادة تأهيلهم وليس إلى معسكرات الاعتقال، فلم يظهروا أية مقاومة لعملية النقل هذه؛ وتعاونت الضحية مع القاتل. وقد عُقدت صفقة مع كاستنر تقضي بأن يتولي تهدئة اليهود ومقابل ذلك سمحت السلطات النازية عام ١٩٤١ بإرسال ٣١٨ يهودياً ثم ١٣٨٦ يهودياً من أحد معسكرات الاعتقال إلى فلسطين («يهود من أفضل المواد البيولوجية» على حد قول أيخمان).

واستقر كاستنر في فلسطين عام ١٩٤٦، وانضم إلى قيادة الماباي ورُشِّح للكنيست الأول، وانتقلت معه مجلة «أوج كيليت»، وأصبح رئيساً لتحريرها، بل كان يُعَدُّ مسؤولاً عن شؤون يهود المجر (أو من تبقى منهم) في الحزب الحاكم.

ولكن في عام ١٩٥٣ أرسل المواطن الإسرائيلي مايكل جرينوولد كتيباً لبعض القيادات الصهيونية اتهم فيه كاستنر بالتعاون مع النازيين، وبالدفاع عن أحد ضباط القوات النازية الخاصة (الإس. إس.) أثناء محاكمات نورمبرج مما أدى إلى تبرئته وإطلاق سراحه. وقد بذل الحزب الحاكم في إسرائيل جهوداً مضنية لإنقاذ كاستنر ونفي التهم عنه.

إلا إن المحكمة الإسرائيلية قضت بأن معظم ما جاء في كتيب جرينوولد يتطابق مع الواقع. وبعد إشكالات قضائية كثيرة، حُسمت المسألة (لحسن حظ الحزب الحاكم) حينما أطلق «أحدهم» الرصاص على كاستنر وهو يسير في الشارع، وذلك

رغم ورود تحذيرات لسلطات الأمن الإسرائيلية عن وجود مؤامرة لاغتيال كاستنر، بل كانت السلطات تعرف موعد تنفيذ المؤامرة. وقد سجل موشيه شاريت، رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك، هذه الكلمات في مذكراته: «كاستنر. كابوس مرعب. حزب الماباي يختنق. بوجروم». ويشير أحد الصهاينة المتورطين في التعاون مع النازيين إلى أن «رجال السياسة الذين يتسمون بالحذر، كانوا لا يعرفون ماذا سيفعلون مع هذا الرجل بعد محاكمته»، وكانوا يفكرون في «إسكاته».

- **العودة إلى بلد المحرقة**

يعود تاريخ أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانية إلى الحملات الرومانية. وكانت الجماعات اليهودية الأولى جزءاً من المدن الرومانية العسكرية على نهري الراين والدانوب، وكان أول وأهم هذه المعسكرات معسكر كولونية (وهي من كلمة لاتينية تعني «مستعمرة» وكلمة «كولونيالية» أي «استعمار» مشتقة من الكلمة نفسها). ثم استوطنت أعداد أخرى من اليهود في أنحاء متفرقة من ألمانية وكونوا جماعة وظيفية تعمل بالتجارة والربا عبر العصور الوسطى، وكانوا يتمتعون بحماية النخبة الحاكمة.

وبعد انقسام ألمانية في القرن السادس عشر إلى إمارات ودوقيات، انقسمت الجماعة اليهودية بدورها إلى جماعات مختلفة تتبع كل واحدة منها الإمارة أو الدوقية التي تعيش فيها، وأدى هذا إلى ظهور ما يُسمي «يهود البلاط» الذين ساعدوا هذه الإمارات على تنظيم أمورها المالية واستثماراتها ورتبوا لها الاعتمادات اللازمة لمشاريعها وحروبها ولتمويل مظاهر الترف التي كانت تشكل عنصراً أساسياً للحكام المطلقين.

وفي القرن التاسع عشر، بدأت عملية دمج أعضاء الجماعة اليهودية في المجتمع الألماني، وبحلول منتصف القرن كانوا قد حصلوا على جميع حقوقهم السياسية والمدنية، واندمجوا في المحيط الثقافي، وبدؤوا في الانصهار والاختفاء، إذ تنصرت نسبة عالية منهم خاصة من مثقفيهم مثل الشاعر هايني ووالد كارل ماركس وأولاد الفيلسوف الألماني مندلسون، كما اختفت أعداد كثيرة عن طريق الزواج المختلط. وكان دمج يهود ألمانية وتحديثهم على نمط يهود الغرب ممكناً، إذ كان يهود ألمانية يعتبرون أنفسهم من «الغرب»، على أن يهود شرق

أوربة هم يهود «الشرق»، وكان يهود الشرق بدورهم يعدون أنفسهم ألماناً، لأنهم يتحدثون اليديشية، وهي رطانة ألمانية دخلت عليها كلمات سلافية وعبرية وتُكتب بحروف عبرية.

ويتبدى ارتباط الجماعات اليهودية الأوربية بألمانية في أن المركز الرئيسي للحركة الصهيونية كان في برلين، وكانت لغة المؤتمرات الصهيونية الأولى هي الألمانية. بل إن دعاة المشروع الصهيوني كانوا يتصورون في بداية الأمر أنه سيتحقق تحت مظلة الاستعمار الألماني، وليس الاستعمار الإنجليزي، كما كانت القيادات الصهيونية الأولى، مثل ثيودور هرتزل وماكس نورداو وألفريد نوسيج، من أصل ألماني أو ذات خلفية ثقافية ألمانية.

وظل هذا الوضع قائماً إلى أن وصل النازيون إلى الحكم بأيديولوجيتهم العنصرية. ومن المفارقات أن العنصرية النازية هي التي أوقفت عملية الاندماج والانصهار. وقد انتهت هذه المرحلة من تاريخ الجماعة اليهودية في ألمانية بإبادة أعداد كبيرة من يهود أوربة على يد النازيين، فيما يُعرف باسم «المحرقة» (الهولوكوست).

ورغم سقوط النظام النازي، فقد تركت واقعة الإبادة جرحاً عميقاً في الوجدان اليهودي في الغرب، خاصة وأن الحركة الصهيونية لا تكف عن التذكير بوقائع «الهولوكوست»، وكأنها حدثت بالأمس، وكأنه لم تحدث مجازر مشابهة في الجزائر وفيتنام والشيشان والبوسنة وراوندة!

ولكن يبدو أن الأمور بدأت تتغير، فقبل الحرب العالمية الثانية كان عدد أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانية نحو ٥٠٠ ألف نسمة، وبعد الحرب انخفض العدد إلى ٢٠ ألف نسمة فقط، ثم أخذ العدد في التزايد فبلغ ٥٠ ألفاً في عام ١٩٩٢، بل ووصل إلى ٢٠٠ ألف عام ٢٠٠٣ فما هو السبب؟ أليست ألمانية هي بلد المحرقة؟

قد تقدم حالة سلومو أفاناسيف وأبويه جانباً من الإجابة. فقد سئموا جميعاً الحياة في أوزبكستان بسبب القلاقل السياسية، كما أن الجماعة اليهودية فيها، شأنها شأن الجماعات اليهودية الأخرى في أنحاء العالم (باستثناء الولايات

المتحدة وفرنسة) على وشك الاندثار، فقرروا أن يهاجروا؛ وبدلاً من الذهاب إلى إسرائيل توجهوا إلى ألمانية. وتنقل مجلة «النيوزويك» (١٤ يوليو/ تموز ٢٠٠٣) عن أفاناسيف قوله إن الوضع السياسي والاقتصادي في إسرائيل شديد السوء للغاية، وإن الحياة في ألمانية أفضل بكثير. ولم تذكر المجلة شيئاً عن أثر الانتفاضة، ولكن القارئ لا يحتاج لقدر كبير من الذكاء ليملأ الفراغات.

وقد تزايدت معدلات الهجرة اليهودية إلى ألمانية حتى إنهم يتحدثون الآن عن نهضة يهودية، فعلى سبيل المثال يوجد أكثر من ستين معبداً لليهود، في الوقت الذي تباع فيه المعابد اليهودية في كل أنحاء أوربة بسبب اختفاء أعضاء الجماعات اليهودية، إما عن طريق الاندماج أو الزواج المختلط أو الهجرة أو العلمنة. وقد علق مايكل ماي، المدير التنفيذي لمنظمة الجماعة اليهودية في برلين، على هذا الواقع الجديد بقوله: «لم نكن نتوقع أن يحدث هذا» وقد استخدم كلمة «this» وليس كلمة «عودة»، إذ إنَّ «العودة» في الخطاب الصهيوني هي دائماً لإسرائيل، ولهذا لا يمكن أن تُستخدم للإشارة «للعودة» إلى ألمانية بلد المحرقة! واستطرد المدير التنفيذي قائلاً: «إن الحياة اليهودية هنا مزدهرة بعد ستين عاماً من الهولوكوست». وتمثل ألمانية عامل جذب لأعضاء الجماعات اليهودية لأنها تمنح تلقائياً كل اليهود من الاتحاد السوفييتي السابق الجنسية وكل المزايا التي تمنحها لمواطنيها. ومن المفارقات التي يجدر تسجيلها أن عدد اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل عام ٢٠٠٣ بلغ ١٨,٨٧٨ بينما بلغ عدد الذين اليهود هاجروا إلى ألمانية ١٩,٢٦٢ (كما جاء في الإحصاء الذي أجراه مركز الدراسات اليهودية في جامعة بوستدام في ألمانية).

إلا أن هذا الوضع لا يخلو من المشاكل. فعلى سبيل المثال، لا تعترف المؤسسة الدينية الحاخامية في ألمانية بنحو ٣٠ بالمئة من المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفييتي السابق لأنهم لا ينحدرون من أمهات يهوديات. وقد طلب رئيس المجلس المركزي ليهود ألمانية من الحكومة أن تشطب من قائمة طالبي الجنسية أسماء اليهود التي وصفها بأنها improper أي «غير سليمة»، بما يشير إلى أنهم أشباه يهود أو يهود غير يهود! ولكن المسؤولين في وزارة الخارجية الألمانية رفضوا الطلب قائلين إن الألمان لن يقوموا بتصنيف اليهود مرة أخرى، في إشارة

واضحة إلى ما كان يفعله النازيون بتصنيف اليهود إلى نافعين وغير نافعين وقابلين أو غير قابلين للترحيل.

وظهرت مؤخراً مشكلة أخرى إثر وفاة مؤلف ألماني يهودي يدعى ستيفان هايم. فقد تقرر دفنه في المدافن اليهودية وأعدت أسرته شاهداً لقبره. ولكن المؤسسة الدينية اليهودية أعادت لهم الشاهد لأنه لا توجد عليه نجمة داوود وبعض الحروف العبرية التي لها دلالة دينية. فرفضت الزوجة أن تمتثل لمطالب المؤسسة، ولا تزال المشكلة قائمة. وقد لوحظ أن كثيراً من المهاجرين من الاتحاد السوفييتي السابق مغرمون بزخرفة القبور ووضع صور الموتى عليها، وهو ما يتنافى مع القواعد التي وضعتها المؤسسة الدينية (**الجيروساليم ريبورت**، ١٠ فبراير/ شباط ٢٠٠٣) مما يولد كثيراً من التوتر ويثير مره أخرى إشكالية «من هو اليهودي» التي تهز كيان الجيب الصهيوني من حين لآخر.

- **تجارة الهولوكوست الرابحة!!**

اتسمت المواقف الغربية تجاه أعضاء الجماعات اليهودية بازدواجية واضحة تكاد تخلو من العقلانية. إذ يُنظر إلى اليهود لا أقلياتٍ مختلفة فيهم ما في البشر العاديين من الخير والشر، بل كياناً جماعياً واحداً يُسمي «اليهود» أو الشعب اليهودي، وهو في الوقت نفسه شعب مختار، ومقدس، وروحاني. ومع ذلك، فقد كان يُنظر إليهم على الدوام تجاراً ومرابين، أو أشياء بشرية يمكن نقلها من مكان إلى آخر طبقاً لاحتياجات الطبقة الحاكمة، أي أنهم باختصار جماعة وظيفية.

ولهذه الازدواجية تاريخ طويل. فالمفهوم الكاثوليكي لليهود يصنفهم شعباً شاهداً، يقف في تدنيه وضِعَته «شاهداً» على عظمة الكنيسة، وهو ما يقتضي أن يحظى اليهود بحماية الكنيسة الكاثوليكية، حتى إنَّ الكنيسة استثنت اليهود من عمليات التنصير الإجباري. وفي الوقت نفسه، فإن بقاءهم في ذلك الوضع المتدني الوضيع، على النقيض من وضع الذين تشملهم مظلة الإيمان المسيحي، هو دليلٌ حي على انتصار الكنيسة الكاثوليكية.

وتتجلى الازدواجية نفسها في العقيدة الألفية الاسترجاعية البروتستانتية التي ترى أن عودة اليهود إلى أرض الميعاد هي شرطٌ أساسي لعودة المسيح مرة أخرى

إلى الأرض وتأسيس مملكته التي ستدوم ألف عام، ويتحقق من خلالها الخلاص النهائي. ولكن عودة اليهود هذه كان يُنظر إليها أيضاً وسيلةً لتنصيرهم، ومن ثم يصبح الخلاص النهائي هو تخلص نهائي من اليهود في الوقت ذاته. كما طبعت هذه الازدواجية بطابعها المواقفَ العلمانية الغربية الحديثة من اليهود. فخلال القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، كان يُنظر إلى اليهود في أوربة شعباً متفرداً موهوباً يجيد الأعمال الشاقة، وشعباً عضوياً له هوية متفردة ويرتبط ارتباطاً عضوياً بأرض الميعاد. ولكن هذه المقولة نفسها كانت تعني أنهم غير متجذرين في المجتمع الأوربي وأنهم لا ينتمون إليه تماماً، وما دام الأمر كذلك فمن الضروري نقلهم إلى فلسطين لخدمة المصالح الغربية.

ومن المفارقات الملفتة للنظر أن إضفاء صفة القداسة على «الشعب اليهودي»، أو النظر إلى اليهود شعباً متفرداً مكتفياً بذاته ولا مرجعية له خارجه قد سهلت «حوسلتهم» (أي تحويلهم إلى وسيلة أو توظيفهم لتحقيق غاية ما)، ذلك أن إضفاء القداسة على شخص وجعله مرجعية ذاته يعني أيضاً استبعاده من نطاق الإنسانية المشتركة، مما يجعل «حوسلته» أمراً سهلاً. وهكذا يتضح أن التحيز لليهود (أي الصهيونية) وعداء اليهود هما وجهان لعملة واحدة.

وتبدو الازدواجية نفسها في موقف العالم الغربي ويهود الغرب من حادثة مهمة في تاريخ الحضارة الأوربية الحديثة، ألا وهي إبادة أعداد كبيرة من يهود الغرب على أيدي النظام النازي. وأحياناً ما يُستخدم مصطلح «الإبادة» Extermination أو «المذابح الجماعية» Genocide في وصف هذه الحادثة، ولكن المصطلح الأكثر شيوعاً هو «الهولوكوست» Holocaust، وهي كلمة يونانية لا تعني مجرد «التدمير حرقاً»، كما تشير الموسوعة البريطانية، ولكنها كانت في الأصل مصطلحاً دينياً يهودياً يشير إلى القربان الذي يُضحَّي به للرب ويُحرق حرقاً كاملاً غير منقوص على المذبح. ولهذا كان «الهولوكوست» يُعد من أكثر الطقوس قداسةً، وكان يُقدم تكفيراً عن خطيئة الكبرياء. وفي العبرية يُشار إلى هذه الحادثة باستخدام كلمة «شواه»، التي تعني الحرق، كما تُستخدم أحياناً كلمة «حُربان» وتعني الهدم أو الدمار، وكانت تُستخدم للإشارة إلى «هدم الهيكل». وهكذا، فإن اختيار المصطلحات في حد ذاته، سواء في الإنجليزية أم في العبرية، لوصف حادثة تاريخية محددة، هي

القضاء على جزء من يهود أوربة، يخلع على هذه الحادثة صفة القداسة وينزعها من سياقها التاريخي والحضاري المتعين.

إلّا أن نفس المفارقة التي يتطوي عليها توظيف الحادثة التاريخية تنطبق بالمثل على كلمة «هولوكوست» ذاتها. فقد أصبحت الكلمة تُستخدم حالياً للإشارة إلى معان شتى تبتعد تماماً عن المعني الأصلي. فعلى سبيل المثال، يشير بعض الصهاينة إلى ظاهرة الزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود بأنه «الهولوكوست الصامت» Silent Holocaust، ووصف إسحق رابين فيلم «قائمة شندلر» بأنه «ليس هولوكوستياً بما فيه الكفاية». ونتيجةً لهذا التوظيف المستمر والممجوج لكلمة الهولوكوست لخدمة الأغراض السياسية والمصالح الاقتصادية، راح بعض المنتقدين، من أمثال نورمان فنكلشتاين، يعبرون عن احتجاجهم على عملية التوظيف هذه.

ويُعد كتاب نورمان فنكلشتاين **صناعة الهولوكست: تأملات في استغلال المعاناة اليهودية**[١] احتجاجاً موثقاً بالأدلة والبراهين على توظيف موضوع الهولوكوست وتحويله إلى صناعة ترمي إلى خدمة المصالح السياسية للنخبة من اليهود الأمريكيين، والتي تتوافق مع مصالح السياسة الخارجية للحكومة الأمريكية. ويميز فنكلشتاين بدايةً بين «الإبادة النازية لليهود»، حادثةً تاريخيةً، و«الهولوكوست»، أي التعبير الأيديولوجي عن هذه الحادثة، مشيراً إلى أن الهولوكوست قد تحول إلى شيء لا مثيل له في التاريخ الإنساني، إذ إن «تفرده مطلقٌ تماماً»، ومن ثم «فلا يمكن فهمه بشكل عقلاني».

وهذا ما أسميه «الأيقنة»، أي تجريد ظاهرة إنسانية من طبيعتها التاريخية الزمنية، وتقديمها شيئاً فذاً متفرداً لا يمكن فهمه أو تفسيره من خارجه، شأنه شأن الأيقونة، وهو مرجعية ذاته ولا يمكن مناقشته إلا من خلال مصطلحات ممعنة في الغيبية والغموض، هذا إذا تمت مناقشته أصلاً. وبهذه الطريقة يتم التحول من الزمني التاريخي إلى اللازمني الكوني.

---

(١) Norman G. Finkelstein, The Holocaust Industry: Reflections on the Exploitation of Jewish Suffering (London & New York: Verso, 2000).

ويتتبع فنكلشتاين المنطق الذي يشكل أساس صناعة الهولوكوست، فيرى أنه «إذا كان الهولوكوست حدثاً لم يسبق له مثيل في التاريخ، فلابد أنه يقف خارج التاريخ، ومن ثم لا يمكن فهمه بالمنطق التاريخي». ولما كان نفي القداسة عن الأحداث التاريخية هو كُفر بَيِّنٌ من وجهة نظر المؤمنين الأتقياء فإن «محاولة فهم واقعة الهولوكوست بشكل عقلاني تُعد، طبقاً لوجهة النظر هذه، إنكاراً لهذه الواقعة، لأن العقلانية تنكر الطابع المتفرد والغامض للهولوكوست».

ويلاحظ فنكلشتاين أنه مع نمو صناعة الهولوكوست، أخذ المنتفعون من هذه الصناعة يتلاعبون في أرقام الناجين، وذلك بغرض المطالبة بمزيد من التعويضات، وبدأ كثيرون يتقمصون دور الضحية. ويعلق على ذلك ساخراً «لا أبالغ إذا قلت إنّ واحداً من كل ثلاثة يهود ممن تراهم في شوارع نيويورك سيدَّعي بأنه من الناجين. فمنذ عام ١٩٩٣، ادعى القائمون على هذه "الصناعة" أن ١٠ آلاف ممن نجوا من الهولوكوست يموتون كل شهر، وهو أمر مستحيل كما يبدو، لأنه يعني أن هناك ثمانية ملايين شخص نجوا من الهولوكوست في عام ١٩٤٥ وظلوا على قيد الحياة، بينما تؤكد الوثائق أن كل اليهود الذين كانوا يعيشون على الأراضي الأوربية التي احتلها النازيون عند نشوب الحرب لا يزيد عن سبعة ملايين فقط». ولكن وفقاً للحسابات الرياضية البسيطة، كما يقول فنكلشتاين، يتبين أن هذا التلاعب يؤدي في واقع الأمر إلى تقليل عدد الضحايا الذين يُقال: إنهم أُبيدوا. وهكذا ينتهي الأمر برقم ستة الملايين إلى أن يصبح من الصعب التمسك به أو الدفاع عنه. ويعلِّق فنكلشتاين على هذا الأمر ساخراً فيقول: إن القائمين على صناعة الهولوكوست يتحولون تدريجياً إلى منكرين للإبادة.

ولا يقف الأمر عند حدود التلاعب بالأرقام بل يتجاوز إلى التلاعب بالحقائق نفسها. فيلاحظ فنكلشتاين أن «متحف إحياء ذكرى الإبادة النازية» في واشنطن، على سبيل المثال، «يتغاضى عن أثر السياسة التمييزية التي اتبعتها الولايات المتحدة بتحديد أعداد المهاجرين اليهود إليها قبل الحرب، بينما يبالغ في دور الولايات المتحدة في تحرير معسكرات الاعتقال النازية، ولا ينبس ببنت شفة عن إقدام الولايات المتحدة على تجنيد أعداد كبيرة من مجرمي الحرب النازيين في نهاية الحرب». كما يشير فنكلشتاين إلى أن المتحف يمر مرور الكرام على موضوع المذابح الجماعية التي ارتكبها النظام النازي في حق الغجر والسلافيين والمعاقين

فضلاً عن المعارضين السياسيين. ويخصص الكاتب جزءاً كبيراً من كتابه لمسألة الأموال المجمدة من الحقبة النازية في المصارف السويسرية، ويتساءل عن الأموال المماثلة في المصارف الأمريكية، والتي لا يشير إليها أحدٌ من قريب أو بعيد. وقد يتساءل المرء، على ضوء الشواهد المتوفرة، إذا ما كانت الولايات المتحدة تستخدم المنظمات اليهودية، من خلال مسألة الأموال المجمدة في المصارف الأوربية، من أجل زيادة الضغوط على البلدان الأوربية لإجبارها على الوقوف إلى جانب الدولة الصهيونية.

ويحاول فنكلشتاين أن يخرج بقضية «الهولوكوست» من نطاق المقدس إلى نطاق التاريخ، بأن يضعها في سياق محدد هو الصراع العربي الإسرائيلي. فيبين مثلاً أن «كل الأدلة تقريباً تؤكد أن موضوع الإبادة النازية لليهود لم يصبح أمراً راسخاً في حياة اليهود الأمريكيين إلا بعد اندلاع هذا الصراع [حرب يونيو/حزيران ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل]». أما قبل عام ١٩٦٧، فكانت المؤسسات اليهودية تميل إلى التقليل من شأن الإبادة النازية ليهود أوربة، وذلك تمشياً مع الأولويات السياسية للحكومة الأمريكية في فترة الحرب الباردة، والتي كانت تتطلب تأييد فكرة إعادة تسليح ألمانية بل وتجنيد أعداد كبيرة من الجنود السابقين في «قوات الأمن الخاصة» للنظام النازي.

إلا إن هذا الوضع أخذ في التغير منذ منتصف الستينيات، كما يبين فنكلشتاين. فعناصر مثل تصاعد السياسات القائمة على الهوية أو الانتماء العِرقي، من ناحية، وسيادة المناخ المتمثل في احتكار دور الضحية، من ناحية أخرى، فضلاً عن تزايد معدلات اندماج اليهود في المجتمع الأمريكي وتحولهم التدريجي من مواقف اليسار ويسار الوسط إلى اليمين، ساعدت كلها على بروز مسألة الإبادة النازية لليهود مصدراً لتدعيم الإحساس بالهوية العِرقية اليهودية، التي تضع اليهود في منزلة مختلفة عن الجماعات العِرقية والدينية الأخرى شعباً مختاراً، وإن كان الاختيار هنا في إطار علماني.

ويرى فنكلشتاين أن انضواء الدولة الصهيونية بشكل كامل في فلك الترتيبات الأمنية الدولية للولايات المتحدة، و«التحالف الاستراتيجي» بين الولايات المتحدة وإسرائيل، يمثل عاملاً حاسماً. ويمكنني أن أضيف هنا أيضاً أن تزايد التنافس بين

الدول الأوربية والولايات المتحدة قد وضع حداً لكل الموانع والمحاذير المتعلقة بتوظيف حادثة الإبادة النازية واستغلالها. فهذه الحادثة، كما سبقت الإشارة، يمكن أن تُستخدم هراوةً لابتزاز بعض الدول الأوربية لإرغامها على مساندة إسرائيل. كما يمكن استخدامها لتسويغ الممارسات الإسرائيلية إزاء الفلسطينيين. وفي هذا الصدد، يستشهد فنكلشتاين بكلمات بيتر بالدوين التي يقول فيها إن «تفرد المعاناة التي كابدها اليهود تضاعف من الادعاءات الأخلاقية والعاطفية القائلة بأن بوسع إسرائيل أن تفعل الشيء نفسه. . . مع شعوب أخرى».

- **الحسابات الجنائزية**

يدعي العالم الغربي أن فلسطين أُعطيت ليهود أورية تعويضاً لهم عما حدث في معسكرات الإبادة النازية، وهذا بطبيعة الحال كذب وافتراء. فوعد بلفور صدر عام ١٩١٧ قبل واقعة الإبادة بعشرات السنين، وإذا كان الهدف هو تعويض اليهود عما حل بهم من بطش ألمانية النازية، فلماذا لم تمنحهم الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية أجود قطعة من ألمانية لينشئوا فيها دولة لهم؟

وقد يظن المرء لأول وهلة أن كل القضايا المرتبطة بالإبادة النازية مثل عدد الضحايا اليهود، وهل يبلغ ستة ملايين بالفعل أم أنه أقل من ذلك بكثير، هي قضايا حُسمت تماماً في الأوساط العلمية. والأمر أبعد ما يكون عن ذلك، فهناك دراسات علمية، ذات مقدرة تفسيرية معقولة، تبين أن هذه قضايا خلافية، وهي دراسات تطرح وجهة نظر قد تكون متطرفة أو خاطئة (والوصول إلى قدر من الحقيقة في مثل هذه الأمور الخلافية أمر جد عسير)، إلا انها تدلل على وجهة نظرها من خلال الأرقام والحقائق والمعلومات.

ولكن الإعلام الغربي والصهيوني يُهاجم هذه الدراسات بشدة، ويشجبها بعصبية واضحة، ويهيج ضدها بطريقة غوغائية، ويوجه الاتهام لكل من تسول له نفسه أن يثير الشكوك حول موضوع الملايين الستة حتى لو كان من العلماء المتخصصين، رغم أن هناك دراسات كتبها علماء إسرائيليون يُعبرون فيها عن شكوكهم بخصوص رقم الستة ملايين.

وقبل الخوض في هذا الموضوع الخلافي الشائك، لابد وأن نؤكد مع روجيه جارودي التزامنا بالقيم الأخلاقية المطلقة، فليس الغرض من مناقشة الموضوع

«القيام بعملية حسابية جنائزية» لعدد ضحايا الإبادة النازية لليهود، أو «مسك دفاتر حسابية مؤلمة؟» فهذا يشكل سقوطاً في العقلية التكنولوجية والعقلانية المادية، فقتل إنسان بريء واحد، سواء أكان يهودياً أم غير يهودي، هو جريمة ضد الإنسانية. وكما ورد في الذكر الحكيم ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٥/ ٣٢].

وتوجد على معسكر أوشفتس (وهو أحد معسكرات الإبادة) لوحة كُتبت عليها عبارة تقول: إن أربعة ملايين شخص لقوا حتفهم في أوشفتس. ولكنَّ هناك عالماً متخصصاً في ظاهرة الإبادة النازية ليهود أوربة يؤكد أن عدد من لقوا حتفهم في أوشفتس ليس أربعة ملايين بل مليونان فحسب. فمن هو هذا الشخص؟ هل هو روجيه جارودي، أم أحد المتحدثين العرب، أم أحد المعادين لليهود واليهودية؟ ولماذا لم يتهمه أحد بالعداء للسامية؟ ولماذا لم يقدم للمحاكمة؟ الإجابة بسيطة فصاحب التصريح هو يهودا باور، وهو ليس شخصاً عادياً وإنما أحد أهم مؤرخي الهولوكوست في إسرائيل ويرأس قسم دراسات الهولوكوست في معهد دراسة يهود العصر الحديث في الجامعة العبرية، ويُوصف بأنه عدو شرس لكل من ينكر حادثة الإبادة النازية ليهود أوربة. وقد ورد تصريحه في صحيفة «نيويورك تايمز» منذ حوالي عشر سنوات. ويساند باور في موقفه يسرائيل جاتمان، وهو محرر موسوعة من أربعة مجلدات عن الهولوكوست، ويُعدُّ مصدراً أساسياً للمعلومات لأنه قاد المقاومة اليهودية في أوشفتس. ويؤكد باور أن مؤرخي الهولوكوست رفضوا أعداد الضحايا المبالغ فيها، ولكن الأعداد الحقيقية التي تقل عنها بشكل ملحوظ لم تصل قط إلى الرأي العام. كما وافق إيلان ستاينبرج، المدير التنفيذي للمؤتمر اليهودي العالمي، على الإحصائيات التي تقلل من عدد الضحايا اليهود، وأضاف أن معظم العلماء قبلوا بهذه الإحصائيات، وأن تكرار الادعاءات القائلة إن عدد الضحايا اليهود في أوشفتس كان أربعة ملايين جعل كثيراً من اليهود يقبلون الرقم الزائف.

وطرحت صحيفة «نيويورك تايمز» السؤال التالي: لماذا يصر يهودا باور على تأكيد أن عدد من لقوا حتفهم في أوشفتس أقل بكثير مما تزعمه بعض الأدبيات الصهيونية. ويرد باور قائلاً إن «دور المؤرخ هو أن يقول الحقيقة، ويقاوم إغراء خلق الأساطير، بل عليه أن يختبر كل الأساطير، وإن كان من الضروري كشفها،

فعليه أن يفعل. والحقيقة في هذه الحالة بشعة بما فيه الكفاية. ولهذا فالمبالغة في عدد الموتى ستكون زاداً لمن ينكرون الهولوكوست، فهم يعرفون كيف يجمعون الأرقام، وإذا أضافوا الأربعة ملايين إلى أعداد الموتى في أماكن أخرى فإن عدد ضحايا الهولوكوست سيزيد عن ستة ملايين.

وقد أثارت تصريحات باور ضجة كبيرة في الدولة الصهيونية، وتلقى كثيراً من الخطابات والمكالمات التليفونية التي تقول: «لماذا يدلي هذا الرجل بهذه التصريحات التي تؤكد أن عدد اليهود الذين لقوا حتفهم في أوشفتس أقل مما هو معلن؟» وكأن قول الحقيقة أمر مشين، خاصة حين تُوظّف الأساطير في قمع الآخرين.

إلا ان باور يصر على موقفه من الأسطورة الصهيونية الزائفة عن أعداد الضحايا، بل ويقدم الأدلة على زيف أسطورتين أخريين، وأولهما تصوير الأغيار بأنهم كانوا معادين لليهود ولم يقدموا لهم يد المساعدة أثناء الاضطهاد النازي. ويعلق باور على ذلك بقوله: «إن هذا هراء، مجرد هراء»، ففي عدة بلدان أنقذ السكان المحليون أفراد الجماعات اليهودية. ورغم أن بعض الشعوب ساعدت النازيين، كما حدث في النمسة، فإن بعضاً آخر ساعد اليهود وآواهم كما حدث في بلغارية، خصوصاً في أوساط المسلمين، وفي الدنمارك وفنلندة ورومانية وإيطالية وهولندة. وفي فرنسة أُسْلِمَ خمسة وسبعون ألف يهودي للقوات النازية، ولكن أضعاف هذا العدد حظوا بالحماية في الوقت نفسه. كما رفض عاهل المغرب محمد الخامس تطبيق القوانين النازية على يهود المغرب رغم مطالبة حكومة فيشي الفرنسية بذلك. ولا يمكن أيضاً تجاهل جهود الحكومة السوفييتية في نقل مئات الآلاف من اليهود بعيداً عن المناطق التي احتلها النازيون، رغم تحالفها في بداية الأمر مع هتلر. وتتجاهل التواريخ الصهيونية كل هذا، تماماً مثلما تتجاهل العلاقة الفكرية والفعلية بين النازية والصهيونية والقيادات الصهيونية التي تعاونت مع النازيين. أما الأسطورة الأخرى فهي مقارنة العداء لليهود واليهودية في الوقت الحاضر بالإبادة النازية لليهود، ويقول باور إن هناك عناصر نازية في العداء الحديث لليهود واليهودية، ولكن هناك اختلافات جوهرية بينهما. ولذلك ينبغي توخي الحذر من المقارنات السطحية.

• توظيف الإبادة

يحاول الصهاينة احتكار دور الضحية لليهود وحدهم دون غيرهم من الجماعات أو الأقليات أو الشعوب، ولهذا يرفض الصهاينة والمدافعون عن الموقف الصهيوني أية محاولة لرؤية الإبادة النازية تعبيراً عن نمط تاريخي عام يتجاوز الحالة النازية والحالة اليهودية. كما يرفض الصهاينة تماماً محاولة مقارنة ما حدث لليهود على يد النازيين بما حدث للغجر أو البولنديين على سبيل المثال، أو ما يحدث للفلسطينيين على أيديهم.

وقد ارتفعت بطبيعة الحال بعض الأصوات غير اليهودية تحتج على هذا الموقف. وقد بدأت الكنيسة الكاثوليكية المواجهة حين قامت بتنصيب الأخت تريزا بنديكتا قديسة. والأخت تريزا هي إيديث شتاين سكرتيرة الفيلسوف الألماني مارتن هايدجر، وكانت يهودية، وعندما قرأت قصة حياة القديسة تريزا شعرت بإحساس ديني غامر وتنصرت واعتنقت الكاثوليكية ثم ترهبنت، وفيما بعد اعتقلها النازيون وقتلوها. ويُصر الصهاينة على أنها قُتلت بسبب عقيدتها اليهودية، بينما ترى الكنيسة أنها راهبة كاثوليكية استُشهدت من أجل عقيدتها المسيحية. والحادثة الثانية هي الخاصة بدير الراهبات الكرمليات في أوشفيتس، الذي طالب اليهود بإزالته وتمسكت المؤسسة الكاثوليكية في بولندة بالإبقاء عليه، مما أدى إلى نشوب معركة إعلامية ساخنة بين الطرفين.

وكتب باتريك بيوكانان، الصحفي والمرشح الجمهوري في انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٩٦، ما نتصور أنه خير احتجاج على هذا الموقف في مقال بعنوان «الكاثوليك ليسوا بحاجة إلى محاضرات في الأخلاق من سفاح عصابة شتيرن السابق» جاء فيه:

> *«في متحف المذبحة النازية، هناك ثلاثة ملايين يهودي بولندي سيظلون في الذاكرة، ولكن ماذا عن ثلاثة ملايين تقريباً من أهالي أوكرانية وصربية وليتوانية والمجر ولاتفية وإستونية نُحروا في ساحات القتل على أيدي الوثنيين العنصريين في برلين وعلى أيدي الملحدين المتعاونين معهم في موسكو؟ وما الذي يتطلبه الأمر حتى يكون المرء ضحيةً من الدرجة الأولى؟*

فإذا كانت ذكرى الضباط اليهود الذين ماتوا إلى جانب إخوانهم الكاثوليك في كاتين قد خُلدت بنجمة داوود، فلماذا لا يتم تخليد ذكرى المليون كاثوليكي الذين أفنُوا في أوشفيتس بصليب؟ وإذا كان التذكار حيوياً، فلماذا يُستثنى المسيحيون؟».

ونحن، بطبيعة الحال، نرى أن الإبادة لم تكن موجهةً ضد اليهود وحسب، وإنما ضد سائر العناصر التي عُدَّتْ، من منظور النازية، غير نافعة، خصوصاً وأنه لو انتصرت قوات روميل في العلمين لامتدت آلة الفتك النازية إلى أعراق يعدها النازيون متدنية (مثل العرب). ومن ثم، فإن احتكار الصهاينة لواقعة الإبادة ليس له ما يبرره في الواقع التاريخي.

واحتكار الإبادة بهذا الشكل يخدم ولاشك الأهداف الصهيونية. ويقوم الصهاينة بتوظيف الإبادة على النحو التالي:

١- يحاول الصهاينة فرض معنى صهيوني ضيق على حادثة الإبادة جريمةِ العصر التي ارتكبها الألمان والأغيار ضد اليهود فحسب، وليس جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد قطاعات كبيرة من سكانها، ثم تُعطى واقعة الإبادة مكانة محورية في تاريخ أوربة وتاريخ العالم.

٢- يستخدم الصهاينة حادثة الإبادة (الهولوكوست) سحابةً كثيفة لتبرير الفظائع التي ارتكبتها وترتكبها الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين.

٣- توظيف الإبادة في جمع التعويضات التي تموِّل الكيان الاستيطاني الصهيوني (وقد بلغ حجم التعويضات الألمانية وحدها ٧٠ بليوناً من الدولارات في ٣٥ عاماً).

٤- عملية توظيف الإبادة من منظور نفعي مادي انتقائي محض، لا علاقة له بالقيم الأخلاقية. ولهذا لا تمانع إسرائيل البتة في توثيق علاقتها مع بعض حكومات دول أمريكة اللاتينية التي تؤوي مجرمي الحرب النازيين (الذين تزعم إسرائيل أنها تطاردهم في كل زمان ومكان).

٥- توظيف الصهاينة واقعة الإبادة لحشد أعضاء الجماعات اليهودية وراء الأهداف الصهيونية. ولتحقيق هذا يحاول الصهاينة أن يجعلوا من الإبادة

حجر الزاوية الذي تستند إليه الوحدة بين يهود العالم في إسرائيل وخارجها. فالإبادة، بعد فرض المعنى الصهيوني عليها، تنهض دليلاً على رفض العالم لليهود، وعلى أن الأغيار يتربصون دائماً بالضحايا اليهود الذين يُقدمون قرباناً على المحرقة. وهذا تأكيد للمقولة الصهيونية الخاصة بأزلية معاداة الأغيار لليهود وحتميتها، ومن ثم يتعين على يهود العالم الهجرة إلى ما يسمونه «الوطن القومي».

٦- جعلت المؤسسة العسكرية الخوف من الإبادة أحد أسس الاستراتيجية الصهيونية، فقد أشار كل من أبا إيبان ورابين إلى حدود إسرائيل قبل عام ١٩٦٧ بأنها «حدود أوشفيتس».

وتثبت الدراسات التاريخية أن الإبادة النازية لم تكن موجهةً ضد اليهود وحسب، فعدد ضحايا الحرب العالمية الثانية من جميع الشعوب الأوربية يبلغ نحو خمسة وثلاثين مليوناً، حسب بعض التقديرات.

وقد لاحظ كثير من المعلقين عملية توظيف الإبادة هذه، ولذلك نحتت بعض الصحف الألمانية تعبير «هولوكوست بزنيس holocaust business» أي «تجارة الهولوكوست»، وتحدث آخر عن هولوكيتش holokitsch (و«كيتش» كلمة تعني الفن الشعبي الرديء) وهولوكاش holocash (أي الهولوكوست مصدراً للارتزاق، وهو يشير إلى الكتب والأفلام التي تُنتج عن موضوع الهولوكوست بغرض وحيد هو تحقيق الربح)، أو «هولوكوست مانيا holocaust mania» (وتعني الانشغال المرضي أو الجنوني بالإبادة).

• الإعلام الغربي وقضية التعاون بين النازيين والصهاينة

نجح الصهاينة في توظيف واقعة الإبادة النازية ليهود أوربة في خدمة الصهيونية وإسرائيل، على الرغم من أن ظهور الصهيونية وتأسيس الدولة الصهيونية لا علاقة لهما بواقعة الإبادة، فقرار تأسيس الدولة الصهيونية يسبق ظهور النازية بعدة عقود.

وتتلخص الاستراتيجية الصهيونية فيما أسميه «أيقنة» الإبادة، أي تحويلها إلى ما يشبه الأيقونة. والأيقونة هي صورة ترمز إلى شيء متجاوز للطبيعة والتاريخ،

يرى من يؤمن بها أنها مقدسة، بل إنها تجسيد للإله، ومن ثم لا يمكن إخضاعها للتساؤلات الإنسانية العادية التي يمكن إخضاع أية ظاهرة إنسانية لها، كما لا يمكن مقارنتها بأية صورة أو ظاهرة أخرى، فالأيقونة مرجعية ذاتها، مكتفية بذاتها.

ونحن نعلم أن واقعة الإبادة واقعة تاريخية زمانية مكانية، حدثت لبشر يعيشون في الزمان والمكان لأسباب تاريخية واجتماعية وحضارية محددة، شأنها شأن أية ظاهرة إنسانية. ولكن بعد تحويلها إلى أيقونة مقدسة، أصبح الحديث عنها ظاهرةً إنسانيةً أمراً مرفوضاً، إلى أن وصل الأمر إلى حد جعلِ التساؤل بخصوص بعض تفاصيل الإبادة منكراً يجب تحاشيه، بل وجريمةً يعاقب عليها القانون تسمى «إنكار الإبادة». وقد استخدم الصهاينة الاتهام بإنكار الإبادة كآلية لكمِّ الأفواه: وهذا ما حدث لجارودي ولإرفنج وللعديد من الباحثين قبلهما.

ويمكن للإعلام العربي والإعلام الغربي المناهض للصهيونية والعنصرية أن يتخطى هذه العقبة ويأخذ زمام المبادرة عن طريق نشر وثائق عن تعاون النازيين مع الصهاينة وعن قضايا أخرى وثيقة الصلة بهذه القضية، دون تعليق عليها والاكتفاء بالتعريف بها فندع الوثائق تتحدث بنفسها. وفي هذه الحالة لن يمكن اتهام ناشر الوثيقة بأنه أنكر الهولوكوست أو قلل من أهميتها وتصبح القضية هي مناقشة الوثيقة.

وهناك الآن كثير من الوثائق التي تتناول موضوع علاقة النازيين بالصهاينة تحتوي على حقائق يمكن أن يسبب نشرها كثيراً من الحرج للصهاينة. وأعتقد أن وثائق وزارة الخارجية الألمانية والبولندية والروسية والسويسرية تحوي كثيراً من المعلومات، كما يمكن الاستفادة بأرشيف الـKGB وأرشيف الـCIA والأرشيف الإسرائيلي. وهناك مصادر يديشية كثيرة (واليديشية كانت لغة الغالبية الساحقة ليهود شرق أوربة) تتناول الموضوع نفسه. كما أن هوامش كثير من المراجع العلمية التي صدرت في الولايات المتحدة فيها إحالات لكثير من الوثائق والمقالات الهامة عن هذا الموضوع.

وعدد الوثائق المعروفة لدينا كبير، كما يمكن اكتشاف وثائق أخرى أثناء عملية البحث. وفيما يلي بعض المواضيع التي يمكن للوثائق أن تغطيها:

أولاً- وثائق عن التعاون بين النازيين والصهاينة:

١- اتفاقية الهعفراه: وهي اتفاقية تم إبرامها بين النازيين والصهاينة تم بمقتضاها نقل الألوف من اليهود (ورأسمالهم) إلى فلسطين في مقابل قيام الصهاينة ببذل الجهود لفك الحصار الاقتصادي الذي نظمته بعض الجماعات اليهودية في الغرب على ألمانية النازية.

٢- المؤتمر الصهيوني الثامن عشر عام ١٩٣٢: وهو المؤتمر الذي ناقش اتفاقية الهعفراه قبل توقيعها ويضم كثيراً من أقوال بعض الصهاينة الذين كانوا يدافعون عن أهمية التعاون مع النازيين.

٣- كتاب أودين بلاك Edwin Black الترانسفير، The Transfer (Haavrah): ويتسم هذا الكتاب بأنه يتناول تفاصيل المؤتمر الصهيوني الثامن عشر والمؤامرات التي حاكها الصهاينة لتمرير قرارهم الخاص باتفاقية الترانسفير. وقائمةُ المراجع التي يضمها هذا الكتاب تحتوي على عدد كبير من عناوين الكتب الهامة التي تتناول موضوع علاقة النازيين بالصهاينة.

٤- كتاب ليني برنر Lenni Brenner **الصهيونية في عصر الدكتاتورية**: يوجد بهوامشه كثير من الإحالات لوثائق تبين مدى عمق التعاون بين النازيين والصهاينة، كما أن برنر نفسه أصدر مؤخراً كتاباً آخر مهماً بعنوان **واحد وخمسون وثيقة عن تعاون النازيين والصهاينة**.

٥- مجلة **يوديش رونتشاو**: وهي مجلة الحركة الصهيونية في ألمانية النازية وتحوي كثير من المقالات والبيانات المؤيدة للنظام النازي.

٦- المجالس اليهودية: وهي مجالس أقامها النازيون للجماعات اليهودية في كافة أنحاء أوربة التي وقعت تحت سيطرتهم، وقد تعاون أعضاء هذه المجالس مع السلطات النازية، وكان للصهاينة حضور قوي في هذه المجالس.

٧- تصريحات الزعماء الصهاينة في ألمانية بعد وصول النازيين للحكم: حينما وصل النازيون إلى الحكم رحب كثير من الزعماء الصهاينة بهم وأعلنوا التقاء الأهداف النازية بالأهداف الصهيونية.

٨- شخصيات صهيونية تعاونت مع النازيين مباشرة:

أ - الفريد نوسيج (١٨٦٤ - ١٩٤٩): أحد مؤسسي الحركة الصهيونية. عمل مخبراً للسلطات النازية إبان الحرب العالمية الثانية، ورئيساً لمجلس اليهود في وارسو إبان حكم النازي. ونظراً لمعرفته الوثيقة بأعداد اليهود وتوزعهم ومراحلهم العمرية المختلفة، وضع خطة متكاملة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء (غير النافعين) وتهجير الباقين أو إبادتهم. وقد اكتشف أعضاء المقاومة اليهودية في جيتو وارسو تعاونه مع النازي وأنه عضو في الجستابو، فحُكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ونُفِّذ الحُكم في ٢٢ فبراير ١٩٤٣. وقد اختفى نوسيج تماماً من الأدبيات الصهيونية والغربية.

ب - رودولف كاستنر (١٨٩٦ - ١٩٥٧): أحد زعماء الحركة الصهيونية في المجر وقد سبقت الإشارة إليه.

ثانياً- قضايا أخرى وثيقة الصلة بمسألة التعاون بين النازيين والصهاينة:

١- تصريحات زعماء المستوطن الصهيوني: وهي تصريحات تبين مدى عدم الاكتراث الصهيوني بيهود أوربة والاهتمام بمستقبل المستوطن الصهيوني دون سواه.

٢- عصبة الأشداء: «عصبة الأشداء» (أي الأقوياء) (بالعبرية: «بريت هابريونيم») جماعة صهيونية مراجعة أسسها آبا أخميئير: (١٨٩٨ - ١٩٦٢) ومجموعة من المثقفين الصهاينة مثل الشاعر أوري جرينبرج. وكان معظم مؤسسي الجمعية أعضاء في منظمات صهيونية عمالية ثم استقالوا منها. وقد تبنت الجماعة صياغة صهيونية لا تخفي إعجابها بالفكر النازي أو العنصرية النازية. وكما قال أحد كبار الصهاينة التصحيحيين «نحن التصحيحيين نكن الإعجاب الشديد لهتلر، فهو الذي أنقذ ألمانية ولولاه لهلكت خلال أربعة أعوام، وسنتبعه إن هو تخلى عن معاداته لليهود». وكانت مجلة عصبة الأشداء في فلسطين تزخر بالمقالات التي تمجد هتلر والهتلرية. وكان من بين هتافات أعضاء العصبة «ألمانية لهتلر، وإيطالية لموسوليني، وفلسطين لجابوتنسكي». كما مجَّد أعضاء الجمعية الجوانب العسكرية في تاريخ العبرانيين، فكانوا يشبهون أنفسهم

بجماعة حملة الخناجر، وهم فريق من جماعة الغيورين كانت تغتال الرومان واليهود الذين يتحالفون معهم، وذلك في أثناء التمرد اليهودي الأول في فلسطين بين عامي ٦٦ و ٧٣ ميلادية (واسم الجمعية نفسه «بريت هابريونيم» هو اسم إحدى الجمعيات الإرهابية اليهودية في تلك الفترة). وكان أتباع الجمعية يرون أن الاغتيال السياسي ليس جريمة وإنما هو فعل ذو هدف ومعنى، وأن الدم والحديد هما الطريق الوحيد للتحرر. وكما قال أخميئير، فإن «الماشيَّح (المسيح المخلص اليهودي) لن يأتي راكباً على حمار»، حسبما جاء في التراث الديني اليهودي، وهو ما يعني أن الماشيَّح الصهيوني سيأتي راكباً دبابة.

٣- منشورات جماعة الناطوري كارتا: يذهب أعضاء جماعة الناطوري كارتا (وهي جماعة يهودية أرثوذكسية معادية للصهيونية من منظور ديني) إلى أن الصهاينة تعاونوا مع النازيين لإبادة يهود شرق أوربة الذين كانوا يشكلون غالبية يهود العالم، لأنهم ذوو اتجاهات أرثوذكسية معادية للصهيونية. وقد نشرت هذه الجماعة بالفعل عدة كتب توضح وجهة النظر هذه وتوثقها، ولكنها نشرت بشكل سيئ كما أنها لم يعلن عنها بما فيه الكفاية.

ثالثاً- قضية عدد ضحايا الإبادة (ستة ملايين):

١- يمكن نشر الدراسات الإحصائية عن عدد يهود العالم والتي نشرت من الثلاثينيات حتى أواخر الخمسينيات، وهي ستبين مدى كذب أسطورة ستة الملايين.

٢- دراسات عن الديموجرافية اليهودية مثل دراسة يوريا أنجلمان التي نشرت في الأربعينيات من القرن الماضي (قبل وقوع الإبادة أو قبل أيقنة رقم ستة ملايين) وكانت تتنبأ باختفاء اليهود من خلال التناقص الطبيعي.

٣- دراسة عن الحالة الصحية المتدهورة لأعضاء الجماعات اليهودية (وغيرهم) إبان الحرب العالمية الثانية: انتشار الأوبئة - سوء التغذية - ارتفاع نسبة الوفيات.

٤- دراسة عن نسبة الاندماج والزواج المختلط والتنصر والامتناع عن الإنجاب في فترات الأزمات والحرب.

٥- دراسة عن عدد اليهود الذين قُتلوا إما جنوداً في أثناء المعارك أو مدنيين في أثناء الغارات الجوية.

٦- البحث عن أعمال بعض المؤرخين اليهود ممن يشككون في رقم ستة ملايين مثل هوارد ساخار، أهم مؤرخ أمريكي يهودي متخصص في الشؤون اليهودية، ويهودا باور وهو عالم إسرائيلي متخصص في الهولوكوست.

وأعتقد أن نشر الوثائق التي تدور حول هذه الموضوعات وما قد يستجد من وثائق سيضطر الصهاينة إلى فتح باب الحوار بخصوص كثير من القضايا التي تم أيقنتها واستبعادها من دائرة الحوار.

هذه هي الملامح العامة للمشروع، وهو ليس مشروعاً إعلامياً وحسب، وإنما له طابع علمي، لا يمكن للدعاية الصهيونية أن تشوش عليه بطريقتها الغوغائية، فهي لن يمكنها أن تتهم محرر الوثائق وناشرها بأنه أنكر الهولوكوست أو قلل من أهميتها وسيضطر الجميع إلى مناقشة الوثائق وما جاء فيها وفتح باب الحوار بشأنها.

- **الصهيونية والنازية والإجراءات المنفصلة عن القيمة**

عرَّف أحد علماء الاجتماع الغربيين الحداثة بأنها مقدرة المرء أن يغير قيمه بعد إشعار قصير، وهذا يعود إلى الإيمان بأن العالم في حالة صيرورة دائمة، وتغير مستمر ولا غاية لهما، فلا ثبات لأي شيء، لا الواقع، ولا القيم، ولا الطبيعة البشرية ذاتها. إنه عالم لا تحكمه سوى إجراءات منفصلة عن القيمة، وهذا يؤدي بدوره إلى أن ما يسود العالم هو النسبية المطلقة. ولكن حينما تسود النسبية ويتحرر العالم من القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية، تظهر قيمة واحدة قادرة على حسم الأمور، هي القوة! ولذا فنحن نسمي الحداثة المنفصلة عن القيمة value free modernity الحداثةَ الداروينيةَ. ونحن نذهب إلى أن كلاً من الصهيونية والنازية هما تعبير عن هذه الحداثة. فالصهيونية حركة استعمارية استيطانية إحلالية استخدمت مجموعة من الأساطير لتجنيد الجماهير اليهودية. وتتسم هذه الأساطير بأنها منفصلة عن الواقع الإنساني والتاريخي، ومع هذا لاقت من التعاطف في العالم الغربي ما لم تلقه حركة سياسية أخرى. وهذا يعود - دون شك - لأسباب عديدة من بينها

ومن أهمها حاجة الغرب لقاعدة عسكرية ضخمة تخدم مصالحه، والكيان الاستيطاني يقوم بهذه المهمة على أكمل وجه. ولكن من الأسباب الأخرى أن الأيديولوجية الصهيونية لا تتعارض مع قيم حضارة الإجراءات المنفصلة عن القيمة وعن الغاية الإنسانية، حضارة الصيرورة الدائمة والنسبية المطلقة. والصهيونية، أيديولوجية الإجراءات بالدرجة الأولى، بدأت نشاطها بأن أنكرت التاريخ العربي في فلسطين - أي العنصر الأساسي الثابت من مكونات الواقع الفلسطيني - فاكتسحت الصيرورة فلسطين وأصبحت مجرد أرض. ولكن رغم هذه النسبية المطلقة إلا أننا نجد أنها موجهة نحو الفلسطينيين وحدهم، فإحساس الفلسطيني نحو فلسطين في تصور الصهاينة، أمر يجب عدم الاكتراث به، أما إحساس اليهودي نحو المكان نفسه، حتى ولو كان هذا اليهودي مواطناً في الولايات المتحدة، فهو أمر يجب احترامه (لأنه يخدم المصالح الغربية وهو جوهر المشروع الصهيونية)، أي إنَّ النسبية المطلقة تمتد لتبتلع العرب ولكنها لا تطال الصهاينة بأية حال، فإلى جانب النسبية المطلقة يوجد أيضاً العنصرية المطلقة النابعة من الرؤية الداروينية!

ولمّا كنت متخصصاً في الصهيونية فقد سنحت لي فرصة قراءة العديد من المصادر الصهيونية الأولية، وكلها تدل على أن الزعماء الصهاينة كانوا على علم بأن الأسطورة الصهيونية أكذوبة. فهرتزل في يومياته يتحدث عن الشعار الصهيوني «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض». ولكنه مع هذا يشير مرات عدة في هذه اليوميات نفسها إلى الفلسطينيين الذين قابلهم. وفي المؤتمر الصهيوني الأول جرى زعيم صهيوني آخر، ماكس نوردو، نحو هرتزل ووجه له اللوم لأنه لم يخبره أن فلسطين آهلة بالسكان، فهدأ هرتزل من روعه وأخبره أن الأمور ستسوى. وكان حاييم ويزمان - أول رئيس دولة في الكيان الصهيوني- يعرف بوجود العرب وكان دائم الحديث في العلن عن ضرورة التآخي معهم، أما في الأجندة السياسية الخفية فكان يتحدث عن ضرورة التطهير العرقي. وآحاد هعام - أهم فلاسفة الصهيونية- اكتشف هو الآخر أن الصهيونية أكذوبة حينما ذهب إلى فلسطين ووجد الصهاينة يقتلون العرب.

كانت المسافة بين الأسطورة أو الأكذوبة الصهيونية والواقع في فلسطين واسعة لأقصى حد، ولذا كان على الصهاينة أن يملؤوا هذا الفراغ وأن يحسموا هذا

التناقض. كان بعضٌ يدير ظهره للأكذوبة وكان بعضٌ الآخر يلجأ للحل الآخر، أي الإجراءات المنفصلة عن القيمة. أي إلى العنف من خلال اتخاذ إجراءات متحررة تماماً من القيمة تدور في إطار الحداثة الداروينية. وقد كتب لود فيج جومبلوفيتش، عالم الاجتماع النمساوي اليهودي، إلى هرتزل يسأله مستنكراً: هل تريد أن تؤسس دولة بدون أن تسفك دماء، بدون عنف أو مكر؟ ويوميات هرتزل زاخرة بتأملاته في الإجراءات (المتحررة من القيمة) اللازمة للتخلص من الفلسطينيين. ونوردو بعد أن طمأنه هرتزل عرف هو الآخر أن ثمة إجراءات لا بد من اتخاذها، فاقترح تكوين جيش يهودي قوامه ١٠٠ ألف يهودي لغزو أرض الميعاد. ووايزمان هو الآخر وضع المخططات الدقيقة (أي اتخذ الإجراءات اللازمة) لطرد العرب و«تنظيف» فلسطين من سكانها (على حد قوله).

هذا إذن هو الجزء المكمل للنسبية المطلقة، أن يقوم أحد الأطراف باستخدام الإجراءات المنفصلة عن القيمة فنخلُق «أمراً واقعاً» أو «حقائق جديدة» (على حد قول موشيه ديان)، أي إن ما يحسم الأمور في نهاية الأمر هو العنف الصريح والقوة الغاشمة (وفي هذا عودة للأصول الوثنية لأخلاق الصيرورة، وعودة لمكيافلي الذي نطالع وجهه الكئيب في كل الكتابات الصهيونية).

ولعل التكتيك الصهيوني المسمى بالسور والبرج ذروة من ذرى الإجراءات الصهيونية المنفصلة عن القيمة وصيرورتها. فقد كان الرواد الصهاينة (محط إعجاب الحضارة الغربية) يتسللون في المساء ويحيطون الأرض التي ينوون اغتصابها بسور، ثم يقيمون برجاً للحراسة يقيمون عليه مدافعهم الرشاشة، ثم يقومون بالزراعة المسلحة - أي يحملون الفأس بيد والبندقية بالأخرى. وبذا تصبح الأرض أرضهم لأنهم قاموا بتنفيذ الإجراءات الدقيقة المنفصلة عن القيمة.

وكما قالت جولدا مائير إن رصاصة واحدة أكثر فاعلية من كل قرارات مجلس الأمن، ولا يمكن فهم كثير من «الحلول» الإسرائيلية للمشاكل إلا في إطار هذا الموقف المعرفي. فما يسمى «عملية السلام» لا تستند إلى تصور كامل أو حتى جزئي لحل شامل، فهي لم تطرح أي حل للقضية الفلسطينية (أس المشكلة) وإنما تم التعامل مع الجزء دون الكل، ومع الجزء الذي يمكن التعامل معه، أما الجوانب الأساسية المستعصية على الحل فقد تم تجاهلها (مثل فك المستوطنات

في الضفة الغربية وحق العودة للفلسطينيين)، وكان الأمل هو أن الإجراءات قد تولد اتجاهاً جديداً يولد بدوره حلولاً للمشكلة.

وحينما كنت في الولايات المتحدة كنت أخبر مستمعيَّ من اليهود وغير اليهود أن المنطق النسبي الذي ينكر القيم والطبيعة البشرية والتاريخ ولا يعلي إلا من شأن الصيرورة والإجراءات المنفصلة عن القيمة، يؤدي بالضرورة إلى معسكرات الاعتقال وإلى أفران الغاز. فالدولة النازية قد طرحت رؤية أسطورية للتاريخ الألماني والإنسان الألماني شبيهة من بعض النواحي بالأسطورة الصهيونية. ولكن لا يحق لنا أن نتساءل عن مدى صدق أو كذب هذه الأسطورة ولا عن مدى تكلفتها الإنسانية، فأخلاق الصيرورة البرجماتية لا تحكم على شيء خارج صيرورته، وإنما تنطلق من الأمر الواقع. وانطلاقاً من هذا الأمر الواقع المتجرد من كل أوهام أو أعباء أخلاقية بدأت النازية في تشييد دولتها القوية، وبدأت أفران الغاز.

ومن المعروف أن أفران الغاز هذه لم تشيد في بداية الأمر من أجل اليهود وإنما من أجل العجزة وضعاف العقول وغيرهم من الناس عديمي الجدوى وعديمي الفائدة الذين كان يطلق عليهم اصطلاح «أفواه تأكل ولا تنتج» «useless eaters». ولا يمكن الاعتراض، من منظور مادي إجرائي، على أفران الغاز فهي لن تقضي على شيء نافع من منظور مادي، وإنما ستقضي على شيء لا نفع من ورائه بعد اتخاذ الإجراءات اللازمة، أي دراسات الجدوى العلمية المادية المحايدة المنفصلة عن القيمة (value free). ثم استخدمت أفران الغاز بعد ذلك للقضاء على الجنود الألمان الذين كانوا يسقطون جرحى في المعارك، لأن عملية تمريضهم وإطعامهم كانت تمثل عبئا على الاقتصاد الوطني.

ثم طبق هذا المنطق العلمي المادي بعد ذلك على اليهود أقليةً عديمةَ الفائدة. فيهود شرق أوربة، الذين تدفقوا على ألمانية، كانوا يمثلون بالفعل عبئاً على الاقتصاد الوطني الألماني، فأعداد كبيرة منهم كانت لا تمتلك المهارات التي يتطلبها الاقتصاد الألماني، كما أنهم كان بينهم نسبة كبيرة من المشتغلين بالمهن الهامشية من مثل الدعارة وتهريب المخدرات. ولكن هذا كله لا يهم، فمربط الفرس هو رؤية ذهبت إلى أن اليهود لا يصلحون أن يكونوا جزءاً من المشروع النازي لإعادة بناء ألمانية. وقد ساند موقفهم هذا ودعمه مجموعة من البحوث

«العلمية» التي أنجزتها مجموعة هائلة من العلماء النازيين «العباقرة». وقد حاول النظام النازي جاهداً، في بداية الأمر، التخلص من يهود شرق أوربة (خاصة بولندة) بإرسالهم إلى بلادهم، لكنها أوصدت أبوابها دونهم، مثلما فعلت الولايات المتحدة من قبل ومن بعد.

بعد دراسة الجدوى وبعد محاولة التخلص منهم بالوسائل العادية أصبح من الضروري اتخاذ إجراءات أخرى ضد اليهود وغيرهم من العناصر التي لا تتسم بالكفاءة مثل الغجر وأبطال المقاومة في فرنسة. (لم يكن اليهود هم الضحية الوحيدة أو الرئيسية للكفاءة النازية، ولكنني كنت أركز عليهم وحدهم لأن جمهوري هناك كان يتصور ذلك، ولم أكن أريد الدخول في مناقشة جانبية). كانت معسكرات الاعتقال النازية قمة (أو هوة) من قمم انتصار الكفاءة والإجراءات المنفصلين عن القيمة. فالمعسكرات كانت تقع على مقربة من بعض المدن وليس داخلها، ربما لتحاشي تعطيل المرور وحتى يتم نقل المعتقلين بسهولة ويسر. ولعل العناصر الأمنية لعبت هي الأخرى دورها. وحينما كان يصل المعتقلون هناك كانت الإجراءات في غاية الدقة والرشد، إذ كان يقسم اليهود إلى أطفال وعجائز ونساء وغير قادرين على العمل، ثم رجال ونساء قادرين على العمل. وكان كل معتقل يعطى رقماً حتى يسهل تصنيفه والاستفادة منه على أكمل وجه. وكان المعتقلون يقفون صفوفاً في الصباح حتى تتم عملية فرزهم لتقرير الصالح من الطالح والنافع من عديم الجدوى، بل وكان يفرض عليهم القيام ببعض التمرينات الرياضية حتى يحتفظوا بمستوى عال من اللياقة البدنية.

وكان مدير المعسكر يحاول أن يعظم الربح بكل الوسائل الممكنة مثل أعمال السخرة بالنسبة للقادرين على العمل. أما العناصر عديمة الفائدة، فكان يتم تصفيتها، ولكن ما تبقى منها، أي الجسد الإنساني، فإنه كان يتم توظيفه بطرق مختلفة: حشو الأسنان الذهبي يرسل للخزانة الألمانية ليساعد على ازدهار الاقتصاد الوطني، أما الشعر البشري فيصنع منه فرش أحذية من أجود الأصناف، ويقال إنّ الشحم البشري كان يستخدم في صناعة بعض أنواع الصابون.

إن الحضارة النازية هي الحضارة العلمانية الوحيدة بحق لأنها نزعت القداسة عن كل شيء، وحكمت على الواقع بمقاييس مادية متحررة عن القيمة، ولم يستثن

أحد من المقصلة العلمية الإجرائية الباردة - لا العجائز ولا الأطفال ولا حتى الجنود الجرحى. ويا لها من حيادية علمية تستحق الإعجاب والتقدير، تماماً مثل إعجاب الغرب بالدولة الصهيونية التي تستند صيرورتها إلى مقصلة علمية كفء صنعت في الولايات المتحدة!

- **أفران الغاز مرة أخرى**

يحيط العالم الغربي المحرقة النازية ليهود أوربة بنوع من أنواع القداسة حتى يجعل منها شيئاً فريداً، شيئاً لا نظير له، وكأن الضحية الوحيده للجرم النازي كانوا هم اليهود، وكأن الغجر والمعوقين والبولنديين، بل وبعض العرب المسلمين، لم يكونوا هم أيضاً من ضحايا المحرقة النازية، وكأن الغرب لم يرتكب عشرات الجرائم الإبادية الأخرى ابتداء بالإبادة الأمريكية للسكان الأصليين في أمريكة الشمالية والهنود الحمر، وكأنه لم يبد ملايين الأفارقة السود في أثناء عملية اختطاف تسعة ملايين إفريقي ونقلهم إلى الأمريكتين ليعملوا عبيداً، وكأن عمليات الإبادة لم تتتالَ بعد ذلك في الكونغو وفيتنام والشيشان. ويوجد الآن تخصص جديد في الغرب يسمى victimology أي علم دراسة الضحية، ويذهب المتخصصون في هذا الحقل إلى أن من يلعب دور الضحية يحصل على قدر كبير من التعاطف. ولذا تحاول الدعاية الصهيونية احتكار دور الضحية لليهود. ولكن يلاحظ أن الخطاب السياسي في الغرب وفي إسرائيل بدأ يرفض التابو (التحريم) الذي يمنع تشبيه الإبادة النازية ليهود الغرب بأحداث مماثلة في التاريخ الماضي والوقت الحاضر. فقد تجرأ عدة متحدثين غربيين (من بينهم يهود) على تشبيه ما يحدث للفلسطينيين على يد الإسرائيليين بما حدث لليهود في أوربة على يد النازيين. فعلى سبيل المثال، صرح الكاتب الإسرائيلي يهوشاوا بأنه يفهم الآن سبب جهل الألمان بما حدث لليهود بعد أن رأى الإسرائيليين يرفضون معرفة ما يحدث للفلسطينيين. ويشير اليهود السفارد والشرقيون إلى اليهود الغربيين بأنهم « إشكي نازي»، وهو نوع من التلاعب بالألفاظ يشير إلى أن ما كان محرماً أصبح مباحاً. ووصف البروفسير لايبوفيتز سياسة إسرائيل في لبنان بأنها نازية يهودية (بالإنجليزية: جوديو/ نازيJudeo-Nazi). بل إنه حينما أسس متحفاً للهولوكوست في لوس أنجلوس اضطروا لأن يشير المتحف لعمليات إبادية أخرى من مثل ما حدث في البوسنة.

وقد فعلوا ذلك بعد أن تعالت بعض أصوات الاحتجاج على متحف الهولوكوست في واشنطن الذي جعل من المحرقة النازية ظاهرة ليس لها نظير.

وقد أثيرت مؤخراً قضية الهولوكوست، وهل هي حدثت بالفعل أم لا؟ وهل رقم ستة ملايين مبالغ فيه أم لا؟ ومهما كانت طبيعة الإجابة على هذه الأسئلة، نفياً كانت أم إيجاباً، فيجب علينا أن نؤكد أن الهولوكوست لا علاقة لها بالصراع العربي الإسرائيلي، فالمشروع الصهيوني لاحتلال فلسطين وتوطين كتلة بشرية غريبة فيها وطرد سكانها الأصليين قد تبلور في منتصف القرن التاسع عشر على يد لورد شافتسبري وسير لورانس أوليفانت، وكلاهما غير يهودي، بل ومعاد للسامية. وقد عُقد المؤتمر الصهيوني في أواخر القرن التاسع عشر ، كما صدر وعد بلفور عام ١٩١٧، أي أن الفكرة الصهيونية قد تبلورت، وبدأت إجراءات وضعها موضع التنفيذ قبل استيلاء النازيين على الحكم بعشرات السنين. ولكن العرب وجدوا أنفسهم طرفاً في الحوار بخصوص الهولوكوست نظراً لأن الغرب أقحم الجريمة النازية داخل التاريخ العربي حتى يُبرِّر غرس الدولة الصهيونية الاستيطانية في وسط الوطن العربي، زاعماً أنه فعل ذلك تعويضاً لليهود عما لحق بهم من أذى داخل التشكيل الحضاري الغربي. وهذه أكذوبة واضحة، فلو كان الدافع وراء المشروع الصهيوني هو بالفعل الإحساس بالذنب، لاقتطع العالم الغربي قطعة من ألمانية وأسس لليهود دولة فيها، أو لأرسل قوات دولية لتتأكد من أن يهود أوربة سيحصلون على حقوقهم الدينية والمدنية. فالتكفير عن جريمة ما لا يتم عن طريق ارتكاب جريمة أخرى، أي احتلال فلسطين وطرد شعبها، ولا يمكن محو أثر معسكرات الاعتقال والمجازر النازية عن طريق مخيمات اللاجئين الفلسطينيين والمستوطنات الاستعمارية في الضفة الغربية والمجازر في دير ياسين وكفر قاسم وجنين، وعن طريق دعم الكيان الصهيوني العنصري من خلال التعويضات!

وتحاول الدعاية الصهيونية جاهدة أن تصوِّر المقاومة العربية للغزو الصهيوني لفلسطين وكأنها كانت دعماً مباشراً أو غير مباشر للإبادة النازية، لأنها حالت في بعض الأحيان دون دخول المهاجرين اليهود لفلسطين. ومثل هذه الحجة هي الأخرى لا أساس لها من الصحة، فالمقاومة العربية لم تكن ضد مهاجرين يبحثون عن المأوى وإنما كانت ضد مستوطنين جاؤوا لاغتصاب الأرض وطرد أصحابها،

تحت رعاية العالم الغربي، وبدعم من حكومة الانتداب البريطانية، فالغرب نفسه أوصد أبوابه دون المهاجرين اليهود.

كما تحاول الدعاية الصهيونية أن تبين أن بعض الساسة العرب أظهروا تعاطفاً مع النظام النازي. وهذه أكذوبة أخرى، فمعظم الحكومات العربية وقفت مع الحلفاء (فمعظم بلدان العالم العربي على أية حال كانت واقعة تحت شكل من أشكال الهيمنة الغربية)، كما أن النظرية النازية العرْقية كانت تضع العرب والمسلمين في مصافّ اليهود. وهؤلاء الساسة العرب (وبعض القطاعات الشعبية) ممن أظهروا التعاطف مع النازيين فعلوا ذلك لا كُرهاً في اليهود أو حباً في النازيين، وإنما تعبيراً عن عدائهم للاستعمار الإنجليزي والاستيطان الصهيوني.

ولكن كل هذه المحاولات الدعائية الإعلامية الغربية الصهيونية لا تغيِّر شيئاً من الحقائق التاريخية أو الجغرافية أو الأخلاقية، الدينية والإنسانية، فالإبادة النازية لا تُشكِّل جزءاً من التاريخ العربي أو تواريخ المسلمين. وهذه المحاولات الإعلامية التي تلوي عنق الحقيقة تُبيِّن في نهاية الأمر مدى اتساق الغرب مع نفسه، الغربِ الذي يُكفر عن جريمة إبادية ارتكبها في ألمانية بأخرى لا تقل عنها بشاعة في وطننا العربي.

إن الموقف العربي الحقيقي من الهولوكوست ينطلق من الإيمان بالقيم الأخلاقية الإسلامية التي لا تسمح بقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق. وقد جاء في الذكر الحكيم ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٥/ ٣٢]، ولذا نجد أن موقف المسلمين والعرب كان يتسم بالإنسانية. فعلى سبيل المثال قامت الأقلية المسلمة في بلغارية بدور كبير في حماية أعضاء الجماعات اليهودية من الإبادة، كما أن الملك محمد الخامس عاهل المغرب رفض تسليم رعاياه اليهود إلى حكومة فيشي الفرنسية الممالئة للنازي.

ولكن هناك معلومة أقل ما توصف به أنها رهيبة، فقد لاحظت أثناء دراستي للظاهرة النازية تكرار كلمة «مسلم»، فتعقبت الأمر إلى أن اكتشفت أنهم كانوا يشيرون إلى أي يهودي يتقرر حرقه في أفران الغاز. بأنه «ميزلمان Muselmann» أي «مسلم» بالألمانية. وقد ورد ما يلي في مدخل مستقل في الموسوعة اليهودية Enyclopedia Judaica (جزء ١٢ ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨) عنوانه «مسلم»:

«ميزلمان» أي مسلم بالألمانية، هي إحدى المفردات الدارجة في معسكرات (الاعتقال) والتي كانت تُستخدَم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت، أي الذين بدأت تظهر عليهم الأعراض النهائية للجوع والمرض وعدم الاكتراث العقلي والوهن الجسدي».

هذه هي المعلومة، ولا بد من تفسيرها ووضعها داخل إطار ونمط. ويمكن القول إن العقل الغربي حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر، والآخر بالنسبة للغرب هو المسلم. والتجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي للآخر، والنازيون في هذا لا يختلفون كثيراً عن الغزاة الإسبان للعالم الجديد الذين كانوا يبيدون سكانه الأصليين وكانوا يسمونهم «الترك» أي «المسلمين»، وهم لا يختلفون عن المستوطنين البيض الأنجلوساكسونيين الذي كانوا يسمون أنفسهم عبرانيين عليهم إبادة الهنود الحمر بحسبانهم كنعانيين! إن نطاق الحقل الدلالي لكلمة «مسلم» تم توسيعه لتشير «للآخر» على وجه العموم.

ويطرح السؤال نفسه: لم اختفت هذه المعلومة من الخطاب الغربي بخصوص الهولوكوست؟ هل ذكرها سيبين طبيعة العنصرية الغربية ضد الإسلام وسيعوق عملية توظيف الهولوكوست في دعم إسرائيل والاستعمار الاستيطاني الصهيوني؟ أعتقد أنه من واجب الإعلام العربي والإسلامي نشر هذه المعلومة وتفسيرها على أوسع نطاق حتى يدرك العالم مدى عنصرية العالم الغربي.

- **ستة ملايين أم ثمانية ملايين؟**

يتواتر فى الخطاب السياسي الغربي بخصوص الهولوكوست مصطلح «revisionist» الذى يمكن ترجمته بكلمة «مراجع»، أي من يقوم بمراجعة المقولات السائدة ويقوم بتقويضها ورفضها. وتستخدم هذه الكلمة بطريقة قدحية للإشارة لأي باحث يقوم برفض التصور السائد للهولوكوست مثل أنها حدثت بالفعل، وأن الإبادة تمت بأفران الغاز، وأن الهولوكوست حالة فريدة فى تاريخ الإنسانية لا يصح مقارنتها بأي عمليات إبادة أخرى. ومن أهم التصورات السائدة التى يجب عدم مراجعتها أو التساؤل بخصوصها أن ضحايا الهولوكوست هم ستة ملايين يهودي. وقد سألني صحفي فرنسي ذات مرة: هل توافق على رقم ستة مليون؟ فأخبرته إنه ليس رقماً مقدساً، ثم فأجأته بالقول: «ماذا لو قلت إنَّ العدد هو ثمانية ملايين؟ هل

أصنف ساعتها على أننى من المراجعين؟ أليس من الأجدى أن نفتح أبواب البحث العلمي على مصراعيها، حتى نصل إلى الحقيقة؟». وبطبيعة الحال لم ينشر الحوار.

هذا الصحفي لم يسمع بمقال بيتر ستاينفلس بعنوان «مراجعة أوشفتس: حالة عالم إسرائيلي» والذى نشر فى ١٢ نوفمبر ١٩٨٩ فى جريدة النيويورك تايمز، وهو مقال فى غاية الأهمية يؤثر الصهاينة، والعالم الغربي الذى يساندهم، تجاهله. يبدأ المقال بالإشارة إلى نقش حجري فى أوشفتس جاء فيه: إنّ «أربعة ملايين شخص ماتوا في معسكرات النازي»، وهي عبارة تكرر ذكرها حتى تحولت إلى ما يشبه «حقيقة إحصائية» صلبة فى وجدان كثيرين. ولكن يهودا باور، أحد أشهر مؤرخي الهولوكوست ومدير قسم دراسات الهولوكوست بمعهد اليهودية المعاصرة بالجامعة العبرية في القدس، يقول: إن عدد الضحايا أقل من نصف هذا الرقم. فرقم أربعةً ملايين، مضافاً إليه عدد الضحايا في أماكن أخرى ، ينتج في مجموعه النهائي عدداً أكبر بكثير من الملايين الستة، وهم كل ضحايا الإبادة النازية ليهود أوربة. ومن المعروف أن أكبر الأرقام التي تم نشرها تقدر العدد بـ٢,٥ مليون يهودي، و١,٥ مليون ضحية أخرى، يفترض أن معظمهم من البولنديين. ولكن يهودا باور نشر مقالاً بجريدة جيروزاليم بوست فى نهاية شهر سبتمبر ١٩٨٩ وصف فيه هذه الأرقام بأنها زائفة بشكل واضح. ويتفق يزرائيل جوتمان، العالم الإسرائيلي، مع يهودا باور فى هجومه على الإحصائيات المتداولة. وللعلم جوتمان، زميل باور فى الجامعة العبرية، قاد حركة المقاومة السرية فى معسكر أوشفتش، وصاحب موسوعة من أربعةِ أجزاء عن الهولوكوست. وقد بين باور أن المؤرخ اليهودي الفرنسي جورج ويلرز قدّر عدد الذين لقوا حتفهم خنقاً بالغاز أو بطرق أخرى أو تم تعذيبهم حتى الموت أو كانوا ضحايا لمجاعات أو أمراض بمعسكر أوسشفيتز بـ١,٦ مليوناً. وحسب هذه التقديرات، فإن ١,٣٥ مليوناً منهم كانوا من اليهود. ٨٣٠٠٠ بولندي، و٢٠٠٠٠ من الغجر، و١٢٠٠٠ سجين حرب سوفييتي. بالإضافة إلى ١٥٠٠٠٠ بولندي تم حبسهم في معسكر أوسشفيتس، ثم تم نقلهم إلى أماكن أخرى، حيث لقي كثير منهم - وليس معظمهم - حتفهم.

ويرى إيلان ستاينبرج، المدير التنفيذي للمؤتمر اليهودي العالمي، أن الإحصائيات المبالغ فيها تم تكرارها، مما أدى إلى تقبل كثير من اليهود لها على

الرغم من أن كبار العلماء لا يوافقون عليها. كما يؤكد يهودا باور أن مؤرخي الهولوكوست قد نبذوا الأرقام المتضخمة منذ سنوات طويلة، إلا أن ذلك لم يعلن للجماهير، وأنه آن الأوان للإعلان عن ذلك.

وفي محاولة لتفسير ظاهرة تضخم الأرقام يقول باور: إنَّ البولنديين الوطنيين والشيوعيين على السواء روجوا للأرقام الأكبر لخدمة أغراض سياسية، مبالغين في أعداد الضحايا البولنديين واليهود على السواء، فأصبح الفرق بين مصير المجموعتين غير واضح ومبهم، مما أدى إلى خلط الأمور وطمس معالم الحقيقة. علاوة على أنه يجب التفريق بين ما يحدث لليهود وللبولنديين على يد النازيين دون التقليل من شأن اعتداءات النازيين على البولنديين، الذى كان يهدف إلى تدمير كيان قومي من خلال اغتيالات محددة لأعداد كبيرة تم اختيارهم من بين من قاوموا النازيين. وفى هذا الإطار تم اغتيال صفوة المثقفين البولنديين في المعسكرات، ومنها أوسشفيتس. أما بالنسبة إلى اليهود، فقد وضع النازيون خطة أكبر من مجرد تدمير قومية، فقد خططوا لإبادة عرقية. وثمة فرق بين الإبادة العرقية والهولوكوست بمعنى تدمير كيان قومي. ثم يضيف باور أنه إذا أراد العالم أن يحارب كلاً من الإبادة وتدمير الكيان القومي فعليه أن يتذكر جيداً الفرق بينهما. فأنت لا تعالج الكوليرا والسرطان بالطريقة نفسها، بل تفرق بينهما، رغم أنهما مرضان قاتلان.

ويطرح السؤال نفسه، لماذا يصر باور على إعلان موقفه هذا، مع أنه عدو لدود لكل من ينكر الهولوكوست؟ للإجابة على هذا السؤال يتحدث باور بحماس بالغ عن دور المؤرخ وعن إغراء تكوين «خرافات وأساطير» قد تكون لها خطورتها على المدى الطويل.وهو يذهب إلى أن الواجب الأول لأي مؤرخ هو قول الحقيقة. وفى حالة أوشفتس الحقيقة مرعبة بما يكفي، ولذا فالمبالغة في رقم الضحايا لن يفيد إلا الذين ينفون وجود الهولوكوست أصلاً. إن واجب المؤرخ، كما يؤكد باور هو فحص الأساطير، بل وعليه أن يفجرها إذا تطلب الأمر ذلك. ويوضح وجهة نظره عن طريق تفجير إحدى الأساطير الصهيونية، فيذكر أن بعض السياسيين الإسرائيليين يدّعون أن جميع غير اليهود كانوا ضد اليهود خلال الهولوكوست، باستثناء قليلين. فيصف باور هذا الإدعاء بأنه «هراء لا معنى له»، ثم يؤكد أن «اليهود في عدد من البلدان تم إنقاذهم على يد مواطني تلك الدول».

ويضيف يهودا باور «أنه تمت إساءة استخدام التاريخ عند مقارنة كل عداء للسامية في فترة ما بعد الهولوكوست بالنازية. فهناك عناصر نازية في حالات العداء للسامية المعاصرة، ولكنْ كثيراً ما تكون هناك اختلافات وفروق واضحة أيضاً. فالتساهل في التشبيه شيء يجب أن نحذر منه».

والآن، كيف يمكن تصنيف هذا العالِم الإسرائيلي، هل هو معاد للسامية لأنه يشكك في رقم الملايين الستة، أم أنه مجرد عالم يرى أن «الواجب الأول كأي مؤرخ هو قول الحقيقة»؟.

النص الإنجليزي الذي نشر في النيويورك تايمز موجود في الموقع الإلكتروني للدكتور المسيري وهو: www. elmessiri.com

- **الملحمة غير المحكية**

أشرت في مقال سابق إلى معلومة غريبة بل ومخيفة ، وهي أن اليهودي الذي كان يتقرر حرقه في أفران الغاز النازية كان يشار إليه بحسبانه «موسلمان»Muselemann، أي «مسلم» بالألمانية. وقد اختفت هذه المعلومة تماماً من الأدبيات الغربية عن الهولوكوست، لأنها تسبب كثير من الحرج لمن يحاولون الاتجار بالمحرقة. وقد تناول المفكر الباكستاني المسلم (المقيم في السويد) بارفيز منظور هذه القضية في مقال له بعنوان «تحويل اليهود إلى مسلمين: الملحمة غير المحكية» (نشر في Islam21 عدد إبريل ٢٠٠١). وقد قرأ كاتب المقال العديد من الدراسات حول هذا الموضوع ومن أهمها بحث جين إمري، أحد الذين أُنْقِذُوا من الهولوكوست، وقد نُشر البحث تحت عنوان **عند حدود العقل: خواطر ناج من معسكر أوسشفيتز وواقعه**، (شوكن بوكس، نيويورك، ١٩٨٦، ص٩). يبين الباحث في كتابه أن الذين أطلق عليهم لقب «مسلمان» في معسكرات الاعتقال النازية «هم هؤلاء الذين فقدوا الأمل وكل رغبة في البقاء، فكانوا يتحركون وكأنهم جثث حية، كومة من الوظائف الفسيولوجية، ولم يعد لديهم مكانٌ في وعيهم للمتضادات مثل الخير والشر، أو النبل والوضاعة، أوالثقافة والجهل، ولذا فقد زملاؤهم الأمل فيهم».

وقد تناول بريمو ليفي، الروائي الإيطالي وأحد الناجين من أوشفيتز الموضوع نفسه في كتابه **البقاء في أوسشفيتز وعودة الصحوة** (ساميت بوكس،

نيويورك، ١٩٨٦). فيقول: «كل «المسلمان» الذين لقوا حتفهم في غرف الغاز قصتهم واحدة، أو بالأصح ليس لديهم قصة على الإطلاق. فهم تبعوا المنحنى إلى أسفل، مثل الأنهار التي تصب في البحار. فحين وصلوا إلى المعسكر، بسبب سوء الحظ أو عدم قدرتهم على الهروب، أو بسبب حادثة تافهة، لم يتمكنوا من التأقلم، لأنهم لقوا حتفهم قبل ذلك. حياتهم كانت قصيرة، ولكن أعدادهم كانت لا نهاية لها. إنهم «المسلمان» الذين سقطوا من العمود الفقري للمعسكر، مجموعة مجهولة، دائمة التجدد ومتماثلة تماماً، من كائنات غير آدمية، تسير وتعمل في صمت. انطفأ وهج الحياة فيها، فهم كائنات أكثر مواتاً من أن تستشعر الألم. يتردد الواحد منا في أن يطلق عليهم «أحياء»، ويتردد كذلك في تسميتهم «أموات».

ومن أهم الأعمال الأخرى حول هذا الموضوع الدراسة التى قام بها المفكر الإيطالي جورجيو أجامبين (**بقايا أوسشفيتز : الشاهد والأرشيف**. ترجمة دانييل هيلر روزن، زون بوكس، نيويورك، ١٩٩٩). تذهب الدراسة إلى أن «مسلمان» معسكرات الاعتقال كانوا يعدُّونَ كائنات غير محددة المعالم، تمر من خلالها الإنسانية واللاإنسانية، والوجود وعلاقات الأشياء بعضها ببعض، والفسيولوجية والسياسة والحياة والموت. إن معسكرات الاعتقال هي اللامكان الذي تدمر فيه كل عوائق الانضباط وتغرق فيه كل الضفاف».

وقد نُظر إلى «المسلمان» الفرد «الصفرَ الحقيقيَّ في أوسشفيتز، بالإضافة إلى كونه الشاهد الصامت المؤثر لشرور النازي». «هو الحارس الواقف على عتبة أخلاقيات جديدة، أخلاقيات لها شكل وحياة يبدآن حيث تنتهي الكرامة. إنه اللاإنسان الذي يبدو وكأنه إنسان، وهو الآدمي الذي لا يمكن التفرقة بينه وبين غير الآدميين». «إنه لا يمثل الحدود بين الحياة والموت وحسب بل يمثل العتبة بين الإنساني وغير الإنساني. وإحدى السمات التي يتم وصف المسلمان بها باستمرار هي أنه موجود بين الحياة والموت، أي أنه «جثة متحركة». إن أوسشفيتز - بالنسبة لأجامبين - قبل أن تصبح معسكراً كانت «موقع تجربة ظلت في طي النسيان حتى اليوم، وهي تجربة ما وراء الحياة والموت يتم خلالها تحويل اليهودي إلى مسلمان والإنسان إلى غير آدمي».

ويرى أجامبين «أننا لن نفهم ماهية أوسشفيتز إن لم نفهم من أو ما هو المسلمان». وانطلاقاً من أفكار كارل شميت وفوكوه، يربط أجامبين بين دخول المسلمان الساحة التاريخية السياسية وبين تحول القوى والسلطة الذي حدث في عصر الحداثة. فالسلطة السيادية للسياسة التقليدية - أي الحق القديم في القتل أو الإبقاء على الحياة - أفسحت الطريق أمام القوة والسلطة البيولوجية للدولة العلمية الحديثة التي تملك سلطة وأدوات «منح الحياة أو الموت». ففي مجال القوة والسلطة البيولوجية نجد أن الأفراد والشعوب يتم مزجهما معاً، ويصبح الكيان السياسي للدولة ذا حدود مشتركة مع الكيان البيولوجي للدولة. وبالنظر إلى هذا التحول الجذري للسلطة، يخلص أجامبين إلى أنه «من الممكن أن نفهم الوظيفة المحددة للمعسكرات في النظام السياسي البيولوجي للنازي. فهي ليست مجرد أماكن للموت والإبادة، بل هي أيضاً - وفوق ذلك - مواقع إنتاج المسلمان، المكون النهائي السياسي البيولوجي الذي يمكن فصله في السلسلة الاستمرارية البيولوجية. أما ما وراء المسلمان فنجد فقط غرف الغاز.

وقد كتب كل من زدزيسلاف رين وستانتسلاف كلودزينسكي بحثاً بعنوان »على الحدود بين الحياة والموت: دراسة حول ظاهرة «المسلمان» في معسكرات التعذيب» (كتيبات أوسشفيتز، المجلد الأول، فاينهايم وبازل: بيلتز، ١٩٨٧). يلاحظ الباحثان أنه لم يتعاطف أحد مع «مسلمان» المعسكر، فالمعتقلون الآخرون، الذين كانوا في خوف دائم على حياتهم، كانوا يرون أنهم لا يستحقون حتى نظرة منهم. أما بالنسبة إلى المعتقلين الذين تعاونوا مع النظام، فكان «المسلمان» مصدر قلق وغضب. وبالنسبة إلى المخابرات الألمانية كانوا مجرد نفايات لا لزوم لها. كانت كل مجموعة تفكر في التخلص منهم، كل بطريقته». وتحت عنوان «كنت مسلمانا» يتضمن أحد أقسام الدراسة شهادات لأشخاص تمكنوا من التخلص من حالة الموات واللامبالاة التي أصابتهم في معسكرات الاعتقال، ونجوا من الموت. وتقول إحدى تلك الشهادات: «في موقف مثل هذا، بدون غذاء.... مبتلين ومجمدين يومياً.... لم يترك لنا الموت خياراً. كان الجميع يحتقر «المسلمان»، حتى زملاؤهم في المعتقل. فحواسهم كانت كالمخدرة وكانوا لا مبالين بكل ما حولهم. لم يكونوا يستطيعون التحدث في أي موضوع أو حتى تأدية الصلوات، لأنهم لم يعودوا مؤمنين بالجنة أوالنار، ولم يعودوا يفكرون في

منازلهم أو عائلاتهم أو حتى في زملائهم في المعتقل. بل إن جين إمرى، الذى سبق الإشارة إليه قال: إنه «رغم صعوبة الأمر بالنسبة إلينا، فعلينا أن نسقط هؤلاء المسلمان من حسباننا».

وكلمة «مسلمان» كانت شائعة الاستخدام، خاصة في أوسشفيتز، حيث انتقلت منه إلى معسكرات أخرى أيضاً. ولكن ثمة معسكرات أخرى التي لم تعرف الكلمة ولكنها استبدلتْ بها كلمات أخرى تلقي الضوء على الحقل الدلالي لكلمة «مسلمان». ففي معسكر مايدانيك كان الأحياء الأموات هناك يسمون «حميراً». وفي داخاو كانوا يسمون «المعتوهين»، وفي شتوتهوف «المعاقين»، وفي ماوتهاوزن «السباحين»، وفي نوينجامه «الجمال» ، وفي بوخنفالد «الشيوخ المتعبين». أما في معتقل النساء المعروف باسم رافنزبروك فكانت التسمية «موسلفايبر» أي «نساء المسلمان» أو «التافهات الثانويات». إن المسلمان هو الإنسان الذى سيختفي أو يستحق الاختفاء أو يجب أن يختفي.

• وهم التسليم بلا مقاومة

في مقال سابق أشرنا إلى أن اليهوديَّ الذي كان يتقرر حرقه فى أفران الغاز كان يسمى «مسلمان»، أي مسلم بالألمانية، وبطبيعة الحال يطرح السؤال نفسه: لم هذه التسمية؟ يبين بارفيز منظور المفكر الباكستاني المقيم فى السويد، فى مقاله المنشور فى Islam21) إبريل ٢٠٠١) أن كلاً من رين وكولدزينسكي فى مقالهما «على الحدود بين الحياة والموت» يذهبان إلى أن المسلمان أصبحوا بسبب وضعهم غير مبالين لكل ما يحدث حولهم، وأخرجوا أنفسهم من أي علاقة بالبيئة المحيطة بهم. ورغم أنهم لا يزالون قادرين على التحرك هنا وهناك، فإنهم كانوا يقومون بذلك في غاية البطء، وحتى بدون ثني ركبهم. كما كانت تنتابهم رعشة، لأن درجة حرارة أجسادهم كانت أقل من ٩٨,٧ درجة فهرنهايت. وإذا نظر لهم المرء من بعيد فإنهم كانوا يتركون لديه انطباعاً بأنهم يرون عربياً يصلي، وهذا هو أصل التسمية.

وتتفق الموسوعة اليهودية مع هذا التفسير، فقد ورد في مدخل «مسلمان» أن المصطلح مستقى من موقف بعض المعتقلين، الذين كانوا يجثون على الأرض معظم الوقت، مع ثني الركبتين بالطريقة الشرقية ووجوههم جامدة كالأقنعة». ويربط مراقب آخر بين حركات الجزء الأعلى المترنحة قليلاً من جسد المسلمان، وبعض

الطقوس الإسلامية. (سوفسكي، فولفجانج: **نظام الرعب: معسكر الاعتقال**، ترجمة: ويليام تمبلر، مطبعة جامعة برنستون، ١٩٩٧). أما بريمو ليفي فحين رسم صورة المسلمان قال: «إذا كان بوسعي دمج كل شرور عصرنا فى صورة واحدة، فسأختار هذه الصورة المألوفة بالنسبة إليّ: رجل هزيل، رأسه مدلي وكتفاه منحنيتان، ولايمكن رؤية أثر واحد على وجهه أو عينيه لأي نوع من أنواع الفكر».

ويتحدث أجاميين عن عذابات المسلمان الشرقية». ثم يستطرد قائلاً: «إن التفسير الأقرب لهذا المصطلح قد يوجد في المعنى الحرفي للكلمة العربية «مسلم». فهو الشخص الذي يسلم بلا أية مقاومة وبلا شرط أو قيد لإرادة الله. وهذا المعنى هو الذي يعتبر أصل الأساطير الخاصة بقدرية الإسلام، وهي الأساطير الموجودة في الثقافات الأوربية بدءاً من العصور الوسطى. فقد عُرِّف «الاستسلام» الإسلامي بأنه «فقدان الإرادة التي تشكل لب إيمان المسلمين. فثمة قناعة لدى المسلمين فى تصورهم أن إرادة الله تعمل في كل لحظة وحتى في أصغر الأحداث. لذلك نجد أن الفرد من مسلمان أوسشفيتز يعرف بفقدان الإرادة والوعي». وقد جاء فى كتاب يوجين كوجن **نظرية الجحيم وممارساته: معسكرات الاعتقال الألمانية والنظم الواقفة وراءها** (ترجمة: هينز نوردن، اوكتاجون بوكس، نيويورك، ١٩٧٩): إنَّ هؤلاء الرجال الذين فقدوا أية إرادة حقيقية للبقاء كانوا يسمون «مسلمين» - رجال قدريين بلا شرط أو قيد».

إن المسلم بالنسبة لقاطني المعسكر كان الإنسان الأدنى، أي أقل من القليل. ومن خلال النظر إلى اليهودي الذي سيحرق بعدِّه مسلماً، فإن ما كان يحدث هو أنه حين كان النازيون يقتلون اليهود، كان اليهود بدورهم يضحون بالمسلمين (المسلمان)! ويخلقون مسافة بينهم وبين ما يتم لزملائهم.

المسلم المستسلم الذي لا يقاوم ويخضع لإرادة الظلم والبطش، هذه هي الصورة التي رسمها الغرب في مخيلته للمسلم، وهذا هو الوهم الغربي. ولكن بارفيز منظور يقوم بتبديده فى نهاية مقاله فيقول: إن المسلم كثيراً ما يُهاجَم بسبب استسلامه للإرادة الإلهية، والتي تعني بالنسبة إلى أي رؤية غير إسلامية فقداناً للإرادة، وضياعاً للرغبة في الحياة. ولكن المسلم الحقيقي عبر التاريخ كان كائناً مختلفاً تمام الاختلاف. ولعل شهادة التاريخ الحديث، من أفغانستان إلى البوسنة

إلى الشيشان إلى فلسطين تبين للعالم أجمع أنه بالرغم من كل الحرمان الذي يعانيه المسلم في حياته، فإنه لن يقبل أي موت غير مشرف. قد يتم تدميره، لكن لا يمكن هزيمته. وقد يتم حرمانه من الحياة والصحة، لكن لا يمكن حرمانه من الإنسانية والآدمية والكرامة. إن الضرورة البيولوجية للبقاء بالنسبة إلى المسلم لا تلغي استسلامه لإرادة الله.

يستسلم المسلم لإرادة الله فقط لأنه غير مسموح له بالاستسلام بالطريقة نفسها لإرادة إنسان آخر. فهو لا يمنح ولاءه التام لأي نظام دنيوي يتحكم في إنسانيته. فمن خلال تأكيد كرامته في موته، عبر الصراع والجهاد، وليس عبر السلبية وكونه «مسلمانا»، يقدم المسلم الدليل على إيمانه الحقيقي. إن رفض المسلم الانصياع لأي أحد غير الله لا يؤدي إلى فقدان إرادته، بل إلى تأكيدها، ولا يؤدي إلى الخضوع، بل إلى الثورة. ورغم كل الآراء والأفكار المضادة لجهاد المسلمين والغاضبة عليهم السائدة اليوم، فعلينا أن نعده الجهادَ حقه الإنساني المشروع. فما الجهاد سوى صراع للحفاظ على آدمية الفرد في مواجهة عدم إنسانية القوى السياسية.

لا عجب إذن أن يعترف أحد المحللين السياسيين في العصر الحديث بأن «... الجهاد يتجاهل ألف باء الحرب حسب رأي كلاوسفيتز. فالواقع أن الجهاد لا يعرف مساحة سياسية، ولا دولة.. بل هو مساحة رمزية يمكن للمرء متابعتها في منحنى صاعد ... الجهاد لا يعرف حدوداً.. بل هو رؤية للدولة، تنتهي إلى التقليل من قيمتها. أما الأنموذج الأخلاقي الذي يقع في قلب فكرة الجهاد فيدير ظهره للهياكل السياسية. (أوليفر روي: **فشل الإسلام السياسي**، مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٩٤). ويرى جان-بول شارنيه، مصدر أفكار روي السابقة، أن الجهاد أمر بين المؤمن وربه، وليس بين المؤمن وعدوه. فهو فعل دالٌّ على الإيمان، ورغبة في التوبة على أساس ديني صوفي، وليس سياسي. (جان-بول شارنيه: **الإسلام والحرب**، باريس، فايار، ١٩٨٦). إن الجهاد سلوك دالٌّ على تقوى الشخص، وليس استراتيجية لمعركة جماعية. كما أنه بعيد عن أي حسابات سياسية، أو انتصار أو هزيمة، وأبعد من منطق البقاء وإهدار الكرامة.

ومهما كانت الأهوال التي يواجهها المسلم عند زيارته للمعسكر، أو الأسى الذي قد يستشعره لضحاياه المسلمان الذين كانوا لا حول لهم ولا قوة، فإن ألم

المسلم لا يقلل منه وعيه بأن هذا الكائن المسكين، الحي الميت، محل سخرية الملعونين، قد تم تكوينه بناء على الصورة الوهمية التي كونها الغرب عنه، هو المسلم الحقيقي. إن المعاناة من الأحوال اللاإنسانية في المعسكر، وإلصاق المعتقلين جراحهم على مجتمع عقائدي ذنبه الأساسي هو إيمانه بأن الخضوع لإرادة أعظم ينفي عن المرء أي واجب في إطاعة أي قائد ومعاونيه القتلة، هو أمر كان على المسلمان أنفسهم أن ينتبهوا إليه. ولو كان المعسكر قد ضم معتقلين مسلمين، وليس مسلمان، لكانت روح الجهاد قد سرت فيه، ولكانت أحواله النفسية والأخلاقية قد اختلفت كثيراً.

وهنا يجب أن نشير إلى إحدى إشكاليات دراسة الهولوكوست وأحد الأسئلة الملحة: كيف تَأَتَّى للنازيين نقل ستة ملايين يهودي من أنحاء أوربة كافةً إلى معسكرات الإبادة والاعتقال تحت ظروف الحرب، وفي غضون بضع سنوات؟ وهل لو قاومت هذه الملايين، هل كان بوسع النازيين أن ينجحوا فى تحقيق مخططهم الإبادي؟ وما الذى منعهم من المقاومة؟ هذه بعض الأسئلة التى تناقش فى الأوساط العلمية ولا تجد طريقها إلى الإعلام. وبوسعنا أن ندلي بدلونا في هذه القضية ونقول: إن اختلاق شخصية المسلمان المستسلم هو حيلة إدراكية، واعية أو غير واعية، لإسقاط الاستسلام المهين على المسلمين بدلاً من مواجهة هذه الإشكالية وإدراك أبعادها.

الفصل الرابع عشر

خرافة البروتوكولات

• بروتوكولات حكماء صهيون وثيقة مزيفة

تثار ضجة إعلامية من آونة لأخرى حول كتاب بروتوكولات حكماء صهيون. وكلمة «بروتوكول» كلمة إنجليزية تعني «اتفاقية»، وبروتوكولات حكماء صهيون وثيقة يُقال إنها كتبت عام ١٨٩٧ في بازل بسويسرة، أي في العام نفسه الذي عقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول. بل يزعم بعضهم أن تيودور هرتزل تلاها على المؤتمر، وأنها نوقشت فيه. بل وتذهب بعض الآراء إلى التأكيد على أن المؤتمرات الصهيونية المختلفة إن هي إلا مؤتمرات حكماء صهيون هذه، وأن الهدف من المؤتمر السري الأساسي الأول الذي ضم حاخامات اليهود هو وضع خطة محكمة (بالتعاون مع الماسونيين الأحرار والليبراليين والعلمانيين والملحدين) لإقامة إمبراطورية عالمية تخضع لسلطان اليهود وتديرها حكومة عالمية يكون مقرها القدس (وإن جاء في أحد البروتوكولات أن مقرها هو أورية). وتقع البروتوكولات البالغ عددها أربعاً وعشرين بروتوكولاً في نحو مئة وعشر صفحات في الأصل الروسي والإنجليزي وفى الترجمة العربية، ونشرت لأول مرة عام ١٩٠٥ ملحقاً لكتاب من تأليف سيرجي نيلوس وهو مواطن روسي ادعى أنه تسلَّم المخطوطة عام ١٩٠١ من صديق له حصل عليها من امرأة (مدام ك) ادعت أنها سرقتها من أحد أقطاب الماسونية في فرنسة. لكن نيلوس نفسه أخبر أحد النبلاء الروس بأن هذه المرأة أخذتها من رئيس البوليس السري الروسي في فرنسة، وأن الأخير هو الذي سرقها

من أرشيف المحفل الماسوني. وقد كانت لنيلوس اهتمامات صوفية متطرفة، كما كان غارقاً في الدراسات الخاصة بالدلالات الصوفية للأشكال الهندسية وبحساب آخر الأيام.

وقد لاقت البروتوكولات رواجاً كبيراً بعد نشوب الثورة البلشفية التي أسماها بعضهم آنذاك «الثورة اليهودية»، إذ عزا كثيرون الانتفاضات الاجتماعية التي اجتاحت كثيراً من البلدان الأوروبية إلى اليهود. وانتقلت البروتوكولات إلى غرب أوربة عام ١٩١٩ حيث حملها بعض المهاجرين الروس. وبلغت البروتوكولات قمة رواجها في الفترة الواقعة بين الحربين، حينما حاول كثير من الألمان تبرير هزيمتهم بأنها طعنة نجلاء من الخلف قام بها اليهود المشتركون في المؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية. وقد أصبحت البروتوكولات من أكثر الكتب رواجاً في العالم الغربي بعد الإنجيل، وتُرجمت إلى معظم لغات العالم ومنها العربية حيث ظهرت عدة طبعات منها. وحازت البروتوكولات اهتمام بعض المشتغلين بالتأليف وبالإعلام إذ أشاروا إليها باستحسان كبير، وكأنها وثيقة ذات شأن كبير. ولحسن الحظ أنه لا يوجد مركز دراسات عربي واحد أعارها أي اهتمام، ولا يتم نشرها إلا من خلال دور نشر تجارية.

والرأي السائد الآن في الأوساط العلمية التي قامت بدراسة البروتوكولات دراسة علمية متعمقة هو أن البروتوكولات وثيقة مزورة، استفاد كاتبها من كتيب فرنسي كتبه صحفي يدعى موريس جولي يسخر فيه من نابليون الثالث بعنوان **حوار في الجحيم بين ماكيافللي ومونتسكيو، أو السياسة في القرن التاسع عشر**، نُشر في بروكسل عام ١٨٦٤، فتحول الحوار إلى مؤتمر وتحول الفيلسوف إلى حكماء صهيون. وقد اكتُشفت أوجه الشبه بين الكتيب والبروتوكولات إذ تضمنت هذه الأخيرة اقتباسات حرفية من الكتاب المذكور، وأحياناً تعبيرات مجازية وصوراً منه. والرأي السائد الآن أن نشر البروتوكولات وإشاعتها إنما تم بإيعاز من الشرطة السياسية الروسية للنيل من الحركات الثورية والليبرالية ومن أجل زيادة التفاف الشعب حول القيصر والأرستقراطية والكنيسة وبتخويفهم من المؤامرة اليهودية الخفية العالمية.

يدعي مروجو البروتوكولات أنها وثيقة سرية تحتوي على مقررات مؤتمر حكماء صهيون. وهو ادعاء لا يحتمل أي دراسة أو تمحيص، فمن الواضح أن

البروتوكولات نص روسي غير يهودي، بمعنى أن من كتبه ينتمي إلى التشكيل الحضاري الروسي وإلى الكنيسة الأرثوذكسية، كما ينتمي سياسياً إلى التشكيل السياسي الرجعي القيصري، الذي كان قد بدأ في التراجع تحت تصاعد الحركات الديموقراطية والليبرالية والثورية، ويمكن التدليل على كل هذا من خلال تحليل النص ذاته:

أ) ابتداء كتب النص الأصلي باللغة الروسية، وهذا الأمر في حد ذاته يثير الشك والريبة في مدى صحة نسبته لحكماء صهيون. لأنه إذا كان حكيم حكماء صهيون قد دون خطبته لمؤتمر حكماء صهيون وأراد أن يحتفظ بها وثيقةً سرية، فلم كتبها بالروسية؟ لماذا لم يكتبها باللغة الآرامية، التي كان يجيدها كثير من الحاخامات آنذاك، وربما لم يكن يعرفها إلا حفنة من المتخصصين غير اليهود في أوربة بأسرها؟ وإن تعذرت الكتابة بالآرامية فلماذا لم يكتبها باليديشية، لغة الغالبية الساحقة ليهود شرق أوربة آنذاك؟ واليديشية رطانة ألمانية دخلت عليها كلمات عبرية وسلافية وتكتب بحروف عبرية. وهي لغة لم تكن معروفة للبيروقراطية الروسية آنذاك، ولمعظم الروس، وكان هذا أحد الأسباب التي أدت إلى تفاقم المسألة اليهودية لأن أغلبية المجتمع الروسي وأجهزته الإدارية المختلفة لم يمكنها أن تفهم مشاكل أعضاء الجماعة اليهودية وكيفية حلها. وبسبب جهل المجتمع الروسي (والبولندي) باليديشية أصبحت تلك اللغة لغة الغش التجاري، لأنها كانت تعطي الفرصة لصغار التجار اليهود أن يغشوا زبائنهم، ولذا قامت كثير من الدول الغربية بتحريم استخدامها في المعاملات التجارية. وكان هناك برنامج «للترويس»، أي صبغ أعضاء الجماعة اليهودية بالصبغة الروسية لدمجهم في المجتمع الروسي، وكان هذا البرنامج يقاوم من قبل الحاخامات والجماهير اليهودية. فهل يعقل بعد هذا أن يكتب الحاخامات وثيقة سرية بالروسية؟

ب) الموضوعات الأساسية المتواترة في البروتوكولات موضوعات روسية، فهناك دفاع عن الاستبداد المطلق وعما يُسمَّى «الأرستقراطية الطبيعية الوراثية»، وهجوم شرس على الليبرالية والاشتراكية، وهو ما يبيِّن أن اهتمامات الكاتب روسية تماماً وتعكس رؤية الطبقة الحاكمة الروسية في السنين الأخيرة من حكم النظام القيصري.

جـ) هناك هجوم على الكنيسة الكاثوليكية واليسوعية، وهو ما يدل على أثر التربة المسيحية الأرثوذكسية السلافية التي كانت تناصب الكاثوليكية العداء.

د) ثمة هجوم شرس على الماسونية، التي كانت آنذاك جزءاً لا يتجزأ من الحركة الليبرالية والثورية الروسية.

هـ) هناك هجوم شديد على دزرائيلي، الذي كان شخصية مكروهة تماماً من النخبة الحاكمة في روسية لأنه كان يساند الدولة العثمانية حتى تظل حاجزاً منيعاً ضد توسُّع الإمبراطورية الروسية.

- **البروتوكولات وثيقة ساذجة**

بيّنّا فيما سبق أن **البروتوكولات** وثيقة مزيفة، وهي علاوة على ذلك وثيقة مشوشة ساذجة، تفتقر إلى ترابط الأفكار. ومع هذا، فلنحاول التوصل إلى بعض الأفكار الأساسية فيها من خلال عمليتي تفكيك وإعادة تركيب. ويمكننا القول: إن هجوم **البروتوكولات** على الماسونية يشير، كما أسلفنا، إلى أصولها الروسية القيصرية كما يبين مدى سذاجة النبرة وتشوش الأفكار. ومن المعروف أن الماسونية حركة متعددة الاتجاهات والتوجهات، فقد كانت محافظة إيمانية في إنجلترة، انقلابية إلحادية في فرنسة، رجعية عنصرية في ألمانية، إذ كانت تمنع دخول اليهود في صفوفها. ويوجد محفل ماسوني كونفوشي إسلامي في الصين، وهكذا. وكانت الحركة الماسونية في أواخر القرن التاسع عشر مرتبطة بالحركات الديموقراطية والثورية في روسية القيصرية. ولذا قام كاتب البروتوكولات بربطها بحكماء صهيون، حتى تنفر الجماهير الروسية منها. ولذا تختتم البروتوكولات بالعبارة المسرحية التالية التي لها أصداء ماسونية: «وقعه ممثلو صهيون من الدرجة الثالثة والثلاثين»، ولكن لا توجد قائمة بأسماء حكماء صهيون من الموقعين على هذه الوثيقة السرية، وهذا أمر مفهوم، فالوثائق السرية لا يوقعها أحد، خاصة إذا كانوا مئتين. ولكن إذا كان ذلك كذلك، فلماذا كانت هذه العبارة المسرحية الغامضة؟

وتخبرنا **البروتوكولات** أن حكماء صهيون، الدهاة العتاة، والذين لا تعرف قوتهم حدوداً أو سدوداً أو قيوداً، والذين يؤكد كبيرهم أن «الخنازير من الأمميين» لا يفهمون ولا يرتابون في مقاصدهم سيقومون بتوظيف الماسونية، فهي الأخرى تود إقامة حكومة عالمية. ولذا فحكماء صهيون سيستخدمون المحافل الماسونية

«قناعاً لأغراضنا». هذه المحافل تبدو ماسونية، ولكنها في واقع الأمر جزء من المؤامرة اليهودية العالمية، وقد فعل حكماء صهيون ذلك «ذراً للرماد في العيون».

وحكماء صهيون الذين يتحكمون في كل شيء ببراعة بالغة سيمنعون تأليف أية جماعة سرية جديدة (كم عدد الجمعيات السرية التي تألفت في العالم بعد ذلك التاريخ؟)، «أما الجماعات السرية الموجودة في الوقت الحاضر (ونحن نعرفها، والتي تخدم، وقد خدمت، أغراضنا) فإننا سنحلها وننفي أعضاءها إلى جهات نائية من العالم (هل تحقق ذلك، أم على العكس انتشرت المنظمات السرية بمختلف توجهاتها؟). وبهذا الأسلوب نفسه ستتصرف مع كل واحد من الماسونيين الأحرار الأمميين (غير اليهود) الذين يعرفون أكثر من الحد المناسب لسلامتنا. أما الماسونيون الذين ربما نعفو عنهم لسبب أو لغيره فسنبقيهم في خوف دائم من المنفى. وسنصدر قانوناً يقضي على كل الأعضاء السابقين في الجمعيات السرية بالنفي من أوربة حيث سيقوم مركز حكومتنا النهائية، ولن يكون لأحد الحق في المعارضة» (١٥/ ٢٢٧). (وكيف يكون ذلك؟).

ولكن بطش اليهود لا يعرف حدوداً فيزداد كاتب البروتوكولات سخونة ويقول: «سنقدم الماسونيين الأحرار إلى الموت بأسلوب لا يستطيع معه أحد - إلا الإخوة - أن يرتاب» فيه، بل إن الضحايا أنفسهم أيضاً لن يرتابوا فيه، فهم جميعاً «سيموتون - حين يكون ذلك ضرورياً - موتاً طبيعياً في الظاهر. حتى الإخوة - وهم عارفون بكل الحقائق - لن يجرؤوا على الاحتجاج عليها».

وكاتب البروتوكولات جاهل بأمور التاريخ، فهو يؤكد أن حكماء صهيون قد تمكنوا من القيام بالثورة الفرنسية من خلال المحافل الماسونية لتخريب فرنسة والعالم، وهو يفعل ذلك لينفر الجماهير من الحركات الثورية ولينشر الشكوك حول الفكر الثوري والحركات الثورية. ومن الواضح أنه لا يعرف شيئاً عن أثر الثورة الفرنسية على يهود فرنسة والعالم. فمن المعروف أنه بعد اندلاع الثورة الفرنسية منحت الثورة أعضاء الجماعات اليهودية كل حقوق المواطنين، وحاولت دمجهم في المجتمع عن طريق فتح المدارس لأبنائهم، وتشجيعهم على التخلي عن تميزهم الوظيفي. ودمجُ أعضاء الجماعات اليهودية في مجتمعاتهم يقوض أساس الصهيونية (والمؤامرة اليهودية العالمية) التي تذهب إلى أن اليهود لا يمكنهم الاندماج في

مجتمعاتهم، ومن ثم يجب نقلهم إلى فلسطين لتأسيس الدولة الصهيونية. كما أنه إذا اندمج أعضاء الجماعات اليهودية في مجتمعاتهم فإنهم سيدينون بالولاء لها مما يعطلهم عن تأسيس الحكومة العالمية إياها.

واستمر نابليون في الاتجاه نفسه، فأصدر بعد ذلك قراراته الخاصة بتنظيم علاقة اليهودية بالدولة الفرنسية. ففي عام ١٨٠٨، أصدر مرسومين تم بمقتضى الأول إقامة لجان من الحاخامات والرجال العاديين للإشراف على الشؤون اليهودية تحت إشراف مركز كنسي مركزي. وكان من مهامِّ هذه المجالس أن ترعى معابد اليهود وغيرها من المؤسسات الدينية، وتنفذ قوانين التجنيد وتشجع اليهود على تغيير المهن التي يشتغلون بها. أما المرسوم الثاني، فقد اعترف باليهودية ديناً، كما ألغى (أو أنقص أو أجل) الديون اليهودية المستحقة للمرابين. وأصبح الحاخامات مندوبين للدولة مهمتهم تعليم أعضاء الجماعات اليهودية تعاليم دينهم وتلقينهم الولاء للدولة وأن الخدمة العسكرية واجب مقدس. وكان على الحاخامات توجيه أعضاء الجماعات اليهودية إلى الوظائف النافعة. وقد اعترفت الحكومة الفرنسية باليهود بوصفهم أقلية، وأصبح لهم كيان رسمي داخل الدولة، فحصلوا على حقوقهم ومُنحوا شرف الجندية ولم يعد يسمح لهم بدفع بدل نقدي، وشُجعوا على الاشتغال بالزراعة. وحرَّم نابليون على اليهود الأشكناز الاشتغال بالتجارة دون الحصول على رخصة بذلك، ولم تكن الرخصة تُجدَّد إلا بعد التأكد من مدى إحساس التاجر اليهودي بالمسؤولية الأخلاقية. كما طُلب إلى أعضاء الجماعات اليهودية أن يتخذوا أسماء أعلام وأسماء أسر دائمة على الطريقة الغربية. ورغم أن الأدبيات اليهودية والصهيونية تطلق على هذه القرارات اسم «القرار المشين»، فقد أدت بالفعل إلى دمج اليهود في المجتمع الفرنسي، وفي نهاية الأمر صهرهم تماماً، حتى إن فرنسة كان يطلق عليها عبارة «البلد الذي يأكل اليهود». فهل أدخل هذا الغبطة والسرور على قلب حكيم حكماء صهيون فراح يتباهى بأن الثورة الفرنسية ثورة يهودية ماسونية؟

والإشارة إلى البروتوكولات واستخدامها في الإعلام المضاد للصهيونية أمر غير أخلاقي لأنها وثيقة مزوَّرة، ولا توجد دراسة علمية واحدة (سواء بالعربية أم بغيرها من اللغات) تثبت أنها وثيقة صحيحة. ولكن، وحتى ولو كانت

البروتوكولات وثيقة صحيحة، فإن من يستخدمها يفقد مصداقيته وفعاليته أمام الرأي العام الغربي الذي لا يؤمن بصحتها. كما لا يمكن إثبات أن هذه الوثيقة تعبر تعبيراً حقيقياً عن دوافع أغلبية أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، أو أنهم يأخذون بها وثيقة ملزمة تحدد سلوكهم وأهدافهم. وبسبب السمعة الشائنة للبرتوكولات، فإن الصهاينة يصفون أي نقد موجَّه إليهم بأنه وقوع في أحابيل البروتوكولات. ومن الطريف أن هناك وثائق يتداولها بعض أعضاء الجماعات اليهودية تحتوي على آراء أكثر تآمرية من البروتوكولات من مثل ما يُسمَّى كتاب التربية الذي يوزع في إسرائيل في الوقت الحالي. كما يحوي التلمودُ وتراثُ القبَّالاه (وهي كتابات يهودية لا شك فيها) مقطوعات عنصرية إلى أقصى درجة، ولكن يبدو أن مروِّجي البروتوكولات لا يعرفون عنها شيئاً، وهي على كلٍّ كتابات لا يعرف عنها معظم أعضاء الجماعات اليهودية بدورهم شيئاً، ولا يتداولها في الغالب إلا بعض العنصريين الموجودين في كل المجتمعات وبين أتباع كل العقائد.

وثمة رأي يذهب إلى أن الصهاينة يقومون بالترويج لهذه البروتوكولات لأنها تخدم المشروع الصهيوني الذي يهدف إلى ضرب العزلة على اليهود وتحويلهم إلى مادة خام صالحة للتهجير والتوطين في فلسطين المحتلة. كما أن كثيراً من الافتراضات الكامنة في البروتوكولات، مثل «الشعب اليهودي» و«الشخصية اليهودية» و«المصالح اليهودية»، هي جميعاً افتراضات صهيونية أساسية؛ والهجوم عليها هو في واقع الأمر تسليم غير مباشر بوجودها.

وسواء أكان هذا الرأي الأخير صحيحاً أم كاذباً، فإن ترويج **البروتوكولات** يخدم المصالح الصهيونية من الناحية العملية. ويتم الآن، في العالم العربي، تداول كم هائل من الكتابات (مثل **أحجار على رقعة الشطرنج** وغيرها) كلٌّ هدفُها إشاعة الخوف من اليهود والصهيونية بتبنِّي رؤية بروتوكولية تنسب إلى اليهود قوى عجائبية. ويساهم بعض أعضاء النخب الحاكمة في الترويج لهذه البروتوكولات لتبرير العجز العربي والتخاذل أمام العدو الصهيوني، دون أن يدركوا أنهم بهذا إنما يخدمون مصلحة العدو. وقد صرح المعلق السياسي الإسرائيلي يوئيل ماركوس في جريدة **هآرتس** (٣١ ديسمبر ١٩٩٣) بأن كثيراً من الدول تغازل إسرائيل وتحاول أن تخطب ودها نظراً لأن حكام هذه الدول يؤمنون بأن **البروتوكولات** وثيقة صحيحة وأن ما

جاء فيها هو المخطط الذي يتحقق في العالم والذي سيؤدي إلى سيطرة اليهود وأن اليهود يتحكمون بالفعل في رأس المال العالمي وفي حكومة الولايات المتحدة. ومن ثم فالطريق إلى المعونة الأمريكية يمر من خلال اللوبي الصهيوني والدولة الصهيونية. ويضيف ماركوس معلقاً على هذه المفارقة: «إن البروتوكولات [بسبب أثرها هذا الذي يولِّد الرهبة في النفوس ويدفع الناس لمغازلة إسرائيل واليهود] تبدو كأن الذي كتبها لم يكن شخصاً معادياً لليهود، وإنما يهودي ذكي يتسم ببعد النظر». وقد أثبتت الانتفاضة الفلسطينية أن اليهود بشر وأن إلحاق الأذى بهم وهزيمتهم أمر ممكن، وأنهم قد يهاجمون عدوهم كالصقور حينما تسنح الفرصة ثم يفرون كالدجاج حينما يدركون مدى قوته وإصراره. والاستمرار في إشاعة الرؤية البروتوكولية هو نوع من الإصرار على مد يد العون للعدو الصهيوني، وعلى التنكر لإنجازات الانتفاضة.

ولا يمكن للمسلم الملتزم بتعاليم دينه أن يوجه الاتهام إلى أي إنسان جزافاً ودون قرائن، كما لا يمكن لرؤية دينية حقة أن تحكم على الفرد تجسداً لفكرة، إذ يظل كل إنسان مسؤولاً عن أفعاله. وقد عرَّف الإسلام حقوق أعضاء الأقليات، خصوصاً أهل الكتاب، فحدّد أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وهي حقوق مطلقة لا يمكن التهاون فيها. وفي الواقع، فإن استخدام البروتوكولات لاتهام اليهود فيه سقوط في العنصرية والعرْقية التي تصنف الناس لا على أساس أفعالهم وإنما على أساس مادي لاديني (علماني) مسبق وحتمي. ولذا، فهي لا تميِّز بين ما هو خيِّر وما هو شر.

● البروتوكولات عريضةَ اتهام

تدَّعي البروتوكولات أن الاقتصاد العالمي بكل أشكاله، اشتراكياً كان أم رأسمالياً، إنما هو لعبة في يد اليهود. فبعد أن ظهر أن اليهود يتحكمون في رؤوس الأموال والذهب والمضاربات، اتضح أنهم أيضاً دعاة الاشتراكية ومخربو النظام الرأسمالي. فقد جاء في البروتوكول الثالث: «إننا نقصد أن نظهر كما لو كنا المحررين للعمال، جئنا لنحررهم من هذا الظلم حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفوضويين والشيوعيين. ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للإنسانية، وهذا ما تبشر به الماسونية الاجتماعية» (ب٣).

وسيواكب التحديثَ الاقتصادي تحديثٌ سياسي، ولذا سيحرض اليهود الجمهور على المطالبة بإعلان الدستور لأن «الدستور كما تعلمون ليس أكثر من مدرسة للفتن والاختلافات والمشاحنات والهيجانات الحزبية العقيمة، وهو بإيجاز مدرسة كل شيء يضعف نفوذ الحكومة (الملكية)». وهكذا يتم «قيام نظام جمهوري»، ولكن هذه ليست نهاية المطاف، إذ سيقوم اليهود بوضع شخص مكان الملك المقدس يكون مجرد «أضحوكة»؛ شخص من «الدهماء» من بين «مخلوقات اليهود وعبيدهم» (ب١٠).

والمحصلة النهائية لعملية التحديث هذه هي الهيمنة الكاملة على جميع حكومات الأرض، بما في ذلك الحكومات التي تقف (ظاهرياً) ضد المؤامرة اليهودية الكونية. و«حينئذٍ نكون قد دمرنا في حقيقة الأمر كل القوى الحاكمة إلا قوتنا، وإن تكن هذه القوى الحاكمة نظرياً لاتزال قائمة. وحين تضع حكومة من الحكومات نفسها في موقف المعارضة لنا في الوقت الحاضر فإن ذلك أمر صوري متخذ بكامل معرفتنا ورضانا» (ب٩). وهكذا يتحكم اليهود فيمن يقف معهم وفيمن يقف ضدهم. فمَن يعارضهم، يفعل ذلك جزءاً من مسرحية كتبوها هم بأيديهم، والمطلوب من القراء تصديق كل ذلك دون تساؤل ودون أن تكلِّف البروتوكولات خاطرها بتزويدنا ببعض القرائن والأدلة والبراهين! وَكأن البروتوكولات هي كلام الله ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وتُروِّج البروتوكولات بحسبانها المخطط الذي وضعه حكماء صهيون لإفساد العباد والهيمنة على العالم، وهذه أول أكذوبة. فالبروتوكولات ليست مخططاً أو قرارات وإنما هي خطاب حكيم حكماء صهيون الموجه إلى بقية الحكماء. وقد لجأ كاتب البروتوكولات لهذه الحيلة حتى يعطي وثيقته درجة من المصداقية، لذا جعل حكيم حكماء صهيون (لا أحد سواه) يتحدث عن الخطر اليهودي وعن القوة المطلقة لدى اليهود ومقدرتهم على التحكم في كل شيء حتى يبدو الأمر كله وكأنه «وشهد شاهد من أهلها»، غير أنه لم يكن على درجة كبيرة من الذكاء في عملية تزييفه هذه.

فالبروتوكولات تتحول، من اللحظة الأولى، من خطاب إلى عريضة اتهام، ففي الصفحة الأولى من البروتوكول الأول ينطق حكيم حكماء صهيون بالكلمات

التالية: «لقد بذرنا الخلاف بين كل واحد وغيره في جميع أغراض الأمميين الشخصية والقومية بنشر التعصبات الدينية والقبلية خلال عشرين قرناً» (ب٥).

وقد اعتاد من درس فن تحليل الخطاب والنصوص على أن يطرح السؤال التالي: مَنْ المخاطِبُ ومن المخاطَب؟ وهو أمر يصعب تحديده في حالة **البروتوكولات**، فهي تسوِّق مخططاً عاماً يشرحه حكيم حكماء صهيون لبقية الحكماء، ولكنها في ذات الوقت عريضة اتهام موجهة للذات، مما يجعلنا نتساءل: إذا كان المخاطبون حقاً هم حكماء صهيون، فلماذا يصر كبيرهم على أن يخبرهم عما أنجزوه بالفعل وهو معروف لديهم؟ ولماذا يخبرهم أن «أسرار تنظيم الثورة الفرنسية معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا، ونحن من ذلك الحين نقود الأمم قدماً من فشل إلى فشل، حتى إنهم سوف يتبرؤون منا» (ب٣). مَنْ يمكن أن يصف حركته بأنها حركة لقيادة الأمم «من فشل إلى فشل» ويصر على أن هذه الحركة ستودي بهم؟ وإن كان يعرف ذلك، فلماذا لا يضع مخططاً رهيباً آخر لا يودي بهم؟ أليس اليهود هم المتحكمون في كل الأمور؟ ومَنْ يمكنه أن يقول «إن لنا طموحاً لا يحدّ، وشرهاً لا يُشبع، ونقمة لا تَرحم، وبغضاء لا تُحس. إننا مصدر إرهاب بعيد المدى. وإننا نُسخِّر في خدمتنا أناساً من جميع المذاهب والأحزاب» (ب٩)، ثم يتطوع بالتأكيد على ما يلي: «لقد خدعنا الجيل الناشئ من الأمميين وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادئ» (ب٩). من الواضح أن نبرة الخطاب قد أفلتت من الكاتب الأبله، فأخذ يكيل الشتائم لليهود على لسان حكيم حكماء صهيون، ثم أضاف في لحظة سخونة النبوءة الخاصة بأن العالم سيتبرأ منهم!

ولم يدرك كاتب **البروتوكولات** أنه حينما قام بتضخيم شر اليهود قام بتضخيم قوتهم حتى أصبحوا كأنهم آلهة. فلنستمع لبعض كلماته:

«وإنني أستطيع في ثقة أن أصرح اليوم بأننا أصحاب التشريع، وأننا المتسلطون في الحكم، والمقرون للعقوبات، وأننا نقضي بإعدام من نشاء ونعفو عمن نشاء، ونحن- كما هو واقع - أولو الأمر الأعلون في كل الجيوش، الراكبون رؤوسها، ونحن نحكم بالقوة القاهرة لأنه لا تزال في أيدينا الفلول التي كانت الحزب القوي من قبل، وهي الآن خاضعة لسلطاننا» (ب٩).

ويلاحظ هنا أن هذه العبارات تضفي على اليهود صفات الإله المتحكم في كل شيء القادر على كل شيء، الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء.. فهل يعقل أن نصدق أن هناك من البشر العاديين من يتسمون بصفات الله عز وجل حتى لو ادعى حكيم حكماء صهيون ذلك؟ ألا يتناقض ذلك مع فكرة الإيمان بالله نفسها؟

ويواصل الكاتب ببلاهة عرض مخططه في مجال النشر وينسبه لحكيم حكماء صهيون فيقول: «سنفرض على الكتب التي تقل عن ثلاث مئة صفحة ضريبة مضاعفة في ثقلها ضعفين وإن الكتب القصيرة سنعدها نشرات لكي نقلل نشر الدوريات التي تكون أعظم سموم النشر فتكاً» (ب١٢). فهل سمع أحد عن بلد في كوكبنا أو الكواكب الأخرى فرضت فيه هذه الضريبة المضحكة؟

وينتقل الكاتب في موضع آخر إلى الحديث عما ينوي حكماء صهيون تنفيذه في مجال التعليم، فيقول مثلاً: إنهم سيحذفون من مناهج الدراسة «كل تعاليم القانون المدني، مثله في ذلك مثل أي موضوع سياسي آخر، ولن يُختار لتعلم هذه العلوم إلا رجال قليلون من بين المدربين لمواهبهم الممتازة. ولن يُسمح للجامعات أن تُخرِّج للعالم فتياناً خضر الشباب ذوي أفكار عن الإصلاحات الدستورية الجديدة» (ب١٦). وبالإضافة إلى ذلك «سنتقدم بدراسة مشكلات المستقبل بدلاً من الكلاسيكيات» (ب١٦)، كما «سنمحو كل أنواع التعليم الخاص» (ب١٦). فهل نجحت «المؤامرة اليهودية» المزعومة في تنفيذ أيٍّ من هذه المخططات.. هل اختفت مثلاً أقسام وكليات القانون من جامعات العالم؟ وهل تلاشت الجامعات والمدارس الخاصة؟ وهل كف الطلاب عن دراسة الكلاسيكيات؟ وكيف تخدم دراسة مشكلات المستقبل مصلحة اليهود دون سواهم؟

ومن أكبر الأدلة على تفاهة **البروتوكولات** واختلاط نبرتها أن حكيم حكماء صهيون فصل عريضة الاتهامات وأفشى سر خطته ومقاصدها ولكنه لم يكلف خاطره أن يبلغ بقية الحكماء بآليات تحويل المؤامرة إلى حقيقة فهو لم يخبرهم، على سبيل المثال، كيف تم ترتيب نجاح ماركس (المرتد عن اليهودية) ونيتشه وداروين (وهما غير يهوديين)؟ وكيف تم اتخاذ الترتيبات اللازمة للقيام بالثورة الفرنسية والثورات الأخرى؟ لماذا يركز حكيم الحكماء على شرور الطبيعة البشرية المعروفة لدى بقية حكماء صهيون ولا يذكر لهم شيئاً عن آليات إفسادها.. أليس

المطلوب هو تدريبهم على ارتكاب الجرائم؟ وإذا كان حكماء صهيون يتحكمون في كل العلوم والعمليات والآليات الاجتماعية، فكيف حدث التآكل الذي أصاب الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة حيث وصلت نسبة الزواج المختلط أكثر من ٥٠٪، وتراجع عدد المواليد وأحجم الشباب عن الزواج حتى تنبأ علماء الديموجرافية اليهودية أنه مع عام ٢٠٢٠ لن يزيد عدد يهود الولايات المتحدة عن مليونين.. ورغم كل هذه البلاهات، لا يزال بعض يروج للبروتوكولات وثيقةً عظيمة الشأن عميقة المغزى خطيرة الهدف!

• اليهود وعالم الأفكار

يربط كاتب البروتوكولات المدافع عن القيصرية الروسية المتداعية بين كل الأفكار التقدمية التي يكرهها من جهة والمؤامرة اليهودية من جهة أخرى، فيشير إلى أن قوة اليهود لا تعرف حداً، فهم لن يهيمنوا عن طريق الصحافة والإعلام وقوة المال على المجتمعات وحسب بل سيسيطرون كذلك على عالم الأفكار. ولهذا السبب، اخترع حكماء صهيون، على حد قوله، أفكاراً من مثل الحرية والإخاء والمساواة ليؤلبوا الشعوب على ملوكهم. وهذا القول بالغ السذاجة، فأفكار الحرية والإخاء والمساواة قديمة قِدَم البشرية نفسها وبشَّرت بها جميع الأديان السماوية، وفي مقدمتها الإسلام، قبل كتابة البروتوكولات بعشرات القرون.

كما يذكر حكيم حكماء صهيون أنهم ابتكروا أفكاراً مثل الذاتية (أي الفردية) ليدمروا الحياة الأسرية بين غير اليهود. وفي مجال التحكم في العقول والأفئدة والأفكار يذهب حكماء صهيون إلى أنهم هم الذين أسسوا العلوم الجديدة، مثل الاقتصاد السياسي، وتملكوا ناصيته. وهو علم يبرهن على أن قوة رأس المال أعظم من مكانة التاج. كما طور حكماء صهيون علم الأحوال الاجتماعية [لعله يقصد علم الاجتماع] ولن يسلموا أسراره للأمميين. وتصل هذه الادعاءات إلى قمة (أو هوة) السخافة في الادعاء التالي: «نجاح داروين وماركس ونيتشه رتبناه من قبل والأثر الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي غير اليهودي سيكون واضحا لنا بالتأكيد». ولكن داروين ونيتشه (ومن قبلهما ماكيافلي) لم يكونوا يهوداً، أما ماركس فكان ابناً ليهودي متنصِّر، وكان هو ذاته ملحداً لا يؤمن بأي دين.

لقد نُشرت البروتوكولات عام ١٩٠٥، وهو العام الذي شهد هزيمة روسية على يد اليابان. وقد سبق هذا تصاعد الحركات الثورية المطالبة بتحديث اقتصاد روسية ونظامها السياسي، فكانت المطالبة بالاقتصاد الحر والدستور والانتخابات الديمقراطية تتزايد، الأمر الذي أدى إلى زعزعة النظام الإقطاعي والقيصري بأسره. وقد اضطرت الدولة القيصرية إلى الخضوع للضغوط المتزايدة، فأعلن الدستور، وهو الأمر الذي لم يرق لكاتب البروتوكولات بطبيعة الحال وهو المدافع عن النظام القيصري المستبد وعن الأرستقراطية الطبيعية الوراثية وعن الكنيسة الأرثوذكسية التي كانت تساند هذا الاستبداد، ولذا بين العلاقة الواضحة (له على الأقل) بين الليبرالية والديمقراطية والدستور والاقتصاد الحر من جهة وحكماء صهيون من جهة أخرى.

لذا، سيعمل حكماء صهيون على إسقاط النظام الإقطاعي الملكي، فالأرستقراطيون الإقطاعيون «قد عضدوا الناس وحموهم لأجل منفعتهم، وهذه المنفعة لا تنفصل عن الشعب». وهم «من حيث إنهم ملاك أراضٍ لا يزالون خطراً علينا (أي على اليهود)، لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم، ولذلك يجب علينا وجوباً أن نجرد الأرستقراطيين من أراضيهم بكل الأثمان. وأفضل الطرق لبلوغ هذا الغرض هو تسليط الرعاع عليهم».

وبعد تحطيم النظام الملكي والإقطاعي، سيقيم حكماء صهيون على «أطلال الأرستقراطية الطبيعية والوراثية، أرستقراطية جديدة على أساس الثروة وعلى أساس العلم الذي يروجه علماء اليهود». وحكماء صهيون يحدثون الاقتصاد لأن المجتمع الصناعي الرأسمالي يتسم بالصراع من أجل التفوق. والمضاربة في عالم الأعمال ستخلق «مجتمعاً أنانياً غليظ القلب منحل الأخلاق، وستكون شهوة الذهب رائده الوحيد، وسيكافح هذا المجتمع من أجل الذهب متخذاً اللذات المادية التي يستطيع أن يمده بها».

- **البروتوكولات الصهيونية**

يقول مروجو البروتوكولات إن نواة الحكومة اليهودية العالمية هي في واقع الأمر الدولة الصهيونية التي تساندها الحركة الصهيونية العالمية والشبكة المالية والإعلامية اليهودية، ذات القوة الشيطانية اللامحدودة، والأذرع الأخطبوطية.

وتذهب البروتوكولات إلى أن حكماء صهيون «سيستنزفون كل قوى الحكم في جميع أنحاء العالم، وسيشكلون حكومة عالمية عليا. وسيضعون موضع الحكومات القائمة مارداً يسمى إدارة الحكومة العليا. وستمتد أيديه كالمخالب الطويلة المدى، وتحت إمرته سيكون له نظام يستحيل معه أن يخفق في إخضاع كل الأقطار». وتسكر الرؤى حكيم حكماء صهيون فيتحدث عن اليوم الذي ستهدي فيه كل أوربة التاج إلى ملك اليهود ليضعه على رأسه المقدس ويصبح بطريرك العالم بأسره.

ولكن من المعروف تاريخياً أنه لم تكن هناك سلطة مركزية تجمع سائر يهود العالم بعد تحطيم الهيكل على يد تيتوس في القرن الأول الميلادي. كما يلاحظ أن فكرة الحكومة العالمية تتناقض مع الفكرة الصهيونية، فالصهيونية تهدف إلى إنهاء الشتات، أي تجميع كل أعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين، بينما فكرة الحكومة العالمية ترى ضرورة أن تظل الشبكة اليهودية الأخطبوطية منتشرة في كل أنحاء العالم.

وتزعم المنظمة الصهيونية أنها عالمية، وقد وقعنا عرباً في هذا الفخ فصرنا نتحدث عن الصهيونية العالمية، إلا أننا لو دققنا النظر لوجدنا أنها أبعد ما تكون عن العالمية، فهي ظاهرة غربية من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، ولسبب بسيط هو أن الغالبية الساحقة للجماعات اليهودية توجد أساساً إما في العالم الغربي أو في جيوب استيطانية غربية.

والطريف أن لبروتوكولات لم تذكر المخططات الصهيونية ذاتها من قريب أو بعيد، ولا يوجد ذكر لفلسطين أو لشعارات من مثل من النيل إلى الفرات أو أرض بلا شعب لشعب بلا أرض. ولا يتعرض حكيم حكماء صهيون إلى واحدة من أهم معالم المؤامرة الصهيونية اليهودية وهي ضرورة التحالف مع الدول الكبرى وإنشاء جماعات ضغط داخلها. وكل هذا يدل على أن كاتب البروتوكولات لم يكن على علاقة كبيرة بالجماعات اليهودية سواء في روسية أو خارجها أو بالمخططات الصهيونية.

وإذا كانت الدولة الصهيونية هي فعلا نواة الحكومة اليهودية العالمية التي ستهيمن على العالم، فما هي آليات تنفيذ هذا المخطط الإجرائي؟ هل عندها من المقومات والقوة الذاتية ما يجعلها قادرة على تغيير موازين القوى لصالحها ضد صالح الولايات المتحدة وأوربة والصين واليابان والهند؟ هل يمكن للرأسماليات

الغربية الشرسة أن تترك اليهود يسيطرون على أسواق العالم؟ وماذا يدعونا لتصديق هذه الادعاءات حتى لو كان مصدرها اليهود أنفسهم؟

ولكن رغم هذا التعارض بين **البروتوكولات** والرؤية الصهيونية فإن الباحث المدقق سيكتشف أنه تعارض ظاهري وحسب. فالرؤية الاختزالية التآمرية لليهود التي تشكل الإطار المرجعي للبرتوكولات لا تختلف في أساسياتها مطلقاً عن الرؤية الاختزالية الصهيونية لليهود. فكلا الفريقين يرى اليهود من خلال رؤية واحدية بسيطة ساذجة، تقوم بتبسيط دوافعهم ووجودهم في التاريخ إذ إنها تسقط عنهم زمنيتهم وتركيبيتهم وإنسانيتهم. فبدلاً من رؤية أعضاء الجماعات اليهودية جزءاً من تواريخ بلادهم وحضاراتهم، فإنها تنظر إليهم كياناً واحداً متماسكاً فريداً وشعباً واحداً له جوهر واحد يتحرك داخل تاريخه اليهودي الخاص بمعزل عن المجتمعات التي يعيشون فيها. فاليهود بسبب خصوصيتهم من الصعب أن يندمجوا في الشعوب الأخرى. وبسبب هذا الاتفاق بين الفريقين نجد أن كلاً من التآمريين والصهاينة يتحدثون عن الشعب اليهودي عبر التاريخ وعن الشخصية اليهودية في كل العصور وعن العبقرية اليهودية في كل زمان ومكان وهكذا. كما أن البروتوكوليين يتفقون مع الصهاينة فيما يمكن تسميته الاستمرار اليهودي أي أن اليهود كيان بشري، ظل كياناً بشرياً متماسكاً وكأن ثمة استمرارية تاريخية بين يهود بابل قبل الميلاد ويهود الولايات المتحدة في العصر الحديث، وبين يهود خيبر أيام الرسول عليه الصلاة والسلام ويهود الصين في القرن الثاني عشر.

ويقدم كلا الفريقين تصوراً لليهود كياناتٍ بسيطة، دوافعها بسيطة، وغاياتها بسيطة، أعضاء الشعب اليهودي هذا، حسب رؤية البرتوكوليين والصهاينة، لا يشعرون بالانتماء لأوطانهم، إذ إنهم أينما وجدوا يحنون لصهيون ويدينون لها وحدها أو لحكومتهم اليهودية أو لشعبهم اليهودي بالولاء، ومن ثم فاليهودي عادة ما يعاني من ازدواج الولاء ولا يشعر بالاستقرار في وطنه، ونتيجة لهذا يصبح شخصية مريضة لا تخضع للقوانين الإنسانية العامة، يقاوم الاندماج في الأغيار ويقع ضحية فريدة لعنفهم، ولذا لابد أن يخرج اليهودي من البلد الذي يقطن فيه.

وهذه الرؤية تدحضها حقائق الواقع الفعلي. فالغالبية العظمى من يهود العالم لا تزال تعيش خارج دولة إسرائيل، التي تدعي أنها دولة اليهود، ومعدلات اندماج

اليهود في مجتمعاتهم، خاصة الأوربية، مرتفعة للغاية، وهو الأمر الذي دفع بعض الكتاب الصهاينة وغير الصهاينة إلى الحديث عن ظاهرة موت الشعب اليهودي أي اختفائه. والخلاف الوحيد بين البروتوكوليين والصهاينة لا يوجد في التشخيص أو في الوصف أو في المنطلقات أو المسلمات ولا حتى في الحل وإنما في آليات الحل وحسب، أي أن الاختلاف بينهم اختلاف إجرائي بسيط وليس كلياً وشاملاً، فكلا الفريقين يطرح حلاً بسيطاً لمشكلة الكيان اليهودي المتماسك الفريد الذي يرفض الاندماج، ألا وهو ضرورة خروج اليهود من أوطانهم. ولكن بينما يرى البروتوكوليون وأعداء اليهود أنه لا مناص من استخدام العنف في هذه العملية (من طرد وإبادة)، فإن الصهاينة يرون أن الحركة الصهيونية يمكنها أن تشرف على عملية الخروج هذه بطريقة منهجية منظمة، فلا يوجد أي مبرر للعنف.

ومما لا يعرفه كثيرون أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم عارضوا الفكرة الصهيونية والحركة الصهيونية لأنهم أدركوا الكره والعنصرية الكامنة وراءهما. فعندما ظهرت الصهيونية، أول ما ظهرت على المسرح السياسي الدولي، كانت الاستجابة اليهودية لها أبعد ما تكون عن الترحيب، وقد جاء في **موسوعة الصهيونية وإسرائيل** أن المنظمات اليهودية الرئيسية قد اتخذت من الصهيونية موقفاً معارضاً أو موقفاً غير صهيوني، أي غير مكترث بالصهيونية. ومن المعروف أن المعارضة اليهودية اضطرت القيادة الصهيونية لنقل مقر انعقاد المؤتمر الأول (١٨٩٧) من ميونخ إلى بازل.

- **أسباب شيوع البروتوكولات**

أحرزت **البروتوكولات** شيوعاً واضحاً في العالم الغربي في البداية، ثم في العالم العربي حتى الآن. وقد أحرزت **البروتوكولات** شيوعاً في العالم الغربي للأسباب التالية:

١- البروتوكولات تعبير عن إحساس الإنسان الأوربي بأزمته، وبعد تفكك المجتمع التقليدي الذي كان يوفر له قدراً كبيراً من الطمأنينة، حتى وإن سلبه حريته وفرصه في الحراك الاقتصادي. فالمجتمع الذي يحاول اليهود فرضه على العالم، حسبما جاء في **البروتوكولات**، ليس عالماً شريراً بشكل شيطاني ميتافيزيقي، وإنما هو في الواقع العالم الغربي الصناعي الذي سادت فيه قيم العلمانية والنفعية.

٢- لهذا السبب تجمع البروتوكولات بين الرأسمالية والاشتراكية نظامين يبشر بهما اليهود، كما كان الجمع بين نتيشه وماركس هما فيلسوفين يبشر اليهود بفكرهما. فبرغم الاختلافات العميقة بين النظامين المذكورين، والاختلاف بين الفيلسوفين، فإن العامل المشترك الأعظم (أو نقطة البدء أو التلاقي) هو تأسيس مجتمع علماني يستند إلى قيمتي المنفعة واللذة لا إلى القيم الدينية الأخلاقية المطلقة.

٣- مما ساعد على تعميق هذه الرؤية وجود أعضاء الجماعات اليهودية في مختلف القطاعات الاقتصادية والاتجاهات السياسية، شأنهم في ذلك شأن أعضاء أية أقلية أخرى، فكانت توجد أعداد كبيرة من كبار المموِّلين الرأسماليين اليهود، كما كان كثير من أعضاء الجماعات اليهودية يشتغلون بالتجارة الصغيرة والربا، وكان من بينهم عدد كبير من المفكرين الليبراليين بل والرجعيين الذين يدافعون عن حرية التجارة وعن أكثر الأفكار الداروينية الاجتماعية تطرفاً. بل ونجد أن بعض اليهود ارتبطوا بالتجارب الاستعمارية الغربية غير الصهيونية كما حدث في جنوب إفريقية (في صناعة التعدين)، أو في شركة الهند الشرقية الهولندية، أو في شركة قناة بنما. كما تركَّز أعضاء الجماعات اليهودية بأعداد كبيرة في قطاعات اقتصادية مشينة مثل البغاء (قوادين وعاهرات) ونشر المجلات والمطبوعات الإباحية. وقد ربط هذا بين اليهودي من جهة وكلٍّ من «اليمين» و«التحلل الرأسمالي» و«التفكك الليبرالي» من جهة أخرى.

ولكن، إلى جانب ذلك، كانت هناك أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية في حركة اليسار أيضاً: فقد كان أكبر حزب اشتراكي في أوربة هو حزب البوند اليهودي. وقد انخرط الشباب اليهودي بأعداد كبيرة في الحركات الثورية، حتى إن ٣٠٪ من أعضاء الحركات الثورية في روسية القيصرية كانوا من الشباب اليهودي. وحينما قامت جمهورية بلشفية في المجر عام ١٩١٩، كان رئيس الدولة يهودياً، وكان عدد اليهود من الوزراء كبيراً لدرجة مدهشة، وكانت هناك أعداد كبيرة من المفكرين الاشتراكيين والشيوعيين من أصل يهودي. كما كان لليهود حضور واضح في الفكر الفوضوي. وفي نهاية الأمر، كان كل من روتشيلد رمزاً للارتباط العضوي بين اليهود والرأسمالية، وماركس رمزاً للارتباط العضوي أيضاً

بين اليهود والاشتراكية. ولذا، كان من الممكن تفسير كل شيء بالرجوع إلى مقولة «يد اليهود الخفية».

٤- شهد نهاية القرن التاسع عشر عصر الهجرة اليهودية الكبرى، ولذا كان هناك يهود في كل مكان، يهود لا جذور لهم في طريقهم من شرق أوربة إلى الولايات المتحدة. وكما هو معروف، فإن الإنسان المهاجر المتنقل لا يلتزم بكثير من القيم.

٥- ومما ساعد على إشاعة هذا الأنموذج التفسيري الساذج أن الوجدان المسيحي كان يجعل من اليهودي قاتلِ الرب رمزاً لكل الشرور.

لكل الأسباب السابقة أصبح اليهودي رمزاً متعيناً لعملية ضخمة لم يكن الإنسان الأوربي يفهمها جيداً رغم شقائه الناجم عنها، وهي الثورة العلمانية الشاملة الكبرى (بشقيها الاشتراكي والرأسمالي)، وهي ثورة لم يكن اليهودي يشكل فيها سوى جزء بسيط من كلٍّ ضخم مُركَّب. بل إن العقيدة اليهودية ذاتها سقطت ضحية هذه الثورة، وفقدت قطاعات كبيرة من الجماعات اليهودية هويتها نتيجةً لها.

أما انتشار **البروتوكولات** في العالم العربي فيعود للأسباب التالية:

١- حينما ظهر اليهودي في العصر الحديث على شاشة الوعي العربي والإسلامي، فإنه ظهر داخل التشكيل الإمبريالي الغربي، وجاء إلى بلادنا ممثلاً له حاملاً لواءه وعميلاً له. وقد قامت هذه الإمبريالية بغرسه غرساً وسطنا داخل إطار الدولة الوظيفية ليقوم على خدمة مصالحها بعد أن اقتطعت جزءاً من الوطن العربي الإسلامي، يقع في وسطه تماماً ومن ثم يقسمه قسمين، وهي منطقة لها دلالة دينية خاصة إذ تضم القدس والمسجد الأقصى.

٢- حينما دخل المستعمر بلادنا عام ١٨٨٢ ووصل المستوطنون الصهاينة إلى فلسطين، وكنا نسميهم «العصابات الصهيونية» و«إسرائيل المزعومة» و«شذاذ الآفاق»، فإذا بهذه العصابات والشراذم تؤسس دولة على أرض فلسطين الطاهرة وتأخذ في التوسع وتلحق بنا الهزائم. وقد فشلنا، في بادئ الأمر، في تفسير هذه الهزائم.

٣- قامت الدولة الصهيونية تعبيراً عن مشروع استيطاني إحلالي، ولذلك فإن عليها أن تلجأ إلى الحد الأقصى من العنف لتتخلص من السكان الأصليين، بما في ذلك الإبادة والطرد والعزل. وقد سمت هذه الدولة نفسها «الدولة اليهودية» فربطت بين اليهودي والعنف والإرهاب.

٤- الأسوأ من هذا كُلِّه أن هذه الدولة ادعت أنها تتحدث باسم كل يهود العالم أينما كانوا، ومن ثم فهي تتحدث باسم يهود البلاد العربية، بل وتطالب بالتعويضات باسمهم، فكأن الدولة الصهيونية تنكر أن أعضاء الجماعات اليهودية مواطنون في بلادهم، وتدعم الصورة الإدراكية العرقية أن اليهودي لا انتماء له وأنه يدافع عن مصالحه اليهودية وحسب.

٥- قامت الإمبريالية الغربية بتحويل يهود البلاد العربية إلى عنصر وظيفي استيطاني يدين لها بالولاء. وشهدت الجماهير العربية أعضاء الجماعات اليهودية وهم ينسلخون تدريجياً من التشكيل الحضاري العربي والإسلامي. فعلى سبيل المثال، أصبح كل يهود الجزائر مواطنين فرنسيين، واستفاد يهود مصر من الامتيازات الأجنبية وحصلت نسبة مئوية كبيرة منهم على الجنسيات الأجنبية. وقد دعم هذا من صورة اليهودي أجنبياً وغريباً ومغتصباً ومتآمراً وعميلاً وشخصاً لا انتماء له يبحث عن مصلحته اليهودية.

٦- من الملاحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي يوجدون بشكل واضح في الحركات الشيوعية العربية (شأنهم في هذا شأن أعضاء الأقليات في كثير من المجتمعات). كما لوحظ أن عدداً كبيراً من الرأسماليين ممن راكموا ثروات ضخمة هم أيضاً من أعضاء الجماعات اليهودية. ولعل وجود أعضاء الجماعات اليهودية في كل من الحركات الشيوعية والطبقة الرأسمالية قد دعم صورة اليهودي اللامنتمي أو المنتمي لمصالحه اليهودية، ودعم فكرة المؤامرة اليهودية.

٧- من الأمور التي رسخت فكرة المؤامرة والهيمنة اليهودية على العالم في الوجدان العربي، الدعم الغربي للتجمع الصهيوني بغير تحفظ أو شروط أو حدود أو قيود، وهو دعم سياسي واقتصادي وعسكري. ويفترض كثير من العرب أن العالم الغربي عالم عقلاني، تتخذ فيه القرارات بشكل

رشيد يخدم مصالح الدولة، وأنه عالم ديمقراطي تنتشر فيه مثل العدل والمساواة وحقوق الإنسان. ولذا، فإنه حين يقوم الغرب العقلاني الديمقراطي بتأييد ودعم مشروع غير عقلاني غير ديمقراطي يستند إلى ديباجات غير عقلانية غير ديمقراطية، واستبعادية عنصرية، ويتسم بضيق الأفق وينكر على الفلسطينيين أبسط حقوقهم، فإن هذا أمر غير مفهوم ويصعب تفسيره، إلا بالعودة إلى أفكار مثل هيمنة اليهود على الإعلام وآليات صنع القرار في الغرب عامة، وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص.

٨- يتحدث العالم الغربي عن فصل الدين عن الدولة ولكنه في ذات الوقت يدعم الدولة اليهودية بأساطيرها التوراتية والتلمودية، ويتحدث عن دعمه لها انطلاقاً من التراث اليهودي - المسيحي وعن مشروعية عودة اليهود إلى فلسطين على أنها أرض أجدادهم بعد غياب عدة آلاف من السنين (وذلك في الوقت الذي ينكر فيه هذا الحق على الفلسطينيين) استناداً إلى الوعد الإلهي الذي منح لليهود أو الذاكرة التاريخية اليهودية أو ما شابه من أسباب ذاتية ما أنزل الله بها من سلطان.

٩- اهتمام الغرب المحموم بالإبادة النازية لليهود (التي مضي عليها ما يزيد على ستين عاماً) والإصرار على الاستمرار في تعويض الضحايا وتقديم الاعتذار لهم. والتعبير عن الندم عما بدر من الألمان وغيرهم قد يكون أمراً محموداً في حد ذاته (فهو في نهاية الأمر تعويض لفئة من ضحايا الحضارة الغربية)، إلا أن هذه الظاهرة المحمودة في حد ذاتها تثير الشك حين يلاحظ المواطن العربي والمسلم أن سلسلة كاملة من المذابح قد ارتكبت منذ الخمسينيات حتى منتصف التسعينيات (الجزائر- فيتنام- البوسنة- الشيشان) معظمها في العالم الإسلامي وتم التزام الصمت تجاهها ولم يتحدث أحد عن تعويض أو اعتذار أو توبة أو ندم! هذا في الوقت الذي تستمر فيه الآلة الإعلامية الغربية في التركيز على الهولوكوست دون غيرها.

١٠- الزعم الغربي بأن فلسطين في الشرق العربي قدمت لليهود تعويضاً لهم عما حدث لهم في ألمانية (في العالم الغربي)، هو أمر يصعب فهمه.

كل هذه الظواهر تثير التساؤلات في نفوس الناس الذين يعجزون عن تفسيرها. ولأنهم لا وقت عندهم للبحث والاستقصاء، فإنه تظهر الإجابات الاختزالية السهلة. ولعل صيغة المؤامرة اليهودية صيغة تملك مقدرة هائلة على سد الهوة التي تفصل عقلانية الرؤية الغربية المفترضة عن لاعقلانية الممارسة الغربية. وما لم يخطر ببال هؤلاء أن عقلانية الغرب ودفاعه عن حقوق الإنسان ليسا مطلقين، وأنهما لا ينصرفان لحقوق الإنسان العربي أو المسلم على سبيل المثال، وأن العقلانية تدور في إطار المصالح الاستراتيجية الغربية التي تم تحديدها بطريقة ليست بالضرورة عقلانية وإنما من خلال مقولات قبلية متمركزة حول الغرب معظمها عنصري.

هذه هي بعض الأسباب التي أدت إلى هيمنة الرؤية التآمرية على إدراكنا لليهود في العالم العربي وإلى ذيوع البروتوكولات وغير ذلك من كتابات عنصرية تهدف إلى تفسير الواقع بشكل سريع، سهل، وإلى تفريغ شحنة الغضب عند كثير من العرب، وإلى تبرير هزيمتنا أمام أنفسنا بأن ننسب لعدونا قوة خارقة وسيطرة لا حدود لها. ولكن التفسيرات الاختزالية السهلة وتفريغ شحنة الغضب أمور مختلفة عن التفسير العقلاني المركب، والمطلوب هو أن نفهم أسباب الغضب وأن نفسر الظاهرة الصهيونية ونحاول استثمار فهمنا وإدراكنا في إطار مشروع نضالي إنساني يهدف إلى تصفية الجيب الاستيطاني الصهيوني ولا يسقط في العنصرية العمياء.

على أننا رغم كل التحفظات السابقة، لا يمكن أن ننكر وجود مؤامرات، ولكن مثل هذه المؤامرات لا يمكن فهمها إلا في إطار مخطط، والمخطط هو جزء من توجه استراتيجي عام يمكن فهمه وتحليله وإدراك أبعاده، فهو يعبر عن نفسه من خلال أنماط متكررة، ولهذا يمكن التصدي له. أما المؤامرة فهي خطة سرية يحيكها بعض الأفراد في غرفة مغلقة ثم يضعون نصوصها في كتاب سري صغير يقومون على تنفيذه.

ولنضرب مثلاً بالمخطط الاستراتيجي العام للاستعمار الغربي منذ منتصف القرن التاسع عشر وهو تحويل العالم إلى مادة استعمالية توظف لصالح العالم الغربي. وقد عبر هذا المخطط الاستراتيجي العام عن نفسه في العالمين العربي

والإسلامي من خلال خطة تقسيمه لإضعافه، فهو كتلةٌ متماسكةٌ أو شبه متماسكة من الصعب استغلاله وتسخيره لصالح الغرب طالما ظل متماسكاً. وفي إطار هذا المخطط تم ضرب تجربة محمد علي التحديثية (بشكل علني) وانطلاقاً من المخطط نفسه، تم توقيع اتفاقية سايكس بيكو لتقسيم العالم العربي (بشكل سري). وفي الإطار نفسه، يمكن أن نصنف حرب ١٩٤٨ جزءاً من الاستراتيجية الصهيونية العامة. كما أن حرب عام ١٩٥٦، المفهومة في إطارها الاستعماري العام، تمت بشكل تآمري، فقد تم الترتيب لها سراً بين دول العدوان الثلاثي ثم قيل إن الحرب كانت للدفاع عن قناة السويس.

وفي المقابل يمكن التساؤل: هل كانت حرب ١٩٧٣ مؤامرة من جانبنا أم كانت مفاجأة عسكرية يمكن فهمها تماماً في إطار نمط متكرر ومخطط معروف وهو أن الشعوب التي تحتل أراضيها تتحين الفرص فتهب ضد المستعمرين الغزاة؟ وقل الشيء نفسه عن علاقة الولايات المتحدة بأمريكة اللاتينية، فهي علاقة هيمنة صريحة تعبر عن نفسها في العقيدة الأمنية الأمريكية ويتم ترجمتها إلى واقع من خلال فرض حصار اقتصادي على كوبة ممتد لعشرات السنين بشكل علني أو إسقاط نظام الليندي المنتخب ديمقراطياً في شيلي وإحلال الجزار بينوشيه محله بشكل تآمري. والجيب الصهيوني لا يشكل استثناء، فهو يقوم بالعدوان الصريح الواضح ويحيك المذابح الصريحة الواضحة، ولكنه يلجأ أيضاً إلى التآمر داخل المخطط الاستراتيجي العام. فالكل والغاية هو المخطط الواضح الصريح، والمؤامرة هي الجزء والوسيلة.

الفصل الخامس عشر

ولكنه ضحك كالبكاء

- **زراعة الخضار في الماء... وأعاجيب إسرائيل الأخرى**

جاء في أحد الكتب العلمية الأجنبية (غير اليهودية) أن الإسرائيليين أسسوا حديقة حيوانات في تل أبيب تُعرض فيها الحيوانات «اليهودية» التي ورد ذكرها في التوراة. ورغم معرفتي الواسعة نسبياً (الآن) بالعقلية الصهيونية، فلابد من الاعتراف بأنني تعجبت كثيراً. ويحق لي أن أتعجب؛ فأنا لا أتخيل أي مصري أو عربي قادراً على أن يقترح أن نضع في حديقة حيوانات الجيزة حيوانات عربية أو إسلامية أو مسيحية وحسب. وحتى التسمية نفسها غبية ونشاز، فالحيوانات لا وطن لها ولا جنس، لأن الوطن فكرة إنسانية تاريخية؛ أما الدين فهو من نعم الله على الإنسان إذ إنه عز وجل عرض الرسالة على جميع الكائنات الطبيعية فأَبَيْنَ أن يحملنها وحملها الإنسان، ولهذا نجد أنه من العسير علينا أن نتخيل جملاً مسلماً أو زرافة قبطية أو حصاناً يهودياً مهما بلغ بنا الشذوذ مبلغه. ولكن العقلية الصهيونية الإسرائيلية فريدة وفذة - كما يدَّعي الصهاينة - فدرجة عبادتها لذاتها وتمركزها على هذه الذات لم يسبق لها مثيل، أو فلنقل - كي نتوخى الدقة - إنها ليس لها مثيل في العصر الحديث. فعبادة الذات الجماعية (القبلية أو القومية) هي إحدى سمات عقل الإنسان في مرحلة انتقاله من الطبيعة والفطرة إلى التاريخ والحضارة. ولعل الصهاينة على حق حين يتحدثون عن «البقاء» و«الاستمرار» اليهوديين، إذ أبقى العقل الصهيوني على نمط التفكير البدائي؛ واستمر في هذه الطريقة رغم كل

ما حدث من تقلبات وتبدلات وتحولات. لكن لابد من التنبيه إلى أن الاستمرار يختلف عن التكرار، فالأول يتضمن التغير والتقدم أما الآخر فلا يتضمن سوى الدوران الممل حول الذات.

والإنسان البدائي غير قادر على رؤية الواقع من حوله، إذ إنَّ كل شيء هو امتداد لذاته (تماماً كالطفل الذي يتصور أن كل شيء، بما في ذلك أمريكة ويهود الدياسبورا بل والعرب، في خدمته). وحينما يكتب الإنسان البدائي تاريخه، بكل ما فيه من هزائم وانكسارات، فإنه يحوله إلى أسطورة تفوق وانتصار، أي أن التاريخ، مصدرَ الخبرة للإنسان، يصبح بالنسبة إليه مصدراً لتأكيد عبادته لذاته.

والواقع أن هذا التمركز البدائي حول الذات هو إحدى سمات العقلية الصهيونية. وقد حاولت اليهودية الإصلاحية أن تهدم جدار الجيتو وأن تطرح تصوراً إنسانياً رحباً لليهودية، ولكن الصهيونية قضت على هذه المحاولة وشيدت دولة إسرائيل بمساعدة الإمبريالية العالمية، وذلك لتصبح هذه الدولة، من وجهة النظر الصهيونية، بمنزلة المركزَ اليهودي الذي يشع قيماً يهودية صافية تساعد يهود الدياسبورا على عدم الاندماج أو الذوبان في المحيط البشري الذي أحاط بهم، أي أن إسرائيل هي جيتو الروح اليهودية. ولعل أهم ترجمة محسوسة لهذه العقلية الجيتوية هو حائط بارليف المعروف بخط بارليف، حيث قبع الإسرائيليون خلف حاجز مائي وآخر ترابي داخل أربعة حوائط ممسكين بالسلاح ينظرون عبر النوافذ الضيقة، على جنود مصر الجالسين في الشمس على الضفة الأخرى من القناة (وعلى الجنود السوريين على الجبهة السورية)، متصورين أن داخل الجدران الأربعة يوجد السلام والأمن والفردوس وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان. وقد سقط خط بارليف، ولكن الصهاينة يحاولون الآن بناء سور على الأراضي الفلسطينية لحماية الأراضي المحتلة قبل عام ١٩٦٧.

وقد يقال إنني أحاول أن أحمِّل الرموزَ والوقائع أكثر مما تحتمل وإن حديقة تل أبيب للحيوانات التوراتية قد دعت لها ضرورات عملية (فلا مانع من وجهة نظر التجار والسماسرة العمليين من استخدام الدين لجلب السواح الأجانب). ولكن ماذا يمكنني أن أفعل فيما يسمى «سنة شميطاه»، هذه المناسبة القومية/ الدينية التي تحتفل بها إسرائيل آخر أيلول (سبتمبر) من كل عام؟

و«سنة شميطاه» مناسبة دينية لا يعرفها كثير من يهود الدياسبورة (المنفى) لارتباط شعائرها بالأرض المقدسة، فقد جاء في سفر اللاويين أن الرب يأمر شعبه أن يزرع الأرض المقدسة ست سنوات على أن يريحها في السنة السابعة (وكلمة «شميطاه» العبرية تعني «إراحة الأرض»). وكل ما ينمو على الأرض في هذا العام السابع يصبح ملكاً مشاعاً للجميع يحرم الاتجار فيه، كما تصبح كل الديون وكأنها قد وُفيت ودُفعت (الديون اليهودية فقط بطبيعة الحال).

ولأن التفكير البدائي تفكير ذاتي فهو يتخذ شكلاً هندسياً متسقاً مع نفسه تمام الاتساق (بغض النظر عن تحديات الواقع والتاريخ)، فإذا كان الأسبوع يتكون من ستة أيام عمل ويوم راحة، فالأرض تصبح مثل الإنسان تعمل هي الأخرى ست سنوات وتستريح أو تُراح في السنة السابعة (ولذلك يطلق على سنة شميطاه اسم «السنة السبتية» أو «سنة الراحة»). ثم يتسع الاتساق الهندسي ليشمل دورات زمنية أوسع فتكون كل سبع دورات وحدة أكبر (مكونة من ٤٩ عاماً) يعقبها الاحتفال في السنة الخمسين بالسنة اليوبيلية أو سنة اليوبيل (نسبة إلى «يوفل» أو النفير). والسنة الخمسون هي سنة شميطاه «مفتخرة» إن صح التعبير، إذ كان من المفروض أن يُحرر فيها كل العبيد (اليهود فقط بالطبع) وأن تُعاد الأراضي المرهونة والمشتراة لأصحابها الأصليين (فالقانون اليهودي القديم لا يعترف بحق الملكية عن طريق الإرث مما يشير إلى الجذور القبلية والمحافظة لهذا القانون).

ولا شك أن الدافع وراء الاحتفال بسنة شميطاه دافع ديني/ قومي، فهو من ناحية تنفيذ لكلمة الرب وتعبير عن الإيمان بأن الأرض هي ملكه وحده يهبها من يشاء، ولكن الاحتفال من ناحية أخرى هو تأكيد للرابطة العميقة التي تربط اليهودي بالأرض المقدسة. كما أنه ينطوي على إسقاط لحق أي إنسان في امتلاك هذه الأرض حتى ولو كان فلسطينياً عاش فيها مئات السنين. ولأن الخالق في الوجدان اليهودي الصهيوني يصطبغ بصبغة قومية يهودية، فإن ملكيته للأرض هي في الواقع تأكيد لملكية اليهود الأزلية لها. وهكذا نجد أن الدافع الديني الروحي هو ذاته الدافع القومي، بل إن الدافع الديني ما هو إلا وسيلة لإضفاء طابع أزلي مقدس على أوهام اليهود القومية.

وتأخذ سنة شميطاه في الاتساع إلى أن تشمل الزمان كله فتصل إلى «سبت التاريخ» أي نهايته حين تستريح الأرض كلها ويأتي الماشيح ليقود شعبه بأسره لأرض الميعاد، وهكذا تظل الدائرة في الاتساع إلى أن تبتلع الزمان والمكان كليهما.

ولكن الاتساق الهندسي الذاتي البسيط يتعارض دائماً مع جدل التاريخ المركب. وكانت أول مشكلة واجهها اليهود القدامى أن نسقهم الهندسي رغم روعته وصفائه ينتج عنه أن سنة اليوبيل يسبقها سنة شميطاه أي أن الأرض ستُراح عامين متتاليين مما قد يسبب مجاعة للمؤمنين والأتقياء، ولذلك أفتى بعض علماء اليهود بأن طقوس سنة اليوبيل لا تتحقق إلا بعودة جميع اليهود من الشتات، أما بالنسة إلى يهود الشتات (وهم الغالبية العظمى لليهود عبر التاريخ) فقد أفتى علماؤهم أن أحد أسباب نفيهم في كل بقاع الأرض هو عدم إقامة شعائر سنة شميطاه، وهكذا أراح اليهود أنفسهم من عناء المأزق الديني الهندسي المستحيل الذي أوقعوا أنفسهم فيه.

ولكن الإسرائيليين، حملةَ مشعل اليهودية في العصر الحديث، يعيشون على الأرض المقدسة شخصياً، ولذلك فإن الخروج من المأزق الهندسي لا يمكن أن يتم بالسهولة واليسر نفسيهما. ولذلك فقد أصدر بعض الحاخامات، ومن بينهم الحاخام الصهيوني إسحاق كوك، فتوى في أوائل هذا القرن مفادها أن على القاطنين في أرض الميعاد أن يبيعوها (بشكل دوري) لبعض أفراد الجوييم (الأغيار) وبذلك تصبح الأرض غير يهودية، وبناءً عليه يمكن للشعب المقدس أن يقوم بزراعتها وحصدها والاتجار فيها والمضاربة عليها والإتيان بكل المحرمات التي تقضُّ مضجع المؤمنين تحت الظروف العادية قبل أن يتم هذا البيع الصوري المقدس (وهذا يشبه من بعض الوجوه الفتوى الخاصة بضرورة بيع تذاكر مباريات كرة القدم التي تُجرى يوم السبت في اليوم الذي يسبقه لأن العمل محرم يوم الراحة، فيذهب الإسرائيليون إلى المباراة يوم السبت مستريحي الضمير هادئي البال).

ورغم أن عادة بيع الأرض هي العادة السائدة في إسرائيل، فإن ثمة فريقاً من المؤمنين يرفض هذه الحلول التوفيقية التلفيقية، ولهذا يقومون بتسخير العلم في

خدمة رؤيتهم الحرفية، فيبذلون كثيراً من المحاولات لزراعة الخضار في الماء، وليس في اليابس، وهكذا يحل الاتساق الهندسي السائل العصري محل الاتساق الهندسي الصلب القديم.

ولكن ليس كل الأتقياء الإسرائيليين على هذه الدرجة من الخبث والتحايل العلميين، فبعضهم لا تزال به بقية من الصلابة القديمة، كما هو الحال مع اليهود الأرثوذكس في موشاف (مزرعة جماعية «كوميميوث» في جنوب إسرائيل التي أسسها بعض المحاربين القدامى عام ١٩٤٩ (وفي كل مكان في إسرائيل نجد بصمات الجيش الإسرائيلي). يحاول سكان هذه الموشاف أن يطبقوا تعاليم التوراة بحذافيرها، إذ إنهم يصدرون عن الرؤية التوراتية الخاصة بالنخبة: من الأفضل أن يكون هناك قلة مؤمنة مخلصة على أن تكون أكثرية غير مؤمنة. ماذا تفعل إذن هذه النخبة الصالحة في سنة شميطاه؟ الأمر بسيط للغاية.. إنهم يأتون بالمعجزات من مثل تلك التي كانت تحدث في سالف الزمان. جاء في سفر اللاويين أن الإله سيبارك المحصول في العام السادس فتنتج الأرض غلة تكفي لثلاث سنين «فتزرعون السنة الثامنة وتأكلون من الغلة العتيقة إلى السنة التاسعة». وبناءً عليه، لاحظ علماء الموشاف المشار إليها أن محصول القمح ومحصول الموالح في العام السادس في إسرائيل (١٩٧١-١٩٧٢) زادت بنسبة ١٠٠٪ أحياناً.

وقد فسر الأشرار الذين يسيطرون على وزارة الزراعة الإسرائيلية هذه الظاهرة على أنها ناتجة عن تحسين الوسائل المختلفة للزراعة، ولكن الموشافيين الأرثوذكس كانوا على يقين من أن الزيادة في المحصول القومي هي دعوة ربانية للشعب الإسرائيلي كُلِّهِ أن يقيم الشعائر الدينية الخاصة بشميطاه. أما المحاصيل الزراعية للموشاف الأرثوذكس ذاتها فقد حققت زيادة تبلغ ٣٠٠٪ - تماماً كما جاء في العهد القديم. هذا وقد زار مزرعتهم ممثلون للوكالة اليهودية ليتحققوا من هذه الظاهرة ولكنهم لم يجدوا أي «سبب طبيعي» لهذه الزيادة العجائبية. وترى المعجزات التي يعجز القلم الضعيف الكليل عن حصرها: فهناك معجزة الشجرة المحتضرة التي عادت لها الحياة في سنة شميطاه، وهناك أيضاً البذور المتعفنة التي أصبحت صالحة بعد شرائها لاستخدامها في سنة شميطاه، وهناك كذلك واقعة الآفات الزراعية التي هاجمت كل الحقول الإسرائيلية اللادينية ولكنها لم تهاجم مزرعة موشاف «كوميموث» التقيّة في سنة شميطاه.

ورغم إيمان الموشافيين الأتقياء بالمعجزات فهم يحرصون من جانبهم على مساعدة العناية الإلهية. ففي بعض الأحيان يقومون بنشاطات مختلفة من مثل تخزين الحبوب (ولكن لماذا لا يحاولون الزراعة داخل الثلاجات الكهربائية، على أنها ليست جزءاً من الأرض المقدسة وإنما تتبع جمهورية جنرال إلكتريك ذات الحدود الآمنة المعقمة من الخير والشر؟). ويلجأ الموشافيون كذلك للزراعة في أوقات غير مناسبة وذلك حتى يمكنهم إقامة شعائر شميطاه.

ومع أن التخزين والتحايل على الدورة الطبيعية للأرض والمناخ يسببان خسائر مادية فادحة (رغم كل المعجزات الآنفة الذكر)، فإن الأتقياء يعلمون تمام العلم أن إخوانهم في الدياسبورا الذين لا يمكنهم المشاركة في إقامة الشعائر الدينية بشكل مباشر، سيساهمون في هذا العمل المجيد عن طريق التبرعات المالية. ولهذا السبب، كوَّن يهود أمريكة النشطون «صندوق شميطاه» لجمع التبرعات حتى يساهموا في شد أزر المؤمنين الذين يؤدون الفريضة التي ستعجل بعودة الماشيح. وهكذا، يرتبط السبت الأسبوعي بالسنة السبتية (بسبب التاريخ) وبعودة الشعب اليهودي لأرض الميعاد ليقبع داخل الحدود الآمنة أبد الدهر.

وهذه هي الخطة الصهيونية لحل جميع المشاكل اليهودية الحديثة: يُغرس الإسرائيلي في الشرق العربي الأوسط فيجلس في خنادق أرض الميعاد تحت خوذته المعدنية وخلف حائط الجيتو الجديد يطلق الرصاص على العرب ويحاول زراعة الخضار في الماء، أما يهود الدياسبورا فيجلسون في بابل الأمريكية أمام التليفزيون يبتلعون منتجات الحضارة الرأسمالية ويكتبون شيكات يتناسب حجمها تناسباً طردياً مع مدى تآكل ضميرهم اليهودي المندمج، وكلما زاد الاندماج زاد المبلغ.

وقد يُقال إن هذه كلها مجرد جزئيات لا تمثل الحياة في إسرائيل، وهي بلد علمي متقدم. ولكن الدارس للصهيونية، وهي الأيديولوجية المسيطرة على إسرائيل، يعرف أنها بنية فكرية متسقة مع نفسها ليس لها علاقة كبيرة بالواقع التاريخي، وإنما تستند إلى مقولات العهد القديم وإلى أحلام اليهود بالعودة. فالإيمان بالارتباط الأزلي الصوفي بين اليهودي وأرض الميعاد لا يختلف من قريب أو بعيد عن الاحتفال بسنة شميطاه. وإذا كان الاحتفال بسنة شميطاه يؤدي إلى أمور مضحكة مسلية من مثل زراعة الخضار في الماء (شأنه في هذا شأن حديقة الحيوان

التوراتية)، فإن محاولة تأكيد الرابطة الأزلية بين اليهودي وأرضه أدت إلى طرد شعب بأسره وإلى تحويله إلى مجموعات من اللاجئين والفدائيين، وأدت كذلك إلى عسكرة المجتمع الإسرائيلي إلى درجة لم يعرفها أي مجتمع إنساني من قبل، بل وإلى قبوع الإسرائيليين حكومةً وشعباً، داخل حوائط بارليف الجيتوية سنواتاً ست بعد انتصار عام ١٩٦٧، ويا له من انتصار ذلك الذي يؤدي بالمرء إلى الجلوس بين جدران أربعة حتى ولو كانت مكيفة الهواء! وها هم الآن يحاولون أن يقبعوا داخل الجدار العازل!

- **الحياة في إسرائيل (خاصةً في آخر الأسبوع)**

تحيط إسرائيل المواطن الإسرائيلي بكم هائل من الرموز والطقوس الدينية، فيعيش وكأنه في معبد، فاسم الدولة ذاته تحيطه هالات القداسة فهي تسمى «إسرائيل» أي المدافع عن الرب أو الذي يدافع عنه الرب. وفي الرموز القبالية، تُسمى المرحلة العاشرة من الفيض الرباني «كنيست يسرائيل» أي جماعة يسرائيل. وإذا نظر المرء إلى العلم رأى اللون الأبيض والأزرق، أي ألوان «الطاليت» (الشال الذي يرتديه اليهودي في الصلاة)، وقد رُسم عليه رمز ديني آخر هو نجمة داوود. وعندما يحمل المواطن بطاقة تحقيق شخصية، أو حتى يتلقى خطاباً من الحكومة، تخبره فيه بضرورة دفع الضرائب المتزايدة عليه، فإنه يجد عليه «المينوراه» شعار الحكومة الإسرائيلية والتراث القبالي في الوقت ذاته.

ولا تقتصر الغيبية الإسرائيلية على الرموز وإنما تمتد لتشمل التفاصيل المختلفة لأسلوب الحياة. فعلى سبيل المثال، تحرم الشريعة اليهودية الزواج المختلط، كما أن الصهيونية ترى أن الزواج المختلط هو أهم «خطر» يتهدد اليهود واليهودية، ولهذا يكاد يكون من المستحيل عقد زواج مختلط في إسرائيل. ويواجه «المامزير» أو أبناء الزيجات المختلطة مشاكل كثيرة. ومن المعروف أن أحفاد بن جوريون يُعدون من المامزير لأن زوجة ابنه متهودة ولا تعترف المحاكم في إسرائيل بزواجها لأنه محرم حسب الشريعة.

ومن الطريف أن التحريم اليهودي ضد الزواج ليس مقصوراً على البشر بل إنه يمتد ليشمل الحيوانات والنباتات والجماد، فقد جاء في سفر اللاويين (١٩/١٩) «لا تنز بهائمك وحقلك، لا تزرع صنفين، ولا يكن عليك ثوب مصنف من

صنفين»، أي أن الانفصال بين الأجناس من جميع الأنواع يجب أن يكون صارماً وكاملاً (ولعل هذا يفسر الإصرار على نقاء الدولة الصهيونية).

ويحاول بعض المتدينين حل مشكلة تحريم الخلط بين النباتات إذ إنه يصبح من المحرم عليهم بذر أي نبات علفي مع النباتات المنتجة للحبوب لمنع النبات العلفي من الانتشار على الأرض والاختلاط بالحبوب. ولقد تم حل المشكلة عن طريق زراعة أنواع من النباتات العلفية التي لا تنتشر. وينطبق التحريم كذلك على تطعيم الأشجار من أنواع مختلفة، وقد أجريت تجارب لتخطي هذا التحريم بطريقة علمية ولكنها لم تنجح!

ولعل شعائر السبت هي من أكثر الشعائر إثارة للمشاكل في إسرائيل. وعلى سبيل المثال، فإن كثيراً من المصانع لا يمكنها التوقف يوم السبت، ولهذا يضطر صاحب المصنع لأن يشرك معه شخصاً من الأغيار (ولو بشكل صوري) حتى يمكن أن يستمر العمل في ذلك اليوم المقدس. وهنا تنشأ مشكلة العمال المتدينين، مثل هؤلاء العمال الذين يعملون طوال الأسبوع ويحصلون على إجازتهم يوم السبت. ولكن بعضهم يرفض العمل أساساً في أي مصنع يفتح يوم السبت، ولذا لا يوجد متدينون في الصناعات الثقيلة أو الخفيفة ولا في الإعلام!

ويتفاوت الإسرائيليون في اتباع تعاليم السبت من مكان لآخر حسب قوة أو ضعف الأحزاب الدينية داخل المجالس فالمقاهي تفتح أبوابها فى تل أبيب مثلاً طيلة يوم السبت على حين أنها تغلق أبوابها نهائياً في القدس. وفي بناي براك يُمنع النقل العام وتُقفل الشوارع ولا يُسمح بأي مرور، بينما تجري عمليات المرور والنقل العام في حيفا عادية للغاية كأي يوم من أيام الأسبوع. ويزيد راديو إسرائيل من إذاعة نشرات الأخبار يوم السبت مساءً حتى يستمع إليها من فاته سماعها طيلة اليوم (فالاستماع للإذاعة غير مسموح به في ذلك اليوم المقدس). كما تمنع إذاعة أنباء الموتى أو حوادث الموت في ذلك اليوم، ويُقال إن حوالي رُبع السكان يقيمون شعائر السبت كاملة. وقد قامت مناقشات حادة حول استخدام التيار الكهربائي للإضاءة إذ تناقش العلماء والفقهاء والحاخامات إذا ما كان الإبقاء على النور بدون إحداث نار يقع تحت طائلة التحريمات أم لا. ولكن، حتى في إسرائيل ذاتها، يتحايل المواطنون الأرثوذكس على هذه التحريمات، فتشيد بعض المدن

الإسرائيلية سوراً رمزياً على حدود المدينة حتى تصبح المدينة كلها وكأنها البيت وبذلك يتمكن كل مواطن من حمل ما يشاء داخل المدينة/ المنزل. وعلى الرغم من أن اليهود الأرثوذكس يمتنعون عن استخدام أي أدوات كهربائية، فإنهم يستخدمون الثلاجة الكهربائية على الرغم من أن فتحها يسبب الإضاءة الداخلية فيها، ولكن التفسير هو أن التيار الكهربائي الذي يؤدي إلى الاشتعال عرضي وليس مقصوداً. ويحاول بعض الأرثوذكس استخدام أدوات كهربائية ذات مفاتيح زمنية يتم ضبطها قبل يوم السبت.

وتستخدم بعض مزارع الكيبوتس (الدينية) الطرق العلمية/ الدينية نفسها! فمثلاً تنشأ الضرورة أحياناً لحلب الأبقار يومياً، ولكن لما كان أن هذا أمراً محرماً يوم السبت يلجأ أعضاء الكيبوتس المتدينون لاستخدام آلات الحلب. ويبدو أن السبت بالذات قد أثار كثيراً من المشاكل لمعهد التكنولوجية والهالاخاه (أو الشريعة) وهو معهد الهدف منه اكتشاف سبل تذليل الصعاب أمام تطبيق الشريعة اليهودية بحذافيرها في إسرائيل.

ونحن لا نعرف مدى مساهمة يهود الدياسبورا في معهد التكنولوجية والهالاخاه الآنف الذكر، وإن كان له صندوق جباية مستقل أم أنه يتبع النداء اليهودي الموحد أو النداء الإسرائيلي الموحد أو واحداً من آلاف الجمعيات اليهودية الخيرية التي تمول الأحلام الصهيونية الفردوسية المختلطة بالنابالم؟

- **أرض بلا شعب: منظور إسرائيلي**

رغم الحديث المستمر عن الانتصارات الإسرائيلية الساحقة، والتقدم الاقتصادي المذهل، والقوة العسكرية المتزايدة، فإن الإسرائيليين يشعرون في أعماق أعماقهم بما سماه المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالمون «عقم الانتصار». أو كما قال المثقف الإسرائيلي شلومو رايخ: «إن إسرائيل تركض من نصر إلى نصر حتى تصل إلى هزيمتها النهائية المحتومة»، وكما قال الجنرال الفرنسي بوفر الذي قاد القوات الفرنسية في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، فإنه حين ذهب يهنئ إسحاق رابين بانتصاره العسكري في يونيه ١٩٦٧ بعد انتهاء المعركة بعدة أيام، وكانت القوات الإسرائيلية المشتركة لا تزال في طريق العودة إلى قواعدها، فوجئ بأن الجنرال الإسرائيلي يقول وهو في قمة انتصاره: «ولكن ماذا سيتبقى من

كل هذا؟». فالانتصارات الإسرائيلية لم تؤد إلى الهيمنة الإسرائيلية المرجوة ولم تؤد إلى تطبيع الحالة الصهيونية الإسرائيلية، فالدولة الصهيونية لا تزال دولة/ شتتل، قلعة مدججة بالسلاح في حالة حرب نفسية مع كل جيرانها، وفي حالة حرب فعلية مع بعضهم، ولا يزال الشعب الفلسطيني يرفضها رفضاً كاملاً (ولذا، فإننا نتحدث عن «الانتشارات» الإسرائيلية بدلاً من «الانتصارات» الإسرائيلية، فهو امتداد أفقي لا معنى له في المكان وليس تطوراً رأسياً في الزمان يحدث تغييرات ذات معنى)، كما أنها في حالة اعتماد مذل على الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا كانت الدعاية الصهيونية المصقولة تتحدث عن الصابرا المتفائل المقاتل، فإن الوجدان الإسرائيلي يحكي قصة مغايرة تماماً: فهو وجدان مدرك للورطة التاريخية التي وضعت الصهيونية فيها المستوطنين الصهاينة، وهي ورطة لها أبعادها المختلفة المترابطة والمتعددة. وهذا الإحساس بالورطة يعبِّر عن نفسه أحياناً بطريقة مأساوية، وأحياناً أخرى بطريقة ملهاوية، حين يتحول الإحساس بالنكبة إلى نكتة.

والمشاكل التي يدركها الإسرائيليون تماماً هي أن فلسطين ليست «أرضاً بلا شعب» كما زعمت الدعاية الصهيونية، وأن الفلسطينيين ليسوا مجرد عرب، وإنما هم كيان محدد داخل التشكيل الحضاري القومي العربي. وهذا الإدراك يدمر شرعية الوجود الصهيوني ويسحب من تحته البساط مهما كان حجم الانتصارات التي تحققها إسرائيل ومهما كان صخب دعايتها. وحتى إن غيَّرت منظمة التحرير الفلسطينية ميثاقها لتؤكد للمستوطنين أنها لا تنوي تحطيم دولتهم الصهيونية فإن هذا لا يغيِّر الحقائق البنيوية، الحضارية والإنسانية والمادية القائمة، فالفلسطينيون هناك يقرعون الأبواب في سلام غاضب أحياناً، وأحياناً أخرى بالأحجار أو حتى بالنار، ليذكِّروا الإسرائيليين بأن كيانهم الصهيوني يستند إلى أكذوبة تاريخية.

ويقول عاموس إيلون إن الإسرائيليين «أصبحوا غير قادرين على ترديد الحجج البسيطة المصقولة وأنصاف الحقائق المتناسقة التي كان يسوقها الجيل السابق»، وذلك فيما يتعلق بأن فلسطين أرض بلا شعب. وقد عبَّر الشاعر الإسرائيلي إيلي إيلون عن هذه القضية بقوله: «إن البعث التاريخي للشعب اليهودي، وأي شيء يقيمه الإسرائيليون، مهما كان جميلاً، إنما يقوم على ظلم الأمة الأخرى. ولسوف يخرج شباب إسرائيل ليحارب ويموت من أجل شيء قائم أساساً على الظلم.. إن هذا الشك، هذا الشك وحده، يشكل أساساً صعباً للحياة».

ومن أكثر النكت دلالة تلك النكتة العبثية التي أطلقها يعقوب أجمون المسؤول عن احتفالات الذكرى الأربعين لتأسيس إسرائيل، إذ يقول: المشروع الصهيوني كله يستند إلى سوء فهم وخطأ إذ كان من المفروض أن يتم في كندة بدلاً من فلسطين. ويرجع هذا إلى تعثُّر لسان موسى التوراتي، فحينما سأله الإله أي بلد تريد كان من المفروض أن يقول على التو «كندة»، ولكنه تلعثم وقال «كاكاكا - نانانا» فأعطاه الإله «أرض كنعان» (أي فلسطين) بدلاً من كندة، فهاج عليه بنو إسرائيل وماجو وقالوا له: «كان بوسعك أن تحصل على كندا بدلاً من هذا المكان البائس، الخرب، هذا الوباء الشرق أوسطي الذي تحيط به الرمال والعرب». والنكتة هنا تعبِّر عن إحساس عميق بالورطة التاريخية وبالطريق المسدود الذي يؤدي إلى العدمية الكاملة.

ونجد الإحساس نفسه في هذه القصيدة القصيرة التي خطها مستوطن صهيوني على حائط دورة المياه في الجامعة العبرية.

ليذهب السفارد إلى إسبانية

والأشكناز إلى أوربة

والعرب إلى الصحراء،

ولنُعد هذه الأرض إلى الخالق -

فقد سبب لنا من المتاعب الكفاية

بوعده هذه الأرض لكل الناس

والقصيدة مثل نكتة أجمون تعبير فكاهي عبثي عن رفض فكرة الوعد الإلهي التي يستند إليها الخطاب الصهيوني.

وتظهر العبثية في إحساس الإسرائيليين بحالة الحرب الدائمة، كما يتضح في قصيدة الشاعر شاليف «صلاة على جرحى الحرب» حيث يخاطب الشاعر الإله قائلاً:

رب المصابين الساكنين في الجبس،

رب المصابين ممن يتنفسون الأوكسجين،

رب النفوس التي فوق أسرتها

أكياس الدم أرجوانية اللون

معلقة، ...

ومن المعروف أن التصور الصهيوني يؤكد أن الإله تربطه علاقة خاصة بالشعب اليهودي (أو كما قال بن جوريون، إذا كان الإله قد اختار الشعب فإن الشعب قد اختار الإله). ولهذا، تتسم كل المقدَّسات اليهودية بطابع قومي (وكل الظواهر «القومية»، مثل ظهور دولة إسرائيل، تحيطها هالة من القداسة في الوجدان الصهيوني). وتهدف استراتيجية الشاعر في هذه القصيدة إلى إزالة الغشاوة عن عيون الإسرائيليين وإخبارهم أن الإله لا تربطه بهم علاقة خاصة، وأنهم ليسوا شعباً مختاراً وإنما هم مثل بقية البشر تنزف دماؤهم ويحتاجون إلى نقل الدم. ومن هنا كانت الإشارات المتكررة للآلات والاصطلاحات الطبية الحديثة، ومن هنا أيضاً كان الابتهال الختامي في القصيدة الذي يختلف عن الابتهالات اليهودية التقليدية.

جل يا رب النفوس التي تعيش

ما بين عقاقير التهدئة وعقاقير التنويم

ما لا يقدر على تجليته للأرواح سواك.

ويظهر الإحساس بالورطة التاريخية في فقدان الإسرائيليين إحساسهم بالاتجاه كما يتضح في قصة ران أدليسط المعنونة أغنية الموت، أو في كلمات هذين الجندين الإسرائيليين الجالسين في الخنادق.

- هل ستسقط قنبلة،
- لقد سمعت أن الموقع البديل على طريق الإمدادات ينطوي على انتحار حقيقي .
- ماذا إذن؟ هل سنظل هكذا للأبد!
- هل جننت؟
- هل ننسحب؟

- هل جننت؟

- حرب جديدة إذن؟

- هل الموقف مجرد من الأمل إلى هذا الحد؟

- هل تعرف ماذا تريد؟

- كلا.. وأنت؟

- كلا...

- واحسرتاه.. هيا بنا نفتش عن الموقع الثانوي.

- بوم!

إن الحديث المتفلسف بين الجنديين يتخطى حدود موقفهما ليشمل وضع الإسرائيليين جملَةً. ويظهر الإحساس نفسه بالعبث وبالحركة الدائرية التي تقود الإسرائيليين من حرب إلى أخرى في قصيدة الشاعر يعقوب باسار «الحرب المقبلة»:

- الحرب المقبلة

ننشئها.. نربيها

ما بين حجرات النوم

وحجرات الأولاد..

والنعاس

آخذ في الاصطباغ بالسواد.

يرى الشاعر إذن أن الجهد الإسرائيلي مُنصَّب على استنبات زهرات حديد للحرب المقبلة «ما بين حجرات النوم/ وحجرات الأولاد».

ويتضح هذا الإحساس بالعبثية وفقدان الاتجاه عند الإسرائيليين في ظهور موضوع «الخوف من الإنجاب» في القصص الإسرائيلي. فمن المعروف أن الدولة الصهيونية تشجع النسل بشكل مهووس لا حباً في الإخصاب والأطفال، وإنما

وسيلةً لتثبيت أركان الاستعمار الاستيطاني، ولكن من المعروف أيضاً أن معدل الإنجاب في إسرائيل من أقل المعدلات في العالم. حتى إنهم فكروا في أن يعلنوا للإنجاب عاماً ينصرف فيه الإسرائيليون لإنجاب أطفال أكثر. وكان رد الإسرائيليين، كما هو متوقع، سريعاً وحاسماً وملهاوياً، إذ قال أحدهم إن على رئيس الوزراء أن يعود إلى منزله فوراً للقيام بواجبه الوطني مع زوجته. وهو واجب وطني بالفعل، فكما يقول أرنون سوفير أستاذ الجغرافية الإسرائيلي، فإن «السيادة على أرض إسرائيل لن تُحسَم بالبندقية أو القنبلة اليدوية بل ستُحسَم من خلال ساحتين: غرفة النوم والجامعات، وسيتفوق الفلسطينيون علينا في هاتين الساحتين خلال فترة غير طويلة». ومن هنا كانت الإشارة إلى المرأة الفلسطينية النفوض، التي تنجب العديد من الأطفال، بأنها «قنبلة بيولوجية». وتعود ظاهرة العزوف عن الإنجاب إلى عدة أسباب عامة (تركُّز الإسرائيليين في المدن- علمنة المجتمع الإسرائيلي- التوجه نحو اللذة... إلخ). لكن لا يمكن إنكار أن عدم الإنجاب إنما هو انعكاس لوضع خاص داخل المجتمع الإسرائيلي وتعبير عن قلق الإسرائيليين من وضعهم الشاذ دولةً مغروسة بالقوة في المنطقة. ففي قصة «الحالمة» للكاتبة بنيناه عاميت نجد أن البطلة سيطر عليها الخوف والكوابيس، فهي تحلم بالقنابل والمعارك والحرب، وحينما تسألها أمها «لماذا لا يكون لي حفيد في النهاية يا ابنتي؟» فإنها تلوذ بالصمت (والصمت هو الاستجابة الوحيدة المتاحة لكثير من أبطال القصص الإسرائيلية).

ومن القصص الإسرائيلية الطريفة قصة «العَلَمين» ليعقوب شافيت التي تعالج موضوع الخوف من الإنجاب وتدور حوادثها حول رغبة أم إسرائيلية في التخلص من الجنين، ولكن إحدى الشخصيات (العمة إيطة) تثنيها عن عزمها عن طريق الوعد والوعيد والتهديد بالفضيحة، وراوي القصة هو الطفل الذي وُلد فيما بعد، والذي يبدؤها بقوله «في أكتوبر ٤٢ أنقذت عمتي إيطة البشرية». ويذكرنا الراوي أنه في هذا اليوم كانت تدور رحى معركة العلمين (ولذلك تتخلل القصة فلاشات وصفية للمعركة والدبابات والدخان الأسود). والأم تحس بوضعها إنساناً ضعيفاً داخل هذا الإطار من الصراعات العالمية، ولذلك فهي تتساءل عن جدوى إنجاب الأطفال إذا كان مقدراً لهم أن يعيشوا حتماً داخل الحرب دون طعام حتى يقضوا. ولكن العمة إيطة تخبر الأم أنه لابد من الإنجاب من أجل البشرية، فترد عليها قائلة

«فلتلدهم البشرية إذن». والعمة إيطة شخصية ضيقة الأفق «منهكة دائماً في إلقاء موعظة أخلاقية تربوية»، «تفيض بالعزم والتصميم»، «لا تتحدث إلا لتُصدر أوامر» وهي تهاجم الأم «كأنها حيوان مفترس يهاجم دجاجة».

وفي داخل هذا العبث وفقدان الاتجاه، تسيطر السوداوية والحتمية والإحساس بأن حالة الحرب دائمة. ويظهر هذا الاستسلام الكامل في كلمات موشيه ديان في جنازة صديقه روي روتبرج الذي قتله الفدائيون الفلسطينيون. فقد قال وزير الدفاع والخارجية الإسرائيلي السابق: «إننا جيل من المستوطنين لا نستطيع غرس شجرة أو بناء بيت دون الخوذة الحديدية والمدفع؛ علينا ألا نغمض عيوننا عن الحقد المشتعل في أفئدة مئات الآلاف من العرب حولنا. علينا ألا ندير رؤوسنا حتى لا ترتعش أيدينا. إنه قدر جيلنا، إنه خيار جيلنا، أن نكون مستعدين ومسلحين، أن نكون أقوياء وقساة، حتى لا يسقط السيف من قبضتنا وتنتهي الحياة».

ومنذ بضع سنوات، لاحظ الشاعر الإسرائيلي حاييم جوري بمرارة ما سماه «مركب إسحاق» وهو أن الإنسان الإسرائيلي يُولَد «وفي داخله السكين الذي سيذبحه»، كما بيَّن جوري أن «هذا التراب (أي إسرائيل) لا يرتوي»، فهو يطالب دائماً «بمزيدٍ من المدافن وصناديق دفن الموتى»، إذ تبدو أرض إسرائيل كما لو أنها إلهة ثأر بذيئة لا مجرد قطعة أرض أو إقليم. كما لاحظ الكاتب الإسرائيلي بن عيزر أن الإسرائيليين الشباب، الذي يخدمون في الجيش، يشعرون أن أهلهم بالاشتراك مع الدولة يضحون بهم دون تعويض أو عزاء من عقيدة دينية تؤمن بالحياة بعد الموت، ولذا فهم يشعرون أن هذه الحروب هي «تضحية علمانية بإسحاق»، أي تضحية بشرية لا هدف لها ولا معنى.

ثم تظهر أساطير قومية تترجم هذا الوضع إلى بناء أيديولوجي أسطوري مُحكَم، ومن هنا ظهرت أسطورة ماساداه وشمشون. وفي كلتا الأسطورتين ثمة حالة حصار نهائية مغلقة، لا يمكن الفكاك منها إلا بتدمير الذات وتدمير الآخر، فنهايتها ليست سعيدة وإنما إبادية للجميع. ومع هذا، ورغم كل هذا الحديث عن الحصار والدمار، فإن الوجدان الإسرائيلي يتجاوز الأساطير الصهيونية المصقولة. فيشير يهوشوفاط هركابي إلى أن الإسرائيليين يميلون إلى تمجيد الوهم ويخفقون في إدراك أن الواقع مُحدَّد بحدود الممكن. ثم يشير إلى قصة صهيونية انتحارية أخرى

هي قصة بركوخبا الذي تحالف مع بعض الحاخامات فأعلنوا أنه الماشيَّح وقرروا مواجهة الإمبراطورية الرومانية دون حساب موازين القوى أو معرفة مدى قوة الرومان فيما يعرف بالتمرد اليهودي الثاني ضد الرومان (١٣٢ - ١٢٥ ق.م). وبطبيعة الحال، تم القضاء على المتمردين وعلى تمرُّدهم وعلى البقية الباقية من الوجود اليهودي الهزيل في فلسطين، أي أن النزعة الانتحارية الشمشونية هنا لم تؤد إلى القضاء على الآخر وإنما على الذات وحسب، ويُسمِّي هركابي هذا «أعراض بركوخبا»، فالنزعة الانتحارية مرض يصيب صاحبه وهي ليست بالضرورة ماساداه التي تدمر الذات والآخر.

وتتردد النزعة نفسها نحو مراجعة أسطورة ماساداه في قصيدة الشاعر حاييم حيفر التي كتبها أثناء الانتفاضة. فبدلاً من ماساداه، يتحدث عن الطائرة المروحية الأمريكية، أي تلك الطائرة التي ستأتي حينما تحين لحظة النهاية وتحط فوق سطح السفارة الأمريكية (كما حدث في فيتنام) لتأخذ فلول المستوطنين وعملاء الولايات المتحدة.

تبدأ القصيدة بالتصويت في الكنيست على الخروج الأخير.. ولذا «فلنرحل إلى أمريكة الآن/ فلقد لملمنا حقائبنا وأمانينا». ويتدافع الجميع دون نظام («لا تتزاحموا.. لكل مكانه/ عفواً لا تضغطوا هكذا»). ويتصور رئيس الوزراء عملية الخروج السريع هذه وهو يجلس في مقعده في الطائرة «ويروق له المقام/ يعلن أنه لا مكان للباقين» هنا، وكأن لسان حاله وحال وزرائه يقول «نحن ومن بعدنا الطوفان». إن الصورة السائدة هنا عكس صورة البطل الشمشوني في ماساداه الذي يهلك مع رفاقه:

وبسرعة أخذت الطائرة.. تطير

أما الدولة

فقد هُجرت

وحيدة.. تُركت.. إسرائيل.

وبعد بضعة أبيات وعظية احتجاجية ركيكة (أفلا يمكننا أن نحاول ثانيةً؟/ أم أننا لسنا مواطنين مخلصين؟) نكتشف أن الطائرة قد طارت بالوزراء والأحلام:

فإن كنا حقاً هكذا

وعليه حزمت حكومتنا لأمريكة حقائب الرحيل

فإنا جميعاً كذلك

في الرحيل إليها.. راغبون.

بعيداً عن ماساداه المتهالكة، بعيداً عن صهيون التي اشتعلت فيها النيران، إلى الولايات المتحدة الوطن القومي الآمن وربما الحقيقي.

ومثل النكت والقصائد الفكاهية تتضح رنة الحزن في الأغاني الإسرائيلية، فهي مليئة بالعدمية وبالحديث عن الدمار والفقدان والضياع والعزلة. ففي أعقاب انتصار عام ١٩٦٧ لاحظ أفنيري أن من أكثر الأغاني شيوعاً أغنية تقول وبفرح شديد «العالم كله ضدنا». والفرح هنا تعبير عن إحساس المستوطن الصهيوني بمفارقة موقفه، فهو بعد انتصاره (الذي يعبِّر عن «اختياره») يجد نفسه معزولاً عن العالم، فالأغنية تشبه عبارة مثل: «الحمد لله فأنا مكروه تماماً من كل الناس!».

وقد ازداد الإحساس بالضياع بعد عام ١٩٧٣، ولنأخذ على سبيل المثال أريل زلبر، المغني الذي انضم إلى يهودا أدر وشالوم هانوخ وكوّنوا جماعة غناء روك تُسمَّى «تموز». والصورة العامة التي تشيعها هذه الجماعة هي صورة الشاب الشريد. وزلبر نفسه فَقَدَ ساقه وهو يلعب بقنبلة يدوية حين كان صبياً. وأهم أغانيه «هوليخ باطل» (حرفياً: «صار» أو «راح» باطلاً أو «أصبح غير مجد» أي «مافيش فايدة») وتتحدث الأغنية عن متشرد يبحث عن المخدرات والجنس وقطع غيار السيارات المسروقة.

كما تتحدث الأغاني عن أبطال العهد القديم وأنبيائه بطريقة تنم عن الاستخفاف الشديد، وهؤلاء الأبطال والأنبياء هم الرموز القومية اليهودية الصهيونية الأساسية. فأغنية دانيساندرسون تتحدث عن داوود الذى يهزم طالوت «وتخرج أسفار موسى الخمسة لتشجع... إن كنت تريد أن تصبح ملكاً علينا، في سن السادسة فلتصنع لنا حلبة صراع». وتسخر أغنية زلبر الأخرى من شمشون وتشير إليه «عاملاً في عربة قمامة». أما داوود فهناك مسرحية تتحدث عنه شاذاً جنسياً. ومعظم المغنين من نتاج الكيبوتس، وهم جميعاً ظهروا بعد عام ١٩٧٣ مع إدراك الصهاينة بداية أزمتهم.

ومن أشهر الأغاني في إسرائيل في الثمانينيات أغنية مائير باتاي، وهي أغنية جميلة حزينة تعبِّر بشكل دقيق عن تساقط الشرعية الصهيونية وإحساس المستوطنين بذلك:

كلهم ذاهبون إلى مكان ما،

يرنون للمستقبل العذب،

أما أنا، فأستيقظ في الصباح

وأركب الحافلة رقم ٥ المتجهة للشاطئ،

الحافلة مليئة بالدخان،

وعجوزان،

والمحصِّل.

وهناك كتابة على حائط أسمنتي:

ماذا حدث للدولة؟

انظر إلى الدولة وانظر إلى الأسمنت!

تغنّي الطيور «صباح الخير»

لعلي أقدر أن أطير معها بعيداً، ولا أسقط.

إن فراغ الحافلة رمز جيد للأزمة السكانية لدى المستوطن الصهيوني، فليس فيها سوى عجوزين (لعلهما يرمزان لـ «الشعب اليهودي» المسن). ويتساءل المغني عما حدث للدولة المكتوب اسمها على الأسمنت (وهو رمز للجمود والموت). ومقابل كل هذا، هناك غناء الطيور التي تبشر ببداية جديدة، خارج الحافلة الفارغة والأسمنت الصلب. ويود المغني أن يطير بعيداً، أن ينزح عن كل هذا. ولكن الأغنية، مع هذا، تعبِّر عن عدم اليقين من إمكانية الفرار، فالسقوط احتمال وارد! أي أنه لا مكان للتقدم للأمام ولا التراجع للخلف!

ثمة إحساس إذن بفشل المشروع الصهيوني وخيبة أمل وإحباط نتيجة هذا، وهي أحاسيس عبَّرت عن نفسها في مجموعة من النكت الساخرة، والأغاني

الحزينة التي تحاول كلها الإفصاح عن وضع تاريخي مركّب جداً لا مخرج منه، فالصهيوني غير قادر على الخروج من وضعه، وأثبتت الأيام أنه قد يكون قادراً على إلحاق بعض الأذى بالعرب ولكنه غير قادر على تطبيع الوضع والوصول إلى النهاية السعيدة: أي تفتُّت العرب واختفاء الفلسطينيين.

وتدور أحداث قصيدة الشاعر إفرايم سيدون (التي رفض التليفزيون الإسرائيلي إذاعتها) في غرفة صالون يجلس فيه أربعة أشخاص: الأب والأم والطفل، أما رابعهم فهو الجندي الصهيوني، وبالتالي فهي خلية استيطانية سكانية مسلحة. وقد اندلع خارج المنزل حريق (رمز الانتفاضة وظهور الشعب الفلسطيني) وبدأ الدخان يدخل البيت عبر النافذة، إلا أن الأربعة يجلسون بهدوء ويشاهدون مسلسلاً تليفزيونياً ولا يكترثون بشيء؛ ثم ينشد الجميع:

هنا نحن جميعاً نجلس

في بيتنا الصغير الهادئ،

نجلس في ارتياح جذل.

هذا أفضل لنا، حقاً إنه أفضل لنا.

- الأم: جيد هو وضعنا العام.

- الجندي: أو باختصار .. إيجابي.

- الأب: والوقت «عامل» لصالحنا.

- الطفل: إذا كان الوقت «عاملاً» فهو بالتأكيد عربي.

حينئذ يصفع الأب الطفل ويقول «اسكت يا وقح». وتعليق الطفل إشارة فكاهية للحقيقة المرة التي يدركها الإسرائيليون جيداً: تغلغل العمالة العربية في الكيان الإحلالي الصهيوني. ثم تبدأ الأسرة تتحدث عن الحريق، أو بالأحرى تنكر وجوده:

- الأب: وإذا كانت هنا جمرة تهدد بالحريق.

- الأم: طفلي سينهض لإطفاء الحريق.

- الأب: وإذا اندلعت هنا وهناك حرائق صغيرة.

- ***الأم: سيسرع ابني لإطفائها بالهراوة.***

- ***الأب: انهض يا بني اضربها قليلاً.***

ويخاطب الأب النار فيخبرها أنها مسكينة، وأنها لن تؤثِّر فيه من قريب أو بعيد، وأنه سيطفئها في النهاية. وحينما تأكل النيران قدميه لا تضطرب الأم، فالأمر ليس خطيراً، إذ لديه «قدم صناعية» [لعلها مستوردة من الولايات المتحدة]، فالوقت - كما يقول الأب - «يعمل لصالحنا». ولكن الطفل ينطق مرة أخرى بالحقيقة المرة:

- ***الطفل: بابا، بابا، لقد حرقنا الوقت [الزمن].***

- ***الأب: اسكت.***

- ***الأم: إن من ينظر حولنا ويراقب، يرى كم أن الأب لا ينطق إلا بالصدق على عادته.***

- ***الأب والأم: لقد أثبتنا للنار بشكل واضح.. من هو الرجل هنا ومن هو الحاكم.***

- ***الطفل: ولكن بابا... البيت...***

- ***الأب: لا تشغلنا بالحقائق.***

- ***الطفل والجندي: شعاري: اجْلس في صمت ولا تتعب.***

- ***الرجال: لا تتحرك، لا تتزحزح، لا تفقد أعصابك.***

- ***الجميع: فهكذا تُحارب النار.***

- ***هكذا تُحارب النار.***

وهذه القصيدة الفكاهية، شأنها شأن النكت، تخبئ رؤية متشائمة بشأن مستقبل ما يُسمَّى «الشعب اليهودي» الذي أصبح مستقبل المستوطنين الصهاينة الذين يستقرون في المكان وينكرون الزمان، فتحرقهم الحقيقة وهم جالسون يراقبون مسلسلاً تليفزيونياً في هدوء وسكينة أو يستمعون إلى الدعاية الصهيونية في رضا كامل!

- **شعب بلا أرض: منظور إسرائيلي**

ترى الصهيونية أن اليهود يكوِّنون شعباً واحداً، ولكنه شعب يتسم بالطفيلية والاستهلاكية. وقد زعمت الصهيونية أن مثل هذه الظواهر المرضية هي من ظواهر المنفى ليس إلا، وأنه حينما تنشأ الدولة الصهيونية سيعود اليهودي إلى أرضه المقدَّسة أو القومية ليزرعها فيخلصها من العرب ويخلِّص نفسه من أدران المنفى التي علقت به وأعطت مبرراً لأعداء اليهود واليهودية أن يطلقوا اتهاماتهم المختلفة. وهذا ما يُسمَّى عقيدة «العمل العبري» التي تحولت إلى «عقدة العمل العبري» بعد أن فشل هذا الجانب من الحلم الصهيوني.

ويبدو أن هذا الموضوع (العمل العربي الحقيقي بدلاً من العمل العبري المزعوم) يلح على الوجدان الإسرائيلي إلحاحاً شديداً. ففي نكتة إسرائيلية، نجد عجوزاً إسرائيلياً يجلس مع حفيده ويحكي له عن ذكرياته في الماضي. ويتصفح الاثنان ألبوم الصور، ويشير الجد إلى صورته في الثلاثينيات حين كان يبني بيته بنفسه، فيجيبه حفيده: «هل كنت عربياً في الماضي؟» فمهنة البناء لا يقوم بها سوى العرب، واستخلص الطفل نتائجه تأسيساً على تجربته لا تأسيساً على الادعاءات الصهيونية. ويقول الإسرائيليون تعليقاً على تغلغل العمالة العربية في القطاع الزراعي: «لماذا تطالب منظمة التحرير الفلسطينية باسترجاع الأرض الفلسطينية بكل هذا الإصرار؟ ألم يلاحظوا أن الفلسطينيين قد استعادوها بالفعل». فالأرض كما يعرف الصهاينة جيداً هي لمن يزرعها.

ولعل تغلغل العرب في قطاعات مثل الزراعة والبناء يعني أنهم يقومون بالأعمال الإنتاجية، الأمر الذي حوَّل المستوطنين الصهاينة إلى وسطاء وطفيليين أو عاملين بالمهن الفكرية، شأنهم في هذا شأن يهود الجيتو (حسب التصوُّر الصهيوني). فالإنسان الإسرائيلي منشغل تماماً بالمضاربات وأسعار البورصة وأسعار التحويل. كما أن عدد العاملين بالمهن (الفكرية) أخذ هو الآخر في التزايد، وتصاعدت معدلات الاستهلاكية بشكل ملحوظ، وأصبح كل هذا موضع نكات الإسرائيليين، فهم يصفون المواطن الإسرائيلي بأنه «روش قطان» أي «الرأس الصغير». وصاحب الرأس الصغير، في المجاز الإسرائيلي، هو الإنسان ذو المعدة الكبيرة الذي لا يفكر إلا في مصلحته ومتعته واحتياجاته الشخصية وينصرف تماماً

عن خدمة الوطن أو حتى التفكير فيه. إنه إنسان استهلاكي مادي لا يؤجل متعة اليوم إلى الغد. فسياسة الدولة الصهيونية - حسب إحدى النكات الإسرائيلية - هي تزويد جماهيرها بالـ T. V. C.، وهي الأحرف الأولى لعبارة T.V. Video and Cars. وحسب الحلم الصهيوني، كان من المفروض أن تصبح إسرائيل نوراً للأمم (ذات فولت عال جداً)، ولكنها أصبحت - حسب قول أحد الصحفيين الإسرائيليين - مجتمع الثلاثة ف (V): الفولفو والفيديو والفيلا. وأشار الصحفي الإسرائيلي مكابي دين (في الجيروساليم بوست) إلى أن الإسرائيليين يعملون مثل شعوب أمريكة اللاتينية (أي لا يعملون)، ويعيشون مثل شعوب أمريكة الشمالية (أي يتمتعون بمستوى معيشي عال)، ويدفعون الضرائب مثل الإيطاليين (أي يتهربون منها) ويقودون السيارات مثل المصريين (أي بجنون).

وتتضح هذه الاستهلاكية في التكالب الشديد على السلع الأمريكية والرغبة في الهجرة إلى الولايات المتحدة، أرض الميعاد الحقيقية. وقد نشرت مجلة عل همشار مقالاً بعنوان «خروج صهيون»، وكلمة «خروج» في الوجدان الديني اليهودي تعني «الخروج من مصر» و«الصعود إلى صهيون أو إرتس يسرائيل» أي فلسطين. ولذا، فإن استخدامها للحديث عن «الخروج» من صهيون يحمل قدراً كبيراً من السخرية النابعة من الإحساس بالمفارقة المتضمنة في الموقف. وقد أشار المقال الذي كُتب عام ١٩٨٧ إلى أن عدد النازحين سيبلغ ٨٠٠ ألف إسرائيلي بعد ١٢ عاماً (في الواقع يُقال إن العدد قد وصل إلى مليون عام ١٩٩٧). ثم علق كاتب المقال بقوله: إذا وضعنا في الاعتبار أن هيئة الأمم قررت الاعتراف بحق اليهود في أن تكون لهم دولة خاصة بهم في وقت كان فيه عدد المستوطنين في البلاد يُقدر بحوالي ٦٠٠ ألف، فإننا سنفهم مغزى هذه المعلومة المفجعة!

كذلك لا يَسْلم المستوطنون من النكت الإسرائيلية الخاصة بالطفيلية. فقد أشار زئيف شيف المعلق العسكري الإسرائيلي إلى الاستيطان في الضفة الغربية بأنه «استيطان دي لوكس»، فالمستوطنون هناك استهلاكيون وليسوا مقاتلين، يتأكدون من حجم حمام السباحة ومساحة الفيلا قبل الانتقال إلى المستوطنة، ولذلك فإن الصحف الإسرائيلية تشير إلى هذا الاستيطان أنه «الصنبور الذي لا يُغلَق أبداً»، بل إنهم يشيرون إلى «محترفي الاستيطان» (بالإنجليزية: ستلمنت بروفشنالز settlement professionals)، وهم المستوطنون الذين يستوطنون في الضفة الغربية انتظاراً

للوقت الذي تنسحب فيه القوات الإسرائيلية ليحصلوا على التعويضات المناسبة (كما حدث في مستوطنة ياميت في شبه جزيرة سيناء). كما يشير الإسرائيليون إلى الاستيطان المكوكي (بالإنجليزية: شاتل ستلمنت shuttle settlement)، وهي إشارة للمستوطنين الذين يستوطنون في الضفة الغربية بسبب رخص أسعار المساكن وحسب ولكنهم يعملون خلف الخط الأخضر وهو ما حوَّل المستوطنات إلى منامات يقضي فيها المستوطنون سحابة ليلهم. أي إنهم يتنقلون كالمكوك بين المستوطنات التي يعيشون فيها في الضفة الغربية ومكاتبهم التي يعملون فيها في المدن الإسرائيلية وراء الخط الأخضر.

ومن حق أي شعب أن يستهلك بالقدر الذي يريد طالما أنه يكد ويتعب وينتج ثم ينفق. ولكن الوضع ليس كذلك في إسرائيل، فهم يعرفون أن الدولة الصهيونية «المستقلة» لا يمكن أن توفر لنفسها البقاء والاستمرار، ولا أن توفر لهم هذا المستوى المعيشي المرتفع، إلا من خلال الدعم الاقتصادي والسياسي والعسكري الأمريكي المستمر طالما أنها تقوم بدور المدافع عن المصالح الأمريكية، أي أن الدولة الصهيونية دولة وظيفية، تُعرَّف في ضوء الوظيفة الموكلة لها. وقد وصف أحد الصحفيين الإسرائيليين الدولة الصهيونية بأنها «كلب حراسة، رأسه في واشنطن وذيله في القدس»، وهو وصف دقيق وصريح وقاس.

ولكن هناك دائماً الإحساس بالنكتة. فعندما طرح يعقوب أريدور خطة «دولرة» الشيكل أي ربطه بالدولار (وهي خطة رُفضت نظرياً في حينها وإن كانت نُفِّذت عملياً)، اقترحت جيئولا كوهين، عضو الكنيست، أن توضع صورة إبراهام لنكولن على العملة الإسرائيلية جنباً إلى جنب مع صور زعماء إسرائيل ونجمة داوود، وأن يُدرَّس التاريخ الأمريكي للطلاب اليهود بدلاً من «التاريخ اليهودي».

وأوردت **الجيروساليم بوست** الحوار الخيالي التالي بين وزير المالية وآخر:

الوزير: الخطوة الأولى هي أن نُخفِّض الميزانية، أما الثانية فهي تحطيم الشيكل واستخدام الدولار.

الآخر: وما الخطوة الثالثة؟

الوزير: الأمر واضح جداً، ننتقل إلى بروكلين (أحد أحياء اليهود في نيويورك).

وقد كتب أحد القراء لصحيفة الجيروساليم بوست معلقاً على طفيلية الشخصية الإسرائيلية وعلى مدى اعتماد الدولة الصهيونية على الولايات المتحدة. يشير القارئ (في يناير ١٩٨٥) إلى أن الدولة الصهيونية طلبت خمسة بلايين دولار منحة من الولايات المتحدة، ثم يقترح ما يلي:

«بدلاً من نقل النقود للخزانة الإسرائيلية التي ستبددها في دعمها لصناعات غير كفؤ وبالتالي مفلسة، ولتعويض المضاربين سيئي الحظ في أسهم البورصة، ولدفع مبالغ من المال للصيارفة النهمين. وفي محاولة تمكين سكان إسرائيل من أن يستمروا في أسلوب الحياة الذي تعوَّدوا عليه، ولدفع مصاريف بيروقراطيتنا الوقحة التي تحتسي الشاي بشراهة، أرجو أن تسمحوا لي أن أقترح ما يلي على دافع المعونة:

يبلغ عدد سكان إسرائيل في الوقت الحالي ٤,٢٣٥,٠٠٠ يكونون نحو ١,١٦٠,٠٠٠ أسرة، وإجمالي دخل كل أسرة هو ٦,١٢٠ دولاراً...

فإذا قامت الحكومة الأمريكية بإرسال شيك لكل أسرة بما يعادل هذا المبلغ عن عام ١٩٨٥، فإننا سنحصل على المزايا التالية: سنوفر على دافع الضرائب الأمريكي ٣٨٥,٥٢ مليون دولار، وبإمكان إسرائيل بأسرها أن تمكث في الفراش، وتلعب الجولف أو الطاولة أو تذهب لصيد السمك طوال العام. ويمكن أن نتخلص من البيروقراطيين الذين سيستفيدون أيضاً، فعدم العمل والحصول على راتب أمر طبيعي جداً بالنسبة إليهم، وسينتهي العجز في الصناعات...

كما أن شركة العال للطيران التي تخسر كثيراً لأنها لا تطير يوم السبت، لن تخسر شيئاً على الإطلاق بأن تكف عن الطيران تماماً. ويمكننا حينئذ أن نزيد مدة الخدمة العسكرية (دون دفع أي مقابل) حتى نعطي الناس شيئاً يفعلونه. في الواقع، سيكون العصر الألفي قد وصل «فالفهد (حيث لا يوجد عنده شيء آخر يفعله) سيرقد مع الكبش» وفي هذه الحالة سنتبع خطى يورام أريدور في طريق الدولرة وستتحقق النبوءة «وسيقودهم طفل صغير» (أشعياء ١١/٦).

وبعد حادثة بولارد واعتراض الولايات المتحدة على ترقية بعض الضباط الإسرائيليين المتورطين في الحادث وخضوع إسرائيل، اقترح أحد الصحفيين الإسرائيليين أن تنتقم الدولة الصهيونية بتعيين بولارد نفسه سفيراً لإسرائيل لدى الولايات المتحدة، أي أن تنتحر الدولة الصهيونية تماماً.

ويدرك الإسرائيليون المفارقة التاريخية التي تربطهم دولةً استيطانيةً بيهود العالم الذين يرفضون الحضور إليها، فغالبيتهم الساحقة صهاينة توطينيون، أي إنهم على استعداد كامل لأن يطلقوا الشعارات الصهيونية الملتهبة عن الوطن القومي ولأن يتظاهروا من أجله وأن يدفعوا التبرعات له، ولكنهم لا يظهرون أي استعداد للاستيطان فيه. وقد وصف المفكر الصهيوني العمالي بوروخوف هذا النوع من الصهيونية بأنه «صهيونية الصالونات»، كما أشار لها آخر بأنها «صهيونية بدون استيطان». وهذه المفارقة لا يمكن أن يتعامل معها الإسرائيليون إلا من خلال النكتة، فدولتهم الصهيونية تؤسس مستوطنات في الضفة الغربية تُسمَّى «مستوطنات الأشباح» (بالإنجليزية: دمي ستلمنت dummy settlements) إذ لا يوجد فيها مستوطنون. فيقول الإسرائيليون، في إشارة واضحة ليهود الولايات المتحدة: إن أهم «دولة يهودية» في العالم هي «دولة نيويورك اليهودية» the Jewish State of New York. وفي هذا لعب بالألفاظ، فكلمة State الإنجليزية تعني «دولة» و«ولاية» في الوقت نفسه. كما يشير الإسرائيليون إلى يهود أمريكة بحسبانهم Jewish Wasps، وكلمة «واسب»، والتي تعني «دبور»، هي اختصار للعبارة الإنجليزية white Anglo-Saxon Protestant أي «بروتستانتي أبيض من أصل أنجلوساكسوني»، فكأن يهود أمريكة أمريكيون لحماً ودماً وقلباً وقالباً ولكنهم يتمسحون في الهوية اليهودية.

ويرى بعض الإسرائيليين أن يهود الولايات المتحدة ينظرون إلى إسرائيل «ديزني لاند» يهودية، أي مدينة ملاه يهودية يقصدونها بهدف الترويح عن النفس. وقال آخر إنها بالنسبة إليهم «متحفٌ قومي يهودي» يدخلونه ويقضون فيه بضع سويعات ويخرجون مليئين بالحماس الوطني ويعودون بعدها إلى بيوتهم وأوطانهم الحقيقية. وقد استخدم أحد المثقفين اصطلاح «فندق صهيون» ليصف علاقة يهود العالم بإسرائيل، فهم لا يحضرون إلى إسرائيل إلا حينما يكون الجو حسناً في الربيع والصيف، ويتركونها في الخريف والشتاء لعمال الفندق (من الصهاينة الاستيطانيين) ليغلقوا الأبواب والنوافذ ويقوموا بأعمال الصيانة والتحسينات إلى أن يعود السياح من الصهاينة التوطينيين أحباء فندق صهيون (وعلى كل فإن اصطلاح «صهيونية» يشير إلى فعل «يصون»، حسب أحد التفسيرات، ولذا فإن قيام الصهاينة بأعمال الصيانة أمر منطقي).

أما دفع المعونات للوطن القومي، فهو هدفُ كثير من النكت التفكيكية. وقد أشار أحد المعلقين إلى ما سماه «يهودية دفتر الشيكات» وهو اليهودي الذي يعتقد أن بوسعه تحقيقَ هويته اليهودية بأن يدفع التبرعات للمؤسسات اليهودية والصهيونية. وهو يدفع هذا الشيك ليريح ضميره وحتى يمكنه بعد ذلك أن يتمتع بحياته الأمريكية الاستهلاكية غير اليهودية دون أي حرج وبشراهة بالغة.

وهناك من يذهب إلى أن دفع المعونات للوطن القومي يتم خوفاً منه لا حباً فيه. ومن هنا أطلق الحاخام آرثر هرتزبرج على يهود الولايات المتحدة تعبير «يهود النفقة»، أي أنهم يدفعون التبرعات للدولة الصهيونية لا حباً فيها وإنما اتقاءً لشرها ولشراء سكوتها عنهم. وقد استخدم إسرائيلي آخر صورة مجازية مغايرة تماماً، ولكنها تعبِّر عن المعنى نفسه، أي الاتصال المؤقت وعدم الالتزام، حينما قال: إن يهود الخارج يغدقون الأموال على إسرائيل مثلما يغدق الرجل الأموال على عشيقته التي تعطيه بضع سويعات من السعادة الملونة، ولكنه يعود في نهاية الأمر لزوجته الأمريكية - الحقيقة الدائمة!

لكل هذا، عُرِّف الصهيوني بأنه يهودي يجمع المال من يهودي ثان لإرسال يهودي ثالث إلى أرض الميعاد، والصهيوني هنا هو الصهيوني التوطيني. وقد شبَّه أحد المفكرين اليهود الصهاينة التوطينيين بأعضاء فرق الإنشاد العسكري الذين ينشدون بحماس شديد عبارات من مثل «تقدموا! تقدموا!» ولكنهم واقفون في أماكنهم لا يبرحونها ولا يتقدمون خطوة واحدة.

وحتى حينما يأتي اليهود من الخارج للاستيطان، فالأمر لا يخلو من المشاكل. فعلى سبيل المثال، هناك مشكلة السفارد والأشكناز الذين يتبادلون الاتهامات والنكات. فيشير الأشكناز للسفارد بحسبانهم «شفارتز» أي «سود» ويقولون «الفرانك كرانك» أو «شحوريم»، أي أن «السفارد مرضى»، ويرد السفارد بدورهم بالحديث عن «إشكي نازي». وهناك نكتة تبادلها السفارد عن طفل سفاردي سئل عما يود أن يصبح حينما يكبر فكان رده «إشكنازي»! ولم يختلف الأمر كثيراً مع حضور المهاجرين السوفييت. فقد لاحظ الإسرائيليون أنهم صهاينة استيطانيون قالباً، أما قلباً فهم مرتزقة تماماً، باحثون عن الحَراك الاجتماعي بأي ثمن وفي أي مكان، حتى لو كان أرض الميعاد. فهم جاؤوا إلى صهيون لا بسبب قداستها وإنما بسبب

أسعارها والفرص المادية المتاحة لهم. وتتناقل الصحف الإسرائيلية تصريحاتهم التي تعبِّر عن موقفهم النفعي تماماً. يقول أحدهم إنه لم يأت لاقتناء سيارة، فقد كان عنده سيارة في روسية، وإنما أتى لاقتناء سيارة أكبر. وآخر يشكو من أن أرض الميعاد حارة جداً، ويعلن ثالث، رغم ادعاءاته اليهودية، أنه لا يعرف عن عقيدته المزعومة سوى أن اليهود يوقدون الشموع في أحد أيام الأسبوع: الثلاثاء أو السبت، ويسخر رابع من حائط المبكى (بالعبرية: كوتيل) ويشير إليه بأنه «ديسكوتيل». وقد وصفت إحدى الصحف الإسرائيلية هؤلاء المهاجرين بأنهم يجلسون على حقائبهم، أي أنهم يتحينون الفرصة السانحة كي يفروا من صهيون، إلى أي مكان آخر يحقق لهم قدراً أكبر من الحَراك الاجتماعي.

وكتب صحفي إسرائيلي خبيث، مقالاً فكاهياً في باب كان يُسمَّى «العمود الخامس» (بالإنجليزية: ففث كولامن Fifth Column) في **الجيروساليم بوست** (ويمكن ترجمتها أيضاً إلى «الطابور الخامس») معلقاً على وضع المهاجرين الجدد.

يبدأ المقال في مكتب التوظيف في إسرائيل.. ويدخل شاب تبدو عليه علامات الذكاء فيسأله الموظف: ماذا تعمل؟ فيقول «مهاجر جديد»، فيفهم الموظف من إجابته هذه أنه من الوافدين ويسأله: أي وظيفة تود أن تشغلها؟ فيجيبه الشاب «مهاجر جديد».

- *نعم فهمت أنك «مهاجر جديد» ولكن ما نوع العمل الذي تود تأديته؟*
- *«مهاجر جديد».*

فيبتسم الموظف إذ يتحقق من أن الشاب لا يفهم العبرية ويتحدث معه ببطء شديد.

- *أ ن ت*

م ها ج ج ر

ج د ي ي د

حسناً أين ولدت؟

فيجيبه الشاب: «بتاح تكفا». وعند سماع هذه العبارة تغمر الدهشة وجه الموظف تماماً، إذ أن بتاح تكفا هي أول مستوطنة صهيونية في فلسطين والمولود فيها لا يمكن أن يكون وافداً، فقد وُلد على أرض فلسطين المحتلة، ولغته الأولى هي العبرية، وحينما يطلب الموظف من الشاب تفسيراً يجيب هذا بقوله:

- *سمعت أن لديكم وظائف للمهاجرين الجدد. وأنا عاطل عن العمل. ولذا قررت أن أكون مهاجراً جديداً.. وقد سمعت أن هناك مئات الملايين من الدولارات لتأهيل المهاجرين الجدد.. لمَ لا يُعاد تأهيلي حتى أصبح مهاجراً جديداً؟ فمثلاً يمكنني أن أتعلم كيف أتحدث بالعبرية الأساسية. ويمكن أن أتحدثها بلهجة رديئة، وسأرتدي ملابس مضحكة مثل المهاجرين الجدد. انظر، أنا مستعد أن أضحي بكل هذه الأمور، لقد سُرحت من الجيش منذ عام ولم أعثر بعد على عمل. أسمع.. أن كثيراً من أصدقائي ينزحون عن هذا البلد.. ولا أريد أن أفعل ذلك، فأنا مؤمن بالصهيونية وأحب هذا البلد، وإذا كانت الطريقة الوحيدة للبقاء هنا هي أن أصبح «مهاجراً جديداً» محترفاً.. حسناً؛ إذن سأفعل ذلك! أعرف أن هذا يعني أنني سأصبح عضواً في أقلية محتقرة وأن أشعر بالحنين نحو وطني الأصلي.. كل شيء لا مانع عندي إذا كان هذا هو المطلوب، فأنا على استعداد للقيام به، سأكون مهاجراً جديداً مثالياً.. سأقضي وقتاً قصيراً في معهد تعليم العبرية. وسأتكيف تماماً في الجيش، وأعدك أن أطلب كل شيء مثل المهاجرين الجدد، وسأبدي ضيقاً شديداً من عملية الاستيعاب ولن أكف عن الشكوى بخصوص كل ما أحتاج إليه.*

وقد رسم لنا الكاتب صورة فكاهية دقيقة للمهاجر الجديد وموقفه الاستهلاكي وبحثه عن الترف وشكواه المستمرة، عند هذه النقطة يُظهر الموظف تعاطفاً نحو الشاب، ولكن تظهر مشكلة وهي أن حفيظة النفوس الخاصة به تدل على أنه وُلد في بتاح تكفا ومن المستحيل تصنيفه «مهاجراً جديداً»، فيخبره الشاب أنه لا يوجد مشكلة البتة ويطلب إستكر (ورقة لصق). وحينما يستفسر الموظف عن السبب يخبره

الشاب أن وزارة الداخلية تصدر قصاصات لصق تقول إن المعلومات الواردة بحفيظة النفوس ليست دليلاً قانونياً على القومية. وعند هذه النقطة، يرفض الموظف ويعرفه أن قصاصات اللصق التي تصدرها وزارة الداخلية تشير إلى قضية من هو اليهودي، وتعني أن مَنْ يسجل نفسه يهودياً فيها لا يعني بالضرورة بأنه قد تهود حسب الشريعة، فالإشارة هنا - كما يقول الموظف - إنما هي إلى التهود غير الشرعي، وهنا يقول الشاب: وماذا عن وصمة الانتماء إلى جيل الصابرا طيلة حياتي؟

والعبارة الأخيرة تلخص الموقف تماماً، وتبين الصراع المرتقب بين الوافدين والمستوطنين القدامى. ويكتب الكاتب نفسه مقالاً فكاهياً آخر يُعلق فيه على مصير الصهيونية كلاً ووضعها وما آلت إليه. وعنوان المقال هو «الصهيونية الخالدة». والمقال حوار بين متشائم ومتفائل. وحين يعلن الأول موتَ الصهيونية يؤكد له الثاني خلودها، ثم يقدم له الأدلة الدامغة والبراهين القوية مؤكداً له أن الهجرة الصهيونية من الولايات المتحدة لا تزال على قدم وساق. وبنبرة كلها يقين يقول «القنصلية الإسرائيلية في نيويورك أرسلت مئة نعش - إذ إنَّ يهود أمريكة يحبون أن يُدفَنوا في إسرائيل» (وهذه ليست نكتة وإنما حقيقة تشكل استمراراً للتقاليد الدينية اليهودية). المهاجرون يحضرون إذن - كما يقول المتفائل - ولكن في قسم البضائع، والتظاهرات الصهيونية لا تزال تُعقَد ولكن في مكاتب الجنازات، وهي تطرح الشعار التالي: «أعطوني المؤمَّن عليهم والموتى، والمومياوات، التي تود أن ترقد حرة» (وهذه معارضة ساخرة للشعار المكتوب على قاعدة تمثال الحرية في الولايات المتحدة). إن رغبة يهود أمريكة في أن يُدفَنوا في إسرائيل تقوم دليلاً على أنهم قد يدينون بوجودهم الزمني أو الدنيوي للولايات المتحدة، ولكن حينما يتصل الأمر بالأبدية فإنهم يعرفون أن وطنهم الحقيقي هو إسرائيل. ومن هنا جاء تعبير «الصهيونية الخالدة»: «كان بوسعهم أن يُدفَنوا في إحدى المناطق كثيفة الأشجار في الولايات المتحدة، ولكنهم يفضلون الريادة في أرض الميعاد بين شعبهم في تابوت خشبي... ويا لهم من مهاجرين مخلصين.. لا تراهم قط يتألمون من مفارقة أوطانهم ولا من عدم وجود «كنتاكي فرايد تشيكن» في إسرائيل.. بل إنك لا تراهم على الإطلاق.. فحمداً للسماء، لقد كنا نظن أن الهجرة من الولايات المتحدة قد انتهت... ولكننا نعرف الآن الحقيقة... أن الأمريكيين يموتون من أجل الحضور لإسرائيل».

الفصل السادس عشر

نهاية إسرائيل

- **نهاية إسرائيل**

سنحت لي فرصة التعرف على الوحش الصهيوني عن قرب، وإدراك مدى هشاشته وحقيقة أكاذيبه مذ كنت في الولايات المتحدة الأمريكية للدراسة في الفترة بين عامي ١٩٦٣ و١٩٦٩. فقد كانت أول فتاة يهودية أتعرف عليها زميلة في جامعة كولومبية، ولاحظت أنها دائمة السخرية من اليهود ومن أبويها بسبب عاداتهما اليهودية الشرق أوربية ولكنتهما اليديشية، وهي لغة يهود شرق أوربة، وعجزهما عن الاندماج في المجتمع الأمريكي رغم كل محاولاتهما. ثم صارحتني بأنها تكن كرهاً عميقاً للدولة الصهيونية، حيث ذهبت مرة مع أختها للعمل في إحدى الكيبوتسات وللبحث عن عريسين، وبعد نصف يوم شعرت بالإعياء، فتساقط المثل الصهيوني تماماً وقررت أن تتحول إلى سائحة تتمتع بالطبيعة والآثار وصحبة شباب الكيبوتس، بدلاً من المشاركة في بناء المستوطن الصهيوني، ثم اكتشفت أن معظم شباب الكيبوتس مولعون بها هي وأختها لا بسبب حسنهما وإنما لأنهم يودون مغادرة أرض الميعاد الصهيونية في أول فرصة إلى أرض الميعاد الأمريكية!

ثم تعرفتُ على طالب عراقي يهودي يُدعى كريم ناداف، وبعد أن توطدت عرى الصداقة بيننا، اعترف لي أنه هاجر إلى إسرائيل مضطراً، ولم يمكث فيها غير عامين ثم هاجر إلى الولايات المتحدة لأنه شعر أنه مجرد مادة استيطانية اقتصادية وقتالية في الدولة الصهيونية. كما أسرَّ لي بأن معظم اليهود الشرقيين يشعرون بأنهم

خُدعوا، وبأن اليهود الأشكناز (الغربيين) يحتفظون بعلاقاتهم بأقاربهم في العالم الغربي، حتى يمكنهم الفرار عندما تسقط الدولة الصهيونية! وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها شخصاً يتحدث عن سقوط الدولة الصهيونية بحسبانه أمراً مطروحاً يستحق النقاش.

وفي عام ١٩٦٥، وأثناء مؤتمر للطلبة العرب في كمبردج، بولاية ماساتشوستس، فوجئنا بوصول طالب إسرائيلي، يُدعى ناثان، وزوجته (وهما من جيل الصابرا، أي من مواليد فلسطين المحتلة). وبعد دقائق من حديثه كدت أُصعق، إذ ظهر أنه عضو في جماعة «الماتزبن»، وهي جماعة ماركسية معادية للصهيونية تطالب بفك الدولة الصهيونية وإنشاء دولة اشتراكية - علمانية تضم كل المواطنين.

وكان عليَّ أن انتظر حوالي عشرة أعوام لأسمع عن نهاية إسرائيل من مصدر آخر، وهو الجنرال بوفر، قائد القوات الفرنسية التي حاولت غزو مصر عام ١٩٥٦. ففي محاضرة له في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الأهرام عن دروس حرب أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٣، حكى القصة التالية: بعد أيام من حرب عام ١٩٦٧، ذهب بوفر ليقابل رابين، وكانت القوات الإسرائيلية لا تزال في طريق العودة إلى قواعدها. وكان الجنرال الفرنسي مع الجنرال الإسرائيلي يحلقان بالطائرة، فانتهز بوفر الفرصة وهنأ رابين على انتصاره ولكن رابين باغته بقوله: «ولكن ماذا سيبقى من كل هذا؟».

ومع اندلاع انتفاضة ١٩٨٧، حذر إسرائيل هاريل المتحدث باسم المستوطنين من أنه إذا حدث تقهقر ما من جانب إسرائيل (أي شكل من أشكال الانسحاب والتنازل)، فلن يتوقف عند الخط الأخضر (حدود عام ١٩٤٨)، إذ سيكون هناك انسحاب روحي يمكن أن يهدِّد وجود الدولة ذاتها (**جيروساليم بوست** ٣٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٨)، وهو تحذير ينطوي على قدر كبير من الحقيقة، ففي الحروب القومية، كما يقول هاريل نفسه، تلعب الروح المعنوية دوراً أساسياً، وروح الإسرائيليين المعنوية في حالة تراجع.

ويبرز موضوع نهاية إسرائيل حالياً على قائمة الاهتمامات الفكرية والوجدانية الصهيونية. فعلى سبيل المثال، نشرت صحيفة **يديعوت أحرونوت** (٢٧ يناير/ كانون

الثاني ٢٠٠٢) مقالاً بعنوان «يشترون شققاً في الخارج تحسباً لليوم الأسود»، واليوم الأسود هو اليوم الذي لا يحب الإسرائيليون أن يفكروا فيه. وفي مقال لياعيل باز ميلماد (**معاريف** ٢٧ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠١) بدأ الكاتب بالعبارة التالية: «أحاول دائماً أن أبعد عني هذه الفكرة المزعجة، ولكنها تطل في كل مرة وتظهر من جديد: هل يمكن أن تكون نهاية الدولة كنهاية الحركة الكيبوتسية؟... هناك كثير جداً من أوجه الشبه بين الأحداث التي مرت على الكيبوتسات قبل أن تحتضر وتموت، وبين ما يجري في الآونة الأخيرة مع الدولة». وفي مشادة مع شارون، قال رئيس المجلس البلدي في السامرة: «سنحارب بكل قوتنا، وسننزل الشوارع. هذا الطريق الدبلوماسي هو نهاية المستوطنات، إنه نهاية إسرائيل» (**هآرتس** ١٧ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٢). بل إن أحد أعداد مجلة **نيوزويك** (٢ إبريل/ نيسان ٢٠٠٢) صدر وقد حمل الغلاف صورة نجمة إسرائيل، وفي داخلها السؤال التالي: «مستقبل إسرائيل: كيف سيتسنى لها البقاء؟». وزادت المجلة الأمور إيضاحاً حين قالت: «هل ستبقى الدولة اليهودية على قيد الحياة؟ وبأي ثمن؟ وبأية هوية؟»، ثم اقتبست قول الكاتب الإسرائيلي عاموس إيلون: «إنني في حالة يأس لأنني أخشى أن يكون الأمر قد فات». ولا يختلف رأي الأمريكيين الذين استطلعت المجلة آراءهم عن ذلك، حيث رأى ١٨ بالمئة أن إسرائيل ستختفي من الوجود، وقال ٢٣ بالمئة إنها لو استمرت فلن تكون دولة يهودية، وهذه نسبة عالية للغاية (٤١ بالمئة)، خاصةً وإن أحداً لم يكن يجرؤ حتى على طرح السؤال قبل بضعة شهورا

وها هو أبراهام بورج يقول في مقال له (**يديعوت أحرونوت**، ٢٩ أغسطس/ آب ٢٠٠٣) إن «نهاية المشروع الصهيوني على عتبات أبوابنا. وهناك فرصة حقيقية لأن يكون جيلنا آخر جيل صهيوني. قد تظل هناك دولة يهودية، ولكنها ستكون شيئاً مختلفاً، غريبةً وقبيحةً... فدولة تفتقد للعدالة لا يمكن أن يُكتب لها البقاء... إن بنية الصهيونية التحتية آخذة في التداعي... تماماً مثل دار مناسبات رخيصة في القدس، حيث يستمر بعض المجانين في الرقص في الطابق العلوي بينما تتهاوى الأعمدة في الطابق الأرضي».

ثم، أطل الموضوع مجدداً في مقال ليرون لندن (**يديعوت أحرونوت**، ٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٣) بعنوان: «عقارب الساعة تقترب من الصفر لدولة

إسرائيل»، وجاء فيه «في مؤتمر المناعة الاجتماعية الذي عُقد هذا الأسبوع، عُلم أن معدلاً كبيراً جداً من الإسرائيليين يشكُّون إذا ما كانت الدولة ستبقى بعد ٣٠ سنة. وهذه المعطيات المقلقة تدل على أن عقارب الساعة تقترب من الساعة ١٢، وهذا هو السبب في كثرة الخطط السياسية التي تولد خارج الرحم العاقر للسلطة».

ومن الطبيعي أن يطرح الموضوع نفسه بقوة على الوجدان الصهيوني، فالمستوطنون الصهاينة يعرفون ما حدث للجيوب الاستيطانية الأخرى ابتداء من أولى التجارب الاستيطانية التي كانت ساحتها فلسطين وهي ممالك الفرنجة (التي يقال لها الممالك الصليبية)، وانتهاء بالجيب العنصري في جنوب إفريقية، حيث كان مآلها جميعها هو الاختفاء. وثمة قانون يسري على كل هذه الجيوب الاستيطانية، وهو أن الجيوب التي أبادت السكان الأصليين (مثل أمريكة الشمالية وأسترالية) كُتب لها البقاء، أما تلك التي أخفقت في إبادة السكان الأصليين (مثل الجزائر وجنوب إفريقية) فكان مصيرها الزوال. ويدرك المستوطنون الصهاينة جيداً أنهم لا يشكلون أي استثناء لهذه القاعدة.

- **الدولة الصهيونية في عامها السادس والخمسين**

في ١٥ مارس/ آذار ٢٠٠٤، أي قبل شهرين فقط من «الاحتفال» بذكرى مرور ستة وخمسين عاماً على إنشاء الدولة الصهيونية في ١٤ مايو/ أيار، بثت الإذاعة الإسرائيلية برنامجاً حوارياً حمل عنوان «كيف ننقذ الشعب اليهودي؟»، بحسبانِ ذلك أحدَ الهموم الأساسية التي تشغل الرأي العام والباحثين وصناع القرار. واستطلع البرنامج آراء عدد من المتخصصين عما بات يُعرف بقضية «موت الشعب اليهودي»، وهو تعبير يُطلق على عدد من الظواهر المترابطة مثل انخفاض معدل المواليد في أوساط اليهود، وانصراف الأجيال الجديدة عن التعاليم والشعائر الدينية اليهودية، وتزايد معدلات اندماج الجماعات اليهودية في الشعوب التي تعيش بينها. ولم يخف كثير من المتحدثين انزعاجهم مما يمكن أن يكون عليه مستقبل الدولة الصهيونية، وهو ما دفع بعضهم إلى الحديث عن «الاستسلام» أحدَ الحلول المطروحة، إلى جانب الحلول التقليدية من مثل الاهتمام بما يُسمى «التعليم اليهودي»، والبحث عن سبل لزيادة معدل المواليد، فضلاً عن بناء الجدار العازل، الذي يُفترض أن يحمي المستوطنين الصهاينة من «الخطر الفلسطيني» المتصاعد.

وفي استطلاع للرأي بمناسبة ذكرى قيام إسرائيل، نشرته صحيفة **يديعوت أحرونوت** (٢٦ إبريل/ نيسان ٢٠٠٤)، أعرب نصف المشاركين عن اعتقادهم بأن إسرائيل لا تسير في الاتجاه الصحيح، ووصف نحو ٨٢ بالمئة الوضع الاقتصادي في البلاد بأنه سيئ، وقال نحو ٨٠ بالمئة إن الوضع الاجتماعي سيئ، بينما قال نحو ٧٠ بالمئة إنهم لا يثقون في وجود مستقبل للجيل الجديد في إسرائيل.

وما يجمع بين آراء المتخصصين في البرنامج الإذاعي والمشاركين في استطلاع الرأي هو الإدراك العميق للمأزق التاريخي والطريق المسدود الذي تواجهه الدولة الصهيونية، والذي لا تغير من طبيعته أو حدته أية انتصارات أو إنجازات تحققها تلك الدولة التي تفتقر إلى شرعية الوجود.

والملاحظ أن التعبير عن القلق بخصوص واقع المشروع الصهيوني ومستقبله لم يعد أمراً عارضاً أو متوارياً بل أصبح من الموضوعات المألوفة في وسائل الإعلام الصهيونية وفي الدراسات الصادرة عن مراكز بحثية وجهات رسمية. بل ويذهب بعض المحللين والساسة الإسرائيليين والمناصرين لإسرائيل في الوقت الراهن إلى ما هو أبعد من مجرد طرح المخاوف والتساؤلات، فيتحدثون لا عن أزمة جزئية أو عارضة في هذا الميدان أو ذاك، وإنما عن فشل المشروع الصهيوني برمته.

ففي مقال بصحيفة **يديعوت أحرونوت** (١٠ إبريل/ نيسان ٢٠٠٤)، كتب المحلل الإسرائيلي سيفر بلوتسكر يقول: «بعد أربع سنوات، تبلغ الدولة ستين سنةً من العمر... ورغم عمرها، فما زالت دولة إسرائيل تفتقد إلى صفات البلوغ الأساسية. فهي ما زالت بدون حدود نهائية يُعترف بها، وما زالت تنقصها عاصمة يعترف بها العالم، وما زالت تفتقر إلى دستور. والأهم من ذلك أن سكانها ما زالوا يفتقدون الطمأنينة والاستقرار».

وبعد أن يرصد الكاتب بعض مظاهر الأزمة، مثل ارتفاع معدلات البطالة والفقر، وتفشي الفساد، فضلاً عن ارتفاع الخسائر في صفوف القوات الإسرائيلية والمستوطنين الصهاينة من جراء العمليات الفدائية، يخلص إلى القول: «هاكم التناقض الذي تعيشه دولة إسرائيل في عيد استقلالها السادس والخمسين: دولة يموت مواطنوها حباً فيها، لكنك تجد مواطناً واحداً، من بين كل اثنين، يعتقد أنها

تسير في اتجاه غير صحيح، و٧٠ مواطناً من بين كل مئة مواطن يقولون إنهم لا يجدون فيها مستقبلاً لأبنائهم».

وإذا كان سيفر يكتفي بالتعبير عن الحيرة إزاء هذا التناقض، فإن الكاتب الأمريكي أندي مارتن يبدو أكثر تشاؤماً بخصوص مستقبل الدولة الصهيونية، رغم حرصه على وجود إسرائيل وسعيه لإنقاذها مما يقدِّرُهُ مصيراً لا فكاك منه. ففي مقال بعنوان «الموت البطيء لدولة إسرائيل» (موقع Media Monitors Network، ١٦ مارس/ آذار ٢٠٠٤)، كتب يقول: «إن إسرائيل تموت موتاً بطيئاً. ومن المفارقات أن السبب في احتضار إسرائيل يعود إلى دعم «أصدقائها» بأكثر مما يعود إلى نجاح أعدائها. ففي الوقت الراهن، أصبح «أصدقاء» إسرائيل هم أكبر أعدائها».

«فما زال مؤيدو إسرائيل يدعون أن إسرائيل «ديموقراطية». والواقع أن إسرائيل ليست ديموقراطية. إنها دولة استبدادية عسكرية تُجرى فيها انتخابات دورية، يُحشد فيها الناخبون من أجل تأييد النزعة العسكرية وسياسة التدمير الذاتي.

«ويُفترض أن إسرائيل هي هدف «الإرهاب». ولكن على النقيض من ذلك، فإن السياسات الإسرائيلية تخلق الإرهاب رداً طبيعياً على الاحتلال والإخضاع والإبادة الجماعية والإفقار».

ويمضي الكاتب منتقداً بأشد العبارات سياسات رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون، ومؤكداً على عدم جدواها، فيقول: «إن سياسات أرييل شارون هي وصفة لاستمرار الحرب، وللانهيار والاضمحلال المحتوم لإسرائيل. فالفلسطينيون لن يستسلموا مطلقاً، مهما كان الإرهاب الموجه إليهم من جانب القادة الإسرائيليين. والهجمات الإسرائيلية بلا هوادة على قطاع غزة، حيث تُطلق الصواريخ مراراً وتكراراً على التجمعات السكانية والشوارع المكتظة، هي بمنزلة إرهاب دولة ليس إلا».

ويخلص الكاتب من تحليله لسياسات الدولة الصهيونية والدعم الأمريكي المطلق لها إلى نتيجة مأساوية، مؤداها أن: «الزمن ليس في صالح إسرائيل. فالإسرائيليون ومؤيدو إسرائيل يعتقدون أن تطوير أسلحة جديدة وأساليب جديدة للقمع يتيح لهم بشكل أو بآخر أن يصمدوا في مواجهة مسار التاريخ المحتوم. ولكنهم لن يصمدوا، وليس بوسعهم أن يصمدوا».

وتتفق هذه النتيجة إلى حد كبير مع ما انتهى إليه كاتب آخر هو جون داوفتري في مقال حمل عنواناً مثيراً هو «هل تصبح إسرائيل دولة عربية» (موقع www.newsmax.com ، ١٢ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٤). ويسوق الكاتب عدداً من الحقائق عن معدل النمو السكاني لدى الفلسطينيين واليهود، ويستنتج منها أنه إذا سارت الأمور على هذا النحو فقد يصبح الفلسطينيون أغلبية داخل دولة إسرائيل وفي الضفة الغربية وقطاع غزة بحلول عام ٢٠٢٠. ويستشهد الكاتب بدراسات الباحث الإسرائيلي أرنون سوفير، أستاذ الجغرافية السكانية في جامعة حيفا، وينقل عنه تصريحاً أدلى به مؤخراً ومفاده أن «إسرائيل تمضي إلى النهاية». ويخلص الكاتب إلى القول بأن «البعض يعتقدون أن إسرائيل سوف تتحول قريباً إلى دولة عربية من كل الوجوه، ولن يبقى منها سوى الاسم».

وتطرح هذه التكهنات والنتائج تساؤلات لا مفر منها: هل هي مجرد مصادفة أن يتزامن الاحتفال بمرور ستة وخمسين عاماً على قيام الدولة الصهيونية مع تزايد الحديث عن «نهاية المشروع الصهيوني» و«موت إسرائيل» و«عدم وجود مستقبل»؟ وهل استطاعت «الانتصارات» الصهيونية تغيير الحقائق البنوية، التاريخية والحضارية والإنسانية والمادية القائمة، وهي أن فلسطين ليست رأرضاً بلا شعب، وأن الكيان الصهيوني يستند إلى أكذوبة تاريخية؟

- **هل ستنهار إسرائيل من الداخل؟**

هل ستنهار إسرائيل من الداخل من تلقاء نفسها، بسبب أزمتها وتناقضاتها الداخلية الحادة؟ كثيراً ما يُطرح هذا السؤال، وللإجابة على هذا السؤال سنذكر بعض الإحصاءات ذات الدلالة الاجتماعية الخاصة بالتجمع الصهيوني والتي تبين معدلات التآكل الداخلي. من المعروف أن مؤسسة الكيبوتس كانت هي العمود الفقري للتجمع الصهيوني. فمعظم أعضاء النخبة السياسية الحاكمة بل الثقافية كانوا من خريجيها (حتى عام ١٩٧٧). ولكن الكيبوتس تعرض لكثير من الأزمات وتغيَّر طابعه العام، بل فقد شيئاً من طابعه الجماعي العسكري. وقد نشرت جريدة **يديعوت أحرونوت** (٢ يناير ٢٠٠٠) ما يلي:

«أعلنت أمس هيئة مكافحة المخدرات أن تعاطي المخدرات الخفيفة في مزارع الكيبوتس قد تضاعف خلال خمس سنوات حيث قام ٢٣,٥٪ من أبناء الكيبوتس

ممن تراوحت أعمارهم بين ١٨ - ٣٠ سنة بتعاطي مخدرات خفيفة خلال عام ١٩٩٨ مقابل ١١,٤٪ تعاطوا الحشيش والماريجوانة خلال عامي ١٩٩٢ - ١٩٩٣. وكان البحث قد أُجري في ٢٢ كيبوتساً وشمل ٦٦٢ فرداً بناءً على طلب من هيئة مكافحة المخدرات».

وماذا عن المجتمع الإسرائيلي كُلّاً ؟ أشارت معطيات جديدة نُشرت في تل أبيب إلى تفاقم ظاهرتي معاقرة الخمر وتعاطي المخدرات بين صفوف تلاميذ المدارس الإسرائيليين. وذكرت صحيفة معاريف (٥ يونيه ٢٠٠٠) أن استطلاعاً خاصاً أجرته وزارة العمل والرفاه الاجتماعي الإسرائيلية لحسابها مؤخراً أظهر أن ٣٧٪ من تلاميذ الصف العاشر في المدارس الإسرائيلية معتادون على تناول الخمر وأن ٨٪ من التلاميذ المعتادين على «الشرب» أبلغوا أنهم يستهلكون مراراً في المساء الواحد ستة كؤوس من الخمر.

من جهة أخرى يتضح من معطيات صادرة عن «مجلس سلامة الطفل في إسرائيل» أن ارتفاعاً بنسبة ٣٠٪ قد سُجل خلال عام ١٩٩٩ على عدد الشبان الإسرائيليين القاصرين الذين وُجهت إليهم تهمة الاتجار بالمخدرات.. إذ قُدِّمَ في عام ١٩٩٨ ما مجموعه ٤١٧ لائحة اتهام ضد شبان ضُبطوا يمارسون تجارة المخدرات وحيازتها لغير أغراض الاستهلاك الذاتي، وقد ارتفع عدد لوائح الاتهام المماثلة الموجهة في عام ١٩٩٩ إلى ٥٥٦ لائحة اتهام.

والحياة العائلية في المجتمع الصهيوني في حالة تآكُل، فقد ذكرت جريدة معاريف (٢٥ يناير ٢٠٠٠) أن من بين كل ٣ حالات زواج يكون مصير حالة واحدة منها الطلاق. وقد طرأت زيادة بنسبة ١٥٪ في عدد حالات الطلاق بإسرائيل منذ عام ١٩٩٠. واستمرت هذه الزيادة أيضاً خلال السنة الميلادية الماضية فسُجلت زيادة بنسبة ١٪ في عدد حالات الطلاق (نحو ٨,٦٠٤ حالات) وتتصدر منطقة تل أبيب «قائمة الطلاق» حيث وقعت بها ٣,٠١٦ حالة طلاق عام ١٩٩٩ بزيادة قدرها ٢١٪ مقابل عام ١٩٩٨.

وقد ذكر هآرتس ٩ مايو ٢٠٠٠ أن عدد السيدات اللاتي أنجبن خارج إطار الزواج ارتفع من واحد لكل مئة حالة إنجاب في السبعينيات إلى ١,٨ لكل مئة حالة إنجاب في عام ١٩٩٤. وفي الشهر نفسه أشارت جريدة يدعوت أحرونوت إلى أنه

قد طرأت زيادة بنسبة ٥٠٪ في عدد حالات الاعتداء الجنسي على الأطفال داخل الأسرة، كما طرأت زيادة بنسبة ٢٥٪ في عدد حالات الجرائم الجنسية التي يتعرض لها الصغار خارج نطاق الأسرة في عام ١٩٩٩.

والتآكُل الأسري عادةً ما يؤدي إلى تزايد معدلات العنف بين الأطفال والشباب. فقد ذكرت جريدة يديعوت أحرونوت (٢٤ مايو ١٩٩٩) أن الإحصاءات تشير إلى معدلات عالية من العنف في كل المجالات وجيمع المراحل السنية وكل شرائح السكان. وكشف كثير من التلاميذ عن تعرضهم للعنف اللفظي والبدني. ويعتبر العنف البدني هو الأكثر ذيوعاً بين تلاميذ المدارس الابتدائية بينما يقل معدله مع اقترابهم من سنّ البلوغ. واكتشف الباحثون أن الاعتداءات البدنية البسيطة هي الأكثر انتشاراً وإن كان معدل السلوك المتطرف ليس هيناً.

وأضافت الصحيفة أن أكثر من ٥٠٪ من تلاميذ الصفوف من السادس إلى العاشر كانوا مشتركين في العنف بصورة ما. وأكثر من ٦٠٪ من التلاميذ اشتركوا في أعمال بلطجة تجاه زملاء لهم أو كانوا ضحايا لأعمال عنف. واشترك حوالي ١٥٪ : ٢٠٪ في مستويات أكثر خطورة من العنف وأصيب حوالي ١٤٪ خلال مشاجرات وكانوا في حاجة إلى علاج طبي.

وفي محاولة تفسير ظاهرة العنف نُشر مقال في جريدة هاتسوفيه (٧ إبريل ٢٠٠٠) بعنوان «فناء مدرسة أم ساحة قتال ؟» يبين أن العنف بين الشباب لم يأت من فراغ بل إنه تغذى من العنف ذي المستوى المرتفع في مجتمع البالغين وبصفة خاصة من اللامبالاة تجاه مظاهر العنف في السلوك الإسرائيلي.

ثم نأتي أخيراً للشذوذ الجنسي الذي أصبح مقبولاً في المجتمع الإسرائيلي. خذ على سبيل المثال بينيك، الذي يلبس دبلة الزواج الآن، فهو سيتزوج من صديقه العام المقبل. يقول بينيك (كما جاء في ملحق صحيفة هآرتس ١٤ إبريل ٢٠٠٠): وضع الشواذ جنسياً في إسرائيل الآن أفضل من الناحية القانونية والتشريعية وهو من أفضل الأوضاع على مستوى العالم. نحن متساوون تقريباً مع الدول «المتقدمة» في العالم مثل: الدنمارك وهولندة، فلا يوجد في إسرائيل قانون يمنع أن تكون شاذاً جنسياً، ولا يوجد قانون يمنع اللواط. بالعكس هناك قانون المساواة في فرص العمل تقوم المحاكم بدراسته ويخاف أصحاب الأعمال من

التمييز ضد الشواذ. في كل مرة يحاولون التمييز ضدنا تصدر المحاكم حكمها لصالحنا. وبالإضافة إلى ذلك نحن في طريقنا نحو إصدار قوانين التبني التي تسمح للشواذ بتبني الأطفال. وهو يعتقد بأن الشواذ وحلفاءهم من أعضاء منظمات حقوق الإنسان سينجحون خلال عشر سنوات في أن يكون التشريع الإسرائيلي عادلاً تماماً، بما في ذلك الاعتراف بالزواج بين الشواذ.

ولعل تقبل المجتمع الإسرائيلي للشذوذ الجنسي يظهر في أن عدد السحاقيات في إسرائيل اللاتي أنجبن أطفالاً (من خلال عمليات معملية مختلفة) هو الأعلى في العالم (هآرتس ٩ مايو ٢٠٠٠)، ولعل هذا يعزى إلى محاولة الجيب الاستيطاني تجاوز أزمته الديموجرافية.

والآن بعد أن ذكرنا هذه الأرقام والإحصاءات يمكننا أن نطرح السؤال الذي طرحناه في البداية، هل هذا يعني أن المجتمع الإسرائيلي سينهار من الداخل، كما يمنِّي البعض نفسه؟ الإجابة على هذا ستكون بالنفي القاطع للأسباب التالية:

١- مقومات حياة التجمع الصهيوني لا تنبع من داخله وإنما من خارجه، فهو مدعوم مالياً وعسكرياً وسياسياً من الولايات المتحدة والعالم الغربي والجماعات اليهودية فيه، ولذا فهو لا يمكن أن ينهار من الداخل!

٢- يتسم المجتمع الإسرائيلي بالشفافية ومن ثمَّ حينما تتضح ظواهر سلبية فإنه يقوم بدراستها والتصدي لها أو التكيف معها.

٣- توجد مؤسسات ديموقراطية وعلمية يمكن لكل قطاعات السكان في التجمع الصهيوني أن يقدموا الحلول من خلالها.

٤- ثبت أن كثيراً من المجتمعات يمكنها أن تعيش في حالة أزمة عشرات بل مئات السنين، طالما أنه لا يتحداها أحد من الخارج. وأعتقد أن الحاسوب (الكمبيوتر) يساهم في هذه العملية، إذ يمكن للإنسان المتفسخ بشرياً أن يستمر في العمل من خلاله، وأن يطلق الصواريخ التي تصيب أهدافها بدقة بالغة حتى لو كان شاذاً جنسياً أو تعاطى الخمور والمخدرات في الليلة السابقة.

إن القضاء على الجيب الاستيطاني لا يمكن أن يتم إلا من خلال الجهاد اليومي المستمر، وما نذكره من عوامل تآكُل في التجمع الصهيوني هي عوامل

يمكن توظيفها لصالحنا، كما أنها تبين لنا حدود عدونا وأنه ليس قوة ضخمة لا تُقهر، لكنها في حد ذاتها لا يمكنها أن تودي به أو أن تؤدي إلى انهياره.

يجب ألا تخدعنا الأرقام الصماء وألا نتصور أنها الحقيقة، فالأرقام مجرد حقائق، والحقيقة غير الحقائق، فهي ثمرة اجتهاد إنساني، وليس مجرد تلقي ببغائي. واجتهادنا في قراءة الحقائق يؤكد أن الجهاد ضد العدو ضرورة.

● القلق وخيوط العنكبوت

يركز الإعلام العربي على مدى «قوة» الجيب الاستيطاني الصهيوني وبطشه وقدراته العسكرية التي لا تعرف حدوداً، كما يشغل الإعلام العربي نفسه بشكل مرضي بحصر انتصارات الدولة الصهيونية، ويخفق إلى حد كبير في رصد عوامل التآكل التي تتفاعل داخله، وتدهور الحالة النفسية للمستوطن الإسرائيلي من جراء المقاومة الفلسطينية الباسلة. والمحصلة النهائية لهذا الموقف هي أن المقاومة الفلسطينية تبدو كما لو كانت معركة خاسرة لا فائدة تُرجى من ورائها. ولهذا، كثيراً ما أردد أن من يرغب في تجاوز حالة الإحباط التي أصابت معظمنا فعليه أن يقرأ الصحف الإسرائيلية حتى ترتفع معنوياته، وهذا من سخريات القدر!

خذ، على سبيل المثال، هذا الخبر الذي نشرته صحيفة «القدس العربي» (١٨ أغسطس/ آب ٢٠٠٣) نقلاً عن صحيفة «معاريف»، تحت عنوان «الإرهاب أصابنا في الصميم»، وجاء فيه أن: «اثنين من كل ثلاثة إسرائيليين يعانيان من أعراض ناجمة عن صدمة نفسية مثل اضطرابات النوم بسبب أعمال العنف [أي المقاومة] منذ اندلاع الانتفاضة، والتي تعرضوا لها بشكل مباشر أو غير مباشر. وأفادت الدراسة، التي أجراها ثلاثة أطباء نفسيين من جامعة تل أبيب على عينة تمثيلية من ٥١٢ شخصاً بين شهري إبريل/ نيسان ومايو/ أيار ٢٠٠٢ أن إسرائيلياً من عشرة يعاني من أعراض نفسية. وذكرت الدراسة أنَّ ١٦ بالمئة من الإسرائيليين تعرضوا لأعمال عنف مباشرة، فيما قال ٣٧ بالمئة إنَّ أحد أقربائهم أو أصدقائهم تعرض لذلك. وقال ٧٦ بالمئة إنهم مصابون بأعراض ناجمة عن تعرضهم لصدمة نفسية مثل اضطرابات النوم أو الكآبة».

وما ورد في صحيفة «يديعوت أحرونوت» (١٣ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٣) لا يختلف كثيراً عما جاء في صحيفة «معاريف»، إذ قالت إن الجمهور الإسرائيلي

يعاني مشاعر توتر منهكة ازدادت بنسبة كبيرة خلال العام الأخير. فبينما قال ١٤ بالمئة من المستوطنين الصهاينة في عام ١٩٩٨ إنهم يعانون من التوتر، ارتفعت هذه النسبة في عام ٢٠٠٠ إلى ١٥ بالمئة، ووصلت عام ٢٠٠٢ إلى ٢٠ بالمئة، أي أن واحداً من كل خمسة إسرائيليين يعاني من التوتر.

ومن المعروف أن التوتر يؤدي في بعض الأحيان إلى السمنة، حيث يحاول الإنسان القَلِق التغلب على هذا القلق بتناول كميات هائلة من الطعام. والملاحظ أن ٣٨ بالمئة من الرجال و٤٢ بالمئة من النساء فقط في المستوطن الصهيوني يحافظون على وزن معقول (أي يستلزمه الحفاظ على حالة صحية جيدة)، وأن ٥٦ بالمئة من المستوطنين يعانون من حالات سمنة بدرجات متفاوتة من الخطورة.

ولا شك أن ارتفاع نسبة المدخنين له علاقة أيضاً بالقلق. وتشير الدراسات الإسرائيلية إلى أن نسبة التدخين في الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ٤٤ عاماً و٥٢ عاماً، وصلت إلى ٤٠ بالمئة مقابل ٣٦ بالمئة في عام ٢٠٠٠.

ومن المؤشرات الأخرى تزايد معدلات السُّعار الجنسي في إسرائيل. فالجنس، شأنه شأن الخمر والطعام والتدخين، يُعد من الآليات التي يحاول المرء من خلالها التغلب على قلقه وعلى غياب المعنى في حياته. وقد بين استطلاع للرأي نشرته صحيفة «جيروساليم بوست» (٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١) أن المستوطنين الصهاينة هم من أكثر الناس نشاطاً في الجانب الجنسي (لا يفوقهم في ذلك سوى الأمريكيين). وقد صرح ٢٣ بالمئة ممن شملهم الاستطلاع أن الجنس هو هوايتهم المفضلة التي يزجون من خلالها أوقات فراغهم.

ويتجلى القلق أيضاً في هبوط معدلات الاستهلاك، إذ بينت إحدى الدراسات أن الإسرائيليين بدؤوا يتحولون عن نمط الاستهلاك الأمريكي (أي الاستهلاك من أجل الاستهلاك، بلا حدود وبلا سبب) إلى تبني أنماط أكثر حذراً نظراً لعدم ثقتهم في المستقبل ولارتفاع معدلات البطالة.

وجانب آخر من جوانب الظاهرة يكشفه موقف موشيه يعلون، رئيس هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي. فقد كان يمتدح دائماً قدرة الشعب الإسرائيلي على الصمود في الصراع الدائر مع الفلسطينيين، واعتاد الظهور في أوساط إسرائيلية مختلفة ليدحض نظرية «خيوط العنكبوت» المنسوبة للسيد حسن نصر الله، أمين عام

«حزب الله»، ومؤداها أن إسرائيل تبدو من الخارج دولة عظمى من الناحية العسكرية، ولكن من يلمسها يدرك أنها تتفكك مثل خيوط العنكبوت. وكان يعلون يردد دائماً أن الفلسطينيين تبنوا هذه النظرية بعد انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان، وأن المقاومة الفلسطينية المسلحة ترتكز إلى حد كبير على هذه النظرية، التي ثبت خطؤها، في نظره، لأن المجتمع الإسرائيلي برهن على صموده وتماسكه.

ولكن مع تصاعد معدلات القلق، اضطُر يعلون، في تصريحات نقلتها صحيفة «يديعوت أحرونوت» في موقعها على الإنترنت (١١ فبراير/ شباط ٢٠٠٣)، إلى الاعتراف بأن قدرة المجتمع الإسرائيلي على الصمود محدودة للغاية، وأن هذه المحدودية تجتذب النار (أي تشجع المقاومة)، بل وأقر بصواب نظرية «خيوط العنكبوت». وقد عبر يعلون عن رأيه هذا في اجتماع مغلق أمام شخصيات من العاملين في مجال التربية والتعليم في القدس، ووصفت الصحيفة هذه التصريحات بأنها «شاذة»، وبأنها وقعت على مسامع الحاضرين «وقع الصاعقة، وهو الأمر الذي دفع يعلون فيما بعد إلى نفي تصريحاته مدعياً أنها أسيء فهمها، ومن ثم حُذفت تماماً من موقع الصحيفة.

ومما يستلفت النظر أن معظم الصحف العربية تجاهلت الخبر تماماً، بينما نشرته بعض الصحف الأخرى على استحياء في زاوية مهملة، وكأنه خبر عابر لا أهمية له، وكأنه ليس تقييماً حقيقياً لمعنويات الكتلة البشرية الاستيطانية التي احتلت أرض فلسطين صادراً عن أحد أعمدة المؤسسة العسكرية الصهيونية، وكأنه ليس مؤشراً قوياً على عمق الأثر الذي تحدثه الانتفاضة الفلسطينية في التجمع الصهيوني.

ولعل رصد استجابة الإعلام العربي لمثل هذه التصريحات والتصدي لسلبيات تلك الاستجابة لا يقلان أهمية عن رصد مظاهر الأزمات المستعصية في الكيان الصهيوني ودراسة سبل الاستفادة منها وتعميقها، فهذا الكيان لن ينهار من تلقاء نفسه بينما نجلس نحن في مواقع المتفرجين. وتتمثل أولى خطوات المواجهة الحقيقية مع هذا الكيان الشاذ بنيوياً وتاريخياً في استعادة الثقة بالنفس وبقدرات الأمة وجدارتها، والتحرر من حالة «إدمان الهزيمة»، التي لا يرى معها المرء سوى انتصارات العدو الحقيقية أو الوهمية.

• هل تتفكك إسرائيل؟

كثيراً ما يقدم الإعلام العربي، سواء عن وعي أو عن غير وعي، صورةً بعيدة عن الواقع للدولة الصهيونية، تبدو فيها وكأنها وحش كاسر لا سبيل إلى كبح جماحه، فهي تحقق مخططاتها وأهدافها بنجاح على الدوام، وتستمر في ارتكاب جرائمها دون رادع، بل ويصل الأمر ببعضهم في عالمنا العربي إلى الحديث عن الدولة الصهيونية وكأنها هي المحرك لسياسات الولايات المتحدة الأمريكية وأطماعها الإمبراطورية. إلا إن الصحف الإسرائيلية تقدم في المقابل صورة مغايرة، فالحديث عن الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسكانية يكاد يكون موضوعاً ثابتاً في كل الصحف، وهناك مئات المقالات والتحليلات التي ترصد أثر الانتفاضة على المجتمع الاستيطاني الصهيوني، ومدى ما أحدثته من تصدع في كثير من الثوابت التي قام عليها. وهناك من الكتاب الصهاينة من يذهب إلى مدى أبعد فيشير إلى أن المشروع الصهيوني بأسره وصل إلى منتهاه، وأن إعلان وفاته هو مسألة وقت ليس إلا. ومن هؤلاء العلامة مارتين فان كريفلد، أحد أكبر المتخصصين في الاستراتيجية العسكرية في العالم.

وقد وُلد فان كريفلد في هولندة واستوطن في فلسطين عام ١٩٥٠، ودرس في الجامعة العبرية منذ عام ١٩٧١، وهو الآن أستاذ الدراسات العسكرية في قسم التاريخ في هذه الجامعة، كما حاضر في عدة معاهد استراتيجية عسكرية ومدنية في العالم الغربي. وقد ألَّف خمسة عشر كتاباً في التاريخ والاستراتيجية العسكرية. ومن أهم مؤلفاته: **قيادة في الحرب** (١٩٨٥)، **تموين الحرب** (١٩٧٧)، **السيف والزيتون** (١٩٩٨). ومن الواضح أن شارون متأثر بفكره كما يتضح من مقابلة أجراها معه الصحفي غيورا أيالون في صحيفة **إمتساع خضيرة** (٨ مارس/ آذار ٢٠٠٢)، ونُشرت تحت عنوان «إسرائيل ستتفكك».

ينطلق مارتين فان كريفلد من الاعتقاد بأن صراع الصهاينة مع الفلسطينيين صراع خاسر منذ الانتفاضة الأولى، وأنه سيؤدي إلى نهاية إسرائيل. ويدلل كريفلد على وجهة نظره بالإشارة إلى التجربة النازية، ومدى البطش الذي استخدمه النازيون لقمع حركات المقاومة في أوربة. فلم يكن النازيون، على حد قوله، يأبهون بالإعلام أو بالرأي العام العالمي، وكانت لديهم أكبر منظمة إجرامية شهدها

التاريخ الإنساني، فضلاً عن زعيم لم يستنكف عن استعمال أية وسيلة. وكانت القوات النازية تفوق ضعف الجيش الإسرائيلي من حيث العدد، ومع ذلك يلاحظ كريفلد أنهم «هُزموا في نهاية الأمر. ومن الصعوبة بمكان أن نجد جيشاً نظامياً نجح في مواجهة انتفاضة كالتي نواجهها... ما يحدث معنا اليوم حدث مع الأمريكيين في فيتنام، ومع الجيش الإسرائيلي في لبنان، ومع الروس في أفغانستان، وهذا ما سيحدث معنا مرة أخرى، وهذا ما سيحدث مع الأمريكيين في أفغانستان».

ولا يمكن بالطبع اتهام كريفلد بأنه متعاطف مع المقاومة الفلسطينية، أو مبالغ في التفاؤل بشأن قدراتها. فموقفه ينبع من الرغبة في إنقاذ الدولة الصهيونية مما يراه مصيراً سوداوياً، ولكنه يدرك في الوقت نفسه أن الفلسطينيين هم الطرف الذي يتمتع بكل الإيجابيات في الصراع الدائر، لأن الإسرائيليين يقاتلون في ملعبهم، بينما يقاتل الفلسطينيون من أجل الحرية، ومقاتلو الحرية دائماً ينجحون، ولذلك ليس أمام الجيش النظامي الذي يواجههم إلا الفشل حتى وإن نجح في إحباط بعض عمليات المقاومة.

ومرة أخرى، يستشهد كريفلد بما حدث مع الأمريكيين في فيتنام، حيث «ألقوا ستة ملايين طن من القنابل على فيتنام ولم يساعدهم هذا الأمر كثيراً... لا يمكن لأي حصيف أن يدخل في مواجهة كتلك، وإذا دخلها فعليه أن يجد الطريق بسرعة للخروج من وحلها. وقد دخلت إسرائيل في مواجهة خاسرة ضمناً، وهذه المواجهة ستقضي علينا».

ويرى كريفلد أن لدى الفلسطينيين قدراً كبيراً من الثقة بالنفس، على عكس الإسرائيليين الذين تردت أوضاعهم خلال السنوات المنصرمة، وبات مصيرهم يقترب شيئاً فشيئاً من مصير الجنود السوفييت في أفغانستان، والفرنسيين في الجزائر.

ويؤكد فان كريفلد أن ارتفاع عدد الضحايا من الفلسطينيين عن مثيله في صفوف الإسرائيليين لا يُعد دليلاً على انتصار الدولة الصهيونية، ويبرهن على ذلك بالعودة إلى أحداث الصراعات المماثلة. فقد قُتل ٥٠ ألف أمريكي مقابل ثلاثة ملايين فيتنامي، وقُتل عدة آلاف من الفرنسيين مقابل مليون جزائري، ومع ذلك فقد كان النصر في النهاية من نصيب الفيتناميين والجزائريين.

ويسوق كريفلد عدة مؤشرات على تردي وضع الجيش الإسرائيلي، فيؤكد أن مثل هذا الجيش لا يستطيع أن يخوض حرباً مثل حرب عام ١٩٧٣، حيث سيفضل أغلب أفراده أن يولوا هاربين من المواجهة. ويرى كريفلد أن ظاهرة رفض الخدمة في صفوف الجيش الإسرائيلي دليل على أن الجيش في حالة تفكك، ولكنه يضيف أن هذا قد يكون أفضل تطور للصهاينة لأنه قد يضطرهم إلى الخروج من الأرض المحتلة.

وفيما يتعلق بقيادات الجيش، يذهب كريفلد إلى أن الأوضاع «تحوّل القائد إلى غبي وكل عمل سيقوم به، وكل قرار سيتخذه لن يجدي نفعاً... حتى يصل به الأمر إلى الشعور بأنه إذا اتخذ قراراً أو عكسه فالأمر سواء. وقد كان الفريق الذي أدار وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) أثناء حرب فيتنام هو أفضل فريق في تاريخ العسكرية الأمريكية، ولكن كل ما فعلوه كان مآله الفشل».

ويروي كريفلد حادثة تبيِّن مدى التدهور الذي وصلت إليه قيادات الجيش الإسرائيلي. ففي عام ١٩٩٤، كان يلقي محاضرة على هيئة الأركان العامة بدعوة من قائد هيئة الأركان آنذاك إيهود باراك، وخرج مصعوقاً من مستوى وسلوك الجنرلات آنذاك، حيث وصفهم بأنهم مجموعة من المتخلفين الذين يجهلون موضوعهم الرئيسي، أي الجيش الإسرائيلي، بما في ذلك تاريخ الجيش والنظريات العسكرية. وتبدى هذا التخلف وهذا الجهل في سلوكهم أثناء المحاضرة، فبعضهم انشغل في تناول الشطائر، والبعض الآخر أخذ يثرثر، أو يعبث في الأوراق التي أمامه، وكان هناك من انشغل بالألعاب على الحواسيب، شأنهم شأن الأطفال. ويعلق كريفلد قائلاً: «لقد فعلوا أثناء المحاضرة كل ما يمكن أن يفعله طالب فوضوي، ما عدا قذف المحاضر بالأوراق».

ثم يصل كريفلد إلى النتيجة الحتمية فيقول: «إذا استمر الوضع على ما هو عليه فإننا سنصل إلى تفكيك دولة إسرائيل، ليس عندي شك في ذلك، والدلائل موجودة. ولكن قبل أن نتفكك نهائياً ستنشب هنا حرب أهلية... وهذا هو الخط الأحمر بالنسبة إليّ... فإذا وقعت جريمة قتل أخرى كتلك التي راح ضحيتها إسحاق رابين، سأرحل أنا وعائلتي، تاركاً أبناء شعبي الذين أحبهم هنا ليقتل الواحد منهم الآخر».

- **جريمة واحدة وحسب!**

يُعد الانطلاق من مقدمات منطقية ذات مقدرة تفسيرية عالية ثم استخلاص نتائج تتسم بالشطط، بل والجنون، نمطاً متكرراً لدى كثير من القادة والمفكرين الصهاينة.

في هذا الإطار يمكن وضع أفكار وتحليلات المفكر الاستراتيجي الإسرائيلي فان كريفلد. فبعد مقدمات منطقية عن طبيعة الصراع الحتمي بين الفلسطينيين والمستوطنين، يخلص كريفلد إلى ضرورة نقل الصراع إلى الملعب الفلسطيني، ويضرب مثلاً بالمواجهات بين الدولة الصهيونية والدول العربية منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٧ فيقول: «لقد دبّرنا أمورنا مع العرب الذين هم خارج دولة إسرائيل (أي الدول العربية)... فكل عشر سنوات كانوا يقومون بافتعال مشكلة «ما»، وكنا نأخذ مطرقتنا الكبيرة ونضربهم بعنف، مما يمنحنا بعد ذلك عشر سنوات من الهدوء، حتى ييأسوا من الأمر في النهاية».

ويكمن حل المشكلة الفلسطينية المستعصية في «الفصل التام بين الصهاينة والفلسطينيين، فتُلغى كل الجسور المفتوحة، وتُوقف كل العلاقات الاقتصادية والسياسية. ولابد أن يكون فصلاً مطلقاً على مدار جيل أو جيلين، أو وفقاً لما يحتاجه الأمر. ويتطلب ذلك بناء سور مثل سور برلين، بل وأعلى منه إن أمكن، يحول حتى دون مرور الطيور».

ويرى كريفلد أن هذا السور رسالة إلى العرب في إسرائيل، ومضمونها هو: «إذا أردتم أن تعيشوا بيننا بأمن وأمان مواطنين إسرائيليين، تفضلوا، وإن كنتم لا تريدون، فلتنتقلوا شرقاً. ومن أهم أهداف السور أن يوقف الوضع الآخذ في التبلور بين العرب في إسرائيل والذي يدفعهم نحو الانضمام إلى الانتفاضة». وانطلاقاً من الاقتناع التام بمبدأ الفصل، لا يمانع كريفلد في أن تتخلى الدولة الصهيونية عن القدس الشرقية أو مستوطنات الضفة الغربية. ولهذا يطالب المؤسسة الصهيونية بأن تتوجه إلى المستوطنين بهذه الكلمات القاطعة: «خلال ستة أشهر سنبني سوراً وسنخرج من هنا. لقد انتهت القصة وسنساعدكم على الخروج. وإن كنتم لا تريدون فلتبقوا مع الفلسطينيين، وليقتل الواحد منكم الآخر، أما نحن فلا علاقة لنا بالأمر». ويشبّه فان كرفيلد سلوك المؤسسة الصهيونية بسلوك قائد

عسكري قرر تفجير جسر، فيخبر جنوده بذلك حتى وإن كان بعض الجنود لا يزالون في الطرف المقابل.

ولكن ماذا لو استمر الفلسطينيون في الهجوم على الصهاينة حتى بعد الانسحاب وتفكيك المستوطنات؟ يطرح كريفلد عدداً من الحلول التي تتسم بالبساطة المفرطة، فيقول: «ثمة ضرورة لإعادة ميزان الردع بيننا وبينهم، ولا يمكن أن يتم هذا إلا بتوجيه ضربة قاسية لهم قبل أن نخرج، إذ لا يمكن أن نوجه لهم الضربة القاسية ونحن في الخارج، كل ما نحتاجه هو الفرصة المناسبة، وستُتاح لنا لو أقدم الفلسطينيون على عمل مثير إرهابي، من قبيل إطلاق صاروخ على طائرة جامبو تابعة لشركة إلعال، مما يؤدي إلى مقتل ٤٠٠ مسافر على متنها، أو تفجير ناقلة كبيرة في مجمع تجاري فينهار على عشرة آلاف شخص في داخله... المقصود أننا نحتاج إلى فرصة لنقوم بضربهم ضربة موجعة، ويكون لنا مصداقية لرد الفعل».

ولا يخفي كريفلد أنه من أنصار ميكيافيلي صاحب كتاب **الأمير**، الذي تضمن فصلاً بعنوان «كيف يستعمل البطش؟». وانطلاقاً من الرؤية الميكيافيلية، يوضح كريفلد مواصفات الضربة الموجعة، «فلابد أن تتم على الملأ وبسرعة مذهلة، وبكل قوة وقسوة وبلا تردد، ولابد من استعمال المدفعية وليس الطيران حتى لا نتعرض للهجوم من الخلف عند خروجنا، وحتى نبرهن لهم أن بوسعنا أن نفعل كل شيء، فلا نحتاج إلى ضربة ثانية، إذ يمكن أن نقتل منهم خمسة آلاف أو عشرة آلاف، وإذا لم يكن هذا كافياً علينا أن نقتل أكثر. وإذا استوعب الفلسطينيون ما حدث تكون المهمة قد انتهت، وعندئذ نعلن عن عزمنا الانسحاب، وهو الأمر الذي لن يدع للفلسطينيين حجة لخوض الحرب».

ويصف كريفلد بموضوعية وحياد شديدين هذه الضربة الموجعة السريعة بأنها جريمة ضخمة، ولكنها «جريمة واحدة وحسب»، على حد قوله. ثم يضيف قائلاً: «من الأفضل ارتكاب جريمة واحدة موجعة نخرج بعدها ونغلق الأبواب من خلفنا... إنها الجريمة التي ستنهي كل الجرائم. الجرائم البشعة والضخمة جزء من التاريخ، وهذا على عكس ما تقوم به القوات العسكرية الصهيونية، التي ترتكب سلسلة غير نهائية من الجرائم المستمرة التي لم تثمر شيئاً سوى مزيد من القتلى بين الطرفين».

وماذا عن المحكمة الدولية في لاهاي والمحكمة الجنائية الدولية والرأي العام العالمي؟ يرد كريفلد قائلاً: «يمكن أن يتسامح الناس مع جريمة واحدة كبرى بشرط أن تنتهي دفعة واحدة ولا تتكرر، إنهم يتسامحون إن كانت الجريمة سريعة وخاطفة وناجحة... ولكن إن فشلت فعندها سيكون الدمار. وبعد هذه الجريمة سينسى الناس الأمر، وبعد جيل أو جيلين، سيكون كل الأيتام قد أقاموا عائلات، وكل النساء الأرامل قد تزوجن أو استسلمن لقدرهن». وخلاصة القول إنَّ الفلسطينيين سيستسلمون للواقع الاستيطاني الصهيوني ويستأنفون حياتهم وينسون الجريمة الكبرى، وبذلك تنجح سياسة الجدار الحديدي.

ومن الواضح أن كريفلد قدم خطته لصانعي القرار الاستراتيجي في الدولة الصهيونية وأن شارون يتحرك في إطارها، حتى وإن لم ينفذها بحذافيرها. ولعل هذا يفسر جانباً على الأقل من سياسة البطش العسكري التي تنتهجها الدولة الصهيونية في غزة والضفة الغربية، واستمرارها في بناء جدار الفصل العنصري. والواضح أيضاً أن هذه الجرائم الصهيونية لم تفلح حتى الآن في «إقناع» الشعب الفلسطيني بقبول الأمر الواقع، فهو يواصل مقاومته النبيلة دفاعاً عن هويته وذاكرته وشرفه، وشرف أمته العربية، رافضاً الاستسلام لسيل «النصائح» التي يلقيها شارون وكريفلد وأمثالهما.

- **نهاية شارون ونهاية إسرائيل**

مع غموض الحالة الصحية لرئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون وتضارب التكهنات عن مصيره ومستقبله السياسي، تجدد الحديث في أوساط المعلقين والكتاب الصهاينة عن مستقبل الدولة التي ظل شارون رمزاً لها سنوات عديدة، وهو حديث يفرض نفسه كلما تعرض الكيان الصهيوني لإحدى الأزمات الجوهرية التي تطل برأسها بين حين وآخر. فمع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى في عام ١٩٧٨، على سبيل المثال، أعرب ممثل المستوطنين الصهاينة إسرائيل هاريل عن تخوفه من أن أي «تنازل» يقدم عليه الكيان الصهيوني «يمكن أن يهدد وجود الدولة ذاتها (صحيفة **جيروساليم بوست** ٣٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٨). كما صدر أحد أعداد مجلة **نيوزويك** الأمريكية (٢ إبريل/ نيسان ٢٠٠٢) وقد حمل الغلاف صورة نجمة إسرائيل، وفي داخلها السؤال التالي: «مستقبل إسرائيل: كيف سيتسنى لها

البقاء؟». ولم تتردد المجلة في أن تطرح القضية بصورة أكثر صراحة، فتساءلت: «هل ستبقى الدولة اليهودية على قيد الحياة؟ وبأي ثمن؟ وبأية هوية؟». وكما أسلفنا لم يمض طويل وقتٍ حتى أثار الكاتب والسياسي الصهيوني أبراهام بورج القضية مجدداً، (صحيفة **يديعوت أحرونوت**، ٢٩ أغسطس/ آب ٢٠٠٣). وبعد أسابيع قلائل، أعرب كاتب آخر هو يرون لندن (صحيفة **يديعوت أحرونوت**، ٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٣) عن القدر نفسه من التشاؤم. ومنذ ذلك الحين تُطرح قضية نهاية الكيان الصهيوني من زوايا ومنطلقات عدة، تكاد تخلو جميعاً من أية بادرة أمل.

ومؤخراً، وفي معرض الحديث عن مرحلة ما بعد شارون، تساءل الكاتب الصهيوني آري شافيت (صحيفة **هآرتس**، ١٣ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٦) إن كان من الممكن مواصلة المشروع الصهيوني بدون شارون، الذي وصفه بأنه «لعب طوال خمسين عاماً دوراً مصيرياً في صياغة مصير دولة اليهود»، وانتهى إلى القول بأن المجتمع الذي يرحل عنه شارون «يمكن بسهولة أن يتدهور إلى حرب أهلية».

ولا شك أن الحديث عن مستقبل الكيان الصهيوني يعيد إلى الأذهان المصير الذي انتهت إليه تجارب استيطانية مماثلة، وفي مقدمتها نظام الفصل العنصري السابق في جنوب إفريقية، والذي سقط دون أن يسفر ذلك عن مذابح جماعية أو حملات إبادة أو حروب أهلية كما كان يروج أنصار هذا النظام لتبرير وجوده. فعلى مدار قرون، تمسك الأفارقة السود، أبناء البلاد الأصليون، بحقهم في المساواة والعيش بكرامة في وطنهم، وقاوموا بكل السبل السياسية والثقافية والعسكرية محاولات إخضاعهم أو تغييبهم أو تهميشهم، وبعد سنوات من «الحوار المسلح» مع الأقلية البيضاء التي كانت تسيطر على مقاليد الأمور في البلاد، بدأت هذه الأقلية تدرك أنه لا يمكن التوصل إلى حل دائم من خلال الوسائل الأمنية أو العسكرية، ومن ثم وافقت على إنهاء النظام العنصري وتسليم السلطة إلى ممثلي السكان الأصليين بقيادة نلسون مانديلا، والذي لم يتنازل مطلقاً، حتى في أحلك اللحظات، عن حق شعبه في انتهاج أسلوب المقاومة المسلحة في مواجهة المستوطنين العنصريين. وشكل هذا الإدراك، وما تبعه من خطوات عملية، إيذاناً بظهور نظام جديد استوعب المستوطنين البيض، الذين تحولوا إلى مواطنين في

دولة متعددة الأديان والأعراق والقوميات، وفتح الباب أمام الجميع للمشاركة في العملية السياسية والتمتع بالحقوق كافةً دون تفرقة على أساس اللون أو الدين أو اللغة أو الجنس.

ومن الممكن أن يكون أنموذج جنوب إفريقية أنموذجاً قابلاً للتحقق في فلسطين. فمع تصاعد «الحوار المسلح»، قد يغدو الجيب الاستيطاني الصهيوني باهظ التكلفة بالنسبة إلى الدول الاستعمارية التي ترعاه، وقد ينال الإرهاق من المستوطنين الصهاينة مما يدفعهم إلى التسليم بأن لا طائل من وراء الحلول العسكرية والأمنية، وأن لا مخرج لهم سوى التخلي عن عنصريتهم وعزلتهم وادعاءاتهم القومية والدينية. ويتطلب هذا، بطبيعة الحال، أن تستمر المقاومة الفلسطينية بمختلف الوسائل، وفي مقدمتها الكفاح المسلح، وأن تواصل في الوقت نفسه توجيه رسائل إلى المستوطنين، ولاسيما اليهود الشرقيين، مؤداها أن الحل العربي لمسألة الاحتلال الاستيطاني الصهيوني لا يعني ذبح اليهود أو إبادتهم، كما تزعم القيادات الصهيونية، وإنما تفكيك الإطار العنصري للدولة، وإنشاء مجتمع جديد على أسس إنسانية وديمقراطية. فهذه الدولة الصهيونية تدعي أنها ليست دولة لكل مواطنيها الذين يعيشون داخلها، بل هي دولة لكل يهود العالم الذين يعيشون خارجها، وهو وضع شاذ لا سند له في تجارب التاريخ أو في الأعراف والقوانين الدولية. وهذه الدولة لا تكف عن الحديث عن «حق العودة» لليهود من مختلف أنحاء العالم، رغم مرور آلاف السنين على وجودهم المزعوم على أرض فلسطين ورغم أن أغلبية يهود العالم لا تريد الاستقرار في الكيان الصهيوني غير المستقر أصلاً، بينما تنكر هذا الحق على الفلسطينيين الذين طُردوا من أراضيهم منذ سنوات قلائل.

ومن الضروري أن تُترجم هذه الرؤية الجديدة، ذات الطابع الإنساني الديمقراطي، إلى خطوات إجرائية محددة، وفي مقدمتها إلغاء «قانون العودة» العنصري والقوانين العنصرية الأخرى مثل دستور «الصندوق القومي اليهودي»، الذي يُعد أحد دعائم الجيب الاستيطاني، إذ تحرم قوانينه على غير اليهود أن يمتلكوا أرضاً يمتلكها ما يُسمى «الشعب اليهودي» أو أن يعملوا فيها، أي أنها تمنع العرب من مواطني الدولة الصهيونية من امتلاك أية أراض تمتلكها الوكالة

اليهودية (وهي تمثل حوالي ٩٠ بالمئة من أراضي فلسطين المحتلة). والجدير بالذكر أن مثل هذه القوانين العنصرية تحول مقولة «يهودي» إلى مقولة قانونية، وهو الأمر الذي يؤكد أن العنصرية الصهيونية هي جزء لا يتجزأ من البنية القانونية للدولة الصهيونية، وهذه هي إحدى السمات الأساسية للجيوب الاستيطانية الإحلالية، إذ يتحول التمييز العنصري من مجرد عمل يقوم به العنصريون المتعصبون إلى ركن من أركان البناء القانوني، يُعاقب كل من يتجاوزه أو يخرقه.

ولا بد من التأكيد هنا على أن تمسك أبناء البلاد الأصليين بخيار المقاومة المسلحة كان العنصر الحاسم في انهيار النظام العنصري في جنوب إفريقية، وهو نظام دام قرابة أربعة قرون وكان يمتلك عناصر قوة ذاتية ولم يكن يعتمد اعتماداً كبيراً على الخارج، كما هو الحال مع الدولة الصهيونية، كما أنه لم يدخر وسعاً في انتهاج كل أساليب القمع والبطش والتنكيل بالسكان الأصليين. ولعل هذا الأنموذج يقدم رداً مفحماً على أولئك الذين يغضون من أهمية المقاومة الفلسطينية أو يطالبونها بالتخلي عما يسمونه «العنف» حتى تحظى بالرضا الأمريكي، وكذلك على أولئك الذين يرون أن الكيان الصهيوني أصبح «أمراً واقعاً» لا سبيل إلى مواجهته أو التصدي له، ومن ثم لم يعد هناك سوى التعايش معه وقبوله والإذعان لشروط وجوده.

- **المشروع الصليبي والمشروع الصهيوني**

أشرنا من قبل إلى الجيوب الاستيطانية الإحلالية التي كان مآلها إلى الزوال لأنها لم تبد السكان الأصليين (على عكس تلك الجيوب التي نجحت في تنفيذ مشروعها الإحلالي الإبادي) وضربنا مثلنا بالجيب الاستيطاني في جنوب إفريقية ويمكن أن نضرب مثلاً آخر بممالك الفرنجة في فلسطين والتي يقال لها «الممالك الصليبية». فعمق التشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني أمر واضح تماماً. وهذا متوقع لأن كليهما جزء من المواجهة التي تتفاوت في حدتها بين التشكيلين الحضاريين السائدين في الغرب والشرق العربي. فحملات الفرنجة التي يقال لها الحملات الصليبية، هي نقطة انطلاق أوربة نحو التوسع والإصرار على بسط سيطرتها على الخارج. وعلى حد قول أحد مؤرخي حملات الفرنجة الغربيين إن حملات الفرنجة احتوت بذور كل أشكال الإمبريالية الأوربية التي حكمت فيما بعد

حياة جميع شعوب العالم. ولعله لهذا السبب أصبحت حملات الفرنجة صورة مجازية أساسية في الخطاب الاستعماري الغربي، وأصبحت ديباجاتها هي نفسها ديباجات المشروع الاستعماري الغربي. وقد رأى كثير من المدافعين عن المشروع الصهيوني، من اليهود وغير اليهود، أنه استمرار وإحياء للمشروع الفرنجي (أي الصليبي) ومحاولة وَضْعه موضع التنفيذ من جديد في العصر الحديث. فلويد جورج رئيس الوزارة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور، صرح أن الجنرال اللنبي الذي قاد القوات الإنجليزية التي احتلت فلسطين شن وربح آخر الحملات الصليبية وأعظمها انتصاراً. ويمكننا أن نقول إن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمت علمنته، وبعد أن تم إحلال المادة البشرية اليهودية التي تم تحديثها وتطبيعها وتغريبها وعلمنتها محل المادة البشرية المسيحية.

ولنحاول الآن أن نبين بعض نقط التشابه الأساسية بين المشروعين، ويبدو أن فلسطين مستهدفة دائماً من صناع الإمبراطوريات إذ إنها تُعَدُّ مفتاحاً أساسياً لآسية وإفريقية، وتُعدُّ معبراً على البحرين الأحمر والأبيض، وتقف على مشارف الطرق البرية التي تؤدي إلى العراق وإيران، وهي أيضاً معبر أساسي لشطري العالم الإسلامي. ولذا نجد أن المشروعين الفرنجي والصهيوني قد جعلا من فلسطين مسرحاً لأطماعهما ونقطة ارتكاز لانطلاقهما مشروعيْن استعماريين .

ولكن كلّاً من المشروعين لم يكونا مشروعين استعماريين وحسب وإنما كانا مشروعين من النوع الاستيطاني الإحلالي. فالمشروع الفرنجي كان يهدف إلى تكوين جيوب بشرية غربية وممالك فرنجية داخل العالم الإسلامي ولكنها تدين بالولاء الكامل للعالم الغربي. ولذا جاءت جيوش الفرنجة ومعها كتلة بشرية من الغرب المسيحي ليحل محل العنصر البشري العربي الإسلامي. والمشروع الغربي في هذا لا يختلف عن المشروع الصهيوني إلا في بعض التفاصيل. فغزو فلسطين تم أولاً على يد القوات البريطانية، ثم حَضَر المستوطنون الصهاينة بعد ذلك بوصفهم عنصراً يقوم بالزراعة والقتال. وقد كانت المؤسسات الاقتصادية للفرنجة، مثلها مثل قرينتها الإسرائيلية، تتسم بطابع عسكري، كما أن التنظيم الاقتصادي التعاوني لم يكن مجهولاً لدى الفرنجة. ويمكن القول بأن دويلات الفرنجة، مثلها مثل الدولة الصهيونية، كانت ترسانات عسكرية في حالة تأهب دائم «للدفاع عن النفس» وللتوسع كلما سنحت لها الفرصة.

ومن المعروف أن الغزاة الاستيطانيين عادة ما يسلكون طريق البحر ثم يستقرون على الساحل أو يحتفظون بركيزتهم الأساسية فيه (كما حدث في جنوب إفريقية والجزائر) حتى لا يفقدوا صلتهم بالوطن الأم فهم يعتمدون عليه اعتماداً يكاد يكون كاملاً. وهذا يعود إلى طبيعتهم الاستيطانية الإحلالية، فقد طردوا السكان الأصليين وحلوا محلهم ومن ثم خلقوا مشكلة لاجئين، تحولوا إلى وقود يجند سكان المنطقة ضدهم. لهذا يضطر المستوطنون دفاعاً عن أنفسهم وضماناً لبقائهم واستمرارهم أن يستمدوا مقومات بقائهم واستمرارهم من دعم عسكري ومالي وهوية ثقافية ومادة بشرية من وطنهم الأصلي. وهذه سمة أساسية في الكيانين الفرنجي والصهيوني، مع تنويعات فرعية تنصرف إلى التفاصيل لا الجوهر. فمثلاً اعتمدت ممالك الفرنجة على كل أوربة مصدر الدعم، ولكن اعتمادها كان على فرنسة بالدرجة الأولى. وكذلك، فإن الدولة الصهيونية التي عدَّت أوربة قاعدتها الاستراتيجية واعتمدت على معظم دول العالم الغربي الرأسمالي مع التركيز على بلد واحد هو إنجلترة ثم فرنسة لفترة قصيرة وأخيراً الولايات المتحدة منذ منتصف الستينيات.

والغزوتان الفرنجية والصهيونية كانتا تهدفان إلى حل بعض مشاكل المجتمع الغربي وتخفيف حدة تناقضاته. فالمجتمع الوسيط الغربي كان يخوض عملية بَعْث اقتصادي فتحت شهيته للاستيلاء على طرق التجارة المتجهة إلى الشرق. وهذا يشبه من بعض الوجوه، وإن كان بدرجة أقل، انفتاح شهية رجل أوربة الشره في القرن التاسع عشر الميلادي الذي لم يهدأ له بال إلا بعد أن وقع العالم كله في قبضته. وقد استخدمت أوربة كلا المشروعين، الفرنجي والصهيوني، في التخلص مما أطلق عليه في القرن التاسع عشر الميلادي «الفائض البشري»، أي العناصر التي لم تستطع أن تحقق الحَراك الاجتماعي داخل مجتمعاتها ولذا كانت تهدِّد السلام الاجتماعي ولم يكن هناك مفر من تصديرها للشرق حتى يحقق الغرب سلاماً اجتماعياً داخلياً. والمشروع الفرنجي بدوره كان يهدف أيضاً إلى تخليص أوربة من فائضها البشري الذي كان يهدد سلامها الاجتماعي حسب تصوُّر البعض على الأقل.

وكلا المشروعين يستخدم الديباجات الدينية الإنجيلية والتوراتية لتحقيق أهداف مادية إمبريالية علمانية. فالمشروع الصليبي جرد الحملات العسكرية باسم أمير

السلام (المسيح) وقام باحتلال الأرض وذبح الآلاف من سكانها. والمشروع الصهيوني هو الآخر جرد حملاته العسكرية باسم الوعد الإلهي وقداسة الشعب اليهودي فقام بإهدار قداسة وإنسانية الفلسطينيين وطردهم من أرضهم. وكلا المشروعين رغم ادعاءات المستوطنين الدينية الصاخبة لا يمكن أن يقبلا أن يُحاكما من منظور المعايير الأخلاقية لعقائدهما الدينية.

ويبدو أن أزمة التجمُّع الفرنجي لا تختلف عن أزمة التجمع الصهيوني. فيُلاحَظ أن الكيان الفرنجي كان يعاني من أزمة سكانية، وذلك نظراً لانخفاض عدد سكان أوربة عام ١٣٠٠ بعد انتهاء فترة تزايد السكان، الأمر الذي أدّى إلى عدم مجيء المزيد من المادة البشرية، كما كان الكيان الفرنجي يعاني من تناقص نسبة المواليد. وهذا لا يختلف كثيراً عن أزمة المستوطن الصهيوني السكانية، بعد أن جفت ينابيع الهجرة اليهودية من شرق أوربة، لأن يهود غرب أوربة والولايات المتحدة لا يهاجرون إلى الدولة الصهيونية.

ويلاحظ أن كلاً من المجتمع الصليبي والصهيوني كان يتسم بتقسيم ثلاثي، ففي القمة كان يأتي الفرنجة في الممالك الصليبية، يقابلهم الأشكناز في التجمع الصهيوني، وفي الوسط كان يوجد بعض المسيحيين الشرقيين الذين تعاونوا مع الفرنجة يقابلهم السفارد في التجمع الصهيوني، وفي القاع كان يوجد المسلمون في كلا المجتمعين.

ومن المعروف أن الجيوب الاستيطانية التي لا تبيد السكان الأصليين مآلها إلى الزوال، لأن السكان الأصليين يستمرون في مقاومتهم حتى ينهكوا عدوهم تماماً. وهذا ما حدث بالنسبة إلى ممالك الفرنجة فقد تم القضاء عليها، لأسباب عديدة، من أهمها أن الشعوب الإسلامية لم ترض بوجود الفرنجة، فاستمرت عملية المقاومة زهاء قرنين حتى انتهى المشروع الفرنجي ولم يبق منه سوى بعض الخرائب الصليبية. وبالنسبة إلى الصهيونية فمازال العرب يقاومون والحمد لله، وأعتقد أن مدريد وأوسلو وقبول الكيان الصهيوني للسلطة الفلسطينية هو تعبير عن الإرهاق الصهيوني. فقبول إسرائيل بالسلطة الفلسطينية هو بدايات الهزيمة، وكما يقول بعض المتطرفين الصهاينة إنه لأول مرة تم تعريف حدود الدولة الصهيونية، وفي هذا اعتراف ضمني بالوجود الفلسطيني. ولأول مرة توجد داخل الدولة

الصهيونية كتلة بشرية ضخمة تطالب بحق تقرير المصير، كما توجد مناطق فلسطينية محررة، بل إن مجرد دخول مصطلح «فلسطيني» في المعجم الصهيوني هو انتصار ضخم، لأنه يهز الخريطة الإدراكية الصهيونية.

• الوجدان الصهيوني ومصير الصليبيين

بينا فيما سبق مواطن التشابه بين الغزوة الصليبية والغزوة الفرنجية. وهذا التشابه يفسر سر الاهتمام العميق من جانب المستوطنين الصهاينة بتاريخ ممالك الفرنجة وهو اهتمام في جوهره تعبير عن إدراك أوَّلي لطبيعة دورهم في المنطقة دولةً توظفها قوى عظمى خارجية لصالحها، وهو إحساس يصعد من هاجسهم الأمني. ولذا يدرس العلماء الإسرائيليون المقومات البشرية والاقتصادية والعسكرية للكيان الفرنجي (الذي يقال له الصليبي)، والعلاقة بين هذا الكيان والوطن الأصلي المساند له. وقد وجَّه كثير من الباحثين الصهاينة اهتمامهم لدراسة مشكلات الاستيطان والهجرة التي واجهها الكيان الصليبي ومحاولة فهم عوامل الإخفاق والفشل التي أودت به.

ولكن الاهتمام لا يقتصر على الدوائر الأكاديمية، فنجد أن شخصيات سياسية عامة مثل إسحاق رابين وموشيه ديان ويوري أفنيري يهتمون بمشاكل الاستيطان والهجرة. ففي سبتمبر ١٩٧٠، عقد إسحق رابين مقارنة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية حيث توصَّل إلى أن الخطر الأساسي الذي يهدد إسرائيل هو تجميد الهجرة، وأن هذا هو الذي سيؤدي إلى اضمحلال الدولة بسبب عدم سريان دم جديد فيها. ويعقد أفنيري في كتابه **إسرائيل بدون صهيونية** (١٩٦٨) مقارنة مستفيضة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية. ويرى أنه لابد أن يتعلم الصهاينة من التاريخ، فإسرائيل مثل ممالك الفرنجة مُحاصَرة عسكرياً لا لأن هذا هو المصير الموعود (الذي لا مفر منه) كما يتصور بعض الصهاينة، وإنما هي مُحاصَرة عسكرياً لأنها تجاهلت الوجود الفلسطيني ورفضت الاعتراف بأن أرض الميعاد يقطنها العرب منذ مئات السنين.

وقد عاد أفنيري مرة أخرى إلى الموضوع نفسه في (١٧ أكتوبر٢٠٠٥) فكتب مقالاً بعنوان «السلام بدل السلامي» (طعام يشبه في شكله السجق) قال فيه:

«المقامر شخصية معروفة في الأدب. إنه مقامر مدمن، يحالفه الحظ في أحد الأيام، ولكنه لا يمكنه التوقف. كان بإمكانه أن ينهض وأن يمنع الكارثة، ولكنه مقامر مدمن. إنه مضطر للاستمرار، حتى تؤخذ آخر فيشة من أمامه، ويؤخذ معها كل ما يملك في هذه الدنيا.

ينهض الرجل، في الروايات، يخرج بخطوات متعثرة، يستل مسدساً في حديقة الكازينو ويطلق النار على رأسه».

يقول أفنيري إنه استخدم هذه الصورة المجازية قبل سنوات ليصف الخطر الذي يحوم فوق الدولة الصهيونية الاستيطانية. وإنه تذكرها مرة أخرى قبل عدة أيام، عندما قرأ مقالاً كتبه محلل يميني، من معارضي الانسحاب من غزة، تنبّأ فيه أنه بعد هذا الانسحاب سيضطر الصهاينة إلى الانسحاب أكثر وأكثر، حتى يصلوا إلى الخط الأخضر، ولكنهم حينما يصلون إلى هذه النقطة لن يمكنهم التوقف. ولذا فوجود الدولة ذاته سيكون معرضاً للخطر. (إلى أن يقوموا بالانتحار مثل المقامر الذي أطلق الرصاص على رأسه).

ثم يبدأ أفنيري في عقد المقارنة بين الصهاينة والفرنجة فيقول: «بعد أن احتل الصليبيون القدس، عام ١٠٩٩ استمر توسعهم. وانتشرت مملكة الصليبيين، من رفح في الجنوب وحتى تركية وتمركزوا عبر الأردن في الشرق. ثم احتلوا أيضاً قطاع غزة الذي كان يمتد حتى عسقلان (أشكلون).

«ولكن شيئاً فشيئاً، دار الدولاب. وبدلاً من مزيد من التوسع بدأت مملكة الصليبيين بالاضمحلال. كانت تسقط القلعة تلو الأخرى بأيدي المسلمين، حتى جاء صلاح الدين وانتصر عليهم بجانب طبرية عام ١١٨٧. ثم سقطت البلاد كلها بين أيديه، ما عدا عكة. ولكن مصيرهم كان قد حُسم. ففي نهاية الأمر، وفيَ عام ١٢٩١، سقطت عكة أيضاً، وقُذف بآخر الصليبيين إلى البحر، بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

«وقد بين المؤرخ البريطاني ستيفن رانسيمان، وهو أحد كبار مؤرخي الحملات الصليبية، أن الصليبيين كان أمامهم فرصة المصالحة مع المسلمين والتوصل إلى سلام دائم حينما كانوا في أوج قوّتهم ولكنهم فوتوا الفرصة، وبهذه الطريقة أنزلوا بأنفسهم الدمار عندما دار الدولاب».

ثم يضيف أفنيري أن المستوطنين يستخدمون خطاباً عنصرياً ترد فيه عبارات من مثل «[نقاء] الدم اليهودي»، و«كل العرب هم حيوانات»، و«أبو مازن هو نذل مثل عرفات»، و«لا يفهم العرب سوى لغة القوة»، ويطالبون بالاحتفاظ بكل الأراضي وبزيادة المستوطنات والضرب بيد من حديد على العرب، وكأنهم سيمكنهم الحفاظ على قوتهم أبد الآبدين. بدلا من ذلك حذر أفنيري الإسرائيليين من مصير الصليبيين: «الانسحاب من غزة الذي كان من شأنه أن يكون خطوة كبيرة أولى باتجاه السلام، تم تنفيذه دون إجراء حوار مع الفلسطينيين، بدون اتفاقية، ويكاد يكون أشبه بعملية عسكرية. وبالفعل بعد أسبوعين فقط من انتهاء الانسحاب، بدأت حملة أخرى من الاعتقالات، القذائف، التصفيات الموجهة، صواريخ القسام وقصف سلاح الجو». ثم يشير أفنيري إلى أن الدولة الصهيونية «ستضطر إلى تنفيذ مزيد من الانسحاب لأن الظروف التاريخية التي أجبرتنا على الانسحاب من غزة، تنطبق على الضفة الغربية أيضاً. التقديرات الديموجرافية تجبر إسرائيل الصهيونية على الخروج من المناطق الفلسطينية المكتظة بالسكان. وقد تعب الجمهور الإسرائيلي ذاته من الحرب، وهو يتوق إلى العيش الطبيعي بسلام. لا يتمتع المستوطنون في الضفة الغربية بشعبية، وقد بدأت مكانتهم تتضعضع بين أوساط الجمهور.

«الاحتفالات الفلسطينية الهائلة التي حدثت في غزة بعد الانسحاب، كانت تنبع من الإيمان بأن هذا إنما هو انتصار للمقاومة الفلسطينية. الفلسطينيون على قناعة بأن إسرائيل قد فرّت من وجه الأبطال الفلسطينيين الذين ضحوا بأنفسهم من أجل شعبهم، المنتحرين، قذائف الهاون وصواريخ القسام، مثلما فرّت قبل خمس سنوات من وجه الشيعة في جنوب لبنان. لأن «إسرائيل تفهم لغة القوة فقط». وكل ولد عربي يتعلم تاريخ الحروب الصليبية ويقارننا بهم؟ أي انسحاب «أحادي الجانب» آخر من قبل إسرائيل، سيعزز هذا الإيمان. بهذه الطريقة سنصل إلى الخط الأخضر، ليس في إطار «الأرض مقابل السلام» بل في واقع الحرب: أي الانسحاب من قبلنا ليس إلا مرحلة تحضيرية للانسحاب التالي. ستكون إسرائيل أشبه بنقانق السلامي، التي يتم قصها شريحة بعد شريحة. سلامي بدل سلام. العملية «أحادية الجانب» هي مسيرة من الحماقة. سندفع نحن ثمن السلام كاملاً، دون التوصل إلى سلام.

«عامل الزمن ليس في مصلحتنا. نحن الآن في ذروة قوتنا. نحن نتمتع بأفضلية عسكرية، تكنولوجية واقتصادية هائلة. بل لدينا احتكار نووي في المنطقة. القوة العظمى الوحيدة في العالم هي حليفتنا التي تلازمنا.

«ولكن القوة لا تدوم إلى الأبد. الشعوب العربية ستتطور. ستبدأ موازين القوة بالاختلاف. القنبلة النووية ستكون من نصيب الجميع في منطقتنا أيضاً. لن تظل الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة في العالم، وستبدأ الصين والهند بمنافستها. يمكن أن تنشب في العالم العربي ثورة إسلامية متطرفة، من شأنها أن تقضي على أنظمة الحكم الفاسدة وأن توحّد المنطقة من حولنا. ويمكن أن يقام نظام حكم من المتطرفين المسلمين في فلسطين ذاتها. هل سيكون من الأسهل علينا آنذاك أن نتوصل إلى السلام؟

«لقد تمتعنا حتى الآن بحظ تاريخي. تعالوا نتوقف عن المقامرة بمصير الدولة». هذا هو الإدراك الذي ترسخ في الوجدان الصهيوني، فهل سيعي الحكام العرب الدرس، ويتذكرون صلاح الدين، وتاريخ الحروب الصليبية؟

- **إسرائيل وجنوب إفريقية وشبح النهاية**

يمكن فهم عمق العلاقة بين الحضارة الغربية والرؤية الصهيونية من خلال مقارنة الجيبين الاستيطانيين في فلسطين وجنوب إفريقية، فهذه المقارنة تبين أن إسرائيل ليست ظاهرة يهودية وإنما ظاهرة استعمارية استيطانية، كما تكشف عن أوجه تشابه عديدة، سواء من حيث النشأة أو السلوك أو المصير المرتقب.

لقد تشكل المستوطَن الأوربي في جنوب إفريقية والمستوطَن الصهيوني في فلسطين جزءاً من سعي الغرب الاستعماري لحل مشاكله، خاصةً مشكلة الفائض البشري، عن طريق تصديرها. وفي هذا الإطار، طُرح حل المسألة اليهودية في أوربة عن طريق تصدير اليهود للشرق مثلما تُصدر السلع البائرة، وعن طريق سرقة الأراضي العربية من الفلسطينيين مثلما تسرق المواد الخام من بقية العرب. وينطبق الوضع نفسه على جنوب إفريقية، حيث تم تصدير قطاعات من الطبقة العاملة الهولندية ثم البريطانية ثم الغربية المتعطلة، وسُرقت الأراضي من الأفارقة لتوطينهم فيها.

ورغم الاختلاف بين إسرائيل وجنوب إفريقية من منظور مرحلة التكوين الأولى، فإن التطورات التاريخية اللاحقة محت كل هذه الاختلافات وعمقت نُقَط التماثل بين الجيبين الاستيطانيين.

نشأ الجيبان الاستيطانيان في جنوب إفريقية وإسرائيل في ظروف ثقافية وسياسية مشابهة (حل مشكلة الفائض السلعي والسكاني) واتجها الاتجاه نفسه (مستوطنون بيض في أرض إفريقية أو آسيوية)، وقاما بالوظيفة نفسها (خدمة المصالح الغربية من الناحية الاقتصادية والاستراتيجية نظير الدعم والحماية الغربيين). ولا عجب أن وعد بلفور (١٩١٧)، الذي يستند إليه الاستيطان الصهيوني، وقانون الاتحاد في جنوب إفريقية (١٩٠٩)، الذي استند إليه نظام التفرقة العنصرية، قد صدرا في تواريخ متقاربة عن القوة الاستعمارية نفسها، بل وكان الساسة الذين سعوا إلى إصدار «الوعد» هم أنفسهم الذين ساندوا «قانون الاتحاد»، وهم لورد ملنر ولورد سلبورن ولورد بلفور وجوزيف تشامبرلين والجنرال سمطس. وفي كلتا الحالتين، كان من لا يملك يعطي من لا يستحق. ولكن، لا الملكية ولا الأحقية كانتا مطروحتين، فالعملية الاستعمارية بشقيها التقليدي والاستيطاني كانت تستند إلى التفوق التكنولوجي وإلى العنف.

ويُلاحظ أن العلاقة بين الدولة الإمبريالية الراعية والجيب الاستيطاني تستمر، حتى بعد «إعلان استقلال» الدولة الاستيطانية، فهذه الدولة ترى نفسها جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الحضاري الغربي. والجيبان الاستيطانيان في إسرائيل وجنوب إفريقية يتصوران أنهما امتداد للحضارة الغربية في وسط إفريقية وآسية وأن وجودهما في هذا الموقع الجغرافي هو وجود عرضي، فهما فيه ولكنهما ليسا منه، وذلك لأنها جزء من التاريخ الأوربي. فإذا كان الوضع الجغرافي (المناخ المعتدل والمنطقة الساحلية) هو محاولة للتقرب من أوربة، فالوضع الثقافي هو محاولة الإبقاء على نوع من الالتحام العضوي. وفي جنوب إفريقية العنصرية كان السكان يُقسمون بشكلٍ حادٍ إلى بيضٍ تراثهم الثقافي غربي وسود تراثهم الثقافي إفريقي. أما في إسرائيل، فيُقسم السكان إلى يهود وعرب، واليهود حسب بعض التصورات ساميون، ومع هذا فهم ينظرون إلى أنفسهم غربيين بالدرجة الأولى. وقد اختار موشي ديان جنوب إفريقية للكشف عن مخاوف المؤسسة الحاكمة الصهيونية في

إسرائيل من الشرق والشرقيين. ففي المؤتمر السنوي للاتحاد الصهيوني في جنوب إفريقية عام ١٩٧٤، وصف ديان ارتفاع عدد المهاجرين من اليهود الشرقيين على عدد اليهود المهاجرين من الدول الغربية بأنه أكبر مشكلة تواجه إسرائيل، وناشد ديان أعضاء المؤتمر أن يمدوا يد المساعدة لحل المشكلة السكانية لإسرائيل بالهجرة إلى إسرائيل.

إلا أن العلاقة بين الوطن الأم والدولة الاستيطانية لا تتسم بالمودة دائماً، فرغم ادعاء الرابطة الحضارية تظل العلاقة مع الوطن الأم علاقةً نفعية. فالدولة الاستيطانية دولة وظيفية يستند وجودها إلى وظيفتها، فإن فَقَدت وظيفتها أو أصبحت تكاليف دعمها أعلى من عائدها فَقَدت مبررات وجودها (كما حدث مع كل الجيوب الاستيطانية ومنها جنوب إفريقية). وعادةً ما يحدث الصدام بين الدولة الاستعمارية الراعية والجيب الاستيطاني بسبب اختلاف رقعة المصالح. فالدولة الراعية لها مصالح عالمية عريضة، أما الجيب الاستيطاني فمصالحه محلية ضيقة. وأحياناً يأخذ التوتر شكل مواجهة مسلحة (حرب بريطانية مع البوير، المواجهة العسكرية بين حكومة الانتداب البريطاني وبعض المنظمات العسكرية الصهيونية، المواجهة العسكرية بين الحكومة الفرنسية والمستوطنين الفرنسيين في الجزائر)، أو مواجهة سياسية (موقف الدول الغربية من جنوب إفريقية العنصرية، التوتر بين الولايات المتحدة وإسرائيل إبان حرب ١٩٥٦).

ومع هذا تبقى نقطة تشابه أساسية وهي أن كل الجيوب الاستيطانية التي لم تنجح في إبادة السكان الأصليين كان مصيرها الزوال. فمع بداية التسعينيات تمت تصفية كل الجيوب الاستيطانية في أنحاء العالم، ولم يتبق غير إسرائيل وجنوب إفريقية. وبزوال الجيب الاستيطاني في جنوب إفريقية، لم يبق سوى إسرائيل، الحفرية الأخيرة في نظام قضى وانتهى، وهو جيب استيطاني لم ينجح في إبادة السكان الأصليين الذين لا يزالون يقاومون ويستشهدون. فهل هذا يشير إلى مصير الجيب الاستيطاني الإحلالي الأخير في العالم؟ ألا يمكن القول إن الديباجات اليهودية تهدف إلى طمأنة المستوطنين الصهاينة أنهم أصحاب حقوق يهودية أزلية وأنهم في واقع الأمر لا ينتمون إلى نمط الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الآيل للزوال؟! أليست هذه وسيلة لطرد شبح نهاية إسرائيل الذي يطارد المستوطنين الصهاينة دوماً؟

● السلام ونهاية إسرائيل

يورى أفنيري، الكاتب الصحفي الإسرائيلي، وعضو الكنيست السابق، كان من المستوطنين الصهاينة الذين أدركوا منذ البداية استحالة تحقيق المشروع أو الحلم الصيوني. ولذا كان ينشر منذ الخمسينيات مجلة **هاعولام هزه** (هذا العالم) والتى تخصصت فى توجيه النقد للسياسات الصهيونية. وكان أفنيرى يحذر الصهاينة من مصير ممالك الفرنجة التى لم يبق منها سوى بعض الخرائب. وقد صدر له كتاب بعنوان **إسرائيل بدون صهيونية** (١٩٦٨) عقد فيه مقارنة مستفيضة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية، فإسرائيل مثل ممالك الفرنجة مُحاصَرة عسكرياً لأنها تجاهلت الوجود الفلسطيني ورفضت الاعتراف بأن أرض الميعاد يقطنها العرب منذ مئات السنين. ثم عاد أفنيري إلى الموضوع نفسه، عام ١٩٨٣، بعد الغزو الصهيوني للبنان، في مقال نشر في **هاعولام هزه** بعنوان «ماذا ستكون النهاية» (ولنلاحظ أنه يتحدث عن نهاية إسرائيل، هذا الموضوع الذي لايجرؤ عربي على الاقتراب منه) فأشار إلى أن ممالك الفرنجة احتلت رقعة من الأرض أوسع من تلك التي احتلتها الدولة الصهيونية، وأن الفرنجة كانوا قادرين على كل شيء إلا العيش في سلام، لأن الحلول الوسط والتعايش السلمي كانا غريبين على التكوين الأساسي للحركة. وحينما كان جيل جديد يطالب بالسلام كانت مجهوداتهم تضيع سدى مع قدوم تيارات جديدة من المستوطنين، الأمر الذي يعني أن ممالك الفرنجة لم تفقد قط طابعها الاستيطاني. كما أن المؤسسة العسكرية الاقتصادية للفرنجة قامت بدور فعال في القضاء على محاولات السلام، فاستمر التوسع الفرنجي على مدى جيل أو جيلين. ثم بدأ الإرهاق يحل بهم، وزاد التوتر بين المسيحيين الفرنجة من جهة وأبناء الطوائف المسيحية الشرقية من جهة أخرى، الأمر الذي أضعف مجتمع الفرنجة الاستيطاني، كما ضعف الدعم المالي والسكاني من الغرب. وفي الوقت نفسه، بدأ بعث إسلامي جديد، وبدأت الحركة للإجهاز على ممالك الفرنجة، فأوجد المسلمون طرقاً تجارية بديلة عن تلك التي استولى عليها الفرنجة. وبعد موت الأجيال الأولى من أعضاء النخبة في الممالك، حل محلهم ورثة ضعفاء في وقت ظهرت فيه سلسلة من القادة المسلمين العظماء ابتداءً من صلاح الدين ذي الشخصية الأسطورية حتى الظاهر بيبرس. وظل ميزان القوى يميل لغير صالح الفرنجة، ولذا لم يكن هناك ما يوقف هزيمتهم ونهايتهم ونهاية الممالك الصليبية!

وحينما اندلعت انتفاضة عام ١٩٨٧ كتب أفنيري مقالاً بعنوان «الضربة القاضية» يبين فيه أنه على الرغم من أن القوات الإسرائيلية تقوم بالبطش بالفلسطينين، إلا أن استمرار الانتفاضة هو فى حد ذاته دليل على انتصار الفلسطينين وعلى عجز القوات الإسرائيلية أن تخمدها، ولذا كان لابد من الالتفاف حولها من خلال توقيع اتفاقية أوسلو وماتبعها من اتفاقيات سلام.

ويعد أفنيري واحداً من أهم الكتاب الصحفيين الإسرائيلين الذين يرصدون الواقع الإسرائيلي دون أن تغشى عيونهم أيُّ غشاوات صهيونية. وفى مقال له كتبه مؤخراً بعنوان «الغائب الأكبر» (المشهد الإسرائيلى ٢١/٣/٢٠٠٦) يعود أفنيري إلى الموضوعات نفسها ويبين أن كلمة «سلام» أصبحت كلمة منبوذة فى المعجم الصهيوني، فلايمكن لأي سياسي فى إسرائيل استخدامها. وللبرهنة على رأيه يستعرض أفنيري موقف الأحزاب الإسرائيلية، الواحد تلو الآخر، من قضية السلام. فيشير إلى حزب كديما الذي يتحدث «عن الأمل، الأمل، الأمل، دون أن يشرح عن أي أمل يتحدث»، والذى «يتحدث عن «القوة» وعن «احتمال اتخاذ خطوة سياسية. السلام يوك»، أى لاحديث عن السلام. أما حزب الليكود فمن الواضح أنه لا يتحدث عن السلام قط، فأكثر ما يعرفه بنيامين نتنياهو هو بث الرعب فى قلوب الجميع. «ولذا فهو يخرج من مخزن السلع البالية بعض الجنرالات المستعملة، الذين يشهدون على أن حماس والسلطة الفلسطينية هما تهديد استراتيجي لوجود إسرائيل». وقد أضاف لكل هذا الآن قنبلة إيران المخفية (التي لم تصنع بعد!)

ويرى أفنيري أن أكثرهم تسلية هو حزب ميرتس الذى كان يعد في الماضي من أهم الأحزاب العلمانية الداعية للحوار والسلام. ولكن فى المعركة الانتخابية الأخيرة اختلف الوضع تماماً، «فحملته الرئيسية تظهر رجالاً ونساء يغرزون الأوراق في حائط المبكى. يتمنون أمنيات: امرأة تتمنى الحصول على لقب جامعي، رجل يتمنى الزواج من رجل، جدّ يتمنى الحصول على مال لشراء هدايا لأحفاده، مسيحية تتمنى بأن يعترف بها يهوديةً، أم تتمنى إرسال أطفالها إلى روضة الأطفال، امرأة تتمنى الطلاق. وما هو الأمر الذي لا يتمناه أحد، حسب رأي إعلاميي ميرتس؟ لقد أصبتم: السلام».

يستنتج أفنيري من كل هذا أن معظم المستوطنين الصهاينة في الوقت الحالي «ينظرون إلى السلام أمراً خيالياً، لا أساس له على أرض الواقع. وأن الحزب الذي يتحدث عن السلام يعيش في عالم الهذيان. الأنكى من ذلك أنه يمكن النظر إليه حزباً «يحب العرب». وما الذي يمكنه أن يكون أفظع من ذلك؟

ثم ينتقل أفنيري إلى الحديث عمّا أسميه الإجماع الصهيوني، فيقول كل الأحزاب الإسرائيلية تطالب بدولة يهودية فيها أغلبية يهودية كبيرة، وتؤيد الانسحاب ورسم حدود إسرائيل الدائمة من طرف واحد، وهي حدود «ستضم الأراضي المعزولة بين الجدار وبين الخط الأخضر. إضافة إلى ذلك فإنها تضم غور الأردن؛ القدس الكبرى التي تشمل كتلة معاليه أدوميم والمنطقة الواقعة بينها وبين المدينة (من خلال التنازل عن بعض الأحياء العربية المكتظة)؛ كتلة المستوطنات في أريئيل، ألفي منشي، موديعين عيليت وغوش عتصيون؛ و«مناطق أمنية خاصة». ويؤكد أولمرت على عدم رسم خارطة واضحة، إذ سيكون من غير الواضح إلى أين سيتم نقل حدود الكتل الاستيطانية. لكن من الواضح أن النية هي ضم أكثر من نصف الضفة الغربية. ويذهب نتنياهو إلى أبعد من هذا فهو يرى أن مثل هذه الحدود «خيانة بحتة، واستسلام مخز للعرب». ويرسم الليكود بالذات خارطة تمت إزاحة الجدار فيها إلى قلب الضفة الغربية.

هذه هي الصورة التي يرسمها يوري أفنيري للعقل الإسرائيلي بكل نتوئها وتعرجاتها وتفاصيلها، وهي نتوءتها وتعرجات وتفاصيل لاتغير من النمط الأساسي، وهي أن المستوطنين الصهاينة، شأنهم شأن المستوطنين الفرنجة، هيمن عليهم الهاجس الأمني ولم يعد في مقدورهم التفكير في السلام، فحالة الحرب أصبحت «حالة عقلية» متغلغلة في تفكيرهم ووجدانهم وخريطتهم الإدراكية. وهي حالة لها أساس واقعي فقد سرقوا الأرض وطردوا سكانها وظنوا أن الأمر قد خلص لهم وأن هؤلاء السكان الأصليين قد رضوا بمصيرهم ورضخوا له. ولكن المقاومة الفلسطينية بينت لهم خطأهم، وبدلاً من التعامل مع الواقع، ظنوا أن مالم يؤخذ بالقوة، يؤخذ بمزيد من القوة (على حد قول شارون). ومن هنا جاءت برامج الأحزاب التي خلت من كلمة «سلام» التي ابتعد عنها الجميع في معركتهم

الانتخابية كما يبتعدون عن النار (على حد قول أفنيري). ومع هذا لايزال بعضٌ في العالم العربي والغربي يتحدث عن السلام وضرورة الجلوس على مائدة المفاوضات مع حكومة المستوطنين الصهاينة الذين يتحاشون استخدام كلمة «سلام».

والله أعلم.



مستخلص

دراسةٌ ديموجرافية واجتماعية وثقافية عن واقع الصهيونية واليهود في فلسطين.

قسم المؤلف كتابه إلى ستة عشر فصلاً وتناولها بعد المقدمة على النحو الآتي: في الفصل الأول (الديموجرافية اليهودية) وظهور الصهيونية وتعداد اليهود، والفصل الثاني (الهجرة والنزوح) والاستيطان والانعزالية اليهودية، والفصل الثالث (جذور الاستعمار الاستيطاني الصهيونية) قبل بلفور وبعده ووعد بوش، والفصل الرابع (صراع المصطلحات والمفاهيم) وموضع الإرهاب في الخطاب الصهيوني والمقاومة الفلسطينية والعنف الصهيوني ومصطلحات "عبري ويهودي وصهيوني وإسرائيلي" والتراث اليهودي المسيحي، والفصل الخامس (الإعلام الصهيوني) والصورة المجازية والحقيقية، واستراتيجية الإعلام الصهيوني، والفصل السادس (خرافة القومية اليهودية) وتعريف الصهاينة لتلك القومية، ويهود العالم الإسلامي، واليهود الإصلاحيون المحافظون، والتناقض الديني العلماني، وخرافة الشعب اليهودي الواحد، ويهود اليمن الضحايا في أرض الميعاد، والفصل السابع (خرافة الهوية اليهودية) ومن هو اليهودي وتهويد العلماني وأتون الصهر الإسرائيلي، وأسطورة الوطن الأصلي، والفصل الثامن (خرافة الشخصية اليهودية) وما يتعلق بها من النزعة المادية واللذة والشذوذ والإباحية والعنف، والفصل التاسع (ثقافات الجماعات اليهودية) واستقلال الثقافة اليهودية ولغاتها وأزياؤها ومتاحفها، والفصل العاشر (الإدراك الصهيوني للواقع) وخريطته وموقع العرب فيها ومستوطنات الأشباح وخارطة الطريق والمفهوم الإسرائيلي للسلام، والفصل الحادي عشر (رحلة في العقل الإسرائيلي) بين اليساريين والعبرانيين الجدد والاعترافات وتساقط الأساطير وحرب الأغاني، والفصل الثاني عشر (العداء لليهود واليهودية) وإشكالية معاداة اليهود في الغرب والشرق وأسبابها وتهويد المجتمع ومعاداة السامية وكراهية اليهودي لنفسه، والفصل الثالث عشر (الصهيونية والنازية) والنازيون الجدد وهتلر مؤسس الدولة الصهيونية وتجارة الهولوكوست، والفصل الرابع عشر (خرافة البروتوكولات) وكونها وثيقة مزيفةً وساذجةً وأسباب شيوعها، والفصل الخامس عشر (ولكنه ضحك كالبكاء) وأعاجيب إسرائيل، والفصل السادس عشر (نهاية إسرائيل) والقلق من ذلك والمشروعان الصليبي والصهيوني والوجدان الصهيوني ومصير الصليبيين.

Abstract

A demographic, social and cultural study of the reality of Zionism and Judaism in Palestine.

The author divides his book into 16 chapters. After an introduction, they go as follows: *Chapter I*, "Judaic Demography" is about the appearance of Zionism and the count of Jews; *Chapter II*, "Migration and Evacuation", and Judaic settlement and seclusion; *Chapter III*, "Origins of Zionism's Settlement Colonialism", before and after Balfour Promise and Bush Promise; *Chapter IV*, "The Struggle of Terms and Concepts", and the site of terrorism in the Zionistic discourse, the Palestinian Resistance and the Zionistic violence, and the terms of 'Hebrew, Judaic, Zionistic and Israeli" and the Judaic/Christian heritage; *Chapter V*, "Zionistic Information" and the figurative and realistic image and the strategy of the Zionistic information; *Chapter VI*, "The Superstition of the Judaic Nationalism" and the Zionists' definition of that Nationality, the Jews of the Islamic World, the Reformative and Conservative Jews, the religious-secular contradiction, the superstition of the Single Judaic People, the Yemeni Jews, who are the victims of the Promise Land; *Chapter VII*, "The Superstition of the Judaic Identity", and who might be a Jew, Judaizing the secular, the furnace of the Israeli melting and the legend of the original homeland; *Chapter VIII*, "The Superstition of the Judaic Character" and the related material tendency, homosexuality, libertinism and violence; *Chapter IX*, "Cultures of Judaic Communities", and the autonomy of the Judaic culture, languages, forms and museums; *Chapter X*, "The Zionistic Realization of Reality", its map and the site of the Arabs in it, the settlements of ghosts, the Road Map and the Israeli concept of peace; *Chapter XI*, "A Journey in the Israeli Mind" between leftists and new Hebrews, confessions, the collapse of legends and the war of songs; *Chapter XII*, "Hostility Toward Jews and Judaism", the problematic of antagonizing the Jews of the Occident and the Orient and the reasons leading to it, judaizing the society and antagonizing Semitism and the Jew's hatred of him/herself; *Chapter XIII*, "Zionism and Nazism", and the new Nazis, Hitler, the founder of the Zionistic State and the trade of the Holocaust; *Chapter XIV*, "The Protocols Superstition", which is really a forged and naïve document, and the causes lying behind its circulation; *Chapter XV*, "But it is Laughter that Mimics Weeping!" and the wonders of Israel, and *Chapter XVI*, "The End of Israel", and the anxiety thereof, the two crusade-Zionistic projects, the Zionistic sentiment and the destiny of crusaders.

عبد الوهاب المسيري

متخصص بالدراسات الصهيونية

من مواليد دمنهور بمصر العربية ١٩٣٨م

الأعمال السابقة والحالية

- رئيس وحدة الفكر الصهيوني وعضو مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.
- مستشار ثقافي للوفد الدائم بجامعة الدول العربية في هيئة الأمم المتحدة.
- أستاذ الأدب الإنكليزي والمقارن بجامعات عين شمس والملك سعود والكويت.
- مستشار أكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن.
- عضو مجلس الأمناء لجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية؛ ليسبرج فيرجينيا.

له مؤلفات متميزة كثيرة بالعربية والإنكليزية تتناول بحوثاً عن اليهودية والصهيونية وتاريخهما وفكرهما وأزماتهما وإشكاليات العنف والتحيُّز القائمة فيهما.

ZIONISM AND THE SPIDER THREADS

Al-Ṣahyunīyah wa-Khuyūṭ al-'Ankabūt

Dr. 'Abd al-Wahhāb al-Masīrī

ماذا يريد المؤلف أن يقول في كتابه هذا؟

هل يطابق عنوان الكتاب مضمونه؟

هل يستشعر المؤلف المستقبل بناء على أوهام وتكهنات، أم على معطيات وحجج منطقيّة؟

ما رأيه بالهجرة اليهودية؟ وماذا يقول عن جذور الاستيطان؟

وما طبيعة الإعلام الصهيوني؟ وهل القومية اليهودية خرافة؟

وماذا عن الهوية اليهودية والشخصية اليهودية؟

وكيف يتعامل الصهاينة مع الواقع؟..

وتوقف الكاتب عند العقل الإسرائيلي وقارن بين الصهيونية والنازية وأشار إلى بروتوكولات حكماء صهيون.. وانتهى إلى نتائج عديدة.

الكاتب متخصص بالدراسات اليهودية، وهو صاحب مؤلفات بها.



ISBN 1-59239-566-X

